

الألف
كتاب
الشارف
٢٧٩

نويل ماللوم
البوسنة

ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



Bibliotheca Alexandrina

014290

البوستة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

البوينة

تأليف
نويل مالكوم

ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد



المكتبة الوطنية للمحافظة العامة

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة للكتاب :

B O S N I A

A SHORT HISTORY

by

Noel Malcolm

فهرس

الموضوع	الصفحة
تعريف المؤلف والمترجم	٩
كلمة المترجم	١١
الاعتراف بالفضل	١٧
ملاحظة حول الأسماء وطريقة النطق	١٩
مقدمة	٣٥
الفصل الأول	
الأجناس والأساطير والأصول البوسنية حتى ١١٨٠	٣١
الفصل الثاني	
الدولة البوسنية القروسطية	٤٤
الفصل الثالث	
الكنيسة البوسنية	٥٩
الفصل الرابع	
الحرب والنظام العثماني (١٤٦٣ - ١٦٠٦)	٧٧
الفصل الخامس	
اعتناق البوسنة الاسلام	٨٦
الفصل السادس	
الصرب والأفلاق	١٠٦

الفصل السابع

- الحرب والشئون السياسية في البوسنة العثمانية
١١٩ (١٨١٥ - ١٦٠٦)

الفصل الثامن

- الحياة الاقتصادية والثقافة والمجتمع في البوسنة
١٣١ العثمانية (١٨١٥ - ١٦٠٦)

الفصل التاسع

- يهود وغجر البوسنة ١٤٦

الفصل العاشر

- المقاومة والاصلاح (١٨٧٨ - ١٨١٥) ١٥٩

الفصل الحادى عشر

- البوسنة تحت الحكم النمساوى المجرى (١٨٧٨ - ١٩١٤) ١٧٨

الفصل الثانى عشر

- الحرب والمملكة : البوسنة (١٩١٤ - ١٩٤١) ٢٠٠

الفصل الثالث عشر

- البوسنة والحرب العالمية الثانية (١٩٤١ - ١٩٤٥) ٢١٩

الفصل الرابع عشر

- البوسنة فى يوغوسلافيا تيتو (١٩٤٥ - ١٩٨٩) ٢٤٠

الفصل الخامس عشر

- البوسنة ومنية يوغوسلافيا (١٩٨٨ - ١٩٩٢) ٢٦١

الفصل السادس عشر

- تدمير البوسنة (١٩٩٢ - ١٩٩٣) ٢٨٤

- معجم توضيحي ٣٠٥

- الهوامش ٣١٢

- نبت المراجع ٣٦٣

« نفع البوسنة في قلب الحضارات التاريخية العظمى ومن العسير كتابة تاريخها ، لأنه يحتاج الى عدة لغات ومعرفة حوادث غاية في التعقيد » . وبالنظر الى كارثة البوسنة اليوم ، فانه يحتاج أيضا لفهم لعالم ما بعد الحرب الباردة . وان تجميع كل هذه الموصفات في كتاب يمكن قراءته فهو مجهود عظيم لايفدر عليه الا صناديد مثل نويل مالكوم فهو يتغوف على نفسه هنا ، ولا توجد صفحة من هذا الكتاب في غير موضعها . بدءا من بينات الحقائق وحتى الحكم الأخلاقي في النهاية » .

نورمان ستون

المؤلف

ولد نوبل مالكوم في ١٩٥٦ ، وتلقى تعليمه في مدرسة ايتون وجامعة كمبريدج ، حيث حصل على مرتبة الشرف ودرجة الدكتوراه في التاريخ . وهو زميل كليتي جونفيل وكايوس في جامعة كمبريدج من عام ١٩٨١ حتى ١٩٨٨ ، ثم أصبح بعد ذلك محرر الشئون الخارجية بجريدة السبكتاتور The Spectator . وحاليا يحرق عموده السياسي في جريدة الديلي تلجراف . وهو يعيش في لندن ، ويعكف حاليا على كتابة تاريخ حياة توماس هوبز Thomas Hobbes .

المترجم

ولد بالقاهرة وتخرج في كلية المعلمين العليا الادبية عام ١٩٢٩ . اشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية عام ١٩٥١ ، فمديرا للمركز الرئيسي للتدريب بمنشية البكرى عام ١٩٦٣ . شغل بأداب العربية والانجليزية والفرنسية منذ خدائته وانضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ . حاز جائزة الدولة التشجيعية في الترجمة عام ١٩٨١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى . عنى بنقل أمهات الكتب الانجليزية وبعض الفرنسية : في التاريخ ، معالم تاريخ الانسانية لولز وصنوه ماجر تاريخ العالم ، وفي تاريخ الحضارات ، حضارة الاسلام (جرونباوم) ، الحضارة البيزنطية (رانسيمان) ، الحضارة الهلنستية (تارن) ، ميلاد العصور الوسطى (مورس) ، اضمحلال العصور الوسطى (هوزنجا) ،

فى علم النفس والتربية ، مدخل الى علم النفس الحديث
(زانجويل) ، ثلاثية أرنولد جزل فى تربية الأطفال :
الحضين والطفل - الطفل من الخامسة الى العاشرة -
الشباب ، الطفولة وما بعدها (سوزان أيزاكس) ،
سلوك الأطفال (فرنسيس ايلج) ، فى السياسة
ومتفرقات أخرى ، آسيا والسيطرة الغربية (بانيكار) ،
حول منع الحرب (جون استراتشى) ، أعلام وأفكار
(هويزنجا) ، التاريخ وكيف يفسرونه (ويدجرى) ،
التربية عن طريق الفن (هربرت ريد) ، وللأطفال ،
أليس فى أرض العجائب *

كلمة المترجم

هذا الكتاب يؤرخ لأمة عقدت نفسياتها بالقتال والحرب ، وعاشت تاريخها الطويل مدى ستة قرون أو تزيد في مضیعة لجهودها البشرية وتبديد لها ، في آتون الحديد والنار ، تريد حق قومية لها ، والقومية عصبية ، ولكن عصبية هؤلاء القوم كانت من النوع الدامي المدمر ، من النوع الذى يريد أن يستأصل شأفة كل من اعترضه ولو أطفه اعتراض وأن يجتثه من الأرض اجتثاثا .

عندما اشتراء حفيدى الدكتور حاتم توفيق أثناء رحلة له ببلاد الانجليز ، سرنى أنه وقع على كتاب مشكلة الساعة . فأقبلت على الاطلاع عليه بطريقة الهوينى ، والأحداث التى نحدث ببلاد البلقان دامية شائكة . وتذكرت ما قاله المؤرخ الانجليزى هـ . ج . ولز فى كتابه المعالم (*) عن البلقان وأنها عويصة المشكلات لا قبل لأحد بحلها . لم أعر ذلك الكلام كثيراً من الاهتمام . حتى عام ١٩٩١ عندما بدا البلقان على حقيقته : نار وشرر ولهب وعداء بين اخوة فى العرق والدم ، ولكن الاحن (الأحقاد) تنور بينهم لسبب لا يدريه الا الراسخون فى العلم والباحثون وراء أسباب الأمور . وأول سبب ظهر لى أن هذه الأمم ذات الأصل الواحد القادمة من شمال أوروبا اختلفت عند حلولها بديار البلقان مزاجها : فاتجه بعضها الى مسيحية مصطبغة بالصباغ المانوى ، فهي تنكر الصلب ولا تعرف بالصليب والأيقونات . وأبناء عمومتهم الآخرون تأثروا ببيئة وعقيدتها فكان الصرب الأرثوذكس ، والفرقة الثالثة المدعوة بالكروات كانت أقرب الى روما موقفاً فاتخذت مذهبها الكاثوليكي سنة ومنهاجا .

ومن هنا بدأت الشحنة وبدأ التاريخ المعقد . وزاد فى أوار الجحيم باعد الشقة ووعورة البلاد وكثرة ما فيها من آكام وتلال وجبال .

(*) انظر هـ . ج . ولز معالم تاريخ الانسانية للمترجم ، طبعة هيئة الكتاب

١٩٩٤ .

وكلما تقادم الزمن تعمقت العداوات والحزازات وزادت شقة الخلاف والتباعد .

وفى العصر الحديث ، لم يفهم الأوربيون حقيقة الوضع ، أو أنهم لغاية فى نفس يعقوب ، تظاهروا بالغباء . مثال ذلك أن جون ميجور ، رئيس وزراء بريطانيا ، كتب الى وزير خارجيته دوجلاس هيرد فى مايو ١٩٩٣ موضحا أسباب احجام الحكومة البريطانية عن نصره المظلومين فى البوسنة والهرسك وكوسوفو ، وهى تشهد مصارع مئات الألوف منهم وتهجير المئات الآخرين ، ودمار مدنيهم ومقدساتهم ، وانتهاك أعراض عشرات الآلاف من نسايتهم وافناءهم بقذائف الصرب والكروات الذين تنهال عليهم أسلحة الغرب جزافا :

١ - لا نوافق الآن كما أننا لن نوافق فى المستقبل على تزويده مسلمى البوسنة والهرسك بالسلاح أو تدريبهم على استخدامه .

٢ - اننا سنواصل دعمنا الحازم لابقاء حظر بيع السلاح المفروض من قبل الأمم المتحدة رغم معلوماتنا الموثقة الواردة عن دعم دول اليونان وروسيا وبلغاريا للجيش الصربى ، وقيامهم بتدريبه وتزويده بالسلاح والمعلومات ، فضلا عن قيام ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتى الفاتيكان بالدور المماثل لدعم كرواتيا والقوات الكرواتية فى البوسنة .

٣ - يتعين علينا اتباع هذه السياسة حتى لحظة الوصول الى الهدف النهائى وهو تقسيم جمهورية البوسنة والهرسك ، ومنع قيام الدولة الإسلامية فى أوروبا .

٤ - يجب أن نؤكد ضرورة اخفاء حقيقة التحركات السياسية الغربية وبأى ثمن عن كل الدول التى يمكن أن نسميها بالإسلامية ، بالذات عن تركيا فيما يتعلق بهذه المنطقة ، الى أن تهدأ الأمور فى يوغوسلافيا السابقة ، ومن أجل هذا السبب نفسه يتعين علينا الاستمرار فى الخدعة التى سمينها بخطبة فانس - أوين لاحتلال السلام بهدف عرقلة كل التحركات الى أن نقضى على دولة البوسنة والهرسك ويتم تهجير المسلمين منها « (*) » .

(*) انظر كتاب « قضية البوسنة ، دروس وعبر » ، تأليف اشرف المهداوى - مطبع دار الشواف بالرياض ، ص ١٤ .

ولا شك في أن منطقة البلقان تختلف - في بعض جوانبها الاجتماعية وخلفيتها التاريخية - عن كثير من مناطق العالم التي وصلتها الرسالة الإسلامية ونشطت بها قروبا من الزمن . ان جذور هذه الخلفية التاريخية ترتد في لبها الى تأثير الأديان المنتشرة في المنطقة كما أسلفنا ، وخير دليل على ما ذهبنا إليه وجود صراع مرير بين قبائل البلقان - رغم انحدارها في الجملة - من أصل صقلي (سلافي) واحد .

واليكم ملخصا لما ورد بعنوان « البوسنة والهرسك » في دائرة معارف ايفريمان Everyman : هي ولاية من ولايات يوغوسلافيا . ومساحتها الكلية ١٩٧٦٨ ميلا مربعا ، كما أن الشطر الأعظم منها يدخل في حوض الدانوب . تكاد كلها أن تكون جبلية وعرة ، والألب الدينازية المطلة على الأدرياتى هي سلسلة الجبال الرئيسية فيها . والأنهار الرئيسية بها هي نهر سافا في البوسنة ونهر ناريتفا في الهرسك . وفي البوسنة تعطى الغابات على منحدرات الألب الدينازية قدرا وفيرا من الأخشاب ، كما أن كلاً المراعى من نوع طيب جدا ، كما يزرع القمح ، والشعير ، والذرة بمقادير كافية للاستهلاك المحلي ، بينما يزرع التبغ والكروم في أقصى الجنوب . وتزرع الفاكهة أيضا الى حد كبير ، كما أن البرقوق هو أعظم صادرات الفاكهة . وهناك تجارة ضخمة بين تركيا وبين هاتين الولايتين . وفي عهد الادارة النمساوية السابقة أنشئت خطوط السكك الحديدية لتتصل بخطوط سكك حديد المجر ، كما أنشئت المواصلات البريدية والبرقية . ولم يبذل النمساويون الا أقل الجهد في حل الصعوبات الزراعية بالبوسنة ، بيد أن كثيرا من الفلاحين أصبحوا الآن يسلكون أراضيهم بحكم حقوق الارث ، بينما وضعت الترتيبات لنظام تبويضات لصالح الملاك السابقين . ويقوم بالبوسنة أيضا بعض مصانع الحديد ، ومناجم الفحم . والتعليم اجبارى في البوسنة والهرسك وذلك ضمن النظام الجارى في سائر أرجاء يوغوسلافيا .

« التاريخ : ان تاريخ هاتين الولايتين انما هو تاريخ البيريا على شاطئ الأدرياتى . ومع هذا فالذى حدث بالنديرج بعد الهجرات السلافونية ، أن الضغط الخارجى وبخاصة من قبل المجر دفعهم الى الاتحاد تحت حاكم واحد ، ولكن تاريخ ذلك الجنس الى زمن متقدم من الفترة الوسطى يمكن اعتباره تاريخ جنس بشرى معتمد على الامبراطورية البيزنطية أو على المجر . وأخيرا في القرن الثالث عشر ، وقعت وقوعا

تاما تحت هيمنة المجر ولصبحت أرضنا مجرية بقضيها وقضيضها .
ولكنها ما لبثت في القرن الرابع عشر أن أصبحت مملكة مستقلة .
ولم تلبث حتى وقعت في النهاية في القرن الخامس عشر في قبضة
الأتراك . وأصبح تاريخها تاريخ جنس مقهور . وسرعان ما استولى
المسلمون في البلاد على السلطة كاملة وترك السكان المسيحيين تحت
رحمتهم الى حد كبير . وفي ١٨٧٥ حدث قوران مسيحي وانضم الى
المسيحيين في السنة التالية كل من الصرب والجبل الأسود ، وأخيرا في
١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على تركيا . وبمقتضى معاهدة برلين في
١٨٤٨ ، سُلِمت الولاياتان الى الاحتلال العسكري النمساوي ، وتم الاحتلال
في ظل ظروف صعبة أقصى صعوبة ، ولكن حدث في ظل الاحتلال
النمساوي تحسين عظيم في مركز البوسنية (البوشناق) . كانت
الولاياتان في ١٩٠٣ قد بلغت درجة أكثر رغدا مما كان منذ أول عهديهما
بالاحتلال التركي قبل ذلك بأربعة عشر عاماً ، وذكرت حركة « تركيا الفتاة »
النمسا أن الإصلاح الجاري حدوده بتركيا ربما أدى الى تقوية شديدة
لميراثها العسكري ، بحيث تستطيع المطالبة بإخلاء المقاطعتين ، وبذلك
يصبح حقا للترك شرعيا ، التقدم وجميع الإصلاحات التي تمت تحت ظل
الادارة النمساوية . وافتتحت النمسا فرصة ضعف روسيا والإعلان
الملزم لاستقلال بلغاريا ، فأعلنت ضم البوسنة والهرسك اليها في الثامن
من أكتوبر ١٩٠٨ ، وهناك نتيجة لذلك الضم النمساوي هي إثارة خلاف
بين الكروات والصرب ، فأما الأولون فقد ساندوا النمسا على أساس من
رابطة الدين ، بينما راح الصرب يعتقدون أنه على أساس انحدار قوة
الترك ، قد كان ينبغي أن تلحق البوسنة بهم لأسباب تاريخية وعرقية ،
وفي اليوم الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ اغتيل ولي العهد الهابسبرجي
بمدينة سراييفو على يد شابين بوسنيين من رعايا النمسا ، وتبع ذلك قيام
الحرب العالمية الأولى ، وفيها لقيت البوسنة آلام ما شهدت من انفجار نار
الحرب بين النمسا والصرب . وبانهيار الامبراطورية النمساوية تحققت
الحلم في قيام اتحاد صربو كرواتى ، وبمقتضى دستور يونيو ١٩٢١
اندمجت خطوط البوسنة بخطط المملكة الجديدة للصرب والكروات
والسلوفيني ، (*) .

فما أشقى هؤلاء القوم الذين يعذبون بعضهم بعضا . . . والتسامح
أكرم وأصلح ! . . .

وظلت أوروبا تتفاحس وتتنكأ بقيادة انجلترا وفرنسا وأمريكا تحثهما على وضع حد للحجارة البشعة ، فلا تحركان ساكنا ، حتى دفعت بعض الدوافع للرئيس كلينتون ، فتدخل في الأمر وجمع الجميع في دايتون حيث أتم صربيا من المعاهدة التي تضع حدا لسفك الدماء ، وتجر الجميع الى احقاق الحق ورفع الإجرام البشع عن مسلمي البوسنة . حتى بدأت الظلمات تغشى اليوم ، ولكن على بطء شديد وتمنع عنيف من صربيا التي يريدها أهله بالقوة والبهتان والعدوان أن يشيدوا صربيا العظمى ، ويستولوا على العالم ليس لهم من بقاع .

ولقد شرعت في قراءة هذا الكتاب ونقله إلى العربية بوصفه موضوع الساعة المائل أمام كل رأى وكل فكر ، بجميع أركان المنظورة . وأنا متوجس شرا من المؤلف ، خوفا من أن يعتمد على طريقة بعض المؤرخين الأوروبيين الى قصر موضوعه على النيل من الاسلام والمسلمين ، جريا على عادة كثير من الصحفيين ، ومن المؤرخين غير المتحيين . ولكني وجدته يتبع طريقة شيخ المؤرخين ببريطانيا في هذا الزمان ، أرنولد توينبي . من احقاق الحق وإزهاق الباطل . وأن أنس من الأشياء لا أنس قوله بصدق في شأن إسرائيل : « لا أدري كيف يمكن أن شعبا مر بأرض أو سكن بها بضعة وسبعين عاما ، أن يدعى ملكيتها وملكية ما جاورها من بلدان ١٩٠٠ » (*) ، على هذا النهج سار المؤلف نويل مالكونم عادلا متوازنا ، يقول كلمة الحق في وجه دوجلاس هيرد ولورد أوين ، وزيري خارجية بلاده وفانس الأمريكي حين ينزعون عن طريق العدل المستقيم . ثم رأيت لا يذم الاسلام والمسلمين ولا يحملهما تبعة أى شيء . وانما يحلل كل شيء تحليلًا منهجيا ، مع الرجوع الدائم الى المراجع الثبوتية والأسانيد الصحيحة المدعمة بالمصادر والتواريخ . انه لا يخشى في قوله الحق لومة لائم اتباعا للمنهج العلمى الصحيح . ومن هنا أدركت أن هذا الكتاب ، بما فيه من مادة علمية صحيحة ، هو الجدير بأن يطلع عليه أبناء الضاد وأتباع الاسلام الذين يضيق بهم وبما يحملون من الحق ، الناس الذين ينوشونهم من بين أيديهم ومن خلفهم .

وبعد طبع الكتاب ونشره بالانجليزية ظلت معركة البوسنة عزيزا ميزان ضيزى ، ينهضم المسلمون وينكل بهم ويقتلهم جماعات وزمرا ، ويدفنههم أحياء وأموانا بالمشات في مدافن جماعية بصورة تشيب لهولها

(*) انظر هـ . ج . ولز . د معالم تاريخ الانسانية ، ، للمترجم ، هيئة الكتاب

الولدان دون أن تتحرك دول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا قادة السياسة الأوروبية ، اللتين حاولتا كف يد أمريكا عن الموضوع كله وتركه تحت أراجيف أكذوبة « فانس - أوين » ، الى أن تنبه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بيل كلينتون فرفض ترهات أوروبا ومجالسها المناققة ، وجمع الجميع بأمريكا في مؤتمر دايتون (ديسمبر ١٩٩٥) ودعاهم الى توقيعات . ثم لاحقهم بالجيوش في عقر دارهم ، حتى اذا رأهم أخذوا يتناوشون وينحنون لالتقاط أسلحتهم أوقفهم عند حدهم وجميعهم في مؤتمر ثان بروما ، حيث أرجعهم الى صوابهم ثم أعادهم لبلادهم ، وأخذ يفك اشتباكاتهم ، وينفذ ما في المعاهدة من الغاء لتقسيم المدن والأراضي والبلدان ووضع كل شيء موضعه الصحيح . ومن عجب أن الصرب كلما أخلت مكانا ليعود لاستلامه المسلمون دمرته وأعملت فيه التفجير والنار . ويطالبونهم بتسليم مجرمي الحرب ليحاكموا في المحكمة المقامة بهولندا ، فيتملص المجرمون وكلهم مجرمون . وعلى كل ، فان الوضع اليوم أفضل كثيرا عن ذي قبل . فلا قتل ولا دفن لمئات ، بل يلزم كل حدوده ، حتى تهدأ النفوس .

ويهمني أن أوجه نظر القارئ الى المعجم التوضيحي الى جانب الفهرس الأبجدي اللذين وضعهما المؤلف خدمة للمادة العلمية بالكتاب .

ويسرنى أن قد أعانتني في هذا الكتاب ابنتي المهندسة شيرين توفيق عزيز التي سجلته لي على شرائط باللغة الانجليزية ، فقامت بترجمته على شرائط بالعربية ، ثم عادت فاستخرجته على جهاز الكمبيوتر ، فلها الشكر والدعاء أن يباركها الله . والى القارئ هذا الكتاب السمع الصادق .

ح . ت . ج .

حي شيراتون المطار

٢٧ مارس ١٩٩٦

الاعتراف بالفضل

ان أعظم ما أنا آسف له هو أنى لم تتح لى فرصة العمل فى مكتبات سراييفو عندما كان ذلك الأمر لا يزال ممكنا . وانى لمدين بالشكر الى هيئات العمل القائمين على تلك المكتبات التى قمت بين أكتافها بكثير من أعمال البحث العلمى اللازم لهذا الكتاب : وهى دار الكتب القومية بباريس ، ومكتبة بودليان بأكسفورد ، والمكتبة البريطانية بلندن ، ومكتبة جامعة كمبريدج ، ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن ، وفوق كل شىء مدرسة الدراسات السلافونية والأوربية الشرقية بلندن . وانى شاكرا بوجه خاص أفضل كل من أنطونى هول وجون لفلاندر وجون لندن وبرانكا ماجاش وجورج ستامكوسكى ، على تلك المساعدة التى بذلوها فى توفير أو البحث عن أماكن تواجد المطبوعات التى يعسر الوصول إليها . كما أنى مدين أيضا بالشكر الى أندرو جواتكين على المساعدة التى أسداها فى عملية معالجة النصوص ، والى مارك والينجيل وكريس بورك على تصميمهم واخراجهم الخرائط لهذا المجلد . وان ما أنا مدين به من دين لمن سبقونى من كتاب حول البوسنة ، سيتجلى بأوفى صورة فى تلك الملاحظات التى أوردتها فى آخر الكتاب ، ولكنى أتمنى أن أذكر بالتنويه الخاص الى الأستاذة البينة الواضحة لجون فاين ، التى أفدت منها فائدة عظيمة . وانى لأحب أن أسجل ديننا على من الشكران لجون يارنولد وسابا رسال الدين وبن كوهين وجورج ستامكوسكى ومايو توبولوفاك على كل ما فعلوه أثناء السنة الماضية لتوفير المعلومات الصحيحة المضبوطة لوسائل الاعلام البريطانية وللعالم كله حول ما كان يجرى حقا بالبوسنة .

نويل مالكوم

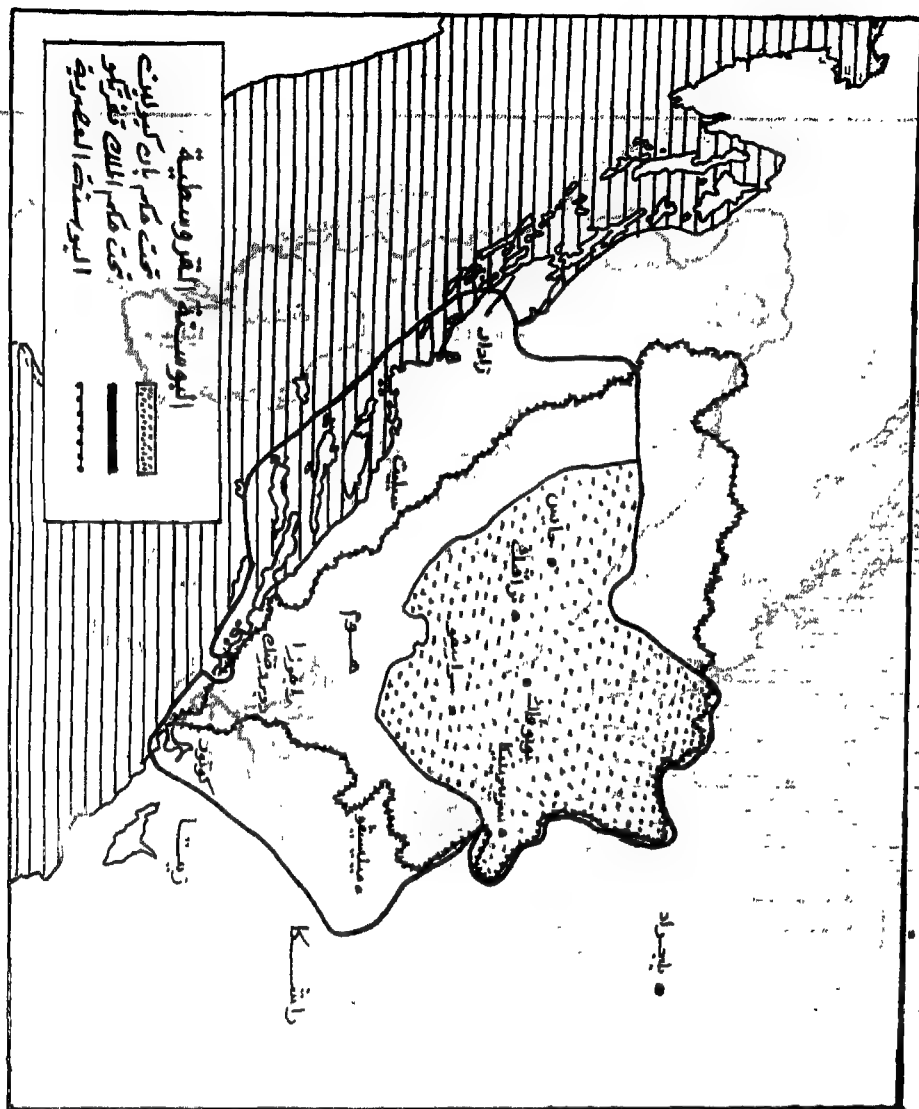
البوسنة - ١٧

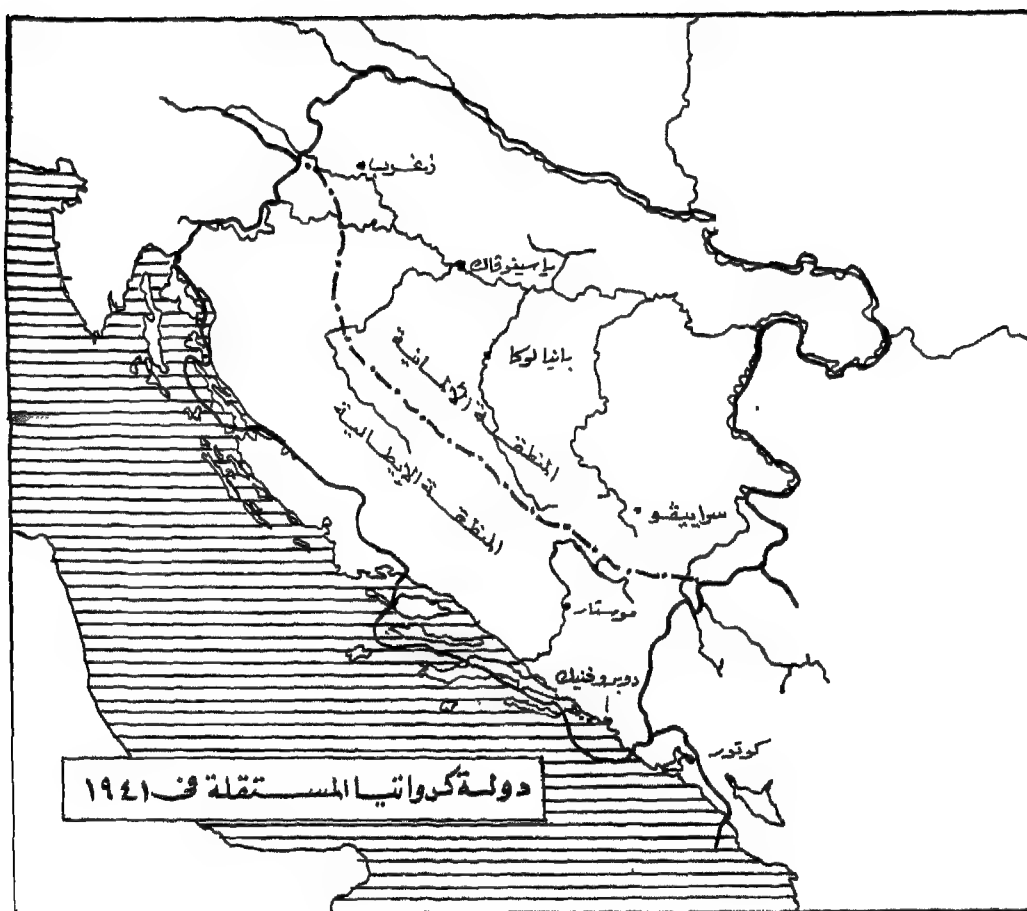
ملاحظة حول الأسماء وطريقة النطق

سيلحظ القراء أنى استخدمت «مصطلح «راجوزا» حتى زمن مبكر من القرن التاسع عشر ، و «دوبروفنيك» بعد ذلك . ولأسباب مماثلة أشرت الى البوسنيين الأرثوذكس والبوسنيين الكاثوليك حتى أخريات القرن التاسع عشر أو أوليات العشرين ، والى الصرب البوسنيين والكروات البوسنيين بعد ذلك . أما أسماء الأقاليم مثل صربيا ، فانها تستخدم بصورة عامة ما لم يكن السياق يدل على خلاف ذلك - للإشارة الى مناطقها الجغرافية فيما بعد ١٩٤٥ . وحيثما استخدمت البوسنة كمصطلح جغرافى ، فان معناها فى العادة كامل الأراضى التى تضمها البوسنة والهرسك . والاستثناءات الوحيدة فى هذا الوضع هى عندما أشير الى « البوسنة الحقة » (وهو أمر معناه : اسقاط الهرسك من الموضوع) ، أو عندما يدل السياق بوضوح على أنى انما أشير الى البوسنة فى تميز بالتباين مع الهرسك .

وعندما يكتب عن كيان متعدد اللغات ومتعدد القوميات كالامبراطورية العثمانية مثلا ، فان من الضروري أن تستخدم مصطلحات مأخوذة من أكثر من لغة واحدة . ولقد جنحت الى استخدام الأشكال التركية للوحدات العامة التابعة للامبراطورية (مثل الدوشرمة) والأشكال الصربوكرواتية للدلالة على تلك التى اما كانت مما تختص به البوسنة ، أو أدمجت فى المصطلحات الجغرافية المحلية (مثل قابيطانية أو سنجقية) . وعند توافر الشكل الانجليزى (مثل « سباهى ») ، فقد استخدمته . وأما فى حالة أسماء الأشخاص فانى حولت للانجليزية عددا قليلا من الأسماء القروسطية من التى جاءت فى وفرة مربكة من الأشكال (مثل سنيغان وسيتيبان وسيتيبان) ، كما أنى حاولت أن ألتزم بشكل أو (فورمة) موحدة لتلك الأسماء العثمانية التى تدمج بها الألقاب (مثل حسين قابطان وسيفوش باشا) .

نويل مالكوم





مقدمة

سيذكر الناس سنس ١٩٩٢ و ١٩٩٣ على أنهما السنستان اللتان دمرت فيهما دولة أودبية • كانت دولة تاريخها السياسى والثقافى مختلف عن مثيلهما فى كل دول أوروبا الأخرى • وتراكبت فيها الأديان الكبرى والقوى العظمى فى التاريخ الأوروبى وامتزجت هناك : امبراطوريات روما وشارلمان والعثمانيين والنمسا والمجر ، فضلا عن المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية واليهودية الاسلام • ولا مرأ فى أن هذه الحقائق وحدها تعد سببا كافيا لدراسة تاريخ البوسنة بوصفها موضعا له أهميته الفريدة • ولكن الحرب التى غمرت بأتونها هذا القطر فى ١٩٩٢ ، أضافت سببين محزنين يدعوان الى دراسة تاريخها دراسة تمحيص وتعمق : فأما أول السببين فهو الحاجة الى فهم أصول ذلك القتال ، وثانيهما هو الحاجة الى تبديد بعض جوانب سوء الفهم ، والخرافات والجهل المطبق بالأمور التى اكتنفت جميع شئون البوسنة وتاريخها •

والثانية من هاتين الحاجتين هى أمسهما بكل تأكيد • ومن المتناقضات العجيبة أن أهم داع يدعو الى دراسة تاريخ البوسنة هو أنه يمكن المرء من أن يرى أن تاريخ البوسنة فى حد ذاته لا يفسر فصول هذه الحرب • ولا شك فى أن الحرب لم تكن لتنشعب لولا أن البوسنة هى ذلك الشئ الغريب الذى كانت ، والذي جعل منها هدفا لأطماع ومصالح خاصة • على أن هذه المطامع كانت موجهة الى البوسنة من خارج الحدود البوسنية • وأعظم عائق حال دون فهم ما كان يحدث إنما هو افتراض أن كل ما حدث فى ذلك القطر جاء نتاجا - طبيعيا وتلقائيا وفى نفس الوقت ضروريا - لقوى تكمن كلها فى تاريخ البوسنة الداخلى • تلك هى الخرافة التى أشيعت نى طول الأرض وعرضها بحرص شديد على لسان الذين تسببوا فى الصراع ، والذين أرادوا أن يجعلونا نعتقد أن ما يفعلونه هم وحملة البنادق من رجالهم لم يتم بأيديهم ، بل على أيدي قوى تاريخية لا سبيل لأحد الى التحكم فيها •

وصدقهم العالم مع الأسف ! وعلى مؤرخي المستقبل أن يحكموا أى الحجج كان لها وزنها حقا فى عقول رجال السياسة فى أوربا وأمريكا ، عندما كانت ردود أفعالهم ازاء القتال الناشب فى البوسنة ، هى اتخاذ سياسات لم تقف عند حد الاخفاق فى حل المشكلة بل زادت بها بالفعل وبالا . والشئ الواضح هو أن عقولهم كانت مملوءة مسبقا بضباب من الجهالة التاريخية . واليكم مثلا الرأى المتروى لرئيس الوزارة البريطانية جون ميجور حيث قال فى مجلس العموم بعد نشوب الحرب بأكثر من سنة كاملة :

« ان أعظم عنصر منفرد يقف وراء ما حدث فى البوسنة هو انهيار الاتحاد السوفييتى وذلك الانضباط الذى فرضه فى يوغوسلافيا القديمة على الأحقاد والكراهيات القديمة . فما كاد ذلك النظام يتوارى عن الأنظار حتى عادت الى الظهور تلك الأحقاد القديمة وشرعنا نرى عواقبها عندما بدأ القتال . نعم ان هناك عوامل جانبية كثيرة ، ولكن ذلك الانهيار كان أعظمها جميعا » . (هان سارد ٢٣/٧/١٩٩٣ عمود ٣٢٤)

ومن العسير علينا أن نعرف من أين نبتدى التعليق على مثل هذا القول فان « الانضباط » المفروض من الاتحاد السوفييتى على يوغوسلافيا انتهى الى نهاية مفاجئة أعدت لها دعاية جيدة فى ١٩٤٨ ، عندما طرد ستالين تيتو من منظمة الكومنفرم . ولعل المستر ميجور كان يحاول الإشارة الى قرار الزعماء الشيوعيين من أمثال سلوبودان ميلوشيفيتش لنسييل ينابيع القومية والوطنية من أجل أغراضهم السياسية الخاصة ، بيد أن هذه العملية كانت ماضية فى طريقها ببلاد الصرب منذ صيف ١٩٨٩ ، قبل « انهيار الاتحاد السوفييتى » ، بسنتين ، كما أنها من نواح كثيرة لم تكن نفترق كثيرا عن استغلال القومية على يد الزعماء السياسيين السابقين داخل النظام الشيوعى مثل نيكولاى تشاوشيسكو . ولا شك فى أن الفكرة الداهية الى أن الشيوعية فى حد ذاتها على وجه الاجمال كانت تقوم بدور « الضابط » العظيم وتضرع القومية تحت قبضتها ، فكرة خاطئة تماما . والحقيقة أن الحكومات الشيوعية كانت اما تنير القومية أو تتولى تحريكها وتوجيهها لأهدافها الخاصة ، واما أن تجعلها تفسد وتصبح أكثر وبالا بإخلق شعب محبط سياسيا يسيطر عليه الاحساس بالاعتراب ، واما أن تأتى بالانئين معا فى غالب الأحيان . وهذا الأثر المزدوج واضح اليوم تماما فى معظم دول شرق أوربا ، حيث تقوم ما تسمى باسم الأحزاب « اليسوية المتطرفة » بجمع الناخبين العاديين الذين أثارت

نفوسهم الرموز الدينية أو التاريخية منذ أيام عصر ما قبل الشيوعية ،
والسياسيين الذين أمضوا شطرا من حياتهم في عضوية الحزب الشيوعي
أو خدمة أمن الدولة • وذلك ، الى حد ما ، هو ما حدث في صربيا أيضا •

ويتجلى الجانب الآخر من الجبل بالحقائق فيما عبر عنه جون ميجور
في هذه الملاحظات التي كررها معظم الزعماء الغربيين في تعليقاتهم على
حرب البوسنة ، ونعني بذلك ادعاء أن كل شيء حدث في البوسنة منذ
ربيع ١٩٩٢ إنما هو تعبير عن « الكراهيات العرقية القديمة » التي تفجرت
من تلقاء نفسها • فأما أن الكراهيات والمنافسات كانت موجودة بأرض
البوسنة فذلك شيء لا ينكره أحد ، وقد بالغ أولئك الكتاب الذين صوروا
البوسنة في السنتين السابقتين على أنها أرض العجائب في الانسجام
الديني الدائم • ولكن نظره أعمق الى تاريخ البوسنة لابد أن تظهر أن
العداوات التي كانت موجودة فعلا لم تكن مطلقة ولا ثابتة كما أنها لم تكن
نتائج لا مفر منها لخلط مجتمعات دينية متنوعة مع بعضها • لم يكن
الأساس الرئيسي للعداوة عرقيا ولا دينيا وإنما هو اقتصادي ناشئ عن
الامتعاض الذي كانت تحسه جماعة الفلاحين (الذين كان أغلبهم ، وليس
كلهم من المسيحيين) نحو ملاك الأراضي المسلمين • ولم تكن هذه العداوة
مطلقة قابلة لا يمكن التخفيف منها : فانها كانت تتغير بتغير الظروف
الاقتصادية ، كما كانت أيضا خاضعة للضغوط السياسية التي بدلت
بصورة جوهرية موقف الطبقة مالكة الأراضي أثناء النصف الأول من القرن
التاسع عشر • كما أن العداوات بين المجتمعات الكاثوليكية والأرثوذكسية
كانت أيضا عرضة لمؤثرات متقلبة مثل المنافسات بين رجال الطبقات العليا
للكنهن في الكنائس . والضغوط السياسية من الأقطار المجاورة ،
وهكذا •

ولم تكن العداوات لتقيم لها بنيانا مسديما في نفسيات الناس الذين
كانوا يعيشون بأرض البوسنة ، فانها كانت من ثمار التاريخ ، وكان في
الامكان أن يلهم بها التغبر بتطور التاريخ • فقد تأكلت الأسباب الاقتصادية
للكرهية بفضل التغيرات والاصلاحات قرب نهاية القرن التاسع عشر
وأوائل العشرين ، حتى زالت الى حد كبير • فأما الأسباب الدينية للكرهية
فقد نقصت في النصف الثاني من القرن العشرين بفضل انتشار العلمانية
بأشكالها (سراء منها الطبيعي وغير الطبيعي) • وخلال معظم المدة بعد
١٨٧٨ ، ظلت مختلف الفرق الدينية أو العرقية في البوسنة تعيش معا
بسلام آمنة : فأما حادثتا العنف العظميين بعد ذلك - أثناء الحرب العالمية
الأولى وبعدها مباشرة ، وأثناء سنوات الحرب العالمية الثانية الأربع -

فكانتا استثناءين ، اثارهما وزاد في أوارهما مسببات جاءت من خارج حدود البوسنة . ومنذ ثاني هاتين الحادثتين الرهيبتين ، نشأ وترعرع جيلان كاملان ، هما الغالبية العظمى من السكان البوسنيين ، لا يحملون في صدورهم أية ذكرى شخصية للقتال الذي جرى في تلك الحرب ، ولا يضمرون أية رغبة خاصة في احيائها .

وغنى عن البيان أن من السهل استعراض تاريخ قطر مثل البوسنة والتقاط أمثلة ونماذج الانقسامات الاقليمية والعنف وعدم الضبط، والانضباط . فشواهد ذلك كثيرة قائمة وسيجد القارئ كثيرا منها على صفحات هذا الكتاب . بيد أن التاريخ السنياسى لبوسنة أخريات القرن العشرين لم يدخل في تحديده ما حدث في القرن الثالث عشر أو الثامن عشر . فأما المعلقون الذين يحبون أن يقدموا براهين تاريخية مجموعة في عجلة وتسرع تؤيد ما يسطرون من قول ، فيستطيعون التقاط بضعة أحداث دموية قليلة من الماضي ويقولون : « كان الأمر على الدوام على هذا النحو » . وفي امكان أى امرئ أن يمارس نفس الأسلوب ازاء التاريخ الفرنسى مثلا ، منتقيا الحروب الدينية في القرن السادس عشر والفظائع البربرية التي حدثت يوم مذبحه سانت بارثولوميو ، والثورات الاقليمية الكثيرة الحدوث ، وحرب الفروند ، والمعاملة الوحشية التي عومل بها الهوجونوت في ١٦٨٥ ، والوحشية الرهيبة وعملية -ات الاعدام الجماعى الذي أعقب الثورة الفرنسية ، وعدم النبات الذي ساد سياسات القرن التاسع عشر ، بل حتى قصص التواطؤ مع الغزاة والمقاومة في الحرب العالمية الثانية . لكن لو حدث أن عددا من السياسيين والقادة العسكريين المؤثرين من الخارج ، بدءوا في قذف باريس بفدائف المدفعية الثقيلة غدا ، ما أمكننا أن نقعد مع القاعدين ونقول : « ان ذلك كله نتيجة العداء والكراهيات الفرنسية العتيقة » . بل سيحتاج الأمر منا نظرة تدقيق أكثر لننفحص الأصل والطبيعة الحققة لتلك الكارثة بعينها . ذلك ما حاولنا أيضا فعله في هذا الكتاب .

والميزة العظمى لفرنسا على البوسنة ، هي أن تاريخها معروف معرفة أكيدة في طول العالم وعرضه كما أنه مدروس دراسة عميقة مستفيضة . فأما في حالة البوسنة ، فلسنا نعرف الا النزر اليسير بحيث أصبح من العسير علينا أثناء السننين الأخيرتين أن نميز بين ضباب الجهل وسنار دخان الدعاية المضلل . ألا ترى أن وجود البوسنة نفسه ظل ينكره بعض الكتاب الذين أكدوا بكل ثقة أن « البوسنة لم تكن في يوم من الأيام دولة » . فعندما كلف اللورد أوين بمهمة المفاوضات عن المجموعة الاقتصادية

الأوروبية في يوغوسلافيا عام ١٩٩٢ ، نصحه أحد الكتاب الصحفيين في عموده اليومي بكل ثقة مؤكدا له أن الحدود الداخلية ليوغوسلافيا إنما في حدود ادارية بحتة وأنها تخوم وهمية كالتى فرضها في أفريقيا الحكام الاستعماريون . وكثيرا ما سمعنا بعض هؤلاء الكتاب يدعون أن حدود البوسنة إنما هي اختراع وضعه تيتو ، ولكن الحقيقة هي أن تيتو ببساطة إنما أعاد حدود البوسنة كما كانت في العهد الأخير للإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية . وكما سوف يكتشف القراء فان بعض أجزاء هذه التخوم اخترعت اختراعا في معاهدات تعود الى القرن الثامن عشر ، وأجزاء أخرى عكست حدودا أقدم كثيرا ، مثل التقسيم الفاصل بين البوسنة وصربيا على امتداد نهر الدرينا ، الذى ورد ذكره فيما أورده المؤرخ كيناموس في أخريات القرن الثاني عشر .

ومن الجلى أن المعلومات التاريخية الخاطئة التى رددتها أجهزة الاعلام الأوروبية فى السنتين الأخيرتين قد أثقلت على الموضوع تحت تأثير الأساطير السياسية والقومية التى تدافعت موجاتها من داخل يوغوسلافيا السابقة ، وظل الكروات أكثر من قرن من الزمان يكتبون الكتب التى تحاول أن تثبت أن البوسنيين « فى الحق » كروات ، كما ذهب الصربيون بالمثل وبدون انقطاع الى أن البوسنيين « فى الحق » صربيون . وآخر صيحة بعد ذلك أن الكروات قد ادعوا أن جميع المواطنين الصربيين إنما هم فى الحقيقة « تشيتنيك » (وهى حركة المقاتلين غير النظاميين الصربية المتطرفة) ، كما حاولوا أن يظهروا زعيم التشيتنيك فى الحرب العالمية الثانية ، وهو دراجا ميهايلوفيتش بأنه سفاح للشعوب . ووصفت الدعاية الصربية جميع القوميين الكروات بأنهم « أوستاشا » (وهى حركة متطرفة كرواتية فى الحرب العالمية الثانية) ، كما أنهم عمدوا الى قصة الفرقة العسكرية المسلمة فى الجيش الألمانى ، فنبشوها من قبرها كوسيلة الى الإشارة الى أن المسلمين البوسنيين اما أن يكونوا نازيين أو أصوليين أو يجمعون بين الاثنين . أما الذين وقعوا أسرى فى الوسط من هذه المنازعات كلها وهم المسلمون ودعاة التعددية فى البوسنة ، فقد تركوا ليمنوا أنفسهم بأى خرافة أو أسطورة تعجبهم : أسطورة البوجوميل أو أسطورة السلام والانسجام الدائم فى البوسنة أو أسطورة تينو . وليس فى امكان أى معلق أو مؤرخ أن يختار طريقه بين جميع هذه الأساطير المتناحرة دون أن يحدث بعضا من التكدير المذهبى لجميع الأطراف ، ولن يرضى المرء عن فعل ذلك متى وصل الى أن يعرف وأن يحب ، ليس فقط البوسنة بل أيضا كثيرا من الصفات الخاصة لسكانها . وفى نفس الحين فان وجود نموذج متشابه من الادعاءات والمبررات المتناقضة لا يعنى أن المرء يستطيع الوصول الى

نتيجة دقيقة بمعالجته كل الادعاءات على أنها متساوية والاكتفاء بتحديد معدل الحقيقة في كل منها . وليس عندى أدنى شك بأن عبء مسئولية تدمير البوسنة يقع معظمه بالضرورة على جانب واحد ، وحاولت في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب أن أبرز الأسباب التى دعتنى الى هذا الاعتقاد .

وهناك طريقة مؤكدة تماما لتقييم الادعاءات التاريخية التى يرددها دعاة استخدام العنف الرئيسيون فى البوسنة ، وهى النظر فى كل ما فعلوه لتدمير الدلائل المادية للتاريخ نفسه . فانهم لا يقتصرون فقط على تدمير مستقبل ذلك القطر ، وانما هم أيضا يبذلون جهودا منظمة لمحو ماضيه ، حيث دمرت دار الكتب الوطنية والجامعة فى سراييفو بقنابل حارقة . وأما معهد الدراسات الشرقية ، بما حوى من مجموعة لا يمكن تعويضها من المخطوطات والمواد الأخرى التى توضح التاريخ العثمانى للبوسنة ، فقد دمر هو الآخر بتركيز القصف بالقنابل عليه . وفى كل أرجاء البلاد أزيلت من الوجود جميع المساجد والمآذن بما فى ذلك بعض أبداع نماذج عمارة القرن السادس عشر العثمانية ببلاد البلقان الغربية . ان هذه المباني لم تصب فقط أثناء القتال العارض للاشتباكات العسكرية ، فان بعضها مثل بييلينا (Bijiljina) وبانيا لوكا (Banja Luka) ، لم تكن لازالتها أية علاقة بالقتال اطلاقا . حيث نسقت المساجد بالمتفجرات أثناء الليل ثم أتت عليها البولدوزورات فى اليوم التالى . ولا شك فى أن الناس الذين دبروا وأمروا بتنفيذ هذه الأعمال انما يحبون أن يقولوا ان التاريخ فى جانبهم . ولكن ما يظهرونه بأفعالهم هذه هو أنهم انما يشنون حربا ضد تاريخ وطنهم . وكل ما شئت أن أفعله فى هذا الكتاب انما هو إبراز بعض تفاصيل ذلك التاريخ قبل أن يتم تدمير القطر كله تدميرا تاما .

الفصل الأول

الأجناس والأساطير والأصول البوسنية حتى ١١٨٠

التاريخ العنصرى رأس الداء فى البلقان • وكما سيعلم أى انسان عاش أو مر فى ذلك الجزء من أوروبا ، لا يوجد هناك شئ اسمه ولاية فضلا عن دولة ، متجانسة تجانسا عنصريا • وقل من يستطيع بنزاهة تامة فى شبه جزيرة البلقان أن يدعى لنفسه نقاء تاما فى أسلافه • ومع ذلك فكم من مرة حدث أثناء القرنين الأخيرين ، أن نظريات وهمية عن الهوية العنصرية العرقية سيطرت على السياسات القومية لأراضى البلقان • وثمة سبب أول يدعونا الى دراسة تاريخ تلك المنطقة المبكر ، هو أن تلك الدراسة تمكننا من أن نرى أن من المستحيل ادارة الشؤون السياسية العصرية على أساس الأصول العرقية القديمة ، حتى وان كان صوابا •

وهذا أمر لا يصدق فى أى مكان آخر أكثر مما يصدق فى تاريخ بلاد البوسنة ، وهى قطر كثيرا ما أطلق عليه اسم العالم الأصغر لبلاد البلقان • فليس هناك شئ يمكن أن نسميه بالسحنة النموذجية البوسنية : فهناك مثلا بوسنيون شمر الشعر وآخرون سمر الشعر ، ومنهم من لهم بشرة سمراء مملوءة بالنمش ، ومنهم من يتسمون بضخامة العظام وقصر الأطراف المثقلة بالعضلات • لقد أسهمت جينات ما لا يحصى من الشعوب المختلفة فى تكوين هذه الفسيفساء البشرية • والقطر كله جبل وعمر ، به من الأراضي ما ينراوح بين الغابة الكثيفة والمرتفعات كثة النماء الشجرى والعشبي فى شمال وسط البوسنة ، الى الطبيعة البرية القاحلة جدا الموجودة فى منطقة غرب الهرسك ، وتشققها الأنهار الكثيرة التى لا يصلح معظمها للملاحة • وهناك قطعة ضخمة من الأرض التى لا يمكن اختراقها ومى تقع بين اثنتين من الطرق الرئيسية التى مرت منها موجات الشعوب الغازية ودخلت الي غرب البلقان : الطريق الضبقي الدالماتى الساحلى

وطريق الأرض المنبسطة المنخفضة الذي كان يؤدي من بلجراد جنوبا متخللا صربيا الى مقدونيا وبلغاريا . ولذلك فان الأثر المباشر لتلك الغزوات على البوسنة كان فيما يرجح أقل كثيرا من وقعها على أرض صربيا السهلية الخصيبة أو على المسن الدالماتسية الساحلية الشديدة التعرض لحملات النهب . وترتب على ذلك تراكم أنواع عرقية مختلفة في أرضها ، وهو أثر غير مباشر ، وان كان أقوى من الأثر الأول فيما نرجح ، فكما هو معلوم أن المناطق الجبلية كانت ملاجئ حصينة لمجاميع السكان التي ما كانت الا لتهلك أو تطرد من ديارها في المناطق الأكثر تسطحا . وما على المرء الا أن ينظر بعينه الى بقاء شعب الباسك حتى اليوم على قيد الحياة ببلاد البرانس ، أو الى ذلك المتحف الغني بمفرداته السلالية والعنصرية ، وأعنى به بلاد القوقاز . وفي حالة البوسنة ، تمكن الغزو السلافي في القرنين السادس والسابع من أن يؤسس هوية لغوية ، تمكنت في آخر المطاف من أن تحل محل جميع الأخريات ، ولكن آثار التنوع السلالي العنصري واضحة تماما لكل ذي عين مبصرة .

ومن أجل دواع تتصل باللغة والثقافة ، ومن أجل ما يربو على ألف سنة من التاريخ ، يمكن أن يطلق حقا على سكان البوسنة العصريين أنهم سلافيون . اذ ليس وصول السلاف الى البلقان الا نقطة الابتداء لتاريخ البوسنة . ولكن نقط الابتداء الجديدة لا يمكن أن تكون مطلقة تماما في التاريخ البشري ، ولا بد لنا من أن نعرف أيضا شيئا عن سكان البوسنة الذين وجدهم السلاف يسكنون تلك البلاد عند وصولهم اليها والذين تمكنوا من امتصاصهم فيما بعد .

وأقدم السكان الذين نديننا شيء من العلم بهم هم الاليريون Illyrians ، وهم مجموعة من القبائل كانت تغطي شطرا كبيرا من يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانوا يتحدثون لغة هيدونية ذات ارتباط بالألبانية الحديثة . والقبيلة التي أعارت اسمها لاقليم دالماتيا Dalmatia وهي قبيلة دلماتيا (Delmatia) ، كانت فيما يرجح قد أخذت اسمها من الكلمة الألبانية المطلقة على « الغنم » وهي كلمة دلمى (Delme) . وكانت أرضها تغطي جزءا من غرب البوسنة ، كما أن الحفائر التاريخية تظهر أن القبائل الاليرية كانت من الرعاة مربى الدواب خاصة الأغنام والخنازير والماعز . وهناك قبائل أخرى النفي بها الرومان بينما كانوا ينشرون سلطانهم على الأراضي المجاورة أثناء القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، كانت نحتوى على تجمع مخلص اللىرى كلتى (The Scordisci) ، على الحافة الشمالية الشرقية للبوسنة ، ثم قبيلة من المقاتلين الأشداء في البوسنة الوسطى هي قبيلة

الدياستينين (Daesitates) ، وهم الذين أخذت آخر تمرداتهم على الإمبراطورية الرومانية بشدة وقسوة في العام التاسع للميلاد . ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً أصبحت جميع أراضي الليريا في قبضة الرومان المتمكنة ، ولم تلبث أن أسست شبكة من الطرق والمستوطنات الرومانية بالتدريج (٣) . وامتدت طرق عديدة عبر البوسنة من مدينة سالونا Salona الساحلية (قرب سبليت Split) ، ولم يكن الأمر يحتاج إلى هذه الطرق من أجل التجارة قدر ما هو محتاج إليها لخدمة العمليات الحربية المتجهة بعيداً نحو الشرق ، ولكنها كانت تستخدم أيضاً كطرق لنقل الذهب والفضة والرماس التي كانت تستخرج من البوسنة الشرقية في العهد الروماني (٤) . وكان معظم البوسنة مضمومة إلى مقاطعة دالماتيا الرومانية ولكن جزءاً من شمال البوسنة كان يقع داخل ولاية بانونيسيا Pannonia التي تقع على أميال قليلة وراء الركن الشمالي الشرقي من البحر المعاصرة . ولم تلبث المسيحية أن جاءت سريعة إلى المدن الرومانية : فقد جاء ذكر أوائل الأساقفة في زمن مبكر هو أواخر القرن الميلادي الأول بمدينة سرميوم Sermium في بانونيا (سريمسكا Sremska ومتروفيكا Metrovica التي تقع على أميال قليلة وراء الركن الشمالي الشرقي من البوسنة المعاصرة) . وقد أسفرت الحفائر عن اكتشاف ما لا يقل عن عشرين كاتدرائية رومانية داخل الأراضي البوسنية المعاصرة . ومن بين هذه الكاتدرائيات واحدة تقع قرب ستولاك Stolica . بمنطقة الهرسك (Hercegovina) إنما هي خرابة محترقة تحتوي على عملات من القرن الرابع : وهي دليل على حقيقة أن هذه الفترة الأولى للمسيحية البوسنية بلغت نهاية مفاجئة على يد الغزو القوطي (٥) .

ولا بد أن استخدام اللغة اللاتينية أصبح واسع الانتشار في البوسنة الرومانية ، وواضح أنها كانت اللغة المشتركة الوحيدة للمستوطنين الوافدين من أجزاء الإمبراطورية الكثيرة الذين كانوا يجيئون ليعيشوا في ولاية دالماتيا : من إيطاليا قبل كل شيء ، ولكن أيضاً من أفريقيا وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا) ، واليونان وآسيا الصغرى ، وسوريا وفلسطين ومصر . وكان معظم هؤلاء المستعمرين يعيشون في المدن الساحلية ، بيد أن هناك سجلات بأقوام لهم أسماء أسيوية بوادي التريتنا Neretva (بقرب الهرسك) وفي منطقة يابسه Jajce الواقعة بشمال غرب البوسنة (٦) . ومنذ منتصف القرن الثاني المسيحي فصاعداً أقبل عدد ضخم من المحاربين الرومانيين على الإقامة أيضاً بالبلقان بعد انتهاء خدمتهم في الجيش : والدليل القاطع على أهميتهم هو أنه في اللبسة

الرومانية ، وهي اللغة التي تطورت عن اللاتينية التي كانت مستخدمة بتلك المنطقة ، كانت الكلمة الدالة على الرجل «الشيخ» وهي « batarin » مشتقة من كلمة « Veteranus » التي تعني المحارب الذي أنهى خدمته العسكرية وكان الليريون أنفسهم يجندون بأعداد ضخمة في الفيالق الرومانية ، وكانت الأراضي الليرية منذ أواخر القرن الثاني فصاعدا ، هي قاعدة القوة العسكرية لكثير من حكام المقاطعات والقواد العسكريين الذين أصبحوا أباطرة للرومان . وأول هؤلاء الأباطرة ، وهو سبتيموس سيفيروس Septimius Severus خلع الحرس البرائتوري عندما عاد الى روما في ١٩٣ للميلاد واستبدل به جندا من الليريين : الذين وصفتهم كلمات مؤرخ روماني : « بأنهم حشد مخلط من الجند ، هم أعظم ما يكون وحشية منظر وأجلف وأغلظ ما يكون في الحوار » (٧) .

وكانت المصادر الرومانية والاغريقية الأخرى تتخذ موقفا متعاليا حيال هؤلاء الرجال من أبناء القبائل المحلية في البلقان . ونتيجة لهذا ليس لدينا بيان تفصيلي حقا عن بنيتهم الاجتماعية أو ديانتهم أو طريقة حياتهم . ولكن هناك تعليقا عابرا محيرا تركه لنا الجغرافي العظيم امسترابون Strabo الاغريقي (٦٣ ق م - ٢٥ م) حيث قال ان الوشم كان منتشرا بين الليريين . ومما أثبت شهادته هذه عثورنا على ابر الوشم في مناطق الدفن الليرية بالبوسنة (٨) . وليس معروفا ان الوشم كان عادة سلافية في أى وقت أو جزء من الأقاليم السلافية ، ومع ذلك فانه باق الى اليوم على طول هذه القرون المديدة بين كاثوليك وسط البوسنة وبين مسلمي وكاثوليك شمال ألبانيا . وفي عشرينات القرن العشرين تمكنت الرحالة الانجليزية والعائلة المتبحرة في شئون البلقان ، ادith درهام Edith Durham من القيام بدراسة تفصيلية مستفيضة لتلك العادة المنتشرة ، ونفلت اليها كثيرا من الرسوم والتصميمات البوسنية - وهي من النماذج الهندسية البسيطة للدوائر والصلبان والأهلة ظاهر أنها تمثل شمساً مشعة وأقماراً . وقد قررت الرحالة : « ان النساء يوشمن وشما أشد تعقيدا من الرجال كثيرا ، فان أذرعهن وزنودهن كثيرا ما تكون مغطاة بالأشكال والنماذج ، وكانت الودودات منهن يقلن انهن يوشمن لان « تلك هي عادتنا » ، « لأننا كاثوليك » ، و « لأن ذلك جميل » ، ويقلن « ان أيادينا ستكون أجمل موشومة » (٩) . وهذه العادة دليل قاطع على استمرار الثقافى بالبوسنة الذي يتغلغل خلف كل ذلك الطريق الى القبائل الليرية . ومن سوء الحظ أن ذلك ليس الا الدليل الوحيد القوي بين أيدينا ، وقد كثرت الادعاءات بالأصل الليري لكثير من

الممارسات اللامسلافية التي ما تزال تعيش بالبوسنة مثل الموسيقى الشعبية المتعددة الأصوات ، ولكن هنا تقل الشواهد المؤيدة لذلك عند الكتاب الاغريق والرومان (١٠) .

وبالنظر الى هذا الدليل وما نعرفه من معلومات عن الفتوحات والاستيطانات بالبلقان ، يمكننا أن نؤكد أن بعض الالليرين عاشوا بعد الغزوات التالية وامتصهم تماما في داخلهم من أصبحوا السكان السلافيين . ولكن بعض الأيديولوجيين اليوغوسلاف من أبناء القرن التاسع عشر وضعوا نظرية رومانسية تذهب الى أن الصربيين والكراوات هم « في الحقيقة » من الالليرين (وعلى ذلك فانهم وحدة عرقية خاصة تمتد على أماد الدهر كله) ولكنها نظرية تحدثنا عن السياسة اليوغوسلافية المعاصرة أكثر منها عن التاريخ البلقاني المبكر (١١) .

وفي بعض الأحيان يظهر الأمر كأنما لا يستطيع أى سكان أن يدخلوا بلاد البلقان دون أن يخلقوا وراءهم نظرية مماثلة لهذه لكي تتمسك بها الأجيال التالية . وذلك يصدق بوجه خاص على الغزاة التاليين ، وهم قبائل القوط Goths الجرمانية الذين شرعوا في الاغارة على البلقان الرومانية في القرن الثالث وأنزلوا الهزائم القادحة بالجيوش الرومانية في أخريات القرن الرابع ، واستولوا على قلعة سينجيدونوم Singidonum (وهى بلجراد العصرية) في أواخر القرن الخامس ، ولكنهم انسحبوا تماما إلى المملكة التي أسسوها في ايطاليا ودمالاشيا عقب ذلك . على أنهم ما لبثوا أن طردوا تماما من البلقان على يد الامبراطور جستنيان Justinian في بواكير القرن السادس . (وبعد حملة جستنيان أصبحت البوسنة – من الناحية النظرية على الأقل – جزءا من الامبراطورية البيزنطية ، وكانت تقع أصلا على الناحية الغربية من الخط الفاصل بين الاراضى الرومانية الغربية والرومانية الشرقية) . أما القوط الذين تخلقوا فانهم ما لبثوا أن امتصتهم الكتلة السكانية المحلية (١٢) . ومع أن القوط كانوا مستوطنين فضلا عن كونهم مغيرين ، فانهم لم يتركوا أى آثار أو انطباعات ثقافية بارزة بالبلقان : فليست هناك مثلا كلمة واحدة في أية لغة بلقانية يمكن أن يستدل على أنها مشتقة من اللغة القوطية .

ومع ذلك ، فان هناك أسطورة عجيبة لم تلبث أن تشكلت ، ادعت أن القوط هم الأسلاف الحقيقيون للكروات و / أو البوسنيين . وكان الأصل في هذه الأسطورة مخطوط قديم سطر باللاتينية : « المدونات التاريخية لقسيس ديوكليا Dioclea » ، يبدو أنها منقولة من مدونة

تاريخية سلافية أقدم عهدا. تعرف بعنوانها اللاتيني (Libellus Gothorum) أي «كتاب القوط» ، وهي تبدأ بذكر هجرة القوط الى باثونيا ، وتعاملهم على أنهم الأسلاف الأصليون للسلاف (١٣) . ولقد استخدمت تلك المدونة التاريخية على يد العديدين من مؤرخي عصر النهضة المتأخرين في راجوزا Ragusa (دوبروفنيك Dubrovnic) . وأعظمهم هؤلاء المؤرخين هو الراهب البندكتيني ماورو أوربيني Mauro Orbini ، قد شasad نظرية فخمة متفاخرة للتاريخ العنصري ، ذهب فيها الى أن جميع الأجناس تقريباً التي أدت أي شيء ذي قيمة في حقبة التاريخ الكلاسيكية المتأخرة والقبوطية الباكورة ، كانوا من السلاف (بما في ذلك الوندال Vandals والآفار Avars والنورمان Normans والفنلنديين Finns والتراقيين Thracians والالبريين) ، وأن جميع السلاف كانوا من القوط : فكل هؤلاء كانوا ينتسبون للشعب السلافي ويتحدثون بنفس اللسان السلافي ، وعندما غادروا في البداية وطنهم الأول المشترك وهو اسكندنافيا ، أطلق عليهم جميعاً (فيما عدا الالبريين والتراقيين) اسماً وحيداً هو القوط (١٤) . وفي نظرية أوربيني هذه ، كان هذا التتابع في الهوية مع القوط جزءاً من أيديولوجية للراطة السلافية ، صوّرت القوط السلافيين بأنهم أشد وأقوى سلالة في التاريخ الأوروبي . ولكن قوتهم من غم في البلقان قاموا ، في تعديل جديد لنظرية القوطية ، بتعريف أنفسهم بالقوط لكي يميزوا أنفسهم عن السلافيين . ولأسباب واضحة ومعروفة ذاعت هذه النظرية بالبوسنة ذيوغا شعبياً خاصاً أثناء الحروب العالمية الثانية عندما راح البوسنيون ، الذين كانوا يريدون لبلادهم أن تحصل على استقلال ذاتي من الدولة الكرواتية الفاشية ، يحاولون تأسيس هويتهم البوسنية على أساس عنصري منفصل . وفي نوفمبر ١٩٤٢ أرسل فريق من دعاة الاستقلال الذاتي المسلمين «بمذكرة» الى هتلر ادعوا فيها التفوق العنصري على جميع جيرانهم من السلافيين : «نحن جنسنا ودما لنسنا من السلاف ، وانما نحن من أصل قوطي . فنحن البوسنيين جنسنا جنوباً الى البلقان في القرن الثالث بوصفنا قبيلة جرمانية» (١٥) ، ويبدو أنه حتى هتلر نفسه وجد هذه القصة صعبة التصديق الى حد ما .

ولم يكن القوط هم الجنس البشري الوحيد الذي زار غروب البلقان ، وربما ترك بعض ذرية هناك بين الرومان والسلاف . فان الهون Huns الأسويين (وهم شعب تركي مغولي) والالانيون الإيرانيون Irenians Alans (وهم أسلاف الأوسيتيانين Ossetians) العصريين بسلالة القوقاز) ظهروا أيضاً في القرنين الرابع والخامس . وفي القرن السادس

دخل البلقان شعبان جديتان : الأول : وهم أيضا قبيلة تركية دخلت من المنطقة الواقعة في شمال القوقاز) ثم السلاف . وكانت قواهم في البداية شديدة الاختلاط ، فهم إما خلفاء أو متخلفون ، ويبدو أن الآفار وإن كانوا أقل عددا كانت لهم اليد العليا في هذه العلاقة بسبب مهارتهم العسكرية الممتازة . وانتهى الأمر بأن هؤلاء القبليين للترك طردوا من البلقان أثناء القرن السابع عشر هـ يد الجيوش البيزنطية والكرواتية البلغارية . وكان المؤرخون يفترضون عادة أن الآفار كان لهم تواجد ملحوظ بأرض البلقان ، حيث أنهم أساسا قوة عسكرية تهجم قبل كل شيء بالغايات والاغارة . ومع هذا فإن البحث الحديث (القائمة على الحقائق التاريخية وأسماء الأماكن) يشير إلى لقائمة طويلة للآفار في كثير من الأجزاء في غرب البوسنة والهرسك والجبل الأسود (١٦) . وفي بعض الأماكن ، بناء على ذلك مناطق ملاصقة لشمال وشمال غرب البوسنة ، ربما استقرت مجاميع محددة من المستوطنين الآفار لعدة أجيال متعاقبة : وكان السلاف يطلقون على الآفار اسم أوبري (Obri) . وهناك أسماء كثيرة للأماكن مثل أوبروفاك Obrovac التي تسجل وجودهم هناك (١٧) . ومن المحتمل أيضا أن كلمة « بان » Ban التي هي لقب الحكام الكرواتيين من أقدم العصور هي نفسها من أصل آفاري (١٨) .

ولكن كان السلاف بطبيعة الحال هم الذين سادوا وتسلطوا في النهاية . وفي آخريات القرن السادس تحركوا بأعداد غفيرة منحدرين في شبه جزيرة البلقان ، وقد كانوا قوما ينزعون إلى الاستيطان وزراعة الأرض ولم يكونوا مجرد غزاة ، وأسسوا المستوطنات التي امتدت إلى الطرف الجنوبي من بلاد اليونان (إذا كانت هناك قرى تتحدث بالسلافية حتى وقت متأخر من القرن الخامس عشر) (١٩) . وعندما حلت عشرينيات القرن السابع كانت جملة من السكان السلاف قد استقرت في بلغاريا الحديثة وصربيا ، كما أنهم على أرجح الاحتمالات قد تغلغلوا في جزء كبير من أراضي البوسنة أيضا . ثم جذب ، في مدى بضعة سنوات قليلة ، أن وصلت قبيلتان سلافيتان جديدتان إلى السهل : هما الكروات والصرب . ونقلنا عن ما كتبه المؤرخ البيزنطي الامبراطور قنسطنطين بورفيروجينيتوس Constantine Porphyrogenitus (الذي كتب بعد ذلك بثلاثمائة سنة ولكن مستخدما السجلات الإمبراطورية) : فإن امبراطور بيزنطة في ذلك الزمان استمدى المكررات إلى داخل البلقان ليطردوا من البلاد أولئك الآفار المشاغبين الخارجين عليه . ولم يشترك الصرب - حسب قوله - الامبراطور قنسطنطين - في محاربة الآفار ولكنهم كانوا متصلين بالكروات ودخلوا البلقان في نفس تلك الفترة (٢٠) .

فمن بالضبط كان الصرب الكروات ؟ لقد ظل رجال العلم يدركون طويلا أن الاسم « كروات » (أو هرفات Hrvat باللغة الصربوكرواتية) ليس كلمة سلافية . ويظن بأنه هو نفس الاسم الإيراني « كورواتوس » Chorواتوس الموجود على النقوش البارزة على نصب القبور قرب المدينة الإغريقية : تانايس Tanais على نهر الدون الأدنى بجنوب روسيا . وكان يسكن جميع المنطقة الممتدة شمال البحر الأسود في القرون الأولى المبكرة للميلاد خليط من القبائل كان يضم السلاف والسرماثيين Saramatians : وقد كان الآخرون رحلا إيرانيين مروا غربا حول الجانب الشمالي من بلاد القوقاز أثناء القرن الثاني قبل الميلاد . وتمكن السرماثيون من بسط سيادتهم السياسية على القبائل الأخرى ، ويبدو محتملا أن بعض القبائل السلافية احتازت بذلك لأنفسها صفة ممتازة حاكمة من الناطقين بالإيرانية (٢١) . وهناك نظرية تربط بين هرفات وكورواتوس وبين كلمة هو - أورفانا (hu-urvatha) ومعناها «الصديق» بلغة الآلان (الذين كانوا يشكلون جزءا من التجمع السرماتى للقبائل الإيرانية في ذلك الزمان) (٢٢) . وتقول نظرية أخرى أن جذر ذلك الاسم « صرب » Serb (سرف Serv) أصبح بالإيرانية « كرف » (Carv) وذلك ما تسبب في ظهور كورواتوس وهرفات بعد إضافة « ات » (at) في نهاية الكلمة (٢٣) . ولكن الشيء الواضح هنا هو أن الصرب والكروات كان لهم تاريخ متماثل ومترايط من أقدم العصور : وجاء بطليموس ، الذى كتب في القرن الثانى للميلاد ، فحدد هو أيضا موطن الصربوى (Serboi) ضمن القبائل السرماتية شمال بلاد القوقاز . ويعتقد معظم العلماء أنه أما أن كلا من الصرب والكروات كانوا قبائل سلافية تحكمها طبقات إيرانية ، أو أنهم كانوا فى الأصل قبائل الهوائية احتازت إليها زعایا سلافية (٢٤) . وفى بواكير القرن السابع كانت كل من القبيلتين قد أسست لنفسها مملكة فى وسط أوربا : « كرواتيا البيضاء » ، التى كانت تشمل جزءا من جنوب بولندا الحديثة ، و « صربيا البيضاء » فى أرض التشيك الحديثة . ومن هذين المكانين هبطا الى غرب البلقان .

وللمرة الثانية تلاعبت الأيديولوجية الحديثة بالتاريخ القديم . إذ ظهر منظرون كروات قوميون انتقوا الدلائل المشيرة الى انتسابهم الى الأرومة الآرية بينما رفضوها بالنسبة للصرب ، وبذلك أبرزوا انقساماً عرقيا قديما بين شطرى السكان . وظلت هذه النظرية مقبولة وشعبية أيضا أثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما كان الآريون القدماء يوضعون فى أعلى درجات سلم العنصرية النازية . ومن ناحية أخرى كان هناك الأيديولوجيون من أصحاب نظرية السلاف الجنوبيين أو الكتلة السلافية ،

الذين رفضوا لأسباب سياسية ، جميع الدلائل الدالة على الصلات الآرية المبكرة . على أن الحقيقة التاريخية واضحة الى حد كبير : ذلك بأن الصرب والكروات كانوا منذ أ بكر العصور متميزين بعضهما عن بعض ولكنهما متصلان أوثق اتصال ، يعيشان ويهاجران في تلازم تام ، وفي كل منهما شيء من العنصر الآري . وهناك شيء آخر واضح أيضا ، هو أنهما في الوقت الذي وصلوا فيه إلى البلقان كان هناك عدد ضخم من السكان السلاف يسكنون المكان يفوق عدده عدد السكان الصرب والكروات . والحق أن هذه الطبقة التحتية الضخمة من السلاف لا يمكن تقسيمها الى مجاميع عرقية فرعية منفصلة ، وبذلك يتضح أن محاولة اختراع تقسيمات عرقية سلافية قديمة بين نسلهما ، هي باطل الأباطيل . ولا بد أن هذه الطبقة التحتية السلافية نفسها قد امتصت بقايا مجاميع السكان الذين كان أسلافهم في الأصل الليريين وكلنا ورومانا وأفرادا من جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية ، من القوط والآلان والهون والآفار .

واستوطن الصرب منطقة تطابق الجنوب الغربي من صربيا العصرية (وهي منطقة أصبحت فيما بعد في العصور الوسطى تعرف باسم راشكا Rashke أو راشكيا Rascia) ، ثم أخذوا يمدون سلطانهم تدريجيا الى مناطق دوكلية Duklje أو ديوكليا Dioclea (الجبل الأسود) و Hum أو زاتشيومليا Zachumlje (الهرسك) . وكان الكروات يستوطنون مناطق تطابق بالتقريب أرض كرواتيا الحديثة ، وربما تضم أيضا معظم البوسنة الحقة ، بغض النظر عن الشقة الشرقية لوادي نهر الدرينا Drina (٢٥) . وكان السكان السلافيون المحليون منتظمين على أساس قبلي تقليدي : وفيه يبدأ هرم الوحدات في أسفله بالعائلة (والراجع أنه ذلك النوع من العائلات الواسعة الموجود في بعض أجزاء البلقان الى يومنا هذا ويطلق عليها المصطلح السلافي زادروجا (Zadruza) ، وكانت العائلات نتحد في عشائر ، والعشائر تتحد في قبائل (Plemena) وأرض القبائل المسماة زوبا (Zupa) كان يتولى الحكم فيها حاكم اقليمي يسمى بالزوبان (٢٦) . كانوا وثنيين يعبدون مجموعة متنوعة من الآلهة ، ولا تزال أسماء بعضها باقية الى اليوم تطلق على بعض الأماكن اليوغوسلافية : اله الحيوانات المقرنة فيليس (veles) مثلا أو اله الرعد بيرون Pirun أو بير Pir (٢٧) . وقد بذلت محاولات من الحكام البيزنطيين في عهد مبكر يرجع الى القرن السابع لتنصير الكروات بالاستعانة بالقسس اللاتين من المدن الساحلية الدالماسية ، التي كانت لا تزال تحت الحكم البيزنطي في ذلك الزمان (٢٨) . ولكن

لم يتم تنصير الكروات بصفة رئيسية الا بعد حلول القرن التاسع . وفي امكاننا ان نفترض ان مناطق البوسنة الابدع شقة والأعير اختراقا كانت آخر من اعتنق المسيحية ، التي يحتل أنها انتشرت اليهم من الاراضى الساحلية فى أخريات القرن التاسع أو بدايات القرن العاشر (٢٩٩) . وهناك أمارات تدل على أن الممارسات الوثنية قد نقلت الى المسيحية ثم بعد ذلك الى الاسلام بأرض البوسنة - مثل استخدام قمم الجبال أماكن للعبادة . وهناك أسماء لآلهة وثنية مثل بير Fir وأوجاني Ojani . وتور Tur وكلها بقيت فى الروايات المتواترة بين الناس حتى القرن العشرين (فان باحثا سجل ترنيمة حولهم من رجل من سراييفو فى ١٩٣٣) . كما أنها قد حفظت لنا أيضا فى أسماء الأشخاص مثل تيرو Tiro وبيريتش Piric (٣٠) .

والتاريخ السياسى لضرب البلقان يبدأ بالقرن السابع الى القرن الحادى عشر ، انما هو تاريخ متقطع ومضطرب مع توالى الفتوحات وتغير فى توجيه الولاء . فلم يعد لأقدم قوة أرسى دعائم سلطتها فى المنطقة ، وهى الامبراطورية البيزنطية ، شئ من السلطان المباشر سوى القليل ولكنها استطاعت بين حين وآخر أن تجعل سلطاتها معترفا بها . واستمرت العلاقات البيزنطية مع المدن الساحلية ومع جزر دالماشيا : وكانت تنظم بوصفها « ثيما » Theme (أى منطقة عسكرية) فى القرن التاسع ، ولكن أخذ سلطان الامبراطورية البيزنطية يصبح اسما بدرجة متزايدة . لا سيما أن الكنائس هناك أصبحت تحت السيطرة الادارية لروما . ثم غزا فرجة شارلمان المنطقة الكرواتية الشمالية ، بما فى ذلك جزءا كبيرا من شمال وشمال غرب البوسنة ، فى أخريات القرن الثامن وأوائل التاسع ، وظلت فى ظلال الحكم الفرنجى حتى سبعينيات القرن التاسع . ولعل فى تلك الفترة بدأ النظام القبلى القديم فى البوسنة وكرواتيا يعاد تنظيمه من جديد ليتخذ شكلا من أشكال الاقطاع الأوربى (٣١) .

وفى ثانيا ذلك تجمعت بعض الاقاليم التى يحكمها العرب فى منطقتى الهرسك والجبل الأسود الحديثين واتحدت مع مجموعة من الزوبات الصرب فى أقصى اقصى الشرق وهى فى عصرنا الحالى أى أراضى جنوب غرب سربيا ، على شكل امارة صربية (برئاسة « زوبان أعظم ») وذلك فى منتصف القرن التاسع . وفى أوائل القرن العاشر تنسمت كرواتيا فترة من القوة والاستقلال فى ظل الملك توميسلاف Tomislav ، وللعدة الثانية كان شطر كبير من شمال وغرب البوسنة جزءا من مملكته . ولكن بعد وفاته (وذلك فى الراجح فى ٩٢٨) ابتليت الاراضى الكرواتية بحرب أهلية ،

وتم على مدى أمد وجيز (في الثلاثينيات حتى الستينيات من القرن
العاشر) الاستيلاء على شطر كبير من البوسنة على يد اماره صربية تدين
بالسيادة للامبراطورية البيزنطية (٣٢) .

وتعطينا هذه التفاصيل صورة للسياق التاريخي الذى ورد فيه
أول ذكر نعرفه اليوم عن البوسنة بوصفها اقليما قائما بذاته . وكان ذلك
في المرجع السياسى الجغرافى الذى كتبه فى ٩٥٨ الامبراطور البيزنطى
قنسطنطين بورفيريوجينيتس . ففي ذلك القسم من مرجعه المخصص لأراضى
الأمير الصربى كتب يقول : « فى صربيا المنتصرة توجد المدن المأهولة
ديستينيكون Destinikon [الخ . . .] ، وفى أرض البوسنة توجد
كاتيرا Katera وديسنيك Desnik » (٣٣) . وهذا يوضح أمام
أعيننا أن البوسنة (وهى منطقة أصغر من البوسنة الحقة فى زماننا
ومتمركزة حول نهر البوسنة ، الذى يفيض شمالا من منطقة قريبة من
سراييفو) كانت تعتبر منطقة منفصلة ، وان كانت فى ذلك الحين تابعة
للسرب . وفى ستينيات القرن العاشر سقطت مرة ثانية فى يد الحكم
الكرواتى وبقيت أرضا كرواتية ما يقرب من نصف قرن من الزمان .

ثم حدث بعد ذلك فى ١٠١٩ أن ولى العرش امبراطور بيزنطى قوى
جديد هو الامبراطور بازيل الثانى Basil II ، الشهير باسم
« ذابح البلفار » ، فاجبر الحكام الصربيين والكروات على الاعتراف
بالسيادة البيزنطية ، وما لبث اخضاع الكروات الاسمى أن تحول بالتدريج
الى شيء أشبه بالتحالف ، وفى أثناء القرن الحادى عشر خضعت البوسنة
حينها من الوقت لحكم كرواتى ، كما حكمها حينها آخر حكام من الصرب
المقيمين فى المناطق الشرقية الذين خضعوا للسيادة البيزنطية بصفة
مباشرة أكثر (٣٤) . وإلى الجنوب من البوسنة الحالية نجت بعض
الأقاليم بقدر أكبر قليلا من الاستقلال ، وهى اقليم دوكلينا الذى تسمى
باسم آخر هو زيتا (Zeta) ، والجبل الأسود ، وهوم أو زاتشومليا ،
وهى الهرسك ، حيث قاوم الأمراء الصربيون المحليون الحكم البيزنطى .
وتوحدت هذه الأراضى فى مملكة صربية واحدة امتدت حتى احتوت أرض
راشكا الصربية فى سبعينيات القرن الحادى عشر ، ولكنها ما لبثت تحت
حكم الملك بودين « Bodin » فى ١٠٨٠ أن اتسعت حتى ضمت اليها معظم
البوسنة . ولكن المملكة ما لبثت أن تمزقت سريعا بعد وفاته
فى ١١٠١ .

وتعد نهاية القرن الحادى عشر نقطة تحول فى تاريخ البلقان الغربى .
 قبيعد وفاة بودين انتقل مركز الثقل للطموحات السياسية الصربية الى
 راشكا ، التى أصبحت قلب المملكة الصربية فى القرون الوسطى . وفى تلك
 الأثناء كانت المجر قد استولت على الأرض الكرواتية كلها ، وفى عام ١١٠٢
 توج الملك المجرى كولومان Koloman ملكا على كرواتيا ، وبذلك أنشأ
 علاقة ما بين الدولتين . كانت أحيانا علاقة خضوع مباشرة ، وأحيانا أخرى
 علاقة اتحاد وتحالف شخصى ، دامت مع بعض فترات التقطع والتعديل ،
 حتى ١٩١٨ : وبسط الحكم المجرى على البوسنة أيضا فى ١١٠٢ ، ولكنها
 لأنها بلاد بعيدة عسيرة الاختراق كان يحكمها « بان Ban (حاكم بالكرواتية)
 ظلت سلطاته تزداد استقلالاً بتقدم الزمن بالقرن (٣٥) . ولكن الذى
 حدث فى الستينيات والسبعينيات من القرن الثانى عشر أن عادت الى حين
 مقاطعتا البوسنة وكرواتيا للحكم البيزنطى بعد حملة عسكرية ناجحة
 على يد الامبراطور المتوسع مانويل كومنينوس Manuel Comnenous
 ولكن بعد وفاته فى ١١٨٠ تقوضت كل فتوحاته سريعا . فاستعادت
 كرواتيا صلتها الأولى بالمجر . وأصبحت البوسنة فى واقع الأمر حرة من
 السيادة المجرية ، ونظرا لأنها لم تعد تحت حكم الامبراطورية البيزنطية
 ولا كرواتيا فانها استطاعت أن تقف فى وجه الجميع لأول مرة بوصفها
 دولة مستقلة الى حد ما . ومن هنا جاء الوصف الشهير للبوسنة الذى
 كتبه كاتم أسرار الامبراطور مانويل كومنينوس ، وهو مدون الحوليات
 كيناموس Kinnamos الذى كان يكتب فيما نعتقد فى ثمانينات القرن
 الثانى عشر ، « ان البوسنة لم تعد تطيع أوامر الزوبان الأعظم للصرب ،
 انه شعب مجاور له عاداته وسماته وحكومته الخاصة » (٣٦) . ولاحظ
 كيناموس أيضا أن البوسنة كان يفصلها نهر الدرينا عن بلاد الصرب ،
 وهو خط فاصل ظل هو خط الحدود الشرقية للبوسنة طوال فترة كبيرة
 من تاريخها التالى .

وليس بوسعنا ازاء التاريخ المعقد للبوسنة السلافية المبكرة ،
 فيما بين وصول الكروات والصرب فى عشرينيات القرن السابع وانبثاق
 دولة بوسنية مستقلة فى ثمانينيات القرن الثانى عشر ، أن نخرج
 باستنتاجات بسيطة عن تلك الفترة . فان البوسنة الحقة كانت تحت الحكم
 الصربى فى بعض الأوقات : وأخصها فى منتصف القرن العاشر ونهاية
 الحادى عشر . ومع هذا فان من المضلل أن يقال ان البوسنة كانت ذات
 يوم « جزءا » من صربيا . ذلك لأن الممالك الصربية ، التى ضمت بين أجزائها
 البوسنة فى تلك الأيام ، لم تكن تحتوى على معظم ما نسميه اليوم باسم

صربيا . ففي أثناء معظم هذه الفترة القروسطية المبكرة كانت مقاطعة الهرسك في حقيقة الأمر وواقعه أرضا صربية ، ولكن البوسنة الحقة كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا كثيرا بأراضي الكروات ، بل وفي القرن الثاني عشر ، بعد أن حصلت على استقلالها ، بدت منحازة الى النطاق الكرواتي المجرى الثقافي والسياسي انجيازا مستجرا ومتزايدا (٣٧) . وكانت البوسنة في أيامها القروسطية الأولى مرتبطة ارتباطا وثيقا من حيث تنظيمها الديني بكرواتيا وليس بأراضي الصرب . فان أسقفية البوسنة المذكورة على أنها مطرانية كاثوليكية رومانية في القرن الحادي عشر (بعد الانشقاق الذي حدث بين روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤) ثم أصبحت تحت الرئاسة الدينية لكبير أساقفة سبليت ، قبل نقلها الى أسقفية راجوزا (دوبرنيك) في القرن الثاني عشر (٣٨) . ومع هذا كانت هناك كما سنرى بعض ملامح مميزة للكنيسة ببلاد البوسنة لابد أنها باعدت بينها وبين الكنائس اللاتينية القائمة في السباحل الدلماشي منذ مرحلة قديمة من الزمان) . وهناك رمز يرمز الى الوشائج السياسية مع العالم الكرواتي هو أن حكامها كانوا يلقبون باللقب الكرواتي « بان » منذ أقدم العصور ، أما الحاكم الأكبر للصرب فكان يدعى باسم « الزوبان الأعظم » . ولم يدع قط باسم « بان » (٣٩) .

أما عن هوية سكان البوسنة في ١١٨٠ وان كانوا من العرب أو الكروات حقا فهو تساؤل لا يمكن الاجابة عنه لسببين : أولا لأننا نعوزنا البيئات ، وثانيهما لأن السؤال يعوزه المعنى . ففي امكاننا أن نقول ان معظم أرض البوسنة كان يشغلها على الأرجح الكروات - أو على الأقل سلاف تحت الحكم الكرواتي - في القرن السابع ، ولكن هذا مسمى قبلى قديم لم تعد له الآن أية قيمة بعد انسلاخ هذه القرون الخمسة . على أن البوسنيين ظلوا على الدوام أقرب الى الكروات في تاريخهم الديني والسياسي على وجه الجملة ، ولكن تطبيق الفكرة الحديثة حول الهوية الكرواتية (وهي شيء تم بناؤه في القرون الحديثة على الدين والتاريخ واللغة) ، يعد مفارقة تاريخية . وكل ما يستطیع المرء بعقلانية أن يقوله الآن حول الهوية العرقية للبوسنيين ، انهم كانوا السلاف الذين عاشوا في البوسنة .

الفصل الثاني

الدولة البوسنية القروسطية

ان تاريخ البوسنة في اوج العصور الوسيطى تاريخ مضطرب ومورث للارتباك . ولكن يبرز فيه ثلاثة حكام أقوياء : هم بان كولين Ban Kulina ، (الذى حكم من ١١٨٠ الى ١٢٠٤) ، وبان ستيفن كوترومانيتش Ban Stephen Kotromanik (١٢٢٢ - ١٣٥٤) ، وكذلك ستيفن تفرتكو Stephen Tvrtko (١٣٥٣ - ١٣٩١) . وفى حكم الثانى من هؤلاء الثلاثة اتسعت حدود البوسنة حتى ضمت امارة هوم (الهرسك) ، كما أنها في عهد الثالث امتدت أكثر نحو الجنوب واستولت أيضا على شطر كبير من الساحل الدالماسي . والواقع أنه في أثناء النصف الثانى من حكم تفرتكو كانت البوسنة أقوى دولة داخل البلقان الغربى . والجزء الوحيد من اقليم البوسنة الذى لم يضم الى حكم تفرتكو ، كان قطاعا مسطويلا من الأرض يمتد فى الشمال الغربى ويحتوى مدينة بيهاتش Bihać الحديثة ، التى كانت جزءا من الأراضي الكرواتية البحرية طوال تلك الفترة .

تلك هي النقاط العظمى فى تاريخ قوة البوسنة القروسطية واستقلالها . أما فيما بين فترات حكم هؤلاء الحكام الثلاثة المذكورين فكانت البوسنة مقتنسة ، اما رسميا أو واقعا نتيجة للصراع المتكرر على القوة ، بين الأسر النبيلة المحلية . ومع أن النظام الاجتماعى والسياسى فى البوسنة كان على أساسه اقطاعيا ، فلم يكن ذلك الشكل الصارم الاقطاع الذى كان يقضى بعودة اقطاعيات النبلاء الى التاج ان فشلوا فى أداء واجباتهم العسكرية : لقد كان النبلاء ملاك أراض مستغلين ، وكثيرا ما تمكنوا من املاء آرائهم حول وراثة العرش البوسنى من واقع مركزهم كقوة اقليمية فى البلاد (١) . وهنا جاء عدم الاستقرار السياسى المستمر فى البوسنة فى القرون الوسطى .

وكانت بلاد المجر هي أعلى الدول المجاورة كلمة أثناء تلك الفترة . وفي أثناء القرنين الثالث عشر وأوائل الرابع عشر تمت المملكة الصربية أيضا لتصبح دولة عسكرية قوية ، ومن المدهش بالرغم من ذلك أن ملوك الصرب لم يبذلوا أية محاولة قوية لفتح البوسنة (٢) . ولا شك في أن استحالة اختراق حدود البوسنة ، وهو أمر طالما خبره ملوك المجر عدة مرات ، جعلها فريسة صعبة المنال ، فان حدث وتم نيلها كان ملكا أراضها من النبلاء المشاكسين ، يحولونها الى مغنم لا خير فيه .

وكذلك كان موقع البوسنة القصى من الأسباب الكامنة وراء تلك الظاهرة المميزة المحيرة لتاريخها إبان العصور الوسطى : ألا وهي نزعة الانقسام ، التي سادت كنيسة أذربيجان في القرن الثالث عشر ، وظلت تعمل في البوسنة مستقلة تماما حتى وصول الفرنسيين سكان ، الذين حاولوا أن يعيدوا سلطان روما الى مكانته في الأرمينية من القرن الرابع عشر . ومنذ ذلك الحين دخلت الكنيسة البوسنية في منافسة مع الكنيسة الكاثوليكية واستمر هذا الأمر أمدا قرن من الزمان ، حتى انتهى المطاف برجالها عشية الفتح التركي الى الطرد أو اعتناق الكاثوليكية قسرا . وعلى امتداد عمر تلك الكنيسة ظل كتاب البابوية يتهمون البوسنيين بالهرطقة والكفر ، كما أن بعض تلك المصادر تحدد الهرطقة بالثنوية (Dualist) والمانوية (Manichean) . وكانت تلك الكنيسة من جراء تلك الاتهامات تمتع بأنها تجسيد لطائفة مانوية بلاقية قديمة هم بوجوميل (Bogomils) بلغاريا . على أن الدراسات الحديثة أقامت اعتراضات قوية على هذه النظرية التقليدية . وقد بلغ هذا الموضوع من شدة التعقيد ما جعلنا نعالجه في الفصل التالي .

وقد أصبح بان كيولين أسطورة في التاريخ البوسني . وكتب عنه المؤرخ وليام ميلر في عام ١٩٢١ : « يعبده الناس حتى في هذه الأيام ربينا للجنيات كما يغدون فترة حكمه عصرا ذهبيا ، كما أنه الحديث عن عهد بان كيولين إنما هو تعبير شعبي عن الحديث عن العهد المسعبد البخل ، عندما كانت أشجار البرقوق البوسنية تشن أفيينا شديدا بما تحض من فواكه ، وعندما كانت حقول القمح الصفراء لا تكف لحظة عن التموج في السهل الخصيب » (٣) . فقد تضم البوسنيون بسلام دام ٢٤ عاما ، ولا مفر من أن هذا السلام كان تغييرا نزل بركة وسلاما على أبناء البوسنة من البسطاء . واتشير الأدلة التي وصلتنا عن هذا العصر الى أن كيولين وجه اهتماما شديدا الى الشؤون الاقتصادية لبلاده : فانه عقد معاهدة تجارية

مع راجوزا (دوبرفنيك) في ١١٨٩ ، وشجع تجار راجوزا على استغلال المناجم البوسنية الثرية (٤) . كما أنه أقام أيضا علاقات طيبة مع حاكم هوم (الهرسك) الذي تزوج أخت كيولين ومع الجويان الأعظم الضربي ستيفان نيمانجا Stephen Nemanja مؤسس أسرة النيمانين Nemenjic الملكية ، التي قدر لها أن تحول الصرب الى دولة عظمى أثناء القرنين التاليين . ولكن العلاقات كانت أقل مودة مع دولتين أخريين : أولاهما بلاد المجر التي كانت لاتزال تعد نفسها صاحبة السيادة العليا على البوسنة . وزيثا (التي كانت تدعى سابقا دوكليا أو ديوكليا : وهي الجبل الأسود الحديثة) ، التي تحالفت مع بلاد المجر لأسباب سياسية تكتيكية .

وكانت سياسات الكنيسة ، وليس الحرب ، هي الشكل الذي اتخذته النصارى . فان البوسنة (على العكس من هوم الأرثوذكسية) كانت اقليما كاثوليكييا ، وكانت تابعة لسلطة رئيس أساقفة راجوزا . ونظرا لبعدها المسيحي لم يكن رجال الكنيسة الراجوزية يتسلخون كثيرا في شئون الكنيسة الكاثوليكية في البوسنة فسمح لها فعلا بتعيين أسقفها الخاص بها (الذي كانت أسقفيته تمتد شمالا حتى الأراضي المجرية الكرواتية) . وكانت المجر تريد تحكما أوثق على الأسقفية البوسنية ، وجاهدت في روما في أوائل التسعينيات من القرن الثاني عشر لتحمل البابا على وضعها تحت السلطان الديني لكبير أساقفة سبليت وكان من أشياع المجر . وعندئذ شرع حاكم زيثا ، الذي كان شديد الاهتمام باسقاط سلطان كل من البوسنة وراجوزا ، يرسل الى البابا شاكيا من أن بان كولين وزوجته وآلها من رعاياه أصبحوا من الهراطقة (٥) . وربما لم تكن هذه الشكاوى الأوسيلة لالتماس اذن البابا لغزو بعض أجزاء من الأراضي البوسنية . ولكن بان كولين وأد الأزمة في النهاية بعقدته مجلسا للكنيسة البوسنية الكاثوليكية (وهو المجلس المعروف باسم بولينو بولي Bolino Polje) في ١٢٠٣ . حيث تم الاقلاع رسميا عن مجموعة من الأخطاء ، كانت فيما يبدو تتصل ببعض الممارسات الدينية الخاطئة وليست بالهرطقات الخطيرة ومع هذا فقد كان ذلك بداية لاتهام البوسنة التقليدي بالهرطقة وتنبيها له في الأذهان (٦) . أما بان كولين نفسه ، الذي ظل يعلن أنه كاثوليكي صالح ، فقد توفي في السنة التالية .

وأثناء نصف القرن الذي أعقب وفاته ظلت البوسنة تحت ضغط مستمر من جارتها المجرية القوية . فان المجرين لم يتخلوا عن خطتهم التي اختطوها لوضع أيديهم على أسقفية البوسنة . ووجهت البابوية سيلا مستمرا من الرسائل الى حكام البوسنة وأساقفتها ترجوهم فيها طرد

الزئدقة من أسقفية البوسنة أثناء الثلاثينيات من القرن الثالث عشر (٧) .
 كان ذلك جزئيا رد فعل لتدنى المستوى العلمى لهيئة الكهنوت البوسنية :
 وهناك رسالة بابوية مؤرخة فى ١٢٣٢ ، وهى تصف أسقف البوسنة
 الكاثوليكي بالامية والجهل حتى يمر اسم التعميد ، وأنه بغير مراة يعمر
 متواطئا مع الهرطقة . ومع هذا فربما تكون هذه الرسالة قد عبرت عن
 بواعت للقلق. اختلقها أولئك الحكام المجريون الذين كانوا يتطلبون مبررا
 دينيا لغزو البوسنة . وحدث الغزو فعلا فى أخريات الثلاثينيات من القرن
 الثالث عشر ، وما وافى ١٢٣٨ حتى كان المجريون قد استولوا على المنطقة
 الجنوبية الوسطى من البوسنة وهى فرهبوسنا (Vrhhbosna) ، وكانوا
 يعملون بكل نشاط على توطيد جماعة الرهبان الدومينيكية (٨) . ومع ذلك
 احتفظ بان البوسنة نينوسلاف Ninoslav ، ببعض الأراضى ، وعندما
 انسحب الجيش المجرى فجأة فى ١٢٤٠ نحو الشمال للتصدى للغزو
 المغولى الذى كان يهدد المجر ، تمكن البان البوسنى من استرداد كل سلطاته
 وأراضيه بالبوسنة . وسحق المغول الجيش المجرى ثم تقدموا تاركين
 وراءهم خطا من المدن والقرى المنهوبة والمدمرة خلال شمال كرواتيا حتى
 دالماشيا . على أنهم ما لبثوا عندما سمعوا بوفاة الخان الأعظم أن ارتدوا
 شرقا مخترقين زيتا (الجبل الأسود) وصربيا . فكانهم بذلك قد داروا
 حول البوسنة تاركين أياها دون أن يمسيها السوء الى حد كبير .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عاشت البوسنة فيما يبدو
 حياة أكثر انعزالية . فان المجر أقنعت البابا بأن ينقل أسقفية البوسنة
 ويجعلها تحت رياسة أسقفية كبرى داخل بلاد المجر فى ١٢٥٢ ، ومع ذلك
 فان الأثر النهائى لهذا التغيير انما هو أن الأسقف البوسنى أصبح يعيش
 خارج بلاد البوسنة منذ ذلك الحين (فى سلافونيا Slavonia الخاصة
 للمجر) . ومن ثم فان الضغط الذى كان من الممكن أن تحدثه أية سلطة
 خارجية على الكنيسة البوسنية قد أصبح فى حكم المعدم تقريبا (٩) .
 وقامت المجر بمحاولة أخرى لغزو البوسنة فى ١٢٥٣ ، ولكن بعد ذلك فان
 ولاية (بانية) البوسنة الأصلية - وهى الوارثة لدولة بان كولين - يبدو
 أنها تركت وشأنها تتصرف كيف تشاء طوال المدة الباقية من القرن (١٠) .
 ومع هذا ، فان كثيرا من الأجزاء الشمالية من البوسنة الحديثة مثل منطقة
 سولي Soli (وهى تعنى « الملح ») حول توزلا ، قد خصصت لأعضاء من
 الأسرة المالكة المجرية . فاما القطاع الشمالى الشرقى لهذه الأراضى فقد ضم
 الى مناطق من شمال صربيا ليشكل ما يسمى باسم دوقية ماتشفا
 Măcva (١١) .

ومن هذه الأراضي الشمالية برزت الأسرة الحاكمة التالية للبوسنة .
فقد خلف ستيفن كوترومان (Stephen Kotroman) أباه في ثمانينيات
القرن الثالث عشر في حكم أحد الأجزاء الشمالية البوسنية ، وتزوج من
ابنة حاكم مانتيفا : ثم دخل في صراع طويل على السلطة تفصيله غير
واضح تماما ، ضد أسرة نبيلة أخرى وهي أسرة شوبيتش (Sobices) وهم
أسرة من جنوب غرب البوسنة . ويبدو ان الشوبيتش كانوا يحكمون بانيا
البوسنة القديمة أثناء العقدين الأولين من القرن الرابع عشر ، وأنهم
كانت لهم علاقات ودية مع ابن كوترومان وهو ستيفن كوترومانيتش
(Stephen Kotromanic) أثناء فترة من ذلك الزمان (١٢) . بيد أنه
حدث في مطلع عشرينيات القرن الرابع عشر أن كوترومانيتش زاد شأنه
وأصبحت له اليد العليا : فقد أصبح أحد أفراد أسرة شوبيتش بانيا
للبوسنة في ١٣١٨ ، ولكن كوترومانيتش أخذ هذا المنصب في ١٣٢٢ .
وما كاد يستتب له الأمر ، حتى شرع يبنى دولة بوسنية أوسع رقعة وحدت
البانيا القديمة مع بعض المناطق الشمالية . ثم عاد فاضاف الى ذلك كله ،
عن طريق الفتح ، مناطق في غرب البانيا كانت فيما سلف من الزمان جزءا
من كرواتيا وظلت بعد ذلك جزءا من الأراضي البوسنية . وزاد بعد ذلك
في سعة رقعة فتوحاته بأن أضاف الى ممتلكاته نيفا وماتشي ميل من
الساحل الدالماتشي تقع بين راجوزا وسبليت . وفي عام ١٣٢٦ استلحق
معظم أراضي هوم (الهرسك) ، وبذلك أنشأ كيانا سياسيا موحدًا يتشكل
من البوسنة والهرسك لأول مرة في التاريخ . وكانت هوم حتى ذلك الحين
تعيش عيشا منفصلا الى حد ما عن كل ما عداها في ظل أسرها الحاكمة
المتعاقبة ، كما كان تاريخها الديني منفصلا أيضا عن كل ما عداها
باحتمائها على مجموعة سكان تغلب عليهم الأرثوذكسية (١٣) .

وحرص كوترومانيتش على اصطلاح علاقات ودية مع الدول الأجنبية .
ومن عظيم يمين طالعها أنه الملكة الصربية ، التي كانت تلم بها فترة ندو
وقوة خارقة للعادة تحت ظل حاكمها ستيفن دوشان (Stephen Dushan) ،
كانت مشغولة بالتوسع جنوبا في أراضي مقدونيا وألبانيا وشمال
اليونان . وعقد كوترومانيتش المعاهدات مع راجوزا في ١٣٣٤ ، والبندقية
في ١٣٣٥ ، وتعاون وديا مع الملك المجسوي ، حيث أرسل اليه القوات
البوسنية لمساعدته في حملته على النبلاء المشاغبين في كرواتيا . على أنه
ما دام كوترومانيتش قد تقبل وعاون على وجود الكنيسة البوسنية الانشقاقية
(وهذا هو ما فعله فعلا رغم أنه كان هو نفسه أرثوذكسيا على الأرجح) ،
لم يكن في إمكان علاقاته مع البابوية الا أن تكون هششة ضعيفة . وفي

١٣٤٠ وافق ، رغبة منه فى تحسين علاقاته بالبابا ، على أن يسمح لطائفة الفرنسيسكان بإنشاء ارسالية لهم ببلاد البوسنة : وكانوا منذ أمد بعيد راسخى الاقدام فى الساحل الدالماسى ، ولكنهم حتى ذلك الحين لم يسعوا الا على استحياء للانتشار فى اراضى البوسنة (١٤) . وفى وقت ما من عام ١٣٤٧ يبدو أن كوترومانيتش نفسه قد تحول الى الكاثوليكية الرومانية : فانه كتب فى أبريل من تلك السنة الى بابا روما يسأله أن يزيد من عدد القسس المدربين المرسلين الى البوسنة الذين يكونون « مهرة فى تعاليم العقيدة ولا يجهلون اللغة السلافية » (١٥) . وكان جميع من أعقبه من حكام البوسنة من الكاثوليك ، باحتمال استثناء واحد فقط (١٦) .

وما لبث الفرنسيسكان أن أنشأوا « أسقفية البوسنة » ، وهى وحدة ادارية ما لبثت أن توسعت حتى ضمت اليها قسما ضخما من جنوب شرف أوربا ، وبذلك أصبحت ممتدة على طول الطريق الى رومانيا . (وبذلك زادت حدة تعقد الجدل حول هرطقة البوسنة ، حيث استخدم الفرنسيسكان فى وثائقهم مصطلح « البوسنة » للدلالة على مجموعة من « الخطايا » ، إن جاز مثل هذا القول) . وفى ١٣٨٥ أصبحت تلك الأسقفية تحتوى على خمسة وثلاثين ديرا فرنسيسكانيا لم يكن منها فى البوسنة نفسها سوى أربعة أديرة فقط : فى فيسوكو (Visoko) ولاشما (Lasva) وسوتيسكا (Šutjeska) وأولوو (Olovo) . وكان من الممر بنساء اثنى عشر ديرا داخل الدولة البوسنية قبل ١٤٦٣ . ولكن كل دير لم يكن يسمح فيه الا بحوالى اثنى عشر راهبا كحد أقصى ، على أن متوسط عدد الراهبان ربما لم يزد عن الأربعة لكل دير . ونظرا لأن ثلاثة من تلك الأديرة الأربعة (بدون دير أولوفو) كانت متقاربة معا فى الجزء الأوسط من البوسنة ، فان الجهد الفرنسيسكانى فى هداية الأرواح الى العقيدة البابوية لم يكن له أثر يذكر على معظم الأجزاء فى البلاد أثناء تلك الفترة المبكرة من حملتهم الدينية (١٧) . فأما الكنيسة البوسنية ، كما سنرى ، فكان يهوزها التنظيم الاقليمى السليم ، اذ يبدو محتملا أن شطرا عظيما من سكان المناطق الريفية كانوا يمارسون أدنى أشكال المسيحية الشعبية التى تمارس طقوسها دون قسس .

وعندما دفن سستيفين كوترومانيتش فى الدير الفرنسيسكانى فى فيسوكو فى ١٣٥٣ ، خلف من ورائه دولة بوسنية مستقلة تعيش فى رفاهية الرغد والقوة . ولكن ثباتها واستقرارها كن ما يزال يعتمد بسلا على تعاون الأسر النبيلة التى كانت تبسط نفوذها وسلطانها الخاص على أجزاء مختلفة من البلاد . وخلته ابن أخيه سمين نفرتكو ، وكان صعبا

لم يتجاوز الخامسة عشرة ولم يكن يملك من السلطان أو القوات العسكرية ما يمكنه من جمع شـسـتات هذه القوى الطاردة المركزية النبيلة في جميع واحد . وفي الحين نفسه كان الملك المجرى شديد الحرص على امتغالل ما يحدث في البوسنة من انقسامات لكي يسترد لنفسه أرضاً أخذت منه ، واضطر تفرتكو أثناء السنوات الأربع عشرة الأولى من حكمه الى أن يصارع التمردات البوسنية والاستيلاءات المجرية على أراضيهِ ، وفي ١٣٦٦ بلغ الأمر به أن اضطر الى اللجوء في البلاط المجرى عندما أقدمت مجموعة من النبلاء البوسنيين على اقامة أخيه فوك (Vuk) في مكانه حاكماً . ولكن في عام ١٣٦٧ تمكن - فيما هو واضح بمساعدة امر ملك المجر ، الذي أدرك أنه يحرك متاعب لن يستفيد منها هو نفسه ولا تفرتكو - من أن يعود الى السلطة في البوسنة (١٨) . ومن بعدها لم يعد يلقي أى ضرر من الملك المجرى خاصة وقد أصبح أشد اهتماماً بالأحداث التي كانت تحدث على التخوم الشمالية للمجر .

وعندئذ وجه تفرتكو التفاته نحو الجنوب . اذ تمزقت الامبراطورية الصربية الهائلة بعد مدة وجيزة من وفاة منشئها ستيفن دوشان في ١٣٥٥ . وكان أحد النبلاء الصربيين ، الذين كانوا يحاولون آنذاك اغتصاب بعض الأراضى من بقايا الدولة القديمة ، ويدعى لازار هرليانوفيتش (Lazar Hrebljanovic) ، منهمكاً في صراع معقد على السلطة مع النبلاء الآخرين في جنوب غرب صربيا في هوم (الهرسك) وزيتا (الجبل الأسود) . وقد تمزقتكو الى لازار المساعدة التي احتاج اليها وكوفىء على ذلك بجزء من الغنائم من بينها قطاع ضخم من الأرض يتاخم البوسنة من الجنوب والجنوب الشرقى : أجزاء من هوم وزيتا وجنوب دالماشيا (بما في ذلك قطع من الساحل الواقع بين راجوزا وخليج كوتور Kotor) وما أصبح بعد ذلك سنجقية « نوفي بازار » . وكان هذا الشطر الأخير يضم دير ميليشيفو (Mileshevo) ، وهو الدير الذى يحتوى على رفات القديس سافا (Sava) الذى هو من أقدم الشخصيات فى تاريخ الكنيسة الصربية الأرثوذكسية . وفى ١٣٧٧ احتفل تفرتكو بهذا الارتفاع فى مركزه ومكانته بتتويج نفسه ملكاً فى ميليشيفو ، لا بوصفه ملكاً على البوسنة فقط بل وملكاً على الصرب كذلك . على أن ادعاه ملك الصرب لم يكن الا محاولة لتضخيم الذات له ولأمـرته الحاكمة ، وزاد فى هذا الادعاء فخامة البلاط الذى أقامه آنذاك فى معقله فى بوبوفاك (Bobovak) ، على النسق البيزنطى ، أن تفرتكو ينحدر حقاً من أسرة نيمانيا الصربية

المملكة ، على أنه في الحقيقة لم يحاول جديا ذات يوم أن يمارس سلطات
الولاية السياسية على صربيا (١٩) .

على أن طموحات الملك تفرتكو في التوسع الاقليمي والسياسي كانت
موجهة صوب مواطن أخرى ، ومن هنا شاء أن ينشئ ويطور ميناء تجاريه
أخرى جديدة على الجانب الشمالي من خليج كوتور : وأسمها « نوفي »
(ومعناها « الجديد » . وهي هرسك - نوفي (Herceg-Novi) المعاصرة ،
وكانت فيما سبق معروفة كذلك باسم كاستيل نوفو (Castelnuovo) .
ولكن ذلك أغضب تجار راجوزا ، وكانت اليوسنة شديدة الاعتماد على
الراجوزيين في حياتها الاقتصادية الداخلية فلم يكن من الصواب تحديهم ،
ومن ثم عدلت بهدوء تام عن خطة نقل التجارة من راجوزا الى نوفي .
وفي الحين نفسه نشبت حرب أهلية في الأراضي الكرواتية بعد وفاة ملك
المجر في ١٣٨٢ ، فسندحت من ثم الفرصة لانتزاع غنائم أثمن وأفس .
فتحالف تفرتكو مع واحد من أشد النبلاء المتنافسين قوة ، فتوغل في
ساحل الدالماشيا بجنده ووضع يده على الحط الساحلي بأكمله (بما في ذلك
حتى بعض الجزر) ، باستثناء راجوزا وحدها التي تمكنت من الاحتفاظ
باستقلالها ، وزادار (Zadar) التي كانت تحت سيادة البندقية . وكانت
للبنديقية بتلك المنطقة مطامع قوية ، وبالبث حتى استعادت معظم الساحل
الدالماشي بعد وفاة تفرتكو . ومهما يكن الأمر ، فان تفرتكو كان سيذا
لمملكة بوسنية متوسعة جدا ضمت الى ممتلكاتها أيضا أجزاء من شمال
كرواتيا وسلافونيا : وفي السنة أو السنتين الأخيرتين قبل وفاته في
١٣٩١ كان يلقب نفسه : « ملك كرواتيا ودالماشيا أيضا » (٢٠) .

ومع نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الرابع عشر
تصل الى نقطة تحول عظيمة أخرى في تاريخ غرب البلقان . حيث كانت
الجيوش التركية العثمانية تتقدم غربا عبر ترافيا وبلغاريا منذ خمسينيات
القرن الرابع عشر . وفي ١٣٧١ انقبت بهم في بلغاريا فرقة ضخمة من
المحاربين الصربيين ، فلقيت على أيديهم شر هزيمة . وفي ثلاثينيات القرن
الرابع عشر شرع الترك يهاجمون صربيا نفسها ، وفي ١٣٨٨ زحفت فرقة
غزو تركية الى هوم (الهرسك) التابعة للحكم البوسني ، حيث أبيدت
على يد قوات يقودها نبيل محلي هو فلاتكو فوكوفيتش (Vlatko Vukovich)
وفي عام ١٣٨٩ رفض لازار الحليف الصربي القديم لتفرتكو (الذي أخذ لقب
« الأمير » المتواضع يوم أعلن تفرتكو نفسه ملكا) قبول السيادة التركية
عليه ، ودعا جيرانه وحلفاءه لمساعدته . فأرسل الملك تفرتكو قوة بوسنية
ضخمة تحت قيادة فلاتكو فوكوفيتش ، فقاتلت الى جوار جيش الأمر

لازار في معركة كوسوفو بولي (Kosovo Polje) في يونيو ١٣٨٩ . وعلى خلاف الواقع وصفت الأساطير والشعر الصربي هذه المعركة بأنها هزيمة منكورة وسماحة هلكت فيها في الميدان زهرة فرسان البلقان وراثت للترك مواسلة زحفهم خلال الجزء الباقي من صربيا ، نصحيح أن الخسائر بالفعل كانت فادحة في الجانبين وأسر الأمير لازار وأعدم ، لكن بقايا الجيش انسحبت بعد المعركة ، وظلت القوات الصربية والبوسنية نعتقد حيناً من الدهر أنها هي الفائزة . ولم تكن المعركة في حد ذاتها هي التي تولد عنها سقوط صربيا في يد الأتراك ، ولكن الواقع أنه بينما احتاج الصربيون إلى سحق جميع القوات التي يستطيعون جمعها للوصول إلى تعادل مؤقت متكلفين في ذلك الأموال الطائلة ، فإن الأتراك كانوا يستطيعون العودة سنة بعد أخرى بثوات متزايدة القوة على الدوام (٢١) . وعندما حل عام ١٣٩٢ كانت جميع الأراضي الصربية الأرثوذكسية ، فضلاً عن هوم التابعة للحكم البوسني ، قد خضعت للسيادة التركية .

وبعد وفاة تفرتكو في عام ١٣٩١ ، عانت البوسنة لفترة طويلة من ضعف الحكم والارتباك السياسي . وهناك وصف للبوسنة في أثناء تلك المدة كتبه الفرنسي جيسل لو بروفيه (Jules le Bouvier) وجمع فيه آراء رحالة آخرين ، وهو يصور صورة متعسفة للمكان : « انهم يعيشون على التهام الحيوانات الضارية وعلى النقاط السمك من الأنهار وعلى التين وعسل النحل الذي لديهم منه مقادير كافية ، وهذا هو كل طعامهم كما انهم ينطقون في عصابات من غابة إلى أخرى لقطع الطريق » (٢٢) .

لم تتمزق الدولة البوسنية بعد وفاة تفرتكو كما حدث بعد وفاة ستيفن كوترومانيتش ، ولكن النبلاء من ذوى قواعد القوة الاقليمية أعادوا تمكين أنفسهم في السلطان ، وأصبح سكان البوسنة تحت رحمة ألوان ومآذج مختلفة من المنافسات بين العائلات النبيلة المبرزة . وأبدى ملك المجر أيضاً من جديد اهتماماً بالشئون البوسنية ، وإن حدثت هزيمة ثقيلة على يد الجيش التركي في ١٣٩٦ من قدرة المجر على التدخل في الشئون الداخلية للبوسنة لسنوات عديدة . ومع ذلك فإنه عندما أقسى النبلاء المذبح البوسني أوستويا من منعه في ١٤٤٠ وأحلوا محله أبداً غير شرعي للملك تفرتكو (تفرتكو الثاني) ، فإنه عاد مع جيش مجري وغزاه جزءاً من البلاد مرة أخرى . وعلى مدى عشر سنوات ، وبدعم من المجر ، استطاع أوستويا أن يسرد حكمه وسعى لإصلاح العلاقات بين المجر وبين أقوى نبلاء البوسنة ، هرفوي (Hrvoje) .

وفى عام ١٤١٤ دخل الى الساحة عامل أخسل يتوازن القوى مر
الناحيتين السياسية والعسكرية : اذ أعلن الأتراك العثمانيون أن الملك
تفرتكو الثانى المنفى من البلاد هو الملك الشرعى للبوسنة ، وأرسلوا قوة
غزو كبيرة الى الأراضى البوسنية . وتبعوها بجيش جرار فى السنة التالية ،
رأى هذا الى تعديل فى تحالفات القوى : ففى أحد الجانبين الملك أوستويا
ومعه جيش مجرى ، وفى الجانب الآخر كان الأتراك والنبيل البوسنى
هرفوى . وسرعان ما هزم الجيش المجرى فى وسط البوسنة . ومع ان
أوستويا عقد صفقة من نوح ما كان من شروطها أن يكون هو الملك وليس
تفرتكو الثانى ، فقد أصبح واضحاً أن الامبراطورية العثمانية منذ الآن
فصاعدا سيكون لها من السلطان على الشئون البوسنية ما ينافس سلطان
المجر (٢٣) . الأمر الذى اضطر الحكام والنبلاء البوسنيين الى التعاون مع
الأتراك ، وهو أمر أثار حفيظة بعض المؤرخين المعاصرين ، ولاسيما الصربيون
منهم ولكن طريقة هؤلاء الحكام فى ذلك الوقت لم تكن تختلف كثيرا عز
نصريات أمثالهم الذين التمسوا المعونة فى الماضى من المجر ، ولكن الفارق
الرئيسى بين الاستعانة بالمجر والأتراك فى ظنهم كان أن الأتراك قوة أبعد
ووجودهم مرهون باللمحة ولا يرجح أن يفرضوا أى لون من ألوان الحكم
المباشر عليهم كما كان سيفعل المجريون .

وظل أوستويا فى السلطة بضع سنوات قليلة ، وتمكن فعلا من
توسيع رقعة الأراضى التى يحكمها . ولكن بعد وفاته فى ١٤١٨ ، واجه
ابنه نفس المشاكل : التنافس مع العائلات النبيلة الأخرى والتدخل
التركى . وما لبث أن طرد من الحكم فى ١٤٢٠ ، وفى هذه المرة أكد الدعم
التركى إعادة تفرتكو الثانى ملكا على بلاد البوسنة . ونعمت البوسنة
ببضع سنوات من الهدوء فى أوليات عشرينات القرن الخامس عشر ،
ولكن ما لبث أن تغير شكل التحالفات مرة أخرى ، حيث لجأ تفرتكو الثانى
الى المجر يستنصرها على الأتراك ، كما أنه اشترك أيضا فى حرب محلية مع
القوات الصربية فى خلاف حول منطقة المناجم الغنية فى مقاطعة سربرينيك
(Srebrenica) فى شرق البوسنة . وفى أوليات الثلاثينيات من
القرن الخامس عشر ، كان منافسها الأساسيان فى جنوب البوسنة ،
وهما النبيل ساندالى (Sandalj) وابن الملك أوستويا المدعو راديفوى
(Radivoi) ، يتاقيان المساعدة والتشجيع من كل من نبلاء الصرب
والأتراك ، وأصبحت لهما السيادة على شطر كبير من البوسنة .
وفيما بين ١٤٣٣ و ١٤٣٥ تعرضت أجزاء من جنوب وسط البوسنة تضم
منطقة فرهبوسنا (المنطقة بسرانييفو الحديثة) ، للغزو أو أعيد فتحها

على يد الجيوش المجرية والتركية وساعد ستيفن فوكتشيتش (Stephen Vukchich) حاكم هوم القوي (وهو ابن أخ ساندالي) ، القوات التركية ، فتمكنت بذلك من رد المجرين على أعقابهم . وفي تلك المرحلة كان الأتراك أشد اهتماما بالغنائم والسلب منهم بضم الأراضى الى ملكهم . وقد افترض معظم المؤرخين أن منطقة فريهوسنا ومعها قلعتها المهمة المحصنة هودديد (Hodidjed) وقعت فى يد الأتراك ، بل وحسبوا كذلك أنها ظلت تحت الحكم التركى المباشر ، منذ ١٤٣٥ و ١٤٣٦ ، غير أن من الدلائل ما يشير الى أن ذلك لم يحدث قبل ١٤٤٨ (٢٤) .

وظل تفرتكو الثانى مستمتعا بسلمطان الملك فى البوسنة حتى يوم وفاته فى ١٤٤٣ : على أن السنوات الأخيرة من حكمه تميزت بغارات تركية أخرى (بما فى ذلك سقوط سربرينيكافى ١٤٤٠) ، النمو المستمر فى القوة والسلطان الذى أحرزه ستيفن فوكتشيتش حاكم هوم . وفى البداية رفض فوكتشيتش الاعتراف بخلف تفرتكو ، وهو ستيفن توماش (Stephen Tomas) ، فأعقبت ذلك عدة سنوات من الحرب الأهلية . على أنهما ما لبثا فى ١٤٤٦ أن توصلا الى اتفاق ، ولكن فوكتشيتش ظل يواصل مساندته لحاكم صربى هو جورج برانكوفيتش (George Brankovic) الذى راح ، بوصفه حاكما شبه مستقل مواليا للترك ، يواصل الحرب على الملك البوسنى طلبا للسيادة على منطقة سربرينيكافى شرق البوسنة . وزيادة فى وضعه الاستقلالى فان فوكتشيتش أعطى نفسه لقباً جديداً فى ١٤٤٨ : « دوق (Herceg) هرتسج هوم والساحل » . ثم ما لبث أن غير هذا الاسم الى « دوق سانت سافا » ، تبركا باسم القديس المدفون فى ميليشيفو فى منطقة نفوذه . وكلمة « دوق » (Herceg) هى الشكل الصربى للفظه الدوق الالمانية (Herzog) ومن هذا اللقب أخذ إقليم « الهرسك » (Hercegovina) اسمه (٢٥) . وتمتع ستيفن فوكتشيتش ببضع سنوات قليلة أخرى من السلطان والرخاء ، ولكن فى أوائل خمسينيات القرن الخامس عشر اضطر الى الدخول فى حرب لم تقتصر فقط على اشتباكه مع راجوزا ، بل شملت أيضا حربا أهلية مع ابنه الأكبر . ولم يلبث هذا النزاع العائلى أن اشتعل مرة ثانية فى ١٤٦٢ ، عندما النمى الابن معونة الأتراك وشجعهم فى ادخال الهرسك بجانب البوسنة فيما يدبرون من خطط. لهجوم ضخم فى ١٤٦٣ .

ولم تكن هناك مندوحة من أن يظل التهديد التركى سماء السنوات الأخيرة من البوسنة المسيحية . فان الملك ستيفن توماش الذى بذل قصاراه فى الحصول على وعود بالتأييد من خارج بلاده ، اتجه فى

خمسينيّات القرن الخامس عشر الى البابوية • وكانت روما قد شرعت تحس باهتمام متزايد باليوسنة في أثناء السنوات الأخيرة خاصة وان الفرنسييسكان قد تمتعوا بفترة من النشاط الفعال هناك في ظل رئاسة جاكوب دى مارتشيا (Jacob de Marchia) ، أسقف اليوسنة النشيط وذلك في ثلاثينيات القرن الخامس عشر • ولكن السلطات البابوية ظلت أيضا شديدة الانشغال بمسألة الهرطقة اليوسنية ، وانهزم منها سيل من الوثائق في أربعينات القرن الخامس عشر تتهم فيها الكنيسة اليوسنية بارتكاب خطأ مذهبية قاتلة من بينها المانوية • وبذل الفرنسييسكان جهودا جديدة في خمسينات القرن الخامس عشر لمكافحة الهرطقة : فان تقريرا كتبه قاصد رسول في اليوسنة في عام ١٤٥١ يذكر أنه « بمجرد أن وصل الاخوة الرهبان الى الأماكن التي يسكنها الهرطقة ، ذاب الهرطقة كالشمع اذا اقترب من النار » (٢٦) • ثم وافق الملك ستيفن توماش في ١٤٥٩ ، على أن يتحول الى سياسة الاضطهاد المباشر • فاستدعى رجال الدين في الكنيسة اليوسنية المنسقة وخيرهم بين التحول الى الكاثوليكية ، أو النفي من اليوسنة • وحسب مصدر بابوي في تاريخ تال ، قبل التحول ألفان منهم ولم يفر الا أربعون اتخذوا ملجأ لهم في الهرسك (٢٧) • وبذلك قسم ظهر الكنيسة اليوسنية على يد ملك اليوسنة نفسه ، وكان ذلك قبل أربع سنوات فقط من تدمير المملكة اليوسنية نفسها •

وعندما توفي ستيفن توماش في ١٤٦١ وخلفه على العرش ابنه ستيفن توماشيفيتش (Stephen Tomasevic) ، كان واضحا أن نهاية اليوسنة على مرأى البصر • وكتب توماشيفيتش الى البابا رسالة في ١٤٦١ يتنبا بغزو تركي ضخم جارف وملتصبا المساعدة ، ثم عاد فكتب الى البندقية في أوائل ١٤٦٣ محذرا من أن الأتراك يرسمون خطة احتلال كل اليوسنة والهرسك في ذلك الصيف ، وعند ذلك سيتحركون لتهديد أراضي البندقية في دالماشيا (٢٨) • ولكن لم تصله المساعدة المنسودة • وتجمع جيش تركي عظيم تحت قيادة محمد الثاني في ربيع عام ١٤٦٣ عند أدريانوبولو (أدرنة) ثم زحف على اليوسنة • وكانت أول قلعة سقطت في أيديهم (في ٢٠ مايو) هي بوبوفاك ، المعتقل الملكي القديم ، عند ذلك فر الملك ستيفن توماشيفيتش شمالا الى يايسه (Jajce) واعتصم بقلعة كليوتش (Kljuc) ولما حاصره الأتراك هناك استسلم مقابل وعد بمنحه الأمان • وما لبثت أن ظهرت فيما بعد قصص عديدة ملفقة ، عن خيائته وما أعقب ذلك من اعدامه • ولكن لدينا رواية لشاهد عيان سجلها انكشاري تركي صربي المولد لا شك في أن وصفه حقيقي وصادق بشكل شديد : « عندما رأى خدام الملك الذين كانوا في القلعة أن مولاهم قد أخذ أسيرا استسلموا هم

الآخرون . واستولى السلطان على القلعة فأمر بقطع رأس الملك ورؤوس رفاقه واستولى على بلاده كلها وضمها الى ممتلكاته (٢٩) .

وعلى الرغم مما أصاب البوسنة من حروب أهلية وغزوات ، فانهما أحرزت رغدا ورخاء حقيقيا أثناء الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى . وكان مفتاح ثروتها هو المعادن والمناجم : فهناك النحاس والفضة في كريشيفو (Kreševo) وفوينيكا (Foynica) ، والرصاص في أولوفو (Olovo) والذهب والفضة والرصاص في زفورنيك (Zvornik) وفي كل شيء الفضة في سربرينيكا . وهناك منجم للذهب من أبام الرومان عند كروبا (Krupa) (في الشمال الشرقي من جورني فاكوف (Gornji Vakuf) ، ربما كان يستخدم في أثناء العصور الوسطى أيضا . وفي أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر وصل الى البوسنة أوائل المنقبين الألمان الوافدين من المجر وفرنسلفانيا والمعروفين باسم الساكسون (الساسي - ساكسون) بدءوا في استغلال ثرواتها المعدنية (٣٠) . وما لبث أن وفد المزيد من الساكسون في القرن الرابع عشر ، عندما راح ستيغن كوترومانيتش والملك تفرنتكو يشجعان عملية استغلال المناجم . وكانت المناجم ملكا خاصا لملك الأراضي المحليين ، كما كان يديرها الساكسون الذين كان القانون يبيع لهم قطع الأشجار من الغابات وأنشاء مستوطنات التعدين حينما وجد خام معدني . وأصبح بعض هؤلاء الساكسون أفرادا ذوي أهمية في المجتمع : وهناك واحد منهم يكثر ورود اسمه في السجلات هو هانز ساسينوفيتش (Hans Sasinovic) (أى ابن الساكسوني) منح حيازة ضخمة من الأرض منحة « دائمة » ، وأرسل عدة مرات الى راجوزا كممثل تفرنتكو (٣١) . وكان الذهب يصدر الى الخارج منذ ١٣٣٩ . وكان الرصاص يشحن من البوسنة الى البندقية وصقلية ، ولا مفر من ان يكون الرصاص البوسني قد استغل في كساء أسطح كثير من الكنائس الايطالية من عصر النهضة والقرون الوسطى . كما كان هناك أيضا استخلاص لمعدن النحاس . بيد أن المصدر الأكبر للثروة كان معدن الفضة ، كما أن سربرينيكا (ومعناها الفضة واسمها اللاتيني Argentaria) أصبحت أهم المدن التعدينية والتجارية في كل المنطقة الواقعة غرب صربيا . وعندما ظهرت لأول مرة في السجلات في ١٣٧٦ ، كانت قد أصبحت فعلا مركزا تجاريا ضخما يحوى مستعمرة راجوزية لها وزنها . واحتكر الراجوزيون تجارة الفضة في داخل البوسنة ، وكانت جميع صادرات المعادن عن طريق الساحل تذهب عبر راجوزا على أية حال . وفي مقابل ذلك كان الراجوزيون يجلبون البضائع المصنعة مثل المنسوجات العالية الجودة الى البوسنة ، لأنه عند حلول عام ١٤٢٢ كانت البوسنة وصربيا مجتمعين تنتجان أكثر من

حمس انتاج أوروبا بأجمعه من الفضة ، ولذا فقد كان هناك عدد كبير من البوسنيين الأثرياء القادرين على شراء مثل هذه السلع (٣٢) .

ولم تسيطر المستعمرات الراجوزية (ومعها الساكسون) فقط على المدن النعمينية المذكورة أعلاه ، بل وأيضا على مدن تجارية مهمة مثل فوتشا (Foca) . وكانت هناك أيضا مستعمرة راجوزية في فيسوكو (Visoko) ، التي كانت أيضا عاصمة بانية البوسنة في معظم العصور الوسطى . وطبيعي أن هذه المدن العظمى ، بما فيها من مجتمعات الساكسون الكاثوليك والراجوزيين وغيرهم من الدالماشييين ، كانت تجذب الفرنسيين عندما بدءوا ينشئون الأديرة الكاثوليكية في البوسنة : وبهذا اشتد في تلك المدن الطابع الكاثوليكي . وكان من بين المدن التجارية القروسطية الأخرى الواقعة على طرق التجارة يابسه وترافنيك (Travnik) وجورازدة (Gorazde) وليفنو (Livno) . وبالإضافة الى هذه المراكز التجارية الكبرى كان هناك كثير من المدن المحصنة الصغيرة (وعدتها ٣٥٠ بلدة تقريبا بكل أرجاء البوسنة القروسطية) (٣٣) . وتضم هذه المجموعة فرهبوسنا ، التي لم تكن في أخريات العصور الوسطى لتزيد كثيرا على قلعة تقوم الى جوار قرية ، والتي لم تلبث أن أصبحت مدينة سراييفو على يد الأتراك بعد ١٤٤٨ .

فأما في الريف ، فان غالبية السكان كانوا من أقنان الأرض (Kmetts) الذين كانوا يجندون للخدمات العسكرية والزراعية لسادتهم ويدفون ضريبة العشر الى الملك (ولو نظريا على الأقل) (٣٤) . وكان هناك أيضا أرقاء ، هم في الغالب أسرى حرب ، وكان بعضهم يشتري أو يباع في سوق الرقيق الكبير في راجوزا ، وكان كثير من البوسنيين يباعون هناك أيضا كأرقاء ويصدرون الى البندقية وفلورنسا وجنوة وصقلية وجنوب فرنسا وقطالونيا (٣٥) . فأما هناك في المرتفعات في الجبال البوسنية فكان الرعاة ، وبعضهم من الأفلاق (انظر الفصل السادس) ، الذين كان النظام الاقطاعي يمنحهم بسرعة وسهولة أقل . وكان التفرق بين الناس العاديين والنبلاء هو التقسيم الأساسي في المجتمع البوسني ، على أنه كانت هناك فوارق أخرى بين طبقة النبلاء العليا والدنيا ، بالرغم من أنها لم تأخذ الصبغة الرسمية التي أخذتها في النظام الأوربي الغربي القائم على الترتيب الوراثي . وبالرغم من أن القوة الحقيقية كانت تعتمد بطبيعة الحال على امتلاك الأرض ، فان المركز كان أكثر اعتمادا على الوظيفة : فالذين يملكون المناصب العليا في الدولة كانوا يسمون فيوموজে Veomoze أي « الأعمام » ، فأما أصحاب المناصب الأقل فكانوا يسمون كنتس Knts ،

وهو لقب يعادل لقب بارون * وبينما كان اللقب السلافي القديم للحاكم الاقليمي ، وهو الجوبان ، ظل قائما ، فان منزلته كانت تقع في موقع ما بين هاتين المنزلتين (٣٦) * وكان كبار النبلاء يملكون كما رأينا سلطة سياسية عظمى ، وكانوا يستطيعون أن يولوا أو يعزلوا البانات والملوك * وعند نهاية القرون الوسطى أى منذ تسعينيات القرن الرابع عشر وحتى عشرينيات القرن الخامس عشر كانوا يعقدون « مجالس الدولة » ، بطريقة رسمية أو غير رسمية ، للتناقش في مسائل توارث العرش وغيره من الشؤون ثقيلة الوزن الخاصة بالسياسة الداخلية والخارجية (٣٧) *

وكان لبعض النبلاء الأعظم شأنا بلاط على نفس مستوى بلاط الملك نفسه ، وعلى هؤلاء كان يفد ، من راجوزا أو ما وراءها ، الزمار والعوادون وناقخو الأبواق والحواة « والمهرجون » وغيرهم من أهل الطرب والسمر ، وكانوا يتقاضون مكافآت باهظة (٣٨) * وكانت للبلاطات الملكية أيضا مستشارياتها الجيدة التنظيم والتي كانت عدتها غالبا ، بعد أربعينيات القرن الرابع عشر ، من الفرنسيين ، وكانت الوثائق تكتب اما باللغة السلافية أو اللاتينية ، وتم تطوير أشكال خاصة من الخطوط البوسنية المتنوعة التي تختلف عن السيريلية (Cyrillic) والتي عرفت باسم بوسانتشيك (Bosancica) (٣٩) * رجا الفنانون وأرباب الحرف أيضا من راجوزا والبندقية للعمل في البوسنة ، ومن أسف أنه لم يبق مما قدمت أيديهم من أعمال فنية الا القليل ، ولكننا نجد أعمال حفر ذات جودة طيبة في جذاذات التماثيل التي بقيت الى الآن بقصر الملك تفرتكو في بوبوفاك ، فضلا عن تاج عمود منقوش عليه الرمز الملكي البوسني ، وهو زهرة الزنبق (٤٠) * والبوسنة لم تكن بالطبع مركزا مهما من مراكز الثقافة الأوروبية في العصور الوسطى * ومع هذا فلا ينبغي لنا المغالاة في تصوير عزلتها الاقليمية * فان العائلات النبيلة الحاكمة كانت على اتصال وثيق بدائرة أرحب من الأسر النبيلة بوسط أوروبا : وكان البلاط الملكي البوسني القروسطي يضم أميرات من المجر وبروسيا وبلغاريا وبولندا وروسيا وإيطاليا واليونان (٤١) * ولئن كانت البوسنة أرضا متخلفة بقياس المعايير الأوروبية الغربية ، ولكنها بحر تفيض فيه فعلا بعض التيارات الأوروبية الثقافية *

الفصل الثالث

الكنيسة البوسنية

ليس هناك موضوع فى تاريخ البوسنة دار حوله نقاش وجدل أكثر من مسأله الكنيسة البوسنية الانشقاقية فى العصور الوسطى (١) . ومن المحال علينا أن نناقش ذلك الموضوع دون أن نمس أيضا الأساطير والمذاهب العصرية النى خدمتها أو فندتها . وعندى أن الهرطقة القروسطية شأنها شأن تاريخ ثورات الفلاحين تقريبا ، انما هى موضوع يبر قدرا من التعاطف الرومانسى اللاشعورى لدى المؤرخين : فان الهرطقة كثيرا جدا ما يبدون أكثر شجاعة وأكثر أصالة وأكثر انارة للتشويق والاهتمام من المؤمنين التقليديين . ولكن كنيسة قومية هرطقية (أو يدعى بأنها هرطقية) انما تثير احساسا أخص بالتعاطف حيث يرى كثير من مؤرخي البوسنة أن هذه الظاهرة البوسنية العجيبة الخاصة انما هى صميم القومية البوسنية . فلا عجب اذن اذا رأينا بين حين وآخر ، كتابا يعالجون ذلك الموضوع لا يلتزمون التزاما صارما بالدقة العلمية .

من المؤكد أن المؤسس لجميع الدراسات العصرية للكنيسة البوسنية كان رجلا علامة : وهو فرانيز راتسكى (Franjo Racki) ، وهو أهم المؤرخين الكرواتيين فى القرن التاسع عشر . فانه جمع فى مجموعة من المقالات التى نشرت تباعا فى ١٨٦٩ - ١٨٧٠ كل ما أمكنه الوصول إليه من بيانات وشواهد ، وحاول أن يثبت أن الكنيسة البوسنية كانت نبتة البوجوميلية (٢) . والبوجوميلية كانت حركة بلغارية هرطقية أسسها فى القرن العاشر قسيس يدعى « بوجيوميل » (حبيب الله) ثم انتشرت فى القرون التالية فى القسطنطينية وبقية مناطق البلقان ، بما فى ذلك مقدونيا وأجزاء من صربيا . وهى تبشر بلاهوت مانوى « ثنائى » يكاد يكون فيه للشيطان قوة تكافئ قوة الله أو تكاد ، وفيها أن العالم المرئى انما هو من خلق الشيطان وأنه ليس فى امكان البشر أن يخلصوا أنفسهم من براثن العالم المادى الا باتباع حياة تزهد وتكشف متخلين عن اللحم والنبينة

والاتصال الجنسي . والمطابقة بين المادة ومملكة الشيطان لها مضامين أو معان لاهوتية بعيدة المدى : مثل اعتبار تجسد المسيح نوعا من الوهم والخيال ، وأنه من ثم لم يكن في الامكان حدوث موته على الصليب ، وكان لابد لمراسم متنوعة لثيرة تنطوى على مواد مادية مثل التعميد بالماء أن تنبذ ، وأن الصليب نفسه أصبح رمزا مروجيا لاعتقاد زائف . وكان مرفوضا أيضا ، استخدام مباني الكنيسة ، كما مقت بالفعل الهيكل التنظيمي للكنيسة التقليدية خاصة أديرته الثرية . وصنف أتباعها في مرتبتين : المؤمنون العاديون و«النخبة المطهرة» (٣) . وقد نمت بنيه مشابهة بين الكاثار (Cathars) بجنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، الذين تأثر مذهبهم الهرطقي تأثرا شديدا بالنعالييم البوجوميلية (٤) . وقد دفع راتسكي بأن ذلك التقسيم نفسه قد حدث بالبوسنة ، وأن المصطلحات الغامضة «جوست» (Jost) و«ستارك» (Starac) و«سروينيك» (Strojinik) التي تنشر في الوثائق البوسنية كالألقاب للأعضاء الرئيسيين في الكنيسة البوسنية ، إنما كانت مصطلحات خاصة تطلق على العارفين بأسرارها وهم «النخبة» أو «الكاملون» في التقليد البوجوميل المأثور .

وكان لهذا التأويل أثر عميق على الطريقة التي فكر بها المؤرخون البوسنيون وغيرهم من السلاف الجنوبيين حول تاريخ البوسنة . ولم يكن راتسكي أول كاتب ربط بين الكنيسة البوسنية والبوجوميل ، وكان هناك بطبيعة الحال كتاب كاثوليك أقدم عهدا راحوا ، أتباعا لمصادر القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، يصفونها بأنها تتبع هرطقة ثنائسية أو «مانوية» (٥) . ولكن راتسكي أنتج صورة أوفى كثيرا وأشد تكاملا وتماسكا للكنيسة البوسنية بوصفها هيئة متميزة تميزا تاما عن كنائس كرواتيا وصربيا ولها مبادئها الخاصة في التنظيم واللاهوت ، وذلك بفضل جهوده الشاقة المتأنية في محفوظات دربروفنيك والبندقية وطريقته الخاصة في استخدام المعلومات المعروفة حول المعتنقات والممارسات البوجوميلية غير البوسنية لملاءم الفجوات الخالية في البيئات والشواهد البوسنية . والتفسير الوحيد المنافس لهذا في ذلك الزمن وهو تأويل بوجيشار بترانوفيتش (Bojidar Petranovic) الذي دفع بأن الكنيسة البوسنية كانت مجرد كنيسة أرثوذكسية شرقية . ولعلها صربية انفصلت عما عداها واحتازت بعض المعتقدات الهرطيقية (٦) . وظلت هذه النظرية مقبولة تماما لدى الكتاب الصربيين الذين كانوا حريصين تماما على اظهار البوسنة على أنها تابعة لصربيا في جميع جوانبها الجوهرية ، وظلت هذه النظرية تردد في النصف الأول من هذا القرن ، ثم فقدت تأييد العلماء ، على

الاقول (٧) ، خارج صربيا ولكنها لم تنبذ نهائيا ، كما أنها في السنوات الخمسين الأخيرة لقيت تأييدا قويا من بعض كبار العلماء في البوسنة مثل ألكسندر سولوفيف (Aleksandr Solovjev) ودراجوفين كنيوولد (Dragutin Knieweld) (٨) . أما النظرية الرئيسية الأخرى المنافسة التي نمت مؤيدة ومساندة في فترة ما بعد الحرب ، فتدفع بأن الكنيسة البوسنية كانت في جوهرها فرعاً من الكنيسة الكاثوليكية ، ولعلها كانت هيئة ديرية حل بها الانشقاق واكتسبت بعض الميول الهرطيقية ، وهذه النظرية ولا عجب ، انتشرت بوجه خاص بين الكتاب الكاثوليك (٩) . على أن أشد الإيضاحات اقناعاً ، كما سنرى ، يحثون على عناصر مهمة من كل من النظريتين الشرقية الأرثوذكسية والكاثوليكية . أما النظرية التي راجت ندة تتجاوز القرن وهي اكتشاف راتشكي أن الكنيسة البوسنية كانت بوجوميلية ، فقد تبين أنها محض أمانى .

وقد لقيت نظرية فرانكو راتشكي البوجوميلية هذا الانتشار الشديد لعدة أسباب . فهي لم تقتصر فقط على توضيح ملامح غامضة للكنيسة البوسنية ، بل إنها تقدم أيضاً مفتاحاً يوضح اثنين من تلك الأسرار الكبيرة الأخرى في التاريخ البوسني . أحدهما هو اعتناق شطر عظيم من سكان البوسنة دين الإسلام في عهد الترك - بنسبة أعظم كثيراً منها في أي قطر بلغاني آخر عدا البانيا . وببدو طبيعياً أن نفس ذلك بأنه اعتناق جماعي لدين آخر قام به البوجوميل ، الذين انتهوا إلى اعتناق الإسلام بعد أن صمدوا قروناً متوالية تلقاء منافسات و/ أو اضطهادات صادرة من الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية . وبهذه الطريقة أصبحت النظرية « البوجوميلية » بصورة جوهرية ، جذابة بوجه خاص لأبناء القرن العشرين من مسلمي البوسنة . فبدلاً من اعتبارهم مجرد مرتدين من الكاثوليكية أو الأرثوذكسية (الأمر الذي حدث في أوقات مختلفة أن دعاهم الكروات والصربون أن « يعودوا عنه ») ، فإنهم يمكنهم الآن أن يعدوا أحفاداً لأتباع كنيسة بوسنية أصيلة الجذور لها عقيدتها الخاصة ، وأن تحولهم إلى الإسلام لا يمكن أن يعد دليلاً على الضعف ، بل هو ذروة التحدي لمضطهديهم المسيحيين . ومع ذلك فمن سوء الحظ أن المحافل العلمية الحديثة نسفت تماماً دعوى أن اعتناق البوسنة للإسلام كان في جوهره تحولاً شاملاً لأتباع الكنيسة البوسنية إلى الإسلام . ولا شك في أن بعض أعضاء هذه الكنيسة قد جنحوا حقاً إلى اعتناق الإسلام بسبب اغترابهم عن التمسك الرئيسي للكنائس الكاثوليكية أو الأرثوذكسية ، وهذا أمر يبدو ممكناً من الناحية السيكولوجية ولكن تعوزه البينة . والنسبة المبهمة اليوم هي أن هناك عوامل تدخلت في انتشار الإسلام بالبوسنة ، وأنه إذا كان

الموقف الخاص للكنيسة البوسنية كان عاملا منها ، فانه لم يكن أبدا
أهمها (١٠) .

واللغز الكبير الثانى الذى يبدو أن نظرية « البوجوميلية » قد حلته ،
هو سر شواهد القبور فى العصور الوسطى ، التى توجد بأرجاء كثيرة من
البوسنة وهى تعرف باسم ستينشى (Stecci) وهى جمع كلمة (Stecak)
وتوجد على هيتتين : النصب وهى هيئة أو شكل شائع فى أجزاء كثيرة من
أوروبا ، والكتل القائمة التى تختص بها الى حد ما المنطقة البوسنية . وقد
سجلت منها فى سجلات المساحة الحديثة أكثر من ثمانية وخمسين ألفا ،
ومن هذه ستة آلاف تقريبا مزينة بالنقوش المحفورة والتى تكون أحيانا
شخصا بشرية . أما المزخرفة منها ، وأكثرها يمكن ارجاع تاريخه الى القرن
الرابع عشر أو القرن الخامس عشر ، فتوجد بوجه خاص فى بلاد الهرسك
وجنوب البوسنة والأجزاء المجاورة بدمالاشيا ، وان وجد بعضها بمناطق
أخرى بعيدة أى بكمرواتيا وصربيا والجبل الأسود (١١) . ولما كانت هذه
المنطقة هى محور المنطقة المعروفة بأنها كانت مجال أنشطة الكنيسة
البوسنية ، كان من الطبيعى الربط بين الظاهرتين ، كما أن هناك بعض
الشواهد المزخرفة والمنقوشة تذكر فعلا أنها نصب « للجوستى » Gosti
(وهو لقب كبار أعضاء الكنيسة البوسنية) . ومن ثم بدأ المؤرخون يفسرون
التصميمات على شواهد القبور المزخرفة على أنها تعبير عن المعتقدات اللاهوتية
البوجوميلية . وكانت أولى المحاولات فى هذا الاتجاه هى التى قام بها
الكاتب المجرى يانوس آسبوت (Janos Asboth) فى ثمانينات
القرن التاسع عشر ، وفى العقود الوسطى من هذا القرن استأنف العلماء
تفسيرات شواهد القبور البوجوميلية فى دراسات متعاقبة قام بها
ألكسندر سولوفييف (١٢) .

وللمرة الثانية عادت الأوساط العلمية والمنطق البسيط فأثارا
مجموعة كبيرة من الاعتراضات على النظرة « البوجوميلية » . فمع التسليم
بأن بعض أعضاء الكنيسة البوسنية خلدت ذكراهم على شواهد القبور
لكن الفكرة القائلة بأن ظاهرة شواهد القبور هذه كانت تعبيرا لمعتقدات
تلك الكنيسة أصبحت موضعاً للشك المتزايد . ونحن نعلم أنه فى أخريات
القرن الرابع عشر وأوليات القرن الخامس عشر عندما صنعت كثير من
هذه الأحجار ، كان قسم كبير من سكان البوسنة الحقة من الكاثوليك وكان
قسم يعتد به من سكان الهرسك من الأرثوذكس . وكانت شواهد القبور
فى جميع الأراضى الكاثوليكية والأرثوذكسية عادة منتشرة ، على الأقل بين
الأغنياء ، فإذا ما قرنا شواهد القبور بالبوجوميلية فكأنما نحل لغزا بلغ

آخر - ونعني بذلك عدم وجود شواهد قبور كاثوليكية أو أورثوذكسية (١٣) .
ومن ناحية أخرى فإذا كانت شواهد القبور شيئا مميزا يخص البوجوميلية ،
فإن من الغريب حقا ألا تكون هناك دلائل على صنع البوجوميليين لها
في بلغاريا أو تراقيا أو المواطن الأخرى المشهود لها بشدة بأنها مناطق
تسيطر البوجوميل (١٤) . ولا شك في أن اصرار بعض الكتاب على التوحيد
بين هويتى هذه الظاهرة والبوجوميلية قد أدى الى التواءات عجيبة في
المناقشة . فإن وجود الصليبان (وهى رمز مكروه من البوجوميليين) على
شواهد القبور ظل على الدوام عائقا بقف حجر عثرة فى سبيل النظرية ،
ولكن يانوس أسبوث أعطى أصحاب النظرية الوسيلة للدوران حول هذا
الاعتراض عندما أصر بأنها ليست صلبانا حقيقية بالمعنى المسيحى
المعروف ، وإنما هى مجرد « نماذج » تماثل النماذج الهندسية المرسومة
فى الفن المصرى الفرعونى أو البابلى (١٥) .

وما لبثت نظرية شواهد القبور البوجوميلية أن تقوضت بالتدريج
ونبذت . فمعظم العلماء أصبحوا الآن يعتقدون أن الموتيفات على هذه
الأحجار لا تنسب كلها الى لغة مذهبية تصويرية واحدة . فربما يعكس
بعضها شيئا من البقايا الموروثة من الأساطير والشعائر الوثنية البائدة ،
وربما حمل البعض الآخر شعارات النبالة التى تعبر عن مركز النبلاء
السلاف المحليين ، وربما خلدت بعض هذه الشواهد أنشطة قام بها
أصحابها على شاكله صور الخيالة على قبور الأفلاق المبرزين بالهرسك الذين
جمعوا الثروات وأصبحوا أغنياء نتيجة عملهم فى تسيير القوافل وتجارة
الخيول (١٦) . وبطبيعة الحال ، فربما كان الغرض من بعض هذه
الرخارف والزينات على هذه الأحجار إنما هو مجرد الزخرفة وحسب ،
وإن كانت هذه النقطة آخر الاحتمالات التى يجوز للمؤرخين أخذها فى
الاعتبار .

على أن اخفاق نظرية البوجوميلية فى تفسير التحول الى الاسلام
أو صنع شواهد القبور لا ينقض النظرية نفسها . ولكنه يحمل المؤرخين على
النظر نظرة أعمق الى البيانات الكتابية التى تتعلق بالكنيسة البوسنية
نفسها بدلا من أن يشطحوا بأفكارهم فى تفسير الأشكال المصورة أو تأمل
الفترات السابقة . وهنا لب المشكلة ، فمعظم هذه الأدلة الوثائقية تأتى من
خارج البوسنة نفسها . ففي العادة لم تكن السجلات البابوية تحتفظ
الا بردود البابا على الرسائل التى بعث بها الكاثوليك فى دالماسيا
والبوسنة ، كما أن بعض الوثائق البابوية الحافلة باللعنات والتنديد
« بالهرطقة » البوسنية دبحها قوم لم يطاءوا بأقدامهم أرض البوسنة ،
كما أن هناك مستندات أعدتها الرهبان الفرنسيسكان فى ايطاليا أو وجهت

لهم كانت دراية كاتبها بالأمور الحقيقية في البوسنة غير مؤكدة
بالمثل (١٧) . ومن سوء الحظ أنه لبس هناك وصف صحيح ، ورد من
داخل البوسنة عن تنظيم الكنيسة البوسنية أو احتفالاتها أو لاهوتها .

وحتى الأسماء المستخدمة في الوثائق المبكرة كانت مصدرا للمجادلات
والمنازعات والربكات المحيرة . والحقيقة الوحيدة التي أصبحت واضحة
تماما ، هي أن الكنيسة البوسنية لم توصف بأنها « بوجوميلية » قط أثناء
ذلك الزمان . فليس هناك على الإطلاق مصادر كاثوليكية أطلقت ذلك
المصطلح على البوسنيين ، والمصدر القروسطي الوحيد الذي يشير إشارة
واضحة الى البوجوميليين في البوسنة مصدر زائف زيفا مؤكدا أقرب الى
اليقين (١٨) . ومن الناحية الأخرى ، فعندما صبت مستندات صربية
أرثوذكسية من أخريات القرن الرابع عشر لعناتها على البوسنيين
الهرطقة ، فانها لعنت أيضا « البابيرى » Babuny (وهو مصطلح
معروف أنه كان يطلق على البرجومييليين ببلاد الصرب) ، وأظهرت بوضوح
أنهما جماعتان منفصلتان (١٩) . كما أن مؤلفي القرن الرابع عشر
الكاثوليك أشاروا في بعض الأحيان الى المانويين ببلاد البوسنة . على
أن ذلك المصطلح يبدو أنه حيلة استخدمها أرباب الأقلام ذوو النزعة
التاريخية الذين كانوا يميلون الى تزيين أعمالهم الأدبية بالمصطلحات
المستخدمة في التاريخ المسيحي المبكر (٢٠) .

والكلمة شائعة الاستخدام في المصادر الراجوزية وبعض الوثائق
الإيطالية أيضا - ولكن ليس أبدا بالبوسنة نفسها - هي كلمة « باتارينى »
Patareni أو Patarini (او باللغة الإنجليزية Patarinus) (٢١) .
وهذا المصطلح أيضا له تاريخ محير الى حد ما . إذ أنه بعد أن استعمل
لأول مرة في مدينة ميلانو في القرن الحادى عشر في وصف حركة إصلاحية
شديدة التطهريّة في الكنيسة الكاثوليكية ، أصبح يطلق في ذلك القرن
على أصحاب الدعاوى الفكرية والدينية المناوئة للكنيسة الرسمية ،
بما في ذلك الهرطقة . وإذا هي في أخريات القرن الثانى عشر تستخدم
مرادفا حقيقيا للهرطقة التي كانت تستهدف نوعا اعلى من الطهر
أو التنوير الروحي ، مثل حركات الفالدينيين والكاثار ، ثم في المفسرون
الثالث عشر أصبحت لفظة باتارين هي الكلمة المعتادة التي تطلق على الكاثار
بشمال إيطاليا . ولكن معنى هذه الكلمة لم يعرف بوضوح أبدا في
المصطلحات اللاهوتية (٢٢) . وقد ظهرت أولا مرتبطة بالبوسنة في خطاب
أرسله كبير أساقفة سبليت الى البابا في عام ١٢٠٠ ، فقد قال انه عندما
طارد الهرطقة الباتارين من سبليت ومن المدينة الساحلية القريبة نروجر

(Trogir) ، وجدوا ملتجأ لهم بالبوسنة حيث رحب بهم بان كولن (٢٣) . ويقول مصدر آخر (وهو مدونة تاريخية كتبت في سبيلت في منتصف القرن الثالث عشر) ان أخوين من زادار (وهي مدينة ساحلية أخرى) زارا البوسنة في صورة فنانيين وصائغين للذهب في تسعينيات القرن الثاني عشر ، كانا يعلمان الناس الهرطقة حيثما ذهبا ، وبعد أن وقع كبير الأساقفة عليهما العقوبة رجعا عن مذهبهما وعادا للكاتوليكية (٢٤) . وهناك بعض اشارات من مصادر كاثوليكية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تشير الى وجود مركز للهرطقة اثنائية في سكلافونيا (Sclavonia) ، وينطبق المصطلح على أى أرض من الاراضى السلافية الجنوبية ، ولكن هناك أسبابا تدعونا الى الظن بان الهرطقة كانت قاعدتها في مكان ما على الساحل المداش (٢٥) . ومع ذلك فان من الممكن تماما أن احدى أو كلتا هاتين القصبتين المذكورتين عن الهرطقة كانت مرتبطة بالحركة اثنائية ، وأنه كان هناك شيء من الاتصال اثنائي مع البوسنة أثناء أخريات القرن الثاني عشر .

فاما المصطلح الذى كان يستخدمه البوسنيون أنفسهم فلم يكن « باتارين » ولكن ببساطة كان كلمة « مسيحي » : باللغة اللاتينية « Christianus » وباللغة الصربوكرواتية « Krstjanin » . وسرعان ما برز الى النور هذا المصطلح في أول وثيقة خرجت من البوسنة نفسها . وفي أعقاب شكايات أخرى حول الهرطقات في البوسنة (منها ما هو يحتمل أنه مصطنع كما رأينا في الفصل الثاني استغفرته المنافسات السياسية) ، أرسل البابا مندوبا رسويا الى البوسنة في ١٢٠٣ . وكانت مهمته تنحصر في أن يكتشف ، كما أمر بان كولن ، اذا ما كان الناس في اقليمه « ليسوا هراطقة وانما هم كاثوليك » . وكانت النتيجة هي عقد اجتماع بين رجال الاكليروس البوسنيين بمدينة بولينو بوليه في أبريل من تلك السنة ، وفيه سطرنا تصريحاً يعدون فيه بتصحيح سلوكهم . وتعهدوا بالاعتراف بسيادة روما الكاملة ، وبقبول القسس الكاثوليك في أديرتهم ، وارجاع الهياكل والصلبان الى أماكن العبادة ، والعودة الى نظام الاعتراف والتوبة ، واتباع التقويم الروماني للأعياد والصوم ، وتلقى التناول سبع مرات على الأقل في السنة ، وأن يفرقوا بين الجنسين في الأديرة ، وأن يمتنعوا تماما عن ايواء الهراطقة . ووعدوا أيضا ألا يطلقوا على أنفسهم وحدهم اسم المسيحيين ، وانما أن يشيروا الى أنفسهم بأنهم « اخوة » (Fratres) بدلا من ذلك (٢٦) .

وأعجب ما في هذا التصريح دون شك أنه ليس نبذا للهرطقات . نلثن كانت بعض فقراته تدل على السلوك الهرطيق ، مثل عدم وجود

الهيكل والصلبان ، ولكن ذلك ربما دل على الجهل وعدم الكفاية أو الإهمال من ناحيتهم فقط . وإشارة الخاصة الوحيدة الى الهرطقة هي الوعد بعدم إيواء الهرطقة ، وهو أمر قد يشير الى أن رجال الاكليروس البوسنيين أولئك أنفسهم لم يكونوا يعتبرون هرطقة عند المندوب الرسولي . وبالنظر الى الإشارة الواردة هنا الى الاستخدام الخاص لكلمة «المسيحيين Christianus» وبالنظر الى استخدام مصطلح «المسيحيين Krstjanin» أثناء القرون (يوم كانت الكنيسة البوسنية تعد بكل تأكيد هرطيقية عند روما) فقد أغرى هذا الكثير من المؤرخين على محاولة استقراء تاريخ البوجوميل في سطورها وكذلك تاريخ الهيكل التنظيمي لأتباع الكنيسة البوسنية في أوج انشقاقها . ولكن هذا المنهج لن يصل بالمؤرخ الا الى استنتاج ما يظن أنه يعرفه بالفعل . أما خبر وسيلة لحل مشكلة الكنيسة البوسنية فهي الاقتراب منها من الاتجاه المقابل المضاد : فأولا يجب البدء بالنظر في مصطلح المسيحي وما الذي كان يعنيه فعلا في ذلك الزمان ، ثم البحث عن الدلالات التي يمكن تفنيدها في تاريخه التالي المتأخر .

وكما لاحظ كثير من الكتاب ، فان الهيكل الاساسي للكنيسة التي التقت في بولينو بوليه كانت ديرية . فالزعماء الذين اجتمعوا هناك وصفوا بأنهم « الأئمة » الذين جاءوا الى هناك ليمثلوا « اخوانهم » الرهبان كما وعدوا بأن يسموا أنفسهم « اخوانا » في المستقبل . وبعض وعودهم كان متصلا بخاصة بممارسات تجرى في الأديرة . ولكن أي نوع من الأديرة كانت تلك ؟ لقد كانت القاعدة الأساسية الديرية في المسيحية الغربية هي قاعدة القديس بنديكت ، وافترض بعض العلماء (وبخاصة الكاثوليك منهم) أن هؤلاء الرهبان البوسنيين كانوا نوعا فجا من البنديكيت ، ولكن ليس هناك بعد ذلك أية علامة أو إشارة تدل على قيام النشاط البنديكيتي في أرض البوسنة (٢٧) . واكتشف حل تلك المعضلة مؤرخ عصرى هو مايا ميليتتش (Maja Miletich) ، الذي أدرك أن المزج بين الجنسين المشار اليه في التصريح كان بقية باقية للممارسة المسيحية المبكرة المسماة « بالأديرة المزدوجة » ، التي كانت مباحة تحت قاعدة القديس بازيل مؤسس التقاليد الديرية في المسيحية الشرقية . (وليس هذا الاعلان هو البيئة الوحيدة على تلك الممارسة : فان بعض الكتابات القديمة بدءا بكتابات البابا بيوس الثاني في القرن الخامس عشر تذكر أيضا أديرة بعيدة بأرض البوسنة تعيش فيها أيضا النساء اللاتي كن يتولين خدمة الرجال المقدسين) (٢٨) . وكان هذا النوع من الأديرة موجودا في الكنيسة الكلتية المبكرة ، وكان أعضاؤها غالبا ما يسمون بالمسيحيين (Christiani) وكان من الجائز أن تنضم اليها

عائلات بأكملها ، هو أمر أدى الى شيء من الضعف في التمييز بين الحياتين
الديرية والديوية . (ووعده الموقعون على اعلان بولينو بوليه أيضا بارتداء
ثوب ديرى مناسب ليميزوا أنفسهم عن الرجال العاديين) . وكثيرا ما كانت
هذه الأديرة تقوم بدور في المجتمع الديرى حيث كانت تنهض بدور النزل
أو المشفى (Hospitia) - أى فنادق للمسافرين أو مشافى للمرضى .
(وكذلك أيضا ضم الاعلان وعدا بإنشاء جبانات مناسبة للزوار الذين
يموتون فى الدير) . وكان للنزل (Hospitium) حافظ يدعى
الهوسبيتالى (*) (Hospitalarium) أو بعبارة أبسط هو المضيف (Hospes)
وهي الأساس لكلمة مضيف الافرنجية الحديثة (Host) . وهذا هو المعنى
الحرفى للقب جوست (Gost) ، الذى نجده فيما بعد وكثيرا ما يستخدمه
كبار أعضاء الكنيسة البوسنية (٢٩) .

وموجز القول ان كثيرا مما كان يحيرنا فى شأن الكنيسة البوسنية
فى أثناء تاريخها التالى قد انكشفت خفاياه . فكما تدل عدة مراجع متأخرة
كان المعنى الأساسى لكلمة « المسيحى » (Krstjanin) وهذا هو المعنى
ففى منتصف القرن الخامس عشر مثلا أشار الدوق ستيفن فيوكتشيتش
الى عضو شهير فى الكنيسة البوسنية وهو جوست رادين بأنه أحد
« رهبانه » (٣٠) . وببساطة تامة ، ليس من الضروري أن نقيم بنيان
الكنيسة كما حاول راتشكى أن يفعل على أساس هرم كنسى بوجوميل
أو كاثارى قسرى . والألقاب الخاصة التى بقيت الى اليوم فى صفحات
السجلات تتناسب على أكمل وجه مع البنية الديرية . وكان رأس الكنيسة
كلها معروفا باسم الديد (Djed) ومعناها الحرفى هو « الجد » وكانت
نونوس (Nonnus) وهى الكلمة اللاتينية ذات المعنى نفسه تستخدم فى
كل من نظامى الديرية الغربى والشرقى فى الإشارة الى الاخوة أو الكبار
أو الرهبان الرؤساء (٣١) . فأما اللقبان الآخران المستخدمان فى السجل
فيشيران الى أعضاء رئاسيين أو موظفين فى الدير وهما Starac
(« شسيخ ») وستروينيك Strojnik (« أى المشرف Steward ») .
ولم يكن أى لقب من هذه الألقاب ومعها مصطلح « جوست » يمنع حامله
من أن يأخذ لقباً آخر منها فان سجلات الارساليات الدينية الى راجوزا فى
القرن الخامس عشر تضم اشارات الى اثني عشر مشرفا ، بما فيهم جوست
رادين « والى مشرفينا » سماتراتس ميشلين (Misljen) وستاراتس
بيلكو Bilko « (٣٢) .

(*) فارن فرقة الهوسبيتاليين فى الحروب الصليبية - (المترجم)

ومصطلح ستروينيك أى المشرف يحمل معنى قويا لذلك المشرف الذى يباشر الضيوف ، ومرة أخرى فإن هذا ربما كان تذكيرا بالدور الاجتماعى للمنزل أو المشفى الديرى . بل اننا نجد تلميحا لهذا فى النقش الموجود على قبر بوسنى يقول : هنا يرقد الرجل الصالح جوست ميشلين الذى أعد له ابراهيم (أو النبی ابراهيم) للترحيب به ، العدة (٣٣) . وربما تكون الإشارة الى النبی ابراهيم الماعا لفقرتين فى العهد الجديد من الكتاب المقدس تدلان على أن الرجل الصالح بعد الموت سوف يجلس فى ضيافة سيدنا ابراهيم فى الجنة (٣٤) . كما أن الإشارة الى « القاعة » ندل على أن كرم الضيافة كان يعد واجبا ضروريا للكنيسة الديرية البوسنية . فأما استمرار قيام الأديرة البوسنية بدور مهم كدور مقام للمسافرين والتجار ، فأمر واضح من الاشارات الكثيرة الى ذلك فى السجلات المودعة فى دوبروفنيك (*) : ان التجار الأفلاق ليتروكون بضاعتهم هناك فى بعض الأحيان كما أن بعض الأديرة ربما قامت بدور مراكز الجمارك (٣٥) . والمصطلح الذال على « الدير » فى السجلات هو « Hiza » ، وهى كلمة يمكنها أن تعنى بيتا عاديا فضلا عن بيت ديرى . وفى كثير من مواقع هذه « الهجات » تشير أسماء الأماكن الباقية الى اليوم الى أنه كان هناك مبنى لكنيسة ملحقة (٣٦) . وربما كانت « الهجات » مباني متواضعة تضم بين جنباتها رجالا عادين يعيشون فيها ، ومن هنا تلاشت الخطوط الفارقة بينها بصورة جزئية ، ولكن ليس من الضروري الظن هنا بأن تلك البيوت كانت بيوتا عادية من النوع الذى كان يقوم بدور المراكز للنشاط الكاثارى بفرنسا (٣٧) .

وأخيرا يتضح لنا معلم آخر للكنيسة البوسنية له موضعه هنا اذا نحن أدركنا أنها منظمة ديرية تقوم على قاعدة القديس بازيل : أى أنها قريية بطريقة ما من الممارسات الأرثوذكسية الشرقية . فلا بد أن مؤسسى هذه الأديرة البازيليكية قد أخذوا بالتقاليد الشرقية الماثورة حتى وإن كانت الكنيسة الكاثوليكية قد امتصتها ، وأجبرتها على الاعتراف بسلطان روما ، واستمر ذلك حتى انفصلت الكنيسة البوسنية واستقلت . وليس ببعيد أن الإتصال قد تم عن طريق دالماشيا إذ أن الرابطة بين المدن الدالماشية والقسطنطينية ، تلك الرابطة التى كانت قوية فى القرن التاسع،

(*) وقد وردت اشارات كثيرة فى الشعر العربى عن نزول المسافرين ببيوت الرهبان والراهبات ، وحصولهم على القرى وكرم الضيافة - (المترجم) .

أضفت تقاليد دينية بيزنطية على تلك المدن في العصور الوسطى ، بما في ذلك نحلة بعض القديسين الشرقيين (٢٨) . وهناك نظرية تقول بأن أتباع القديسين سيريل (Cyril) وميثوديوس (Methodius) العائدين من مورافيا (Moravia) في أخريات القرن التاسع قد تسربوا في نواحي البوسنة وأدخلوا النظام الديرى هناك (٣٩) . ومع أننا لا نملك بيئة واضحة من القرنين العاشر أو الحادى عشر ، لكننا نستطيع أن نفترض أن بعض الاتصالات ظلت قائمة بالعالم الديرى فى الأراضى الواقعة فى الشرق . ويتضح من إعلان ١٢٠٣ ، أنه بينما كانت البوسنة جزءا من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ الانقسام بين الشرق والغرب الذى حدث قبل ذلك بقرن ونصف ، فإن بعض الممارسات الشرقية قد بقيت قائمة فى الأديرة البوسنية . فهم لم تتبع التقويم الرومانى الكاثوليكي فى الصيام والأعياد ، ومعنى ذلك فيما يحتمل أنهم كانوا يستخدمون تقويم شرقيا (وليس أنهم لم يستخدموا تقويما على الإطلاق) . والحق أننا نجد فى زمن متأخر يرجع الى ١٤٦٦ فى شهادة جوست رادين دلائل واضحة على أن الكنيسة البوسنية كانت تحتفل بأيام القديسين على أساس التقويم الشرقى الذى لم يكن معترفا به فى الغرب (٤٠) ، ولسنا ندرى هل سمحت رومها باستخدام قواعد الصلاة الشرقية فى بلاد البوسنة القروسطية المبكرة ، وهو أمر جازز ولكننا نعرف يقينا أن الصلوات كانت تقام باللغة السلافية ، شأنها فى شطر كبير من كرواتيا الكاثوليكية حيث كانت الصورة « الجلاجوليتية » (Glagolitic) للصلاة الرومانية تستخدم (٤١) . ومن الأسرار المحيرة فى التاريخ البوسنى القروسطى مصير رجال الدين الكاثوليكى غير الديرين ، فربما يكون أمرهم قد انتهى الى التلاشى ، وإن اعتقد أحد المؤرخين أنه يستطيع التماس أدلة تشير الى وجود رجال دين « جلاجوليتيين » خلال الفترة القروسطية (٤٢) . ومن المحتمل أن القسس الناطقين بالسلافية بأرض دالماشيا كانوا يعرفون الايطالية أيضا ، ومن ثم لا يبعد أنهم كانوا يحصلون على تدريب لاهوتى صحيح باللغة اللاتينية . ولكن معظم رجال الدين (سواء أكانوا ديرين أم دنيوين) الذين ولدوا وتربوا ببلاد البوسنة يحتمل أنهم كانوا سلافين ذوى لغة واحدة لا يجدون وسيلة للحصول على المعلومات اللاهوتية العادية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية الا بشق الأنفس . جاءت أوقات ، يوم كانت الصلة مقطوعة ببقية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، كانت البوسنة فيها شديدة العزلة حقا .

وكما رأينا ، فإن البوسنة كانت في الواقع مقطوعة الصلة بسائر أعضاء الكنيسة منذ منتصف القرن الثالث عشر . (يوم نقل مقر الأسقفية البوسنية الى سلافونيا التابعة للمجر) . حتى منتصف القرن الرابع عشر (يوم وصل الفرنسيون) . ولعل الكنيسة البوسنية كانت منعزلة عن ولاية الكنيسة الكاثوليكية في وقت مبكر يقارب ثلاثينيات القرن الثالث عشر ، وبينما هي تؤكد بالتدريج استقلالها الذاتي ، فانها ، طال الزمن أو قصر ، لابد أن وصلت الى نقطة الانشقاق الفعلي عن روما (٤٣) . وفي أثناء معظم هذه الفترة التي تمتد أكثر من قرن من الزمان ليس لدينا الا النزر اليسير جدا ، أن وجد ، من المعلومات عن الكنيسة البوسنية . وهناك اشارات متناثرة تجيء في مراجع غير بوسنية الى « الهرطقة البوسنيين » منذ ثمانينيات القرن الثالث عشر فصاعدا . ونظرا لأنه لم يحدث بالفعل أى انشقاق رسمي ، فان هذا المصطلح كان يمكن أن يستخدم استخداما فضفاضاً لعني « الانشقاقيين » ، دون أن ينطوي على فوارق مذهبية عظيمة . (وعندنا تذكر المصادر الكاثوليكية « الانشقاقيين » فعلا ، فانها انما تشير الى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التي كان بينها وبين روما انشقاق رسمي) أو لعله استخدم في الإشارة الى الهرطقة الأقحاح من أتباع الهرطقة الثنائية على الساحل الدالماتشي الذين لعلم قد أصبحوا أكثر نشاطا بالبوسنة منذ أصبحت خارج منال قبضة الأساقفة الكاثوليك الدالماتيين .

ومن الممكن ، بطبيعة الحال ، أن بعض الثنائيين نشطوا في العمل بالبوسنة . ولكن المسألة هي : ما هو أثرهم على الكنيسة البوسنية ؟ هناك دليل واحد من داخل البوسنة يشير فيما نخال الى أنهم كانوا يمارسون نفوذا ضخما . انه نص بوسني مخطوط ورد باللغة السلافية (مجموعتان صغيرتان من الردود المتتابعة وصلاة الرب وقراءة في انجيل القديس يوحنا) وهو يتجاوب تجاوبا وثيقا مع نص شعيرة كاثارية معروف أنه كان يستخدم بمدينة ليون الفرنسية في القرن الثالث عشر (٤٤) . وليس لنا أن ندعو ذلك منسكا هرطيقيا الا اذا افترضنا أنه كان له أصل هرطيقى . فمحتوياته ليست بالهرطيقية على الإطلاق حيث تخلو من أى شيء يناقض المجرى الرئيسي للاهوت الكاثوليكي أو الأرثوذكسي الشرقي . وكما لاحظ دراجوليوب دراچولوفيتش (Dragoljub Dragoklovic) ، فانه يتكون بالفعل من فقرات من صلوات الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ، وذلك القسم من انجيل القديس يوحنا الذي يقرأ في أثناء قداس عيد الفصح في الكنيسة الشرقية . على أنه لابد أنه استنتج أيضا ، بناء على دلائل لغوية داخلية ، أنه كتب أصلا في أبروشية أوريد (Ohrid) الأرثوذكسية

(في مقدونيا) في تاريخ لا يتجاوز بواكير القرن الحادى عشر - وهى فترة لم يكن فيها الكاثار قد وجدوا بعد (٤٥) ، وبدلا من القول بأن النص البوسنى نجا من لبون ، فإن الشيء المعقول أكثر هو الظن بأن النص الليونى نفسه مشتق من أصل أرثوذكسى شرقى أقدم منه . وقلب هذا المنهج العلمى رأسا على عقب الفكرة القائلة بأن الكنيسة البوسنية كانت لها شعيرة كاثارية من مباركة الخبز وتقطيعه وتوزيعه - وهى نوع من تناول الهرطيقى . فانا لنعلم أن الكاثار يفعلون ذلك فى بيوتهم قبل تناول وجبات الطعام ، كما أن بعض المراجع الباكورة ذكرت أن « قسس » الكنيسة البوسنية كانوا يفعلون الشيء نفسه (٤٦) . ولكن كان أيضا من العادات المقررة فى البيوت الديرية الشرقية فى الوجبات العامة أن يبدأ المراء بصلاة الرب والبركة وتقطيع الخبز وتوزيعه بين الناس (٤٧) . ويحتمل أن الكاثوليك خارج البوسنة عندما سمعوا بأحاديث عن هذا الأمر ، قد افترضوا أن هذه انما هى شعيرة هرطيقية . على أنه يكاد يكون من المؤكد أن الكاثار هم الذين نقلوا هذه الشعيرة الشرقية اللاهرطيقية القديمة ، ولكنهم طبقوها فى اطار دنيوى وفى ظل معتقدات هرطيقية حقيقية .

ويبقى بعد ذلك الظن بأن بعض الهراطقة بالمنطقة المتأثرين بالثنائية ربما مارسوا حينما من الدهر بعض النفوذ على الكنيسة البوسنية أثناء سبيها الطويلة من العزلة الأكليروسية . ولكن من ذلك الفرض المتواضع سيحتاج الأمر الى وثبة هائلة فى الخيال للوصول الى ادعاء أن الثنائيين قبضوا بأيديهم على الكنيسة البوسنية ، وشكلوا هرمها الديرى محولين إياه الى التشكيل الدنيوى المتبع لدى الكاثار ، وأبدلوا تكوينها الربى المتمشى مع المجرى الرئيسى للاهوت المسيحى ، وحولوه الى نظام من المعتقدات هرطيقى فى جذوره .

وغنى عن البيان أن الكثير من البيانات التى بقيت الى يومنا هذا تتعارض تعارضا مباشرا مع مثل ذلك الادعاء . فإن الكاثار والبوجوميل كانوا يمجتون علامة الصليب ، بينما يبدو الصليب مثبتا على رأس كثير من الوثائق البوسنية . وكان الكاثار والبوجوميل يرفضون العهد القديم من الكتاب المقدس ، بينما تحتوى إحدى النسخ الباقية من الكتاب المقدس الخاصة بالكنيسة البوسنية سفر المزامير . وكان الكاثار والبوجوميل يرفضون إقامة القداس ، بينما طلب جوست رادين فى وصيته بصفة خاصة إقامة القداس على روحه . ومنع الكاثار والبوجوميل استخدام مبانى الكنائس ، بينما هناك شواهد قوية تدل على أن الكنيسة البوسنية ظلت تستخدم الأبنية الديرية التى تضم أسوارها كنائس ملحقة بها . وكان

الكاثار والبوجوميل يرفضون الخمر ولا يأكلون اللحم ، وتسجل سجلات الأراضي في العصر العثماني المبكر أن المسيحيين كانوا يملكون كرمات كما أنه ليس هناك أي سبب إلى الظن بأنهم كانوا من النباتيين * (والبيئة الوحيدة التي يبدو أنها تدل على ذلك ، ظهر أنها كانت عبارة عن خطأ في قراءة للكلمة وردت في وصية جوست رادين : فالقراءة الصحيحة ليست Mrsni أي « أكل اللحم » ولكنها Mrski أي « غير قابل للنظر أي قبيح ») . والكاثار والبوجوميل يرفضون تقويم القديسين ، بينما مسبتندات الكنيسة البوسنية بما فيها وصية جوست رادين تشير إلى الاحتفال بأعياد كثير من القديسين ، وهكذا دواليك (٤٨) .

وكذلك أيضا كان الطابع العام للكنيسة البوسنية مختلفا جدا عن الطابع الذي نربطه بالبوجوميل أو الكاثار . فان هاتين الطائفتين الهرطيقيتين كانتا من الآخذين بالزهد والتطهر . وكانوا من المعارضين للسلطان الدنيوي والثراء العريض الذي تستمتع به الكنائس المعروفة ، ويعرضون عن عرض الدنيا . فأما الكنائس البوسنية فانها في أوج مجدها (القرنين الرابع عشر وبواكير الخامس عشر) كانت تنعم بالقوة العظيمة ، كما أن كبار رجالها اعتادوا أن يوقعوا المعاهدات ويوفدوا البعثات الدبلوماسية . وهناك ملوك مثل ستيفن كوترومايتش وتفرتكو ، كانت لهم علاقات ودية بالكنيسة البوسنية وإن لم يكونوا أعضاء منتسبين اليها ، كما يبدو أن بعض العائلات النبيلة الكبرى كانت تنتمي اليها (٤٩) . وكان أذيع رجال الكنيسة البوسنية صيتا ، وهو جوست رادين ، يتولى وظيفة المستشار الأعظم للدوق ستيفن فيوكتشيتش ، وواضح أنه كان قطبا عظيما بحكم منزلته الرفيعة : وقد ترك في وصيته أكثر من ٥٠٠٠ دوقية نقدا ، فضلا عن الخيول والفضة ومسحاف الذهب ، وكذلك « رداء فخما حوافيه من الفراء والذهب » ، رمعه أيضا « رداء أحمر من الفراء مكون من ست طيات من الحرير وعلى حواشيه فراء المنك الذي خلعه عليه جلالة الملك ماتياش Matijas » (٥٠) . وفي هذا اختلاف كبير عن الكاثار المبكرين الذين وصفوا أنفسهم « بمعوزي المسيح » .

وفور بدء الفرنسيين سكان العمل في البوسنة في منتصف القرن الرابع عشر ، دخلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في منافسة مباشرة مع الكنيسة البوسنية . وتصف بعض المصادر السلوك العدائي الذي تعرض له هؤلاء الرهبان من جانب الهرطقة ومنها قصة عن أحدهم وهو ياكوب دي مارشيا . فقد أخذ يصيح أثناء طقوس تنصيبه في ١٦٠٩ قائلا إن « الهرطقة » نشأوا بالمنشار أرجل منبر كنيسة الدير في فيسوكو بينما كان يلقي موعظته من فوقه . (وردا على ذلك لمن المسئولين عن ذلك ودعا

أن يولد أولادهم بأرجل ستيمة عرجاء (٥١) . ومن سوء الطالع أنه لم يبق
للآن أى تقرير فرنسيسكاني عن المعتقدات البوسنية ، أجل أن هناك
التماسا بطلب التعليمات كتبه أحدهم ورد عليه البابا فى خطاب مفصل
فيه اشارة الى الهرطقة والانشقاقين ورجال الاكليروس غير المؤهلين
تأهيدا سليما ، ولكنه لا يشير أية اشارة الى المعتقدات الثنوية (٥٢) .
ومع هذا ، فإن أخبار البوسنة قد عادت الى التداول بين كاثوليك
ايطاليا ، وأصبحت معروفة بأنها مكان ممتلئ بنوع ما من « الهرطقة » .
ولابد أن مصطلح « باتارين » الذى كان يستخدم كاسم عام للكنيسة
البوسنية فى التقارير التى جاءت من راجوزا وبقية دالماتية ، قد أثار
الذكريات عن هرطقة شمال ايطاليا . وكان معنى التوسع السريع
للأبروشية الفرنسيسكانية للبوسنة أن أصبح جميع أنواع الهرطقة
فى شرق أوروبا يوصفون بأنهم « بوسنيون » كما رأينا . وهناك وثيقة
أصدرها جريجورى الحادى عشر فى عام ١٣٧٢ ، وهى تحض على تنصير
جميع « الكفرة » فى البوسنة وبخاصة أولئك المقيمين فى ترانسلفانيا ،
وهناك وثيقة كاثوليكية أخرى هى قائمة تحصر أخطاء الهوسيين (Hussites)
المقيمين فى « مولدافيا » [مورافيا]^٩ ، وتختتم كالتالى : « وبهذا ينتهى
التقرير الموجز الذى يعدد أخطاء مملكة البوسنة وشعائرها الهرطيقية » (٥٣) .

وعلىنا أن نأخذ فى الاعتبار هذه الخلفية التاريخية عندما نفحص
الوثائق الايطالية فى تلك المدة التى تشير الى الكاثارية أو الثنائية فى
البوسنة . فمن البيانات التاريخية المحيرة تقرير لمحكمة التفتيش فى
تورينو فى عام ١٣٨٧ ، يورد الاعتراف (الذى تم بعد التعذيب) الصادر
من جياكومو بك (Giacomo Bech) الذى ادعى بأنه انضم الى طائفة كاثارية
بالجبال الواقعة فى غرب نورينو . وقال ان أحد أعضاء الطائفة كان فى
مدينة « سكلافونيا » Slavonia ، كما أن بعض أعضاء الطائفة
الايطاليين سافروا الى « البوسنة » ليتقنوا معرفتهم بالمذهب الكاثارى هناك .
وأعلن بك أنه تلقى نقودا ليذهب الى هناك ولكنه لم يستطع عبور البحر
بسبب رداءة الجو (٥٤) . وواضح أن الاشارة الى « سكلافونيا » تشير الى
رابطة مع التقاليد الثنائية فى الساحل الدالماتى . ومن الممكن توهم ذهاب
الايطاليين الى هناك (حيث كانت الايطالية منتشرة) بقصد التعلم ، كما أن
مما هو جدير بالذكر أن رقعة طويلة من الأراضى الساحلية كانت فى ذلك
الزمان تابعة للمملكة البوسنية ، ولكن الأمر الأكثر صعوبة هو الاعتقاد
أنهم يمكن أن يسافروا الى الأرض البوسنية الثنائية التى لا يتكلم أهلها سوى
لغتها . ومن ناحية أخرى فإن قصة بك حول الذهاب وعدم النجاح فى
الوصول الى الهدف فى آخر لحظة ، لها الموقع المألوف للفحص المختلفة .

وهذا شيء يبدو واضحاً بالاعتراف الذي يصدر عن المتهمين في محاكمات السخرة ، عندما يصرون بأن اجتماعات السخرة تحدث فعلاً ويدعون بأنهم دعوا لأحدى تلك الاجتماعات ، ثم يقولون بعد ذلك انهم قد منعهم من الذهاب بسبب طارئ ، وبذلك ينقذون أنفسهم من مخاطر الإفراط في نسج القصص الخيالية .

ومما يثير الشكوك أيضاً تلك القوائم من « أخطاء الهرطقة البوسنيين » التي ديجها الفرنسيون في إيطاليا في أخريات القرن الرابع عشر ، تلك القوائم التي تصور البوسنيين بأنهم شديداً الثنوية من الطراز الكاثاري أو البوجوميلي . ويبدأ أحدها كالتالي : « أولاً ، بأن هناك الهين وأن الإله الأكبر منهما خلق جميع الأشياء الروحية وغير المادية ، وأن الإله الأصغر وهو الشيطان Lucifer هو الخالق لجميع الأشياء الجسدية والمادية » . ثم يستمر فيشمل رفض العهد القديم والقداس والكنائس المبنية والصور « وبوجه خاص إصليب » (٥٥) . وربما صدق هذا على بعض الطوائف الصغيرة من الهرطقة « السلافونيين » أو « الدالماشيين » ، ولكن كما رأينا ، فهناك أسباب قوية تدعونا إلى الظن بأنه لا يمكن أن يكون بياناً صادقاً عن الكنيسة البوسنية . والواقع أن قائمة « الأخطاء » تنطبق تماماً على النموذج الكاثاري حتى ليتور تفسير واضح يفرض نفسه : فإن رجال الدين الإيطاليين هؤلاء الذين وضعوا هذه القائمة قد سئلوا أن يبرزوا تحليلات أو تفهيمات للأخطاء « الباتارينية » ، فعمدوا إلى الرجوع إلى كتبهم التماساً لتهم يلصقونها « بالباتارينيين » (أو بعبارة أخرى الإيطاليين الكاثار) ، فانتهوا بذلك إلى وضع ملخص للمعتقدات الكاثارية (٥٦) . وهناك شكوك مماثلة ينبغي أن تقوم حول أخطاء الماتويين التي طلب من ثلاثة من نبلاء البوسنة أن يتخلوا عنها على يد عضو محكمة التفتيش خوان دي توركينادا (Juan de Torquemada) في روما في عام ١٤٦١ ، كما أن أصابع الشك يمكن أن توجه أيضاً إلى الأساس الذي قامت عليه حملة الاتهام البابوية المفاجئة ضد « المانويين » في البوسنة أثناء أربعينيات وخمسينيات القرن الخامس عشر (٥٧) .

وبجولول خمسينيات القرن الخامس عشر ، بلغت حملة الفرنسيين أقصى مداها (كما رأينا في الفصل السابق) . فقبل حلول ربيع ١٤٥٣ بقليل فر « الديد » أو رئيس الكنيسة البوسنية والتجأ عند الدوق ستيفن غيوركشيتش . وبعد ذلك بقليل من تلك السنة ، وطبقاً لخطاب كتبه البطريرك جيناديوس (Gennadios) الثاني بطريرك القسطنطينية ، انضم « الديد » إلى الكنيسة الأرثوذكسية (٥٨) . وإذا كان هذا الدليل يمكن

الاعتماد عليه ، ينبغي لنا أن نفترض أن الكنيسة البوسنية أصيبت بضعف شديد بسبب ما فعله « الديد » ، وذلك حتى قبل أن يقدم الملك توماش (Tomas) في ١٤٥٩ على أنزال الاضطهاد الرسمي على الكنيسة البوسنية . وكانت هناك منافسة قوية بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية حيث كانت كل منهما تريد أن تمتص بقية أتباع الكنيسة البوسنية . وكتب أحد الفرنسيين تقريراً قال فيه « ان كثيراً من « الهرطقة » كانوا ينضمون تباعاً الى الكنيسة الكاثوليكية ، لولا أن أسقف الصرب (« رشيانورم » أى سكان راشكا) لا يسمح لهم بالصلح مع روما (٥٩) . وربما ظن الأسقف أن استحواذة على « الديد » البوسني نفسه ، يتيح له حقاً في « رعيته » أيضاً . ومن ثم يكون الإجراء الذي اتخذه الملك توماش في ١٤٥٩ قد قصد به الحيلولة دون مزيد من التحول إلى الأرثوذكسية . وكان مما قصم ظهر الكنيسة اجبار ألفى مسيحي بوسني (Krstjani) على التحول إلى الكاثوليكية واضطرار أربعين من رجال الكنيسة الذين وصفوا بأنه « لا صلاح لهم » إلى الرحيل إلى بلاد الهرسك ، ونحن وإن أعوزنا العلم بالعدد الصحيح للأديرة ، فإن هذا التصرف لابد أنه أخرج من البلاد معظم رجال الكنيسة البوسنية الديرين . وعندما كتب جوست رادين إلى البندقية في ١٤٦٦ ملتمساً الإذن له بالهجرة إليها إذا اضطره الأتراك إلى الفرار ، سأل هل يمكنه أن يحضر خمسين أو ستين عضواً من أعضاء طائفته معه : فربما كان هذا العدد يمثل البقية الباقية من الكنيسة بما في ذلك الأربعين الذين « لا يمكن صلاحهم » (٦٠) .

أما فيما يتعلق بأتباع الكنيسة البوسنية من العلمانيين ، فإنه يبدو محتملاً أنها لم تضم عدداً ضخماً من الأعضاء ، لأنها بوصفها تنظيمًا ديرًا صرفاً ، كان يعوزها تلك البنية الأساسية الضرورية من الأبروشيات . ومهما كان عددهم أيام عزها وأوج عظمتها ، فلا بد أن العدد قد تناقص فعلاً في غضون قرن كامل أو يزيد من الانطواء والاعتناق للكاثوليكية الذي تدعّمه الدولة . ومن ثم يبدو أنه عندما أمسك الترك مقاليد الأمور بأيديهم كانت الكنيسة البوسنية محطمة فعلاً بل فاقدة الحياة . وسجلات الأراضي للبوسنة في العهد العثماني أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتي تسجل الناس حسب ديانتهم ، قلما تدرج شخصاً على أنه مسيحي Kristian (كنقيض مضطرب للكلمة العادية المستخدمة للمسيحيين « Christians » وهي كافر أو غير مؤمن ، وهما اللفظان اللذان كان يسجل تحتهما كل من الكاثوليك والأرثوذكس) . وهناك عدد قليل من القرى التي سجلت بأسرها في السجلات الأولى بأنها « مسيحية » ، ولكن الأعداد الكلية قليلة جداً . اذ هم أقل من سبعة فرد قد سجلوا أثناء

المدة بأكملها (٦١) . ويرى المؤرخ الذى درس هذه المادة (والذى يتبع نظرية « البوجوميل ») أن هؤلاء « المسيحيين » لم يكونوا الا « الصفوة المختارة » فى الكنيسة وأن الأعضاء العاديين كانوا يدرجون فى القوائم تحت بند « كافر » او غير مؤمن ، بيد أن هذا خطأ بكل تأكيد . وكل ما فى الأمر أن الأتراك كانوا يستخدمون الفئات الدينية التالية : مسلم ، ويهودى ، وغير مؤمن ومسيحي (٦٢) . وفى أثناء الفترة بأكملها ابتداء من ١٤٦٨ (وهو تاريخ السجل الأول) حتى أواخر القرن السادس عشر، لم يظهر الا اسمان فقط ممن يحملون لقب « جوست » . ويظهر أن بقية الضئيلة باقية من التقاليد قد حفظت حيث قام الأفراد بالتعميد أو أداء المراسم الدينية لبعضهم البعض على طريقة « اخدم نفسك بنفسك » . فان قسيسا كاثوليكيا هو الالبانى بيتر ماسارينتشى (Peter Masarechi) وزير البوصنة فى عشرينيات القرن السابع عشر ، وقد أشار فى تقريره الى « الباثاريين » الذين يعيشون بدون أى قسس أو مراسم تعمد ، اعتمادا على « قسيسهم المنتخبين من أفراد الشعب بدون أى مراسم » (٦٣) . ولكن لم تلبث حتى هذه البقية الضئيلة أن ابتلعت فى نهاية الأمر غير تاركة الا ذكرى فى أذهان الأجيال التالية وحكايات شعبية واساطير لا يمكن التعويل عليها .

الفصل الرابع

الحرب والنظام العثماني

١٤٦٣ - ١٦٠٦

فتح الجيش التركى مملكة البوسنة بسرعة عظيمة فى بدايات صيف ١٤٦٣ . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ظلت الأراضى الداخلى التابعة لبانية البوسنة القديمة ، ومعها موطن القدم الذى أسسه الترك قبل ذلك بمنطقة سراييفو ، واقعة تحت الحكم التركى الدائم ، رغم أنهم سحبوا قواتهم العسكرية الرئيسية أثناء الخريف . يبدو أن المكاسب التى غنمها الجيش التركى فى النصف الشمالى من البوسنة ، ما لبث أن استردها سريعا ملك المجر مانپاس (Mtthias) . وقد ترك هناك مع قوة عدنها ثمانون رجلا للدفاع عن قلعة زفتتسا (Zvecha) قرب يابسسه (Jajce) ، ذلك الضابط الانكشارى الصربى المولد ، الذى وصلت الى أيدينا ترجمته الذاتية ، وما كاد السلطان يعود أدراجه حتى حاصرت القوات المجرية كلا من زفتتسا ويابسسه اللتين لم تلبثتا حتى سلمتا (١) . وسرعان ما أسس الملك ماتياس « بانية » جديدة للبوسنة تحت الحكم المجرى فى هذه الأجزاء الشمالية ، وفى ١٤٧١ أصدر أمرا بترقية البان الى رتبة « ملك البوسنة » . ومع أن هذه المملكة ما لبثت أن تهاوت تحت أقدام الترك فى حملاتهم التالية ، فإن القسم الذى بقى من تلك المملكة ، استمر صامدا مدة تزيد على الثمانين عاما . وفى غضون عشرينيات الألف وخمسمائة ظلت مدينة يابسسه فى حالة حصار مستمر تقريبا ، وهى تتلقى معونات من الطعام من سلافونيا المجرية بواسطة قوافل مسلحة ، لا يكاد يصل عددها الى أربع مرات فى السنة (٢) . وأخيرا فتحها الترك فى ١٥٢٧ ، بعد تحطيم الجيش المجرى فى معركة موهاتس (Mohats) الفاصلة فى السنة السابقة .

وصمد شطر آخر في الهرسك ضد الترك بعد ١٤٦٣ ، ثم تمكن الدوق (Herceg) ستيفن فوكتشيتش من استرداد أرضه في نهاية تلك السنة ، على أن الأتراك ما لبثوا أن استرجعوا معظمها بعد ذلك بسنتين : واضطر الدوق الى أن يتلمس لنفسه ملجأ في مدينة نوفى المحصنة (التى عدل اسمها فأصبحت نوفى هرسلو على اسمه) ، حيث مات في ١٤٦٦ (٣) . وبذل ابنه الثانى فلانكو ، الذى خلفه فى وراثة لقب دوق ، قصاراه لاجتذاب العون من المجر والبندقية فى معركته للدفاع عما بقى له من أراض ، ولكن ذلك جره الى المتورط فى الصراعات الأخرى الناشئة بين أطراف ثالث الفرقاء أى راجوزا والنبلاء المحليين ، وما وافقت سبعينيات الألف وأربعمئة حتى كان يدفع الجزية للأتراك ، وفى ١٤٨١ أو ١٤٨٢ استولى الأتراك على آخر معقل فى الأراضى الهرسكية (٤) .

وكما تصور هذه الأحداث كانت الامبراطورية العثمانية جهازا عسكريا بالغ النشاط والبأس . وشهد حكم السلطان محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١) سلسلة خارقة من الفتوح والتحديات لأعظم القوى المجاورة فى أوروبا : فبعد استيلائه على القسطنطينية فى ١٤٥٣ ، واصل الزحف وفتح شمال صربيا وشطرا من بلاد الأناضول ، وبلاد البالد والبالشيا والبوسنة والهرسك ، ودمر جيش البندقية فى اليونان ، واجتاح مولدايا والمجر ، وحاصر جزيرة رودس ، ووافته المنية وهو يدبر هجوما وغزوا كاملا لاطاليا . على أن خلفه بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢) وجه اهتمامه الى تدعيم أركان الامبراطورية ، ولكن ظل مع ذلك يشن حروبا على مولدايا وبولندا والمجر والبندقية . ثم عاد سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) قاتجه الى الشمال الغربى من جديد : وفى السنوات الثلاث عشرة الأولى من حكمه حول معظم بلاد المجر الى اقليم تابع وأصبح قاب قوسين من الاستيلاء على فيينا . وكانت معاهدة السلم التى عقبتها فى ١٥٣٣ ايدانا بقيام فترة طويلة من المواجهة الطويلة الخاملة ، بين الامبراطوريتين العثمانية والهابسبورجية فلم تتحول الى حروب دامية الا فى أحيان قليلة ، وخلال فترة امتدت حتى نهاية القرن أخذت كلتا القوتين تبني لنفسها منطقة حدود عازلة تواجه الأخرى ، تحرسها شبكة متصلة من المعاقل ، وجماعات من الفلاحين المحاربين (٥) . وكانت تحدث هناك مناوشات متناثرة ولكن الحركات العسكرية على الحدود البوسنية أصبحت أشد حدة فى الأوقات التى كان السلطان يشن حربا ضروسا كاملة على آل هابسبرج - كما حدث أثناء حملة سليمان المجرية الأخيرة فى ١٤٦٦ . ونشبت الحرب العثمانية الهابسبورجية الكبرى التى دامت بين سننى ١٥٩٣ - ١٦٠٦ ، نتيجة قتال نشب بين القوات المحلية على التخوم البوسنية الشمالية الشرقية : فقد

كان الترك قد استولوا على قلعة بيهاتش الهامة من الهابسبرجيين في ١٥٩٢ ، ولكن في السنة التالية أخذ ياشا البوسنية على غرة ، وهو يجاهر معقل سيساك Sisak (على نهر سافا ، أسفل مدينة زغرب) وهزم هزيمة ثقيلة . وفي الحملة العظمى الأولى في السنة التالية أنزل الأتراك هزيمة منكرة بالجيوش الهابسبرجية عند متسوكيرستس (Mezokeresztes) في ١٥٩٦ ، وتمكنوا بعد ذلك من شد قبضتهم على شطر كبير من المجر أثناء السنوات الثمانين التالية (٦) .

وظلت الامبراطورية العثمانية - حتى بدأت في الركود والانحدار ، وهي عملية بدأت في منتصف القرن السادس عشر - وهي لا تخرج في جوهرها عن مؤسسة عسكرية . كان هدفها هو النهب وفرض الجزية ، وبنى نظامها الإداري على أساس امدادها بشيئين هما : الرجال لاستخدامهم في الحرب ، والمال الذي يدفع أعطيات لهم ، وانقسمت القوات العسكرية الى فئتين رئيسيتين . فكانت هناك قوات نظامية تتلقى مرتباتها من الحكومة العثمانية مباشرة : وهذه تتكون من الانكشارية وهم (المشاة النظاميون) والفرسان النظاميون المعروفون باسم « فرسان الباب العالي » . وكلمة « الباب العالي » هي الاسم التقليدي الذي يطلق على الحكومة الامبراطورية باسطنبول) . وكانت هناك من الناحية الأخرى الخيالة الاقطاعية : وهم جنود راکبة كانوا يقومون بما يوكل اليهم من مهام عسكرية مقابل الضياع التي منحوها مقدما . (وكان مصطلح « فارس » Spahi بمفرده يشير دائما الى هذا الطراز من الرجال) . وكانت هاتان الطائفتان من العسكر تؤلف الجيوش الجراة التي كانت تقوم بتلك الحملات الهائلة منذ بواكير الربيع الى أخريات الخريف . وهناك حقيقة علينا أن نلتفت اليها وهي أن القوات كان عليها أن تتجمع كل مرة خارج اسطنبول ، ثم تزحف الى حدود الامبراطورية . وهي حقيقة بدأت تضع حدا جغرافيا طبيعيا لتوسعات الامبراطورية (على الصورة التي أظهرتها حملات سليمان القانوني على المجر) وكانت هناك أيضا قوات اضافية مساعدة ، لها دور أكثر أهمية في مناطق التخوم ، كالبوسنة مثلا ، حيث كان الأمر يحتاج الى أنشطة عسكرية تمتد طوال العام . وكانت هذه تضم جنود العزب (Azap) وهم نوع من ميليشيات المدن ، كانت تؤلف حاميات في القلاع ، وتقوم بعمل مشاة مرابطة الشغور أى التخوم ، ثم الدلاة (Deli) أو الأكينجي (Akinci) الخيالة ، وهم ضرب من الراكبة الخفيفة غير النظاميين مهمتهم الاغارة على الأعداء . وكل هذه القوات المذكورة حتى الآن كانت من المسلمين : إذ جرت العادة بأن الشعوب الخاضعة ، لا يجوز لأبنائها أن يحملوا السلاح . ومع ذلك فقد حدث لأسباب خاصة ، وهو أمر كان يجرى عادة في المناطق

التخومية للبوسنة ، أن استخضمت قوات مسيحية محلية : لحراسة
الممرات ، وتنظيم امدادات الخيل ، وكان منهم النوع الخفيف من الجند
المشاة المأجورين المعروفين باسم الفوينوق (Vojnuk) أو المارتولوس
(Martolos) (٧) . وسنقوم بوصف هؤلاء الجند وصفا أوفى في الفصل
المعقد حول صرب البوسنة (انظر الفصل السادس) .

وكان جيش الانكشارية ومعه نظام جزية الصبيان المعروف بالدوشرمة
(Devshirme أو التجنيد) الذي يزوده بالجند ، أهم طريقة لسحب الناس
من أوروبا المسيحية ، ليدخلوا في آلة الدولة العثمانية . وفي أثناء القرنين
الخامس عشر والسادس عشر عندما كان نظام الدوشرمة ينفذ على أوفى
وأكمل وجه ، كان الصبيان من قرى أوروبا المسيحية يجمعون ، على فترات
متغيرة ولكنها كثيرة ، ثم يحملون الى اسطنبول . وهناك يحولون للإسلام ،
ويدربون لكي يكونوا جندا انكشارية أو يكونوا خدما شخصيين للسلطان
أو موظفين في مختلف مصالح الدولة ودوائرها (٨) . (وكانت كل مصالح
الحكومة في جوهرها فروعا من القصر الامبراطوري) . وكذلك كان
للشخصيات العليا في الإدارة العثمانية أعداد موفورة من مثل هؤلاء القوم
في قصورهم الخاصة : وقد توفي أحدهم في اسطنبول في ١٥٥٧ وعند
١٥٦ عبدا بينهم ٥٢ بوسنيا . وقد جاء في شرح ذلك أنه جمعهم بعملية
(دوشرمة) خاصة أو اختاروا هم أنفسهم الخدمة لديه (٩) . ومع أن خطف
الأطفال كان في حقيقته عملية وحشية ، لكنه كان يعود عليهم بمنافع
واضحة كثيرة ، حيث ارتقى كثير منهم في المناصب حتى أصبحوا باشوات
وزراء ، وكان يعود كذلك بالخير على أسرهم الذين استطاعوا فيما بعد أن
يتصلوا بهم . فأسرة سوكولو (سوكولوفيتش Sokolovich) في اسطنبول
التي قدمت علدا متعاقبا من كبار الوزراء (الصدر الأعظم) ، لم تفقد
الاتصال بأسرتها البوسنية الصربية ، ولم يعتما أن تستخدم نفوذها في
المحافظة على مصالح الكنيسة الصربية الارثوذكسية . وكان مجموع من
شغلوا منصب الصدر الأعظم من الرجال المنحدرين من أصل بوسني أثناء
القرنين السادس عشر والسابع عشر تسعة ، كما أن البوسنيين كانوا
يرسلون إلى بلادهم كولاة عليها منذ عام ١٤٨٨ (١٠) . وهناك حالات
يذكرها التاريخ عن والدين من الدينين الاسلامي والمسيحي رشوا الموظفين
ليأخذوا أطفالهم في الانكشارية . ومن المؤكد أن مزايا ذلك النظام كانت
واضحة أمام أعين المسلمين من البوسنة الذين رتبوا لارسال ألف من أبنائهم
في ١٥١٥ إلى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الامبراطوري (١١) .

وما لبث نظام (الدوشرمة) أن توقف فترة قليلة في النصف الأول من القرن السادس عشر . ففي ستينيات الألف وستمئة ، عندما كتب الدبلوماسي الانجليزي بول رايكوت (Paul Rycaut) عمله الكلاسيكي عن الامبراطورية العثمانية « كان هذا النظام نسيا منسيا » (١٢) . ولكن نتائجه كانت هائلة . فان مئتي ألف طفل على الأقل من البلقان ، قد مروا خلال ذلك النظام أثناء قرني أدائه العمل وتنفيذه (١٣) . ولما كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الأطفال من السلاف ، فان اللغة الصربوكرواتية (ومعها اللغة البلغارية المجاورة التي كان معظمهم يفهمها) غرست غرسا في قلب الدولة العثمانية . وقد لاحظ معلق غربي في ١٥٩٥ ، أن « السلافونية » كانت اللغة الثالثة في الامبراطورية (بعد التركية والعربية) ، لأنها كانت لغة الانكشارية . ولاحظ آخر في ١٦٦٠ ، أن « اللغة التركية لا تكاد تسمع في بلاط السلطان » ، لأنه في البلاط بأجمعه كانت غالبية « الشخصيات العظيمة من الوافدين من الاراضي السلافية » (١٤) . وكان للنظام أيضا أثر هام اجتماعي وسياسي : فانه خلق طبقة من الموظفين الأقوياء وأبنائهم وحفدهم ، الذين ما لبثوا أن دخلوا في صراع مع « الفرسان » الاقطاعيين العسكريين (السباهي) ثم لم يبرحوا حتى مدوا سلطانهم بالتدريج على ما يملكون من أرض ، الأمر الذي أدى الى الاسراع بالتحويل عن الحياة الاقطاعية الى الضياع الخاصة ونظام الالتزام . وكتب ستانفورد شو : من الناحية الجوهرية كانت غلبة العنصر البلقاني في الطبقة العثمانية الحاكمة عن طريق نظام التجميع (الدوشرمة) هي العامل الذي أدى الى انهيار النظام المالي والاداري للعثمانيين ، وتسبب فيما أعقبه من انهيار الامبراطورية نفسها (١٥) .

وفرض النظام الاقطاعي العثماني على البوسنة منذ البداية . وكان هناك نوعان رئيسيان من الضياع التي كان الفارس (السباهي) يتلقاها ، الكبرى منها هي الزايم (Zaim) والصغرى هي التيمار (Timar) ويطلق على حائزها تيمرلى أو تيماريوت . (وكان النوع الثالث والأكبر المعروف باسم الهاس (Hass) (الحصى) ، لا يمنح الا لأعظم حكام الأقاليم وأعضاء العائلة السلطانية أهمية) . وهذا النظام ، المعروف على الجملة باسم نظام التيمار ، كان اقطاعيا عسكريا قحاً : وكانت حيازته تعتمد على الخدمة العسكرية ، وكانت الأرض ملكا للسلطان ، ولم يكن لورثة التيماريوت (أى صاحب التيمار) أى حقوق قانونية فى وراثتها (وان كان الميراث هو العرف المرعى) . وكان أصحاب هذه الضياع ملزمين أن يتجمعوا معهم أسلحتهم وخيولهم عندما يسندعون لأداء الواجب العسكرى . وكان عليهم أن يحضروا معهم جندا آخرين ويدفعوا لهم أجورهم ، بما يتناسب

تناسبا طرديا مع ايراداتهم (١٦) . وكانوا يجتمعون للحرب تبعا للمنطقة العسكرية التي يعيشون فيها (سنجق ومعناها الحرفى بالتركية هو الراية ، وهى لفظة Sandzak بالصربوكرواتية) وكان يقودهم البك السنجق ، وهى أعظم رتبة بين الموظفين يحق لحاملها أن يحصل على لقب باشا .

ولما كان أصحاب التيمارات غالبا ما يكونون بعيدين لأداء واجباتهم العسكرية مددا تصل الى ستة أو تسعة أشهر من السنة ، فانهم لم يكونوا عبثا باهظا على الفلاحين (مسيحيين كانوا أو مسلمين) الذين كانوا يعملون بأراضيهم . وكان على الفلاحين أن يدفعوا مكسا عينيا يتراوح بين عشر وربع انتاجهم ، ويؤدون رسوما قليلة أخرى ، وكان عليهم أيضا أن يقدموا الى صاحب التيمار بعض الخدمات الاجبارية ، ولكنها كانت أقل ارهاقا بكثير منها فى معظم الأنظمة الاقطاعية الاوربية الأخرى . وكانوا يدفعون أيضا ضريبة سنوية على الأرض (هى الخراج Harach ، الذى ما لبث أن أضيف اليه فيما بعد ضريبة الرؤوس المسماة بالجزية Jizye) ، الى السلطان . وكان مركزهم الأساسى قانونا هو مركز المستأجرين الذين كان لهم حق يستطيع أبناؤهم أن يرثوه ، لا فى الأرض نفسها بل فى استخدامها واستثمارها . وكانوا يستطيعون بيع ذلك الحق ، كما كانوا من الناحية النظرية أحرارا فى الانتقال الى أى مكان آخر يشاءونه ، وان كان من الطبيعى أن أصحاب التيمارات حاولوا منعهم (١٧) . وعلى الجملة لم يكن لصاحب التيمار (التماريوت) أية مصلحة أخرى قانونية عند فلاحيه تزيد على التزامهم بدفع مكوس العشور والفروض الأخرى الواجبة ، وأن يطيعوه عندما يقوم بالعمل بوصفه موظفا فى الحكومة : ولم تكن لديه أية سلطات قضائية من النوع الذى كان يمارس فى المحاكم القروية بأوروبا الغربية .

ولا مفر لهذه الأحوال من أن تتبدل ، بطبيعة الحال ، مع اضمحلال النظام الاقطاعى . ومع ذلك فان حياة الفلاح فى ضيعة حيازة أو امتلاك ربما كانت بالفصل أفضل من الحياة فى البوسنة الاقطاعية قبل العهد العثمانى - وبخاصة فى السنوات الأخيرة السابقة على الغزو التركى ، عندما كان الناس يرزحون تحت عبء الأثقال المالية الإضافية الضخمة التى تطلبها الدفاع عن البوسنة ضد الأتراك ، ودفع الجزيات اللازمة لارضائهم . وها هو ذا الملك سستيفن توماشوفيتش يكتب فى أحدهم التماساته التى وجهها بطالب النجدة والمساعدة قبل الغزو : « يبدى الترك نحو الفلاحين شعورا ملؤه الرفق . وهم يعدون كل من ينطلق اليهم بأن

يكون حرا ، ويرحبون بهم بمنتهى اللطف . . والناس سيخضعون بمثل هذه الحيل للتخلي عنى « (١٨) . على أن هذه « الجيل » لم تكن من بعض النواحي خدعة . كما أن هؤلاء الفلاحين الذين اعنقوا الاسلام ، كان من الممكن أن ينعموا بنظام آخر من الحيازة أو الامتلاك أكثر أمنا ، يستطيع الفلاح فيه أن يملك قطعة صغيرة من الأرض (Chift) لعل اتساعها يتراوح بين خمسة الى عشرة هكتارات (١٩) .

ومن المؤكد أن الهوية الاسلامية كانت ميزة كبرى لأى انسان فى الدولة العثمانية . على أننا نسيء فهم الامبراطورية العثمانية فى تلك المدة متى افترضنا - كما لا تزال تفعل كثير من الكتب العلمية المتعمدة - أن نظامها كان دينيا صرفا يفصل فصلا مطلقا بين طبقة حكام من المسلمين وطبقة محكومة من غير المؤمنين ، الذين كانوا يصنفون حسب الله (Millet أى الوحدة الدينية) التى كانوا ينتسبون اليها . أجل ان الامبراطورية أصبحت على تلك الشاكلة فى تاريخها المتأخر ، ولكن الأمر كان مختلفا فى الفترة الأولى من حكمها فى البلقان فلم يكن التمييز الأصلي بين المسلمين وغير المؤمنين ، بل بين العثمانيين (يعنى كامل الهيئة العسكرية الادارية التى يستطيع الناس الانضمام اليها ، متى تطبعوا بنظرة وسلوك العثمانيين) ، والرعية . فكان المصطلح القرآنى وهو الرعية (أى « القطيع أو السرب ») كلمة عامة تطلق على التسعوب الخاضعة : ومنهم المسلمون أيضا ، وخاصة متى كانت لهم - شأن العرب - ثقافة غير عثمانية . ولم يكن النظام القانونى العثمانى الأساسى قائما على الشريعة الاسلامية : بل كان ينبع من ارادة السلطان نفسه ، وغالبا ما يتخذ شكل انعام بالأمر بالابقاء على القوانين والامنيات المحلية ، وكان مفروضا بالطبع أنه لا يخالف الشريعة . ولم يحدث الا بالتدريج أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر أن ازداد المزج بين الاسلام وبين مبادئ الحكم العثمانى . فعندما غزا الأتراك بلاد البوسنة ، ولمدة عدة أجيال بعد ذلك كان لا يزال يمكننا لأى مسيحي أن يصبح فارسا (سباهى) وان يمنح حيازة تيمار دون التخلي عن مسيحيته : وكان الولاء المحقق للدولة العثمانية ، وتقبل طرائقها فى الحياة والحكم ، هما المتطلبين الوحيدين اللازمين (٢٠) .

ومع أن البوسنة كان يحكمها المسلمون . لكنه كان من الصعب اعتبارها ولاية مسلمة ، ولم يكن من سياسة الدولة تحويل الناس الى الاسلام ، أو اجبارهم على التخليق بسلوكيات المسلمين ، وكانت سياسة الدولة الوحيدة تقوم على الاحتفاظ بالبلاد تحت السيطرة ، وابتزاز النقود والرجال والايرادات الاقطاعية ، لتزويد الامبراطورية بما تحتاج

ليه فى المستقبل من عدة للحرب • وكان معنى ذلك أن الحكم العثمانى فى تلك المدة كان من بعض النواحي ، هينا ، حيث لم تمس الدولة حرية رعاياها فى بعض المجالات • وكانت الديانتان اليهودية والمسيحية قائمتين ، ولكن مع بعض القيود • كما كان مسموحا لكنتهما أن يطبقوا على أتباعهما سنتهما الدينية الخاصة - فى محاكم خاصة - وذلك على الأقل فى الشئون المدنية • ولكن فى الوقت عينه كانت الطبيعة المحدودة لاهتمام الحكومة العثمانية فى الأقطار التى كانت تحكمها ، داعيا كما هو واضح الى الفساد والرشوة والاضطهاد • وما دام الوالى الاقليمى يمد الدولة بالرجال والايرادات ، ويضع اقليمه تحت الضبط والربط ، فان أحدا من رجال الادارة الامبراطورية لم يكن ليبالى بالنظر فى الأسلوب الذى كان يسلكه هناك • وكان الباشا القاسى الفؤاد أو الفاسد المرتشى يستمتع بحرية تصرف واسعة ، وربما جاز عزل الحاكم بسبب قلة كفايته أو التمرد عليه ولكنه لم يكن يعزل من أجل مجرد الفساد أبدا • وكانت كثرة التنقلات التى تجربها الدولة لولاة الأقاليم والقواد العسكريين ، من منطقة الى أخرى ، حيث يقضون بضع سنوات قليلة فى الحكم فى الاقليم الواحد ، تكاد تكون دعوة صارخة لهم لابتزاز الثروات من ولاياتهم بأسرع ما يستطيعون • وكانت هناك ألوان كثيرة من القانون المدنى فى الامبراطورية العثمانية ، كما كان هناك القانون الاسلامى : وهو « الشريعة » ، الذى زاد أهمية بسرعة كبيرة ، ولكن المرء انما يتردد فى وصف الامبراطورية العثمانية بأنها استتمعت ذات يوم بسيادة القانون •

كان القاضى هو الذى ينفذ القانون العثمانى محليا • وكان هو أهم مدير للشئون فى المستوى المحلى ، وكانت الدائرة التى هو مسئول عنها تسمى كازا (Kaza) أو قاضيلوك (Kadiluk) أى دائرة اختصاص القاضى (٢١) • وكان العدد منها يؤلف سنجقية ، وهى المنطقة الادارية العسكرية • وكانت كل سنجقية منطقة مترامية ومهمة ، ولكنها فى حد ذاتها كانت قسما جزئيا من الايالة (Eyalet) ، وهى أكبر وحدة ادارية تتكون منها الامبراطورية • وكانت أول سنجقية ، أقامها الترك بعد غزوهم للبوسنة هى سنجقية البوسنة نفسها ، التى جعل مقرها الادارى فى سراييفو أولا (حتى ١٥٥٣) ، والثانية فى بانيا لوكا (حتى ١٦٣٩) ، ثم فى سراييفو للمرة الثانية (حتى تسعينيات الألف وستمئة) ، وأخيرا فى ترافنيك • ثم أقيمت بعد ذلك بقليل سنجقية زفورنيك الى الشمال الشرقى ، وسنجقية الهرسك فى ١٦٧٠ • ثم أنشئت خمس سنجقيات أخرى فى القرن السادس عشر وهى تتكون جزئيا من أرض اقتطعت من كرواتيا وسلافونيا • وحتى عام ١٥٨٠ كانت كل هذه السنجقيات تشكل

جزءاً من إيالة روميليا (Rumelia) ، وهي الولاية التي تغطي معظم بلاد
البلقان (٢٢) ٠ ولكن في تلك السنة اتخذ قرار بإنشاء إيالة منها جميعاً :
هي إيالة البوسنة ٠ وكان معنى ذلك ، أنها كان يحكمها حاكم بأعلى رتبة
وهي الباشوية : بيك البكرات (Beylerbey) بالتركية و « بيجلر بيج »
(Beglerbeg) بالصربوكرواتية أى « سيد السادات » ٠ وبذلك أصبح
هناك الآن كيان بوسنى حديث ، كان يضم كل البوسنة والهرسك ،
بالإضافة الى أجزاء مجاورة من سلافونيا وكرواتيا ، ودالماتيا وصربيا (٢٣) ٠
وبينما كان على مملكة صربيا القديمة أن تظل مقسمة الى عدد من الوحدات
الأصغر حجماً ، التي ألف الكثير منها أجزاء من إيالة بودا (Buda)
أوروميليا ، فإن البوسنة ظلت مستمتعة بهذا الوضع القانونى الخاص
بوصفها وحدة ذاتية لمنطقة كبرى ، طوال الشطر الباقى من فترة الحكم
العثمانى ٠

الفصل الخامس

اعتناق البوسنة الاسلام

ربما لم يكن وصول البرك في القرن الخامس عشر ، في الراجح ، أول احتكاك بين البوسنة والاسلام . فان التوسع العربي في البحر المتوسط ، الذي كان توصل عند القرن التاسع الى انشاء الحكم الاسلامي في كل من كريت وصقلية وجنوب ايطاليا واسبانيا ، لابد أنه اجتلب تجار العرب ومغيريهم عدة مرات الى ساحل دالماسيا . ومن المؤكد أن تجارة الرقيق في ذلك الساحل ، التي ، كما رأينا . نشرت الرقيق البوسنيين في غرب البحر المتوسط ، في الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى ، كانت تمارس خلال هذه الفترة المبكرة : فان الرقيق السلاف من منطقة البحر المتوسط كانوا موجودين بأسبانيا منذ أوائل عهدها الاسلامي ، كما أن حكام الأندلس الشراقة (*) ، معروف عنهم انهم كانوا يمتلكون جيشا سلافيا عدته ١٣٧٥٠ مقاتلا في القرن العاشر (١) . ولكننا لا نستطيع هنا الا الرجم بالغيب حول ما اذا كان هؤلاء الرقيق البوسنيون اعتنقوا الاسلام ، وحصلوا على حريتهم ، وعادوا الى موطنهم الأصلي . والرجم بالغيب أيضا هو أقصر ما يمكن عمله عند بحث علاقة البوسنيين بسلمى المجر في العصور الوسطى - وتجار العرب وسلالة القبائل التركية التي اعتنقت الاسلام ، وغيرهم من المهاجرين . والمعروف عنهم أنهم عاشوا في الكثير من أجزاء الأراضي المجرية بما في ذلك ستريم (Strem) ، وهي المنطقة الملاصقة لشمال شرق البوسنة ، حتى طردوا من المجر هم واليهود ، أثناء القرن الرابع عشر (٢) . ومن اليسير علينا فهم السبب الذي أجج في العلماء المسلمين الرغبة في ترسيخ فكرة أن الاسلام كان له وجود بالغ القدم في أرض البوسنة ، لعله أقدم من الدولة البوسنية نفسها . ولكن من الواضح أن الأهمية التاريخية لهذه الاتصالات الممكنة المبكرة ضئيلة . فالاحتكاك أو الاتصال شيء ، والتحول الجماعي الى ومن دين لآخر ، شيء آخر .

(*) الشراقة Saracens ، أي العرب الشرقيين - (المترجم) .

وعندى أن اعتناق شطر كبير من السكان للإسلام فى عهد الترك ، يظل أهم ظواهر التاريخ البوسنى الحديث أهمية وتميزا . وقد نشأت أساطير كثيرة حول طريقة حدوث ذلك وأسبابه ، ولازال بعضها يتسرب من بعض المؤلفات العلمية القديمة (وغير العلمية الحديثة) الى عقول البوسنيين العاديين . فحتى العقد الخامس من هذا القرن ، حينما بدأ العلماء التحليل الجدى للسجلات الادارية العثمانية ، كان الكثير من البينات والشواهد غير متاح . ومن ثم استطاعوا خلال العقود التالية تكوين صورة أشد استيفاء للتفاصيل بكثير ، كما أن بعضا من أشيع الحكايات والأساطير حول اعتناق البوسنة الاسلام ، قد شيعت الى مثواها الأخير .

ولا مراء فى أن خير مصدر للمعلومات هو « الدفاتر » العثمانية ، وهى سجلات الضرائب التى سجل فيها مالكو العقارات ، والتى تقسم الناس الى فئات حسب أديانهم . فمن هذه الدفاتر والبيانات يمكن عمل استيفاء للتفاصيل حول انتشار الاسلام فى البوسنة . وتظهر أقدم الدفاتر (١٤٦٨ - ١٤٦٩) أن الاسلام كان محدود الانتشار ، فى السنوات القليلة الأولى بعد الغزو . وفى منطقة شرق ووسط البوسنة ، التى تغطيها تلك السجلات ، كانت هناك ٣٧١٢٥ دارا للمسيحيين ، بينما لم يكن للمسلمين سوى ٣٣٢ دارا . فلو فرضنا أن بكل دار خمسة أفراد فقط ، فى المتوسط ، لأعطانا ذلك عددا يصل الى ١٨٥٣٢٦ مسيحيا ، وهناك قائمة منفصلة تحصى عدد العزاب والأرامل بين المسيحيين بتسعة آلاف . وكانت نصف البيوت المسيحية وثلاثا عدد بيوت المسلمين (٢٣٤ بيتا) من الرعية البسطاء الذين يعيشون فى ضيعات (تيمارات) عادية ، بينما الآخرون يعيشون فى ضيعات (أخصاص) أكبر حجما ، أو بالمدن ، أو على اراضيهم الخاصة . والعالم الذى حلل هذه الوثائق لأول مرة هو نديم فيليبوفيتش (Nedim Filipovic) لاحظ أيضا أن انتشار الاسلام كان يسيرا جدا بأرض الهرسك ، وأنه كان يسير بخطى أوسع - وهو أمر لا يدعو لأية دهشة - بالمنطقة المحيطة بسراييفو ، التى ظل الترك يملكونها منذ أربعينيات القرن الخامس عشر (٣) . وبعض المحتازين للتيمار ، يوصفون تحديدا فى تلك الدفاتر القديمة ، بأنهم « مسلمون حديثو الاسلام » ، ولبعضهم الآخر اسم مسلم قد يسجلون بأنهم « ابن ٠٠٠ » أى ابن فلان - والوالد يحمل اسما مسيحيا (٤) .

والدفتر التالى الذى حلل تحليلا وافيا ، يغطى سنجقية البوسنة لعام ١٤٨٥ ، وهو يظهر أن الاسلام قد بدأ الآن يحدث تقدما له ضخامته .

فكانت هناك دور مسيحية عدتها ٣٠٣٥٢ ، و ٤٢٩٢ من الأفراد المسيحيين بين عزاب وأراميل ، و ٤١٣٤ دارا مسامة ، و ١٤٦٠ من المسلمين العزاب (٥) . ونعود الى التعداد مرة ثانية . فلو فرضنا وجود خمسة أفراد في كل دار لأعطانا ذلك ١٥٥٢٢١ مسيحيا ، و ٢١١٣٤ مسلما ، ولو قورن ذلك بأرقام عامي ١٤٦٨ - ١٤٦٩ ، فإن الهبوط في الأرقام الكلية (التي تكاد تكون أعظم في حقيقة الأمر وواقعه) لو أخذ في الاعتبار نسبة نمو السكان العادية ، يكون لافتا للنظر حقا ، ففي تلك الفترة كان هناك نزوح متواصل الى خارج البوسنة ، وتذكر السجلات عددا كبيرا من القرى المهجورة . وبطبيعة الحال كان غير المسلمين هم الذين فروا ، وكان المعتنقون للإسلام هم الذين تخلفوا . ولكن في أثناء العقود الأربع التالية ، ظل عدد السكان الكلي ثابتا ، ولكن زادت نسبة المسلمين أكثر كثيرا : وتسجل لنا دفاتر عشريتيات القرن السادس عشر أرقاما كلية حول سنجقية البوسنة . يشكل فيها المسيحيون ١٩٠٠٩٥ فردا ، والمسلمون ٨٧٥٧٥ فردا (٦) . ونظرا لأننا نعرف أنه لم تكن هناك هجرة واسعة المدى للمسلمين الى داخل البوسنة ، أثناء تلك المدة ، فإن الرقم ينبغي أن يمثل اعتناق البوسنيين المسيحيين للإسلام .

وما لبثت عملية اعتناق الاسلام أن زادت سرعتها تدريجيا في الهرسك ، إذ أن هناك تعليقا صدر عن أحد الرهبان الأرثوذكس بالهرسك في ١٥٠٩ ، وفيه يلاحظ أن كثيرا من أفراد الشعب الأرثوذكسي قد اعتنقوا الاسلام عن رضا وقبول (٧) . وفي شمال البوسنة وشمالها الشرقي لم يتيسر لانتشار الاسلام أن يتم الا ببطء في مواكبة التوسع على حساب المجبر . وما أن اكتمل الفتح في عشريتيات القرن السادس عشر ، حتى انتشر الاسلام بصورة أسرع قليلا . ويدعى المؤرخ الدومينيكي الأب مانديتش^٧ (Mandic) أن حملة متعددة من الاضطهاد للكاتوليك لاجبارهم على اعتناق الاسلام قد شنت لأول مرة في المدة بين ١٥١٦ و ١٥٢٤ (٨) . بيد أن الدراسة البالغة التفصيل لشمال شرقي البوسنة في أثناء تلك

المدة التي سطرها آدم هانجيتش^٧ (Adem Handzic) ، لا تؤيد ادعاء مانديتش وأن أظهرت فعلا أن كثيرا من الكاثوليك هاجروا من المنطقة ، وأن خمسة من الأديرة العشرة الفرنسيسكانية هناك ، قد أوصدت أبوابها وكفت عن العمل . ويكشف هانجيتش أيضا عن أن الكاثوليك كانوا اقرب - وبصورة مفهومة أكثر - الى اعتناق الاسلام كلما بعدت السقة بين ديارهم وبين الكنائس الكاثوليكية . وكان المكان الذي أبدى أشد مقاومة هو سربرينيك وكان بها خليط كبير من السكان الجerman والراجوزين الكاثوليكيب العقيدة ، وظل الكاثوليك يشكلون ثلثي عدد سكانها في منتصف القرن السادس عشر . وكان انتشار الاسلام في المدن أوسع منه

في المناطق الريفية في العسادة ، وكان المسلمون يمثلون ثلث عدد سكان شمال شرق البوسنة في سنة ١٥٣٣ ، ثم ارتفعت نسبتهم الى ٤٠٪ في سنة ١٥٤٨ (٩) .

وتعوزنا أية أرقام دقيقة حول السنوات التالية في القرن السادس عشر ، حيث عدلت الحكومة عن استخدام الدفاتر . ولكن يبدو واضحا أنه قد جاء أوان في أخريات القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر أصبح المسلمون فيه غالبية مطلقة ، بمنطقتي البوسنة العصرية والهرسك . ومنذ بواكير القرن السابع عشر ، يوجد بين أيدينا فعلا ، بعض البيانات التي كتبها قساوسة كاثوليك زائرون ، جمعوا فيها تقارير وبيانات تفصيلية من أجل روما ، وكانت أرقامهم نقلا عما سمعوه ، واستخدامهم لتعبير « البوسنة » مطاطا ، كما أنهم فيما هو واضح كانوا شديدي الحرص على تأكيد : اما القوة العددية للكنيسة الكاثوليكية أو المبالغة في درجة الاضطهاد التي كانت تقاسمها . ومن هؤلاء زائر مسيحي ذكر أن عدد الكاثوليك في البوسنة كلها كان مئتين وخمسين ألفا في ١٦٢٦ ، وأضاف الى ذلك قوله ان عدد المسلمين كان أكثر من العدد الكلي للمسيحيين (١٠) . وثمة آخر هو القسيس الألباني والزائر الرسولي بيتر مساريكي ، قدم في ١٦٢٤ تقريرا قائما على التحرى الدقيق ، ومن سوء الحظ أن الأرقام التي قدمها حول البوسنة لقيت أسوأ تفسير من كل المؤرخين الذين تناولوها تقريبا . وفي الحقيقة فإن ما ذكره هو أن عدد الكاثوليك كان مئة وخمسين ألفا والأرثوذكس الشرقيين خمسة وسبعين ألفا والمسلمين أربعمئة وخمسين ألفا (١١) .

واستغرقت عملية تحول معظم سكان البوسنة الى الاسلام ، الشطر الأعظم من مئة وخمسين سنة . وعلى ضوء البيانات التي تجمعت حتى اليوم ، يتضح أن بعضا من أقدم الأساطير حول هذا الأمر انما هو هراء يمكن نبذه . وعلينا أن نرفض تماما فكرة جلب المسلمين في جماعات كبيرة من خارج البوسنة واسكانهم فيها : فرغم أن العثمانيين استجلبوا فعلا بعض الشعوب التركية الى مناطق أخرى من البلقان ، فإن الدفاتر تؤكد أن مثل هذه السياسة لم تطبق في البوسنة أبدا . وربما اختلط الأمر على قلة من روار البوسنة من الأجانب الذين اختلط عليهم الأمر لضحالة علمهم عندما وصف مسلمو البوسنة أنفسهم بأنهم « أتراك » ، ولكن لم يكن معنى ذلك أنهم كانوا يعدون أنفسهم أتراكا فهم كانوا يستخدمون دائما مصطلحا مختلفا لوصف « الأتراك العثمانيين » : اما عثمانلي (Osmanli) أو تركوش (Turkosh) (١٢) . ولا شك في أن بعض المسلمين من تجار وحرفيين

وقرسان (سباعي) - توافدوا للاقامة ببلاد البوسنة من الأجزاء الأخرى من الامبراطورية ، ولكن بعض هؤلاء ، وفيهم فيما يحتمل نسبة ضخمة في أخريات القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، كانوا سلافا مسلمين من بلاد سلافية أخرى . والتاريخ يقول ان الجنود غير السلافيين الذين خدموا مع القوات البوسنية أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر لم يستقروا في الأراضي البوسنية ويستوطنوها الا في القليل النادر (١٣) :

وبالمثل ، فان الفكرة القائلة بأنه جرى تحويل جماعي للبوسنيين الى الاسلام في السنوات الأولى التالية للغزو ، إنما هي فكرة واضحة الزيف: فان عملية التحويل للاسلام كانت بطيئة في البداية في أحيان كثيرة واستغرقت عدة أجيال ، ومع أنه قد يعوزنا ذلك النوع من الشهادة الشخصية التي توضح لنا وتخبرنا كيف ولماذا كان الأفراد يقررون التحول الى الاسلام ، فان لدينا تعقبات وملحوظات صمدت بين حين وآخر ، مثل تعقيب ذلك الراهب الوارد ذكره أعلاه ، وكلها تدل على أن الناس كانوا يعتنقون الاسلام بمحض ارادتهم المطلقة . وتشير الدفاتر أيضا ، بوصفها بيئة وشهادة ، الى عدم وجود أدنى تعرض للمسيحيين الذين أجبروا على التمسك بعقيدتهم : وكان من الأشياء الطبيعية لدى الناس ، أن يصبحوا مسلمين ، ويتسموا بالأسماء الاسلامية ، ومع ذلك يواصلون المعيشة مع بقية عائلتهم المسيحية (١٤) . ونساعدنا هذه العادة أو الممارسة على تفسير السبب الذي من أجله احتفظ مسلمو البوسنة بالطريقة السلافية للأسماء الملقبة بالآباء : وهناك تدوينات كثيرة وردت في الدفاتر المبكرة من نوع « فرهاد بن ايفان » أو حسن بن ميهايلو . حتى اذا جاء الوقت الذي رسخت فيه الأسماء المنسوبة الى الأب بوصفها ألقابا للأسرة ، اذا بمعظم المسلمين وقد أصبح لهم أب مسلم ، بيد أنهم واصلوا تشكيل هذه الأسماء العائلية على الطريقة السلافية ، وقدمين الكنيات مثل حسنوفيتش وسليمانوفيتش (١٥) .

والقول بأنه لم تكن هناك سياسة عامة للضغط على الأفراد ، لا يعني بأنه لم تكن هناك أية معوقات أمام عمل الكنائس المسيحية ولم تنزل بها أية مظالم . على أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت أقلهم معاناة أثناء تلك الفترة العثمانية المبكرة لسببين : أن سياسة الحكومة العثمانية تحايي الكنيسة الأرثوذكسية على الكاثوليكية (كنيسة العمدو النمساوي) ، وثانيهما الوجود الأرثوذكسي في البوسنة ، باستثناء الهرسك ، كان

ضعيفا قبل الغزو التركي . ومن المؤكد أن عددا من السكان الأرثوذكس قد دخلوا في أجزاء كثيرة من البوسنة ، كنتيجة مباشرة للسياسة العثمانية . (وسنعالج ذلك الموضوع فيما بعد في الفصل السادس) . كما أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت مؤسسة معترفا بها في الامبراطورية (١٦) .

على أن الكنيسة الكاثوليكية ، وإن منحت الوضع القانوني الضروري لها لمواصلة أنشطتها ، كان ينظر إليها بارتياح عميق (١٧) . وكان ينظر إلى تقاسومتها على أنهم جواسيس محتملون للدول الأجنبية ، وكان ذلك الاتهام قائما على أسباب قوية : فإن هناك مسئولا رسميا لحكومة البندقية يسجل في عام ١٥٠٠ تقريرا مرسلا من « رهبان فرنسيسكان بعينهم مكنوا حينما في البوسنة » ، وهو يحلل النوايا العسكرية للترك (١٨) . وفقر كثير من الكاثوليك إلى الأراضي الكاثوليكية المجاورة ، في نصف القرن الأول للحكم العثماني ، وبخاصة فيما يرجع أولئك الذين تعاونوا مع المجريين في أثناء محاولتهم التمسك بالجزء الشمالي من البوسنة . وكما رأينا ، فإن خمسة من الأديرة الفرنسيسكانية العشرة في تلك المنطقة الشمالية الشرقية التي درسها آدم هانجيتش اختفت من الوجود أثناء عمليات الغزو التركي . وقبل دخول الترك البوسنة ، كانت هناك خمسة وثلاثون ديرا فرنسيسكانية في البوسنة الحقة وأربعة بالهرسك . ومعظم هذه الأديرة لا وجود لها بالدفاتر ، إذ دمر بعضها في الحرب ، وبعضها الآخر (بكل من فوتشا وبايسه وزفوريك وسربينيكا وبيهاثش) قد حولت إلى مساجد . وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر وجد فرنسيسكاني زائر أنه لم يبق الا عشرة أديرة في كل أرجاء البوسنة ، وقد ذكر كاثوليكي آخر هو الأسقف مارافيتش (Maravic) العدد نفسه في تقريره الذي كتبه في ١٦٥٥ (١٩) . وكان الفرنسيسكان هم رجال الدين الكاثوليك الوحيدين العاملين في البوسنة ، وفي ١٥١٤ قسمت الوحدة الكاثوليكية الإدارية في البوسنة إلى دائرتين ، هما البوسنة الكرواتية (أي كرواتيا غير العثمانية) ، و « البوسنة الفضية » (أرجنتينا) أي البوسنة نفسها ، وكان الفقر قد حل بالدائرة الثانية وأضحت معزولة عن العالم . ومع أن الكنيسة في البوسنة لم يكن لها مصدر إيراد إلا ما يرد إليها من مال من الخارج وهبات من رعاياها المخلصين ، فإن الولاة العثمانيين المحليين كانوا يجدون كثيرا من الفرص لايتنازا المبالغ الضخمة منها . وكان الولاة الأكثر تقلبا في الأهواء يستخدمون أية ذريعة لطلب المال ، وهناك تقرير يضحج بالشكوى مرسل من البوسنة إلى روما في ١٦٠٣ وهو يصف كيف أن الفرنسيسكانيين قد اعتقلوا وأسيئت معاملتهم

في السجن وكلقوا بدفع ثلاثة آلاف أسبر (Aspers) (وهي عملة عثمانية) مقابل الحصول على تصريح لهم بالبقاء في أديرتهم (٢٠) * ومن الجلي أن انظروا المحيطة برجال الدين الكاثوليك كانت عسيرة ، وكانوا دوما عرضة للغصب والاكراه ، لا للنحول عن دينهم ، بل لابتزاز المال منهم *

وهناك نظرية أخرى شائعة حول نشر الاسلام في البوسنة وهي أن التحول الى الاسلام نتج عن التحول الجماعي لأعضاء الكنيسة البوسنية - النى تفترض النظرية بكافة أشكالها أنها كانت بوجوميلية * ولأول نظرة يكتشف المرء شيئا يستحق التصديق في هذا الادعاء : هو أن الكنيسة البوسنية والزيادة الضخمة في عدد المسلمين يشكلان أشد الأشياء تميزا حول التاريخ البوسني * فالكنيسة تنتهي بتحول السكان الى الاسلام ، فهل هناك أوقع من أن يفسر كل من هذين الأمرين الآخر ؟ على أن النظرية في أبسط أشكالها انما هي رأى واضح البهتان * صحيح أننا نستطيع الربط بين بعض جوانب الظاهرتين ولكنه ارتباط غير مباشر فحسب * وكما رأينا ، استغرقت عملية تحول البوسنة للاسلام أجيالا عدة * فلو أن المصدر الرئيسى لهؤلاء المسلمين المستجدين طوال تلك الفترة كان أتباع الكنيسة البوسنية ، لجاز للمرء منا أن يجد شواهد تدل على تلك العضوية المستمرة - شواهد تكون ضخمة في أول الأمر ثم لاتبث أن تتناقص بالتدرج - في الدفاتر * ولكن الدفاتر تظهر أقل من سبعمئة فرد من الأعضاء في البوسنة على امتداد مئة وخمسين عاما تقريبا * ولدينا من الاسباب ما يحملنا على أن نعتقد أن الكنيسة البوسنية كانت في عدد الموتى الى حد كبير حتى قبل الغزو التركي وأن عدد أتباعها العلمانيين (*) في السنوات السابقة على انهيارها ربما لم يكن ضخما جدا على كل حال * وربما أقدم بعض هؤلاء الناس ، حسبما تورده بعض التقارير العصرية القليلة ، على الترحيب بالأتراك اغاظة وكيلا في مضطهديهم الكاثوليك (١٤) * بيد أن الترحيب بالأتراك شيء والترحيب بالاسلام شيء آخر تماما ، فان الأفراد الذين كانت سياساتهم تسترشد بقوة اخلاصهم للكنيسة البوسنية ، لابد أن يكونوا أقل الشعوب نزوعا الى التخلي عن ديانتهم * وقد بذل بعض الكتاب محاولات لاكتشاف أواصر روحية عميقة بين لاهوت البوجوميليين البوسنيين والمأثورات التصوفية الاسلامية ، وبخاصة صوفية طرق الدراويش (٢٢) * فان نحن رفضنا ، كما هو الواجب علينا ، نظرية البوجوميل حول الكنبسة البوسنية وجب أن نرفض هذا القول أيضا *

(*) العلماني هو غير رجال الدين *

والعلاقة الوحيدة التي يمكن أن تستنتج بين الكنيسة البوسنية والتحول للإسلام إنما هي علاقة غير مباشرة وتكاد تكون سلبية . فنحن نرى من قصة الكنيسة البوسنية أنها عانت من الضعف والانهايار أثناء المدة السابقة على الغزو التركي . وقد كانت هناك في بعض المناطق (كالهريسك والحافة الصربية من البوسنة الشرقية) ثلاث كنائس مختلفة تعمل كلها في تنافس . أما في معظم البوسنة الحقة فكانت هناك اثنتان : الكنيسة البوسنية والكنيسة الكاثوليكية . ولم تحظ أي منهما حتى العقود الأخيرة للمملكة البوسنية بدعم مطلق من سياسة الدولة . ولم تفرض في مناطقها نظاما صحيحا من الأبروشيات التي لكل منها رئيس كنسي . ولا بد أن كثيرا من القرى كانت بعيدة عن مجال كل من الأديرة الفرنسيسكانية والبيوت الديرية للكنيسة البوسنية فلا تكاد ترى راهبا أو مسيحيا ولو في زيارة سنوية . ولو أننا قارنا حالة الأمور هذه بهجرات الأمور في صربيا أو بلغاريا ، حيث كانت هناك كنيسة قومية وحيدة وقوية وجيدة التنظيم ، لوضعنا أيدينا على سبب ضخم دعا إلى ما لقيه الإسلام من نجاح أعظم ببلاد البوسنة . واستمرت المنافسة الشرسة بين الكاثوليك والأرثوذكس طوال فترة التحول للإسلام ، فبينما تحول بعض أتباع الكنيستين إلى الإسلام فقد تحول بعض الكاثوليك أيضا إلى الأرثوذكسية والعكس بالعكس (٢٣) . ومما له دلالة أن القطر البلقاني الآخر الوحيد (خارج إقليم تراقيا المأهول بالأتراك) الذي أصبح يحتاز أغلبية مسلمة من السكان هو ألبانيا ، التي كانت معترك منافسة بين الكنائس المسيحية (الكاثوليكية والأرثوذكسية) . بيد أن حالة ألبانيا كانت مختلفة هي الأخرى ، إذ يبدو أن هذا الإقليم كان قد دخل الإسلام نتيجة لسياسة عثمانية متعددة ومقصودة لمساعدة المقاومة المتهورة بعد الحرب التركية البندقية في القرن السابع عشر (٢٤) .

•

وإذا نحن أدركنا أن المسيحية لم تجد عونا كبيرا من أية منظمة كنسية في كثير من أرجاء البوسنة ، أمكننا أن نفهم بشيء من الوضوح سيكولوجية اعتناق الإسلام . ومن نافلة القول ، الحديث عن هذه التحولات الدينية بالمصطلح الذي يستخدمه الناس حول مارتن لوتر مثلا أو الكاردينال نيومان . ففي المناطق الريفية التي يعوزها خدمة القسس ، كانت المسيحية (مهما كان مذهبها) قد أصبحت فيما يرجح لا تزيد كثيرا عن مجموعة من الممارسات والمراسم الشعبية التي كان بعضها خاصا بالميلاد والزواج والوفاة ، ويهدف بعضها الآخر إلى دفع سوء الحظ وشفاء السقام ، والحصول على محصول جيد ، وهكذا . ولم يكن الانتقال من المسيحية

والشعبية الى الاسلام الشعبى شيئا كبيرا جدا ، فقد كان فى الامكان استمرار كثير من الممارسات عينها ، وان جرى ذلك تحت كلمات أو أسماء مختلفة اختلافا هينا . وبدون الوجود الراقب المتحكم لكنيسة ما ، والتحذير من الخطر المحقق بروح المرء الخالدة ، كان الانتقال معكنا بغاية السهولة . وكثيرا ما كان الزوار البروتستانت للبلقان ممن كانوا يتسمون بالجدية والوقار ، يصدمون لتلك الاستهانة التى كان الناس يجرون بها هذا الانتقال . وقد لاحظ الطبيب الانجليزى جورج هويلر (George Wheeler) أثناء زيارته لكورنثة ، فى سبعينيات الألف وستمئة ، الملاحظة التالية فقال : « ان المسيحيين هنا ، بسبب افتقارهم للتعليم الجيد والقسيس الصالح الكفء الذى يعلمهم ، يقعون كل يوم فى المروق عن الدين ويتخلون عن دينهم مستبدلين به الخرافات التركية كلما ألت بهم مصيبة صغيرة ولما أحسوا بالسخط » (٢٥) .

وجدير بالذكر ان بعض الممارسات الدينية الشعبية الواردة فى أقدم المصادر كان لها بالفعل تاريخ طويل فى كل من التقاليد الماثورة للمسيحية والاسلام . فالإيمان بالقوى الحافظة للألواح أو قصاصات الورق التى عليها كتابات دينية - اما على صورة حجاب أو تدفن فى حقل لحفظ ووقاية المحصولات - كانت شيئا شائعا فى العصور الوسطى ولا تزال قائمة الى يومنا هذا ، بين كل من المسيحيين والمسلمين (٢٦) . وهناك مسافر فى ١٩٠٤ ، أخذته الدهشة حين رأى المسلمين والمسيحيين يشتركون فى « نفس المعتقدات الخرافية مثل قوة الأحجية الواقية التى كثيرا ما كان المسلمون يلجأون الى مباركتها من الفرنسيين واليونانيين ويلبسونها لأطفالهم حول الأعناق أو على ملابسهم أو على طرابيشهم مثل الحيات والأسماء وبرائن النسور وقرون الوعول ، وما الى ذلك كله » (٢٧) . وكانت كل من الديانتين تحتفل بكثير من الأعياد والأيام المقدسة وتضم هذه الاحتفالات - يوم يورييفو (Jurjevo ، أى يوم عيد القديس جورج) وعيد اليندن (Ilinden) أى عيد القديس الياس (الذى كان معروفا عند المسلمين باسم اليديون Alidjun) - والأمر كما ينطقه المنزل السائر : « فى الصبح الياس وبعد الظهر على » (٢٨) . وحيثما كان الموقف الاساسى من الدين عمليا وسحريا ، كان من الممكن استعارة عناصر الطقوس من دين لآخر خاصة الهامة منها ، وذلك لأن تلك العناصر كانت تعتبر أشدها قوة . لذا نجد المسلمين يقبلون أكثر الأيقونات المسيحية احتراما وتبجيلا ، كذلك الأيقونة القائمة فى أولوفو ، أو يدخلون الكنائس المسيحية للصلاة ، لذا نجدهم أيضا فى بواكير القرن التاسع عشر يطلبون تلاوة المقدسات الكاثوليكية من أجلهم أمام صور العذراء التماسا لشفاء مريض

بمرض عضال (٢٩) . ويبدو أن نحلة أو عبادة العذراء مريم كانت شيئا شعبيا محبوبا لدى الناس بوجه خاص . وهناك راهب فرنسيسكاني هو « حارس » دير أولوفو ، كتب في ١٥٩٦ بأن الكنيسة كانت تحظى بأشد التبجيل عند المسلمين بسبب التعاقب المستمر للمعجزات التي تبهر العقول التي يجريها الله هناك بفضل توسط العذراء المقدسة « (٣٠) . وفي مقابل ذلك ، يوجد هناك أيضا سجلات تدون أن بعض المسيحيين كانوا يستدعون الدراويش المسلمين لقراءة القرآن عليهم ابتغاء شفايتهم من مرض وبيل . وهناك دراسة واسعة لهذا الموضوع تمت بكل أرجاء الامبراطورية العثمانية وتوصلت الى التالي : « أن النزوع الى المشاركة يبدو بطبيعة الحال أقوى ما يكون . حيثما التقت جميع الطوائف على أساس مشترك بينها من الخرافات الدنيوية » (٣١) .

وينبغي لنا على هذا الأساس أن ننظر الى الجانب الخفي السري الآخر في التاريخ الديني البوسني ، الذي بدل حسنا يقول بعض الكتاب على وجود علاقة ما بين الاسلام والكنيسة البوسنية القروسطية : هي البوتور (Potur) . والمعنى الأصلي لذلك الاسم غامض ، وكان يستخدم على العموم في الإشارة الى البوسنيين السلافيين من الفلاحين أو الريفيين الذين تم أسلمهم أو أتركهم ، الذين ربما احتفظوا ببعض الممارسات المسيحية . وكان عمدة المصادر في هذا الموضوع وصف كتبه في فترة لاحقة الدبلوماسي الانجليزي بول رايكوت ، وقد خلع عليهم الانتساب الى طائفة دينية ، (ولكن هذا كما ستري فيما بعد رأى مضلل) ، وقد ذهب بعض الكتاب الى أن كلمة « بوتور » مشتقة من كلمة « باتارين » (٣٢) . على أن هذا الاشتقاق ينبغي أن ينبذ لمجرد أن « باتارين » كان مصطلحا إيطاليا أو راجوزيا ، كما أنه لم يستخدمه البوسنيون أنفسهم أبدا . ولكن لفظة « بوتور » من الناحية الأخرى كانت مصطلحا استخدمه منذ القرن السادس عشر الى الثامن عشر كل من البوسنيين والأتراك . وتفسرها الدراسة اللغوية الشعبية كصورة مخنصرة لكلمة « بولوترك » (Polu-türk) الصربو - كرواتية ، ومعناها « نصف التركي » ، وهو أمر له بالفعل بعض الارتباط بطريقة استعمال الكلمة في تلك المدة . وهناك اشتقاق آخر من الفعل الصربو كرواتي بوتورشتي سي (Potureti se) ، ومعناه التترك أي أن يتحول الانسان الى تركي (يتأترك) .

ومع هذا ، فإن أقدم استخدامات لهذا اللفظ باقية الى اليوم وردت في اللغة التركية وليس في الصربو كرواتية . فبعد أن اتخذ البوسنيون المسلمون اجراءاتهم الخاصة في ١٥١٥ لارسال أبنائهم لتلقى التدريب والتعليم في اسطنبول ، أطلق المسؤولون العثمانيون على هؤلاء الأطفال

جميعا اسم « بوتور » عندما أرسلوا الى القصر السلطاني (٣٣) كما أن عددا من الفرمانات السلطانية في المدة بين ١٥٦٥ الى ١٥٨٩ يمنح البوتور امتياز ارسال أبنائهم ليصبحوا النخبة الممتازة من الدوشمة : يستخدم مصطلح « بوتور » في هذه الفرمانات كتسمية عامة للسلاف البوسنيين المسلمين . وأقدم مرجع مكتوب يستخدم هذا المصطلح هو مجموعة القوانين الخاصة بالبوسنة التي أصدرها السلطان في ١٥٣٩ ، وهو أيضا يستخدم كلمة بوتور للإشارة للسكان البوسنيين المسلمين . على أن هناك مصدرا تركيا آخر . وهو تقرير حول قضية في سراييفو في ١٥٦٦ ، وقد ميز بين البوتور ، الذين هم كما هو واضح السكان البوسنيون المحليون وبين غيرهم من المسلمين ، الذين قد يكونون عثمانيين . وهناك معجم تركي يوسنى (أى تركي صربوكرواتي) صدر في ١٦٣١ ، وهو يترجم « بوتور » بكلمة « القروي » (٣٤) . ومن العجيب أن أحدا من العلماء الذين شغلت ألبابهم هذه المسألة لم يقدم هذا التفسير الواضح وهو أن ذلك الاسم « بوتور » جاء من الكلمة التركية بوتور Potur . وهي كلمة تطلق على السراويل ذات الثنايا (حيث تعنى الكلمة التركية بوت Pot الثنايا وكسرات القماش) ، وهو السروال الذي يلبسه الفلاحون ، وهو نوع كان يستخدم في أراضى البلقان الغربية ، وزحفت الكلمة أيضا الى اللغة الألبانية في صورة كلمة بوتورى (Poture) وهي تعرف في المعجم الأكاديمي الألباني : « سراويل واسعة للرجال ترتدى ببعض أجزاء ألبانيا ، مصنوعة من اللباد أو القماش الخشن الأبيض (٣٥) . وهناك الكلمة التركية بوتورلو (Poturlu)، التي تطلق على أى إنسان يلبس البوتور ، وتنطوي أيضا على المعنى العام لكلمة « فلاح » . ومن هنا يبدو محتملا أن الكلمة كانت في الأصل مجرد تعبير مبهين يستعمل للدلالة على أولئك الفلاحين السلاف البسطاء الذين ظلوا رغم اعتناقهم الاسلام ، أجلافا بدائيين وريفين في نظر العيون التركية .

وأزاء هذه الخلفية ، وبالنظر الى ما نعرفه اليوم من اختلاط الممارسات المسيحية والاسلام في العقيدة البوسنية ، يتكشف الغموض الذي كان يكتنف بعض الاشارات المتأخرة الى البوتور بأرض البوسنة . فقد قدم كاتب كاثوليكي الى البلاط الهابسبرجي تقريراً في ١٥٩٩ يتضمن أن هناك من البوتور عددا ضخما في المناطق التخومية للبوسنة قد احتفظوا بأسمائهم المسيحية وظلوا مسيحيين « قلبا وقالبا » ، وقال أنهم يتمنون « نرى حرروا من الأتراك أن يعبدوا بكل سرور (٣٦) . وليس هناك ما يدعو الى الدهشة أن يقول قوم هذا اذا كانوا يرجون أن هذه الدولة المسيحية العظمى المجاورة سوف تحررهم ، وينبغي ألا يغيب عن بالنا أن هذا التقرير

كتب أثناء حرب عثمانية هابسبرجية طويلة ، زاد في أثنائها عبء الضرائب والواجبات العسكرية على السكان البوسنيين زيادة ثقيلة . وببساطة تامة ، ليس من الضروري أن نقرأ بين سطور هذه البيئة علامات أو آثارا خفية تشهد بوجود تقاليد بوجوميلية باطنية . وهناك كاثوليكي آخر قام بزيارة البوسنة في عشرينيات الألف وستمئة ، وقام بكتابة تعليقات مماثلة ، فقال : « قل بين « الأتراك » الذين يشتملون في الأرض (يعنى الرعية المسلمة البوسنية) من يستطيع التحدث بالتركية ، ولو أنهم لم يخافوا النار فانهم جميعا سيصبحون مسيحيين ، لعلمهم يقينا أن أجدادهم كانوا مسيحيين » (٣٧) . وواضح أن هذا الكاتب أيضا كان يدبج تقريراً للهابسبرجين وكان حريصاً على أن يقنعهم بأعادة فتح البوسنة للكاثوليكية . ويبدو أن عدداً من أمثال هذا التقرير قد أُنْعِمَ النمساويين أنهم لو أقدموا في أية لحظة من الزمان على حملة غزو ضخمة ، لأقبل عليهم السكان جميعاً مرحبين ، ولكنهم منوا بخيبة الأمل عندما حاولوا ذلك في ١٦٩٧ . ومن الممكن بطبيعة الحال ، أنه كانت هناك في البوسنة ، مثلما كانت هناك أيضاً في أجزاء أخرى من العالم العثماني ، حالات أصيلة من المسيحية الباطنية ، أو بمعنى آخر قوم لهم مظهر خارجي من الإسلام يتوارى وراءه تمسك خاص بالمعتقدات والممارسات المسيحية (٣٨) . على أنها كانت ظاهرة نادرة ، وتختلف اختلافاً تاماً عن ذلك النوع من المزج بين المسيحية والإسلام الذي سبق وصفه آنفاً . وهي لاتنشأ الا ردداً على سياسة اجبار الناس بالقوة على اعتناق دين جديد ، وهي سياسة لم تطبق بصورة عامة في البوسنة .

وأخيراً ، يجيء الحديث المحير حول البوتور الذي قدمه بول رايكوت في ١٦٦٨ . وتجيء اشارته اليهم في ذلك القسم من كتابه الذي يبحث في موضوع القاضيزادية (Kadizadeler) وهي حركة اسلامية متطهرة وشديدة الأصولية أحرزته تأثيراً عظيماً في اسطنبول في بواكير القرن السابع عشر قبل أن تخسدها السلطات في ١٦٥٦ . ويلاحظ رايكوت شدة تمسك تلك الحركة بالأصولية (« انهم قوم منضبطون وشديدي المواظبة في مراعاة قواعد الدين ») ، ولكنه أضاف الى ذلك قوله انهم أدخلوا صلوات خاصة للموتى . من أجل ذلك كما يقول رايكوت ، « انضم اليهم كثير من « الروس » ومن شاكلهم من المسيحيين المارقين الذين ، نتيجة لفكرة مشوشة وتقريباً منسية عن الديانة المسيحية ، لا يزالون يحتفظون بذكري عن « دار التطهير » و « الصلوات على الموتى » . ثم يواصل الحديث بعد ذلك قائلاً :

« ولكن أفراد تلك الطائفة الذين يخلطون خلطا عجيبا بين المسيحية والاسلام ، كانوا من الجند الذين يعيشون على الأطراف القصية للمجر والبوسنة ، وهم يقرأون الكتاب المقدس باللسان السلافوني . . . ، وبالإضافة الى ذلك تراهم يجنحون الى تعلم أسرار « القرآن » وقواعد اللسان العربى ، ولكنهم لا يمدوا أجلافا غلاظا أو أميين جهالا ، فانهم يقبلون على الفارسية المستخدمة فى البلاط . وفى شهر الصيام رمضان ، فانهم يشربون النبيذ . . . ويحسنون ويعطفون على المسيحيين ، كما أنهم على استعداد لحمايتهم من أذى الترك وعنقهم : ورعى ذلك فهم يعتقدون أن محمدا هو الروح القدس الذى وعد المسيح به الناس . . . وينتسب البوتور البوسنيون لهذه الطائفة ، ولكنهم يدفعون الضرائب كما يدفعها المسيحيون ، ويمقتون الصور المقدسة وعلامة الصليب ، وهم يختنون ، ويتخذون من مثل سلطة المسيح سندا مؤيدا لذلك » (٣٩) .

ويتمسك زعيم الدعاة العصريين للنظرية البوجوميلية ، وهو ألكسندر سولوفيف ، بهذه الفقرة كدليل على التطابق بين البوتور والبوجوميل (٤٠) . على أن الرابطة الوحيدة مع ممارسات البوجوميل انما هى عبارة أنهم « يمقتون الصور المقدسة وعلامة الصليب » ، والمعنى الواضح لهذا كله هو أن البوتور كانوا يستخدمون الممارسات الاسلامية فى هذه النقطة (أو على الأقل كانوا يدعون أنهم يفعلون ذلك عندما حدثوا المرشدين المسلمين الذين استمد رأيكوت معلوماته) .

وغنى عن البيان أن رأيكوت قد ربط هنا بين مجموعات ثلاث متباينة من الناس برباط مزيف مع جماعة « المارقين عن المسيحية » . واحدى هذه الجماعات هى طائفة القاضيزادية الأصولية المتطرفة . وقوام الطائفة الثانية هم الجند الذين كانوا يعملون بالمجر والبوسنة ، الذين كانوا يقومون بأشياء لا يمكن أن يتقبلها المتدينون مثل شرب الخمر فى رمضان . وبالنظر الى أميتهم وجهالتهم ودراساتهم للعربية والفارسية ، فلا بد أنهم كانوا من الانكشارية الذين تلقوا تعليما كاملا فى اسطنبول . وبعض هؤلاء كانوا ، بغير شك ، من حيث الأصل ، بوتور بالمعنى المعتاد . وكان تهاونهم واهتمامهم باللاهوت المسيحى يجعلهم يبدون أقرب كثيرا الى طائفة الدراويش البكتاشية ، وهى أكثر طريقة صوفية اتساعا فى الأفق ومصالحة بين المذاهب ، وكانت بصفة خاصة أكثر شعبية بين الانكشارية . وكما لاحظ رأيكوت بموطن آخر ، كانت هذه الطائفة موضع التنديد والكرهية الخاصة من القاضيزاديين بسبب سلوكها المتراخى (٤١) . وهناك بعد ذلك

الطائفة الثالثة وهم البوتور : ويبدو أن السبب عند رايكوت في وضعهم هنا إما أن يكون الاختلاط الجغرافي مع الجند « على الأطراف القاصية... للبوسنة » أو لأنهم هم أيضا كانوا من « المسيحيين المارقين » الذين كانوا يحفظون ببعض العلاقات الشعبية مع المسيحية ، ولم يحدث قط. أن زار رايكوت البوسنة ، ولابد أنه كان يعتمد على غيره لمدة بهذه المعلومات ، وبدهى أنه ليس كل تفصيلة أو معلومة يمكن الاعتماد عليها (٤٢) . ولكن ، والحق يقال ، فإن ادعاءه بأنهم كانوا يدفعون الضرائب « مثلما يفعل المسيحيون » (يعنى الجزية أو الخراج ، وهى ضريبة الرؤوس المفروضة على غير المسلمين) ربما كان صادقا ، إذ تذكر وثيقة رسمية بوسنية لأعوام ١٦٤٢ - ١٦٤٥ أن البوتور دفعوا الجزية ، ومن المعلوم أن المسلمين كان من الممكن مطالبتهم بدفع هذه الضرائب فى الظروف الاستثنائية عندما تشتد الحاجة للمال للمجهود الحربى (٤٣) .

وليس لبيان رايكوت هذا أية علاقة بالبوجوميلية : وبينما كان فى الامكان من الناحية الاحصائية أن قلة من البوتور كانوا فى الأصل من أتباع الكنيسة البوسنية ، فليس هناك أى تطابق اثباته هنا بين تلك الكنيسة وبين مجموع السكان الريفين من المسلمين البوسنيين . وبالمثل ، ليست هناك أية علاقة حتمية بين بقايا تلك الكنيسة وبين مجموعات المسيحيين الذين كان الزوار الكاثوليك يلتقون بهم أحيانا فى المناطق النائية والذين لم يتبق لهم من دينهم سوى الاسم أو لم يتبق منهم سوى أفراد قلائل : « وهم قوم » فى حالة تعسفة ومن الجهل بدينهم ولولا أنهم غير مختونين لما جاز لهم أن يسموا أنفسهم مسيحيين » (٤٤) . وربما كان هؤلاء القوم بقايا مجتمع مسيحي ما عاش بدون خدمات قسيس أو كنيسة. عدة أجيال متتالية . وأيا كانت هويتهم فإنهم على كل حال لم يكونوا البوتور الذين هم ببساطة تامة الفلاحون المسلمون العاديون فى البوسنة .

وهناك أيضا نظرية خاطئة أخرى حول أسلمة البوسنة لابد من اشارة اليها ، اذ ما زالت شائعة ، وإن تقوضت على يد البحث التاريخي منذ ١٩٣٠ وما بعدها . وهى الادعاء بأنه عندما فتح الأتراك البوسنة ، اعتنقت هيئة النبلاء المحلية بأجمعها الاسلام بغية الاحتفاظ بمزارعها الاقطاعية . وقد شاعت هذه النظرية فى القرن التاسع عشر على يد الفرنسيين سكانى والوطنى السلافى ايفان فرانجو يوكيتش (Ivan Franjo Jukich) الذى أصدر كتابا فى ١٨٥١ عن تاريخ البوسنة تحت اسم مستعار هو « سلافوليوب بوشنيك » (Slavoljub Bosnjak أى البوسنى المحب للسلاف) . وقد أكد فى كتابه هذا أثناء حديثه عن الأرستقراطية المسلمة فى البوسنة :

«أنهم نشئوا عن المسيحيين الفاسدين الذين تحولوا إلى مسلمين لأن التحول إلى الإسلام كان سبيلهم الوحيد للاحتفاظ بأراضيهم . واحتفظت لهم العقيدة الجديدة بملكاتهم و ثروتهم وحررتهم من كل الضرائب والمدفوعات وأعطتهم تفويضا كاملا للانغماس في كل رذيلة واتيان كل شر وذلك من أجل أن يعيشوا كالسادة العظام دون بذل أى تعب أو جهد » (٤٥) . وقد سبق أن رأينا كيف أن ذلك لا ينطبق على موقف أى نبيل بوسنى استطاع فعلا أن يحتفظ بملكاته : فتحويل أرضه إلى مزرعة تيمارية ، كان يفرض عليه أن يبقى شطوا كبيرا من السنة جنديا في الخدمة العسكرية العاملة . (أما المزارع غير التيمارية أو الملك الحر Mulk فكانت ضربا من الحيازة مقصورة بوجهه رئيسى أما على الحيازات الصغيرة أو على هبات كبيرة من الأراضي الممنوحة للعثمانيين) . وفى ثلاثينات الألف وتسعمئة لحظ المؤرخ

فاسو تشوبريلوفيتش (Vaso Chubrilovic) أن قلة ضئيلة من ملاك الأراضي البوسنيين القدماء أصبحوا فعلا من الفرسان (السباهى) واحتفظوا ببعض مزارعهم ، ولكن ، كما لاحظ هو أيضا ، لم يكن من المحتم عليهم أن يصبحوا مسلمين لكى يحتفظوا بتلك الأرض (٤٦) . وكان المسيحيون انفرسان (السباهى) موجودين بوفرة أثناء السنوات الأولى للبوسنة العثمانية ، وهناك واحد شهير منهم أصبح « جراح باشى » (Gerrah bashi) أى كبير الجراحين فى حاشية والى البوسنة فى سبعينات الألف وأربعمئة ، كان يدعى فيلاه سفينياريفيتش (Vlah Svinjarevic) وتعنى ابن راعى الخنازير ، وهو اسم غير اسلامى بشكل يلفت النظر (٤٧) .

ومن الغلطات التى وقع فيها ايفان فرانكو يوكيتش . افترضه بأنه كان هناك خط متواصل من التعاقب والوراثة فى عائلات النبلاء من العهد قبل العثمانى ثم اعتناق الإسلام حتى يصل إلى الأرستقراطيين المسلمين المالكين للأرض فى زمانه . وكما أوضح تشوبريلوفيتش وغيره من العلماء ، فإن حيازة الأرض فى البوسنة العثمانية قد تقلبت عبر تلك المراحل ، ففقد ملاك أرضهم وأصبح غيرهم من الملاك بحيث أن هذه النظرية لا يمكن بأية حال أن تبرر سبب وجود المزارع الضخمة فى أيام يوكيتش . وهى مزارع نشأت نتيجة للتطورات المتأخرة الاجتماعية والسياسية ، كما أنها تكونت بصفة رئيسية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . وحتى لو رجعنا للوراء إلى القرن السادس عشر لوجدنا أن نظرية يوكيتش أقرب إلى الزيف منها إلى الصدق . فقد قامت مؤرخة معاصرة بدراسة تفصيلية حول أصول ثمان وأربعين عائلة ممن ينتمون إلى طبقة المسلمين الأرستقراطية من ملاك الأراضي فى البوسنة فى القرن السادس عشر . وخلصت فى النهاية إلى أن خمسا منها بالتأكيد ، واثنين فيما يحتمل ،

انحدروا من طبقة النبلاء العليا القديمة (ما قبل العهد العثماني) .
وانحدرت سبعة بالتأكيد وسبعة بالاحتمال ، من العائلات النبيلة الأقل
شأننا ، وكان لسبعة منها أصول بوسنية عادية ، وأربعة أو خمسة كان
لها أصول سلافية غير بوسنية ، وأربعة أو خمسة كان لها أصول غير
سلافية ، وفي إحدى عشرة حالة لم يتيسر الوصول الى الأصول (٤٨) .
ومن المعلوم أن كثيرين من النبلاء البوسنيين قد لقوا مصرعهم أو فروا من
البلاد أثناء الغزو التركي ، كما أن بعض النبلاء الأقل شأننا قد أخذوا عبيدا -
ولم يكن هناك حلف بين « كبنار النبلاء » وبين الأتراك لمقايسة المسيحية
مقابل حياة من الدعة و « اتيان الشر » .

والفكرة الشائعة القائلة بأن بعض الناس اعتنقوا الاسلام رغبة في
تحسين مركزهم الاقتصادي أو الاجتماعي أمر لا سبيل الى افكاره ، لأن هدم
الاتجاهات النفعية موجودة بين كل البشر . ولا مفر من أن يكون هذا الدافع
 وراء اعتناق الكثيرين للاسلام . بيد أن الدافع الاقتصادي لا يمكن
أن يكون هو المبرر الوحيد كما تزعم إحدى النظريات التي ترى فيه محاولة
لتجنب دفع الضرائب المقررة على غير المسلمين ، وهي الجزية أو الخراج .
وكانت هذه ضريبة سنوية ما لبثت أن أصبحت نوعا من ضريبة الرأس
التدرجية : ففي القرن السادس عشر كان معدل المدفوع أربع دوقيات
للأغنياء واثنين لمتوسط الحال ودوقية واحدة للفقير (٤٩) . وفي ذلك
الوقت كانت دوقية البندقية تستطيع أن تشتري في المتوسط عشرين
كيلوجراما من القمح في البندقية ، بينما تشتري الدوقية النمساوية قدرا
أكبر قليلا (٥٠) . وربما زادت الضريبة في أوقات الحرب ، لذا فإن
أكثر التقارير شنعة في وصف معاناة المسيحيين الذين يقاسون الأمرين من
الظلم العثماني بالبوسنة ، كانت تجيء أثناء فترات من زيادات ثقيلة من
الضرائب كانت تفرض على الناس للقيام بحملات على البندقية
أو آل هابسبرج . ولكن ربما حدث في بعض الأحيان ، كما أشرنا آنفا ،
أن الضرائب فرضت أيضا على المسلمين أنفسهم . أى أن الرغبة في تجنب
هذه الضريبة لم تكن بالقوة التي تدفع المرء الى التحول عن دينه الأصلي ،
ولا ينبغي لنا أن ننسى أن المسلمين كانوا ، على العكس من المسيحيين ،
يدفعون الزكاة أيضا ، التي هي أحد الفروض الأساسية في الاسلام .
(وعلى غرار الزكاة ، ربما اضطر المسيحيون الأرثوذكس الى دفع مكوس
الى الكنيسة الأرثوذكسية ، أما الفرنسيون فكانوا يعتمدون أكثر على
التبرعات) . وكان بعض المسلمين عرضة للاستدعاء الى أداء الخدمات
العسكرية اما في ميليشيات المدن أو كجنود في الكنائس التي يرسلها
« الفارس » ، في حين أن المسيحيين كانوا عادة يعفون من أداء مثل هذه
الواجبات فيما عدا مناطق الحدود .

وليس حقيقيا أنه لم يكن بد لآي انسان من أن يكون مسلما ، لكي يشرى في الامبراطورية العثمانية . فهناك عدد جهم من التجار المسلمين الناجحين - ما بين يوناني وأفلاقى وأرمني - ممن لم يتخلوا قط عن مسيحياتهم . ولكن منذ أوائل القرن السادس عشر على الأقل لم يكن هناك بد للانسان من أن يكون مسلما لكي يتيسر له أن يحظى بمنصب في هيكل الدولة العثمانية نفسها . وكما رأينا ، فإن نظام الدوشرمة في أخذ جزية الأطفال صب تيارا ضخما من شبان البلقان الى الجيش وإدارة الامبراطورية . وكان يقال عن البوسنيين انهم يكافأون مكافأة خاصة : فقد لاحظ كاتب نساوى سلوفيني في ١٥٣٠ أن السلطان كان يفضل أن يجند البوسنيين ، لأنه كان يعتقد فيهم أنهم « خير الرجال وأكثرهم ولاء وتقوى » ، وأنهم يختلفون عن غيرهم من « الأتراك » في أنهم كانوا أبسط قامة وأكثر وسامة وأقدر جهدا (٥١) . ومع أن الانكشارية ورجال الإدارة في الامبراطورية كان من الممكن أن يخدموا في أى جزء من الامبراطورية ، وكان الانكشارى يضطر أن يظل عزبا أثناء خدمته العسكرية ، فإن منهم من كان يعود في خاتمة المطاف الى وطنه ويعطى هبات ضخمة من الأرض . وبعد أداء الانكشارى الخدمة على مدى عشرين عاما كان بوسعه أن يتخذ زوجة ويكون أسرة . وكان نظام الدوشرمة أحد العوامل الكبرى في نشر الاسلام بكل أرجاء البلقان ، وكان أثره قويا بوجه خاص ببلاد البوسنة (٥٢) .

وثمة عامل اجتماعي آخر ساعد على انتشار الاسلام ، هو الوضع القانوني الممتاز للمسلمين . وقد وجه التفات مفرط الى قوانين الرعية ، وهى قوانين التمييز العنصرى التقليدية التى كانت تطبق على الرعايا غير المسلمين : وكان من بعض المحظورات عليهم ركوب الخيل أو حمل السلاح أو لبس نفس الطراز من الملابس الذى يرتديه المسلمون (*) . بينما تظهر مصادر القرن السابع عشر أن القساوسة والتجار المسيحيين في البوسنة كانوا يرتدون نفس الملابس التى كان يرتديها المسلمون تقريبا ، وأنهم بالفعل كانوا يركبون الخيل وكانوا بالفعل يحملون الأسلحة . بل انه كان هناك بالفعل بعض طبقات من المسيحيين ، مثل الأفلاق العسكريين ، كانوا معفيين رسميا من تلك المحظورات . كما أن هناك محظورات أخرى واردة في قانون الرعية كمنع المسيحيين من بناء الكنائس أو اصلاحها ، كان يتم التجاوز عنها في الواقع اما بتصريح خاص أو عن طريق ذلك الامتياز

(*) لم يكن هذا التمييز على أساس الدين حكرا على الاتراك ، بل كان شائعا وسنة مرعية في العالم بأسره آنذاك رغم انه امر يتنافى مع جميع تعاليم الكتب المقدسة في جميع الديانات - (المترجم) .

العام ، الذى منح أصلا للمرنسيسكان وأعاد تأكيده كل السلاطين الذين خلفوا بعضهم البعض (٥٣) . وبالرغم من هذا فقد كان هناك احساس معين يدفع المرء الى الشعور بأن على الرعية المسيحيين أن يبدوا الاحترام والخضوع للمسلمين الأعلى منهم ليس فقط لمجرد أنهم من مستوى اجتماعي أو رتبة اجتماعية أعلى بل وأيضا لأنهم كانوا مسلمين . وربما كان أهم امتياز شيئا لا يحتويه قانون الرعية وهو المبدأ القائل بأن المسيحيين لا يجوز لهم اقامة الدعوى القضائية على المسلمين وأنه لا تقبل شهادتهم على مسلم فى محكمة . ومن الجلى أن هذا كان شكلا خطيرا من التمييز القانوني ، وكان الشعور به دون أدنى ريب لذاذا جدا يحس به المسيحيون والمسلمون فى حين كانوا فى الحقيقة متكافئين اجتماعيا - سواء سكان المدن أو القرويين .

وبقى بعد ذلك كله أن نذكر عاملين مهمين اجتماعيين واقتصاديين أسهما فى انتشار الاسلام بالبوسنة : وهما الرقيق ونمو المدن الاسلامية . وكان أخذ الرقيق فى الحرب - ولم يكونوا فقط مجرد جند من الأعداء بل ومن السكان المحليين أيضا - سنة عنمانية مقرر . كما كان عادة تمارس على معيار أصغر عند الدول المسيحية أيضا . فقد سيقت أعداد ضخمة من العبيد الأرقاء فى خضم حملات الترك على آل هابسبرج : فأخذ سبعة آلاف من كرواتيا فى ١٤٩٤ مثلا ، ومثلا ألف ، (فيما تزعم التقارير) ، من المجر ومن سلافونيا فى ١٥٢٦ (٥٤) . ومتى اعتنق الأرقاء الاسلام كان فى امكانهم التماس الحرية ، ولذا فان أولئك الأرقاء الذين اجتلبوا للبوسنة ، وذلك بوجه خاص من الأراضى السلافية المحيطة وهى دالماتيا وكرواتيا وسلافونيا ، أسهموا حتما اسهاما ضخما فى نمو عدد السكان المسلمين . وكان من المحتمل بوجه خاص لدى هؤلاء الأرقاء بعد تحولهم الى الاسلام وعقدهم أن ينتهى بهم الأمر الى السكنى فى المدن النامية التى كانت تتيح لهم فرصا جديدة للعمل . ففي ١٥٢٨ كان هؤلاء الأرقاء المعتقون يشكلون ما يقارب الثمانية بالمئة من سكان سراييفو بأكملهم (٥٥) .

وغلب الطابع الاسلامي على معظم المدن الكبرى التى نمت واتسعت بأراضى البلقان العثمانية . وكانت تكتظ بالمعاهد الاسلامية والمباني الاسلامية . ولكن المدن الكاثوليكية القديمة بالبوسنة مثل سربرينيكافوفينيكاف وأولوفو بما حوت من تجار راجوزيين وعمال مناجم من الألان صمدت أمدا طويلا ازاء الاسلام ، ولكنها ما لبثت فى النهاية أن تحولت الى الاسلام . (وكانت أهميتها الاقتصادية آخذة فى الاضمحلال وإن استمر بالفعل استخراج المعادن الثمينة رغم صدور حظر راجوزا استيراد الفضة

من الأراضي التركية (٥٦) • والمدن التي أصبحت مقر حكام السنجقيات (Sandzakbeg) مثل باتيالوكا وترفنيك وليغفو ، اكتسبت الطابع الاسلامي بشكل أسرع • أما المدن مثل موستار وسرايفو ، التي لم تبدأ في التطور الحق الا في منتصف القرن الخامس عشر ، فقد كان للاسلام حضور جارف منذ اللحظة التي وصل فيها الترك • ولا شك في أن سرعة التطور كانت شديدة لافتة للأنظار • ففي السنوات الخمس عشرة للحكم التركي في سرايفو (التي كانت تعرف قبل ذلك باسم فرهبوسنا) قبل ١٤٦٣ ، بنى الترك مسجداً و «تكة» (أى تكية باللغة الصربوكرواتية وتعنى مسكناً لطائفة من الدراويش) ، ومسافر خانة (أى فندقاً للمسافرين) ، وحاماً على الطراز التركي ، وجسراً يعبر نهر ملياكا (Miljacka) ومواسير للمياه ، والسراي وهي مقر بلاط الحاكم ، وهي الكلمة التي أعطت المدينة اسمها الجديد «سرايفو» • وكذلك أنشأوا في بداية حكمهم السوق الكبيرة في قلب المدينة (٥٧) • ورغم أن شطراً كبيراً من المدينة قد احترق ابان غارة مجرية في ١٤٨٠ ، فسرعان ما أعيد بناؤه ووسعت رقعته • وكان سكان المدينة جميعاً تقريباً من المسلمين ، وكانت معقلاً عسكرياً هاماً ، وفي العقود الأولى من عمرها كانت ممثلة بمهرة الصناعات والتجار الذين كانت جهودهم ضرورية لدعم العمليات العسكرية • وفي أواخر القرن السادس عشر انقسم سكانها الى طقتين : التجار والجند ولكل منهما قاضيه •

وجاء ازدهار سرايفو تحت حكم غازي خسروف بك (Gazi Husrevbeg) الذي تولى حكم سنجقية البوسنة لعدة فترات بين ١٥٢١ و ١٥٤١ • كان رجلاً شديد الهمة ينطوى قلبه على عاطفة انسانية ، وكان ابن رجل اعتنق الاسلام من منطقة تريبيني (Trebinje) السلافونية بالهرسك (٥٨) • وقد بنى المسجد الرشيق الذي يحمل اسمه وهو جامع بيجوفا أى « البك » (Begova Džamija) ومدرسة (أى معهداً دينياً) ودار كتب وحاماً ، وخانين (فندقين) وبيزستانا (أى سوقاً للقماش) مهما • وكان من عادة الأغنياء أن يوقفوا بعض أراضيهم للانفاق على مثل هذه المؤسسات (ولا يقتصر ذلك على المساجد والمدارس ، بل ينصب أيضاً على الخانات والحمامات والجسور) • وهذا النوع من المؤسسات الدينية - الخيرية المعروف باسم الوقف (Vakuf) كان أساساً حيويًا لتطور جميع المدن العثمانية ، كما ساعد على توثيق الروابط بين المؤسسات المدنية والمؤسسات الاسلامية المماثلة • وكان وقف غازي خسروف بك أغنى تلك الأوقاف جميعاً ، كما أنه ظل قائماً حتى القرن العشرين (٥٩) • وبحلول عام ١٥٣٠ كان سكان المدينة بأسرهم من المسلمين • وفي الامكان تقدير

مدى انتشار تأثير المدينة في المناطق المحيطة بها ، حين نعلم أن ستة وثلاثين بالمئة من المناطق الادارية المحلية كانت مسلمة هي الأخرى (٦٠) . وزادت سرايفو نموا في عدد السكان ، حيث اجتذبت سكان المناطق الريفية المجاورة ، وكان كثير من أسماء الشوارع القديمة مأخوذا من أسماء للقرى القريبة . وفي نهاية القرن السادس عشر كانت تضم عددا من المسيحيين ، بينهم جالية من التجار الراجوزيين ومجموعة صغيرة من اليهود . ومن بين ثلاث وتسعين محلة (أى حى - يتكون كل منها فيما يرجع من أقل من أربعين دارا) ، كانت اثنتان منها مسيحية واحدى وتسعون منها مسلمة . وكانت هناك أيضا ستة كبار وستة حمامات وثلاث بيزستانات وعدة دور للكتب وست تكايا وخمسة معاهد دينية وأكثر من تسعين كتابا أوليا (أى مدرسه ابتدائية) وأكثر من مئة مسجد . وكان الأهالي يتمتعون بامتيازات شتى متنوعة ، وإعفاءات من الضرائب ، ويرى بعض المؤرخين أنها أصبحت آنذاك مدينة حرة فعلا ، أو جمهورية - مدينة City republic (٦١) . وقد كانت الحياة في سرايفو أثناء تلك المدة طيبة ومستساغة جدا ، بالمعايير البلقانية أو ، والحق يقال ، بأى معيار في ذلك الزمان . ومن هنا يتضح لماذا أقبل كثير من البوسنيين بكل سعادة على اعتناق الاسلام ليتألوا نصيبهم منه .

وأخيرا ، هناك عامل آخر لعب هو أيضا دورا في عملية أسلمة البوسنة : هو نزوح السلاف المعتنقين للاسلام آنفا من خارج تخوم البوسنة الى داخلها . وقد سبق أن أشرنا الى أن بعض السلاف المسلمين قدموا في السنوات الأولى بوصفهم فرسانا (سباهى) من صربيا ومقدونيا وبلغاريا ، ولكن أعظم نزوح جاء في نهاية القرن السابع عشر ، عندما اجتلب تفهقر العثمانيين ، من المناطق التى طال احتلالهم لها بكل من الدماشيا وكرواتيا وسلافونيا والمجر ، كثيرا من السكان المسلمين في تلك المناطق . ولأشك في أن بعض هذه العائلات كانت من أصل بوسنى ، حيث كان أجدادهم قد استقروا هناك بوصفهم فرسانا (سباهى) بعد الفتوح العثمانية . وموجات النزوح هذه أضافت أعدادا غفيرة من السلاف المسلمين الى سكان البوسنة ، ولم تشكل هذه الحركة التى تمت في ثمانينيات وتسعينيات الألف وستمئة موجة النزوح الوحيدة من نوعها ، وان كان بكل تأكيد أكبرها جميعا . وسنصف ظروفها وصفا أوفى في الفصل السابع .

الفصل السادس

الصرب والأفلاق (★)

لم نعرض حتى الآن لذكر الكنيسة الأرثوذكسية الصربية إلا ملما . وذلك لسبب بسيط ، هو أنه حتى العصر العثماني ، لم يكن للكنيسة الأرثوذكسية نشاط يذكر بمنطقة أرض البوسنة الحقة ، ولم يكن لها وجود مهم إلا بأرض الهرسك . وكانت منطقة الهرسك في تاريخها القروسطي الباكر (وكانت تسمى هوم) جزءا من العالم الثقافي والسياسي للإمارات الصربية ، مع كل من زيتا (الجبل الأسود) وراشكا (جنوب غرب صربيا) . وكان معظم نبلاء الهرسك من الأرثوذكس أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكذلك كانت فيما يرجع غالبية سكانها (١) . وفي أثناء القرن السابق على الغزو التركي الذي شهد نشاطا كاثوليكيا ، حصلت الكنيسة الكاثوليكية على مكاسب لها وزنها الضخم ، حيث أقامت أربعة أديرة فرنسيسكانية على أرض الهرسك : على أن بعض هذه المكاسب ما لبثت أن ضاعت ، وخاصة في القطاع الشرقي من الهرسك ، أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفي عام ١٦٢٤ ، كانت هناك أربع عشرة أبروشية كاثوليكية لاتزال قائمة بشرق الهرسك ، ولم تنقض خمس عشرة سنة أخرى حتى كان المجموع هبط إلى إحدى عشرة كنيسة ، أربع منها كانت في حكم الخرائب (٢) .

ومن الناحية الأخرى ، يبدو أن « بانية » أو مملكة البوسنة لم تشهد نشاطا منظما للكنيسة الصربية الأرثوذكسية حتى وسع رقعتها الملك ثفرتكو في سبعينيات الألف وثلاثمئة ، فضمت وادي الدرينسا الأعلى (جنوب شرقي سراييفو) ، وأجزاء من منطقة الجبل الأسود الحديثة

(★) الأفلاق (Vlachs) : أسلاف السكان المصطبغين بالصيغة الرومانية

الذين سكنوا البلقان قبل السلاف - (المترجم) .

وصربيا ، بما فيها الدير الأرثوذكسي في ميليشيفو . ومع أن تفرتكو قد تم
تتويجه في ميليشيفو ، فانه كان وظل كاثوليكيًا شأن جميع الملوك
البوسنيين الذين أعقبوه ، (فيما عدا استثناء محتملا وحيدا هو أوستويا ،
الذي ربما كان من أتباع الكنيسة البوسنية) . فأما في خارج وإدى الدريدا
الأعلى ، فليس هناك أية علامات واضحة تدل على مبان كنسية أرثوذكسية
بأرض البوسنة قبل عصر العثمانيين . وقد ادعى أحد مؤرخي الفنون
الصربيين أن بعض الأديرة الأرثوذكسية بشمال البوسنة ترجع الى ما قبل
الغزو التركي ، ولكن تأريخه ليس موثوقا به الى حد كبير (٣) . وبطبيعة
الحال لا يستبعد أن أفرادا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية قد أقاموا فعلا
في البوسنة ، وتزوج بعض الأرستقراطيين من نساء من العائلات الصربية
النبيلة ، وقد ورد ذكر أسرة أرثوذكسية بمنطقة فرهبوسنا (وهي المنطقة
المحيطة بسرانيفو العصرية) في عشرينيات الألف وأربعمئة (٤) . ولا شك
في أنه قد حدث فعلا تسرب تدريجي من المؤمنين بالأرثوذكسية من بلاد
الهرسك الى المناطق المجاورة من البوسنة . وتدلل بعض التقارير الكاثوليكية
الصادرة في خمسينيات الألف وأربعمئة ، على وجود تنافس على الأتباع
بين الكنيستين ، ولكن ذلك كان انعكاسا لسيئين : الرحلات التي كان
يقوم بها الفرنسييسكان الى داخل الهرسك وتنافس الكنيستين على ازالة
كل آثار الكنيسة البوسنية (٥) . ولو جاز لنا أن نستخدم لغة التنظيم
الكنسي ، لقلنا ان الكنيسة الصربية الأرثوذكسية ظلت مختفية تقريبا
عن الانظار في منطقة البوسنة الحقبة أثناء الفترة قبل العثمانية .

ومع هذا ، فبعد وصول الأتراك ، تبدأ الصورة في التغير بأقصى
سرعة . فمنذ ثمانينيات الألف وأربعمئة فصاعدا ، بدأ ذكر القسس
والمؤمنين الأرثوذكس يرد في أجزاء كثيرة من البوسنة ، بينما لم يكن يرد
عنهم ذكر على الإطلاق قبل ذلك . ومعروف أن عدة أديرة أرثوذكسية قد تم
بناؤها في القرن السادس عشر (في تافنا Tavna ولومنيكا Lumnica
وبابراتشا Papraca وأورزن Orzen وجوستوفيتش Gostovic)
فضلا عن دير رمانى Rmanj (في شمال غربى البوسنة) البالغ الأهمية ،
وهو يذكر لأول مرة في ١٥١٥ . ولا شك في أن هذه المؤسسات الجديدة
تسرعى النظر بوجه خاص ، عندما نتذكر أن قانون الرعية كان يحظر بناء
أى مبنى جديد للكنيسة : وواضح أن تصاريح خاصة قد منحت كل مرة
من السلطات العثمانية (٦) . ومع أن الأرثوذكس كانوا يعانون قدرا
لا يستهان به من المهانات والمظالم ، فليست هناك أية مبالغة في القول بأن
الكنيسة الأرثوذكسية كانت تلقى عطفًا من نظام الحكم التركي . وكان

المؤمنون بالارثوذكسية يتجهون بأبصارهم الى داخل الامبراطورية العثمانية التماسا لمصادر سلطاتهم الدينية ، أما الكاثوليك فكانوا يتجهون الى الخارج ، وليس بعيدا أنهم كانوا يعتبرون إعادة غزو البوسنة على يد دولة كاثوليكية نوعا من التحرير . ولأول مرة ورد ذكر مطران عام للبوسنة في ١٥٣٢ ، كما أن أول كنيسة أرثوذكسية في سراييفو بنيت فيما يحتمل في منتصف القرن السادس عشر (٧) .

ورغم وجود حالات كثيرة مسجلة لكاثوليك تحولوا الى الأرثوذكسية بالبوسنة في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فإن من الواضح أن هذا الانتشار للكنيسة الأرثوذكسية لم يكن يحدث عن طريق الهداية وحدها (٨) . ففي الأماكن التي حققت فيها الأرثوذكسية أعظم مكاسبها المهمة ، وبخاصة في شمال البوسنة ، شهدت في نفس المدة تدفقا شديدا للمستوطنين النازحين من أرض الأرثوذكس . وكان من الواضح أن هناك سياسة متعمدة من جانب العثمانيين لإعادة ملء الأراضي التي خلت من السكان ، أما بسبب الحرب وأما بسبب الطاعون . وتشير أقدم الدفاتر الى جماعات من الرعاة المسيحيين عرفتهم بأنهم أفلاق (Vlachs) أنزلوا في المناطق التي تخربت في الهرسك الشرقية . ونوضح دفاتر سبعينيات وثمانينيات الألف وأربعينيات أنهم كانوا ينتشرون في الأجزاء الوسطى والشمالية الوسطى من البوسنة ، بالمناطق المحيطة بفيسوكو وماجلاي (Maglaj) : ومنال ذلك أنه بعد ١٤٧٦ بقليل وطنت ٨٠٠ عائلة تقريبا من الأفلاق بمنطقة ماجلاي ، وفي صحبتهم قسيسان أرثوذكسيان (٩) . واستمرت أعداد الأفلاق في الازدياد في مناطق شمال وسط وشمال شرق البوسنة على مدى الخمسين سنة التالية ، كما أنهم بدءوا ينتشرون في شمال غرب البوسنة أيضا . وفي أثناء الحروب التي نشبت في أوليات القرن السادس عشر خلت منطقة أخرى من البوسنة من السكان ، اذ هجرها الكاثوليك وفروا الى الأراضي الهابسبرجية . ولما كان العثمانيون يرون أن من الأهمية بمكان ألا تترك أرض ملاصقة للحدود العسكرية خالية من الناس ، فقد استمر تدفق المستوطنين الجدد من الأفلاق الى الهرسك وصربيا . وحدثت نزوحات أخرى الى تلك المنطقة طوال القرن السادس عشر اذ أن الطاعون ، فضلا عن الحرب ، ترك فراغات سكانية احتاج الأمر أن تملأ وتشغل (١٠) .

وفي زمن مبكر هو ١٥٣٠ ، عندما قام المستول الهابسبرجي الرسمي بنديكت كيوريبيشيتش (Benedict Kuripesic) بجولة خلال البوسنة ، ذكر أن الاقليم يسكنه ثلاثة شعوب . أحدها هو الشعب التركي الذي كان يحكم المسيحيين « بطغيان وظلم بالغين » . والشعب الثاني هو « البوسنيون

القدماء الذين كانوا يعتنقون العقيدة الكاثوليكية الرومانية » . أما الثالث فهو من « الصربيين الذين يسمون أنفسهم أفلاقا » . وقد أتوا من سميد يروفو (Smederovo) وبلجراد ، (١١) . وبلغ من أهمية العنصر الأفلاقي في تكوين ذلك النمط الأرثوذكسي من السكان ، أنه بعد ذلك بثلاثة قرون ، ظل مصطلح « الأفلاق » يعنى : « أحد أتباع الكنيسة الأرثوذكسية » (١٢) . وبدهى أن غير الأفلاق من الصرب والهرسك ، أسهموا أيضا في عملية الإسكان هذه . فأما مشكلة التمييز بينهم ، أو تحديد معنى كلمة « الأفلاق » أثناء تلك المدة ، فأمر سنناقشه فيما بعد . بيد أن من الواضح أن الأفلاق كجماعة عرقية وثقافية مميزة ، قد لعبت بالفعل دورا ضخما . وكان الأفلاق أصلح الناس بوجه خاص لتنفيذ أغراض الحكومة العثمانية ، وليس ذلك فقط لأنهم كانوا ميالين إلى الحركة والتنقل (حيث كانت أعمالهم النموذجية هي الرعى وتربية الخيول وتنظيم خدمات النقل للتجار) . بل وأيضا لأنهم كان لهم ماضٍ ونقائيد عسكرية قوية . وعملت ترتيبات خاصة لأغرائهم على النزوح إلى منطقة الحدود التركية الهابسبرجية : فخفضت الضرائب على الأغنام لكل من يسكن مناطق التخوم ، كما منح زعمائهم تيمارات (أى مزارع) ضخمة (١٣) . ولم تكن تصرف لهم رواتب عسكرية ولكن كان يسمح لهم بحمل السلاح ، ويتوقع منهم أن يقوموا بدور عسكري ، وعوضا عن الرواتب ، كان مسموحا لهم أن ينهبوا أرض الأعداء . وقد عرفوا باسم « المارتولوس » أو « الفوينوق » وأصبحوا أشد العناصر رهبة في الجهاز العسكري العثماني .

وفى نفس الوقت ، فإن الأفلاق والصرب الذين فروا شمالا أمام الزحف العثماني أثناء القرن الخامس عشر ، والذين كانت لديهم تقاليد عسكرية مماثلة ، بدأ يتم تنظيمهم على يد الهابسبرجيين على الجانب الآخر من تلك الحدود المتغيرة بصفة دائمة . وعبر الأفلاق من داخل البوسنة تلك الحدود أيضا للانضمام إليهم ، وبذلك تكون الأسباب الثلاثة التى أوردتها الراهب البندكتيني كيوريبيشيتش عن فرار السكان من البوسنة فى أوائل القرن السادس عشر ، هى الطاعون والدوشرمة وغارات المارتولوس الصرب أفلاق عبر الحدود (١٤) . وفى عام ١٥٢٧ أنشأ لهم ملك النمسا فرديناند الأول ، بعد انتخابه ملكا للمجر وكرواتيا ، نظاما لحيازة الأراضي والمهام العسكرية . فقد حررهم من الالتزامات الاقطاعية وسمح لهم بنصيب من الغنائم وانتخاب قوادهم (voivode) وقضاتهم (knezovi) وحرية ممارسة العقيدة الأرثوذكسية . وبهذه الطريقة نما نظام خاص لحيازة الأراضي والتنظيم العسكري تحت حكم آل هابسبرج ، وهو النظام المدعو الحدود العسكرية (Militargrenze أو vojna krajina) والذي فى

النهاية كان يضم قطاعا من الأرض بعرض عشرين الى ستين ميلا وطول يناهز الألف ميل . وكان سكان الحدود على التخوم الشمالية والشمالية الشرقية للبويسنة ، الذين اشتهروا بشجاعتهم وشراستهم العسكرية ، يدعون « بالأفلاق » أو « المورلانش » (Morlachs) ، بالإضافة الى أن فرديناك الثاني أعاد تأكيد امتيازاتهم بالوثيقة المعروفة باسم « قانون الأفلاق » (Statuta Valachorum) (١٥) . وعلى ذلك ، فانه باستثناء الحملات العسكرية الكبيرة ، غدت المناوشات العسكرية التي كانت تنشب بين العثمانيين والهابسبرجيين على تلك الحدود سنة بعد أخرى ، قتالا بين أفلاق وأفلاق .

فمن يكون هؤلاء الأفلاق ، ومن أين جاءوا في الأصل ؟ ان هذه لاحدى أصعب المسائل في التاريخ البلقاني (١٦) . فالأفلاق متناثرون في الوقت الحالي في أرجاء كثيرة من البلقان ، وأعظم تركيز لهم انما يوجد في جبال البيندوس (Pindus) في شمال اليونان ، ولكن يوجد أفلاق آخرون أيضا في بلغاريا ومقدونيا وألبانيا وصربيا ، فضلا عن بقايا سكان من الأفلاق في شبه الجزيرة الاستيرية (Istrian بالبحر الأدرياتيكي) . والمعروف عنهم أنهم كانوا رعاة غنم وماشية ، يمارسون شكلا من تشبه الترحل يسمى باسم النقلة الموسمية ، وهو الرعى الذي تساق فيه القطعان ، في بعض الأحيان الى مسافات بعيدة ، بين كلاً صيفي منتظم في الجبال وعشب شتوي منتظم في أماكن أخرى . وأصبح بعضهم أغنياء بما حصلوا من حياتهم الرعوية : من منتجات كالصوف والجبين والأنعام . وأصبح الكثيرون منهم أيضا مشهورين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كتجار محليين ودوليين . ولم تتغير هذه الحرف الا قليلا على كر القرون ، وهناك قصيدة بيزنطية من القرن الثاني عشر تذكر الجبن الأفلاقي الذي كان شهيرا في القسطنطينية ، كما تذكر العبادة الأفلاقية ، وهي حرام أسود دون أكمام (talagan) لا يزال يستخدمه رعاة الأغنام البلقانيون حتى اليوم . كما يذكر بعض الكتاب البيزنطيين النقلة الموسمية للأفلاق ، وتشير الوثائق القروسطية الصربية الى الأفلاق على أنهم رعاة أغنام وقواد رعائل الخيل kjelatori - وهو تحوير للكلمة اللاتينية caletor التي لاتزال تستخدم في اللغة الأفلاقية العصرية بمعنى « المسافر » (١٧) . وكانت شغلهم المميز الأخرى في ذلك الزمن هي القتال : وكانوا بوصفهم جبليين أشداء يلقون التقدير من أجل قوة شكيمنتهم ، كما أن ما يمتلكون من رعائل الخيل ، جعلهم عضدا نافعا وقويا لأية حملة عسكرية تشن . على أن السلطات البيزنطية كانت فيما يبدو لاتعتمد عليهم ولا تثق فيهم كثيرا ، وكانت تتخذ منهم على وجه الجملة فرقا احتياطية للجيش ، وكانوا

يعملون في بعض الأحيان باستقلال تام عن الجيوش النظامية • بيد أن هناك إشارات إلى وجود فرقة كاملة من مشاة الأفلاق في جيش بيزنطي يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر (١٨) •

ويتراءى لنا من السجلات القديمة أن وجود الأفلاق في منطقة ما كان عابرا غير محسوس • ذلك أنهم كانوا يتحركون من منطقة إلى أخرى ، متحدثين باللغة المحلية وممتزجين بالسكان المحليين : فهناك إشارات في الوثائق البيزنطية المتأخرة إلى « أفلاق بلغار ألبانيون » وفيها أيضا « أفلاق صربيون ألبانيون بلغار » (١٩) • وهناك أسماء أخرى لهم منها مافروفلاتش (Mavrovlachos) باللغة اليونانية البيزنطية أي « الأفلاق السود » التي اشتقت منها كلمة « مورلاتش » والكلمة اليونانية العصرية « كوتسوفلاتش (Koutsovlachos) ومعناها الحرفي « الأفلاقي الأعرج » • وهي كلمة قد تكون صورة محرفة للكلمة التركيبية « كوتشوك أفلاق » أي « الأفلاقي الصغير » • أما كلمة « الأفلاق » (Vlach) نفسها فتأتي من مصطلح أطلقه السلاف الأوائل على تلك الشعوب التي كانوا يلتقون بها وتكلم لغات لاتينية أو مصطبغة باللاتينية ومنها اشتقت كلمة والاشي (Wallachian) والوالون (Walloon) ، أو كما نقول الويلزيون (Welsh) أي سكان إقليم ويلز في بريطانيا •

ولم يرد إلينا أي تسجيل تاريخي محدد عن الأفلاق (الفلاتش) قبل أواخر القرن العاشر • وقبل ذلك فإن البيئة الوحيدة التي يمكن استنتاجها أو استخراجها بيئة لغوية • واللغة الفلاتشية لغة لاتينية وثيقة القرب من اللغة الرومانية (المستخدمة في رومانيا) : والتي يطلق عليها اللغويون اسم « الرومانية - المقدونية » (Macedo -Romanian) ويسمونها الرومانيون « داکو - رومانية » (Daco-Romanian) ومن الواضح أنها ثمرة الاستعمار الروماني لبلاد البلقان ، واستمرت هناك حيث التقى بها السلاف عند وصولهم في القرنين السادس والسابع • ولكن الإمبراطورية الرومانية في أرض البلقان كانت تغطي مساحة شاسعة مترامية ، وهو أمر أتاح للمؤرخين القوميين المعاصرين مجالا متسعا لتحديد الموطن الأصلي للأفلاق في أية منطقة شاءوا : فيدعي اليونانيون أن الأفلاق انما هم « يونانيون » مرمنون (أي مصطبغون بالصبغة الرومانية) ، ويقول البلغاريون أنهم « تراقيون » مرمنون ، كما يصر الرومانيون أنهم « داکيون » مرمنون (و / أو نسل وأحفاد الجند الرومان في داکيا : ولا يعنيها من أي أصل كانوا ما داموا قد كانوا هناك قبل وصول المجرين) • أما أغرب نظرية قيلت حتى الآن - وإن كانت أبعدا عن المعقول - فهي تلك النظرية

التي قدمها المؤرخ الكرواتي الشهير الأب مانديتش الذي راح أثناء بحثه في أصول الصرب الأفلاق في البوسنة يستنتج أنهم جاءوا في الأصل من بلاد مراكش . وذلك ، فيما يرى هذا المؤرخ ، يفسر لنا تلك الكلمة اليونانية البيزنطية « مافروفلاتش » أو « الأفلاق السود » : وهي إشارة إلى وجوهم السمراء المورية (المغربية) . وتنحصر نظريته في أنهم منحدرون من الجند الموريتانية في الفرقة الرومانية التي كانت تحتل البلقان . فأما قوله بأن أعدادا غفيرة من الجند كان الرومان يوطنونهم هناك ، فأمر صادق لا غبار عليه ، ولكنهم كانوا كما رأينا يضمنون أقواما من كل أرجاء الامبراطورية . ومن بين الجاليتين الموريتانيتين الوحيدتين اللتين ذكرهما مانديتش ، فان واحدة أنزلت قرب البحر الأسود في بيسارابيا (Bessarabia) والأخرى على نهر الاين (Inn) قرب فيينا . ولا تكاد هذه تكون نقطة ابتداء كافية لتكوين شعب بأكمله في البلقان الجنوبية . وبالرغم من أن القوميين المعارضين للصر في البوسنة سوف يسعدهم اكتشاف أن الصرب البوسنيين إنما هم في الحقيقة أفريقيون (كما أن هذه النظرية تعرى افك التمييز العنصري والصرى العصى ازاء الألبانيين الذي يجنح الى معاملتهم على أنهم قوم سمر الوجوه نازحون من العالم الثالث) الا أنها نظرية لا يمكن اطلاقا أن تكون صحيحة (٢٠) .

ومع ذلك ، فيمكن التعرف على الأصول الحقيقية للأفلاق عن طريق الاستنتاج من الشواهد اللغوية . ذلك بأن اللغة الأفلاقية الرومانية (التي ظلت لغة واحدة حتى بدأ الشكلاان الرئيسيان لها ينفصلان في القرون الوسطى المبكرة) ، بها عدد كبير من الملامح الخاصة مشتركة بينها وبين الألبانية . وتتضمن هذه الملامح أمورا جوهرية في النحو والصرف وعددا من التراكيب اللغوية الخاصة وعددا ضخما من المفردات المتصلة بالحياة الرعوية (٢١) . وتحوى الألبانية أيضا ، وهي اللغة الوحيدة الباقية من لغات القبائل الاليرية ، عددا ضخما من الكلمات المستعارة من اللاتينية ، ويدل ذلك على وجود صلة وثيقة حقا بسكان مصطبغين باللاتينية طوال الحقبة الرومانية (٢٢) . ولا شك في أننا لو جمعنا بين اللغويات التاريخية ودراسة أسماء الأماكن وتاريخ الامبراطورية الرومانية ، لأدى ذلك الى نتيجة مؤكدة الى حد ما ، وهي أن الأرض الأساسية التي تطورت بها هاتان اللغتان كانت منطقة تمتد من شمال ألبانيا عبر كوسوفو وجنوب وسط صربيا ، ومن المحتمل أيضا أنها كانت تشمل أجزاء من مقدونيا وغرب بلغاريا . وجلى أن الشطر الأعظم من السكان المرمين والناطقين باللاتينية بتلك المنطقة (الذين كانت لهجتهم اللاتينية متأثرة بما شابهها من لغتهم الأولى ، وهي الاليرية) قد شئت أو دمر أو امتص نتيجة للغزوات منذ

البصور المظلمة وخاصة غزوات السلاف . وهناك بقية كانت تشتغل بالرعى
تمكنت من البقاء في الجبال الشاهقة غير متأثرة بأى فتح سلافى للزراعات
المستقرة ، كما أنها في الجبال الأبعد شقة (وبخاصة الجبال في شمال
ألبانيا) على اتصال وثيق مع بقية ، يمكن أن يقال أنها أقدم ، ما زالت
تتكلم الإليرية ، وإن تكن لهجة معدلة من الإليرية التى تغلغت فيها اللاتينية
بشدة بعد قرون من الاحتكاك والاتصال . ذلك هو التفسير الذى يقبله
الجميع تقريبا من العلماء المستقلين الذين درسوا هذه المسألة ، ومن سوء
الحظ أنه يمس الكبرياء القومية للكتتاب الرومانيين الذين لا يطبقون أن
يتقبلوا أن أول من نطق بالرومانيسة كانوا قوما جاءوا من جنوب
الدانوب مما جعلهم يشنعون عليه (٢٣) .

ونظرا لأن هذه المنطقة الألبانية الشمالية والصربية الجنوبية كانت
صميم الأرض الأصلية للأفلاق ، فليس غريبا ولا مدهشاً أنهم استطاعوا
أن ينتشروا في مرتفعات الهرسك القريبة منذ عهد سحيق القدم . ومن
هناك تحركوا شمالا من خلال المنطقة الداخلية الجبلية الدالماتية حيث
جددهم يرعون القطعان (ثم يهبطون بها الى الأرض الخصبة الساحلية
في الشتاء) ، منذ عصر مبكر هو القرن الثانى عشر . فهناك اشارات جمة
اليهم فى سجلات راجوزا وزادار منذ القرن الثالث عشر حتى
الخامس عشر (٢٤) . ونفذ بعض هؤلاء الأفلاق الرعاة أيضا فيما أمامهم
من بلاد حتى وصلوا الى وسط البوسنة ، حيث تدل الأسماء القروسطية
بالمناطق المحيطة بسراييفو وتراڤنيك على وجودهم : فلاهينيا (Vlahinja)
وفلاشكوفو (Vlashkovo) وفلاشيتش (Vlasic) (٢٥) . كما أن
كثيرا من الكلمات الأفلاقية (الفلاتشية) المرتبطة بالحياة الرعوية قد
امتصتها اللهجات البوسنية من اللغة الصربوكرواتية مثل : ترز Trze
ومعناها آخر الخراف المولودة ، وهى مأخوذة من الكلمة الأفلاقية تيرزيو
Tirdziu ، أو كلمة زاريكا Zarica وهو نوع من الجبن ، المأخوذة
من الكلمة الأفلاقية زارا Zara . وهذه الكلمة الأخيرة انما هى صورة
أخرى من الكلمة الألبانية دلة Dhalle أى زبد اللبن - وهى إحدى
التفاصيل التى تشير الى الاختلاط والتعايش الرعوى بين الأفلاق والألبانيين
الذى استمر فعلا على مدى فترة طويلة جدا (٢٦) .

ويبدو أن معظم هؤلاء الأفلاق الدالماتيين والبوسنيين الأولين كانوا
يعيشون عيشة هادئة منعزلة تماما في الجبال (٢٧) . ولكن ما حدث فى
أرض الهرسك نفسها ، التى كان بها تجمع كبير من الأفلاق ، هو تطور
تقليد جديد ينطوى على طابع عسكري عدوانى . فهناك شكاو كثيرة نو

السجلات الراجوزية من غارات قام بها هؤلاء الأفلاق المجاورون أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر (٢٨) * وكان الأفلاق في الهرسك من مربى الخيل وحداة أو قادة القوافل الذين كانوا يتكسبون ، حين لا يكونون مشغولين بالنهب والسلب ، من التجارة بين راجوزا ومناجم البوسنة ، وهو نشاط عاد عليهم بالشراء * وكما رأينا ، فإن من المرجح أن بعضهم كان من أصحاب شواهد القبور الحجرية الفخمة المزينة بصور الفرسان * ولا بد أن صلاتهم التجارية بالشرق قد جعلتهم على اتصال أوثق مع الشعوب الأفلاقية في صربيا وبلغاريا ، الذين كانت لهم تقاليد طويلة من النشاط العسكري في جيوش الأباطرة البيزنطيين والملوك الصربيين .

وهناك سر آخر غامض لم يصل أحد الى حله في هذه القصة هو المعنى الدقيق لمصطلح مورلاتش (حيث كان معنى مافروفلاتش هو الأفلاق السود) ، وكيف اتفق أنه استخدم في الهرسك ودالماتيا * والمعنى الأصلي الواضح كان ينطوي على إشارة للعباءات السود التي كان يرتديها أفلاق البلقان الوسطى ، (صربيا وبلغاريا ومقدونيا وشمال اليونان) : وكانوا يعرفون كذلك ، في أوقات مختلفة باسم « الكاراجونيدس » (Karagounides) و « الكرجونيتسي » (Crnogunjei) التي معناها الحرفي « العباءات السوداء » باللغتين اليونانية - التركية والصربية (٢٩) * ومن الجائز أن عنصرا مميزا من هؤلاء الأقوام قد دخلوا الهرسك ودالماتيا جالبين معهم الاسم (الذي حازوه في منطقة تحدثت باليونانية) (٣٠) * وسرعان ما حولته طريقة الهجاء الشعبية السلافية الى موروفلاتش (Morovlach) ومعناها الأفلاق الساحليون (٣١) * ومن استخدامه في دالماتيا أصبح ذلك المصطلح فيما بعد يطلق على الأفلاق في كرواتيا الذين كانوا يملأون منطقة التخوم العسكرية (كرايينا Krajina) حول الكتف الشمالي الغربي للبرسنة * وأصبح مورلاكى هو الاسم البندقي (الفيتيسي) والمعتمد لهذه الشعوب * وكتب على المنطقة اسم « مورلاكيا » في كثير من خرائط القرنين السابع عشر والثامن عشر * واكتسب المورلاكيون سمعة سيئة وذلك بسبب طريقتهم المخيفة في الحرب غير النظامية واعتبروا شعبا بدائيا وحشيا * ولكن كل شيء ما عثم أن تغير تغيرا تاما في أخريات القرن الثامن عشر ، عندما قام بزيارتهم قسيس إيطالي هو الأب موريتس (Abbé Morits) ، وقد ألهمه شاعر أوسيان (Ossian) ، وصحبه متحمس ثان للشعر البطولي والأدب الشعبي البطولي وهو أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبريدج ، فسافر بين رحاب المورلاتش - بالأراضي الدالماتية الداخلية بحثا وراء الشعر والفضائل البدائية * فوجد الاثنين جميعا : « أن الاخلاص والثقة والأمانة التي يتحلى

بها هؤلاء القوم الفقراء ٠٠٠ في كل أمور معيشتهم أشياء قد نصفها.
بالسداجة والخنوع ٠ وقد جمع أيضا الشيء الكثير من الشعر اذ لاحظ أن
« الرجل المورلاتشي يسافر بين أرجاء الصحراء والجبال الموحشة وهو
يتغنى ، وبخاصة في ظلام الليل ، بأعمال القدماء من الملوك السلافيين إلى
البارونات أو يحدث تراجيدى » ، « ان اللهجة البوسنية التى يتكلمها
سكان الأراضى الداخلية من المورلاتش ، أوقع فى النفس ، فيما أرى ، من
اللغة الالبيرية الساحلية » (٣٢) (والقصيدة التى نشرت فى الترجمة-
وهى « زوجة حسن أغا » (Hasanaganitsa) كانت فى الحقيقة أغنية
بوسنية اسلامية ، وهى قصة قصيرة من الحب المأساوى ، وسوء الفهم ،
وأصبحت من أشهر نماذج الشعر الشعبى فى كل أرجاء أوربا ، كما ترجمها
كل من جوته وبايرون والسير والترسكوت وميريميه ميت بوشكين.
ولرمونتوف (٣٣) ٠

فأما فى داخل البوسنة نفسها ، فان مصطلح مورلاتش لم يكن يطلق
كثيرا جدا على الأفلاق المحاربين الذين كانوا يذهبون لملء مناطق
الخنوم فى عصر العثمانيين ٠ وكان هؤلاء الأفلاق الذين كانوا يعيشون اما من
الهرسك أو صربيا ، يسمون بالأفلاق أو المارتولوسيون ٠ وتشير الكلمة
الآخيرة الى وضعهم العسكرى ، وربما شملت غير الأفلاق أيضا : لقد كانت
صورة محورة للكلمة اليونانية الدالة على رجل مسلح ، وهى الأرماتولوس
(Armatōlos) ٠ وكان لأفلاق البوسنة والهرسك تنظيمهم الاجتماعى
والعسكرى الخاص ، وهو شئ محدد بوضوح تام فى الوثائق العثمانية
البكرة : فعلى رأس كل مجتمع محلى كان هناك رئيس أو كانيز Knez
(وهو مصطلح سلافى قديم) ، وكان من دونه بريميكور (Primikür)
المأخوذة من الكلمة اليونانية primikerios ، وكان من دونه ليجاتور
(Lagator) (المأخوذة من الكلمة اليونانية الأجاتور (Alagatör) أى
رئيس سرية عسكرية أو قول عسكرى) ، وكانت المجموعة العسكرية
الأساسية تسمى جوند (Gönder) نقلا عن الكلمة اليونانية Kontarion
أى (الحربة) (٣٤) ٠ وكما تدل هذه المصطلحات ، فان العثمانيين ورثوا
نظاما أسس فى الماضى لخدمة جيوش الامبراطورية البيزنطية ٠ ولم يفت
العثمانيون ، شأن الحكام البيزنطيين والصربيين من قبلهم ، أن يعطوا
الأفلاق امتيازات ضريبية خاصة فى مقابل خدماتهم العسكرية : فمنح قادة
الأفلاق تيمارات وعوملوا بالفعل معاملة الفرسان (السباهى) ، كما كان
شعبهم معفيا من الضريبة الأساسية المفروضة على غير المسلمين ، وهى ضريبة
الخراج ٠ نعم ان الأفلاق كانوا يدفعون بالفعل ضريبة تسمى بالضريبة
« الأفلاقية » وهى رسوم أفلاق (Rusum-i-eflak) ، وقوامها رأس من

الغنم وحمل من كل دار قائمة ، وقدفع يوم عيد القديس جورج من كل عام (٣٥) . ونظرا لأنهم كانوا يتمتعون بنوع خاص من الضرائب ، كان تقييدهم في الدفاتر التركية من نوع مختلف . وهذا يمكننا من أن نرى أنه في أخريات القرن الخامس عشر كان هناك على الأقل خمسة وثلاثون ألفا من الأفلاق ببلاد الهرسك . وما لبث أن بلغ عددهم في القرن السادس عشر ٨٢٦٩٢ أسرة (وان أدرج ضمن هذه العائلات بعض المارتولوس غير الأفلاقيين الذين كانت لهم نفس الامتيازات) في منطقة سيميفيرييف الواقعة الى الجنوب من بلجراد (٣٦) . ونقل الأتراك عددا كبيرا من الأفلاق الى الجزء الشرقي من بلاد الهرسك الى هناك لاعادة عمران تلك المناطق بالسكان بعد أن عاث فيها الخراب أثناء الحروب التي قامت في سببينييات الألف وأربعمئة (٣٧) . وكان هؤلاء القوم هم المستودعات الرئيسية للسكان التي كانت تملأ منها أراضي البوسنة الشمالية الخالية من السكان . ونظرا لأن العيش ببلاد الهرسك وصربيا قد جعلهم يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية منذ أمد بعيد ، فانهم أسسوا الوجود الأرثوذكسي في تلك البقعة من البوسنة وهي كنيسة دامت منذ ذلك الحين حتى الآن .

فما مدى اختلاف وتميز هؤلاء الأفلاق عن يحيط بهم من سلاف ؟ . . . من البين تماما أنهم كان لهم وضع مخالف ، كما كان لهم تنظيم اجتماعي عسكري مخالف . فان من هاجر منهم الى شمال البوسنة لم يعد بوسهم ان يمارسوا تقلب الانتقال الموسمي القديم ، كما تدل الفرمانات العثمانية الصادرة في القرن السادس عشر بشأن أفلاق البوسنة والهرسك ، على أن غالبية الأفلاق قد أصبحوا آنذاك سكانا مستقرين ، وان معيشتهم تتركز حتى ذلك الوقت حول تربية القطعان ورعى الغنم (٣٨) . وقد لاحظ جيوفاني لوفريك (Giovani Lovrich) في سببينييات الألف وسبعمئة أن المورلاتش الكرواتيين كانوا يمتلكون جميعا قطعانا يتراوح عددها بين مئتين أو ثلاثمئة أو ستمئة رأس من الغنم ، ولما سألهم لماذا يتراخون بشدة عن عزق الأرض وحرثها أجابوه بقولهم : « ان أجدادنا لم يكونوا يفعلون ذلك ، هذه سنة أجدادنا وعليها نسير » (٣٩) وقد ذهب بعض الكتاب وبخاصة الصربيين منهم ، الى أن مصطلح « الأفلاق » كان مستخدما ليعني بالضبط « الراعي » ، ولم يدل اطلاقا على أي فرق عرقي أو لغوي - وعلى ذلك فان معظم هؤلاء الأقوام انما كانوا في الحقيقة صربيين يرعدون الغنم (٤٠) . وبرفض وجهة النظر هذه أكبر خبير معاصر في تاريخ الأفلاق أثناء فترة العثمانيين الأولى بالبلقان ، وهو يصر اصرارا شديدا على أنهم كانوا يعدون قوما مختلفين (٤١)

وظل الأفلاق يتكلمون دائما لغتين ، لغتهم ولغة من حولهم ، ونظرا لأنهم لم يتولوا الإدارة والأحكام قط ، فإن اللغة التي بقيت إلينا حتى اليوم في السجلات لم تكن لغتهم اطلاقا . ولكن بين أيدينا فعلا بعض آيات تدل على استخدامها في غير تسجيل الأسماء الشخصية مثل أورسول (Ursul) وشاربان (Sarban) . وظل الأفلاق الذين نزحوا إلى جزيرة أدریاتيكية في القرن الخامس عشر ، يستخدمون الأفلاقية هناك بعد ذلك بأربعمئة عام . وقد كتب أحد البنادقة في القرن السادس عشر يصف أفلاق الاراضي الداخلية الدالماشية وقال انهم يتحدثون « اللاتينية وان كان بطريقة محرفة » ، كما أن الرعاة بتلك الجبال ظلوا يستخدمون أرقام العد الأفلاقية إلى عهد حديث جدا هو ١٩٨٥ (٤٢) . وهناك دليل آخر في القرن السابع عشر على ثنائية اللغة عندهم أي استخدامهم لغتين في وقت واحد ، وذلك رغم أن الكاتب يوانس لوشوس Ioannes Lucius (إيفان لوكيتش Ivan Lukic) قد ذكر أن اللغة قد اختلفت في زمانه ذلك (٤٣) . على أنهم بطبيعة الحال ، وقد عاشوا قرونا عدة بين سلاف الهرسك وصربيا ، فإن مظهرهم الخارجي (أي من ناحية اللغة واللباس) ، لم يكن مختلفا عن السلاف العاديين بتلك المناطق . والرأي القائل بأنهم كانوا يتكلمون لغتهم وحدها لأنهم لم يجلبوا معهم اللهجة البيكافية الصربية عندما انتقلوا من صربيا إلى شمال البوسنة ، فأمر لا شك في زيفه (٤٤) . لقد كانوا يتحدثون بآية لغة يتحدث بها السلاف المحيطون بهم ، وهى لغات ولهجات ربما تغيرت بمر الزمن في مناطق عرضة للتغير وعمليات التدفق الديموجرافي (السكاني) كمنطقة شمال البوسنة ، ولا بد أن أفلاق الهرسك كانوا يتكلمون البيكافية على كل حال (٤٥) .

وقد بذلت بعض محاولات لاثبات أن سكانا من المتحدثين بالأفلاقية كانوا لا يزالون يقيمون بالبوسنة في وقت حديث جدا هو بداية القرن العشرين . وقد ذكر احصاء البوسنة في ١٩١٠ وجود ست عشرة قرية تتحدث « بالرومانية » ، وفي ١٩٠٦ أصدر روماني متحمس محب للأفلاق كتابا كاملا حول « الجاليات الرومانية » التي وجدها هناك (٤٦) . وعندما قام الخبير الأول الألماني في شؤون الأفلاق وهو البروفيسور فايغاند (Weigand) بزيارة المنطقة لمراجعة هذه الادعاءات في السنة التالية ، وجد أن القرى الأفلاقية الوحيدة انما تضم مهاجرين قدموا من مقدونيا أثناء القرن الثامن عشر ، وأنهم منذ ذلك التاريخ قد فقدوا لغتهم . فأما القرويون « المتكلمون بالرومانية » المعروفون محليا باسم (الكرافلاسي Karavasi) أو « الأفلاق السود » فكانوا يتحدثون في الحقيقة بالرومانية ، وكان ذلك لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا من الأفلاق اطلاقا ، وانما غجر رومانيون من ترانسلفانيا (٤٧) .

وأخيرا ، يصبح من الضروري علينا أن نوضح أنه لا معنى في هذه الأيام لأن نقول ان الصرب البوسنيين انما هم في « الحقيقة » أفلاق ، فعلى كثر القرون كان الكثير من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية يعبرون نهر الدرينا الى البوسنة أو ينتقلون شمالا من الهرسك . كما ظهرت طبقة من التجار الصربيين اكتسبت شيئا من الأهمية في المدن البوسنية أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولم يكن كل الناس الذين أرسلوا لملء شمال البوسنة بالسكان ابان القرنين الخامس عشر والسادس عشر من الأفلاق ، ومنذ ذلك التاريخ حدثت عمليات نزوح وهجرة من وإلى البوسنة حتى اننا نعجز عن حساب النسبة المثوية الدقيقة للأفلاق أسلاف الصربيين البوسنيين (٤٨) . لكن الأفلاق لم يسهموا فقط في زيادة عدد السكان الصربيين ، بل ان بعضهم كما حدث في كرواتيا أصبحوا من الكاثوليك ، كما أن قلة ضئيلة منهم اعتنقوا الاسلام في البوسنة (٤٩) . واطلاق اسم « الصربي » على أي انسان اليوم انما ينطوي على مفهوم نشأ في القرنين التاسع عشر والعشرين ، يجمع الديانة واللغة والتاريخ واحساس الفرد الخاص بهويته : والصربيون البوسنيون المصريون يستطيعون بصدق وصحة أن يصفوا أنفسهم بأنهم من الصرب على هذا النحو ، بغض النظر عن الأسلاف الأفلاق الأوائل . والحق أن المرء لا يملك الا أن يبتسم ، عندما يسمع السياسيين البوسنيين الروس يتحدثون عن الحاجة للدفاع عن اخوانهم السلاف القدماء في البوسنة ، اذ أن الفئة الوحيدة من سكان البوسنة التي تنطوي على عنصر كبير واضح من الأرومة غير السلافية هي صرب البوسنة .

الفصل السابع

الحرب و الشئون السياسية فى البوسنة العثمانية ١٦٠٦ - ١٨١٥

ظل تاريخ البوسنة أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر تتداوله وتنسلط عليه الحروب العظمى . وبالضبط مثلما نمت الامبراطورية العثمانية عن طريق الحرب ، فان الحروب والتغيرات الاجتماعية التى ترتبت عليها انما ساعدت على انحدار الامبراطورية . فعندما حل القرن السابع عشر كانت الخيالة الاقطاعية القديمة قد أصبحت قديمة الطراز من الناحية العسكرية ، منذ أن ازدادت أهمية الجند المشاة المسلحين بأسلحة نارية حديثة ومعهم المدفعية . ونشأ جيش نظامى يتقاضى رواتب وهو جيش لم يعد التجنيد فيه عن طريق الدوشرمة ضروريا بعد ذلك . ولكن الشئ المهم كان هو الأموال والايرادات اللازمة للحكومة المركزية للانفاق عليه : وكان معنى ذلك الاستيلاء على المزارع التيمارية الاقطاعية كلما خوت من سكانها وتحولت الى خليط من الضياع الخاصة والمزارع الخاضعة للضرائب . وأدت هذه التغيرات ، كما سنرى فى الفصل الثامن ، الى تغيير طبيعة المجتمع العثمانى الاقليمى ، فزيدت الضرائب على فلاحي المزارع . واخترعت اسطنبول عددا من الضرائب الجديدة التى أدت الى الفقر وولدت الامتعاض والقلاقل العديدة . والضرائب التى كانت تجمعها الحكومة المركزية ، والمعروفة باسم الأفاريز (Avariz) - (انما يقوم التشابه بينها وبين أفاريز Avarice محض صدفة ليس الا) - كانت مجرد اجراء طوارئ ، ولكنها أصبحت الآن هى القاعدة . وزاد الفساد واستشرى ، واختل القانون والنظام . وكان من المعترف به أن الظروف فى البوسنة كانت أحسن تنظيما منها فى المناطق المجاورة الصربية من الامبراطورية ، حيث كان الفلاحون يهربون من المزارع ويتحولون الى عصابات من قطاع طرق

أو هازدوق (Hazduk) . بيد أن البوسنة كان لها هي الأخرى نصيبها من التدمير في القرن الثامن عشر . فعند ذلك الحد ، كان واضحا لدى كثير من مراقبي الأحوال ان الامبراطورية كانت تتعفن من الداخل .

وكانت الحروب الكبرى تحدث كل جيلين على الأقل . فبعد الحروب الهابسبرجية من ١٥٩٣ الى ١٦٠٦ التي استنزفت موارد البوسنة تماما ماليا ، وأنهكتها عسكريا ، مرت عدة عقود هادئة لم يعكر صفوها سوى تخفيض قيمة العملة والتضخم بكل أرجاء الامبراطورية العثمانية أثناء المدة من ١٦١٥ الى ١٦٢٥ (١) . وفي أربعينيات الألف وستمئة اشتبك الترك في حرب طويلة مع البندقية استمرت حتى ١٦٦٩ . وأدى ذلك الى غارات متكررة كثيرة شنت من الأراضي البندقية على الساحل الدالماسي ، كما جرت صدامات ضخمة بين قوات كل من البندقية والبوسنة : حيث زحف في ١٦٤٥ جيش بوسني كامل بأسره على دالماسيا ، ولكنه لم يتمكن من احراز أية مكاسب هناك (٢) . وكانت هذه الحرب الطويلة الضروس تلقى عيبا ثقيلا على البوسنة ، بالإضافة الى الزيادات في الضرائب والتضخم التي تولدت عنها بكل أرجاء الامبراطورية . فقد كتب الأسقف الكاثوليكي ماريان مارافينش (Marijan Marevic) تقريرا في ١٦٥٥ يبين أن أكثر من ألفي عائلة كاثوليكية قد فرت من البوسنة أثناء « الحرب الحالية » ، فضلا عن تقرير آخر في ١٦٦١ يقول ان أكثر من أربعة أديرة فرنسيسكانية أحرقت في « هذه الحروب المستديمة التي تحدث في هذه الأجزاء » (٣) . وفي ١٦٦٣ اشتعلت نار الحرب ثانية على آل هابسبرج ، وزحف جيش عثماني عرمرم على النمسا في السنة التالية ، وبعد معركة ، عدها الأتراك تعادلا وعدها النمساويون انتصارا ، تم التوقيع على معاهدة سلام وافق فيها كل من الجانبين على ايقاف جميع غارات الحدود ما دام الطرف الآخر يلتزم بذلك (٤) .

على أن الحرب الشاملة المهمة التي لم تفق منها الامبراطورية العثمانية ولا استعانت قوتها بعدها أبدا ، انما سى الحرب الهابسبرجية من ١٦٨٣ حتى ١٦٩٩ . وكانت سنة ١٦٨٣ كارثة على الترك . فبعد اخفاق حصارهم لفينا ، ردوا على أعقابهم وهزموا في المعركة على يد الجيوش النمساوية والبولندية ، ونفذ الأتراك حكم الاعداء في بلجراد في الصدر الأعظم الذي قاد المعركة . وفي ١٦٨٤ الى ١٦٨٧ فتح النمساويون بالتدريج كل المجر التابعة لحكم العثمانيين ، فطردوا بذلك آلافا من الفرسان (السباهي) والمعتنقين للإسلام حيث تراجعوا جنوب بلادهم التي هجروها وأفاضوا بطوفانهم في داخل البوسنة . وفي الحين نفسه كانت البندقية

تشن هجوما مباشرا على الأراضى البوسنية . ولكن تقديما بندقيا ضخما نى البوسنة فى ١٦٨٥ رد على أعقابها ، ولكن المسلمين دفعوا دفعا الى داخل البوسنة على يد القوات الهابسبرجية الزاحفة من منطقة ليكا (Izika) فى أرض كرواتيا ، فى أقصى الركن الغربى من الايالة البوسنية ، وفى ١٦٨٧ . كان عدد يقارب الثلاثين ألفا أو يكاد قد فر من أرضه ، كما أن الألف والسبعمئة من السكان الذين بقوا فى أرضهم أرغموا بالقوة على اعتناق الكاثوليكية (٥) . وكان لهذه النزوحات المتتالية للاجئين أثر ضخم فى حجم وطبيعة أهلى البوسنة وسكانها : وقدر أنه قد بلغ عدد الناس المنقولين الى البوسنة مئة وثلاثين ألف نسمة كنتيجة نهائية للحرب (٦) . وكان أكبر عنصر منهم هم المسلمين السلافونيين - وهم اما مستوطنون بوسنيون مسلمون انتقلوا فى الأصل شمالا نازحين من البوسنة ، أو من الكروات السلاف الذين أسلموا أو دفعوا الى الاسلام أثناء الفترة الطويلة من الحكم التركى . وبعض اللاجئين وبخاصة طبقة الفرسان (السباهى) الذين فقدوا كل شيء كانوا رجالا تملأ نفوسهم المرارة ، عادوا وقد اجتلبوا معهم كراهية جديدة للمسيحيين (٧) .

وكان كل شيء ينذر بأسوأ من ذلك بالنسبة للسلطات العثمانية ، وفى ١٦٨٩ زحف الجيش النمساوى الهابسبرجى عبر البوسنة ، ولم يلبث حتى دخل صربيا . ولم يزل يخترق البلاد حتى وصل الى كوسوفو ، وانتهم كثير من الصربيين الفرصة فثاروا على الحكم التركى . وجاء زمان بدا فيه أن الأتراك سيفقدون السيطرة على البلقان كلية . ولكن صحوة مفاجئة مكنت الأتراك من رد النمساويين مرة ثانية على أعقابهم فى السنة التالية . وفر عدد ضخم من السلاف الأرثوذكس ، وعلى رأسهم البطريرك - وهم جمع لا تقل عدته عن ثلاثين ألفا - الى الشمال مع الجيش النمساوى المتقهقر من منطقة كوسوفو . (والغالبية الألبانية فى كوسوفو - ذلك على الأقل فى المدن العصرية - ربما يعود تاريخها فى الغالب الى هذه الأحداث) ولكن من الناحية الأخرى قام كثير من الصربيين الأرثوذكس بالترحيب بعودة الترك ، بعلم أن جربوا حرارة تحمس القسس الكاثوليك النمساويين فى نفس الحين . ثم تلت ذلك فترة من تعذر حقيقى فى الحركة فى أى اتجاه ، وواصل العثمانيون الحملات بغير جدوى عبر الدانوب فى الأراضى المجرية ، وقاومهم هناك ضابط نمساوى عديم الكفاية هو الفيلد مارشال كابرا (Caprara) . ولكن عندما عزل كابرا وعين محله أصغر وأذكى ضابط قائد فى الجيش ، وهو الأمير يوجين من سافوى ، فإن الأمور ما لبثت أن بدأت تتغير . فأنزل الأمير يوجين هزيمة فادحة بالأتراك فى معركة زنتا (Zenta) بجنوب المجر ، فى سبتمبر ١٦٩٧ . وبعد ذلك انطلق فى سرعة خارقة بجيش عدته ستة آلاف رجل حتى دخل الى قلب البوسنة .

«وصلوا في ٢٢ أكتوبر الى سراييفو حيث وجدوا الأتراك غير مستعدين
لإطلاق القتال». وهناك فقرة وردت في مذكرات الأمير يوجين العسكرية
تصف أحداث اليومين التاليين :

« في يوم ٢٢ أكتوبر ، صففت الجند في جبهة عريضة
على مرتفع يطل على المدينة مباشرة . ومن هناك أرسلت فصائل
لتهبها . وكان النرك قد أخذوا من قبل أشياءهم الثمينة الى
أماكن آمنة ، ولكن مع ذلك فان مقداراً ضخماً من جميع السلع
ظل باقيا وراءهم . وحوالي المساء بدأت المدينة تحترق .
والمدينة ضخمة جداً ومفتوحة تماماً ، وبها مئة وعشرون مسجداً
بديع التصوير والشكل . وفي اليوم الرابع والعشرين ظلمت
في سراييفو . وتركنا المدينة وجميع ما حولها من مناطق شعبة
نيران متقدة . ولم تلبث فرقتنا المغيرة التي تعقبت العدو أن
عادت إلينا بالغنائم وبكثير من النساء والأطفال ، بعد أن فنكت
بكثير من الترك . ويحيى المسيحيون إلينا في جماهير غفيرة ،
ويسألون الأذن بالدخول الى معسكرنا بكل ما لهم من متعلقات
ومتاع ، وذلك نظراً لأنظم يريدون أن يغادروا البلاد
ويتبعونا . واني لأرجو أيضاً أن آخذ معي جميع المسيحيين
بهذه البلاد وأعبر بهم نهر السافا x (٨) »

وكان معظم هؤلاء المسيحيين على الأرجح من التجار الكاثوليك الذين
يبدو أن سيطرتهم على التجارة في البوسنة قد انتهت تماماً مع تلك
الحرب (٩) . وبينما كان الأمير يوجين يتراجع شمالاً ، سارع آلاف من
الكاثوليك الآخر بالانضمام فعلاً الى جيشه أثناء مسيره الى النمسا .
ولم يكن عدد السكان الأرثوذكس في البوسنة يفوق آنفاً عدد الكاثوليك
عند حلول النصف الثاني من القرن السابع عشر ، فان تفوقهم العددي
كان مفروغاً منه عند نهاية تلك الحرب (١٠) . وسواء أكان هؤلاء الكاثوليك
مقتنعين (شأن البطريرك الصربي) أنهم لابد عائدون سريعاً برفقة جيش
نحرير أم لم يكونوا ، فذلك شيء غير واضح حتى الآن . فهناك علامات
تؤكد أن النمساويين كانوا يفكرون تفكيراً جدياً في ضم البوسنة ضمّاً
نهائياً : فقد بعثوا يسألون ويتحرون في ١٦٨٧ - ١٦٨٨ ، من خيال
رستاء لهم في راجوزا ، هل يقبل مسلمو سراييفو (الذين كانوا مستقلين
تماماً تجاه الحكومة العثمانية) الحكم النمساوي لو ضمنت لهم حرية
العقيدة ، وردت اثنتا عشرة عائلة بالإيجاب ، ولكن لم يسفر الأمر عن

شئ (١١) . ولم يدر أى شئ من هذا القبيل مع ذلك ، فى عقل الأمير يوجين فعندما قام بفارته العسكرية على البوسنة ، لم يكن الغرض الجوهرى منها سوى النهب والتدمير .

وتؤكد معاهدة كارلوفيتش Karlowitz (سرمىكى كارلوفتسى Sremski Karlovci فى شمال غربى بلجراد ، قرب نوفى ساد) ، التى أنهت الحرب فى ١٦٩٩ ، أن الامبراطورية العثمانية كانت فى حالة تقهقر فى أوربا ، اذ تنازلت فيها عن المجر وترانسلفانيا لآل هابسبرج ، وتنازلت للبندقية عن مناطق مترامية فى دالماشيا واليونان : وفى أثناء القرن التالى كان الحد الجنوبى الغربى للبوسنة يسير مع أراضى البندقية جنبا الى جنب . وبلغ من ضخامة التأثير السيكولوجى لهذه الخسائر أن أصبح استردادها هدفا جنوبيا طويل المدى للسياسة العثمانية . ولم تلبث الفرصة أن سنحت فى ١٧١٤ ، بعد أن أقدمت البندقية عدة مرات على خرق المعاهدة خرقا صارخا . وفى الحرب التى نشبت بعد ذلك ، عادت النمسا فواصلت تحالفها مع البندقية ، وللمرة الثانية (فى ١٧١٦) أنزل الأمير يوجين هزيمة فادحة بالأتراك فى بتروفارادين (Petrovaradin قرب نوفى ساد) . ولكن قوات الدفاع البوسنية صمدت فى مكانها تماما . وفى معاهدة باساروفيتش Passarowitz (بودجاريفاتس Podjarevats فى صربيا) فى ١٧١٨ ، افتطعت النمسا شقة من الأرض جنسوب الحد التقليدى وهو نهر السافا ، كما تقدمت دالماشيا الواقعة تحت حكم البندقية داخل الأرض البوسنية حتى بلغت خطا شكل منذ تلك اللحظة التخم الجنوبى الغربى للبوسنة (١٢) .

ودفعت هذه الحرب موجة أخرى من اللاجئين المسلمين الى البوسنة (١٣) . فالظروف لم تكن مستقرة ، وزيدت الضرائب للمرة الثانية ، ونشبت ثورات بسبب الضرائب فى الهرسك فى ١٧٢٧ و ١٧٢٨ و ١٧٢٩ و ١٧٣٢ . وتشير المصادر غير العثمانية الى أن المسيحيين اشتركوا فى اثنين من هذه التمردات (١٧٢٨ و ١٧٢٩) ، ولكن أهم العناصر المحركة والمشاركة فيها كانت من المسلمين (١٤) . وتوالى الأوبئة أيضا أثناء تلك السنوات : فمات عشرون ألفا فى البوسنة بالطاعون أثناء ثلاثينيات الألف وسبعمئة (١٥) . وعندما نكت النمساويون بمعاهدة باساروفيتش فى ١٧٣٦. رغبوا البوسنة حسبوا أنها ستقع فى أيديهم سريعا . ولكن خاب خألهم ، فقد تصادف ، قبيل الغزو مباشرة ، أن عين على غير المألوف وال ذو همة عالية وقدرة على البت السريع فى الأمور ، هو حكيم أوغلو على باشا ، حاكما على البوسنة ، فنظم الدفاع بهارة فائقة (١٦) . وتمكن

في السنة التالية من انزال الهزيمة بالجيش النمساوي في معركة بانياالوكا ، وبمقتضى معاهدة الصلح التي أعقبت ذلك (وهي معاهدة بلجراد في ١٧٣٩) ، تخلى النمساويون عن جميع الأراضي الواقعة جنوب نهر السافا عدا قلعة واحدة (١٧) . ويرجع تاريخ الحد الشمالي للبوسنة العصرية الى تلك التسوية .

ولبت هذه المعاهدة أمدا طويلا ، فلم تتعرض البوسنة لأي غزو أجنبي لمدة خمسين عاما . ولكن كان على اية البوسنة أن تتحمل عبء الضرائب المزادة لسداد نفقات حملات أخرى بإمكانة أخرى ، ففي ١٧٤٥ عندما عاد حاكم على أوغلو باشا ليتولى الحكم مدة أخرى واليا على البوسنة ، واجه ثورة عاتية على الزيادات في الضرائب وعجز عن اخمادها الأمر الذي اضطره الى مغادرة البلاد مرة ثانية مدة ستة أشهر . وعندما عاد ثانية في ١٧٤٧ واجهته ثورات أكثر فاضطر الى التراجع الى اليونان في السنة التالية (١٨) . وشب عصيان كبير في موستار ، اشترك فيه حتى الانكشارية أنفسهم ، وزادت عليه عصيانات أخرى بسبب الضرائب في البوسنة أثناء السنوات القليلة التالية (١٩) . وكان القرويون المسلمون يحتجون هم أيضا على التغيرات التي لحقت بنظام حيازة الأرض . وأخيرا جاء وال آخر للبوسنة ، هو محمد باشا كوكافيتسا (Kukavca) ، فتلقي رسالة من السلطان تتكون من جملة واحدة : « ينبغي غزو البوسنة ثانية » (٢٠) . فاستجاب لذلك النداء بكفاية وحشية . وأعيد السلام الى البوسنة ، ولكن مدينة موستار ظلت مركزا لعدم الولاء والمقاومة ، فاضطر الوالي في ١٧٤٨ الى أن يجرد عليها جيشا كبيرا لاختضاعها . ولكن على العكس من التمردات الشعبية التي حدثت إبان أربعينيات الألف وسبعينيات ، جاءت هذه المقاومة من المراكز الحضرية ، من رؤساء المسلمين وأعيانهم ، الذين كانوا يحاولون الدفاع عن امتيازاتهم القديمة (٢١) .

على أن الحرب النمساوية التالية ، التي بدأت في ١٧٨٨ ، كان لها حجم سياسي جدى أخطر من أية حرب أخرى سبقتها . فقد كانت هناك في هذه المرة خطة تم الاتفاق عليها بين جوزيف الثاني النمساوي وكاترين العظمى الروسية ، ترمي الى الاسنيلاء على جميع الأراضي العثمانية بشبه جزيرة البلقان ، واقتسامها بين هاتين الامبراطوريتين المسيحيتين . وحددت هذه الخطة شكل المصالح الجغرافية والسياسية للنمسا في أرض البلقان التي تمخضت في نهاية الأمر عن احتلالها للبوسنة في ١٧٨٨ ، وضمها اليها

بعد ذلك بثلاثين عاما . وبذلك أظهر الامبراطور جوزيف الثاني ،
عندما أعلن عند بداية الحرب أنه سيسيطر حرية الدين لجميع المسلمين
الذين يوافقون على طرح أسلحتهم جاثبا ، أنه كان يفكر في حكم البوسنة
وليس مجرد فتحها (٢٢) . وقد حاول آل هابسبرج ان يرتقوا بثقافة
الكاثوليك البوسنيين (واستحضروا بعضهم ليدرس في زغرب) ، وكانوا
يأملون في تشوب ثوزة عامة للمسيحيين البوسنيين (٢٣) . وفي أوائل
عام ١٧٨٨ دخلت القوات النمساوية أرض البوسنة ، ولكن أحلامهم في
الترحيب بهم بوصفهم محررين ومنقذين لم تتحقق . نعم حدث فعلا أن
قلة قليلة من البوسنيين تطوعوا في الجيش النمساوي ، ولكن كلا من
المسيحيين ، والمسلمين البوسنيين ، أبدوا مقاومة شديدة للنمساويين
بمنطقة الحدود ، وتجمد الجيش النمساوي في حصار دام خمسة أشهر
لقلعة دوبيكا (Dobica) (٢٤) . وبذلك أصبحت تلك الحرب تسمى في
التاريخ البوسني باسم حرب دوبيكا . وفي السنة التالية أصبح
النمساويون أحسن تنظيما ، وتمكنوا هذه المرة من اجتياح البوسنة المسلمة
وواصلوا الزحف في عمق صربيا . وكان هذا ارهاصا ثانيا بالطريقة التي
تتم بها الأمور أثناء القرن التاسع عشر : ولم يكن ما أوقف مطامع النمسا
والروسيا عند حدها قوة العثمانيين العسكرية ، وانما هو الضغط
الدبلوماسي والسياسي الذي بذلته الدول الأوروبية الأخرى . وفي ١٧٩١
وافقت النمسا على التخلي عن جميع المكاسب التي أحرزتها في البوسنة
وصربيا ، وفي مقابل ذلك منح السلطان الامبراطور النمساوي وضعاً
رسمياً يجعله « حامى » المسيحيين الذين يعيشون تحت الحكم
العثماني (٢٥) .

وقبل أن يتهيأ لنموذج القرن التاسع عشر اكتمال التشكيل ،
وقعت حادثة عطلت من مجرى تطورات النظام الدولى هي الحروب
النابوليونية . فبعد الانتصار الأول لنابليون على النمسا ، ضم الفرنسيون
الى حكمهم كلا من البندقية وايسترى والماسيا (بما في ذلك الجمهورية
الراجوزية) في ١٨٠٥ . وبذلك خلق حد فرنسى بوسنى دولى . وحرصت
معظم الدول الأوروبية على التزلف ، لأسباب استراتيجية ، الى الامبراطورية
العثمانية . فأرسل نابليون مساعدة الى السلطان عندما كان يحاول
اخمد ثورة في صربيا ، كما أن الفرنسيين تدخلوا أيضا ، بطريقة
مباشرة أكثر ، في عزاك محلى نشب بالهرسك ، عندما أرسلوا تجريدة
عسكرية لانقاذ وال أو باشا محلى هو حاجى بك ريزفان بيجوفيتش . الذى
كان محاصرا في قلعة هوتوفو (Hutovo) : نتيجة الخلاف نشب على ميراث
بينه وبين أخوين له (٢٦) . وفي ١٨٠٩ أعلنت النمسا الحرب على فرنسا

مرة ثانية • وشجع نابوليون البوسنيين على الاغارة على سلافونيا في أوائل صيف تلك السنة ، ولكن بعد معركة واجرام في يوليو توسل النمساويون في طلب السلام • وتنازل آل هابسبرج مرة ثانية عن بعض الأراضي : انقسم الغربى من كرواتيا (المتاخم للكتف الشمالى الغربى للبوسنة) ، وشطر كبير من سلوفينيا العصرية • وضمت هذه بعضها الى بعض ومعها مكاسب أخرى فى المنطقة ، لتشكل منطقة فرنسية جديدة هى « المقاطعات اللاليرية » ، التى تولى الحكم فيها الماريشال مارمونت (الذى تلقب لتلك المناسبة بلقب دوق راجوزا) ، وتولى الحكم أربع سنوات •

وسرعان ما وجد الماريشال نفسه ، شأن معظم من سبقوه من حكام المنطقة الحدودية من قبله ، نفسه مضطرا الى التعامل مع كتائب مغيرة قادمة من البوسنة • وفى آخريات ١٨٠٩ ، عبرت بعثة تأديبية فرنسية الحدود البوسنية ، حيث قابلت قوة صغيرة ، تتكون بوجه رئيسى من الفرسان غير النظاميين ، تحت قيادة أغا (أى حاكم) بيهاتش ، ومع أنهم لم يكونوا تفتيا للجنود المدربين فى الجيش النابوليونى الأعظم ، فان مهارة الفروسية التى أبدوها هؤلاء غير النظاميين البوسنيين ، تأثر بها جندى فرنسى تأثرا قويا ، فوصفهم فى مذكراته بأنهم : « مجموعة من الرجال ، لم يكن فيهم أحد يلبس زيا عسكريا ويمتطون خيولا هزيلة صغيرة الحجم ، ذات خفة خارقة فى الحركة ، وهى تطيع صوت راكبها وضغط ركبتيه ، دون لجام أو مهماز » • فردهم الفرنسيون الى الخلف ستة فراسخ ، ثم توقفوا عند احدى القرى وأشعلوا فيها النار • وتذكر الجندى ما حدث فيما بعد فقال : « دخلت أنا وبعض الضباط أشمس البيوت وجاهة ، وقدرنا أن نفرات ذات النوافذ ذات القضبان المطلة على حوش داخلى كانت هى حريم البيت ، فأشعلنا فيها النيران تكريرا للجنس اللطيف » (٢٧) •

وعندما انسحب الفرنسيون من « المقاطعات اللاليرية » فى ١٨١٣ ، عاد الحكم النمساوى سيطرته الأولى هناك ، وكذلك عاد أيضا النسق المعتاد من صراعات الحدود وحوادث الاختراق • وعادت الأمور الى نصابها المعتاد • ولكن أكبر تهديد طويل الأجل للبوسنة العثمانية كان يتشكل فى الشرق فى صربيا • حيث تفجر تمرد خطير فى ١٨٠٤ • والحق أنهما كانا تمردين صربيين : أولهما هو الذى قامت به جماعة من زعماء الانكشارية المحليين الذين وضعوا أيديهم على السلطة للحيلولة دون تنفيذ الإصلاحات التى صرحت باجرائها اسطنبول (وهى التى كانت تسمح للصربيين المسيحيين بتجنيد فرق الميليشيا الخاصة بهم ، وجمع ضرائب الخاصة ، وما الى ذلك) ، وكان التمرد الثانى ثورة ضخمة قام بها السكان

المسيحيون : وحدث في البداية أن السلطان انضلم إلى الرعايا ضد الانكشارية الثائرين فتعاقم التمرد الشعبي الأمر الذي جعله يقرر اخماده . وقضى الصرب تماما على جيش عثماني في ١٨٠٥ ، وكذلك أيضا ، هزم جيش مرسل من البوسنة في ١٨٠٦ هزيمة ساحقة . وكان من بين أعمال العنف التي ارتكبت ضد العثمانيين في الصرب المذابح المتسعة والسطو والسرقات ، والتعميد الاجباري للسلافيين المسلمين العاديين ، فضلا عن الأتراك أنفسهم ، وعندئذ شرع الباقون منهم في الفرار إلى الأراضي البوسنية (٢٨) . وحدثت بعض عصيانات من قوم ينتسبون إلى الكنيسة الصربية الأرثوذكسية في البوسنة ، كما حدث في الهرسك عصيان أشد خطورة (نشأ من أسباب محلية أكثر) ، وأخيرا وافق السلطان في ١٨١٥ على اعطاء الصرب - أو على الأقل أولئك المقيمين في سنجقية سميدروفو وهي فلذة من شمال وسط صربيا تضم فيها بلجراد - قدرا كبيرا من الاستقلال الذاتي ، يشمل قيام جمعيتهم الخاصة وأميرهم المنتخب الخاص . وبقيت الحاميات التركية هناك ، كما أن باشا تركيا واصل الإقامة في بلجراد . ولكن الأساس أصبح الآن قائما لتطور صربيا ، حتى تصبح في نهاية المطاف مملكة مستقلة - وهي مملكة لا بد في المستقبل أن تتصرف حيال البوسنة بوصفها اما منارة للحرية وطوق نجاة ، أو تصبح مركزا للمطامع الإقليمية التوسعية .

ولقد كان التمردان المتناحران اللذان كانا بداية حرك الصرب نحو الاستقلال يعبران عن نزعتين ظلتا واضحتين في الولايات البلقانية التابعة للامبراطورية العثمانية . فكان هناك عدم ارتياح شعبي ضد النظام بأكمله ، كما كانت هناك رغبة تساور الممثلين المحليين لذلك النظام في الدفاع عن امتيازاتهم ضد التدخل (بل وفوق كل شيء) ضد تدخل اسطنبول . وكانت سلطة أعيان المسلمين المحليين متركزة بالأكثر بأرض البوسنة ، وكان معنى ذلك أن مقاومتهم للحكم المركزي التي شاهدناها آنفا بضع مرات ، منذ منتصف القرن الثامن عشر ، راسخة الأساس . ويتطلب القضاء عليها عدة أجيال متتالية . ولقد نمت في البوسنة مؤسسات سياسية واجتماعية خاصة ، لو نظر إليها كمجموع ، لتحصل منها نظام للسلطة المحلية مؤثر بصورة غير عادية .

وكان أهم هذه المؤسسات القابطانية (Kapetanije) . ونذكر بداية أنه في أخريات القرن السادس عشر كان القابطان حاكما عسكريا اداريا بمنطقة التخوم : وكان عليه أن يجمع الجند ، ويفحص المسافرين الذين يعبرون الحدود ، ويحافظ على أمن الطرق من عصابات قطاع

الطرق ، فضلا عن أدائه واجبات مماثلة ومنوعة أخرى شرطية وإدارية . وكانت المنطقة التي يحكمها وتسمى « قابيطانية » يمكن أن تكون أكبر أو أصغر من « قاضيلوكية » (وهي الوحدة الإدارية الأساسية التي يرأسها قاض) ، ولكنها على كل حال أصغر من سنجقية (٢٩) . وفي أثناء القرن السابع عشر امتد هذا النظام إلى الأراضي الداخلية ، ووسعت أيضا مجالات سلطات القابيطانات ، وأخذت بعض العائلات العلية البارزة تعتبر القابيطانية من الوظائف المتوارثة . وعندما وافى عهد معاهدة كارلوفيتس (١٦٩٩) كانت هناك اثنتا عشرة قابيطانية في البوسنة ، وزاد العدد عند نهاية القرن الثامن عشر فأصبح تسعا وثلاثين ، وعندئذ كان ذلك النظام يغطي معظم الأراضي البوسنية . وعند منعطف القرنين السابع عشر والثامن عشر ، يوم شرعوا أيضا يتولون جمع الضرائب ، بلغ القباطنة قمة سلطاتهم (٣٠) . وكانت القابيطانية سمة اختصت بها البوسنة ، حيث كونت بنية « اجتماعية سياسية » أفردتها عن كل الأراضي البلقانية الأخرى . وعندما كان ذلك النظام يعمل بطريقة حسنة ، فانه كان يعد تحسنا عظيما «للم النظام العثماني الأصلي رحم الشعب من أولئك الظلمة النهائيين من البكوات السناجقة المعينين من الخارج ، الذين كانوا يقضون مدة ولايتهم القصيرة في البوسنة وكل همهم جمع الثروة وبلوغ الغنى - وأصبح له حكام محليون لهم مصلحة قوية في اضمحاء الرخاء الطويل الأمد على مناطقهم . وتقبلت اسطنبول بالرضا نمو سلطة « القابيطانية » ، لأنها كانت أكفأ من الناحية العسكرية ، كما كان القائمون عليها أوفياء في تسليم الضرائب . ولكنهم كانوا في الحين نفسه قادرين على وضع عقبة كتود في طريق سلطة حكام البوسنة ، الذين كان يعينهم السلطان .

ومن الناحية النظرية ، كان الوالى يمارس السلطة العليا للسلطان على البوسنة كلها . كان بوصفه حاكما على « إيالة » ، يحمل لقب بيك البكوات أو وزير ، وكان كما رأينا آنفا ، يملك أعلى الرتب الثلاث لكلمة باشا وهي المسماة « الباشا ذو ثلاثة الذبول » من البيرق المزين بثلاثة من ذبول الخيل الذي يتقدمه أثناء المعركة (٣١) . وكان دونه البكوات السناجقة (وعند نهاية حروب القرن السابع عشر ، كانت البوسنة تتكون من أربع سنجقيات : هي البوسنة والهريسك وتسفورنيك وكليس (Klis) وكلهم يعينون من قبل السلطان مباشرة . وكان هناك عند مستوى المنطقة ، بالإضافة إلى القابيطانات ، أربع أغالوكات (Agaluk) مستقلة أعنى مناطق سيادة مستقلة ، وكان في الامكان أيضا أن يحكم الأحياء « مؤسيلميين » (Musselims) وهم مدبرون يعينهم الوزير نفسه (٣٢) . ولكن الذي حدث في الواقع هو أن سلطة الوزير أخذت تتقلص أكثر

فاكثر ، منذ بواكير القرن الثامن عشر فصاعداً • وكان في استطاع وزير همام مثل حكيم أوغلو على باشا أن يستنفر البوسنيين للجندية ، حين يكون من مصلحة البوسنيين أن يستنفروا للقتال ، بيد أنه لا يكاد يستطيع السيطرة على الاقليم ، عندما ينقلب عليه ، ولم تكن هناك من وسيلة لذلك الا القوة الغاشمة ، ومع ذلك فان استخدامها لم يكن من المعتاد • وعند نهاية القرن ، يتفق معظم المراقبين على أن سلطان الوزير الحق ، لم يكن يمتد الا على المنطقة المحيطة بمدينة ترافنيك ، وهي محل اقامته ومجلسه (٣٣) •

وقد انتقل وزراء البوسنة الى خارج سراييفو بعد الحرب التي نشبت في تسعينيات الألف وستمئة ، ثم وجدوا أن عودتهم اليها تكاد تكون مستحيلة • فان نمو سراييفو وكذلك (الى حد أقل) موستار ، كان عاملا آخر حد من سلطان السلطة المركزية • لأنهما كانتا حريصتين أشد الحرص على استقلالهما السياسى ومنذ أقدم الأزمان ، منح محمد الثاني سراييفو في ستينيات الألف وأربعمئة امتيازاً Mufname ، يتضمن بعض اعفاءات ضرائبية ، مكافأة لها على صمود أبنائها أثناء الغزو الأصبلى للبوسنة • وقد أصبح ذلك الفرمان أساسا تطالب به - وخاصة من قبل زعماء النقابات القوية ، الذين اكتسبوا السلطة (المحتفظ بها للدولة بأماكن أخرى) لتعيين الرئيس الأعلى للمدينة (٣٤) • وبعد نهاية نظام الدوشرمة في القرن السابع عشر ، اضطلعت طبيعة قوات الانكشارية في سائر أرجاء الامبرطورية : حيث تحولت في البوسنة أثناء القرن الثامن عشر الى شيء يكاد يشبه النقابة أو الجمعية أو نحو ذلك ، أى الى شيء يهتم بالامتيازات الاجتماعية قدر ما يعنى بالواجبات العسكرية (أو أكثر) • وقد لاحظ معلق فرنسى في ١٨٠٧ « أن لقب « انكشارى » يحمله كثير من الرجال المسلمين فى المدينة » ، وقد أخبره الناس أنه من بين ثمانية وسبعين ألف انكشارى فى البوسنة ، لم يكن هناك الا ستة عشر ألفا يتلقون الرواتب ويؤدون الواجبات العسكرية الحقة ، وأما الباقون فانهم حرفيون يسمنعون باللقب فحسب (٣٥) • ولما كانت سراييفو تحتوى على الأقل على عشرين ألف انكشارى ، كان بعضهم رجالا عسكريين ، لم يكن فى امكان أى وزير أن يهمل امتيازاتهم أو يلقيها جانبا ، وكان بها موسليم يمثل الوزير ، رسميا وان كانت سلطته الحقيقية دون ذلك •

وكانت سراييفو هى البادئة بمقاومة السلطة المركزية : فقد لاحظ داون أخبار بوسنى أنه فى ١٧٧١ ، عندما فرضت ضريبة جديدة ، اندلعت أماكن أخرى لترى ما اذا كان السراييفيون سيقبلونها قبل أن تدفعها هى نفسها ؟ (٣٦) على أن موستار كانت لها هى الأخرى أهميتها •

وان لم تذكر السجلات المكتوبة أنها منحت أية امتيازات خاصة حيث كانت تحاول دائما أن تتخذ لنفسها وضعا. مماثلا ، فكانت تقاوم كل محاولات التحكم والسيطرة . واشتبكت في مصادمات كثيرة مع جند الوزير . وجردت على موستار حملات في ١٧٦٨ و ١٧٩٦ ، وفي ١٨١٤ تطلب الأمر جيشا من ثلاثين ألف رجل لاعادة حكم الوزير الى نصابه هناك : ووضع على رأس السلطة موسيليم . ولكن الناس سريعا ما نبذوه ، واختاروا رجلهم وعينوه في المنصب (٣٧) . وكان موظفو المدينة هؤلاء الذين قادوا المقاومة في موستار يحملون لقب آجان (Ejen) . ومنذ تلك اللحظة أصبحت تلك الوظيفة حصنا منيعا ضد السلطة المركزية . وعندما أدخلت هذه الوظيفة الى البوسنة لأول مرة أثناء حرب ١٦٨٣ - ١٦٩٩ ، كان الآجان موظف مدينة ، تنحصر مسئولياته في استتباب القانون والنظام ، ويختار من بين الفرسان (السباهي) وضباط الانكشارية وغيرهم من الشخصيات الكبيرة ، ومع أن ذلك اللقب تطور وأصبحت له دلالة وأهمية أوسع بمواطن أخرى من البلقان ، التي كان يطلق فيها بوجه عام على جميع الأنواع من المسلمين السادة الأعيان المحليين شبه المستقلين ، فإنه في البوسنة احتفظ بمعناه بوصفه منصبا اداريا بحتا . وفي كثير من أرجاء البوسنة الاقليمية ، كان لرتبة القاييطان أيضا نفس وظيفة الآجان وأعماله ، ولكن الدور الخاص للآجان كان يوجد في المدن الرئيسية التي كانوا ينتخبون فيها بالفعل ، أثناء الشطر الكبير من القرن الثامن عشر ، على يد ممثلين للمواطنين - المسيحيين والمسلمين أيضا . فأما الآجان أنفسهم فكانوا مسلمين بطبيعة الحال ، وفي كل من سراييفو وموستار كان لتنظيمات الانكشارية نفوذ قوى في تعيينهم . وفي سراييفو فإن مواطني المدينة العاديين كان يمكن أن يكونوا آجانا ، وأما في موستار ، فإن طبقة الأرستقراطية المحلية المالكة للضياع ، استولت على ذلك المنصب ، وانتهى بها الأمر الى تحويله الى النظام الاقطاعي ، جاعلين من الانتخاب مجرد « شكلية » بحتة . وعن طريق ممارسة هذه الوظيفة أو ذلك المنصب ، تمكن زعماء موستار ، بمعاونة أبناء الطبقة المحلبة من ملاك الأرض الآخرين ، من الاحتفاظ بمدنهم في حالة من المقاومة المستمرة للحكومة المركزية من سبسينيات الألف وسبعمئة حتى ثلاثينيات الألف وثمانمئة (٣٨) .

الفصل الثامن

الحياة الاقتصادية والثقافة والمجتمع

في البوسنة العثمانية ١٦٠٦ - ١٨١٥

كان هناك - كما يستبان من تاريخ القبايطانات والآجانات ، تغير اجتماعي ذو أهمية هائلة يمضى أشواطاً بعيدة أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد ولى بالتدريج ذلك النظام القديم للحياسة العسكرية الاقطاعية ، ونشأ في مكان طبقة التيمار ، نوع جديد من الأرستقراطية المحلية ممن يمتلكون مزارع ضخمة ملكية كاملة وراثية . وقد سبق أن لخصنا بعض أسباب هذا التغير : نمو طبقة الدوشرمة من موظفي الامبراطورية الذين كانوا يتنافسون في اسطنبول في القرن السابع عشر على المنح المكونة من المزارع الخاصة للاعسكرية . والتحول في الأهمية العسكرية من الفرسان (السباهي) الى جند المشاة مدفوعي الأجور ، وازدياد الحاجة بصورة متناهية لجمع الإيرادات المالية ، وهي حالة أفضت الى أن مناطق شاسعة من الأرض قد سلمت الى السادة المحليين مقابل جمع الضرائب وتسليمها نقداً . وحدث في البوسنة أن سيل فرسان السباهي والانكشارية والموظفين المتدفق من بلاد المجر وسلافونيا وكرواتيا ودالماتيا في ١٦٨٣ - ١٦٩٧ زاد الضغط على تحويل أراضي التيمار الى مزارع خاصة (ويطلق عليها ذلك المصطلح العام « تشفتليك أو جفالق » Ciftlik) ، حيث كان معظم هؤلاء الناس يبحثون عن الأمن الذي سوف يظلمهم به ملاك الأراضي فقد كان من الممكن اعتصار إيرادات أكبر من الجفالق ، حيث لم يكن الأهالي ينعمون بحقوق قانونية كبيرة .

وكانت بعض هذه المزارع التي تحولت بهذه الطريقة تعرف في البوسنة بالأغالوكات كما يعرف أصحابها باسم الأغاوات : وكان الفلاحون هنا يحتفظون ببعض حقوق الاستخدام ، ولكن أعباء الضرائب والعشور والسخرة زادت فداحتها . أما المزارع التي كانت تؤسس على ملكية أراض

غير محددة ، فكانت تعرف باسم البجليكات (Begliks) كما يسمى اصحابها باسم البكوات وهي الكلمة العامة الدالة على السادة والأعيان (١) . وكان الكثير من هذه ملكيات مترامية يديرها نظار زراعة ، وكانوا يشتركون أكبر مبلغ يستطيعونه من الفلاحين المستخدمين في تلك المزارع : وكان في مقدورهم أن يرتبوا تعاقداتهم مع الفلاحين كيفما شاءوا حيث لم ينظمها القانون العادى . وقد تغير معنى مصطلحي « الأغا » (الذى كان يشير فى الأصل الى ضباط الانكشارية) و « بك » ، فأصبحا يستخدمان للإشارة الى أفراد من طبقة النبلاء الدنيا والعليا مالكة الأرض ، وفى نفس الحين أصبح الفلاحون المسلمون ، الذين كان يبيع لهم القانون على الدوام امتلاك قطع صغيرة خاصة بهم ، يتحولون بازدياد نحو ذلك النوع من الزراعة ، حينما أخذت أحوال العمل فى المزارع الكبرى فى الانهيار . وبهذه الطريقة حدثت عملية طويلة من الاستقطاب الاجتماعى والدينى : من القرن الخامس عشر ، يزم كان مالكو المزارع من المسيحيين أو المسلمين ، وكذلك فلاحهم الذين يعملون فى مزارعهم حتى القرن التاسع عشر عندما كان جميع كبار ملاك الأراضى من المسلمين والغالبية العظمى للفلاحين غير المالكين للأراضى من المسيحيين (٢) . وكان هؤلاء الفلاحون لا يزالون يسمون بـ « الأقتان » ، ولكن لو شئنا الدقة فى التعبير فإن أولئك الذين كانوا لا يزالون يعملون فى أبعديات البكوات ، لم يكن لهم الوضع القانونى للأقتان . اذ أنهم كانوا مجرد فلاحين مغلوبين على أمرهم فى نظام لا يمنحهم الا أقل القليل جدا من القدرة على المساومة .

وأخذت الأحوال المعيشية للأقتان تتردى يوما بعد يوم ، الأمر الذى دفع عددا متزايدا على الدوام منهم الى هجر الأرض بحثا عن العمل فى المدن الكبيرة (٣) . وفى القرن السادس عشر كان من المألوف تماما لفلاحى البلقان العثمانية الاحتفاظ بفائض المحصول بعد الضرائب ، وكانوا عندئذ يستطيعون أخذه الى السوق لبيعه (٤) . على أن هذا الحق سرعان ما أصبح مستحيلا فى الأبعديات الخاصة (الجفالق) ، حيث هبط الفلاحون الى درك لا يكاد يزيد كثيرا عن عيش الكفاف . اذ حدث ذات يوم أن الكاتب الفرنسى فوركاد (Fourcade) اضطر وهو فى طريقه الى تسلم عمله كقنصل لفرنسا فى سالونيك فى ١٨١٢ ، أن يقضى ليلة فى أحد بيوت أقتان الأرض فى كوجاراك (Codjarac) : وكانت مساحته عشرين قدما فى اثني عشر ، ويقوم فى وسطه موقد نار ، ولكن لم تكن له مدخنة ولا نوافذ (وانما مجرد فتحات فى الحوائط وثقب فى السقف) ، وكانت الأرضية من الطين ، كما كان الأثاث الوحيد هو الصناديق ، وكانوا ينامون وأقدامهم فى مواجهة

النار ملتفتين بجلود الأغنام على أكروام من القش وكانت الحشرات تنهش أجسامهم (٥) .

بلا شك أن هذا التقرير يقدم صورة قميئة للحياة في المناطق الريفية . سن البوسنة . ومع ذلك فإن من أهم اكتشافات المؤرخين الجدد للبلقان أن عدد السكان كان يزداد بقوة أثناء القرن الثامن عشر - وبخاصة في البوسنة . على أنه كان هناك على وجه الإجمال انخفاض عام في العدد أثناء القرن السابع عشر لأسباب غير واضحة تماما : ولعل من الأسباب الممكنة انتشار مرض التيفوس (٦) . والواقع أن عدد المسلمين النازحين إلى الداخل كان يعادل فيض الكاثوليك النازح إلى الخارج أثناء القرن السابع عشر بأكمله . وتقدر المصادر الكاثوليكية عدد الذين غادروا البلاد بأكثر من خمسين ألفا أثناء حرب ١٦٨٣ - ١٦٩٩ ، كما أن مجموع النازحين إلى الخارج على وجه الإجمال أثناء الحرب مع البندقية في ١٦٤٥ - ١٦٦٩ ، بلغ على الأرجح عشرات الآلاف أيضا (٧) . ومع ذلك فإن السكان المسلمين هم الذين حملوا معظم عبء النشاط العسكري - ولم يكن ذلك فقط دفاعا عن البوسنة بل كان أيضا مشاركة في حروب العثمانيين التي لا تكاد تنقطع في أركان أخرى من امبراطوريتهم . ولا أدل على أهمية القوات البوسنية في الجيش العثماني من قائمة تحوى أسماء ١٥٥٣ من الفرسان (السباهي) البوسنيين الذين خدموا في الحملة على الروسيا في ١٧١١ : حيث كان كل واحد من هؤلاء الفرسان مكلفا بأن يحضر معه مجموعة من رجاله المقاتلين (٨) . ولا شك في أن آلافا عدة من البوسنيين المسلمين هلكوا في هذه الحملات القاصية الشقة ، فمن بين خمسة آلاف ومئتي رجل أرسلوا للقتال في بلاد فارس في الحرب من ١٧٢٣ - ١٧٢٧ مثلا لم يعد إلى أرض وطنهم الا خمسمئة رجل (٩) . وهناك أسباب أخرى للوفيات ، تتضمن الطاعون الذي استمر كما رأينا يعيث فسادا في البوسنة في بواكير القرن الثامن عشر . وليس من الصعب أن نفهم السر في بقاء نمو عدد السكان المسلمين بعد عملية النزوح التي جرت في تسعينيات الألف وستمئة .

وأما أشد زيادة فكانت في عدد السكان المسيحيين ، حيث تشير مجموعة من سجلات الضرائب في المحفوظات العثمانية إلى أن عدد السكان نما بأكثر من ٢٠٠ في المئة أثناء القرن الثامن عشر . غير أن هذا الرقم ينبغي أن يعامل بحذر شديد . على أن اتجاه خط السير نحو النمو واضح ، فإذا ضربنا عدد الذكور البالغين في ثلاثة فإن المجاميع الكلية لأقرب ألف لعدد السكان المسيحيين وفق العوائد الضريبية يبلغ ١١٨٠٠٠ في ١٧١٨ ،

١٩٠٠٠ في ١٧٤٠ ، و ٢٩٥٠٠٠ في ١٧٨٨ ، و ٣١٢٠٠٠ في ١٨١٥ .
 (ومع ذلك فهذه أرقام لا يمكن اجراء مقارنة صحيحة بينها فالمناطق
 الادارية التي تغطيها مختلفة) (١٠) . والأرقام المقدرة على أساس آخر
 مخالف عن البوسنة والهرسك بكامل أرجائهما تشير الى أن عدد السكان
 المسيحيين زاد من ١٤٣ ألف نسمة في ١٧٣٢ الى ٤٠٠ ألف في ١٨١٧ (١١) .
 وليس بين أيدينا سجل يدل على قيام هجرة عظيمة قام بها الفلاحون
 المسيحيون الى البوسنة ، وان نزح اليها بين الحين والآخر قوم من الضرب
 أو مقدونيا واستقروا فيها (١٢) . وعلى الرغم من الاضطرابات المتكررة في
 أرض الهرسك أثناء القرن الثامن عشر ، فان الايالة البوسنية كانت على
 وجه الاجمال أحسن ادارة وحكما من المناطق المجاورة مثل صربيا وأقل
 نعرضا لهجمات العصابات المغيرة ، ومن المحتمل أنها كانت تجذب تيارا
 مستمرا من سكان الأراضي الصربية طوال القرن كله . غير أن السبب
 الأكبر في زيادة السكان لابد أنه كان النمو الطبيعي . وهذا يشير الى
 قيام اقتصاد فعال فحني وان عاش معظم المسيحيين بالاقاليم الريفية في
 فقر ، فانهم لم يكونوا يعيشون معيشة الكفاف .

ومن ناحية أخرى فان قلة صغيرة من السكان المسيحيين تمتعت
 بعيش رغيد في المدن الكبيرة بالبوسنة ، حيث نمت طبقة من التجار
 المسيحيين (واليهود أيضا) . وكان الكاثوليك ، بما لهم من علاقات
 راجوزية قديمة ، يسيطرون على التجارة البوسنية حتى نهاية القرن
 السابع عشر ، ولكن بعد ذلك أصبح الصربيون والأفلاق ، واليونانيون
 والأرمنيون يلعبون دورا أعظم . وكان بعض الصنائع المهرة أيضا من أتباع
 الكنيسة الأرثوذكسية الصربية ، وبخاصة صياغ الذهب (١٣) . وكان
 المسلمون من سكان المدينة يمتنون الحرف اليدوية ، ولكنهم ما عتموا منذ
 منتصف القرن الثامن عشر أن شرعوا هم أيضا يشتغلون بالتجارة (١٤) .
 وكانت سراييفو المزدهرة في القرن السابع عشر احدى عجائب البلقان ،
 كما أنها كانت أهم المدن الداخلية على الاطلاق في غربي سالونيك ولا تدايبها
 من قريب أية مدينة أخرى . فقد لاحظ زائر في ١٦٢٨ أن مخزون بعض
 التجار كان يساوي مئتي ألف أو ثلاثمئة ألف دوقية (١٥) . وهناك وصف
 لا يبرح ينمو لسراييفو تحتويه يوميات الرحالة التركي الذي لا يكل
 ابغليا تشيليبى (Evlîja Celebi)، الذي زار المدينة في ١٦٦٠ ، فقد لاحظ
 أنها : كانت تحتوي على سبعة عشر ألف منزل (ويعنى ذلك أنها كانت
 تضم عدد سكان يزيد على ثمانين ألفا) ، وبها مئة وأربعة من المساجد ،
 وسوق تحتوي على ألف وثمانين دكانا تباع سلعا واردة من الهند وبلاد العرب
 وفارس وبولندة وبوهيميا . وقد انبهر أيضا بالسكان أنفسهم : « لما كان

المناخ هنا جميلا ، فان وجوه الناس وردية • وهناك مراعى جبلية تقوم على جميع جهات المدينة الأربع ، ومياه جارية كثيرة • من أجل ذلك فان السكان أقوياء وأصحاء • بل ان هناك أكثر من ألف معمر يزيد عمره على سبعين عاما » (١٦) • وهناك رحالة فرنسي مر بها قبل ذلك بسنتين كان متحمسا بنفس الدرجة ، وقد لاحظ أن : « هناك شوارع جميلة جدا وقناطر بديعة مصنوعة من الحجر والخشب ، وهدنة وتسع وستون نافورة جميلة ، والمدينة مليئة بالحدائق : ومعظم البيوت لها حدائقها الخاصة ، وكلها مملوءة بأشجار الفاكهة وبوجه خاص أشجار التفاح » • وأعجب إعجابا شديدا بالسوق « بما حوت من عدد لا حد له من الناس وجميع أنواع السلع » ، كما أخذ أيضا بتلك السوق الأسبوعية الكبيرة للخيل ، وهي سمة نختص بها البوسنة (١٧) •

واحتاجت سراييفو الى وقت طويل لتسترد غافيتها بعد تخريبها ونهبها في ١٦٩٧ ، كما أنها تعرضت للحريق أيضا في ١٧٢٤ و ١٧٨٨ (١٨) • وكان المعتقد أن تعداد سكانها في ١٨٠٧ بلغ ستين ألفا : وهو أقل من الرقم الذي اقترحه تشيليبى في ١٦٦٠ ولكنه مع ذلك تعداد كبير لو قارنا بتعداد بلجراد في ١٨٣٠ وهو ١٢٩٦٠ نسمة أو زغرب في ١٨٥١ وهو ١٤٠٠٠ نسمة (١٩) • وشهدت بلاد البلقان نهضة قوية في تجارتها بعد معاهدة باساروفيتش ، وهي التي فتحت طريق التجارة مع الامبراطورية النمساوية وعادت بالفعل بمزية تجارية على العثمانيين (٢٠) • فسرعان ما جاء تجار من سراييفو وأخذوا يعملون في الأسواق التجارية العظيمة في لايمزيچ وفيينا ، وكانت أهم صادرات البوسنة وأعظمها شأنًا هي المنتجات الزراعية (الجلود غير المدبوغة والفراء والفواكه ، وبخاصة البرقوق المجفف : القراصيا) ، كما أن أهم الواردات كانت المنسوجات (٢١) • أما مناجم البوسنة الثرية فقد أصبحت آنئذ مهمة (فيما عدا بعض عمليات استخراج الحديد الخام قرب Varesish) ، كما أن البلاد لم يكن بها نشاط صناعي كبير عدا ما يقوم به أرباب الحرف بالمدن ممن يشتغلون في دبغ الجلود وسبك المعادن وما الى ذلك (٢٢) • ولقد فاتهم في الامبراطورية العثمانية إقامة مشروعات إنتاجية ضخمة ، وكان اخفاقهم دالك موضع تعليق معقب حكيم من القرن الثامن عشر ، هو مرادجيـا دوهـسـهـر (Mouradgea d'Ohszon) الذي اعتنق الاسلام حيث أنحى بلائمه على انعدام الضمانات القانونية : « ان أحدا لا يجرؤ أن يجعل ثروته عرضة للاعين مخافة استتلافات نظر الحكومة » (٢٣) •

وكان الفساد الذى شاع فى النظام العثمانى المتأخر موضع الملاحظة من كثير من الناس : « كان هم سياسة كل وزير تركى هى مصلحته فى المقام الأول » ، ذلك ما كتبه الدبلوماسى الانجليزى سير جيمس بورتير فى ١٧٦٨ (٢٤) . على أنه لاحظ أيضا أن ذلك كان ثمرة الخطأ فى النظام الإدارى السياسى وليس مسألة انحلال خلقى عام . وحتى فى هذه الفترة من الركود الآسن ، فإن أولئك الذين وصفوا الحياة فى أوروبا العثمانية كما شاهدوها بعيونهم - على عكس هؤلاء الذين كانوا يشنعون عليها عن بعد - أعجبوا ببعض سماتها الخلقية والاجتماعية . وروى لنا بورتير بعض تعليقات أفندى (سيد مذهب) عثمانى « كان فى الأصل من أبناء البوسنة كما أنه عاش طويلا بأرض وطنه » وقد أخبره أنهم « لا يكادون يعمرون فى أية قرية تركية (مسلمة) أى مكر وتحايل أو غش أو خداع أو لصوصية فيما بينهم » . وعلاوة على ذلك لاحظ بورتير قلة السرقات فى اسطنبول : « يمكنك أن تعيش هناك فى أمن تام وتظل أبوابك مفتوحة على الدوام تقريبا » (٢٥) . وربما ظن البعض أن السبب فى هذا السلوك الذى لاثيريب عليه ، هو أن الناس كانوا يعيشون فى حالة خوف من تطبيق الحدود الصارمة للشريعة الاسلامية ، بيد أن هناك بينات كثيرة تشهد بأنه وإن كان مستوى التقوى العام قد ظل عاليا فى نفسية السكان المسلمين ، فإن قوانين الشريعة لم تكن منفذة بصرامة وهناك دراسة تاريخية لمواقف الناس من شرب الخمر فى البوسنة ، أظهرت أن وجهات النظر أصبحت أقل تشددا أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : فلم يعد الناس عرضة للابلاغ عنهم من جيرانهم لتناولهم الشراب كما كانوا فى القرن السادس عشر .

وقد راح محدث بورتير ومبلغه يلقي تبعة الفساد الأخلاقى على الطائفة الأرثوذكسية . على أنه ليست هناك أية بينة حقيقية (عدا تلك التعليقات العارضة) ، يمكن أن تساند فكرة أن السكان الأرثوذكس كانوا أكثر فسادا من المجموعات الدينية الأخرى . على أنه كانت هناك عدة تقارير عن الفساد بين كهنتو الكنيسة الأرثوذكسية ، حيث هيمنت عليها عائلات « الفاناريوت » الناطقة باليونانية فى اسطنبول وقد تردت فى بعض الممارسات السيئة . وبعد أن حصلت هذه العائلات على أعلى المناصب الكنسية بأموالها عادت فباعته بعد ذلك المناصب الدنيا لتعوض ما دفعت . وحصل مطران البوسنة على مقر رسمى بسرانيفو فى ١٦٩٩ ، وما وافته نهاية القرن الثامن عشر حتى كان معه أربعة أساقفة تحت رياسته سرانيفو وموستار وزفورنيك ونوفى بازار (وهى الآن داخلية فى نطاق صربيا الحديثة) (٢٧) . ولكن الوثائق لاتسجل الا النزر اليسير من

الأنشطة الرعوية الدينية أو الذهنية الفكرية لهؤلاء الأساقفة في البوسنة أثناء تلك المدة . ثم أعيد بناء « الكنيسة الأرثوذكسية القديمة » (من القرن السادس عشر) لسراييفو ، كما أصلحت في أوقات مختلفة ، كما سبقت مدرسة ابتدائية أرثوذكسية بالمدينة في ١٧٢٦ (٢٨) . وكان المستوى العام لنشاط رجال الدين الأرثوذكسي العاديين منخفضا جدا ، فانهم تلقوا تعليما سيئا جدا أو هزيلا ، كما كانوا يعتمدون بوجه رئيسي على المطابع في روسيا ورومانيا للحصول على حاجتهم القليلة من الكتب المقدسة والأناجيل وكتب الصلوات (٢٩) . وفي أثناء القرن الثامن عشر . وهى الفترة التى كان عدد السكان الأرثوذكس فى أثنائها ينمو بسرعة عظيمة ، دمرت الحرائق أو الحرب بعض الأديرة الأرثوذكسية ، كما أن بعضها الآخر توقف استخدامه . فعند نهاية القرن كان هناك اثنا عشر ديورا فى الهرسك ، ولكن عددها كان اثنين فحسب فى البوسنة الحقة أحدهما فى ديرفنتا (Derventa) والآخر فى بانيا لوكا (٣٠) . فأما الكنيسة الكاثوليكية التى ظل الفرنسيون سكانا مثلها الوحيد ، فلم يكن لها أى مجال فى بيع الوظائف . وكان الرهبان قد مارسوا مدة طويلة عادة طلب الصدقات أو المكوس من رعاياهم ، وهى عادة كان يدافع عنها رجال الكنيسة الزائرون على أساس أنه ليس لهم مصدر آخر للرزق (٣١) . على أن هذه الممارسة كانت عرضة لسوء الاستغلال كما يستدل على ذلك من تقرير لاذع وارد من أولوفو فى ١٦٩٥ ، وقد كتب حارس الدير بأن ديره أن لم يتلق المال من روما فلا بد له من أن يلقى أبوابه : إذ أنه لم يتلق أية صدقات من الأبروشيات منذ سبع سنوات ، لأن الشخص الذى كان مكلفا بجمعها ، وهو الأب ستانيتش (Stanic) قد اختلسها (٣٢) . بيد أن معاناة الكنيسة الكاثوليكية فى البوسنة من الفاقة تتضح من تقارير كثيرة . فقد لاحظ الأسقف مارافيتش فى ١٦٥٥ ، أنه « قل من الأبروشيات ما له كنائس يمكن أن تقام فيها القداسات وأن تقام فيها العبادات المقدسة ، وفى العادة كان القداس يقام فى الجبانات وفى البيوت الخاصة للكاثوليك » (٣٣) . ويضطر الفرنسيون سكان لأداء العبادات المقدسة إلى أن يركبوا خيولهم إلى القرى النائية ويقضوا الليل ، فلا يعرفهم أحد من ثيابهم غير الدينية ولا يميزهم من الفلاحين ، ولذا كانوا يخاطبون بكلمة « العم (Ujak) ، وهى عادة عاشت إلى يومنا هذا . وقد صدم القنصل الرسمى الفرنسى شوميت دى فوسيه (Chaumette-des-Fosses) فى ١٨٠٨ ، لما شاهده من جهل الرهبان الفرنسيين وشيوع الخرافات بينهم ، فضلا عن تدخلهم فى حياة الناس (٣٤) .

ومع ذلك ، فانه وبفضل صلتهم شديدة الالتصاف بالعالم الفكرى
 لكنيسة الكاثوليكية الأفسح رحابا ، فان هؤلاء الرهبان البوسنيين فد
 القوا أعمتلا منشورة كان أكثرها كتيبات دينية ، ولكن منها عملا أو اثنين
 تتجلى فيهما روح من الأصالة أحدهما قصيدة ترجع الى بواكير القرن
 الثامن عشر ، ندد مؤلفها بشراسة بما تحتويه الأغاني الشعبية من بذاءة
 بوقدر (٣٥) . وكان أهم كاتب منهم هو فيليب لاستريتس (Filip Lasetric)
 (١٧٠٠ - ١٧٨٣) ، الذى أصبح رئيسا للفرنسييسكان البوسنيين ، ودافع
 عن حقوق اقليمهم « البوسنة الفضية » ، برسالة يفند فيها اقتراحا قدم فى
 روما بتخفيض مركزها . وكانت الرسالة التى سطرها من أجل ذلك
 الغرض (Epitome vetustatum bosnensis provinciae) « خلاصة
 رسالة عن المركز القانونى لاقليم البوسنة » فى ١٧٦٥ ، أول كتاب مطبوع
 عن البوسنة كتبه بوسنى من أبناء البلاد (٣٦) .

ولم يكن الفرنسييسكان البوسنيون بحاجة فحسب الى الدفاع عن
 أنفسهم ازاء تهديدات روما وحدها . اذ دامت طوال تلك الفترة المنافسات
 بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، حيث تقول رسائل من
 البوسنة الى البايا فى ١٦٦١ ان البطريرك الأرثوذكسى يحاول أن يجبر
 جميع الكاثوليك هناك على ممارسة شعائر الأرثوذكس ، وأنه قد حصل
 على مرسوم من وزير البوسنة يكفل له قمع الكاثوليك . وكان من
 الكاثوليك البوسنيين عندئذ أن ينفقوا مبلغا طائلا من المال فى
 التقاضى « (٣٧) . لكن الفرنسييسكان احتفظوا بالعهدنامة (Ahdname)
 أى منحة الامتيازات التى حصلوا عليها من محمد الثانى ، والتى جددوها
 (بفضل التدخل الدبلوماسى من المبعوثين النمساويين والفرنسيين
 والراجوزيين بل حتى الانجليز فى اسطنبول) كل سلطان تولى الحكم
 طوال تلك الفترة . كما أن هناك فرمانات أخرى ترجع الى القرنين
 السادس عشر والسابع عشر ، وكلها تضمن بالفعل اعفاءات للفرنسييسكان
 من ضرائب متنوعة ، والحماية من كل محاولات الاستيلاء التى كانت تقوم
 بها الكنيسة الأرثوذكسية .

وعند بداية القرن التاسع عشر ، كان بعض المراقبين يلاحظون أن
 السياسة العثمانية فى البوسنة ، كانت أكثر ايشارا للكاثوليك منها
 للأرثوذكس (٣٨) . ويحتمل أن يكون هذا انعكاسا للتطابق المتزايد بين
 الأرثوذكس وبين حركة المقاومة للحكم العثمانى بصربيا ، كما أن كاثوليك
 البوسنة كان يمكن الاعتماد عليهم والثقة فيهم بأنهم لن ينواطئوا مع القوه
 الجديدة المجاورة : وهى الامبراطورية النابوليونية ، وذلك لأن قساوسنها
 كانوا يرون فيها عنصرا الحاديا بالغ الخطورة (٣٩) . وكانت المنافسة بين

رجال الدين الأرثوذكس والكاثوليك في البوسنة موضع الملاحظة والتعليق من جانب كثير من الزوار لتلك المنطقة : فان شوميت دي فوسيه الذي قضى سبعة أشهر بالبوسنة ، لاحظ أن العداوة بين هاتين الطائفتين الدينتين كان « يضرهما على الدوام رجال الكليروس الكنيستين كليهما ، الذين كانوا يتبادلون النشيعات » (٤٠) ولولا تحريضات هاتين الفئتين المتنافستين ذوى المصالح الخاصة ، لما وجد الفلاحون الكاثوليك والأرثوذكس تلك الأسباب الكثيرة لاشعال نار العداوة بينهما ، ذلك بأنهم قوم يتكلمون اللغة نفسها ، ويرتدون الملابس عينها ، ويذهبون أحيانا الى نفس الكنائس ، ويتقاسمون معا بالضبط عين الأحوال المعيشية فى الحياة .

ولو اكتفينا بالروايات المعتمدة عن البلقان العثمانية لسهل علينا الخروج بانطباعة بسيطة ، وهى أن هذه القرون الطويلة التى انصرمت ، إنما كانت أقفرت من النشاط الثقافى فيما خلا بعض الأشكال البدائية الباذخة . تلك هى الصورة التى ترسم لنا من كثير من الأعمال التاريخية للمؤرخين اليوغوسلاف ، وقدمها إلينا بصورة كاريكاتورية أو تكاد الروائى إيفو أندريتش (Ivo Andrić) فى رسالته عن الثقافة العثمانية البوسنية ، التى تطفح بالمرارة حيث قال : « كان أثر الحكم التركى سلبيا بصورة مطلقة . ان الترك عجزوا عن جلب أى مضمون ثقافى أو احساس برسالة سامية ، حتى لأولئك السلاف الجنوبيين الذين قبلوا الاسلام واتخذوه دينا » (٤١) . وعندى أن هذه الملحوظات إنما هى تعبير عن التحيز الأعمى - وهى عماية متعمدة تجاهلت المنشآت الأثرية الضخمة للعمارة العثمانية فى البوسنة ، كما أنها أغفلت بسبب مفهوم المجال الواسع للأعمال الأدبية التى كتبها المسلمون البوسنيون فى ظل الحكم العثمانى ، والكثير منها كان مجهولا تماما فى المدة التى كتب فيها أندريتش مؤلفاته فى ١٩٢٤ . ولا يزال من العسير علينا تماما اصدار أى حكم صائب على هذه الكتابات البوسنية التى لا نعرفها الا حفنة قليلة من العلماء المتخصصين فى العالم : فان الذى ترجم منها قلة لا تذكر ، كما أن الكثير منها لا يزال موجودا ولكن فى صورته المخطوطة الأولى (لو فرضنا ، بعد ذلك التدمير الهائل والمعبد للتراث الثقافى البوسنى الاسلامى فى ١٩٩٢ - ١٩٩٣ ، أنها لاتزال موجودة) . وقبل قذف سرايفو بالمدافع فى ١٩٩٢ كانت هناك سبعة آلاف وخمسة مخطوطة بدار غازى خسرو بك ، وخمسة آلاف فى معهد الدراسات الشرقية ، وألف وسبعمئة واثنان وستون نسخة فى دار المحفوظات التاريخية ، وأربعمئة وثمان وسبعون فى دار الكتب القومية (٤٢) . ومن هذه الأرقام وحدها يستطيع المرء أن يستنتج أن إليه سنة العثمانية لم تكن صحراء ثقافية ، كما أن هناك عددا ضخما من

الأعمال النى سطرها الكتاب البوسنيون باللغات التركية والعربية
والفارسية ، لاتزال موجودة فى مجموعات جيدة بكل من اسطنبول وفيينا
والقاهرة وغيرها من البلاد .

وهناك نوع من الكتابة حاز التفاتا خاصا هو ذلك المسمى بالأدب
« الألياميدو » (Aljamiado) ، وهى أعمال كتبت باللغة الصربوكرواتية
ولكن بالحروف العربية . (وهذا الاسم هو لفظ اقتبسه العلماء المعاصرون
من مواد غير عربية ماثلة كتبت بالحروف العربية فى أسبانيا الإسلامية) .
وفى أثناء القرنين الأولين من الحكم التركى ، ظل الخط « البوسانتشيكي »
(Bosancica) وهو البديل البوسنى للسيريلىكى (Cyrillic) مستخدما
عند بكوات البوسنة ، أما الخط الرومانى فقد شاع استعماله بين الرهبان
الكاثوليك ، كما أن الأعمال المطبوعة بالسيريلىكى كان يتلوها أيضا رجال
الدين الأرثوذكس إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولكن التحول
للكتابة بالخط العربى كان من الطبيعى أن يتم بين المسلمين : فانه الخط
الذى كانت تكتب به العربية والتركية والفارسية جميعا ، كما كانت تعلم
بجميع المكاتب (الكتاتيب) الإسلامية أى المدارس الأولية فى كل أرجاء
البلاد (٤٣) . وينكون الأدب الألياميدو فى معظم شأنه من سعر مختلف
الأنواع مكتوب وفق الأوزان الشعرية العربية الكلاسيكية : منها
الشعر الدينى والقصائد ذات الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية ،
وكذلك أيضا بعض القصائد الغزلية التشبيبية ، فأما الشعراء
فكان منهم شيوخ الدراويس والجنود والنساء (٤٤) . وهناك كاتب من كتاب
الألياميدادو هو محمد خفاجى أسقفى (الذى توفى فى ١٦٥١)
(Mehmed Havaji Uskufi) ، كتب أيضا بالشعر المنظوم قاموسا
صربوكرواتيا تركيا ، وهو ثانى أقدم معجم فى أية لغة سلافية جنوبية .
وبالإضافة الى إنتاج هذه الكتابات ، لعب المسلمون دورا كبيرا فى خلق
ونقل التراث الثرى للشعر الشعبى فى البوسنة ونقله إلينا : ومنها قطع
البلاد وأشعار الرثاء (مثل قصيدة زيجة حسن أغا الشهيرة التى سلف
ذكرها) ، ثم القصائد الملحمية ، وذلك النوع الخاص من أغاني الغزل الذى
تشيع شعبيته عند كل من المسلمين والمسيحيين والمعروف باسم
« سيفدالينكه » (Sevdalinke) (٤٥) .

وليس من المدهش واللغة الصربوكرواتية تقوم بعمل اللغة الثالثة
فى الامبراطورية العثمانية أن يكتب بها بعض الأدب العثمانى . فان
كاتبيا بوسنيا من القرن الثامن عشر هو مدون الحوليات التاريخية ملة

مصطفى شوقي باشيسكيا . Mula Mustafa Ševki Baseskija (الذي
أضاف مجموعة من الأغاني الصربوكرواتية الى مدوناته التاريخية) ، صرح
بأنها لغة أشد ثراء بكثير من العربية لأنها تحتوى على خمسة وأربعين
لفظا لكلمة « يذهب » (٤٦) . فقد أضفى المؤرخون العصريون أهمية ودلالة
كبيرة على اطلاق الكتاب فى تلك المدة على لغتهم اسم « البوسنية » ، وإن كان
كل ما عنوه من ذلك ببساطة هو اللغة التى يتكلم بها الناس بالبوسنة ،
ولم يكونوا يقصدون أبدا أن يسيروا الى أنها كانت منفصلة تماما عن اللغة
المنطوقة فى أى مكان آخر . وبالطبع فإنه كانت هناك اختلافات فى اللهجات
الصربوكرواتية بين المناطق المختلفة ، وهكذا نرى أن أحد الفرنسيين
فى القرن الثامن عشر يقول ان اللغة البوسنية مختلفة عن الكرواتية
الداماشية والراجوزية (٤٧) . على أنه بين جميع ضروب الصربوكرواتية
المنوعة ، ظلت البوسنية طويلا تعد أحسنها جميعا . ففي ١٦٠١ كتب
مأورو أوربيني يقول : « لو نظرنا الى جميع الشعوب الناطقة بالسلافية ،
لوجدنا أن البوسنيين لديهم أكثر اللغات نعمة ورشاقة ، وأنهم يشعرون
بالفخر من أنهم هم وحدهم الذين يحتفظون فى أيامنا هذه بنقاء اللسان
السلافي » (٤٨) . وكان فوك كارادجيتش (Vuk Karadžić) ، الكاتب
وجامع الأغاني الشعبية والمصلح اللغوى الصربى الكبير فى القرن
التاسع عشر ، يعد لهجة وسط الهرسك ممثلة للغة الشعبية فى أحسن
أشكالها وألقاها (٤٩) .

ومع هذا ، فإن معظم الأعمال الأدبية لمسلمى البوسنة كتبت بالتركية
أو العربية أو الفارسية . وأسباب ذلك واضحة تماما : فإن بعضهم كان
يكتب فى أشكال تكون فيها اللغة جزءا لا سبيل الى فصله من الضرب
الأدبى ، مثل ذلك الشعر الفارسى التقليدى المتفنن الديباجة والرائع
الأسلوب ، وبعضهم كان يعالج موضوعات مثل الفلسفة التى كان لها فى
العربية قاموس فنى كامل وقائم بين الأيدى ولكنه يعوز الصربوكرواتية ،
وبطبيعة الحال كان الكثير منهم يكتبون لقراء يعيشون خارج الأراضى
السلافية . فاما الكتابات النثرية فتغلب عليها الأعمال الدائرة حول علم
الكلام والفلسفة والتاريخ والقانون ، ولكن المجال ، كان كما هو واضح ،
شديدا الاتساع ، ولا يستطيع الا ذكر قلة منهم فقط . وكان من الكتاب
الكبار أحمد سعدى البوسناوى Ahmed Sudi al Bosnawi (توفى ١٥٩٨) ،
وقد كتب تعليقات على شعراء الفرس الكلاسيكيين ،

وحسن أفندى بروشتشاك Hasan efendi Pruscak (توفى ١٦١٦) ،
وقد كتب رسالة شهيرة حول الحكم والحكومة أسماها « مرآة الأمراء » ،
وكتبنا فى المنطق وعلم البيان والقانون ، كما أنه جمع سجلا بأسماء

المؤلفين البوسنيين المتبحرين في العلم ، وعبدى البوسناوى Abdial Bosnawi (توفى ١٦٤٤) ، وهو الذي ألف رسائل صوفية ممتازة بالأسلوب الصوفى التقليدى ، ومنهم إبراهيم علي بيچوفيتش Ibrahim Alajbegovic ، المعروف باسم بيتشيفى Pecevi ، (توفى ١٦٥١) ،

وهو الذى صنف بالتركية تاريخا للفترة بين ١٥٢٠ و ١٦٤٠ ، واستقى معلوماته من المصادر الأوربية المطبوعة . وأحمد المستارى رشدى Ahmed al-Mostari Rushdi (توفى ١٦٩٩) ، وهو واحد من شعراء عديدين من مستار الذين كانوا يكتبون الشعر التركى على أساس النماذج الفارسية ، ومصطفى المستارى اجوبوفيتش Mustafa al-Mostari Ejubović ، المعروف باسم الشيخ يويو Shejh Juyc (توفى ١٧٠٧) ، وقد كتب ما يقارب الثلاثين رسالة فى المنطق والنحو والتشريعة الاسلامية ، ومصطفى الاكوهيسارى Mustafe al Aquhisari (توفى ١٧٥٥) ، الذى كتب عدة أعمال أخلاقية ودينية ، كما كتب رسالة اطراء فى البن (القهوة) ، ومصطفى شوقى باشيسكيا وهو الذى سبق ذكر مدونته الاخبارية حول سراييفو القرن الثامن عشر بلغة تركية دارجة .

وبعض هؤلاء الكتاب كانوا يعملون أيضا بالتعليم أو الادارة خارج البوسنة . بيد أنه كان هناك عدد كبير من رجال العلم ، يعملون فى حكومة البوسنة نفسها . فان الشيخ يويو كان هو مفتى مستار ، كما أن أحد ولاة البوسنة ، وهو درويش باشا البوسناوى (توفى ١٦٠٣) كان شاعرا مطبوعا ، قام بترجمة الشعر الفارسى الى التركية (٥٠) . ولا شك فى أن البوسنة كان لها أيضا نصيبها الوافر من رجال الادارة أو الولاة الجهلة راجلاف والغلاظ الأكباد أيضا . وهنا يتبين أن القول بأن البوسنة كانت صحراء ثقافية أثناء الحكم العثمانى ، إنما هو قول سخف وهراء . وذلك فضلا عن الفن الخزرفى كفن الخط والرسم الدقيق ، وهما فنان انتشرت ممارسهما بين مسلمى البوسنة طوال القرون العثمانية بأكملها (٥١) .

وكثير من الكتاب الوارد ذكرهم أعلاه كانوا أعضاء فى جمعية الدراويش الصوفية التى لعبت دورا مهما فى الحياة الاسلامية البوسنية . وللمرة الثانية نشعر أن من الصعب الكتابة حول مثل هذا الموضوع ، ليس فقط لأن المادة اللازمة لذلك لاتزال غير مطبوعة (كالمخطوطات المئتين والاثنتين والعشرين المأخوذة من احدى دور الدراويش وهى تكية سنان فى سراييفو) ، بل وأيضاً لأن الطرق الصوفية ظلت على الدوام تمارس عملها كنوع من النشاط « الاسلامى غير الرسمى » ، خارج الهيكل الرسمى للمدارس الاسلامية الدينية والجوامع - بحيث ان كتب التاريخ المعتمدة دأبت على التقليل من دورها . وما هذه الطرق الا جمعيات أو اخوانيات

يديرها معلمون روحانيون أو شيوخ يجتمعون في العادة وبانتظام في النكايا (الرواقات) التماسا للانضمام للزمالة ، ومن اجل الاحتفالات التي ربما انطوت على الحركات الشعائرية : وأشهرها المولوية (« الدوارة » حيث يدور الدراويش حول نفسه في سعيه للوصول الى النشوة عن طريق الخروج من دائرة الوعي العادي الى الوعي الباطني) وطراز من الشعر الديني الذي ينبع تلقائيا من لحظات الوله يعرف باسم «الالهي» وتعاورت على جميعات الدراويش في اوقات مختلفة من تاريخها احوال متقلبة ، فكانت ذات يوم من دعاة الهدوء وعدم التدخل في السياسة ، أو تكون نشطة سياسيا ومتمردة النزعات ، كما حدث ذات مرة من حركة المريدين الشهيرة. زهي الجماعة التي قاومت تقدم الروس في شمال القوقاز المسلم . وكان اتجاههم الديني ينمو عادة الى التصوف الذي ينحو في بعض الأحيان الى التفكير بعقل متفتح يقتات من الأفكار الفلسفية وشعر الغزل ، بل حتى من اللاهوت المسيحي ، حتى لقد عدّه المسلمون المتشددون الحادا مرطيقيا . وكان هذا ينطبق بوجه خاص على مؤسسة البكتاشية التي كانت تعمل بين الانكشارية (٥٢) .

ولقد جاءت طرق الدراويش الى البوسنة في زمن مبكر ، ولعلها لعبت هناك دورا جوهريا ، كما فعلت في غيرها من الأماكن ببلاد البلقان ، في تلك العامين المتراپطين هما التحول الى الاسلام ، وتطور المدن المسلمة وازدهارها (٥٣) . وكانت أولى تكايا الدراويش سرايفو ، وهي تكية ايشاكبيجوا (Ishakbegova) ، التابعة لجماعة المولوية وقد بنيت قبل عام ١٤٦٣ ، وتكية اسكندر باشا (Skender Pasha). التابعة لجماعة النقشبندية وقد بنيت في ١٥٠٠ ، كما أن هناك تكيين. أكثر أهمية (تكية سنان باشا والبيسنريجيينا Bistrigina) وقد أضيفنا في أثناء القرن السابع عشر (٥٤) . وهناك أيضا مجموعة من التكيات. الأصغر حجما تم بناؤها وزالت من الوجود الآن : وقد أحصاها ايفليا نشميليبي فوجد مجموعها سبعا وأربعين تكية في سرايفو في منتصف القرن السابع عشر (٥٥) . وكان في الامكان تأسيس التكايا في أجزاء بعيدة من الريف أيضا ، وقد ظلت واحدة منها تعمل في سبعينيات الألف وتسعمئة بهرية جبلية منعزلة فوق فوينيكا Fojnica - وهي موطن ميلاد زعيم الدراويش الأشهر في القرن الثامن عشر ، الشيخ حسين (٥٦) . ولم تكن مجرد مراكز للتأخي والتقوى ، بل انها كانت أيضا جزءا من شبكة دولة هائلة ، وكان البعض من أكبر جماعة وهي النقشبندية يسافرون الى أماكن بعيدة الشقة قد تحملهم الى وسط آسيا ، التماسا للقاء الشيوخ المشهورين . والطائفة الوحيدة التي لم تحظ قط بالشعبية في البوسنة ،

وهو أمر عجيب ، هي جماعة البكتاشية الخاصة بالانكشارية : نعم انها كانت لها بالفعل التكايا هناك ولكنها كانت تعتمد بوجه رئيسى على الزائرين من الألبان والأتراك . ويبدو أن حالة الزندقة التي كانت تكتنف الطريقة البكتاشية لم تكن تلقى قبولا في البوسنة (٥٧) .

والاسلام في البوسنة العثمانية كان في غالب أمره سنيا سلفيا . وكانت الحركة المارقة الجديدة الوحيدة هي حركة « الحمزاوية » ، وهم أتباع لشيوخ يدعى حمزة بالى بوشنياق (Hamza Bali Boschniak) وقد أعدم بتهمة الزندقة في ١٥٧٣ . ونحن لانكاد نعرف عن تعاليمه الا البزير اليسير ، وواضح أنها كانت تتجاوز كثيرا ما فعله البكتاشية حين أدخلوا على عقيدتهم عناصر من اللاهوت المسيحى . وتمكن بعض أعضاء الحركة الحمزاوية في البوسنة في أثناء ما أنزل عليهم بعد ذلك من عذاب واضطهاد ، من أخذ ثأرهم باغتيالهم الصدر الأعظم محمد باشا سوكولوفيتش . ويبدو أن أولئك الحمزاوين واصلوا العيش كنوع من الحركات المعارضة الخفية طوال القرن السابع عشر (٥٨) .

كان معظم المراقبين يعدون مسلمي البوسنة سنين أتقياء صالحين وقد كتب ايفليا تشيليبى بحارة عن مسلمي سرايفو ، قال : « انهم جميعا قوم يخافون الله ، لهم عقيدة نقية مستقيمة لا تشوبها شائبة ، ونفوسهم خالية من الحسد والبغضاء ، كما أنهم جميعا صغيروهم وكبيرهم وغنيهم وفقيرهم ملتزمون بشدة بتأدية الصلاة » (٥٩) . على أنهم وإن كانوا قوما « يخافون الله » فانهم كانوا بوجه ملحوظ تماما ، أقل تدقيقا من بعض المجتمعات الاسلامية الأخرى ، في تمسكهم بكثير من الأعراف الاسلامية ، فان بهم ضعفا نحو احتساء شراب الراكى ، وكان استخدام الحجاب لا يراعى في بعض المناطق (وبخاصة في ريف منطقة الهرسك) ، كما أن ممارسة البوسنيين للغزل وحنى العلاقات الغرامية كانت موضع التعليقات الكنيرة من المراقبين الأجانب (٦٠) . وقدم مسلمون آخرون أوصافا للسمات الأخلاقية للبوسنيين ، وكلها تتفق تماما مع بيئة تشيليبى . وهناك كاتب سوري كان يضع قاموسا فارسيا تركيا ابان أخريات القرن السابع عشر ، فقد كتب في بيانه في مادة البوسنيين : « يصرف البوسنيون برقة الأخلاق والكرامة واللوزعية والفهم الدقيق والتعقل الذهنى الممتاز والولاء والجدارة بالثقة ، تلك هي صفاتهم المميزة » (٦١) . وبعد أن قضى الرحالة الفرنسى كيكليه (Quiclet) شهرين كاملين في سرايفو ، صرح قائلا : « لم ألق من جميع مسلمي هذه المدينة سوى جميع

أنواع المعاملة الحسنة وكل أشكال الفضل والمجانلة ، حيث كان كل انسان يصادقني ويبدى لى المودة » (٦٢) •

ولا شك فى أن مثل هذه الأوصاف جذيرة بأن يحملها الانسان فى عقده عندما يقرأ ما يكتب عن « تعصب » مسلمى البوسنة فى القرن التاسع عشر • ومن اليسير جدا أن يفترض أى انسان أن ذلك التعصب كان خله دائمة متوارثة فى اسلام البوسنة • ولا ريب أن اتجاهها الى التعصب قد نما بالتأكيد ابان القرن التاسع عشر بين بعض البكوات ورجال الدين الاسلامى والطبقة الدنيا من المسلمين ، ولكن هناك أسبابا قوية للظن بأن وراء ذلك أسبابا سياسية واقتصادية من نوع خاص • وقد كتب شوميت دى فوسيه ، بعد ان قضى سبعة أشهر فى البوسنة فى ١٨٠٨ ، تعليقا عميقا حول تشكك البكوات فى المسيحية ، قال : « لو شئنا النصفه لمسلمى هذا الاقليم ، وجب علينا أن نقول ، كما يسلم بذلك الرعية (أى الفلاحون المسيحيون بصفة رئيسية) أنفسهم ، انهم كانوا شديدى الدين فى تلك السنوات الأخيرة القليلة • ولكن منذ بداية هذا القرن دفعهم مركزهم السياسى الى الامتلاء بالرغبة والشكوك » • وقال انه بعد استيلاء الفرنسيين على منطقة الماشيا والعصيانات المسلحة للصرب والجبل الأسود ، شعروا أنهم محوطون ومهددون • ان هذا الموقف وقد أثار مخاوفهم ، جعلهم يشعرون بالتوجس من كل انسان • وقد بث فيهم ذلك شعور الخوف من أن تتمرد رعيتهم ، ولكنهم يضمنوا خضوعهم اضطروا الى معاملتهم بشئ من الهمجية البربرية » (٦٣) • ومعلوم أن الاستقطاب السياسى الاجتماعى الدينى بين ملاك الأراضى والفلاحين ، كان قد قارب الاكتمال فى تلك الفترة ، ولا بد أنه قد لعب هو أيضا دوره • وكان ما أثار مخاوف رجال الدين المسلمين هو قيام صربيا بوصفها دولة مسيحية مسلحة وشبه مستقلة ، وقد طردت جميع المسلمين الذين نجوا من المذابح طردا وحشيا عنيفا • ومما زاد فى حدة مشاعر التشكك والحسد فى أنفس سكان المدن المسلمين العباديين ، تلك الزيادة المستمرة فى أهمية طائفة التجار المسيحيين فى سراييفو ، الذين نعموا فى أوليات القرن التاسع عشر بحماية الموظفين القنصليين التابعين لفرنسا والنمسا وبروسيا • ولذا فانه عندما وافق ١٨٢٢ كان فى امكان زائر فرنسى آخر هو شارل برتوزيه Charles Pertusier أن يكتب أن « المسلم متطرف فى ايمانه الى حد التعصب » (٦٤) • ولا ريب فى أن هذا الحكم العام كان ينطوى فى ذلك الحين ولو على شئ من الصديق • بيد أن الحال لم يكن كذلك على الدوام •

الفصل التاسع

يهود وغجر البوسنة

لم نعرض حتى الآن ليهود وغجر البوسنة الا بأدنى قدر من الذكر ، رغم أن وجودهما في البوسنة منذ مرحلة مبكرة : وربما سبق وجود الغجر الغزو التركي ، واليهود الذين وفدوا خلال القرن الأول من الحكم التركي . وسيقدم هذا الفصل خلاصة موجزة لتاريخهم بأرض البوسنة منذ وطئت أرضها أقدامهم حتى بواكير القرن العشرين . وبدهي أن هذين الشعبين لا يكادان يشتركان في شيء تقريبا ، فضلا عن أن كلا منهما احتفظ تماما بطبيعته وهويته ، وهو مشنت في عدد لا يحصى من البلدان . ولكن في الحالين كان الفارق في المعاملة التي كانا يلفيانها في الامبراطورية العثمانية وتلك التي كانوا يتعرضون لها في أوربا الغربية والشمالية ، فرقا هائلا يسترعى الأنظار . وعلى أولئك الكتاب الذين يشيرون بصورة آلية الى عدم تسامح الحكم العثماني ، أن ينظروا نظرة أعمق الى تاريخ هاتين الأقليتين . ولا جدال أن التحامل على اليهودي والغجري كان موجودا في المجتمع البلقاني ، ولكن هذا التحامل المحلي لم يهلك هذه الآلاف المؤلفة منهم كما حدث لهم في القرن العشرين . فما كان يستطيع أن يفعل ذلك الا أيديولوجية تطورت في الأجزاء « المسيحية » الأكثر تقدما في أوربا .

وكما هو الحال مع الاسلام ، يمكننا أن نتكهن بوجود صلات شديدة القدم بين اليهودية والأرض البوسنية . ونحن بفضل الحفائر الأثرية التاريخية ، نجزم بأن كثيرا من اليهود قد سكنوا في المناطق المجاورة ليوغوسلافيا الواقعة تحت الحكم الروماني : تشهد بذلك أطلال المعابد اليهودية الباقية لنا منذ القرنين الثالث والرابع ، والمقابر اليهودية في دالماسيا ومقدونيا والجبل الأسود ، وعند مدينة أوسبيك (Osijek) التي تبعد ثلاثين ميلا من الحد البوسني الشمالي الشرقي . وأشد تلك الاكتشافات سحرا وأخذا بالألباب ، جبانة للآفار من القرن الثامن

أو التاسع تقع قرب نوفى ساد (شرقى أوسبيك ، وعلى بعد مماثل من البوسنة) ، وهى تحتوى على عدد كبير من القبور عليها رموز يهودية ونقوش عبرية ، وهو أمر يشير الى أن هؤلاء الآفار قد استوعبوا بعض قبائل خزر القرم القديمة التى اعتنقت اليهودية أثناء القرن الثامن (١) .

وظلت مجموعة من السكان اليهود تعيش فى مقدونيا طوال الحكم البيزنطى بأكمله ، وبسبب أهمية طريق التجارة البرى الى سالونيك ، اجتذبت أعضاء جددا من الطوائف اليهودية فى بعض الأجزاء الأخرى من أوروبا ، الذين انضموا الى أحفاد يهود سالونيك الرومانية . وهناك يهودى مقدونى شهير هو ليون مونج (Leon Mung) الذى تحول الى المسيحية وأصبح كبير أساقفة أوريد (Ohrid) فى ١١٢٠ ، لعله كان من الذين فروا من وجه الاضطهاد فى ألمانيا . ولابد أن لاجئين آخرين قد فروا الى مقدونيا بعد طرد اليهود من المجر فى القرن الرابع عشر ، وفى ذلك الوقت كانت هناك أيضا وبالمثل ، مجتمعات يهودية فى راجوزا وسبليت وبلجراد (٢) . ولكن أكبر نزوح من نوعه هو الذى تم فى نهاية القرن الخامس عشر ، حيث رحبت الامبراطورية العثمانية باليهود المطرودين من اسبانيا وأكرمت مئواهم وأحسنّت معاملتهم . واستقر كثير من هؤلاء اليهود السفرديم فى مدينة سالونيك ، كما تحرك بعضهم شمالا الى مدينة سكوبيي (Skopje) التى سرعان ما حولوها الى مركز تجارى مهم .

ولم تكن البوسنة واقعة على طريق التجارة من الشمال الى الجنوب (الذى مر من خلال صربيا) ، ولكن طريقا مهما من الشرق الى الغرب امتد من راجوزا خلال فوتشا (جنوب سراييفو) حتى نوفى بازار واستمر حتى سكوبيي . ولابد أن التجار اليهود من سكوبيي وراجوزا كانت لهم تعاملات تجارية كثيرة مع الوسطاء البوسنيين . ولكن يبدو أن التطور الذى ألم بسراييفو بوصفها مدينة تجارية فى حد ذاتها هو الذى جلب اليهود الى التربة البوسنية والاقامة بها واستيطانها . على أن تاريخ وصولهم الى هناك ليس معروفا ، لكن ثلاثة سجلات للمحاكم فى ١٥٦٥ تشير الى أن هناك تجارا من اليهود ، كان من الواضح أنهم مستقرون تماما فى سراييفو (٣) . والراجع أن العامل الحاسم فى ذلك هو بناء « سوق المنسوجات » فى بورصة وهو سوق أقامه غازى خسرو بك فى ثلاثينيات الألف وخمسمئة : حيث كانت تجارة الحرير مع بورصة الى حد كبير فى أيدي يهود الأناضول (٤) . ومن غير المعروف ما اذا كان اليهود جاءوا عبر هذا الطريق الطويل من بورصة ليستقروا فى سراييفو ، فقد كانت الروابط الرئيسية لطائفتهم فى سراييفو مع سكوبيي أو سالونيك خلال القرنين

التاليين ، ويمكن افتراض أن كثيرا من المستوطنين اليهود كانوا من أبناء هاتين المدينتين . وقدر لتجارة المنسوجات التي هي على رأس الواردات الى البوسنة طواب الفئرة العثمانية بأكملها ، أن تظل في أيدي اليهود حتى تم تدمير طائفهم ابان الحرب العالمية الثانية (٥) .

وكان يهود سراييفو يعيشون أولا في محلة أو حي المسلمين ، لكن سمح لهم في ١٥٧٧ ، مكافأة لهم على العون الذي قدموه ضد الهابسبرجيين . بتأسيس حي خاص بهم (٦) . وكلمة « حي » تكاد تكون ترجمة مضللة لكلمة « محلة » ، فكما لوحظ في الفصل الخامس أن هذه انما كانت قسما أصغر للمدينة ، ربما لم تحو أكثر من أربعين بيتا . فأما لفظة « جينو » (Ghetto) ، التي تستخدم للدلالة أحيانا على هذه المحلة اليهودية ، فانها أيضا تسمية غير صحيحة : فقد كانت حرية الحركة التامة مكفولة ، دون أبواب أو حظر تجول أو أى نوع من الاجراءات التمييزية . وهناك قصة وردت في مخطوطة من القرن الثامن عشر تقول : ان المسلمين قد اشتكوا من الضجة التي كان يحدثها اليهود ومن الخطر من الحريق . ومغزى هذه القصة ، على فرض أن لها نصيبا من الصدق ، هو أنها تدل على أن يهود سراييفو كانوا بالفعل يشتغلون بالصناعة ، ولعلمهم كانوا في الراجح يديرون مسبكاً للمعادن (وهو شيء كان مشهورا بأنه واحد من أعمالهم في السنوات التالية لذلك) . واذا كانوا يعاونون في صنع الأسلحة والمهمات المعدنية التي كانت تحتاجها حملة عسكرية ، فربما كان ذلك تفسيرا لامتنان السلطات التركية لهم . ومع ذلك ، فإن كاتباً يهوديا من القرن السابع عشر سجل أن نقل اليهود لحي خاص بهم تم بناء على طلبهم (٧) . ومهما يكن السبب ، فإن اليهود الأكثر ثراء انتقلوا الى بيوت متجاورة في منطقة قرب السوق المركزي ، وانتقل آخرون الى مبنى خاص هناك أقامه حاكم خبر للبوسنة في ١٥٨٠ - ١٥٨١ ، وعرف

المبنى باسم « وقف سيافوش بانسا » (Siavus Pasina Daire) وكان المبنى يتكون من بيت كبير يحتوى على ٤٦ حجرة وحوش داخلي : وبه كانت تسكن العائلات الأفقر ، تسكن كل منها في حجرة أو حجرتين صغيرتين . وكان اليهود يسمونه باسم « الحوش » (Il Cortijo) ، فأما المسلمون فكانوا يسمونه « الحرش الكبير » أو « بيت اليهود » (وكانت مثل هذه البيوت المجمع تبنى أيضا في مناطق أخرى من البلقان : منها المبنى المقام في بلجراد والمسمى بيت اليهود الأتراك Turkischer Judenhof وكان يحتوى على ١٠٣ غرف و ٤٩ مطبخا و ٢٧ بديروما للتخزين) (٨) . وفي نفس الوقت شيد في سراييفو أول معبد لليهود ، على امتداد الحوش (٩)

وآثار المجتمع اليهودى فى القرن السابع عشر بسراییفو قليلة . ونحن نعلم یقینا أنه كان له وجود مستمر ، ولكن ليس ممكنا أن يكون له بروز بانغ ، وذلك لأنه لا یکاد یرد ذکر عنه فى أية کتابات أخرى لليهود فى تلك الفترة . وكان أول حاخام عرف لهم وهو صمویل باروخ قد جاء من سالونیکا فى بواکبر القرن السابع عشر ، والمأثور أن قبره هو أقدم قبر بجبانة اليهود بسراییفو (١٠) . وعندما زار ایفلیا تشیلیبی المدينة فى ١٦٦٠ لاحظ أنه أصبح لليهود فى المدينة محلتان (١١) . وكان الوضع القانونى لليهود ماثلا لوضع المسيحيين : اذ أنه حسب قانون الرعية لم یکن مباحا لهم بناء أماكن جديدة للعبادة بغير اذن خاص . وكان هذا ، شأن معظم أنواع التدابير القانونية الأخرى ، يتم الحصول علیه بدفع الأموال المناسبة . واليهود شأن المسيحيين ، كانت تعوزهم المساواة القانونية بالمسلمين فى المحاکم العثمانية ، على أنه كان مباحا لهم استخدام محاکم خاصة بهم للحکم فى القضايا المدنية بداخل مجتمعهم اليهودى . وكان اليهود أيضا يدفعون الخراج ، كما أنهم كانوا خاضعين لقواعد قانون الرعية فى تحديد نوع الملابس ، بما فى ذلك الشروط الإضافية التى أمر بها السلطان مراد الرابع فى ١٥٧٤ ، حيث أصبح بموجبها محرما على اليهود أن یلبسوا العمام والملايس الحريرية ولا أى لباس باللون الأخضر . وما لبثت أن استقرت فيما بعد ممارسة السماح للحاخامات بارتداء العمام شريطة أن تكون صفراء اللون (١٢) . ولكن یمكن القول على وجه الجملة ان معاملة اليهود كانت نطوى على قدر أقل كثيرا من التمييز الدينى . مما كان یطبق علیهم فى أية أرض مسيحية الى الشمال والغرب ، أثناء أواخر العصور الوسطى وبواکبر العصر الحديث .

وفى ١٦٦٥ أصابت يهود الامبراطورية العثمانية هزة شديدة نسا عجيب تداول أسماعهم . فان حاخاما شابا من سمرنا (Smyrna) ذا حضور شديد هو ساباتاي شميمى Sabbatai Sevi ، أعلن أنه المسيح المنتظر . واخترق هذا الاعلان كل أرجاء أوروبا شرقا وغربا ، وأخذت الكتابات الدينية الغيبية لأتباع ساباتاي ، وخاصة کتابات تلميذه وحواريه الأول والداعية الأكبر له وهو ناتان من غزة ، نقرأ بشغف شديد : اذ يذكر تقرير أن يهود قیينا تلقوا نسخا من أعمال ناتان التبعية فى ١٦٦٦ من سراییفو (١٣) . وقد قامت مبادئ ساباتاي وأتباعه (الساباتائين) على التقاليد المأثورة على القبالة ، وهى طريقة تفوم على استخلاص التنبؤات والحقائق اللاهوتية الخفية من كلمات وحروف النصص العبرانية المندسة . على أن أعظم لغز وفضيحة فى قصة الساباتائين بأكملها انما حدثت فى ١٦٦٦ عندما وافق ساباتاي شميمى ، وقد اعتقل وأحضر بين

يبدى السلطان ، على اعتناق الاسلام . وتبعه فى ذلك كثير من أتباعه ، واحتفظ غيرهم ممن ظلوا على عقيدتهم اليهودية ، بتعاليمه وكونوا لاهوتا عجيبا متطرفا ، كان فيه هذا المروق العجيب عن اليهودية يعد عملا ضروريا وغريبا (يكاد يمكن مقارنته بطبيعة موت المسيح فى اللاهوت المسيحي) . وكان من أبرز الساباتانيين فى الجيل التالى نحميا خايون (Nehemia Hayyon) ، الذى ولد فى سراييفو فى ١٦٥٠ ، وكانت عائلته (التى ينطق اسمها كايون Kajon أو جايون Gojon أو جاسارون Gaon بالصربوكرواتية) من العائلات اليهودية القديمة بالمدينة ، قد ظلت مقيمة هناك حتى عهد متأخر من القرن العشرين . وقد قام خايون برحلات فى فلسطين واليونان وإيطاليا وألمانيا . وأصدر فى بلين فى ١٧١٣ كتابا هو « قدرة الله » Oz l'Elohim ، وصف بأنه الوثيقة الوحيدة المطبوعة للقبالة الساباتانية ، وهو يحتوى على رسالة نسبت الى ساباتاي نفسه ، وأحدثت ضجة عظيمة فى الدوائر اليهودية . ثم وجهت الى خايون فيما عقب ذلك من الزمان تهمة الهرطقة . حيث وجهها اليه أحد حاخامات أمستردام وهو سيفى اشكينازى ، وهو ممن عاشوا فى سراييفو من ١٦٨٦ حتى ١٦٩٧ يوم فر الى الشمال مع جيش الأمير يوجين (١٤) . (ولعل هذا الحاخام هو اليهودى الوحيد الذى شعر بالامتنان نحو الغزو النمساوى ، فقد أصاب المحلة اليهودية تدمير شديد من جراء قصف مدفعية الأمير يوجين . وفى مقابل تخفيض فى الضرائب ، وافق يهود سراييفو على المعاونة فى دفع نفقات إعادة بناء المنطقة بأكملها) (١٥) .

- وكانت أقدم سجلات مجتمع سراييفو التى بقيت لنا فى أى شكل - من الأشكال ، هى التى ترجع الى عشرينيات وثلاثينيات الألف وسبعمئة . وقد تولى المؤرخ موريتس ليفى طبع بعض فقرات منها ، لكن الوثائق نفسها ما لبثت أن دمرت مع جميع المحفوظات اليهودية فى سراييفو أثناء الحرب العالمية الثانية (١٦) . وتذكر أسماء ست وستين عائلة من تلك الفترة الباكورة ، كما أن قائمة بالأسماء تعود الى ١٧٧٩ تحوى ٢١٤ رئيسا للعائلات ، وهو ربما يعادل سكانا يزيد عددهم قليلا عن الألف نسمة . وجاء أيضا ذكر مدرسة أولية يهودية صغيرة (تلمود تورا Talmud Torah) وكان يهود سراييفو يمارسون ضروبا متنوعة من المهن : فبالإضافة الى التجار كان هناك الأطباء والصيادلة والخياطون وصناع الأحذية والجزارون وعمال الخشب والمعادن وصناع الزجاج والصاغون (١٧) . وكان يتولى الخدمات الدينية بينهم فى معظم تلك الفترة حاخامات مجتلبون من مناطق أخرى : وكان أشهر هؤلاء الحاخامات هو دافيد باردو ، وهو يهودى من البندقية ، الذى كان رئيس حاخامات سراييفو فى ستينيات وسبعينيات القرن

الثامن عشر ، وكان علامة بارزا وكاتبا متميزا ، وقد أسس كلية تدريب الحاخامات (yeshivah) هناك أثناء فترة توليه منصبه . وحتى ذلك الحين كانت سراييفو تابعة للمجتمع اليهودي في سالونيك ، أما الآن فانها أصبحت قادرة على انتاج حاخاماتها الخاصين بها (١٨) . ومع ذلك فقد أضحت الغلبة في مجالي التجارة والثقافة لطائفة بلجراد المجاورة . وكان بتلك المدينة ، عاصمة المستقبل لصربيا ، مجنم مختلط من يهود السفرديم والاشكنازي ، ويبدو محتملا أيضا أن بعض الاشكنازية كانوا يأتون أيضا الى سراييفو ، على أنهم لم يستقروا هناك فلابد أنهم قد امتصهم المجتمع السفرديم الناطق باللغة اللادينو (Ladino) وذلك نظرا لأنه لم يكن هناك معبد اشكنازي في سراييفو حتى أخريات القرن التاسع عشر . واللادينو هي لهجة من أسبانية القرن الخامس عشر التي كان يتكلم بها أحفاد اليهود المطرودين من أسبانيا في ١٤٩٢ ، ولا يزال يتحدث بها بعض يهود سراييفو الباقين على قيد الحياة حتى اليوم . وهناك آية خاصة لاتزال تدل على تراث سراييفو الأسباني ، هي « هجادة سراييفو » (Sarajevo Haggadah) وهي مخطوط أسباني من القرن الرابع عشر للقداس الذي يقام في الليلة الأولى من عيد الكيبور وكان مملوكا لاحدى العائلات اليهودية في المدينة حتى ١٨٩٤ وهو من أبداع الأعمال الفنية من نوعه في العالم كله (١٩) .

وفي العقود الأولى من القرن التاسع عشر كان عدد السكان اليهود في البوسنة يعادل ألفين أو أكثر . فقد كتب القنصل الفرنسي في سالونيك تقريرا تفصيليا ، بعد أن ذهب الى سراييفو لجمع المعلومات حول أحوال التجارة في ١٨١٣ ، قال فيه : ان هناك ألفي يهودي في سراييفو ، ولاحظ أنه من أهم الأعمال التجارية في المدينة كانت هناك اثنتان يهوديتان وواحدة يونانية وواحدة نمساوية وواحدة فرنسية (٢٠) . وكانت هناك حتى ذلك الحين جالية يهودية صغيرة تتكون من ستين فردا بمدينة ترافنيك : وقد اكتسبت هذه المدينة أهميتها لكونها مقر والى البوسنة وكان عدد سكانها يبلغ سبعة آلاف معظمهم من المسلمين (٢١) . وفي ستينيات الألف وثمانئة كانت هناك عائلات يهودية قليلة تعيش في سوستار أيضا (٢٢) .

وهناك قصة تأخذ بالآلالباب ، ترجع الى أوليات القرن التاسع عشر ، وتدور حول مصير يهودي من ترافنيك هو موسى كافيفو Moses Chavijo الذي اعتنق الاسلام واتخذ اسم الدرويش أحمد ، وراح يثير المسلمين المحليين على اليهود . وفي ١٨١٧ شكا زعماء اليهود البوسنيين من مهاجمته لهم ، وتمكنوا من تقديمه للمحاكمة واعدامه . وما عثم جماعة من أتباعه أن شكوا فيما بعد الى والى البوسنة وهو رشدى باشا ، الذي انتهن الفرصة

فابتسر بعض امال من أيدي اليهود غصباً ، وطالبهم بأن يدفعوا خمسمئة ألف جروشن (وهي عملة نمساوية) ، واثقى القبض على عشرة من كبار اليهود كان من بينهم الحاخام ، وهدد بقتلهم اذا لم يسدد المال فعلاً . وانتهت القصة بخروج جماعة من ثلاثة آلاف مسلم حملوا أسلحتهم وطالبوا باطلاق سراح اليهود ، فسارع الباشا بتلبية طلبهم (٢٣) . ويبدو أنه على وجه العموم كانت العلاقات بين المسلمين واليهود طيبة ، وكثيرا ما كانت أحسن منها بين المسلمين والمسيحيين . وفي كثير من أرجاء الامبراطورية العثمانية كان المسيحيون ينظرون الى اليهود نظرة امتعاض ، ولذلك أسباب منها أن السعور بالعداء نحو اليهود يجد تربة خصبة في اللاهوت المسيحي ومن المرجح أيضا أن بعض الولاة العثمانيين كانوا يعتمدون على الأطباء والتجار اليهود ، ويتخذون منهم مستشارين وشخصيين ودبلوماسيين ، بحيث ان الوجود اليهودي بدا في أعين المسيحية والمسيحيين كأنما هو طرف ملازم للدولة التركية . (والواقع أن ارتداء اليهود نفس ملابس الأتراك ، كان عاملا اضافيا ببعض أقطار البلقان الأخرى ، ولكن ليس بالبوسنة ، حيث كان المسيحيون يلبسون نفس ثياب المسلمين ، فيما خلا بعض التفاصيل الثقافية التي تميزهم بنص قانون الرعية) .

أصدر بعض السلاطين من ذوى النزعات الاصلاحية في ثلاثينيات وخمسينيات الألف وثمانئة قوانين تمنح حقوقا مدنية مماثلة لرعايا جميع العقائد الدينية ، ولكن ذلك ظل مسألة نظرية أكثر منها ممارسة عملية . وجاء أكبر تغير في الوضع القانوني لليهود مع احتلال دولة النمسا والمجر لبلاد في ١٨٧٨ : وبعد ذلك بسنوات أربع ، شكلت لليهود في سرايفو طائفة على غرار نظام الطوائف الدينية النمساوي عرفت باسم « طائفة السفرديم الاسرائيلية الدينية » وكانت هذه الطوائف تنتخب الهيئات الحاكمة الخاصة بها وتضع سجلها لجميع اليهود السفرديم المقيمين في المدينة ، كما خول لها أن تفرض الضرائب عليهم بمقدار يصل الى ما يعادل عشرين في المائة من الضرائب المباشرة المدفوعة للدولة ، وقد أقبل كثير من اليهود الاشكنازي من المجر وغاليسيا وبولندا وأرض النمسيك وغيرها من الأماكن ، على الاستيطان في البوسنة تحت الحكم النمساوي المجري أيام امبراطورية النمسا والمجر ، فشكلت لهم طائفة مستقلة أيضا (٢٤) . وكان اليهود الناطقون باللادينية ينظرون اليهم نظرة ازدراء ، وعاشت كل طائفة من هذه الطوائف عيشة خاصة بها . وبصفتهم مراقب في ١٩٠٨ بأنهم : « قوم متميزون بشدة أحسادهم عن الآخر » (٢٥) . وهذا التدفق أو النزوح الشديد للسكان اليهود الى المدينة .

حيث ظل ثابت العدد حول ألفين طوال القرن كله ، ثم نما الى ٢٦١٨ نسمة
فى ١٨٨٥ ، ثم ٤٠٥٨ فى ١٨٩٥ ، ثم ٦٣٩٧ فى ١٩١٠ (٢٦) .

وكان عدد السكان اليهود فى الأجزاء الأخرى من البوسنة فى ازدياد
هو الآخر بفضل الهجرة : ففى ١٩٠٠ كان هناك ٩٩١١ نسمة فى سائر
أرجائها (٢٧) . وعادت السياسة الاقتصادية التى اتبعتها النمساويون
بفرص جديدة على البوسنيين اليهود ، وعلى العكس من المسلمين انخرطوا
على الفور فى المشروعات الصناعية . وكانت النتيجة أن أكبر ثلاثة من ملاك
المصانع البوسنيين كانوا جميعا من اليهود السفرديم . وكذلك أيضا كان
للسياسة النمساوية أثر فعال فى ادماج اليهود مع سائر المجتمع
البوسنى : ومن ثم فإن اللغة الصربوكرواتية قررت فى مناهج الدراسة
بالمدارس الابتدائية اليهودية ، كما أن بعض اليهود أرسلوا أطفالهم لينلقوا .
لأول مرة فى تاريخ هذا المجتمع اليهودى ، تسليمًا دنيويا فى مستوى
المدارس الثانوية (٢٨) . وحتى عام ١٩٤١ ظل يهود البوسنة يلعبون دورا
جوهريا فى الحياة الاقتصادية لوطنهم ، فقد كان هناك مجتمع يهودى فى
سراييفو وترفنيك وموستار وبانيا لوكا وزينيك و يوجوينو وبانيلينا
وفرشيكو وروجاسيكا وفلاستينيك وتوتسلا (٢٩) . وقد مزق هذا المجتمع
اليهودى سُر ممزق فى طوفان البربرية الذى اجتاح العالم فى ١٩٤١ .

أما غجر البلقان فالغرض يكتنف تاريخهم أكثر كثيرا من اليهود ،
اذ أنهم لم يتركوا وراءهم تراثا كبيرا من المنشآت المعمارية والمباني
أو السجلات المكتوبة أو الكتاب أو المتعلمين . ومع هذا فإن عددهم كان
أعظم ، كما أن وجودهم فى البوسنة كان على الأرجح أقدم كثيرا . ومع اننا
لا نعلم شيئا عن تاريخ خروجهم من الهند ، فإنهم كانوا موجودين فى الأرض
البيزنطية فى عام ٨٣٥ ، وهناك من البيانات الأكيدة ما يدل على أن الغجر
قد عبروا الى الجزء الأوروبى من الامبراطورية البيزنطية بحلول القرن
الحادى عشر . وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان المركز الرئيسى
للاستيطان الغجرى هو جنوب بلاد الاغريق ، كما أنهم أيضا كانوا مستقرين
فى جزيرة كورفو . ولعل بعضهم قد واصل المسير قدما على الساحل
الأدرياتيكي ، ولعل بعضهم الآخر اننسروا برا . وقد ورد ذكر للقرى
الغجرية فى غرب بلغاريا ، فى عقد هبة عقارية يعود الى سنة ١٣٧٨ ،
وهو أمر يشير الى أنهم كانوا مستقرين آنفا مدة طويلة تماما بتلك المنطقة .
رهم أيضا شأن الأفلاق كانت لهم بعض التقاليد العسكرية : اذ يسجل
التاريخ ضربا من التجمع العسكرى بين الغجر فى بلاد اليونان أثناء القرن
الخامس عشر . ومن ثم فإن مما يشير الاهتمام أن يعرف المرء أن أول سجل
حديث للتاريخ عن الغجر بأرض يوغوسلافيا العصرية إنما هو وثيقة قانونية

من راجوزا في ١٣٦٢ ، قدمها اثنان من « المصريين (Egyptians) » (أى
الفجر Gypsies) اسمهما فلاك وفيتانوس (٣٠) .

وقد ربط البعض بين اسم ذلك المواطن الفجرى « فلاك » وبين
الأفلاق وزعموا أنه كان هناك شيء من التعاضد بين الفجر والأفلاق في تلك
المناطق أثناء العصور الوسطى المتأخرة . ولا ريب في أن حياة البداهة
لدى هذين الشعبين كانت من نوعين مختلفين تمام الاختلاف ، ولكن إذا كان
الفجر قد عملوا بأشغال المعادن وما إليها من حرف ، فقد كان من الممكن أن
يكون لهم نفع لدى قوم يشتغلون بتربية الخيل والتجارة . وهناك كذلك
بيئات لغوية تساند فكرة وجود علاقات أفلاقية غجرية بالبلقان الغربى
والأوسط . وقاموس مفردات معظم اللهجات الغجرية بغرب أوروبا ، لا يدل
فقط على وجود دين ثقيل عليهم للغات اليونانية والسلافية الجنوبية ،
وانما يحتوى أيضا على بعض آثار للغة الرومانية أو الأفلاقية . ونحن نعلم
أن هذه القبائل من الفجر تحركت خارجة من جنوب شرقى أوروبا في أوليات
القرن الخامس عشر ، وربما قضوا بعض الوقت في رومانيا ، ولكنه زمن
غير طويل ، وليس هناك أى أثر لآى تغلغل أو نفوذ لغوى مجرى على مفردات
لغتهم . وكل الدلائل تشير الى احتكاك أطول مدى مع الناطقين بالأفلاقية في
الجنوب من الدانوب (٣١) .

ولو صحح هذا الرأى أو الافتراض النابع من الوثيقة الراجوزية
فمعنى هذا أن الفجر كان لهم وجود بالهرسك أقدم كثيرا من الغزو
العثماني . ولسنا ندرى شيئا عن نشاطهم بالبوسنة إبان السنوات
العثمانية الأولى ، غير أن بعضهم ربما اعتنقوا الاسلام في مرحلة مبكرة :
فان قانونا أصدره فى ١٥٣٠ سليمان القانونى حول الايالة الروميلية
(وكانت فى ذلك الوقت تضم البوسنة أيضا) ، يميز تمييزا حادا بين
الفجر المسلمين وغير المسلمين . فأما الأولون فكان عليهم أن يدفعوا ضريبة
مقدارها اثنان وعشرون أسبيرا (عملة فضية عثمانية) ، وغير المسلمين
يدفعون خمسة وعشرين أسبيرا . وكان محرما على الفجر المسلمين السكنى
مع غير المسلمين منهم (٣٢) . وقد وردت أول اشارة خاصة الى الفجر
فى البوسنة فى عام ١٥٧٤ ، عندما أصدر سليم الثانى فرمانا يمنح
امتيازات ضريبية للفجر الذين يعملون بالمناجم : وقد نص فرمان على
ذكر العمال الذين يعملون فى مناجم الحديد الخام قرب بايالكوكا ، فضلا
عن الفجر الآخرين الذى يعملون فى مناجم « خارج نوفي بازار » - ولعنه
كان يعنى مناجم كوسوفو الشمالية . وبالإضافة الى ذلك أبيع لعمال المناجم
الفجر انتخاب قائد لكل مجموعة من خمسين رجلا (٣٣) . فهل كان هؤلاء

غجرا محلين جنحوا الى الاشتغال بالمناجم أم كانوا نازحين جاءوا - شأن عمال المناجم الساكسون - هابطين من الأراضى المجرية الرومانية ، ذلك أمر لا يمكن معالجته الا بالحدس والتخمين . وما أن وافى أواخر القرن الرابع عشر حتى كان الغجر مستقرين تماما شمالى الدانوب ، وبينهم الفئات التقليدية لغجر ترانسلفانيا الرودارية (Rudari) البايشيه (Baiesi) من رجال المناجم . والأورارية (Aurari) من غسالى الذهب (٣٤) . ولعل بعض هؤلاء الغسالين للذهب الذين لاحظ وجودهم الراهب بنديكت كوريبيشتش فى نهر قريب من جايس فى ١٥٣٠ ، كانوا غجرا من هذا النوع (٣٥) .

كان الغجر أثناء معظم الفترة العثمانية ، يلقون معاملة حسنة من الادارة التركية . ويشير فرمان صدر فى ١٦٠٤ حول غجر جنوب ألبانيا وشمال غربى اليونان الى الغجر المسيحيين والمسلمين ، وينص على : « لايجوز أن يرهق أى انسان أو يضطهد ذلك الجنس المذكور » (٣٦) . وهو موقف يتسم بروح انسانية أكبر مما أظهرته أية حكومة فى أوروبا المسيحية فى ذلك الزمان ، منال ذلك أنه حدث قبل ذلك بثمانية أعوام أن ستة وستة من الغجر قد أدينوا فى مدينة يورك وقطعت رؤوس تسعة منهم بمقتضى قانون من البرلمان فى العهد الاليزابيثى يهدف الى « مواصلة انزال العقوبات بالمتشردين الذين كانوا يسلمون أنفسهم بالمصريين (Egyptians) » (٣٧) . وبطبيعة الحال ظل معظم الغجر عند القاعدة الدنيا للسلم الاجتماعى فى الحياة العثمانية ، شأنه فى كل مكان آخر . وكانت ادارات المدن تفضل تركهم يعيشون خارج حدود المدن ، بدلا من أن تخصص لهم محلة خاصة بهم ، الا اذا تمكنوا من اقناعهم بالاستيطان بوصفهم صناعا مهرة . ويوضح سجل من بلغاريا فى ١٦١٠ أن الجزية أو ضريبة الرأس حددت بمئتين وخمسين أسبيرا على كل غجرى غير مسلم ، ومئة وثمانين لكل غجرى مسلم ، وبفض النظر عن هذا التخفيض ، فإن هذا يبدو كأنما هو ضرب من التمييز ، اذ لم يكن مطلوبا من المسلمين أن يؤدوا هذه الجزية اطلاقا (٣٨) . وعند نهاية القرن السابع عشر يبدو أن الموقف والقلوب اشتدت وقست فى الادارة العثمانية ، وقامت ضدهم حملة اتهمت نساءهم بأنهن من البغايا ورجالهم بأنهم قوادون ، ومن ثم زينت الرسوم على الغجر زيادة ثقيلة (٣٩) .

ومع هذا ، فإن الحقوق القانونية الأساسية للغجر كانت هى نفس القواعد المطبقة على اخوانهم من المسيحيين أو اخوانهم من المسلمين . وكانت الغالبية العظمى من الغجر البوسنيين مسلمة ، ويبدو أنهم غلبت عليهم البداوة والترحل حتى قرب نهاية الدولة العثمانية ، وأنهم كانوا موفورى

العدد : اذ ذكر الأسقف مارافيتش في تقرير من البوسنة في ١٦٥٥ :
 « لقد وجدنا الفجر بكل مكان » (٤٠) . وعندما فتح النمساويون البوسنة
 في ١٧٨٨ انضم عدد كبير من الفجر الى القوات البوسنية ليقاتلهم (٤١) .
 ولسنا نعرف عدد السكان الكلي في البوسنة في تلك الأيام . ويقدرهم
 شوميت دي فوسيه بثلاثين ألفا في ١٨٠٨ . ولكن برتوزيه ، الذي كان
 هناك بعد ذلك بأربع سنوات ، يحدد عددهم بأنه ثمانية آلاف ليس
 غير (٤٢) . ولو حكمنا بواسطة الاحصائيات الأخرى التي قدمها لنا ،
 عرفنا أن برتوزيه كان أجدر الاثني بالنقة ، وتقدر الاحصائيات التركية
 لعام ١٨٦٥ جملة تعداد الفجر بـ ٩٣٣٠ بالبوسنة والهرسك ، ثم جاء مصدر
 ألماني في أواخر ذلك العقد وقدر عددهم بـ ١١٥٠٠ ، أما احصاء
 ١٨٧٠ فيحدد عددهم بـ ٥١٣٩ فقط ، ولكن الاحصاء اعتمد على مسح للبيوت
 ولعله أغفل كثيرا من الناس الذين كانوا لا يزالون يحيون حياة الترحال
 خارج المدن (٤٣) . وقد بذلت جهود كثيرة لاقتناع الفجر بالاستقرار ،
 وفي أثناء القرن التاسع عشر كانت هناك « محلات » كثيرة للفجر في
 سراييفو وترفنيك (حيث لاحظ شوميت دي فوسيه أن عددهم ثلاثمائة)
 وبانيالوكا وفيسوكو (٤٤) .

وفي ذلك الوقت ، كانت هناك ثلاث فئات من الفجر تعيش في
 البوسنة . أقدمهم المعروفون باسم « الفجر البيض » ، وكانوا أكثر
 استقرارا ، كما أن أعضاء تلك الفئة كانوا يهجرون اللغة الرومانية
 بالتدريج . ولكن لم يبرح معظمهم حتى فقدوها تماما عند حلول القرن
 العشرين . وهؤلاء الفجر كانوا مسلمين داخل البوسنة ، ولكن « الفجر
 البيض » الذين كانوا يقيمون بصربيا ومقدونيا كانوا من الأرثوذكس .
 وكانت لهجتهم الرومانية تشير الى اقامتهم الطويلة في الأراضي السلافية
 الجنوبية . ثم كان هناك من الناحية الأخرى « الفجر السود » الذين
 احتفظوا بحياة ترحل أكثر ، وعملوا بصفة خاصة في صناعة السمكرة ،
 وكانوا يعرفون باسم تشرجاشي (Cergasi) المشتقة من الكلمة التركية
 تشرجى ومعناها « الخيمة » . وقد أسلموا ولكنهم في بعض الأحيان منعوا
 من المساجد بحجة أنهم نجساء غير طاهرين وكانت الصورة التي كانوا
 ينظفون بها اللغة الفجرية ، تحتوى على عناصر رومانية أكثر ، وهو أمر
 يشير الى أنهم قد هبطوا من ترانسلفانيا أو اقليم البانات أثناء العصر
 العثماني الأول . (ومن الممكن كما أشرنا أعلاه أن عمال المناجم الفجر أثناء
 القرن السادس عشر كانوا ينتمون الى تلك الأرومة نفسها) . وكانت تلك
 الطائفتان تشيران الى أنفسهما بأنهم « ترك » ، يعنون بذلك « مسلمون » .

وكانت المجموعة الثالثة تسمى نفسها «قراقلقي» أى الأفلاق السود، وكانوا يرفضون أن يوصقوا بأنهم من الغجر ويدعون أنهم رومانيون .
والحق أنهم كانوا يتحدثون بالرومانية ، كما أن أحد الكتاب الرومانيين القوميين الوطنيين ، ديج أكبر من مئة صفحة فى ١٩٠٦ حاول فيها أن يثبت أنهم ليسوا من الغجر على الإطلاق . ولكن كل من كانت له عينان كان يستطيع أن يرى بنفسه أنهم من الغجر الذين جاءوا فى الأصل من رومانيا، ذلك أنهم بغض النظر عن الرومانية نفسها كانوا يتكلمون لهجة من اللسان الغجرى مشبعة بمفردات رومانية . وكان السكان المحليون يسمونهم الغجر «الصربيين» ، وهو اسم محير ربما كان أصله أنهم عاشوا فيما سلف من الزمان سطرًا من الوقت فى صربيا ، أو لأنهم كانوا من أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية (٤٥) .

ولم تكن لهم بطبيعة الحال أية علاقة بالمورلاتش أى «الأفلاق السود» الوارد اسمهم فى التاريخ الأقدم . لقد كانوا يشكلون جزءًا من أولئك السكان الغجر المتكلمين بلهجة رومانية مما يدعونه بالأفلاقية (أى اللهجة المتأثرة باللغة الرومانية) ، الذين انتشروا الى أوروبا الغربية فى موجة جديدة من الهجرة وكونت الأساس للسكان الغجر الأمريكيين . وكان بعضهم من مدربي الدببة ، وهى حرفة رومانية غجرية قديمة يعرف محترفوها باسم الأورسارى (ursari) ، وكان بالإمكان العثور على مدربي الدببة البوسنيين ، وهم يضربون فى الأرض بفرنسا حوالى سبعينيات القرن الألف وثمانمئة (٤٦) . ولاحظ مسافر انجليزى بالبوسنة فى تسعينيات الألف وثمانمئة ، أنهم كانوا يتجولون فى كل أنحاء أوروبا مع دببة راقصة (*) ، كما أن الكابتن فون روث ، وهو ضابط نمساوى بالبوسنة قال انه رأى أحدهم بمدينة لندن « . ويواصل حديثه فيصفهم بقوله : « انهم قوم عجيبو الشأن ، يعيشون فى حفر فى الأرض » (٤٧) . وأول رد فعل للقارئ ازاء هذا القول هو أن القائل انما يكرر فى الواقع الآراء المتحيزة التى كان يريدها عليه محدثوه من النمساويين أو البوسنيين . ولكن الواقع أن الغجر الرحل فى الأراضى الرومانية ، كانوا لعهود طويلة يتجولون وهم يحملون الخيام أثناء الصيف ، ويحفرون لأنفسهم فى أرض الغابات ملاجئ أثناء الشتاء (٤٨) .

(★) وقد رآهم المترجم بمدينة رشيد فى عام ١٩١٦ ، حيث مرت مجموعة من

الأجانب ومعهم دب أعمى يلعبونه فى الشوارع - (المترجم) .

وكان هناك دون أدنى ريب عدد من التحركات الأخرى الأصغر شأنًا للسكان الفجر الى داخل البوسنة . وكانت أهم تلك الجماعات النازحة في أوائل القرن التاسع عشر جماعة نزحت من سنجقية نوفي بازار ، (وكانت آنذاك جزءا من الايالة البوسنية) ، وسكنت بقرية بوجلي جالا قرب روجاتيكا الى الشرق من سراييفو . وأقام رادى أوليك ، وهو خبير في شئون الفجر البوسنيين ببوجلي جالا قبل الحرب العالمية الثانية ووصفها آنذاك بأنها : « دون أدنى ريب أشد مستوطنات الفجر حيوية واثارة للاهتمام بالبوسنة » .

ان الناس شديداً الجدد في العمل والكفاية وحسن التدبير ، وهم سمكروا أمناء يظهرهم كفاية في التنظيم . ليسوا بالبدا والرجل ، وهم يسكنون في بيوت تبدو عليها سمة الفقر . وهم يجوبون البوسنة أثناء فصل الدفء فيما بين الربيع والخريف ويمضون في اتجاهات مختلفة متنوعة ، بقطارات السكك الحديدية ، ملتصقين العمل في كل عام . . . ومعظمهم يستطيعون الكتابة ، وهم يحتفظون بلسانهم الفجري بمنتهى الحرص (٤٩) .

وعندما عاد رادى أوليك الى بوجلي جالا بعد الحرب العالمية الثانية ، وجد القرية خالية قد هجرها سكانها : « اليوم هي يباب تماما ، والبقية الباقية من الفجر الأحياء فروا الى الجزء الشمالى الغربى من البوسنة » . وقد أبعد ثمانية وعشرون ألف فجري اباداة تامة داخل دولة الأوستاشا ، ولكن الفجر المسلمين كانوا أجسن حالا من الأرثوذكس القرافلاق . وقد كتب رادى أوليك يقول : « وبفضل تدخل الأئمة الكبار من المسلمين منعت مذبحة أكبر كانت تدبر للفجر البوسنيين » (٥٠) . فأما السبب الذى دعا الفجر المسلمين فى بوجلي جالا الى الفرار من جنوب شرقى البوسنة ، فكان فتك الصرب بهم ، وكان من المقدّر للأحياء الاسلامية الفجرية فى مدن كثيرة ، فى جنوب شرق وشمال شرق البوسنة ، أن تشهد أحداثا مماثلة من القتل والتدمير فى ١٩٩٢ - ١٩٩٣ .

الفصل العاشر

المقاومة والاصلاح

١٨١٥ - ١٨٧٨

عندما اقتربت الفترة النابوليونية من نهايتها ، كان واضحا للسلطات في اسطنبول أنه كانت هناك نقاط ضعف في بنية الامبراطورية العثمانية لابد من معالجتها بشدة وقوة ان لم يشأ لها أن تتمزق اربا ، وكان توالى نجاح الثورات الصربية ضربة أصابت الكبرياء العسكرية التركية ، كما أن الحروب النابوليونية في حد ذاتها ، قد أبرزت مستوى جديدا من الكفاية العسكرية في أوروبا الغربية ، جعل الجيش العثماني يبدو متهالكا وقديم الطراز - وهو درك كان قد انحط اليه بالفعل . وكان وضع صربيا شبه المستقل الجديد سابقة يمكن أن تحتذيها بقية أجزاء الامبراطورية ، وبدأت بوادر التمرد في بلاد اليونان ، كما أن اتجاه الدول الأوروبية من ناحية أخرى ، وبخاصة روسيا والنمسا الى جعل نفسها نصراء وحماة لجميع أنواع السكان المسيحيين ببلاد البلقان ، أنزل بالسلطين ضغطا مضاعفا لاصلاح الوضع القانوني للرعية (أى غير المسلمين) ، كما أن الحاجة دعت الى ادخال اصلاحات قانونية وادارية أخرى لمجرد طبع النظام كله بالطابع الحصرى وتحديثه وتحسينه . بيد أن أعظم مشكلة سياسية في المدى القريب ، كانت نمو السلطة والاستقلال الذاتى ليس في أيدي الرعايا المسيحيين وحدهم ، بل في أيدي الحكام المحليين المسلمين شبه المستقلين . وكان أوفرهم طموحا هما على باشا حاكم أيوبينا في شمال غربى اليونان ، الذى حاصرته هناك القوات التركية في ١٨٢٠ ، وما لبث في النهاية أن قتل في ١٨٢٢ ، ومحمد على باشا في مصر ، وهو شخصية جبارة أقوى شكبة بكبر ، شاد قوته بنقله الطرائق العسكرية والادارية عن غرب أوروبا : وقد باءت محاولة لخلعه بالقوة في أوائل ١٨٣٠ بفشل ذريع . وكان حكام آخرون أقل مه قدرا وقدرة ، يعملون هم أيضا على توطيد مكانتهم ، ولكن قل بينهم من فهم أن الحاجة ماسة الى الاصلاح على الطريقة

التي اتبعها محمد علي ، ولم يكن هناك شخص يبشر بالاصلاح المستقبل بالتاكيد بين الثائرين س بكوات وقايطانات وأغاوات البوسنة .

وجاءت أولى المتاعب نتيجة لتصادم بين شخصية حاكم للبوسنة شديد الاعتداد بنفسه وكبرياء أهل مدينة سرايفو وامتيازاتهم المتوارثة ، وكان هذا الحاكم وهو علي باشا السلحدار ، قد نولى منصبه في ١٨١٣ ، وكان رجلا عسكريا قوى الشكيمة حاد الطبع متهورا عازما على كبح استقلال البوسنة . فأعلن عند وصوله الى سرايفو أنه لا ينتوى أن يقضى بها الأيام الثلاثة فقط التي يسمح بها العرف المتبع ، بل بدلا من ذلك فانه سيبادل بين سرايفو وترافنيك على فترات كل منها ستة أشهر . ورفض هذا الاقتراح ، وعندئذ اضطر الى ارسال قواته (ومعظمهم من الترك والألبان) لاختضاع المدينة (١) . كما أن موستار : كما سبق أن رأينا ، هوجمت هي أيضا في ١٨١٤ بجيش عظيم . واتخذت اجراءات مماثلة في ١٨٢٠ عندما رغب السلطان في أن يضمن ألا تقوم البوسنة باحداث أية متاعب له حين يكون الجيش العثماني مشغولا بالقضاء على علي باشا في شمال غربي اليونان : حيث أرسلت قوة تأديبية بقيادة جلال الدين باشا هاجمت موستار وسريبرينكا ، وقتلت القايطانات الثائرين في بانيالوكا وديرفينتا (٢) .

ولم تكن هذه المصادمات الا من قبيل مقابلة المقاومة بالقوة ، بيد أن هجوما نظاميا أكثر على القوة المحلية ، كان مبيتا في أثناء عشرينيات الألف وثمانئة ، وكان يتضمن اصلاح النظام العسكرى والسياسى الذى كان هؤلاء السادة المحليون يسندون منه السند . وكانت نقطة البداية ، شأن جميع محاولات اصلاح العثمانية السابقة ، هي الجيش ، وهناك حقيقة واقعة وهي أن السلطان اضطر تماما الى أن يعتمد على جيش محمد علي الذى دربه الفرنسيون في مصر ، لسحق الثورة القائمة ببلاد اليونان ، وهي تدل على أن اصلاحا عسكريا جذريا كان شيئا لا بد منه . وعندما أصدر السلطان محمود الثانى أمره بانشاء قوة حربية جديدة ، احتشد الانكشارية في ميدان تدريبهم ، للزحف على القصر الامبراطورى وتنفيذ الانقلاب الانكشارى المعهود . ولكن السلطان محمود كان أعد عدته ، وركز قوات موالية له مجهزة بالمدافع حول الميدان ، وبعد نصف ساعة من الفصف المدفعى القوى تم القضاء على القوات الانكشارية في اسطنبول وأبديت اباداة تامة . وهذا الحادث (الذى يشار اليه في التاريخ العثماني باسم الواقعة « الميمونة ») ، مكن السلطان محمود من الغاء نظام

الانكشارية ، منشئاً بذلك جيشاً نظامياً جديداً مقره الأساسى اسطنبول و وحدات جديدة فى الولايات يجند لها الجنود مدة خدمة تدوم اثنى عشر عاماً (٣) . وكان رد فعل ذلك فى البوسنة ، حيث كان الانكشارية يكونون مؤسسة اجتماعية لها امتيازاتها وينتمى اليها بعض سكان المدن هناك ، هو الغضب الشديد . فأرسل عليهم السلطان وزيراً جديداً هو حاجى مصطفى باشا يصحبه ستة قوميسارية لفرض الإصلاح على ذلك البذء ، ولكن البوسنيين ردوه على أعقابهم . وعندئذ أرسل السلطان قوة بقيادة عبد الرحمن باشا فى ١٨٢٧ ، فدخل سراييفو وقضى على الانكشارية هناك ونفذ حكم الاعدام فى سبعة من زعمائهم . ولكن المقاومة لما لبثت أن انتعشت مرة ثانية فى ١٨٢٨ ، وبعد ثلاثة أيام من القتال فى سراييفو ، اضطر عبد الرحمن باشا الى ترك المدينة والعودة الى العادة القديمة وهى الإقامة فى نرافنيك (٤) .

وأدت التغييرات الأساسية فى الجيش ، وهى تتضمن استخدام طرق تدريب تقوم على النظام الأوروبى الغربى الحديث والبدل العسكرية الأوروبية ، الى استمرار المقاومة فى البوسنة ، وانتهاز السادة المحليون الفرصة فسخروا هذا الاستياء الشعبى العام بين المسلمين لتوجيهه نحو مصالحتهم السياسية الخاصة . وفى ١٨٣١ تقدم قابيطان شاب ذو مواهب قيادية من جراداشاك بشمال البوسنة ، يدعى حسين حتى وصل الى نرافنيك بقوة صغيرة واحتل المدينة . وقد أمر الوزير كنوع من التحقير له بخلع زيه العسكرية الحديث ، ثم أمره ، بعد الوضوء ، بالعودة الى ارتداء ملابسه التقليدية القديمة . وأراد أن يحتفظ بالوزير أسيراً ، بيد أن أسيره غافله وفر الى النمسا . (وأقام ذلك الحادث سابقة للتعاون فى المستقبل بين السلطات النمساوية والعثمانية ، على هذه الحدود : حيث كان النمساويون ملوا من مواصلة الاغارة على البوسنة بتحريض من القابيطانات المحليين المتمردين) (٥) . وفى الآونة نفسها تفجر عصيان آخر مماثل ولكنه أشد خطورة فى شمال ألبانيا ، وكان الجيش الثائر يتحرك شرقاً ليشتبك فى القتال مع القوات العثمانية بقيادة الصدر الأعظم . وانتهاز القابيطان حسين هذه الفرصة ، فقاد جيشاً عدته خمسة وعشرون ألف بوسنى حتى بلغ كوسوفو ، وهو يظهر أنه يريد أن يساعد القوات العثمانية . فلما وصلوا قدموا فجأة طلباتهم : الاستقلال الذاتى الإدارى ، وانهاء الإصلاحات بأرض البوسنة ، ووعداً بأن يكون وزير البوسنة منذ ذلك الحين على الدوام ييكاً بوسنياً أو قابيطاناً بوسنياً ، وتعيين القابيطان حسين فى تلك الوظيفة فوراً .

ووافق الصدر الأعظم على تلك الطلبات ، ولكن لم تكن لديه أية نية
فى انفاذها ، وسرعان ما أخذ يعمل ناشطا على إثارة المشاحنات بين هؤلاء
البكوات البوسنيين المختلفين . وفى ١٨٣٢ تمكن من إبعاد قابيطنات
الهرسك الذين كان يقودهم على آغا ريزفان بيجوفيتش (Ali-aga Rizvan
begovich) من الانضمام لتمرّد حسين قابيطان ، ثم عاد فى ١٨٣٢
فأرسل جيشا على البوسنة عدته ثلاثون ألف رجل . وحاول حسين قابيطان
الصمود فى سراييفو ولكن مبعديه تفرقوا عنه ، ثم اضطر هو أيضا
الى أن يلتبس الملجأ بالنمسا . ولكنه ما لبث فيما بعد أن منح عفوا مشروطا
من السلطان ، ثم أرسل الى منفى فى داخل البلاد بمدينة طرابزون .
وكانت مكافأة على آغا ريزفان بيجوفيتش أن فُصلت له الهرسك عن إيالة
البوسنة ، ومنحت له كولاية منفصلة تحت حكمه (٦) . ثم وقعت بعد
ذلك بعض عمليات المقاومة الجديدة فى البوسنة ، ولكن الوالى الجديد وهو
سعيد صالح باشا فيجها (Mehmed Salih-pasha Vedjehija) قمعها
بقسوة ثم اختدع آجان من بانيا لوكا نائم الشغب حتى حضر الى سراييفو ثم
سُبق (٧) .

وبينما حسين القابيطان يحلم بقيام بوسنة ذات استقلال ذاتي
داخل الامبراطورية العثمانية ، استمر التحول التدريجي لتلك الامبراطورية .
فألغى نظام اقطاعيات التيمار فى ١٨٣١ . ولكن ذلك لم يقلب الأوضاع فى
البوسنة : إذ أن كثيرا من الفرسان (النسباهي) تجاهلوه ، وتشجعت
مجموعة أخرى من ملاك الأراضي على الاسراع بتحويل التيمارات الى
« أغالوكات » و « بيجيلوكات » (٨) . ولا شك فى أن احتمال ثورة الفلاحين
على ملاك الأراضي كان قائما وقد تحقق فى ١٨٣٤ و ١٨٣٥ ، والأمر الملفت
فى ثانية هاتين الثورتين هو التعاون الذى حدث بين موالى الأرض الكاثوليك
والأرثوذكس (٩) . ومن ثم فقد تقرر اصلاح خاص بالبوسنة والهرسك
وحدهما ، وبه تم إلغاء نظام القابيطانات فى ١٨٣٥ . ولا ندري كيف استقبل
هؤلاء القابيطانات أنفسهم ذلك الاصلاح . ولكن لا ريب فى أن غضبتهم كانت
أقل كثيرا مما كان متوقعا . وبدلا من القابيطانات أصبح حكم البلاد منوطا
ببوسلدين (وهم موظفون يمثلون الوالى ويعينون من قبله) . وعين فى
وظيفة الموسيليم هذه كثير من القابيطانية والأجانات والنسباهي السابقين ،
وهو أمر لعله رد اليهم كبريائهم وأن حرّموا من بعد ذلك من قيادة قوانينهم
الخاصة المحلية ، وتوريث المنصب . ورغم أن بعضهم قد ثار فى البوسنة
الغربية فى ١٨٣٦ لكن ثورتهم أُخمدت على يد جنود من الأناضول . وما لبث
بعض الأغاوات أن ثاروا مرة ثانية فى السنة التالية . وحدث تمرّد آخر
فى ١٨٤٠ ، أدى الى طرد الوالى مؤقتا من ترافنيك ، ولكن أُخمدته بعد ذلك
الجند النظامية . وسنرى فيما بعد كيف أن القابيطانات الآخرين البعيدين

عن هذه الأحداث والذين لم يعينوا موسيليمين ثاروا في آخر الأمر في ١٨٤٩ و ١٨٥٠ فلم يبق نفس المصير (١٠) .

لم تفسر معظم الإصلاحات الأخرى التي أدخلتها الدولة العثمانية في ثمانينات القرن التاسع عشر وضع البوسنة إلا بدرجة أقل . ومنها إدخال نظام الخدمة البريدية وإنشاء جريدة رسمية وإنشاء مدارس جديدة ، وإصلاح الوزارات ، ولكن في ١٨٣٩ ، تولى العرش بعد السلطان محمود ابنه عبد العزيز الأول الذي أصدر في نوفمبر من تلك السنة فرمانا مكونا من خمسة عشر مادة أكبر كثيرا من الإصلاحات في وثيقة تسمى الخط الشريف . جوهر Hatti-i Sherii (وهو اسم معناه الحرفي فرمان النبيل الموقع . وفي حقيقة الورد . وقد أسمى بذلك الاسم تيمنا بفناء سراي التوبكاي الذي أصدر منه ذلك فرمان) . وأعلن هذا فرمان أن جميع الرعايا ، بغض النظر عن دينهم ، مخلون أماما متساويا على الحياة والشرف والممتلكات - وبذلك ألغى في الواقع قانون البرعية ، وقد أقام أساسا جديدا لتجنيد في الجيش ، وكان يحتوي على طرائق جديدة لتقييم الضرائب . وجمعها ، ملغيا بذلك طريقة « الالتزام » القبيحة السيرة . كما تم إحكام هذه المبادئ بسلسلة متلاحقة من الإجراءات التالية ، وكررت في فرمان مائل صادر في ١٨٥٦ هو خط همايون (Hatti-i Humayun) . والمجموع الكلي للإجراءات الإصلاحية أثناء تلك الفترة يعرف باسم جامع هو «التنظيمات» . ويعنى ذلك إعادة تنظيم الامبراطورية ، أو لو شئنا أن نستخدم له مصطلحا صدر في آخريات القرن العشرين ، مع كل ما صاحبه من أصداء سوء الحظ والمصير والنجاح ، وهو مصطلح البروسترويك (١١) . والمبادئ المقدمة في الخط الشريف مبادئ نبيلة أجيد تمحيصها والتفكير فيها . ولكن لم يكن لها لسوء الحظ الا أثر طفيف (أو حتى لا أثر إطلاقا) ، في المناطق الخارجية البعيدة من الامبراطورية كالبوسنة مثلا ، حيث قوبلت بتجاهل تام .

وكانت البوسنة عند ذلك الوقت ترزح تحت حال شديد من سوء . وربما لم يقاس أى جزء من البلاد بدرجة بالغة السوء من كثرة القتال والاضطرابات ، وينبغي لنا أن نتردد قبل أن نفترض أن كل سكان البوسنة جميعا غرقوا في وهدة البؤس والشقاء : فإن امرأة أرثوذكسية أبلغت ذاتها انجليزيا في منتصف سبعينيات الألف وبثمانئة أنه « قبل ثلاثين سنة كان عامة الناس أيسر حالا بكثير منهم الآن ، إذ لم يكن عليهم آنذاك من ضرائب الإخراج . . . كانوا أغنياء ويملكون الخيل والثيران والجنائز والأغنياء والدواجن . . . ومع أنهم لم يكونوا ينعمون بأية حرية ، فمع ذلك كان

البكوات وغيرهم من نسيادة الأرض يحمون ويدافعون عن موالى الأرض. التابعين لهم » (١٢) . ولكن لا يجب أن ينسى أنه على الدوام يبدو للناس أن الأمور كانت أحسن حالا منذ ثلاثين عاما . وفى الواقع كانت الأحوال سيئة السوء فى منتصف سبعينيات الألف وثمانمئة ، ومن المؤكد أن الحال العامة فى البوسنة لم تكن حسنة فى أربعينيات الألف وثمانمئة ، فان بنيتها الأساسية والاقتصادية دخلهما الضعف بسبب ما مر عليها من القتال . وقد أصدر الجغرافى والمؤرخ الفرنسى العظيم أمى بويه (Ami Boué) تصنيفا للطرق البلقانية فى ١٨٤٠ ، وفيه وصف أدنى فئة بأنها « فى حالة يرثى لها » ، وخص بها البوسنة وألبانيا ، وهو يصف هذه الطرق بأنها : « سلال من أحجار » (١٣) . وها هو القنصل الرسمى النمساوى ، وهو ديميتير أتاناسكوفيتش (Demeter Atanaskovic) يبلغ ميترنيخ بعد زيارة للبوسنة فى ١٨٤٤ : « أن الانطباع الذى خرجت بها عند رحيل من البوسنة تكاد تكون أسوأ من التى كونتها عند وصولي » (١٤) . فقد كانت طبقة ملاك الأرض ، وقد أفعمتها الماراة وسحقت آمالها السياسية القومية مرارا أخذت تكرر كل طاقتها فى محاولة اغتصاب أقصى ما يمكن من الأموال من أيدي الفلاحين بدلا من السعى لتحسين الأوضاع ، وكانت نفوس البكوات ممثلة بالشكوك المتزايدة ، كما لاحظ بويه ، خشية أن يلجأ المسيحيون الى استدعاء أبناء ملتهم من الأجانب الى غزو البلاد ، وكانت المشاكل الجوهرية اقتصادية وسياسية وليست دينية (١٥) . وكان الفلاحون المسلمون يعانون من ، نفس « الاعتصار » البالغ الذى يتعرض له اخوانهم المسيحيون ولدبنا التماس يمزق نياط القلب موجه الى والى البوسنة فى ١٨٤٢ يشكو فيه كاتبه من ارتفاع الرسوم والضرائب فوق طاقة الناس ، وقد بدأ بقوله : « نحن المواطنين المسلمين والمسيحيين المتعساء فى كل أرجاء منطقة تيشانى (Tisani) » (١٦) .

وحاول الوالى الجديد الذى وصل فى ١٨٤٧ ، واسمه طاهر باشا ، أن يصلح النظام المعتاد من الرسوم والضرائب المفروضة على الفلاحين ، بالتسوية للمزارع الأغالوقية : فألقى السخرة ، (وهى الشغل الاجبارى فى أرض صاحب الملك) ، كما أنه فى مقابل ذلك رفع نسبة القمح التى كان ينبغي تقديمها الى مالك الأرض من الربع الى الثلث . ولسوء الحظ أن معظم الملاك نفذوا البند الثانى من هذه التغييرات دون الأول وهو السخرة (١٧) . وعندما حاول طاهر باشا كذلك تنفيذ اصلاحات الجيش ، التى لم تكن تطبق حتى آنذاك بطريقة مثلى ، فى البوسنة ، انفجرت ثورة البكوات والأغاوات للمرة الثانية ، وانغمست البلاد فى موجة قتال فى ١٨٤٩ ،

كما أن التمرد كان لا يزال في الذروة عندما توفي طاهر باشا في ١٨٥٠ (١٨) .

وعندئذ أرسل السلطان إلى البوسنة واحدا من أشد الولاة فاعلية وذكاء ، في هذا القرن الأخير من الحكم العثماني ، وهو عمر باشا لاتاس . كان اسمه في الأصل ولد ميشيل لاتاس ، إذ كان سلافيا من منطقة ليكا وشغل رتبة جاويز في الجيش النمساوي على التحوم العسكرية ، وكان يجيد الحديث بالألمانية ، ويفهم كيف تسير الأمور في جيش أوروبي غربي ، ويملك مهارات سياسية وعسكرية حقة . وبعد أن قضى على التمرد قضاء مبرما في ١٨٥٠ - ١٨٥١ ، أرسل كثيرا من البكوات وغيرهم إلى المنفى ببلاد الأناضول ، وألغى أيضا الباشالوكية (Paşhaluk) المنفصلة لبلاد الهرسك ، ووضع تقسيما إداريا جديدا للبوسنة والهرسك ، حولهما إلى تسع مناطق . وضع كل منها تحت إمرة قائمقام Kajmak (وهو ممثل للوالي يكاد يكون صورة عسكرية أكثر للموسليمين) (١٩) . وقد التقى به ديمتر أتاناسكوفيتش ، الذي عاد إلى البوسنة كقنصل عام للنمسا في ١٨٥٠ ونقل عنه هذا التعليق ، قال : « هناك أسباب سياسية لا نستطيع الحكومة العثمانية من أجلها إلا أن تسير بتنهل شديد وحذر في مسألة إصلاح أحوال المسيحيين ، حتى لا تفضيظ المسلمين الذين تعتمد عليهم الدولة من حيث السند والقوة تماما » (٢٠) . ولم تكن بعض إجراءاته الإصلاحية مقبولة تماما لدى الفلاحين المسيحيين : فإن سياسته في نزع السلاح من أيدي السكان جميعا جعلتهم يشعرون بأنهم مستضعفون ، كما أن بعض من عينهم من القائمقامات ممن ليسوا من أصل بوسني ، قد ارتكبوا بعض الأخطاء . كتب أتاناسكوفيتش في ١٨٥١ يقول : « قد عم الناس التذمر والسخط » (٢١) . ولكن القوة السياسية للطبقة القديمة من ملاك الأرض قد قصمت قصما لا رجعة فيه ، ومنذ تلك اللحظة أصبح في الامكان بذل المحاولات لادخال الإصلاحات الواردة في التنظيمات العثمانية .

ولا أدل على الحاجة الماسة إلى هذه الإصلاحات من التماس أرسله مسيحيو البوسنة إلى السلطان في ١٨٥١ . وقد جاء من بين ما طلبوه من مطالب أنهم يرجون أن يعاملوا بوصفهم أنراكا لا بوصفهم « رعية » ، وطالبوا بالمساواة أمام القانون ، ورغبوا في وجود عدد متساو من القضاة المسلمين والمسيحيين ، والنمسوا إزالة ضريبة الرأس أو الخراج (٢٢) . فأما الطامبان الأولان فكانا من حقهم منذ صدور فرمان حديفة الورد في ١٨٣٩ ، كما أن الثالث كان امتدادا وتوسعة لنفس المبدأ . (والواقع أنه كان هناك فعلا ثلاثة قضاة مسيحيين بمحكمة المدينة في ترافنيك ، بيد أن

هذا كان ترتيبا استثنائيا (٢٣) • وقد ر لالغاء الخراج أن يتم فى ١٨٥٣ عندما رفع الحظر التاريخى القديم الذى كان يمنع المسيحيين من الانتظام فى الخدمة العسكرية النظامية • ولكن نظرا لأن الخراج قد بدل به رسم بدلية عن الخدمة العسكرية ، وهو رسم كان يجمع بنفس الطريقة ، ونظرا لأن معظم الرعايا المسيحيين استمروا فى امتناعهم القديم عن الانخراط فى الجندية ، فالواقع أن هذا التغيير لم يحدث أى فارق عند المسيحيين فى الممارسة العملية للأمر • والفرق الحقيقى الوحيد أنه وجب على غير العاملين فى الجيش من المسلمين دفع ضريبة اضافية لا بد من دفعها (٢٤) •

وكما أشرنا آنفا ، كان موقف المسلمين من البوسنيين ازاء المسيحية قد اتخذ سمة شئ من الصرامة قرب النصف الأول من القرن التاسع عشر • رتقدم التقارير القنصلية أثناء تلك المدة أمثلة كثيرة فى هذا الشأن • وعندما خصلت الجالية الأرثوذكسية على اذن بمدينة ترافيك لبناء كنيسة فى ١٨٥٣ ، أصر المواطنون المسلمون على أنها لا بد أن تبنى خارج المدينة • وفى نفس العام رفض طاب الكاثوليك أن يبتنوا لأنفسهم كنيسة فى سراييفو (وان منح ذلك النصريح بعد ذلك سريعا ، ولكن ذلك من ناحية جزئية نتيجة للضغط من جانب الهيئات القنصلية الأجنبية) • وشكا القسيس الكاثوليك فى ليفنو من أن المسيحى من هؤلاء لم يكن ليستطيع أن يحصل على حكم لصالحه من احدى المحاكم فى حالة واحدة من مئة (٢٥) • على أننا حين نقرأ هذه الشكاوى ، ينبغى لنا أن نتذكر أن عددا لا بأس به من الكنائس الجديدة ومشيخات الكنائس والمدارس كان يجرى بناؤها فى أجزاء مختلفة بين ١٨٢٠ و ١٨٥٠ وما بعدها • وبالإضافة الى المدرسة الأولية بسراييفو ، التى كانت لديهم منذ بواكير القرن الثامن عشر ، كانت للطائفة الأرثوذكسية مدرسة ثانوية هناك فى ١٨٥١ ، وكانت لهم من قبل بالفعل مدارس أولية فى عشر مدن بوسنية أخرى ، ولا بد أنه فى ١٨٧٠ قد كانت لهم بالفعل ثمان وعشرون مدرسة أولية ، وربما بلغ مجموع ما لديهم من مدارس سبعا وخمسين • وفى ستينيات الألف وثمانمئة كانت للكاثوليك مدارس ثانوية ببعض المدن الكبرى ، و ٢٧ مدرسة أولية ، وبنيت عدة كنائس كاثوليكية فى خمسينيات الألف وثمانمئة (٢٦) •

أما من حيث الكم والعدد ، فقد انتعشت أحوال كلتا الكنيستين بالبوسنة فى أواخر العهد العثمانى : وفى خمسينيات الألف وثمانمئة ، كان هناك بالتقريب ٣٨٠ قسيسا كاثوليكيا وأكثر من ٤٠٠ قسيس أرثوذكسى (٢٧) • ولو نظرنا الى ذلك السجل من حيث الكيف فان السجل يكون أقل تأثرا • وقد عقب معظم الملاحظين الأجانب على ضعف مستوى

الفرنسيين بوجه عام ، كما أن جميع المراقبين أصيبوا بصدمة لما رأوه من شح رجال الدين الأرثوذكسي : وقد لاحظ زائر ألماني أنهم كانوا يشترون أبروشياتهم مقابل مبلغ يتراوح بين عشرين وثمانين دوقية ، ووصفهم بأنهم « حثالة البشرية » (٢٨) . ولاحظ آخر أن الأساقفة الأرثوذكس كانوا يشترون كراسي وطاقمهم بمبالغ طائلة من المال ، ثم يحاولون بعد ذلك استرداد هذه الأموال عن طريق استغلال رعيته ، وأفضى بهم ذلك إلى « صداقة حميمة بصنورة مفرطة مع السلطات المحلية المسلمة » (٢٨) . ولكن لا شك في أنه كان يوجد بين ظهرائي رجال الدين المتصحيين والمدرسين من كل من الكنيستين ، قلة من الأفراد الناشطين النابيين . فبعضهم كانوا متدينين أصلاء مثل جرجو مارتيتش (Grgo Martić) زعيم الفرنسيين في سراييفو من خمسينيات حتى سبعينيات الألف وثمانمئة . ولكن البعض الآخر منهم لم يكتفوا بالأنشطة الدينية ، بل جمعوا السياسة إلى الدين . وهؤلاء كانوا رجالا من أضراب الفرنسيين إيفان فرانكو يوكيتش الذي التقينا من قبل بملحوظته التاريخية حول تحول البلاد إلى الإسلام في أثناء العصور الوسطى ، وهناك أيضا تيوفيل بترانوفيتش (Teofil Petranović) ، وهو مدرس بالمدرسة الأرثوذكسية بسراييفو في ستينيات الألف وثمانمئة . وقد شكل جماعة من الناس كانوا ينطلقون إلى القرى ليلغوا الفلاحين الأرثوذكس بأنه

« ينبغي لهم الكف عن تسمية أنفسهم باسم هيرشاني Hirschani ، (وهو المصطلح المحلي الذي يطلق على الأرثوذكس) ، وأن يشعروا في تسمية أنفسهم باسم الصرب » ، وفاسو بيلاجيتش ، ناظر المدرسة الأرثوذكسية في بانيا لوكا الذي كان يدعو الناس لنصرة قضية « القومية الصربية » (٣٠) . وأخيرا اعتقل بيلاجيتش وحكم عليه بالسجن ، وإن أذن له بالبقاء في مقر المطرانية الأرثوذكسية بسراييفو بدلا من الذهاب إلى السجن .

ولكن على وجه العموم ، فإن الأمر المسنق للنظر هو تسامح السلطات البوسنية إزاء مثل هذه النشاطات ، وقد كانوا بطبيعة الحال على وعي بأن القوميين على كل من جانبي الأراضي البوسنية في كرواتيا وصربيا ، كانوا يهدفون إلى ضم البوسنة إلى أراضيهم ، فإن ضابطا من الجربنتس (قوات الحدود النمساوية المجرية) بكروايا هو الميجور

أنطوني أوريشكوفيتش (Antunje Oresković) بلغ به الأمر أن حاول أن ينظم شبكة ثورية في البوسنة في أوائل ستينيات الألف وثمانمئة بفصد تفجير ثورة عامة وإنشاء ولاية سلافية جنوبية جديدة ، ولكنه كان يهتزم كذلك تخليص الشعب من حكم النمساويين ، لذا كانت السلطات النمساوية هي التي انقضت عليه في النهاية هو وأصدقائه (٣١) . أما فيما

يتعلق بالدولة الصربية المستقلة استقلالا شبه ذاتي ، فان أطماعها في البوسنة كانت واضحة تماما . فان المفكر الصربي الأكبر فوك كاراجيتش نشر مقالا في ١٨٤٩ بعنوان « صربيون جميعا وفي أي مكان » ، ادعى فيه أن شعب البوسنة ودالماتيا أيضا ينتميان عرقيا الى الشعب الصربي (٣٢) . وفي ١٨٤٤ وجدنا وزير الداخلية الصربي ايليا جاراشانين

(Ilija Garasanin) قد كتب مذكرة سرية وضع فيها بالتفصيل الخطط والوسائل التي تؤدي الى اثار عاطفة موالية للصرب بين أبناء البوسنة ، وذلك بقصد استلحاقها في نهاية الأمر وضمها الى صربيا . ومن بين تلك الخطط تدريب البوسنيين الشبان داخل الادارة الصربية واستثمار جهود كبار الرهبان الفرنسيين (٣٣) . ونخطيء اذا نظرنا الى هذه المحاولات في ضوء الاطماع التوسعية التي ترمى الآن الى تأسيس « صربيا الكبرى » ، فهو أمر ينطوي على مفارقة تاريخية . ففي ذلك الأوان كانت صربيا هي الدولة الوحيدة التي كان في مستطاعها لعب الدور الذي لعبه « بيدمونت » في توحيد ايطاليا . فكل صربي شاء أن يرى دولة سلافية جنوبية تولد وتنمو ، كان من الطبيعي أن يرى ذلك لا يتم الا على أساس توسعة صربيا نفسها . على أنه من الناحية الأخرى كان هناك كثير من قادة الفكر الكرواتيين ، مثل أنتي ستارتشيفيتش (Ante Startcevic) وبوجين كفاترنيك (Eugen Kvaternik) وهم قوم كانت لهم أيديولوجية مماثلة ولكنها معاكسة ومناقضة ، يعلنون فيها أن البوسنيين من الكروات (٣٤) . على أن السلطات المسلمة في البوسنة لم تكن بطبيعة الحال تتابع هذه الجدالات الفكرية متابعة تفصيلية ، بيد أنهم كانوا على وعي كامل واضح بأن البوسنة كانت مطعما يتنافس عليه كلا الجارين الأرثوذكسي والكاثوليكي تنافسا واضحا للعيان .

وبينما كل هذه الاضطرابات تمضي في سبيلها اiban ستيينيات الألف وثمانمئة ، كانت البوسنة تنعم بعقد من الزمان ذهبي الى حد ما ، تحت رجل من أعظم حكامها أريحيية ، هو توبال عثمان باشا (Topal Osman-Pasa) . ويكاد يكون من المستحيل عليك ألا تبدي إعجابك بهذا الرجل ، وذلك من ناحية جزئية لأن كثيرا مما نعرفه عنه قد جاءنا من مذكرات طبيب سويسري محب للأتراك هو يوزف كوتشيت (Josef Koetschet) ، الذي كان بقم سراييفو في ١٨٦١ حيث فنج بها صيدلية ، وأصبح محل ثقة ومستشارا لمجموعة متعاقبة من حكام البوسنة . وكان واضحا أن توبال عثمان باشا كان أحبهم الى قلبه . (وبدهى أن الأحوال لم تكن رغبة آنذاك وكان سبب مجيء كوتشيت الى البوسنة هو في المقام الأول أنه كان الطبيب الشخصي لعمر باشا لاتاس الذي أعيد

ارساله للمرة الثانية الى هناك قائدا عسكريا للقضاء على ثورة أخرى أشعلتها في الهرسك ، جارتها الجبل الأسود (٣٥) . غير أن توبال عثمان باشا (وقد لزمته كنية توبال أى الأعرج ، اشارة الى اصابته بالعرج من جراء جرح أصابه فى احدى المعارك) ، كان كما هو واضح خير مثال لرجل الادارة التركى المتحضر ، وكان فيما سبق أميرالا وحاكما مدنيا للجراد . وكان يجيد التركية والعربية والفارسية وآدابها جميعا ، كما كان يجيد كتابة الشعر التركى ، ويتحدث الفرنسية واليونانية . وشيد فى سراييفو مدارس اسلامية جديدة ، واذن للمجتمعات المسيحية ببناء مدارس أكثر لأولادها ، وبدأ مكتبة عامة تجمع الأعمال والكتب العربية والفارسية والتركية فى مسجد بيچوفا ، وأنشأ مطبعة كانت تنتج الكتب المدرسية ، كما أنشأ صحيفة أسبوعية هى « بوسنيا » ، كانت تصدر بالصربوكرواتية والتركية . ثم طفق يعمل فى مشروع انشاء طرق ناشط طموح ، حتى أتم طريقا رئيسيا يمتد من سراييفو الى الشمال حتى يصل الى بوسانسكى بروود (Bosanski Brod) فى مدى سنة واحدة . بل انه أمر فمه فرع السكك الحديدية من بانيا لوكا الى الحدود الكرواتية ، وكذلك أيضا أنشأ مستشفى سراييفو ، وهو أول مستشفى عام بالبوسنة كلها ، يحتوى على أربعين سريرا للمرضى من جميع الديانات (٣٦) .

وتمت على يديه أيضا بعض الاصلاحات السياسية . فان النظام الجديد للتجنيد العسكرى للمسلمين أدخل أخيرا الى البوسنة فى ١٨٦٥ ، وكان توبال عثمان باشا حذرا معهم ، فوعد بأنهم لن يستخدموا خارج البوسنة ، ورسم تخطيطا للاصلاح وبدأ فى تنفيذه بأن جند ما يربو على ألف متطوع ، وفى السنة التالية نفذ بالفعل التغيرات البعيدة المدى التى استوجبها قانون اصلاح الأقاليم الصادر فى ١٨٦٤ . وقد شمل ذلك التغير اعادة تنظيم ايالة البوسنة بأكملها ، (التي أصبحت تسمى منذ تلك اللحظة « ولاية ») ، وبذلك تم انشاء محاكم جديدة (مع محكمة استئناف مختلطة تجمع بين المسيحيين والمسلمين) ، وتم تقسيم المناطق البوسنية والهرسكية الى سبع سنجقيات كانت كل منها ترسل آنذاك ممثلها (اثنان منهم مسلمان والثالث مسيحي) الى جمعية استشارية كانت تجتمع لمدة قد تصل الى أربعين يوما مرة كل سنة ، لتشير على الوالى فى الشئون الاقتصادية والمالية : الزراعة وفرض الضرائب ، وانشاء الطرق ، وما الى ذلك كله . كما كان هناك بالاضافة الى ذلك مجلس تنفيذى صغير : مكون من اثنى من المسلمين ومسيحيين ويهودى واحد ، كان يجتمع برئاسة الحاكم مرتين كل أسبوع . ورغم الوضع الاستشارى للمجلسين ، لكن تأسيسهما كان

تقدما هائلا جدا ، عن الطريقة التي كانت تدار بها الأمور في البوسنة على امتداد القرون الأربعة السالفة (٣٧) .

ومن أكبر المشاكل ، شأن الأحوال في تلك الفترة الأخيرة من الحكم العثماني في البوسنة ، مشكلة العلاقات بين الفلاحين وملاك الأرض . فهنا كان الاجراء الاصلاحى الرئيسى هو الفرمان الذى صدر فى ١٨٥٩ ، قبيل وصول توبال عثمان باشا بزمن يسير جدا . وبذلك واجهه الدور الأصعب لتنفيذه . كان الفرمان محسولة لتقنين العسرف حول واجبات الفلاحين الذين كانوا يعملون بمزارع الاغالوكات ، وهى مزارع اقطاعيات التيمار السابقة التى ظل لها أساس قانونى فى العلاقات بين الفلاح ومالك الأرض . حيث حددت المكوس المدفوعة لمالك الأرض بثلثي المحصول ، وهى المسماة بالتريتينا Tretina ومعناها الثلث) . ولما كانت عشور الدولة ، وهى مدفوع نقدى يعادل عشر المحصول ، تخصم أولا وتقدر التريتينا أى الثلث على الباقي من المحصول ، فان ذلك كان معناه أن هذه المدفوعات الأساسية كانت تصل الى أربعين فى المئة من المحصول الكلى للفلاح ، كما كانت هناك ضرائب أخرى رسمية شتى ، كالضريبة الجديدة التى فرضت بدلا من الخدمة العسكرية . وعندما يصف المؤرخون العصريون نظام الضرائب فى البوسنة بأنه « باهظ وتعسفى » لأنه « يمتص أكثر من أربعين فى المئة من إيراد الفلاح » ، فان قولهم هذا يكاد يغرينا أن نشير بأنه يماثل نسبة اجمالى الانتاج القومى المأخوذة من جميع أشكال رسم الضرائب فى كثير من دول القرن العشرين (٣٨) لكن المقارنة صعبة لأن العاملين فى عصرنا هذا يتوقعون أن يعود اليهم معظم ما يدفعونه من مبالغ فى صورة الرعابه الصحية والتعليم وما الى ذلك ، ولم يكن ذلك هو الوضع أيام الفلاح البوسنى . ومن ناحية أخرى كان هؤلاء الفلاحون غير مضطرين الى شراء بيوتهم ولا استثمار أى مال فى الأرض . وهناك مبدأ أخسر قفنه فرمان ١٨٥٩ ، هو أن مالك الأرض ينبغى أن يزود الفلاح بالدار التى يسكنها ، ويساعده فى وقايتها واصلاحها . وكان الفلاحون أحرارا فى ترك مالك الأرض ، وكان لمالك الأرض الحق فى طردهم ، ولكن ذلك فقط بشرط عدم قيامهم بالعمل نلى الوجه المرضى ، وعدم دفع المكوس المفروضة ، وذلك مع الحصول على موافقة موظفى الحكومة الرسميين (٣٩) . ومن سوء الحظ أن هذه القواعد لم تكن تنطبق الا على الاغالوكات ولم يكن لها أثر على البكليكينات ، حيث كان ملاك الأراضى يستطيعون أن يقيموا أية علاقات تعاقدية شاءوا . ومن ثم فان أثرها الرئيسى كان تشجيع ملاك الأراضى على نقل وتحويل حيازتهم للأرض من هذا الشكل الى ذاك .

ويرى يوسف كوتشيت في دراسته لهذه الفترة أن هناك مبالغة وتضخيما في تصوير ظروف الابتزاز وسوء المعاملة التي تعرض لها الفلاحون على أيدي ملاك الأراضي آنذاك حيث يقول :

كان معظم موالى الأرض (الكميتس) يعيشون على أساس مقبول من المودة والصداقة مع ملاك أراضيهم . والواقع أنه كان يحدث في السنوات السبعة أن ملاك الأراضي - وأعني بهم الأغنياء والمحترمين فيهم كانوا يبذلون كل مساعدة ممكنة لموالى أراضيهم . حقا انه كان هناك أيضا بعض الأغوات غلات. الاكباد الذين كانت قبضتهم الحديدية ترسخ بثقل على كاهل الفلاح المسكين الذي لا يجد مدافعا يدفع عنه . ومع هذا فان العبداء الذي كان ينمو ويستفحل في مثل تلك الأحوال كان ناجما عن المصلحة الاقتصادية ، أكثر منه عن مسببات دينية أو سياسية (٤٠) .

ومن المؤكد أن الصورة التي يصورها كوتشيت للحياة في سرايفو في ذلك الوقت اتما نهي صورة وردية . حيث يستعيد ذكريات أيام الأحد في الصيف ، يوم كانت الغائلات الكاثوليكية والأرثوذكسية تخرج في العصر للنزهة على سفح التلال المطلة على الطريق الى ايليدج (Ildze) وكان « المسلمون والمسيحيون واليهود يمشون في طريقهم بسلام ... وهم يستمتعون بدرجة واحدة من الاحساس بالأمن في ذلك الزمن المبارك حينما كانت القلوب تجهل معنى التعصب عن الكراهية الدينية » . (٤١) . ولم يحدث الا عند نهاية ستينيات الالف وثمانئة حسبا يروي كوتشيت. ان الجو اخذ يربد بعد أن انتهت السنوات النسخ التي حكم فيها توبال عثمان باشا البوسنة . وفي ١٨٦٩ صدرت عن اسطنبول أوامر ملحة بالبحث عن مثيري الشغب من السلاف الذين يدعمهم الروس ، ولذلك صدرت الأوامر الى كوتشيت نفسه ، من الموالى الجديد بالبحث عن مروجي الدعاية الصربية في دير دجيتوميسلبتش (Djitomislich) الأرثوذكسي ، قرب موستار ، وهو أمر أثار ضيفه (٤٢) . وحدث المريد من التذمر العلني في ستينيات الالف وثمانئة أيضا ، ولم يكن موجها ضد ملاك الأراضي ، بل ضد جباة الضرائب التابعين للولاية ، الذين جرت عاداتهم على تحديد قيمة محصولات الفلاح (والمطالبة بالدفع) قبل جنيها ، وكان ذلك من أبغض الأشياء الى الناس . وحدث في ١٨٦٨ أن ألفا من الفلاحين الأرثوذكس والمسلمين احتجوا في منطقة بوسافينا (Bosavina) بشمال البوسنة ، وفي ١٨٦٩ اجتمعت جماعة تقدر بمئة من الفلاحين المسلمين والأرثوذكس فقدموا احتجاجا مماثلا في فوتشسا (٤٣) . وهذه الأمثلة

للتعاون الدينى المتبادل تؤيد ، والحق يقال ، وجهة نظر كوتشيت بأن الأسباب الأساسية للغضب والاضطراب كانت فى الحقيقة اقتصادية . أكثر منها دينية . ولكن فى الوقت نفسه كان هناك بكل تأكيد احساس جديد بالعداء نحو المسيحية ، أخذ ينتشر بين صفوف رجال الدين المسلمين والحججات (Hodzias) أى معلمى الدين بمدينة سراييفو . ولم يحدث الا فى فترة ١٨٧١ - ١٨٧٢ حسب رواية كوتشيت أن بدأنا لأول مرة نشهد صورة للكراهية الدينية ، (٤٤) .

وهناك قضية بارزة هى قضية بناء الكاتدرائية الأرثوذكسية . وكان بناءها ذاك رمزا للوضع القانونى المتغير للمسيحيين البوسنيين ، الذين كانت ترغب مصالحهم آنذ الهيئات القنصلية الأجنبية وحكومتا الدولتين «الحاميتين» - روسيا للأرثوذكس وحكومة النمسا والمجر (وذلك كان اسمها فى تلك الآونة) للكاتوليك . والحق ان تدخل المنظمات المسيحية المتمتعة بالرعاية الأجنبية بأرض البوسنة ، يعد من أبرز مظاهر تلك الفترة : ففي ١٨٦٩ سمح لجماعة من الرهبان الكاثوليك من أرض الراين ، أن تبني ديرا فى بانيا لوكا ، وفى ١٨٧٠ أنشأت بولين إبري (Pauline Iby) مدرسة فى سراييفو تمولها هيئة مسيحية انجليزية ، وتعمل بها معاونات بروتستانت من ألمانيا ، وفى السنة التالية وصلت الى البوسنة جماعة من الراهبات النمساويات (هن أخوات الصدقة والاحسان) لكى يبتنن ديرا ويشغلن بالتعليم الأولى (٤٥) . وعندما صدر التصريح فى ١٨٦٣ ببناء كاتدرائية أرثوذكسية فى سراييفو ، جمع لها المال من كل أرجاء العالم الأرثوذكسى ، وأخذ مبعوث من مطرانية البوسنة يطوف بكل أنحاء روسيا وهو يحمل أثرا دينيا مقدسا هو يد القدس تكلا ، ليجمع التبرعات (٤٦) .

وبينما المبنى يقترب من نهايته فى ١٨٧٢ ، نشب نزاع مريع بين المجتمع الأرثوذكسى ورجال الدين المسلمين ، الذين أصروا أن برج الجرس الكاتدرائية ينبغي ألا يعلو على مثذنة مسجد بيجوفا (٤٧) . فأما قرع الأجراس فكان فى حد ذاته أعجوبة وبدعة ، فقد جرت العادة الثابتة أمدا طويلا أنه ليس بالمسموح فى المدن العثمانية بأى دق للأجراس المسيحية . وشرع بعض الديماجوجيين من الحجاب والأئمة فى إثارة السكان المسلمين وتهيج أنفسهم على هذه المسائل . وكان أحدهم رجلا ضخما منبجحا فظا يدعى الحاج لويو (نظرا لأنه حج الى مكة) ، وكان يعامل على أنه حجة فى الدين وإن كان فى الحقيقة غير متعلم على الإطلاق (٤٨) . فأما الآخر فهو الامام المتعصب لمسجد بيجوفا . ومهما يكن من شئ ، فانه عندما أثار ذلك الامام الجدل حول قرع الأجراس فى الكنائس ، وجد من هو كفو له فى الوالى الجديد ، وهو ألبانى لا يحب الهراء اسمه محمد عاكف باشا .

وبدأ الامام حديثه بتلاوة آية من القرآن . فصاح به الى الوالى : « صمتا ايها الحمار ! أتريد أن نعلمنى القرآن !!؟ ١١٩ ٠٠٠ أنت اذن لا تطيق سماع صوت الاجراس ايها الكلب !!؟ ١١٩ ٠٠٠ وأنتم أيضا يا من معه من الناس ٠٠٠ أبلغتم من الغباء حتى لا تدركوا أن هذا الوعد لن يمتنع أن يدق الاجراس بنفسه ، بما دام سيدفع له خمسون قرشا فى كل شهر على أداء ذلك ؟ » (٤٩) .

وفى صيف ١٨٧٣ ، فر أربعة وعشرون تاجرا مسيحيا من البوسنة الى كرواتيا ، وقالوا ان « كثيرا » من المسيحيين نفذ فيهم حكم الاعداد فى البوسنة بسبب تأخيرهم مع القنصل النمساوى (٥٠) . وأعطيت مثل هذه الحوادث أهمية عظمى فى الكتابات النمساوية حول أحداث سبعينيات الالف وثمانئة ، وذلك نظرا لأنها بدت كأنما تضع التزااما خلقيا أو دينيا على النمساويين للتدخل . ولكن الأسباب الحقيقية التى أدت الى انهيار الحكم العثمانى وتدخل الجيش النمساوى كانت أسبابا اقتصادية وسياسية وليست دينية . اذ حدث فى صيف ١٨٧٥ أن جاءت الأخبار بأن الفلاحين المسيحيين فى منطقة نيفيسينا فى الهرسك (شرق موستار) ، قد فروا الى الجبال تجنباً لدفع العشور الحكومية التى كانت تشكل عشر أو ثمن محصولاتهم ، وذلك لأن المحصول فشل فشلا تاما فى ١٨٧٤ ، ولكن جبهة الضرائب المحليين (واثان منهم مسلمان والثالث مسيحي) ، لجأوا الى اجراءات عنيفة مع الناس لاجبارهم على الدفع . وما كاد شهر يوليو يبلغ منتهاه حتى كان جميع الفلاحين فى المنطقة قد لجأوا الى الجبال وقد شرعوا فى القيام بمقاومة مسلحة (٥١) . وكانت هذه منطقة حساسة جدا من الناحية السياسية بسبب شدة قربها من تخوم الجبل الأسود : وقد نقلت حكايات أخرى كثيرة سابقة حول الصراع بين القوات العثمانية وقوات الجبل الأسود ، كحملة عمر باشا فى ١٨٦٠ - ١٨٦١ ، كما أن أمير الجبل الأسود ، وهو عميل للروس حامت حوله الشبهات بأنه أرسل الرجال والأسلحة لاثارة الشغب فى الهرسك (٥٢) .

وسرعان ما أخذت ثورات أخرى للفلاحين تحدث بشمال البوسنة ، ففر من جراء ذلك أعداد ضخمة من الناس الى كرواتيا والجبل الأسود - اما بسبب تعرضهم لأعمال العنف أو من جراء الضرائب الفادحة ، أو بسببهما كليهما (٥٣) . وكان السبب الأساسى للتذمر بين الناس زراعيا بحتا ، ولكن السكان الأرثوذكس ، الذين أنشأوا علاقات اتصال مع صربيا ، ركبوا الموجة وصرخوا الآن علنا بولائهم للدولة الصربية (٥٤) . وعندئذ تقاطر على البلاد متطوعون من صربيا وسلافونيا وكرواتيا وسلوفينيا ، بل حتى من روسيا نفسها (بالاضافة الى بعض الغاريبالدين الايطاليين ومغامر هولندى يدعى يوحنا باولوس) ، وذلك لاعتقادهم بأن

اليقظة لسلاف الجنوب كانت على الأبواب (٥٥) . وجمع والى البوسنة جيشا فى البوسنة والهرسك ارتكب أعمالا وحشية لكنها لم تؤت أى أثر أثناء خريف ١٨٧٥ - ١٨٧٦ وشتائها القارس . وهنا استنفير البكوات فرق جندهم غير النظامية المسماة بالباش بزق (Bashi-bazouks) واذخافوا من هزيمة عامة فى البوسنة شرعوا فى ترويع السكان الفلاحين . وتم فى أثناء ١٨٧٦ إحراق مئات من القرى وقتل خمسة آلاف فلاح على الأقل ، وعند نهاية السنة بلغ عدد اللاجئين من البوسنة فيما يرجع مئة ألف إنسان وربما كانوا ٢٥٠ ألفا (٥٦) .

وعند منتصف ١٨٧٦ كانت هذه الأزمة الكبيرة قد أصبحت أزمة دولية . فأخذت الأنباء تنتشر بكل أرجاء أوروبا عن شهبوب ثورة مماثلة فى بلغاريا ، وعن أحمادها بوحشية بالغة (وهى الفظائع البلغارية التى روعت الشيخ المسن جلدستون (*)) ، بل وحدث أيضا فى يوليو ١٨٧٦ أن صربيا والجبل الأسود أعلنتا الحرب على الامبراطورية العثمانية بعد أن اتفقتا فيما بينهما على أن تستلحق الأولى البوسنة وتضم الثانية الهرسك . وحققت الجبل الأسود بعض النجاح العسكرى ، ولكن صربيا منيت بهزائم فى الحرب ولم ينجدها من إعادة الفتح العثمانى لها الا تدخل الحكومة الروسية ، التى أجبرت الترك على قبول هدنة فى شهر نوفمبر . ولكن تصرفات صربيا أدت الى زيادة شدة السلطات البوسنية فى موقفها المعادى لسكانها وأبناء وطنها من الأرثوذكس . فان هناك لاجئا سمع تقارير فى ١٨٧٧ بأن « هناك عملية تنظيف تام لأبناء الشعب الصربى فى البوسنة ، ذلك لأن السلطات التركية تقتنصهم وتقضى عليهم رتضى تقويضا تاما للباش بزق والعجز وكذلك للكاتوليك واليهود بالقضاء عليهم » . (ومع هذا فان هذه الملحوظة عن الكاتوليك واليهود انما تشير بوضوح الى أن اللاجئين كانوا من الأرثوذكس المتحيزين ، ولاحظ آرثر ايفانس أنه « كانت من أعجب الظواهر فى التمرد الحالى هى الطريقة التى حاربت بها جنبا الى جنب الطائفتان المسيحيتان » (٥٨) .

وفى ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية . وجرى بالفعل قبل ذلك مفاوضات كثيرة وراء الكواليس بين الروس والنمساويين ، ابتغاء وضع خطة لاقتطاع نصيب من أرض البلقان لكل منهما . ومع ذلك فقد حدث فى بواكير ١٨٧٨ ، يوم أوشكت القوات الروسية أن تصل الى

(*) جلدستون . ولين إيوارت (١٨٠٩ - ١٨٩٨) . سياسى بريطانى خطيب حجة فى الشئون المالية وفى عهد رئاسته للوزارة احتلت بريطانيا مصر - (المترجم) .

أبواب اسطنبول ، أن تمكنت روسيا من املء شروط صلح ، أشبعت مصالحها أكثر مما أرضت مصالح النمسا . وبمقتضى هذه الاتفاقية ، المسماة بمعاهدة سان استيفانو ، وسعت بلغاريا ، أكبر عميل لروسيا بأرض البلقان ، توسيعا هائلا ومنحت ما كاد أن يكون استقلالا ذاتيا تاما . وظلت البوسنة أرضا عثمانية ، شريطة أن تدخل إصلاحات متنوعة اليها ، وبمقتضى المادة الرابعة عشرة من المعاهدة وجب أن تستخدم ايرادات البوسنة لخدمة الأغراض البوسنية البحتة (تعويض اللاجئين والسكان) مدة السنوات الثلاث التالية (٥٩) .

عند ذلك استيقظت الأحلام القديمة للبكوات البوسنيين ، في الحصول على حق الحكم الذاتي للبوسنة داخل الامبراطورية العثمانية . ولاحظ آرثر ايفانس في ١٨٧٧ ، أن الولايات والموظفين الرسميين العثمانيين « موضوع مقت المسلمين البوسنيين والمسيحيين البوسنيين على السواء » (٦٠) . ومن سوء الحظ أنه بعد أحداث السنوات الثلاث الأخيرة ، بلغ المقت المتبادل بين البوسنيين المسلمين والمسيحيين من الشدة بحيث انه لو تركت البوسنة وشأنها ، لأصبحت دار قلاقل حامية أمد سنين طويلة آتية . كانت تلك احدى الاعتبارات التي ثقلت وطأتها على الدول الأوروبية عندما اجتمعت في مؤتمر برلين في يوليو ١٨٧٨ لاعادة كتابه النسوية التي تمت في سان استيفانو ، ورسم الخريطة من جديد . وأهم من هذا كانت رغبتها في اعادة التوازن ازاء نفوذ الروس القديم في البلقان ، ووضع حد لاتجاهه الى البحر المتوسط . وهكذا لم يقتصر مؤتمر برلين على قصص أطراف بلغاريا ودفعها الى الجنوب ، بل وأعلن أيضا أن البوسنة والهرسك ، وإن ظلتا من الناحية النظرية تحت السيادة العثمانية ، لابد لهما من أن تحتلها وتديرهما النمسا والمجر .

ولمرة الثانية وقع النمساويون في نفس الخطأ الذي وقعوا فيه أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر : حيث افترضوا أنهم سيكونون موضع الترحاب من معظم الشعب البوسني ، والا لما أقدموا البتة على ارساء أخبار قرارات المؤتمر الى سراييفو البرق في اليوم الثالث من يوليو ، قبل حصول الصحف الأوروبية عايتها بعشرة أيام . وفي اليوم الخامس من يوليو عقد اجتماع عام للمسلمين بمسجد بيچوفا ، وظهر الحاج لويو المثير القديم للشغب وبسط برقا أخضر ، (رمزا للاسلام) وشد على رأس المجتمعين الى دار الوالى (٦١) . ووافق الوالى على تعيين « قومندان » عسكري والاستعداد لمقاومة النمساويين . ولكنه فيما يبدو لم يكن مؤيدا لهدد السياسة التي تنطوى على تحد علني لالتزامات السلطان في المعاهدة . وفي

اليوم العشرين حذرت صحيفة سراييفو من وقوع غزو نمسوى وشيك ، وبعد أربعة أيام عبرت طلائع الجيوش النمساوية بالفعل نهر السافا . وقاد الحاج لويو مظاهرة أخرى الى دار الوالى فى السابع والعشرين ، وشجع الحامية على التمرد ، وحصل من الوالى عسوة على قرار بطرد كثير من الموظفين الرسميين وتأليف « حكومة قومية » . وفر القائد العسكرى من المدينة مع مئة من الجند الراكبة ، ولكن تم القبض عليه ، واقتاعه بأن يساعد فى تنظيم الدفاع ضد النمساويين (٦٢) .

وفى الحين نفسه ، حصل الحاج لويو على المساندة المتحمسة من كبار القساوسة الأرثوذكس ، الذين سعدوا بالظن بأن البوسنة قد رمت عن كاهلها الحكم العثماني وأنها ليست لديها أدنى رغبة فى أن يحل محلها حكم النمسا . وعقد اجماع عام للمسلمين والأرثوذكس كان من شأنه كما يذكر بعد ذلك يوزيف كوتشيت: «أن الأرشمندريت سافا كوسانوفيتش (Sava Kosanovic) والقسيس ريستو كانتا نوكوفيتش (Risto Kanta Novakovic) ، وقد ارتديا ثياب رؤساء القرايضة (قطاع الطرق) اللصوص ، بما فى ذلك التمنطق بالقدارات والخناجر ، وضعا نفسيهما على رأس جمهور من الشباب الصربيين وطفقوا يرددون الأناشيد » . وفى اليوم الثانى من أغسطس عقدت مسيرة من المتطوعين المسلمين تصحبهم « الكتيبة المسيحية التى تتكون من الأرثوذكس بشكل ساحق جارف ، مع قلة قليلة جدا من الكاثوليك » . ولكن رصيد لويو انتهى بعد ذلك بزمان غير بعيد ، عندما أطلق النار على فلاح مسيحي شاب . ولكن أعماله نجحت فى إثارة المسلمين فى أجزاء أخرى من البوسنة أيضا ، وهنا تجمعت قوات غير منظمة الى حد ما ، بأجزاء متنوعة من الاقليم بلغت عدتها ما يقارب الأربعين ألف رجل (٦٣) .

فاما النمساويون فكانوا من الناحية الأخرى اثنين وثمانين ألف رجل . منهم ٩٤٠٠ جندي كانوا يؤلفون «قوة احتلال» المنوط بها التقدم الى داخل البلاد من دالماتيا والتمسك بالأماكن التى تستولى عليها القوة المحاربة الرئيسية . وكانت القوة الرئيسية ، تحت قيادة قومندان كرواتى هو البارون يوزيب فيليبوفيتش (Josip Filipovich) تتحرك بسرعة مخترقة شمال البوسنة مستولية على بانيا لوثا ومجلاى ويابسه . وكان النمساويون فى جودة من عدة السلاح ، كما كانوا يحل علم جيد بمدن البوسنة وطرقها وكباديها ، وكان ذلك بفضل رجل مساحة نمساوى عسكرى سمحت له السلطات البوسنية ، بمنتهى البراءة والسذاجة ، أن يطوف فى أرجاء القطر فى ١٨٧١ - ١٨٧٣ (٦٤) ، وفى (١٦) أغسطس تمكنوا من أن ينزلوا هزيمة

ثقيلة بقوة بوسنية بمعركة كلوكوتي (Klokoti) قرب فيتيز (Vitez) .
 وفي ١٨ أغسطس وصل النمساويون إلى أرباض سراييفو . فبدأوا الهجوم
 في الصباح التالي بقصف مدفعي في الساعة السادسة والنصف صباحا ،
 ثم دخلت المشاة المدينة حيث أطلقت عليهم النيران « من كل بيت ، ومن
 كل نافذة ومن كل باب ٠٠٠ حتى النساء أنفسهن اشتركن في ذلك » .
 ولكن المعركة حسمت في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وبلغت
 خسائر النمساويين ٧٥ قتيلًا و ٣١٤ جريحًا . ثم تحرك الجيش إلى الأمام
 مخترقا أرض الهرسك وسنجقية نوفى بازار فيما تبقى من أغسطس
 وسبتمبر ، وفي العشرين من أكتوبر كان الاحتلال التام للبوسنة والهرسك
 قد اكتمل . ولم يستغرق ذلك منهم إلا أقل من ثلاثة أشهر . نعم أنه قد
 حدثت مقاومة عنيفة بشكل ما ، وتكررت هجمات من نوع حرب العصابات:
 والخلصة ، وقعت ثلاث وخمسون معركة ، انتهى الكثير منها بالاستيلاء على
 مدن محصنة ، وبلغ عدد الخسائر النمساوية النهائي ٩٤٦ قتلى و ٣٩٨٠
 جرحى . ولم تستطع أية مدينة أن تصمد أكثر من يومين كاملين، ولو سلمنا
 بالحالة الرهيبة التي كانت عليها الطريق ، لم يكد يكون من المبالغة بآية
 حال القول بأن الجيش النمساوى فتح البوسنة في مدة زمنية لا تزيد كثيرا
 عن الوقت الذي يتطلبه ذرع أرجاء الاقليم. (٦٥)

الفصل الحادى عشر

البوسنة تحت الحكم النمساوى المجرى

١٨٧٨ - ١٩١٤

لم تتخذ دولة النمبيا والمجر قرارها بالاستيلاء على البوسنة الا بعد تردد وتمنيح . وبطبيعة الحال ظل المعقبون يحتاجون طويلا بأن البوسنة تمتلك قدرا عظيما من الثراء (الزراعة والغابات والموارد المعدنية) ، وأن من المعقول لها أن تنمى كجزء من وحدة اقتصادية مع الساحل - الذى كان أرضا نمساوية . وكان العسكريون فى النمسا حريصين أيضا على فتح الأراضي الداخلية التى تقوم وراء الساحل الدالماتى المستهدف وغير الحصين (١) . ولكن عندما طرحت فكرة الاستيلاء على البوسنة للمناقشة فى ١٨٦٩ ، كان اثنان من صناع السياسة فى الدولة ضدها : وهما جيولا أندراسى (Gyula Andrássy) وزير الخارجية ، وبنيامين كاللاى (Benjamin Kallay) خبير التاريخ السلافى الجنوبى (والمؤلف فيما بعد لتاريخ معتمد عن الصرب) ، وكان يشغل آنذاك وظيفة القنصل النمساوى فى بلجراد . ولم يكن واحد منهما يريد للنمسا والمجر أن يبهظ عاتقها بثقل مليون أو ما يقاربه من السلاف (٢) .

ولقد كانت هناك مشاكل سياسية لابد أن يتمخض عنها ذلك التكوين ذو النوع الخاص للملكية الثنائية : فهل تحكم النمسا البوسنة أم تحكمها المجر ؟ أو تحكمها لجنة مشتركة ؟ أم هل سوف توحد مع كرواتيا ، التى كانت تستمتع منذ ١٨٦٨ بنوع من الحكم الذاتى (مع حاكم تعيينه المجر) ، ولها برلمان كرواتى خاص بها ومجموعة من أعضاء البرلمان فى البرلمان المجرى ؟ لقد كانت المتاعب التى لاقتها النمسا من كرواتيا أقوى سبب دما الى علم الرغبة فى ضم البوسنة هى الأخرى : فزيادة عنصر ضخم آخر من السلاف الجنوبيين لابد أن يزيد من قوة حجة أولئك الكروات الذين

يطالبون بوضع قانوني أعظم لوطنهم . وكان بعضهم يطلب أن ترفع كرواتيا الى درجة المشاركة المتساوية مع النمسا والمجر (وهو ذلك الرأي المسمى بالفكرة الثلاثية) . وكان غيرهم يهدف الى منح كرواتيا استقلالاً تاماً وتأسيس دولة سلافية جنوبية . ولكن لم تلق واحدة من هاتين الخطتين ترحاباً لا من فيينا ولا من بواغريست . ولكن كان هناك شيء كانت السلطات النمساوية والمجرية أشد حرصاً على تجنبه : فان توسيع كرواتيا حتى تصبح دولة سلافية جنوبية سيكون أمراً سيئاً والحق يقال . ولكن اذا كان لصربيا أن تفعل ذلك وتنغذه بدءاً بامتصاص البوسنة وانتقالاً الى تقويض الحكم النمساوي المجرى في دالماتيا ، فهو أمر أسوأ كثيراً . وكان إعلان صربيا الحرب على العثمانيين في ١٨٧٦ هو العامل الحاسم الذي أغضب بالنمساويين الى التفكير جدياً في الاستيلاء على البوسنة ، ولو أنهم كانوا على يقين من أن السلطان يستطيع أن يحتفظ بالسلطة في البوسنة الى أبد الآبدين ، لما أهتم الأمر في قليل ولا كثير .

حتى اذا وقع المحذور ، وأصبحوا هم المسئولين عن حكم البوسنة . لم يبق مجال لأنصاف الحلول . وتم الاتفاق مع الحكومة العثمانية على مجموعة من البيانات حول ما ينبغي أن يحدث في البوسنة في أبريل ١٨٧٩ ، ولكن بعض هذه البيانات كانت أنصاف حقائق ، وبعضها الآخر لا ينطوي على أية حقيقة إطلاقاً . وتم الاتفاق على أن : الحاق البوسنة بالنمسا والمجر « لا يمس حقوق السيادة لصاحب الجلالة الامبراطورية السلطان » ، وأن العملة التركية ستظل مستمرة التداول ، وأن إيرادات البوسنة ستستخدم محلياً ، وأن الادارة الجديدة ستستخدم موظفين من الأتراك فضلاً عن الأهالي البوسنيين ، وأن يباح للمسلمين حرية العبادة ، وأن يظل اسم الخليفة السلطان قائماً يردد في صلاة الجمعة (٣) . تلك وعود صيدرت ، ولكن لم ينفذ منها بدقة الا الاثنان الاخيران ، فاستبعدت النقود التركية وأدخلت البوسنة في اتحاد الجمارك النمساوية المجرية (وكان معنى ذلك أن إيرادات الجمارك التي تجمع على الحدود البوسنية كان في الامكان انفاقها في أي مكان من الامبراطورية) ، وانتقلت الادارة الى خد كبير الى مواطنين نمساويين مجريين . أما فيما يتعلق بسيادة السلطان فإن أية فكرة بأن هذه الولايات المحتلة قد تعود ذات يوم الى الحكم التركي كانت مستبعدة منذ البداية ولم يعد أمام البوسنة ما تصبو اليه أكثر من أن يتحول الاحتلال الى ضم بحيث تغدو جزءاً من الامبراطورية . وعندما انضم الامبراطور النمساوي الى حلف الأباطرة الثلاثة مع روسيا وألمانيا في ١٨٨١ ، كان من بين الفقرات البرية نص : « ان دولة النمسا

والمجر تحتفظ لنفسها بالحق في ضم الولايات في أية لحظة تراها مناسبة (٤) .

أما مشكلة ضم البوسنة ، وهل يكون ذلك الى النمسا أو المجر ، فقد حلت بجعلها أرض تاج (Crown Land) ، ومعنى ذلك أنها كانت لا يحكمها أحد منهما ، وفي الوقت نفسه كان يحكمها كلاهما . وأنشئت لجنة مشتركة تابعة لوزارة المالية المشتركة (أى النمساوية والمجرية) ، ومن الناحية النظرية كانت السلطة الرئيسية في البوسنة بيد الحاكم العسكري المسؤول مباشرة أمام التاج ، غير أن وزير المالية المشتركة هو الذى كان يضع القرارات السياسية الواجب اتباعها . ومن الناحية النظرية أيضا كانت البوسنة تعيش تحت ظل القانون العسكرى ، ولكن إعلانا صدر في أواخر ١٨٧٨ يعلن أن جميع القوانين العثمانية ستظل نافذة المفعول حتى اعلان آخر ، ولم تكن هذه القوانين تستبدل بأخرى أو تستكمل بالقوانين النمساوية المجرية وبالقوانين الجديدة المخصصة بها البوسنة الا بالتدريج البطيء . وكذلك بقيت سلطة المحاكم الشرعية التى تنفذ الشريعة الإسلامية وتحكم مجموعة من المسائل المدنية بين المسلمين . وعلى العموم لم تمس الادارة الجديدة البنية الأساسية للادارة العثمانية في الجوانب التى رأينا أنها صالحة للعبء فلم تطبع بالطابع النمساوى المجرى الا من حيث الاسم وهيئة العاملين بها : وأعيدت تسمية السنجقيات بالمناطق ، كما أن أحياءها الصغرى وهى القاضيلوكات سميت بالنواحي ويرأس كلا منها مشرف . لكن بينما كان العثمانيون يحكمون تلك الأراضى كلها بمئة وعشرين موظفا ، فان عدد الموظفين الإداريين النمساويين المجرين - من جراء خليط عجيب من البيروقراطية المطلقة وقوانين باركنسون - ارتفع حتى وصل في ١٩٠٨ الى ٩٥٣٣ (٥) .

وكانت السنوات القليلة الأولى أصعب السنوات وطأة على الادارة الجديدة . وكانت هناك منذ البداية مشاكل كبيرة مثل الحاجة الى إعادة أكثر من مئتى ألف لاجئ الى ديارهم ، وكانت نيران العنف تشتعل أحيانا في بعض المناطق ، وذلك بوجه خاص في تلك المناطق من الهرسك التى كان الجبل الأسود لا يزال يضم نحوها بعض الأطماع : فثارت فتنة في منطقة نيفيسينيا للمرة الثانية في ١٨٧٩ ، كما حدث بهجوم خطير على وحدة من الجند قرب جاكوف (Gacko) قرب الحدود مع الجبل الأسود . في ١٨٨١ (٦) . ولكى تبت الحكومة النمساوية دعائم الثقة بين السكان في الهرسك ، وتشتجع اللاجئين على العودة الى ديارهم ، عمدت الى انشاء قوات ميليشيا عسكرية محلية خاصة هى « البانثور » ، على أن كثيرا من

أعضاء المبلشيشيا هؤلاء تمردوا هم أنفسهم ، فتحول بعضهم الى عصابات قطاع طرق (٧) . وفي نوفمبر ١٨٨١ بلغ عدد جند النمسا والمجر ١٢٨٤٠ في البوسنة وحدها فقط ، و ٤٠٠٠ في الهرسك . وكل هذا العدد لابد أن يكفي لحفظ السلام والنظام ، الا أن السلطات أعلنت اجراء جديدا قدر له أن يكون موضع بغض الشعب : وهو قانون للجيش يجعل جميع البوسنيين من الذكور تحت طائلة التجنيد في القوات المسلحة النمساوية المجرية . ونزعان ما نشأ عصيان مسلح . ببلاد الهرسك ، وما انتصف شبور يناير ١٨٨٣ حتى انتشرت عصابات الثوار بالمنطقة (٨) .

وتشير التقارير النمساوية الى هؤلاء العصاة بأنهم « لصوص » ، ولا شك في أن بعضهم كان ينطبق عليه ذلك الوصف ، ولكن انضم اليهم زعماء الباندر ورؤساء القرى الكبار أيضا ، ولم تكن أنشطتهم الأولى ولا الأساسية هي السرقة بل مهاجمة مراكز الشرطة ومواقع الجيش . ووقع طابور من المشاة أرسل لمنازلتهم ، تحت نيران كمين كمين له في طريق بين التلال واضطر الى التقهقر الى موستار . وعندئذ أرسلت عليهم قوات أكبر . وتواصل القتال أثناء فبراير بأكمله بالمنطقة المحيطة بفوتشا التي تضم بعض الجبال الممتدة بين فوتشا وسراييفو . وقدر أن العصاة وصل عددهم الى ألف رجل مقسمين الى رهط يغلب عليه الأرثوذكس بقيادة ضابط من مبلشيشيا الباندر هو بترو تانجوز (Petro Tanguz) وثلة مسلمة تحت قيادة مالك أرض شهير هو عمر شاتشيتش (Omar Satció) وثلثان مخلصاتان (٩) . وبالتدريج تمكنت القوات النمساوية المجرية من استعادة سيطرتها على المنطقة . حسب نص التقرير الرسمي : « ان المنطقة كلها التي كانت تغطيها شبكة كنيهة من الطوابير السريعة الحركة ، التي كانت لا تبرح تلتف حول العصابات وتضيق عليهم الخناق حتى انهم بعد محاولات عديدة من المقاومة العنيدة ، عادوا فاستسلموا تماما في شهر يناير » (١٠) . واستمرت عصابات من أنواع مختلفة بأرض الهرسك مدة تزيد على عقد من الزمان . كان هذا هو التمرد الخطير الأخير على الحكم النمساوي .

وهناك سبب لضعف المقاومة وهو أن عددا ضخما من العناصر المتشبددة في عداقتها للنظام الجديد غادر البلاد بصورة نهائية . وكانوا في غالبيتهم من المسلمين الذين رحلوا الى بلاد الترك - ومنهم من كان يأبى لدواع دينية أن يعيش في ظل الحكم الكافر ، كما أن بعضهم ، بلا شك ، ممن خافوا أن تأخذهم العدالة بما فعلوا أو الانتقام منهم على الأشياء الرهيبة التي أنزلوها بالمسيحيين أثناء السنوات الأخيرة من الحكم العثماني .

وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء المهاجرين من الفلاحين ، بيد أنه كان بينهم أيضا بعض ملاك الأرض الذين أسسوا في اسطنبول جماعة تطالب بضغط سياسي تركي أكبر على الحكومة النمساوية المجرية في البوسنة (١١) . فكم كان عدد المهاجرين النهائي ؟ تلك مسألة دار حولها جدل شديد وحام بين المؤرخين المحدثين . على أن السلطات النمساوية المجرية أصدرت بيانا رسميا يذكر أنه بين ١٨٨٣ - ١٩٠٥ غادر البلاد ٣٢٦٢٥ وعاد اليها ٤٠٤٢ (١٢) . ويفيد بيان آخر بأن أربعة وعشرين ألفا غادروا البلاد بين ١٩٠٦ و ١٩١٨ . على أن هذه الأرقام لا تذكر الا الذين حصلوا على تصريحات رسمية بمغادرة البلاد - وهو شرط فرض في ١٨٨٣ عندما أحست الحكومة بالانزعاج ازاء عدد الناس الذين يهاجرون تجنباً للتجنيد . وهو لا يضم عدد أولئك الذين خرجوا من البلاد بطريقة غير قانونية ، ولا أحدا من أولئك الذين فروا في السنوات الأربع الأولى . وادعى بعض مؤرخي المسلمين أن العدد الكلي للمهاجرين بلغ ثلاثمائة ألف انسان ، بيد أن ذلك الرقم يبدو عاليا جدا الى درجة غير محتملة . وهناك جغرافي درس عدد السكان المهاجرين وذرياتهم ، وقدر بأنه يوجد الآن ٣٥٠ ألف بوسنيك (*) في تركيا ، ومع ذلك ، فإن ذلك المصطلح يطلق في تلك البلاد (أى تركيا) على أولئك الذين جاءت أسراتهم من صربيا والجبل الأسود بالإضافة الى البوسنة أيضا - كما أن العدد الكلي اليوم يتضمن أعدادا ضخمة ممن انتقلوا عن البلاد في فترة ما بين الحربين (١٣) . على أن المؤرخين الصربيين من الناحية الأخرى ، يقدرون العدد الكلي بأنه يقارب الستين ألفا ، وهو رقم معناه القبول بسخة الإحصائيات الرسمية بما لا يترك الا ما لا يزيد عن نمائية آلاف في الفترة المنقضية بين ١٨٧٣ و ١٨٨٣ (١٤) . ولا شك في أن عددا يقارب دائرة المئة ألف يعد رقما محتملا أكثر كثيرا لصافي الهجرة والمهاجرين ، على أن هذا لا يخرج عن كونه مجرد حدس فقط . وينبغي ألا ننسى أنه ليس كل هؤلاء من المسلمين ، فإن مئات كثيرة من الفلاحين الأرثوذكس ظلوا يغادرون بلاد الهرسك كل عام حوالى منعطف القرن (١٥) . وهناك اديت درهام ، وهي من أشد المراقبين الأجانب دقة ادراك وبعدا عن التعاطف مع النمسا ، وهي تورّد سببا بسيطا للهجرة بين ١٩٠٠ و ١٩١٠ ، قالت : « كانت الأجور منخفضة ، والفلاحون في غاية الفقر . وكان بالإمكان الحصول على أجور عالية جدا بأمریکا ، فبلغ عدد المهاجرين اليها الألوف .

(*) بوسنيك : مصطلح يسمى به أهل البوسنة المهاجرون منها الى تركيا -
(المترجم)

ورغم أنهم كانوا ينسبون هجرتهم الى الحكم النمساوى ، بيد أن الشيء نفسه كان يحدث بالجبل الأسود ٠٠٠ لقد كان الأمر كله مسألة اقتصادية من عرض وطلب » (١٦) ٠

وكان السبب الرئيسى فى السخط على النمسا والمجر بين هؤلاء الفلاحين المسيحيين ، هو خيبة توقعاتهم فى حدوث اصلاح لنظام الملكية الزراعية ٠ وكان هذا أبرز مثال من أمثلة السياسة النمساوية المجرية فى حرصها على الاستثمار على القديم ٠ والتدرج فى التحديث ٠ وقد استقر الرأى منذ مرحلة مبكرة جدا ، على أن آخر اصلاح عثمانى ضخم ، وهو فرمان ١٨٥٩ سىظل قائما ومعمولا به ، وأنه لن تدخل أية تغييرات جذرية على ذلك القانون منذ تلك اللحظة ٠ وقد بذلت جهود صغرى لتحسين حال الفلاحين : فان تقدير قيمة محاصيلهم وكل الى مندوبين ضرائب عدول ، والى خبراء فى التقدير ، وأنشئ سجل للأراضي ديدنه الاعتدال لمنع التعديلات التى كان يقوم بها ملاك الأراضي ، كما انشئ نظام لتقدير متوسط العشور ٠ (ومعنى ذلك أن العشور كانت تحدد على أساس متوسط أو معدل الانتاج فى السنوات العشر الأخيرة ، وبذلك يدفع فلاح يكون محصوله فى ازدياد أقل من نسبة العشور المتوجبة على محصول سنته الجارية) ٠ وتم التأكيد على حق موالى الأرض فى تحرير أنفسهم بدفع مبلغ على سبيل التعويض - وهى قاعدة كانت قد أقرت فى قانون تركى صدر فى ١٨٧٦ ، كما أدخلت اجراءات اضافية على الوسائل التى تزيد قدرتهم على دفع ذلك المبلغ بسهولة ٠ وتمكن ٤١٥٠٠ من أقتان الأرض من تحرير أنفسهم بهذه الطريقة فى المدة من ١٨٧٦ الى ١٩١٣ ، ولكن فى أوائل ١٩١٤ قدر وجود ٩٣٣٦٨ أسرة من موالى الأرض يعملون فى مزارع الأغالوك التى كانت تمثل على وجه التقريب ثلث الأرض الزراعية كلها (١٧) ٠ ولا يفين عن الأذهان أن تسميتهم باسم أقتان الأرض لا يعنى مع ذلك أنهم كانوا جميعا يعيشون فى ضنك وضغط وظلم ٠ فان المؤرخ البريطانى وليم ميللر لاحظ عندما زار البوسنة فى تسعينيات الألف وثمانمئة ، أن « قن الأرض البوسنى أيسر حالا من الفلاح الدالماشى أو الصقلى » ، كما أنه لاحظ أيضا أن تكرار تقسيم الأرض حسب شريعة الأتراك فى قوانين ميراثهم ، أدى الى تفتيت ثروة الكثير من الأغاوات بحيث أصبحت لاتزيد على ثروة الفلاحين من أصحاب الحيازات الصغيرة (١٨) ٠

وبينما كان رجال الادارة النمساوية المجرية شديدى الحذر من اتيان أى شىء يؤدى الى تغييرات اجتماعية كبيرة ، فانهم كانوا بالغى النشاط فى سعيهم نحو تطوير الاقتصاد البوسنى ٠ وكان العائق الوحيد الذى يقف حجر عثرة فى سبيل خططهم ، قانون صدر فى فيينا فى ١٨٨٠ يقرر فى

صورة معكوسة ذلك الوعد الذي أبرم للسلطات بأن نفقات الادارة البوسنية ينبغي أن تغطيها الإيرادات البوسنية نفسها ، وهو أمر جعل من الصعب تمويل مشروعات البنية الأساسية الضخمة اللازمة لتطوير البوسنة ، فاستعاضوا عن ذلك بالقروض . وفي السنوات القليلة الأولى من خطط حديدى من التخوم الكرواتية الى زينكا (بطول ١٩٠ كيلومترا) بنفقات تقدر بثمانية ملايين من الفلورينات . وما لبث بعد ثلاث سنوات أن مد الى سراييفو ، (وهي مسافة ثمانين كيلومترا أخرى) بنفقات قيمتها اربعة ملايين فلورين أخرى (١٩) . وكان معيار الاستثمار العام هائلا فعند ١٩٠٧ كانت الحكومة قد مدت ١١٧ كيلومترا من خطوط السكك الحديدية : لحريضة المقاس ، و ٩١١ من الضيقة المقاس وأكثر من ١٠٠٠ كيلومترا من الطرق الرئيسية ومثلها أيضا من الطرق الفرعية ، بالإضافة الى ١٢١ كوبريا (٢٠) . وتعلق ادبث درهم في ١٩٠٦ : « والطرق الجبلية لا تقل من جميع ما فى أوربا » (٢١) .

وكان وراء انشاء بعض هذه الطرق والسكك الحديدية أهداف عسكرية بطبيعة الحال ، ولكنها كانت كذلك جزءا من اتجاه هائل نحو الإصلاح والتحسين الاقتصادى . وأعطيت دفعة نمو هائلة لنشاطى قطع الغابات والتنقيب عن المناجم ، وكذلك تم استخراج معادن أخرى مثل النحاس والكروم ، واستخرج خام الحديد من منطقة بريدور (Priedor) وأسست أيضا عدة مصانع للحديد والصلب ، كما افتتحت مصانع كيماوية كثيرة . وعندما وافقت ١٩١٢ - ١٩١٣ كانت للبوسنة صادرات تقدر بثمانية وعشرين مليوناً من الدولارات ، وقوة من العمال عدتها ٦٥ ألفاً من الرجال (٢٢) . وكانت اليد العاملة فى كثير من المدن من النساء (معظمهن من المسيحيات ، والقليل من المسلمين) ، مثال ذلك أنهن فى سراييفو كن يصنعن السجائر والأبسطة . وبلغ الأمر بحال مصنع التبغ أنهم نظموا اضرابا فى ١٩٠٦ ابتغاء تقليل ساعات العمل اليومية ورفع الأجور وسوى ذلك الاضراب فى مدة خمسة أيام ، ولكن اضرابات أخرى مماثلة حدثت بمدن أخرى ، وأطلق الرصاص على مظاهرة لعمال الصلب فى زينكا فأصاب كثيرا من الناس . ولم يكن لهذا الاضراب أى أثر ضخم فى سياسة القطر ، وان شجع على انشاء نقابات للعمال فى كثير من الحرف والصناعات فى السنة التالية (٢٣) . ومع هذا ، فانه لما كان من آسب البلاد الاشتراكية أن تتصبد لنفسها من خلال ماضيها السابق على الاشتراكية ، أحداثا بطولية من هذا النوع ، فان « الاضراب العام » لسنة ١٩٠٦ بولغ فى تصويره ، فى كتب التاريخ اليوغوسلافى العصرى من تلك المدة (٢٤) .

ولم يفت السلطات النمساوية المجرية الاهتمام بالزراعة التي تعتبر عماد الاقتصاد . فقد أنشأت المزارع النموذجية ، ومنها مزرعة عنب نموذجية ، قرب موستار ، وكذلك مزرعة أسماك نموذجية ، كما جرى تدريب المعلمين على مناهج التدريس الحديثة ، كما أسست كلية زراعة بمدينة ايليدج قرب سراييفو (٢٥) . وأسست مزارع لتربية الماشية ورغبة في تشجيع تربية الخيل ، أنشئت مضمارات سباق الخيل في مدينتي ايليدج وبريدور : (فان تلك السباقات التي أصبحت شعبية ، لم تكن تدار في البلاد حسب قواعد أندية « الجوكية » : بل كان الفرسان يركبون الخيل عارية الظهر بلا سروج ، فإذا اقتربوا من عمود السبق قذفوا بأنفسهم بعيدا رغبة في التخفيف عن خيولهم ، التي كانت تصل الى خاتمة الشوط منفردة ») (٢٦) . ولم تكن كل هذه الأنشطة الانمائية موضع التقدير العام من الفلاحين البوسنيين ، فان أحد ضباط الشرطة النمساوية المجرية أبلغ اديث درهام في ١٩٠٦ : أن هذه التغييرات كانت سريعة جدا فلم يتقبلها الناس الذين كانوا يفضلون الشوارع التركية القديمة ويؤثرون ركوب الدواب على العربات والطرق الجديدة ، كما أنهم كانوا ينظرون بارتياح الى كل جديد » . وفي هذا الجزء الذي كان يعمل به من بلاد الهرسك ، رفض الفلاحون استخدام حتى المحاريث الحديدية التي كانت تمدهم بها الحكومة بأقل من سعر التكلفة . « لقد أنفقنا النقود بلا نهاية ، محاولين تحسين نسل الماشية الحية : الكباش والخنازير من أرقى أنواع الدراري . وقد أرسلنا خنزيرا بديعا (لاستخدامه في تحسين النسل) في السنة الماضية الى إحدى القرى وجعلناه في حيازة رجل كنا نراه جديرا بالثقة ، فلما أتى عيد الميلاد ، ذبحه وشواه وجعله وليمة دعا اليها القرية بأكملها » (٢٧) .

ومن أشد نواحي إثارة الجدل في السياسة الزراعية ، تشجيع الأجانب على الاستيطان . وكانت أول جالية من هذا القبيل جالية جاءت بناء على مبادرة من قسيس ألماني نشر اعلانا في إحدى المجلات الدينية في ألمانيا ، ملتصقا من الأتقياء من الفلاحين الحضور والسكنى في البوسنة . فجاءت الى البلاد عائلات من سيليزيا وأرض الراين ، واشترت أرضا قرب الحدود الكرواتية وأنشأت مستوطنة عرفت رسميا باسم فيندهورست (Windhorst) ، وجزء منها تم تسميته « رودلفشتال » (Rudolfstal) تيمننا بزيارة ولي العهد الأمير رودولف في ١٨٨٨ ، وأنشأت مستوطنة أخرى جماعية من البروتستانت الألمان وفدوا من المجر وأسموها « فرانزس يوزفسفيلد » (Franzjosefsfeld) . وكانت الدولة تنظر بعين الرعاية الى هؤلاء الفلاحين ، فأعطتهم تنازلات ضرائبية ، وفي ١٨٩٠ أصدرت

قانوننا خاصا « بالمستوطنات الزراعية » ، وبمقتضاه تمنح كل عائلة ما يصل الى اثني عشر هكتارا مقيمة من الاجار في السنوات الثلاث الأولى وبعد ذلك يسددون ثمنها على أقساط بفائدة بسيطة تنتهي بعد عشر سنوات ، ان هم أخذوا الجنسية البوسنية . وفي المجموع تم إنشاء ٥٤ مستوطنة من أصول ألمانية ، وكانت الغالبية من السلاف (البولنديين والتشييك والروثينيين) الذين اختلطت سلالتهم مع السكان البوسنيين السلاف . ولكن مهما كان أصل المستوطنين وجدورهم ، فان تلك السياسة لقيت الرقوى في ذلك الوقت ، وعندما حصل البوسنيون على برلمان لأول مرة في ١٩١٠ ، كان من أوائل ما طلبوه وقف بناء هذه المستوطنات (٢٨) . وحتى تلك الآونة كانت الزيادة المتواصلة في عدد السكان الاجانب بالبوسنة بدأت تبعث القلق في نفوس الزعماء السياسيين المحليين . اذ لم يكن هناك بأرض البوسنة في ١٨٨٠ الى ٤٥٠٠ مواطن نمساوي واثنا عشر ألف مواطن مجنري ، وما وافت ١٩١٠ حتى كان عدد المواطنين النمساويين سبعة وأربعين ألفا وعدد المجرين واحدا وستين ألفا . على أن هذه الأرقام ليست مزعجة تماما كما قد يبدو في ظاهرها . فان الكثيرين منهم كانوا من رجال العمل الاداري في الدولة أو رجال الأعمال الذين لا ينوون على الإطلاق الإقامة الدائمة بتلك البلاد . وكان بعضهم جندا : حيث جرت العادة العامة بأن يعمل الجند النمساويون والمجريون في أرض البوسنة ويعمل الجند البوسنيون في النمسا والمجر . فاما عن المواطنين المجرين ، فان معظمهم كانوا من الكروات ، ولم يكن منهم من الميغار الا اقلية صغيرة (٢٩) . وبغض النظر عن النهوض « بالمستوطنات الزراعية » الذي كان الغرض الأساسي منه زراعيًا بحثا أكثر منه ديموجرافيا سكانية ، فلم يكن هناك البتة أية سياسة جدية للاستعمار الجماعي للبلاد ، ولكن التدفق الذي حدث كان كافيا لتذكير أهالي البوسنة بأنهم كانوا في الواقع واقعين تحت نوع من الحكم الاستعماري .

ولكن على وجه العموم كان رجال الادارة النمساوية المجرية يفهمون مثل هذه الحساسيات ويحاولون أن يتجاوزوا عنها . فأبيع لكل طائفة أن تكون لها مدارسها الخاصة ، التي أصبحت آنذاك تدعم من الحكومة بالمال . كما أن الحكومة أسست مدرسة للشريعة لتدريب قضاة المحاكم الإسلامية في ١٨٨٧ . وفي ظل نظام المدارس المجانية الحكومية التي أدامتها الادارة للناس ، كان أعضاء كل جماعة يتلقون التعليم الديني على حدة على يد رجال دينهم الخاص . وقد صب الكتاب اليوغوسلاف العصريون جام زرايتهم على الجهود التعليمية التي بذلتها حكومة النمسا والمجر ، مشيرين الى أنه لم يكن يذهب للمدارس الا اقلية صغيرة من الأطفال .

ولكن حكومة تبني ما يقارب المئتين من المدارس الابتدائية وثلاث مدارس ثانوية ومدرسة صنائع وفنون وكلية للمعلمين ، لا يمكن أن توصف بأنها مهينة إهمالا مطلقا في سياستها التعليمية . وليس ذلك بعجيب ، فإن الفلاحين الذين رفضوا فيما مضى أن يستخدموا المحاريث الحديدية ، لم يكن يعقل أو يحتمل منهم أن يندفعوا إلى إرسال أبنائهم ليتلقوا تعليما لم يتلقوه هم أنفسهم فيما سلف . وأدخل التعليم الإلجباري في ١٩٠٩ ، أما حتى آنذاك ، فقد كانت السياسة هي كما لخصها وليم ميللر بقوله : « ليس الفلاح مجبرا على إدخال أبنائه إلى المدرسة على الإطلاق ، ولكن السلطات المحلية كانت تلجأ إلى أساليب النقاش والحوار لاقتصاعه بمزايا التعليم إن اختار أن يخرم أولاده منه » (٣٠) .

على أن معالجة شئون الطوائف الدينية الثلاث الكبرى ، كانت إلى أقصى حد أدق وأجرج دور يواجه الإدارة النمساوية المجرية . وبطبيعة الحال كان اتفاق المال على مدارسهم وسيلة لكسب تعاونهم وممارسة درجة ما من السيطرة عليهم . وبذلت أيضا جهود لضمان أن تكون للسلطات النمساوية المجرية السيطرة على تعيين الشخصيات الرئيسية في كل طائفة دينية : فإن الامبراطور منح من البطريرك الأرثوذكسي الحق في تعيين الأساقفة في البوسنة ، وتيسر الحصول من البابا أيضا على حق مماثل لهذا لتعيين الأساقفة الكاثوليك . واقترح المسلمون بأنفسهم إنشاء مشيخة دينية في البوسنة مستقلة عن اسطنبول ، وتم ذلك في ١٨٨٢ بتعيين الامبراطور لأحد الشيوخ رئيسا للعلماء (أي رئيسا للطائفة الإسلامية) يرأس مجلسا مكونا من أربعة أعضاء أو هيئة من المستشارين .

ومن بين هذه التنظيمات الدينية الثلاثة ، كانت الكنيسة الكاثوليكية أشدهن وضوحا ظاهرا من حيث النمو والتغيير . وفقد الفرنسيون احتكاكهم واجتذب الجزويت (*) إلى البلاد . وأنشئت ثلاث كليات كهنوتية ليعلم فيها الجزويت الناس ، كما شيدت في سراييفو كاتدرائية كاثوليكية ، ما لبثت أن أتبعته بكنيسة للقديس أنطونيوس من بادوا . وزاد تدفق الناس من النمسا والمجر عدد السكان الكاثوليك زيادة كبيرة (حيث نما عددهم في سراييفو وحدها من ثمانئة في ١٨٧٨ إلى ٣٨٧٦ في مدى ست سنوات فقط ، وكذلك بفضل جهود أربعة أساقفة وكبير أساقفة يتصف بالعزم الشديد (هو المونسنيور ستادلر Stadler ، الذي خدم بسراييفو طوال

(*) الفرانسيسكان والجزويت : جماعتان من الرهبان الكاثوليك تابعتان لبابا روما -

(المترجم)

تلك المدة الممتدة من ١٨٨٢ الى ١٩١٨ ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية أكثر نشاطاً مما كانت عليه في أثناء ألف السنة تقريبا السابقة من تاريخ البوسنة كله (٣١) . على أن السلطات كانت تعي تماما ذلك الخطر القائم في تحويل الكاثوليك البوسنيين الى طائفة مميزة ، فان وليم ميلر الذي كتب في ١٨٩٨ ، مبينا ما كانت عليه سياستهم من حذر :

« لقد أصيب الكاثوليك ٠٠٠ الذين طالما شُخصوا بإيصارهم الى النمسا للمعاونة والتأييد ، كما أنهم بالطبيعة رحبوا بوصولها ، بوصفها دولة كاثوليكية عظمى ، بشيء من خيبة الأمل ، لأنهم - وهم الذين كانوا يكونون أكثر قليلا من خمس سكان البلاد - لم يسمح لهم أن يقوموا بوظيفة « الشريك المسيطر » في « الشركة » البوسنية . وفي اعتقادي أنه لا يقوم هنالك أى دليل يدل على الاتزان والمساواة في معاملة العقائد الدينية المتنوعة من جانب الحكومة أكثر من هذا الاحساس بخيبة الأمل » (٣٢) .

كما أن الصحفي الأمريكي و . ا . كيرتس الذي زار البوسنة في ١٩٠٢ ، تكونت في ذهنه انطباعة مماثلة عن هذه العدالة والتوازن في المعاملة ، حيث شهد أن « اتباع مختلف العقائد الدينية يتبادلون الصداقة والمودة ، ويبدون احتراما وتسامحا متبادلا » ، وتدار الأمور في المحاكم بحكمة وأمانة ، والعدل مكفول لكل مواطن ، بغض النظر عن دينه أو مركزه الاجتماعي » (٣٣) . ولكن كان من الممكن بين الحين والحين أن تعرفل المشكلات الدينية سير أجهزة الحكم ولو كانت مشيدة على أعلى درجة من الدقة .

وكانت أشد المشاكل المنيرة للفرقة والجدل مسألة التحول من دين لآخر . وكانت هذه القضايا تمس في العادة البنات المسلمات ، اللائي كن يتحولن الى الكاثوليكية على يد خطابهن وأزواجهن ، وبذلك ينزلن الفضيحة الكبرى والخزي الأعظم بأسرهن . وهنا تجد القسس الكاثوليك ، وإن لم يجبروا بدعوة التنصير بين المسلمين ، فانهم كانوا يبذلون أقصى ما في وسعهم لمساعدة أولئك الذين كانوا يأتون اليهم - وذلك اما بتخينة البنات في الأديرة أو في مقر كبير الأساقفة مثلا ، ورفض الكشف عن مكانهن للشرطة . وبعد أحداث متعددة من هذا القبيل خضعت السلطات للمضغط الاسلامي في ١٨٩١ ، وأصدرت قانونا يسمى « قانون اعتناق الأديان » ، وضع اجراءات للقضايا المنازعة فيها : بدءا بفترة انتظار طولها شهران ، قبل اعلان التحول رسميا الى الدين الآخر ، مع تشكيل لجنة حكومية للتحرى حول أى اتهام بالاجبار والقهر ، وما الى ذلك من اجراءات .

وأدت تلك الاجراءات الى تهدة مخاوف المسلمين ، ولكن وقعت بعد ذلك يائنى عشر عاما حادثة تورط فيها كبير الأساقفة سثادلر وكان الآخر خاصا بأرملة مسلمة وطفليها ، وقد اعترف بأن الحكومة عقدت اتفاقية سرية مع البابا. فى ١٨٩٥ ، منحت بها رجال الدين الكاثوليك الحق فى الاتصال بمن ترى فيهم الرغبة من الناس فى اعتناق المسيحية - وهو أمر قوض بطريقة سرية « قانون اعتناق الأديان » . وهنا ثارت ثائرة المسلمين مرة أخرى . وقدموا الالتماسات والشكاوى . ومع هذا فانهم ما لبثوا حتى هدأت نفوسهم عندما اكتشفت الحكومة مكان اختفاء الأرملة صاحبة هذه القضية هى وطفليها فى أحد الأديرة . وقامت الشرطة بالقبض عليها ، وأعيدت الى قريتها ، حيث وافقت على العودة الى الاسلام ثانية (٣٤) .

ومن المؤكد أن مشاعر الغضب العامة استثيرت بمثل هذه الأحداث ، ولكن الطريقة التى تناول بها زعماء المسلمين تلك الوقائع ، والتى ربطوا بها هموما أخرى (مثل الشكاوى حول الضرائب وغير ذلك) ، تدل على وجود استراتيجية سياسية لديهم فهم ليست وليدة التعصب الأعمى . والأمور كما تعبر عنه دراسة تفصيلية حديثة لتلك الأحداث يتلخص فى التالى : « ان النشطاء المسلمين حرصوا على ستر أهدافهم فى ثوب الاخلاص الدينى ، ولكن غرضهم الحقيقي انما هو الاحتفاظ بقوتهم وسلطانهم أو حتى زيادتها » (٣٥) . فقد شهدت العقود الثلاثة الأولى للحكم البنينوى المجرى تنافسا على السلطة ، بين النخبة الممتازة المسلمة التى اكتسبت القوة والنفوذ عن طريق التعاون مع الحكومة ، وبين زعماء المسلمين الأشد تصلبا فى كل من ترافنيك ومونستار ، الذين اتخذوا موقفا معارضا متشددا ، وأخذوا يشوهون سمعة منافسيهم من أبناء سرايتفو ، محاولين بذلك انتزاع السلطة منهم . (وفى تسعينيات الألف وثمانمئة ، زادت الصورة تعقيدا بظهور منافسات قوية بين مسلحي موسيتار أنفسهم أيضا) .

كانت أشد المسائل أهمية هى السيطرة على المؤسسات الخيرية الاسلامية . وكما أوضحنا فى الفصل الخامس ، كانت هذه المؤسسات المعروفة باسم الأوقاف تلعب دورا جوهريا فى المجتمع الإسلامى ، وتدعم بالمال شئون المساجد والمدارس ، والتكايا بل حتى الخانات والكبارى : وكان وضعها المالى يكاد يكون دعوة ضخمة الى اساءة استخدامها على طول القرون . اذ كان على المعطى الواهب أن يعين على ادارتها أولاده وأحفاده كنظار مدفوعى الأجر يتوارثون ذلك العمل الى أبد الأبدى ، وبذلك يخلق الواقع ودبة مالية عائلية تكاد تكون مخفاة من الضرائب . وفى ١٨٧٨ قدر أن الثلث تقريبا من الأرض الصالحة للزراعة بالبوسنة كانت تملكها

الأوقاف . وكان من المبادئ الأساسية في الشريعة الإسلامية أنه متى حدث أن ملكية تحولت إلى أرض وقف لم يجوز إطلاقاً ردها إلى الملكية العادية . وكان من أوائل ما فعله النمساويون المجريون أن جمعوا القوانين العثمانية التي حاولت قديماً تنظيم إدارات ونظارات الوقف وقضت بوضع حسابات جيدة التنظيم وما إلى ذلك من معالجة وقاموا بنشرها وعلى ذلك أنشأوا لجنة للأوقاف في ١٨٨٣ ، وعين في عضويتها بعض وجوه الطائفة الإسلامية : فوضعت جميع الأوقاف الأهلية أي العائلية المحلية تحت سيطرة مركزية ، ورسمت لها ميزانيات مضبوطة ووضعت خطة لسياسة شاملة للبوسنة كلها من أجل توفير الأموال اللازمة للمساجد والمدارس . وقد ارتضى الجميع هذا كله ، باعتباره مصلحة عامة ولكن اللجنة سخرت لسيطرة الشخصيات الأكثر تعاوناً مع الحكومة من مسلمي سراييفو ، فأصبحت من ثم موضع حقد وبغض من وجوه المسلمين في المناطق الأخرى من الإقليم . وحتى عندما وسعت لجنة الأوقاف في ١٨٩٤ ، لتضم ممثلين من كل أرجاء البوسنة ، ظل تعيين هؤلاء الممثلين بيد

زعيمهم ذي العزم الشديد ملة مصطفى

(N) ، هم الذين حولوا موضوع إدارة

خمة . فلقد تزعموا حملة لارسال

من الأنشطة ، خاصة وقد استفزهم تحول

تمكنوا من الحيلولة دون صدور مشروع

باء « جمعية أوقاف » ذات استقلال ذاتي

، التعيين الحكومي من أكبرها إلى أصغرها

قائماً على الجمعيات المحلية : فتقوم تلك

الجمعيات بتعيين أعضاء من جمعيات النواحي ، ثم ترسل جمعيات النواحي

مندوبيها إلى مجلس المقاطعة (٣٧) . وكان أول رد للحكومة على ذلك هو

أنها أخذت تعامل هؤلاء المسلمين بوصفهم مثيرين خطرين للشعب ، ثم

أغلقت النادي الذي كان مركز أنشطتهم . وعندئذ بدأ زعماء موستار في

حفنة الانهيار بكل أرجاء الهرسك والبوسنة أيضاً . وباستخدام السلطة

المعنوية لجابيتش وطاقت المهيجين الحركيين الأصغر سناً مثل شريف

أرناؤوطوفيتش (Sherif Arnautović) كونوا تنظيمًا شمل القطر كله .

كان في الواقع حزباً سياسياً في طور جنين - في مدى سنة ، وعقدوا

جمعية لزعماء البوسنة المسلمين بفندق بمدينة نيسا بودابست في صيف

١٩٠٠ . وبذلك بدءوا عملية مطولة من الدعوة للتمرد والمفاوضات ،

وأخذت السلطات تسعى تارة إلى إرضائهم وتارة للصالح معهم وتارة

أخرى لبث الفرقة بينهم وتارة ثالثة لقمع المشاغبين منهم (٣٨) .

وكان هذا النجاح للنشطاء المسلمين ، موضح بسخط شديد من الرجل المسئول عن شئون البوسنة في ذلك الزمان ، وهو بنيامين كاللاي ، وهو المؤرخ والدبلوماسي السابق ، الذي تولى وظيفة وزير المالية المشترك بين ١٨٨٢ - ١٩٠٣ . وكانت لكاللاي سياسة بوسنية عامة ، تنحصر في عزل البوسنة عن الحركات السياسية القومية بكل من صربيا وكرواتيا ، وتطوير الفكرة الداعية الى قيام القومية البوسنية كعامل منفصل وداع الى توحيد الصف . والواقع أن الأتراك استخدموا في قديم الزمان مصطلحا معناه : « البوسنيون » ، وهو بوسنياكلر (Bosniaklar) للإشارة الى كل من كان يسكن البوسنة من الناس ولكن باللغة الصربوكرواتية ، كان الشعب الوحيد الذي كان يسمى نفسه حسب المأثور التقليدي باسم « البوسنيين » (بوشنياق) هو المسلمين البوسنيين (٣٩) : (وكان الكاثوليك يطلقون على أنفسهم اسم « لاتينيزي » أي اللاتينيين ، أو الكريستيتشيانى Krisójaní ، وهي كلمة تدل على المسيحيين - ولا يجوز أن تختلط مع كلمة « كريستيانى » Krstjani الشائعة في العصور الوسطى - كما أن الأرثوذكس أسجوا أنفسهم « فلاسي » أي الأفلاق ، أو « هرشياني Hrsóiani » ، وهي كلمة أخرى معناها المسيحيون) . وكان كاللاي يأمل أن يسطر مصطلح « بوسني » على الناس من جميع الطوائف الدينية ، وكان من الضروري لأهدافه أن يتقبل المسلمون أولا فكرة القومية . اذ كان يعرف أن خير الفرص المتاحة له كانت بين أيديهم ، وذلك لأنهم على عكس الكاثوليك والأرثوذكس ، لم يكن لهم أية قوى خارجية تدعمهم ويستطيعون التطلع اليها خارج الحدود البوسنية ، وكان من الواضح أنه لو حدث وطوروا شخصيتهم وهويتهم الخاصة المنفصلة بدلا من ذلك فسيخفق مشروع بأكمله .

ونجح كاللاي نجاحا تاما مع مسلمي سراييفو الأكثر تعاوناً ، الذين رأوا في خيط الفكر هذا استمرارا طبيعيا لسعيهم السابق للحصول على الحكم الذاتي في عهد العثمانيين . وأسس زعيمهم ، وهو عمدة مبرز سابق لسراييفو ، أسبه مجاهد بك كابيتانوفيتش (Mehmed-beg Kapetanović) ، صحيفة يومية في ١٨٩١ تسمى « بوشنياق Bosnjak » ومعناها « البوسني » . ومع أنها كانت تتخاطب القراء من كل الأنواع ، فانها كانت في جوهرها صحيفة اسلامية وكانت تهاجم البرعات المحافظة بين رجال الدين المسلمين ، كما حاولت أن تدرأ محاولات القوميين الكروات والصربيين الذين زعموا أن مسلمي البوسنة كانوا في الحقيقة « كرواتا أو صربا » وأعلنت هذه الصحيفة أنه « بينما كان

الكروات يجادلون بأن الأرثوذكس هم أعظم أعدائهم وأن عالم الصربية هو نفسه الأرثوذكسية ، أخذ الصرب ينسجون تاريخاً زائفاً ، ضربوا فيه صفة الصربية على العالم كله ، و مرة أخرى صرحت : « لن ننكر أننا منتسب إلى العائلة السلافية الجنوبية . على أننا مع ذلك سنظل بوسنيين مثل آبائنا ، ولا شيء غير ذلك » (٤٠) .

وما كان ليبدو في عيني أحد أن مشروع كاللاي سخيـف وغير مجد عندما ينظر فحسب إلى تاريخ البوسنة قبل الاحتلال النمساوي المجري . يجيل أو أكثر قليلاً . وكما رأينا ، فإن الكاثوليك والأرثوذكس بالبوسنة احتفظوا طويلاً بروابطهما الدينية مع الكروات والصرب . فأما في أثناء القرون العثمانية ، فقد كانت هناك عدة هويات دينية في البوسنة ، وكان بالامكان أن تكون لهذه الهويات فعلاً معانٍ ومضمونات سياسية : إذ كان كثير من الكاثوليك البوسنيين يشخصون بأبصارهم إلى الأراضي خارج الحدود الكرواتية والدالماتية ، التماساً للعلن بل حتى التحرير . غير أن ذلك كان شأنًا من شئون الدين وليس من شئون القومية . فقد كان هؤلاء الكاثوليك يتطلعون بأبصارهم إلى النمسا الكاثوليكية أو إلى البندقية الكاثوليكية أو إلى كاثوليك آخرين الذين يتصادف أنهم كانوا من الكروات ، ولم يكونوا ينظرون إلى أمة الكروات بوصفها ذاك . ولم يحدث إلا في منتصف القرن التاسع عشر فقط على أبكر تقدير ، أن بدأت الفكرة العصرية للقومية في الانتشار من كرواتيا وصربيا إلى كاثوليك البوسنة وأرثوذكسها . ومن بين المعايير الثلاثة الأساسية التي كانت الأمتان الصربية والكرواتية تؤسسان وتميزان نفسيهما عليها أثناء تلك الفترة - وهي التاريخ واللغة والدين - لم يكن هناك إلا عامل واحد ينطبق على البوسنة هو عامل الدين ، حيث أنها قطر كان له تاريخه الخاص المنفصل ، وفيها كانت الخطوط الكفافية (الكنتورية) للخريطة اللغوية تقطع وتعبّر جميع الحدود الدينية : ولم يحدث. البتة أن كانت هناك أسباب اجتماعية ولا اقتصادية للكراهية مع الأرثوذكس والكاثوليك بأرض البوسنة ، كما أن الأسباب التي كانت قائمة للعداوة مع المسلمين قد أزالها الحكم النمساوي المجري إلى حد جزئي . وهذا كاتب انجليزي يعلق في ١٨٧٩ على موقف المسيحيين من المسلمين في البوسنة :

« من العجيب أنهم يحملون مثل هذا القدر القليل من الكراهية نحو جلاذيتهم السابقين ، وربما كان تفسير ذلك أنهم كانوا جميعاً أبناء جنس واحد . فمهما يكن السبب ، فإنه يؤيد تأييداً تاماً الرأي الذي خرج به كل من درسوا تلك

البلاد في الأزمان التركية . . ومغاده أن الحالة التعصبة الأليمة التي كان عليها السكان ، إنما تعود الى أسباب زراعية أكثر منها دينية . وأنه لو أمكن إزالة هذه الأسباب لانقشع بالتدريج الاحساس السيئ الذي خلقته تلك الأسباب» (٤١) .

فلو أن كاللاي قدر له بشكل ما أن يعزل البوسنيين الأرثوذكس والكاثوليك عن التطورات السياسية الثقافية الموجودة في الأراضي المجاورة ، فلربما أمكن لسياسته أن تجد لنفسها فرصة ، ولكن مثل هذا العزل المطلق النام ، كان مستحيلا . وبينما كانت القومية الصربية والكرواتية تنتشر بين صفوف البوسنيين الكاثوليك والأرثوذكس من خلال هذه الشبكات من القسس والمدرسين والمتعلمين من قراء الصحف ، التي ساعد الاحتلال النمساوي المجرى على انشائها ، أصبحت مشروعات كاللاي البوسنية المتميزة مقدرا عليها الفشل أكثر فأكثر . حتى إذا حلت سنة ١٩٠٨ ، اذ مراقب نافذ البصيرة هو عضو البرلمان النمساوي يوزيف بيرنرايتر (Josef Baernreither) ، يعلن على رؤوس الأشهاد « موتها » (٤٢) .

وفي نفس الحين ، فانه خارج الحدود البوسنية ، كان غياب السياسة النمساوية المجرية يشعل نار القومية الكرواتية والصربية ويزيدها أوارا سنة بعد سنة . واتباع الحاكم المجرى لكرواتيا سياسة متعصدة من اثارة العداء بين الكرواتيين والصرب ، باتخاذ اجراءات وتدابير مخيفة لا ضرورة لها مثل اصداره قرارا بضرورة أن يتكلم جميع عمال السكك الحديدية في كرواتيا اللغة المجرية . وتدهورت العلاقات بين الحكومة النمساوية الملكية وبين صربيا ، كما أنه نظرا لأن تجارة الصرب كانت تعتمد اعتمادا قاطعا على النمسا والمجر ، فان ذلك لم يزد الصربيين الا تمللا وضيقا من سيادة آل هابسبرج وتسلطهم على المنطقة . وعندما حاولت صربيا أن تجد لنفسها مخارج لتجاريتها في أماكن أخرى في ١٩٠٦ ، انتقم منها النمساويون المجرىون بفرض رسوم نأديبية على الصادرات الصربية الرئيسية : وهي الخنازير . (وهذه العقوبة التي سميت « بحرب الخنازير » كان من شأنها شأن غيرها من العقوبات التجارية في التاريخ الحديث ، أن شجعت بالفعل على تطوير المزيد من المنافذ التجارية) . وكانت العلاقات بين الدولتين في تلك الآونة مفرطة المرارة . فشرع وزير خارجية النمسا والمجر ، وهو البارون فون أرنتال (Baron Von Aehrenthal) ، ينظر جديا في الاستيلاء على صربيا في خاتمة المطاف ، كما أن رأى سلطات النمسا والمجر في البوسنة كان يؤيد بسط حدود الامبراطورية الى سالونيك أيضا : اذ بينما ادبث درهام تسافر بأرض

البوسنة في ١٩٠٦ ، لاحظت أن التمسساويين كانوا تواقين الى تقوية مركزهم في البوسنة بجهد الطاقة ، بحيث يكونون مستعدين للزحف الى الامام : « فان مخامرة نحو سالونيك ، أصبحت موضوع حديث محبب اليهم جميعا » . (٤٣) .

وفي هذا الجو والسياس ، قرر القراذ على تغيير الوضع القانوني للبوسنة ، من ارض عثمانية محتلة الى ارض مستلحقة بصورة كاملة بالامبراطورية النمساوية المجرية . وكان الذي عجل بتلك الحركة الى الظهور هو ثورة تركيا الفتاة في ١٩٠٨ ، وبدت الثورة وكأنها ستخلق نظاما في اسطنبول ربما طالب - ولا اثم عليه - باسترجاع حقوق تركيا علي البوسنة ، وذلك بمنح البوسنيين دستورا أكثر ديمقراطية من الذي يمنحون به في ظل الحكم النمساوي المجرى . وتصرف البارون فون أرنتال بسرعة ، حيث أعلن استلحاق البوسنة بالكامل الى النمسا في ٥ أكتوبر ١٩٠٨ . وأدى ذلك الى ثورة الرأي العام في صربيا : اذ أحس القوميون هناك أن ارض البوسنة قد خطفت من قبضتهم ظلما وعدوانا بعد أن باتوا قاب قوسين أو أدنى من هدفهم ونظمت مظاهرات ضخمة في بلجراد ، وأنشئت بعد ذلك جمعيتان صريتان لعمل حملة لتوحيد الكتلة الصربية : وهما على التوالي نارودنا أودبرانا (Narodna Odbrana) ومعناها «الدفاع الوطني» ، وأيدينى ايلي سمرت (Jedjenje ili Smrt) ومعناها «الوحدة أو الموت» ، وهى المعروفة أيضا باسم كرنا روكا (Crna Ruka) أى « اليد السوداء » . ولم يبلغ عام ١٩٠٨ نهايته حتى كانت هناك فروع كثيرة لجمعية « نارودنا أودبرانا » بأرض البوسنة (٤٤) . ولم يمنع صربيا من اعلان الحرب على النمسا والمجر الا تدخل وزير خارجية روسيا ايزفولسكى (Izvoliski) الذى كان يشعر بالألم الشديد لأن فون أرنتال خدعهم ، ولكنه مع ذلك نصح بلجراد بأنه : « يجب أن تظل صربيا ساكنة ، والا تفعل شيئا يمكن أن يستنفر النمسا ويزودها بفرصة تقضى فيها على صربيا قضاء مبرما » (٤٥) . وما لبثت الحكومتان النمساوية المجرية والتركية حتى وصلت في نهاية المطاف الى اتفاقية عقدت في فبراير ١٩٠٩ ، وبمقتضاها تصبح للحكومة الأولى الحقوق الكاملة على البوسنة وأن تنسحب من سنجقية نوفى بازار ، وأن تضمن حرية العبادة كاملة للمسلمين البوسنيين ، وتدفع لاسطنبول مليونين وخمسمئة ألف جنيه تركى ، ومع ذلك فان الازمة السياسية ظلت تنوى شهورا عديدة بعد ذلك (٤٦) . وهنا يتبين أن التفاعل الذى أحدثه تنافس الدول الكبرى على وطنية الولايات البلقانية والذى كشفت عنه هذه الحادثة ، كان نذير شؤم ينذر بأحداث أغسطس ١٩١٤ .

ولكن الأثر الأعظم الذي أحدثه الاستلحاق في حياة البوسنة الداخلية ،
 كان أثرا كبيرا النفع لها والحق يقال . اذ شعرت السلطات في كل من
 فيينا وبودابست باحكام قبضتهما على البوسنة ، وأصبحت من ثم أشد
 رغبة في السماح بقيام حياة سياسية في داخلها . وفي ظل وزير المالية
 المشترك المتحرر الفكر ، البارون بوريان Baron Burian (الذي ظل
 يشغل هذا المنصب من ١٩٠٣ حتى ١٩١٢) ، حصلت البوسنة على
 تنازلات ضخمة : فمنح المسلمون أولا نظام ادارة الأوقاف الذي طالما
 طالبوا به ، ثم في السنة التالية ، انتخب برلمان بوسنى . نعم ، انه كان
 مؤسسا على نظام اقتراع محدود ، كما لم تكن له أية قوة تشريعية مباشرة ،
 ولكنه مكن بالفعل المنظمات التي أقامتها المجتمعات المحلية ، في السنوات
 الأخيرة - مثل المنظمة الوطنية الاسلامية (١٩٠٦) ، والمنظمة الوطنية
 الصربية (١٩٠٧) ، والجمعية الوطنية الكرواتية (١٩٠٨) - أن تبدأ
 العمل بوصفها أحزابا سياسية حقا (٤٧) .

وبذلك أتيج للنخبه الممتازة من المتعلمين والأثرياء في كل طائفة من
 هذه الطوائف أن تلعب دورا نشيطا في هذه الأحزاب بطبيعة الحال . وهذه
 الحقيقة تساعد على تفسير السبب الذي من أجله لم يرق الحزبان المسيحيان
 الرئيسيان بأية حملة شرسة لاصلاح نظام ملكية الأراضي الزراعية -
 وذلك رغم أن معظم الناس الذين كانوا حينئذ يدعون أنهم يمثلونهم ،
 كانوا من الفلاحين . وكانت هناك مسألة حسابية برلمانية لها وزنها
 أيضا : فمن طريق عدد أعضاء مجلس النواب الذي عكس بدقة تامة النسب
 الصامة بين السكان : (٣٧ أرثوذكس ، و ٢٩ مسلمون ، و ٢٣ كاثوليك
 وواحد من يهود) ، لم تكن أى من الطائفتين المسيحيتين تستطيع أن تسيطر
 منفردة ، ولذا فانهم سرعان ما وجدوا أنفسهم مضطرين الى التنافس
 على التماس تعاون المسلمين معهم (٤٨) . وفي ١٩١١ فاز الكاثوليك في
 المنافسة وكونوا اتفاقا مع الزعماء المسلمين ، الذين كانوا يرون أن احتمال
 قيام الكاثوليك بمساندة الاصلاح الزراعى أبعد منه لدى غيرهم .

ولم يكن هذا التدليل الذى يلقاه المسلمون الا مجرد جانب من عملية
 تدليل فكرية وثقافية كانت مستمرة مدة عشر سنوات على الأقل ، حيث كان
 كل طرف من الاطراف يحاول أن يركز في الأذهان أن مسلمي البوسنة
 كانوا كرواتا « أقحاحا » أو صربا « أقحاحا » . وفي أثناء معظم هذه المدة ،
 أصاب الكروات نجاحا أكبر من حيث تطبيع الهوية الثقافية ، وبخاصة مع
 أصحاب العقول النابهة من المسلمين ، الذين قضوا ردا من الزمان في
 زغرب ، أو في جامعات أخرى نمساوية مجرية من التي يتردد عليها .

الكروات . وكانت أكبر الجمعيات الثقافية شأنا في سراييفو ، بل الأولى فيهن جميعا ، وهى « الخبايرت » (Ujret) ، وقد أسست فى سنة ١٩٠٣ ، يتسلط عليها فى سنتيها الأولى « كتاب من اصحاب النزعة الكرواتية مثل الشعاع والمؤلف صفوت بك باشاجيتش (Safvet-beg Basagić) (٤٩) . ولكن فى الحين نفسه كان هناك قدر أكبر من التعاون السياسى ، وان جاء على شكل فضفاض غير رسمى ، بين زعماء المسلمين والصربيين فى السنوات التى سبقت تكوين البرلمان . وقام الصربيون بحملتهم الخاصة هم أيضا ، يقودهم مناضل آخر من موتسار هو فويسلاف شولا (Voislav Sola) ، وكان يطالب بانشاء هيئة دينية تكون أكثر استقلالا ذاتيا ، وقد أرسلوا كذلك وفدهم لى يؤازر المسلمين سياسيا فى بودابست فى عام ١٩٠٠ ، بل وعقدوا مؤتمرا ثقافيا مشتركا بينهم جميعا فى السنة التالية (٥٠) . لقد كانت هذه الجوانب الثلاثة جميعا تقوم بلعبة دقيقة من الانتهازية السياسية ، وكانت عملية الانحياز بينها مائعة دائما . ومع أن بعض البارزين من المفكرين الاسلاميين « أعلنوا » أنفسهم صربيين أو كرواتا ، فان هذه الأعمال الفردية لم تقوض بآية حال ، المركز العام للمسلمين ، الذين نرسخت أقدامهم وتدعمت اركانهم فى كتلة سياسية متميزة أى (كيان خاص) . والأمر كما لخصه دوبرت دونيا (Robert Donie) الخبير الأول فى تاريخ تلك المدة : « أن هذه الاعلانات كانت فى معظم أمرها تكتيكية وسياسية فى طبيعتها ، وكان بعض المسلمين ينتقلون من معسكر لآخر تبعا لاختلاف المناسبات . ولو لجأنا الى التعبير عن الوضع ببساطة لقلنا ان قيام هوية اسلامية منفصلة كان فكرة بالغة التقدم بحيث لا يستطيع بسهولة أى مسلم ذى شأن أن يتخلى عنه » (٥١) .

ولسنا نستطيع أن نعلم الا على سبيل الظن ما الذى كان سيحدث لو تركت هذه الترتيبات العقائدية والحزبية فى مسارها ، لكن ذلك لم يكن مقدرا له أن يكون ، اذ كان اختمار الوطنية الصربية الذى أثر بعد ضم البوسنة الى النمسا والمجر ، قد أخذ ينتشر بين قطاعات أخرى من السكان البوسنيين الأرثوذكس — أو على الأقل بين فئة قليلة من مثات تلاميذ المدارس وطلابها . وكان الشعور المضاد للنمسا والمجر آخذا فى النمو فى كرواتيا أيضا ، وفى المدة ما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ كان آخذا بصورة متزايدة فى التحول الى شكل من التعاون مع الصربيين فى عملية انشاء دولة سلافية جنوبية مشتركة . ويتجسد ذلك فى الاسم المعقد لمنظمة من الطلبة كانت تعمل فى جامعات خارج البوسنة ويرأسها الكاتب البوسنى الشاب ايفو أندريتش ، اذ كانت تسمى نفسها « حركة الشباب التقدمية

الصربوكرواتية أو الكرواتوصربية أو اليوغوسلافية ، (٥٢) . وشرح الطلبة الصربون في داخل البوسنة يغيرون سريعا موقفهم بعد ١٩١٠ من النزعة الصربية المضيفة الى المطالبة بعودة يوغوسلافية . وهناك جميع هش من تلاميذ المدارس ، طلبتها يسمى « جمعية البوسنة الفتاة » (Mlada bosna) ، التي اتخذت لنفسها هذا الاتجاه الذي كان أبسط موقف مشترك يستطيع أن يتحده عليه جميع « أهواء آل هايسبرج » ، وبذلك أصبح الانضمام الى عضويته يمكن أن يضم الكروات بل حتى بعض المسلمين أيضا (٥٣) . والأمر كما عبر عنه أشهر أعضاء جمعية البوسنة الفتاة أثناء محاكمته في ١٩١٤ ، وهو جافريلو برنسيب (Gavrilo Princip) « اننى وطنى يوغوسلافى ، أهدف الى توحيد جميع اليوغوسلاف فى وحدة مترابطة ، ولا يهمنى أى نوع من الدولة يتخلى عنه الأمر ما دام يكون خاليا من النموسيين » (٥٤) .

ولقد عالج الكتاب الشيء الكثير من جوانب الفلسفة السياسية لهؤلاء « النهضة » الشباب ، ولجلهم أسرفوا فيما كتبوا فلم يكن هؤلاء الصبية ، الذين لم ينالوا قسما وافرا من التعليم الجيد ، من الفلاسفة ولكنهم كانوا ضد رجال الدين وعارضوهم بشدة وكانوا يريدون الثورة الاجتماعية ، بالهبط بنفس قدر ما يريدون من التحرر الوطنى . وكانوا شديدى التهاق على كتابات الفوضويين أو الفوضويين الاشتراكيين ، من أمثال باكونين (Bakunin) وهرتسن (Herzen) وكروبوتكين (Kropotkin) ، وكانوا فؤد كل شيء يبتغون أن يصبحوا أبطالا . وكان الأول المرائد بين عدد متعاقب من هؤلاء الذين اتجهوا الى عمليات الاغتيال السياسى ، طالب من البيرسك يسمى بوجدان جيراييتش (Bogdan Zgerajic) ، الذى ذهب الى سراييفو يوم افتتاح البرلمان البوسنى الجديد فى ١٩١٠ ، وهناك أطلق خمس طلقات على الحاكم الميسكرى ، وهو يغادر الموكب ، فلما رأى أنه أخطأ التصويب فى كل واحدة منها ، أطلق السادسة على رأسه حتى ينتحر (٥٥) . وفى صيف ١٩١٢ حاول لوكا بوكيتش (Luka Jukić) وهو بوسنى كرواتى أن يقتل الحاكم العام لكرواتيا فى زغرب . وقبل ذلك بقليل من نفس السنة ساعد بوكيتش فى تنظيم مظاهرات احتجاج من تلامذة المدارس فى سراييفو ، بالاشتراك مع جافريلو برنسيب وعدد كبير من الشباب ، ممن أصبحوا فيما بعد مشتركين فيما يعمده برنسيب من خطط الاغتيال فى ١٩١٤ . وفى هذه المناسبة ، كما دون أحد هؤلاء فى فكرته ، « كان برنسيب ينتقل من فصل مدرسى الى آخر وهو يتهدد ، بقبضة من الحديد ،

جميع الأولاد الذين كانوا يترددون في الاشتراك في تلك المظاهرات الجديدة (٥٦) .

ولم يكن ما اجتلب الناس إلى الشوارع فيما بعد في ١٩١٢ هو القبضة الحديدية لبرنيسيب ، وإنما هو الأحداث الدرامية التي حدثت في شرق البوسنة وجنوبها . ففي أكتوبر أعلنت الجبل الأسود وصربيا الحرب على تركيا ، وبمساعدة بلغاريا واليونان تمكنوا من طرد البترلي من سنجقية نوفى يازار وكوسوفو ومقدونيا . وقد أدت السرعة والحجم الضخم لانتصارات الصرب والجبل الأسود في هذه الحرب البلقانية الأولى ، إلى ظهور موجة عظيمة من المشاعر بين النشطاء المناوئين لآل هابسبورج بكل من البوسنة وكرواتيا . حيث اندفع عدد كبير من أعضاء جمعية « البوسنة الفتاة » للعمل التطوع مع القوات الصربية ، ومن عجب أنه من بينهم بعض الصبيان المسلمين (٥٧) . ولعلهم لم يكونوا يعلمون ، أو حتى يهتمون ، بأن الصربيين وحلفاءهم كانوا يذهبون القرويين الألبان المسلمين ، مما جثت سمشرات الآلاف من المسلمين البسلاف يفرون من مغلوتيا ، وأوقع المسلمين الناطقين بالبلغارية تحت ظائلة التحويل الإجباري إلى المسيحية (٥٨) .

وبلغ الأمر أنه عند حلول ربيع ١٩١٣ كانت العلاقات بين النمسا والمجر ، وصربيا بالغة التوتر ، خاصة وأن الفتوح الصربية أوشكت أن تضاعف من حجم رقعتها ، ولولا كانت استولت على جزء من الساحل الألباني أيضا (وهو أمر كانت تنتويه بالفعل) ، لكأنك قد تسببت في وقوع تهديد استراتيجي للنمسا والمجر في البحر الأدرياتيكي . ومع ظهور ظرف تبسؤ فيه الحزب وشيكة الوقوع بين الدولتين ، فإن الحاكم العسكري للبوسنة ، وهو الجنرال بوتوريوس (Potiorek) ، طبق خطة أمن عنيفة . فأعلن حالة الطوارئ في ٢ مايو ، وحل البرلمان ، وأوقف المحاكم المدنية عن العمل ، وأمر بإغلاق كثير من الجمعيات الصربية ، ووضع تحت تصرفه جميع المدارس البوسنية (٥٩) . ومضت تلك الأزمة المباشرة إلى خاتمتها عندما انتهت الحرب البلقانية الأولى بمعاهدة لندن في الثلاثين من مايو ، ثم اشتعلت نار الحرب بعد ذلك بين الحلفاء المنتصرين ، في الحرب البلقانية « الثانية » في شهرى يونيو ويوليو . غير أن سياسة الجنرال بوتوريوس البالغة الشدة ، كانت رسخت جذورها الآن في البوسنة ، فإن الوزير المشترك للمالبة ليون فون بيلينسكى Leon Von Bilinski (وهو الذي تقلد الوزارة بعد بوريان في ١٩١٢) ، كان يفضل سياسة مرنة أكثر ، بدفع الجماعات البوسنية

أحداها ضد الأخرى ، والاستفادة من الطغاف الصربية التجارية والمهنية ،
ولكن سياسة بوتوريك المناوئة للصرب، كانت لها الغلبة (٦٠) .

وبذلك تهيأ المسرح لمناوئيات الصحف الكبرى للجيش النمساوى
المجرى فى البوسنة فى ١٩١٤ ، التى كان من المقرر أن يشهدها الأرشيدوق
فرانز فرديناند ولى عهد العرش الهابسبرجى والمفتش الصام للقوات
العسكرية للإمبراطورية . وكان من الحباقة الميافعة أن زيارته لسرايفو
سدد لها اليوم الثامن والعشرون من يونيو ، وهو العيد السنوى لمعركة
كوسوفو ، ومن ثم فهو أشد الأيام قداسة فى التقويم الروحى للوطنية
الصربية . واتباعا لخط سير نشر فى اليوم السابق فى صحيفة البوسنة
« بوسنيسكي بوست » Bòsnische Post ، « مرت غريبات التيموزين
بنوكية على ما لا يقل عن ٦ من أعضاء جمعية « البوسنة الفتاة » المسلحين
بالتقابل والمسدسات الذين كانوا يضمنون اغتياله . وأحقق خيبة لكن
أحدهم وهو نيديليكو تشابرينوفيتش (Nedeljko Tschabrinovic)
القمى قبيلة انفجرت خلف سيارة الأرشيدوق وجرت حين كان
فى السيارة التى خلفه . وعندئذ اتخذ جايريلو برنسيب موقفا
آخر لنفسه فى مكان متقدم من خط السير الرسمى المقرر لليوم عند منعطف
شارع فرانز جوزيف . وفى الوقت نفسه كان الأرشيدوق قد قرر أن
يغير الطريق ، لأنه شاء أن يذهب رأسا إلى المستشفى لزيارة الضباط
المصابين ، ولكن أحدا لم يبلغ سائقة بذلك ، فخرج السائق بالسيارة إلى
شارع فرانز جوزيف وفقا للخطة المرسومة . وأمره الجنرال بوتوريك
بالتوقف والعودة . وهكذا عاد بالسيارة إلى الخلف ببطء أمام الموقع الذى
كان برنسيب واقفا فيه بالضبط . وقال برنسيب لوكيل النيابة الذى
تولى التحقيق : « لا أدري أين صوبت مسدسى ، ولكنى أعرف أنى كنت
أصوب المسدس نحو ولى العهد ، واعتقد أنى أطلقت النار مرتين ، ولعل
أطلقتها أكثر من ذلك ، وذلك بأنى كنت منفعا جدا . وسواء أصبت
الضحايا أم لم أصب ، فذلك شأن لا أستطيع أن أقوله لأن الناس انهاروا
فورا على بالضرب » (٦١) . وتوفى كل من الأرشيدوق وزوجته الدوقة
موهنبرج ببطء متأثرين بجراحهما . وبعد شهر واحد بالضبط ، أعلنت
النمسا والمجر الحرب على صربيا .

الفصل الثاني عشر

الحرب والمملكة : البوسنة ١٩١٤ - ١٩٤١

لا يزال المؤرخون مختلفين هل كان وراء السبب في ذلك الاغتيال هو القومية الصربية أو اليوغوسلافية ، أم الجمعيات الصربية السرية ، أم كان مبادرة محلية صرفة ؟ ولكن كثيرا من اليوسنيين سرعان ما حددوا من هو المثلوم : ففي مساء اليوم الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ ، حدثت اضطرابات مضادة للصرب في سراييفو ، صاحبها تدمير الدكاكين والبيوت التي يملكها الصربيون . وعندئذ صرح رئيس العلماء الشيخ جمال الدين تشوشيفيتش (Gjemahudin Tchaushevic) معلنا استيائه من هذا الاجرام المذير الذي راح فيبججته الأبرياء ، ووضح بعض الصربيين تحت حمايته (١) . وكذلك أيضا شعر بعض الزعماء الصرب اليوسنيين أن هناك حملا من الآثام الصربية لابد من تقديم الغفران عنه وعندما بدأت الحرب قدموا التماسا إلى السلطات أن تسمح لهم بالذهاب رأسا إلى الخط الأمامي ضد صربيا ، وأن يبدوا ولائهم للإمبراطور (٢) . وهناك حقيقة تبدو دلالتها واضحة ، وهي أن معظم المتآمرين كانوا من الصرب اليوسنيين ، وعندما ظهر في النهاية أن الفاعلين الرئيسيين وهما برتسيب وتشابرينوفيتش تلقيا دراستهما في بلجراد ، وحصلوا على قنابلهما منها عبرا بها الحدود إلى داخل البوسنة ، بدا الاتهام دامغا وقاطعا . ومن الواضح أنهما تلقيا بالفعل شيئا من المعونة من عميل لمنظمة الدفاع الوطني ، الصربية (النارودنا أودبرانا) ، كان يعمل في خدمة الكولونيل أبيس (Apis) رئيس إدارة المخابرات الصربية (٣) . والنظريات لا تزال تتضارب حول مدى اشتراك أبيس في المسألة وحول دوافعه السياسية الممكنة ، ولكن الفكرة الداهية إلى أن الحكومة الصربية كانت هي التي دبرت للاغتيال ، قول يمكن رفضه بكل حزم .

وبلغ الأمر أنه حتى الحكومة النمساوية المجرية نفسها لم تحمل الصرب المسئولية المباشرة عما حدث . وذلك لأن الانذار النهائي الصادر

في ٢٣ يوليو لم يشك إلا من مجرد أن الحكومة الصربية ، تسامحت اذلة مؤامرات جمعيات ومنظمات عدة معادية للنظام الملكي ، واللغة غير الملهذبة التي تستخدمها الصحافة ، وتمجيد المحرضين على العنف ، ومشاركة الضباط والموظفين في الحركات الهدامة ، - وكلها حقيقة تماما في جوهرها . وقد قبلت صربيا جميع المطالب العشرة التي قدمت اليها لانتهاء هذه النشاطات الا واحدا فقط ، كان يتطلب حضور مندوبين نمساويين مجريين من محققين أو رجال شرطة وتوليهم تحقيقهم على الأرض الصربية (٤) . وكان هذا الاعتراض على نقطة واحدة سببا كافيا لهؤلاء السياسسيين في بودابست وفيينا وبرلين - وعلى الاخص برلين - الذين كانوا يريدون الحرب . واعتاد المؤرخون ان يكتبوا ما يشاءون كالمسألة الحرب تسبب فيها شيء غير شخصي يسمى « النظام الدولي » ، ولكن الحقيقة المتفق عليها بين الناس عامة هي أن ألمانيا كانت تدفع الأمور دفعا شديدا نحو الحرب ، لكي تضع حدا حاسما لقوة روسيا المتزايدة (٥) . أما النمساويون المجريون فكانوا أكثر ترددا ، حيث كانوا يخشون تدخل روسيا (بوصفها حامية صربيا) بقدر ما كان الألمان يسمعون الى ذلك . ومع أنه كان بين وزراء الحكومة النمساوية المجرية من كان يرغب في اتخاذ اجراءات تآديبية نحو صربيا ، فانهم لم تكن لديهم خطط جديدة لزيادة الرقعة الأرضية في بلاد البلقان : بل على العكس فان الوزير المجرى تيسستسا (Tisza) ، أصر (بسبب الخوف المجرى القديم من زيادة عدد السلافيين أكثر مما ينغى على أرضها) على أنه لا ينبغي ، بآية حال ضم أية أرض صربية . فحتى عندما فكرت حكومة النمسا والمجر في شن الحرب على صربيا في ١٩٠٦ و ١٩١٣ ، فانها لم تعرف قط معرفة يقين ماذا تفعل بتلك البلاد لو أنها فتحتها . ذلك بينما كان واضحا أن صربيا كانت تريد فعلا الاستحواذ على اقليم البوسنة ، رغم أنها لم تتصور يوما أنها تستطيع أن تنتصر في حرب حاسمة على الامبراطورية النمساوية المجرية . ولو أنك أنعمت النظر في صميم هذا النزاع البلقاني المحلي ، لوجدت فيه أسبابا قوية لزرع العداوة ، لكنك لن تجد دوافع كافية لشن الحرب . فلولا الضغط الألماني لما أثار حادث الاغتيال في سراييفو فيها احتمال حتى ولو حربا بلقانية خطيرة الشأن ، ناهيك عن حرب تنوره فيها جميع القوى العالمية الكبرى .

قاتل الصربيون ببسالة ، وكان كثير من الجند الذين أرسلوا الى صربيا تحت قيادة الحاكم العسكري للدوسنة ، وهو الجنرال بوتيوريك . هم أنفسهم صربيين من البوسنة نفسها ومن المناطق الحدودية العسكرية كرواتيا في السابق . وهنا ترى الأرثوذكس يقاتلون الأرثوذكس :

وكانت هذه عودة الى الأيام القديمة للحروب الهابسبرجية والعثمانية . ولكن كان من بين الجنود النمساويين المجرين كثير من المسلمين والكاثوليك ، أيضا والطائفة الأخيرة كان من ضمنها شاب صغير نصف كرواتى ونصف سلوفينى يدعى جوزيب بروز اشتهر فيما بعد باسم تيتو . وفى عام ١٩١٤ رد الجيش النمساوى المجرى على أعقابيه مرتين عن الأراضى الصربية ، مع تكييد الطرفين خسائر جسيمة . وصمدت صربيا حتى أخريات صيف ١٩١٥ ، ثم حدث بعد ذلك هجوم جديد على الجيش الصربى بقيادة الجنرال الألمانى فون ماكسنس (Von Mackensen) ودخلت بلغاريا الى ساحة الحرب الى جانب ألمانيا والنمسا ، وعندئذ أخذ يتراجع الجيش الصربى متجنبيا خسائر جسيمة فى الأرواح عبر جبال شمال ألبانيا الساحل الادرياتيكي ، وأما من بقى من ذلك التقهقر على قيد الحياة فقد كتب عليهم أن ينضموا الى جيش الحلفاء الذى قاتل فى سالونيك ، ومن هنالك شقوا طريقهم حتى بلغوا مقدونيا وصربيا فى خريف ١٩١٨ ، معيدين فتح بيجراد فى الأول من نوفمبر ، ثم متحركين الى داخل البوسنة والفويودينا .

وكان بين صفوف الجيش الصربى ستطوعون كثيرون من البوسنة وغيرها من الأراضى السلافية التابعة للنمسا والمجر . وكان من المعروف أن ما يقارب خمسة آلاف من البوسنيين انضموا الى الفرقة الأولى للمتطوعين الصربيين ، كما أنه كانت هناك ثلاث كتائب من المتطوعين من الهرسك فى جيش الجبل الأسود (٦) . ومن ثم فليس مما يدهش له أن السلطات بالبوسنة بقيادة بوتوريك أولا ثم بقيادة خلفه البازون ساركوتيتش (Šarkotić) ، قامت ببعض العمليات شديدة الوطأة على الوطنيين الصرب وعلى « النشطاء » السياسيين وعلى غيرهم من المتعاطفين المتوقعين على القضية الصربية . وتم نقل صربيين من منطقة تخوم البوسنة الشرقية ، وأعيد توطينهم بغرب الاقليم ، وذلك تجنباً لنشاط الطابور الخامس ، كما أن ما يصل بالتقريب الى خمسة آلاف عائلة صربية دفعوا عبر الحدود حتى دخلوا صربيا والجبل الأسود (٧) . وتعرض البعض للاعتقال ، اذ أن روائى المستقبل ايفو أندريتش مثلاً ، الذى عاد الى البوسنة فى اليوم الذى سمع فيه بالاعتقال اعتقل يوم ٢٩ يوليو ، واحتجز فى عدد متعاقب من السجون بدالماشيا وسلوفينيا ، (وأخيرا وضع فى قيد من النفى الداخلى فى قرية قرب مسقط رأسه ترافنيك ، حتى صدر العفو العام عن مثل هذه الحالات فى ١٩١٧) (٨) . ولا أقل من ٣٣٠٠ وسيمثل حوالى ٥٥٠٠ من أبناء البوسنة المشتبه فيهم ، ومعظمهم من الصربيين ، ظلوا محتجزين فى معسكرات اعتقال بكل من البوسنة

والمجر • والمظنون أنه مات عدد يتراوح بين ٧٠٠ و ٢٢٠٠ من المعتقلين هناك • وكانت وطأة الضغوط الشديدة على جمعية «البوسنة الفتاة» وغيرها من التجمعات الأخرى من تلامذة المدارس «قاسية وعنيفة» وقسم ٢٤٣ فردا من هؤلاء إلى المحاكمة في ١٩١٥. وفي أشهر هذه المحاكمات اسما «وهي محاكمة قوم مرتبطين بحركة «الدفاع الوطني» الصربية» والتي عقدت في بايالوكا في ١٩١٦. كان عدد المتهمين ١٥٦ متبهما «صدر حكم الاعدام في خمسة عشر منهم» وحكم بالاشغال الشاقة على ٨٦ (٩) • ولم تجد كثيرا هذه الأفعال الحكومة النمساوية ولا النجته الحربى النمساوى المجرى كما كان متوقعا ، وأن اكسبت الغايات الصربية ، قضية الوطنية اليوغوسلافية تعاطفا شديدا •

ومع ذلك فإن غالبية البوسنيين ، مهما تكن شكوكهم في الجو المحيط بهم ، ظلت موالية للدولة النمساوية المجرية • ومع أن بعض المسلمين انضموا فعلا متطوعين في الجيش الصربى فان معظمهم لم تكن لديهم أدنى رغبة في أن يروا صربيا تبطل وطنهم بعد أن تضع الحزب أوزارها ، ورغم أن زعماءهم رضوا من قبل أن يقيموا أخلاقا تكتيكية مع انصر البوسنيين أثناء السنوات الخمس عشرة السابقة على الحرب وذلك ابتغاء اكتساب تنازلات خاصة من الحكومة ، لكن التحالف مع صربيا كان أمرا مغايرا تماما (١٠) • أما الكروات البوسنيون فكان الخلاف بينهم أشد ، عاكسا اختلاف الرأي داخل كرواتيا نفسها • وهناك تحليل شائق يصف مركز الكروات البوسنيين ، ورد في خطاب أرسله مدير المدرسة الكاثوليكية في ترافنيك إلى الحكومة النمساوية ، قال : « ان بعضهم كان يريد الانضمام إلى صربيا ، بينما كان آخرون ضد ذلك على الإطلاق ، فأما الذين أرادوا الوحدة غير المشروطة مع صربيا ، فكانت غالبيتهم من بين المثقفين ، بل لقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء أنهم كانوا على استعداد للتخلي عن كاثوليكيتهم : ذلك بأن ميولهم في التحرر من روما » كانت تنبأهم وميولهم في «التحرر من النمسا» (١١) •

ولو استعرضنا القادة السياسيين في كرواتيا نفسها ، ومنهم من انضم الآن إلى «لجنة يوغوسلافية» في المنفى ، ما وجدنا فيهم أحدا يتصور أن الدخول في الأرثوذكسية يمكن أن يكون ثمنا للاتحاد مع صربيا ، فقد كانوا يريدون الاحتفاظ بهوية كرواتيا المميزة داخل نطاق دولة يوغوسلافية مستقبلية ، كما كانوا يرتابون في أية خطة تصل إلى خلق «صربيا العظمى» • وازدادت شكوكهم في ١٩١٥ ، يوم قبلت الحكومة الصربية اتفاقا تقطع بمقتضاه أجزاء كبيرة من دالماتيا وايستريا

وسيلوفينيا ، وتطلى لاطاليا كيكافاة على دخولها الحرب الى جانب
الجلقاء . وكانت مثل هذه الحركات تقوى من جهة أولئك السياسيين الذين
كانوا لا يزالون نشيطين داخل الأراضي النمساوية المجرية ، الذين كانوا
يصيدون شيكلا موسيما جديدا للحل السياسي الثلاثي الأطراف القديم ،
الذى يدعو الى « وحدة ذاتية يوغوسلافية موحدة » كشرط مسبق للنهوض
والجهد من خلال امبراطورية هابسبورجية مستمرة . وكان هذا هو الموقف
الذى اتخذه الممثل الأول للسيلوفينيين في البرلمان النمساوي وهو
الموسنيور كوروشيك (Korosec) (١٤) .

وفي يوم ٣٠ مايو ١٩١٧ ، أصدر كوروشيك وبعض زملائه اعلانه
يدعو الي « توحيد جميع الاراضى الموجودة في المملكة التي يسكنها
السيلوفينيون والكروات والصرب » ، وأوتي « اعلان مايو » هذا اثرا قويا
في الهوسنة ، فانهاز اليه كثير من السياسيين الصرب والكروات .
ورحب الصربيون بادخال اسم الصرب بمرحلة في مقترح الوحدة (اذ يعد
ذلك تقدما على كل التعيرات والصبر السابقة الثلاثية الأطراف) ، وراوا
فيه اقرب صورة لدولة يوغوسلافية يمكن التوصل اليها تحت الحكم
النمساوي المجرى . وكان المعتدلون من الكرواتيين البوسنيين يؤازرون
خطة من هذا النوع ، فأما الكاثوليك المحافظون ، يقدرون كبر الاساقفة
ستادلي ، فكانوا يفضلون صورة محدودة أكثر لنفسي الفكرة ، يكون فيها
الكان المقصد شاملا للسنة ، عا اذ تسد تطابع كرواتيا العظمى .
عندما ذهب اثنان من قادة

ش وشفوت بك باشاجيتش
ن ذلك بالاستقلال الذاتي
تيون ، وكان معظم المسلمين
، تبستع به كرواتيا فعلا من

س ، ثم من الى الحق الا احياء للحكم القديم بالاستقلال الذاتي الذي
شغل بال زعماء المسلمين منذ ايام حسين قابيطان في ثلاثينيات
الالف وبثمانئة . وكان التماسها الاساسي هو الحيلولة دون ابتلاع
البوسنة داخل دولة يسيطر عليها الكرواتيون ، وكان معظم المسلمين
جريصين على تجنب ذلك ، وان ابلدي شفوت بك باشاجيتش نفسه ميلا
للكروات في نظره العامة الى الامور ، حتي انه سرعان ما تحول الى موقف
هؤليه لقيام « كرواتيا الكبرى » (١٤) . على انه كان بين المسلمين كثرة
تري أن الاستقلال الذاتي نفسه تحت سيطرة المجر ، تسوية غير مرضية ،
وكانوا اميل الى الدخول في غمرة دولة يديوسلافية منفصلة . وكان من

هؤلاء رئيس العلماء تشاوشيفيتش ، الذى أبلغ المونسنيور كوروشنيك
فى ١٩١٧ أنه قد سنثم من حكم التزك أو الأمان (١٥) .

وانكبت السلطات النمساوية المجرية على دراسة هذه المقترحات
لكنها لم تفعل شيئا . ولما حان الوقت لأخذها مأخذ الجد ، كان الأوان
قد فات ، ففي فبراير من تلك الفترة حدث تمرد فى الأسطول النمساوى
المجرى بإقليم الجبل الأسود ، وكان الهروب من الجيش والاضرابات
تتزايد يوما بعد يوم ، ولم يبق الا توطئ النفس على قبول الهزيمة
الشاملة . وبدأ المحاكم العام للبوسنة البارون ساركوفيتش فى الاقدام
على سلسلة من المناقشات والمجادلات ، وغبة منه فى محاولة ادخال
بعض التعديلات السياسية فى النظم التى ربما تقضى سبيلا للاحتفاظ بحكم
آل هابسبورج . فبدأ أولا بأن حسن للإمبراطور فى مارس أن تضم البوسنة
لكرواتيا ، ثم عاد فاقترح فى مايو اندماج البوسنة مع كرواتيا أو الحصول
على الاستقلال الذاتى بوصفها « كيانا منفصلا » تحت ظل التاج المجرى ،
ثم عندما نوقشت هذه المسائل بالمجلس الامبراطورى فى آخر مايو تحول
الى تحسين الاتحاد مع كرواتيا مرة ثانية (١٦) . وفى أغسطس ، يوم
كان الجهد الحربى النمساوى المجرى يترنج ويتداعى يوما بعد يوم ، نظم
المونسنيور كوروشنيك اجتماعا جديدا لرجال السياسة تخطى تماما فيه
عن فكرة السيادة النمساوية المجرية ، وأخذ يعلن وجوب قيام
« مجلس قومى » بقصد « توحيد الشعوب اليوغوسلافية داخل دولة
مستقلة » . والآن وقد أصبحت النهاية على مرمى البصر أرسل الامبراطور
الوزير المجرى الكونت تيسيتسا لزيارة كل من زغرب وسراييفو فى
سبتمبر ، فى محاولة نهائية مقضى عليها بالفشل ، لاقناع السياسيين
المحليين بقبول هيئة دستورية جديدة ، تحت ظل التاج المجرى .

والاجابات التى تلقاها تيسيتسا فى سراييفو تعطينا صورة مدهشة
لواقف زعماء السياسيين البوسنيين . وقام الصربيون والكرواتيون
(بقيادة السياسى الصربى فويسلاف شولا) ، بتقديم مذكرة مشتركة
قالوا فيها أنهم شعب واحد ، وانهم يرغبون فى اقامة دولة يوغوسلافية
مع جميع الصربيين والكروات والسلوفينيين . وشكوا بمرارة من التدابير
التي أملتها ظروف الحرب : مثل القضاء على الحكومة المحلية والمصادرات
والمحاكمات السياسية . وكان من بين مطالبهم اصدار العفو العام عن
السجناء السياسيين وإعادة الحكم الدستورى مع الانتخابات الحرة وعقد
برلمان جديد . ومن بين زعماء المسلمين ، كان أرنأؤطوفيتش لايزال
يستسيغ ويؤيد اقامة استقلال ذاتى تحت حكم المجر ، وباشاجيتش كان

يرغب في أن يجعل ذلك الاستقلال مطلبه المفضل الثاني بعد الأول الذي هو التوحيد مع كرواتيا . ولكن الاتجاه المسيطر عبر عنه رجل كان يشغل آنذاك وظيفة سنكرتير غرفة التجارة ، ولكنه ما لبث أن أصبح الرجل السياسي البوسني الأول ابن سنوات ما بين الحربين وهو محمد سباهو . وقد شكّا هو أيضا بمرارة من سوء ما لاقاه شعب البوسنة من معاملة أثناء الحرب وبخاصة مصادرة المأون وتجريد الشيوخ من الرجال والمراهقين من الأولاد في الجيش . وقال ان عوامل التفريق بين المسلمين والمجتمعات الدينية الأخرى قد هبطت حدتها بسبب ما يعانيه من بؤس وشقاء من جراء الحرب ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح معظم متسلمي البوسنة الآن على حدة قوله - يؤيدون انشاء دولة يوغوسلافية (١٧) .

وسرعان ما حلت النهاية . ففي أكتوبر عقد في زغرب اجتماع عام « للمجلس الوطني » ، فأما المندوبون البوسنيون الذين حضروه فعادوا الى سراييفو حيث أقاموا مجلسهم القومي الخاص للبوسنة . وفي يوم ٢٩ أكتوبر ألغى البرلمان الكرواتي رسميا حكم آل هابسبرج وسلم السلطة الى « المجلس الوطني » معلنا قيام دولة ذات سيادة من السلوفينيين والكروات والصرب . وهذا الاعلان وان انطبق فقط على الأراضي النمساوية المجرية السابقة ، فانه كان مؤذنا بقرب قيام دولة يوغوسلافية . والآن ولم يبق على التوحيد مع دولة الصرب الا بضعة أيام . كما أصبح الجيش الصربي على مسافة قريبة جدا من الأراضي البوسنية ، فان الصربيين هم الذين شعروا بأنهم أقرب الناس الى النصر بين شعب البوسنة . وكتب البارون ساركوتيتش في يوم ٢٩ أكتوبر يقول : « يبدو أن مشاعر الابتهاج والفرح التي أعرب عنها الصربيون وبالفوا في اظهارها كان لها الى حد ما أثر مهدئ على الكروات والمسلمين » (١٨) . وفي اليوم التالي جاء زعماء المجلس الوطني البوسني لزيارته ، وكانوا يحملون التماسات وطلبات متنوعة ، مثل التوقف عن مصادرة الماشية ، ولكن من أعجب الأمور أنهم لم يطالبوه بأن يسلمهم السلطة . وكانت وزارة الحرب في فيينا ، هي التي أبلغته برقيا في تلك الليلة أن جميع القوات العسكرية في البوسنة ينبغي أن توضع تحت تصرف المجلس الوطني . وفي اليوم الأول من نوفمبر دعا ساركوتيتش قادة الجيش وزعماء المجلس الوطني لمقابلته وأخبرهم بتنازله عن الحكم . وعندئذ سأله أحد زعماء الكروات البوسنيين وهو يوزيب سوناريتش (Josep Sunarić) أن يطلق سراح المعتقلين السياسيين ، وكان جوابه بسيطا : « ان السلطة لكم الآن » . وبعد ذلك بيومين اثنى شكلت « الحكومة الوطنية الأولى للبوسنة والهرسك » (١٩) .

وكانت أول نتيجة لانتهيار الدولة النمساوية المجرية ، هي حالة عامة من الفوضى وثورات الفلاحين بالمناطق الريفية . وكانت أشنع الحالات من هذا النوع هي التي حدثت في شمال كرواتيا ، حيث نُهبت كثير من المزارع الكبيرة وسرق كل ما فيها من مواش . ولما حدث ذلك الشيء نفسه في البوسنة ، كان المسلمون وحدهم هم ضحايا هذه الهجمات لأنهم كانوا هم المالكين لمعظم المزارع الكبرى . بيد أنه كان هناك أيضا نوع من الاحساس بالنصر من الصرب على المسلمين ، خاصة بعد وصول جند صربيا والجبل الأسود في أوائل نوفمبر . وفي مارس ١٩١٩ أبلغ رئيس العلماء جمال الدين تشاوشيفيتش صحفيا فرنسيا أن ألف رجل مسلم قد قتلوا وأن سبعا وستين امرأة أحرقت حتى الموت وأن مئتين وسبعين قرية قد نُهبت نهبا مع المساعدة ، سلبية كانت أم إيجابية ، من الجند الصربيين . وعندما نشر هذا الصحفي هذا البيان في الجرائد الفرنسية ، ضغطت الحكومة الجديدة في بلجواد على رئيس العلماء لكي يسحب أقواله (٢٠) . وهذه الفظائع لا تعد مع ذلك دليلا على عودة البغضاء العرقية القديمة بين أهالي البوسنة من الصربيين والمسلمين ، لأنها حدثت في ظروف غير عادية ، في نفس لحظة انتهاء حرب لقي فيها الناس ضروبا من المعاناة القاسية . (من العنبر علينا أن نحصى عدد الذين ماتوا في البوسنة من جراء العمليات العسكرية والتيفوس : ولكن من المعتقد أن سدس عدد السكان تقريبا هلكوا أو هجروا ديارهم أي ٣٠٠ ألف نسمة ، ويشمل ذلك جماعة من المسلمين فروا في موجة ثانية من الهجرة الى تركيا بعد ١٩١٨) . وطوال سني الحرب كلها ، كان مسلمو البوسنة موالين بوجه عام للحكومة التي كانت تشن الحرب على صربيا . وكذلك اشترك المسلمون (مع الكروات وبعض الصربيين أيضا) في فيلق الشوتس (Schutzcorps) ، وهي وحدة الدفاع المحلية التي نفذت سياسات الحكومة المضادة للصربيين في شرق البوسنة ، مستخدمة في بعض الأحيان أساليب وحشية فظيعة (٢٢) . ومن اليسير أن نفهم أن بعض أبناء الطائفة الصربية المحليين قد أفعمت المرارة نفوسهم . كما أنه لا شك في أن الجند الذين أتوا من صربيا كانوا يحملون ضغينة الأجيال السابقة ضد المسلمين ، فمعظمهم لم يكن عايش المسلمين من قبل ، كما أنهم قد ربوا على أن المسلمين رموز أسطورية خفية لأعداء صربيا . ولكن هذا ينطبق على القرويين الصرب البوسنيين ، الذين عاشوا في سلام تام مع جيرانهم المسلمين مدة أربعين عاما أو تزيد .

ومع هذا كان من الواضح أن المسلمين البوسنيين كانوا بحاجة ماسة الى تنظيم سياسي قوى يحمي مصالحهم . وتشكلت عدة تجمعات في

هذه الشهور الأولى : فشككت « منظمة المسلمين » ، و « الحزب الديمقراطي للمسلمين اليوغوسلاف » في ديسمبر ، و « اتحاد المسلمين » في بانيا لوكا في أوائل عام ١٩١٩ (٢٣) . ولكن الحزب الرئيسى الذى سرعان ما أجمع المسلمون على تأييده كان « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » التى تأسست فى سراييفو فى فبراير ١٩١٩ . وانضم محمد ستباهو الى قيادتها . وسرعان ما وجد نفسه متورطا فى المجادلات حول المبادئ الأساسية للدولة اليوغوسلافية الجديدة . وهنا ظهر أن جماعة فى داخل الحزب ، يقودها رئيسه إبراهيم ماجلاجليش (Ibrahim Maglajlić) ، كانت تؤيد فكرة قيام يوغوسلافيا موحدة ومركزية من النوع الذى كان يحض على ايجاده الزعيم الصربى السياسى نيقولا باشيتش (Nikola Pasić) . وكان كثير من هؤلاء المسلمين من المثقفين ، ممن تشككت آراؤهم ووجهات نظرهم فى الجمعية الثقافية الاسلامية ، « جايرت » : ذلك بأن جايرت كانت منذ ١٩٠٩ تميل نحو الصرب ، (وبلغ من شدة ميلها ذاك أن فرضت السلطات عليها حظرا اثناء الحرب) ، وهى تدفع بأنه لى تستقل البوسنة عن النمسا والمجر ، كان من الضرورى للمسلمين أن يوحّدوا هويتهم مع الصرب (٢٤) . ولكن تأييد هذا الاتجاه ما لبث أن تلاشى ازاء العنف الموجه ضد المسلمين من الفلاحين الصربيين والجنود الصربيين فى أعقاب الحرب العظمى الأولى . ولو أن البوسنيين المسلمين عرفوا الآراء الخاصة لأحد وزراء الحكومة الصربية هو ستويان بروتيتش (Stojan Protić) ، الذى استعصوب ونصح فى ١٩١٧ ، « بحل » مشكلة مسلمى البوسنة من خلال برنامج يرمى لحملهم على تغيير هويتهم الدينية وانزال المذابح بهم . لاضمحل هذا الاتجاه بصورة أكثر حدة (٢٥) .

وكانت وجهة نظر محمد ستباهو التى ما لبثت أن انتصرت فى تلك الأيام داخل « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » ، هو أنه ينبغى للبوسنة أن تحاول الاحتفاظ بهويتها كوحدة ذاتية الاستقلال داخل الدولة اليوغوسلافية . ولكن على وجه العموم ، وضعت آراؤه تلك فى صف كروايتيا فى المعركة الطويلة التى نشبت بين المركزية الصربية والاقليمية الكرواتية ، التى قدر لها أن تسيطر على السياسات أثناء فترة ما بين الحربين . وأدى ذلك بالتأكيد الى وضعه موضعاً أوثق قرباً من موضع الكروات البوسنيين ، الذين كان زعيمهم يوزيب سوناريتش ناقدا شرسا للمركزيين فى بلجراد ، ودافع عن قيام يوغوسلافيا كونفيدرالية . فأما حزب الصربيين البوسنيين الرئيسى ، وهو « الديمقراطيون الراديكاليون » ، فإنه كان يؤيد فكرة اقامة دولة يوغوسلافية مركزية ، كما أنه ظل صادق الالتزام بأصولها الأولى فى حركة ما قبل الحرب « البوسنة الفتاة » ،

بمطالبته بإصلاح اجتماعي يعيد المدى . وكانت هناك أيضا منظمة شديدة الميل للكتلة الصربية تصدر صحيفة تسمى الفجر الصربي (Srpska Zora) كانت تطالب بامتصاص البوسنة كلها في صميم صربيا (٢٦) .

وعندما عقدت الانتخابات اليوغوسلافية الشاملة بكل البلاد في نوفمبر ١٩٢٠ ، للحصول على جمعية تأسيسية تقرر قرارها في مستقبل شكل الدولة اليوغوسلافية ، فاز حزب سباهو بكل الأصوات المسلمة بفربيا بالبوسنة ، محرزا بذلك أربعة وعشرين مقعدا (٢٧) . ونظرا لأن أصوات هؤلاء النواب ، بالإضافة إلى أصوات ستة مسلمين غيرهم انتخبوا في مقدونيا ، كانت قادرة على قلب التوازن في الجمعية ، تكالب على اكتساحها السياسة اليوغوسلافية الآخرون . وهناك مطلب كان سباهو شديد الحرص عليه ، وهو التخفيف من وقع قوانين إصلاح الأراضي على ملاك الأرض المسلمين . وأصدرت الحكومة اليوغوسلافية مراسيم في ١٩١٩ ، تلغي نظام أقنان الأرض ، وتقضي بأن عائلاتهم ينبغي أن يكون لها حق قانوني في الأرض التي يفلحونها . وقاتل سباهو قتالا عنيفا لتعويض ملاك الأرض التعويض العادل من خزانة الدولة ، وما لبثت الحكومة أن دفعت ملايين الدينارات ، ولكن كان المستوى العام للتعويض أدنى من قيمة السوق للأرض . ويبلغ عدد العائلات المبجلة التي تأثرت بهذا الإصلاح أربعة آلاف عائلة ، ومنهم من أنزل به إلى حضيض الفاقة (٢٨) . وعرضت اتهامات سباهو هذه حربه للانتقاد والتنديد به باعتباره مثالا للطبقات الاقطاعية القديمة ، لكن الواقع أنه لم يكن من بين مرشحي الثمانية والسبعين الذين قدمهم حربه للانتخابات في ١٩٢٠ ، سوى ستة من ملاك الأراضي ، بينما كان اثنان وخمسون منهم من المحامين والمعلمين وغير ذلك من الحرفيين (٢٩) . وعلى كل حال ، فإن ملاك الأراضي كانوا مجرد أقلية صغيرة من السكان المسلمين ، بينما الغالبية العظمى كانت فلاحين من ذوى الحيازة الصغيرة .

وكانت النقطة الثانية التي تشغل بال سباهو في الجمعية التأسيسية هو الإبقاء على الهوية الاقليمية الادارية للبوسنة . وقد وفق في هذه النقطة إلى شيء من النجاح . وإن كان الثمن العجيب الذي دفعه هو أنهم اضطروه إلى أن يؤيد الدستور المطلق التمركزي الذي قدمه القادة الصربون . (وأصبح ذلك معروفا باسم دستور الفيدوفان (Vidoven) أي يوم عيد القديس فيتوس ، لأنه تم تطبيقه في ١٩٢١ يوم الثامن والعشرين من يونيو ، يوم الذكرى السنوية لمعركة كوسوفو) . ولم يكن هناك به مما حدث ، وذلك نظرا لأن زعيم الحزب الكرواتي

الرئيسي ، كان من الحماسة بحيث سحب نوابه سحبا تاما من الجمعية .
 هكذا حدث لما تمت إعادة تنظيم جميع الأراضي اليوغوسلافية وتقسيمها
 الى ثلاث وثلاثين مقاطعة ، أن معالم خطوط برواتية اختفت من الخريطة ،
 ولكن معالم خطوط البوسنة تم الاحتفاظ بها . وألحق ان المقاطعات الست
 البوسنية كانت تقابل بالضبط عددها في عهد النمساويين المجريين ، التي
 تم تأسيسها بدورها قبل ذلك على أساس السنجقيات في الفترة الأخيرة من
 الحكم العثماني (٣٠) . وبفضل جهود سباهو صارت البوسنة هي العنصر
 الأساسي الوحيد في يوغوسلافيا الذي انفظ بهويته بهذه الطريقة .

وكانت هذه المناورات المستمرة التي دامت طوال العشرينيات من
 هذا القرن العشرين بينما التوترات تزداد بين زغرب وبلجراد تفسر لنا
 لماذا أقبل بعض أبرز المسلمين أن يعلنوا أنفسهم على الملأ « كرواتا
 مسلمين » أو « صربا مسلمين » . وقد رأينا من قبل أن بعضهم فعل ذلك
 في سني ما قبل الحرب ، نتيجة لاحساسهم بالحاجة لاطهار هويتهم
 الثقافية ، وبخاصة الكتاب منهم ، مثل صفوت بك باشاجيتش ، الذي
 غرق الى الأذنين في الثقافة الأدبية الكرواتية . غير أن الأساس الأصلي
 لكل هذه التصريحات كان سياسيا بحتا . وكما أن الاتجاه في أثناء العهد
 الأول كان الانحياز الى الصرب بوصفهم حلفاء طبيعيين على فيينا ، فكذلك
 أصبح الاتجاه الآن هو الانحياز الى الكروات بوصفهم حلفاء طبيعيين على
 بلجراد . وفي البرلمان اليوغوسلافي لسنة ١٩٢٤ ، وصف جميع النواب
 البوسنيين أنفسهم بأنهم كروات ، اللهم الا سباهو نفسه الذي أصر على
 أن يسمى يوغوسلافيا (٣١) . ومع هذا فإن لأخوى سباهو قصة : فإن
 أحدهما أصر على أن يسمى نفسه كرواتيا ، وأصر الآخر أن يكون صربيا .
 وهناك مقال رئيسي نشر في صحيفة المنظمة الاسلامية اليوغوسلافية في
 ١٩٢٠ ، استصوب الكاتب فيه علنا أن يطبق المسلم على نفسه هوية ابة
 أمة تهبه أعظم فرصة « للتطور الاقتصادي » (٣٢) . لقد كانت فكرة اختيار
 « الهوية الوطنية » على أساس السياسات الاقتصادية المتنافسة فكرة
 سطحية ، ان لم تكن سخيفة . والواقع أن الأسباب التي كانت تدعو المسلم
 لاتخاذ الهوية الكرواتية أو الصربية في البوسنة كانت أضعف من الأسباب
 التي تدعو اخوانهم لاتخاذ هويات مماثلة ، مثلا المسلمون في مقدونيا مع
 المقدونيين أو مسلمو الصرب مع الصربيين . وكما رأينا آنفا ، كان الأساس
 الوحيد الحقيقي الداعي للأرثوذكس والكاثوليك البوسنيين لأن يسموا
 أنفسهم صربا كرواتا هو هويتهم الدينية ، وطبعي أن ذلك كان هو الشيء
 الوحيد الذي لم يكن المسلمون البوسنيون بمستطيعين المشاركة فيه .
 والشيء الذي تظهره تلك المطابقة الذاتية ، المتصفة بالسطحية والقدر

الكبير من اللباقة والكياسة ، مع الصرب أو الكروات أثناء تلك المدة ، هو أنه كان لا يزال هناك تردد وتمنع نظري في استعمال كلمة « مسلم » بوصفها بطاقة ثقافية تاريخية على نفس المستوى ، ولكن الواقع العملي هو أن المسلمين كانوا يعملون فعلا بوصفهم طائفة تعادل الطوائف الأخرى تماما ، وندافع عن هويتها ، بل كان يفعل ذلك فعلا بطريقة أشد أثرا من أي تجمع آخر في إطار السياسات البوسنية .

وبينما مصطلح « مسلم » يحتاز أهمية سياسية على هذا النحو ، كذلك أيضا كان الأساس الديني الدقيق للمصطلح يتآكل بالتدريج بفعل مؤثرات القرن العشرين المتجهة إلى بث العلمانية . ولم يكن المسلمون المتسكون بدينهم في البوسنة من « المتعصبين » ، وإن وصفهم بعض الزوار المعارضين بذلك ، أجل كان فيهم رجال دين شديدو التمسك بالأصول ، ولكن السكان بوجه عام كانوا أكثر تراخيا في ممارستهم . وكما لاحظ آرثر إيفانز في ١٨٧٥ : « فإن حظر تصوير الأشياء الحية ينفذ ويراعى بنفس القدر الذي يراعى به تحريم الخمر » (٣٣) . ولكن الأمر أخذ يتغير مع اتجاه أعداد متزايدة من المسلمين إلى تلقي العلوم الحديثة بمدارس الدولة ، كما أن بعضهم الآخر واصل دراسة موضوعات مثل الطب والهندسة بفيينا وبودابست . وبينما أخذت المزايا القديمة للسلطان الاقتصادي التابع من امتلاك الأرض تتدهور وتتناقص ، كان من الطبيعي أن الطبقة العليا من المجتمع الإسلامي أخذت تنتقل إلى ممارسة الحرف والمهن ، وهو أمر كان يستلزم أساسا من التعليم الغربي . وقد دهش مراقب في ١٩٢٠ من ضخامة عدد الشبان المسلمين الذين يدرسون العلوم في الجامعات والكليات الفنية (٣٤) . وفي الحين نفسه تشجعت النساء المسلمات العاديات على الانخراط في سلك العمل بالمصانع في سراييفو - وهو شيء لم يكن من الممكن تصوره في المجتمعات المسلمة في ذلك الزمان .

ولقيت هذه الميول والاتجاهات الجديدة تشجيعا قويا من رئيس العلماء تشاوشيفيتش الذي تلقى العلم في اسطنبول ، وقرأ أعمال دعاة التحديث والإصلاح العظماء كالشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، كما زار تركيا أتاتورك . وفي ١٩٢٧ أحدث ضجة عظمى بين رجال الدين المسلمين الأشدد محافظة ، حين اقترح أولا أن تحول أراضي الأوقاف في مراكز المدن التي كانت تستخدم مقابر إلى استخدامات أنفع كبناء المدارس عليها ، ثم بتصريحه في حديث صحفي فند فيه تحجب النساء ، قال : « اني أفضل أن أرى فتاة مسلمة غير محجبة تتكسب قوتها بشرف عن أخرى تمشي يومها بأرجاء الشوارع محجبة نهارا ، ثم تقضي مساءها في إحدى المقهوات » (٣٥) . وأصر بأن النقاب انمسا هو عادة

وحسب ، وليس واجبا دينيا بآية حال . كما أنه أبدى استنحسانه أيضا
لإلغاء الطربوش واستخدام قبعة عادية بدلا منه ، على طريقة أتاتورك .
(ولا يخفى أن الطربوش نفسه قد فرضه على الناس أحد السلاطين كوسيلة
لطبغ الدولة بطابع غربى فى ١٨٢٨ ، فلقى مقاومة شرسة فى ذلك الزمان ،
بوصف كونه رمزا للكاتوليك ، ولكن أحدا لم يدرك ذلك على الإطلاق بعد
ذلك بتسع وتسعين سنة) (٣٦) . وتسببت ملاحظات تشاوشيفيتش تلك
فى إثارة عاصفة ضخمة من الاحتجاج ، فألقت الخطب وكتبت المنشورات ،
وصدر قرار من المجلس الاسلامى فى سراييفو يدين آراءه . وقد
كان تشاوشيفيتش يعمل بمفرده ومعه قلة ضئيلة من بين رجال الدين
المسلمين ، وكان لا يزال أمام عملية الطابع الغربى مشوار طويل لابد من
قطعه قبل أن يمس قلوب ممثلى الشعب البوسنى العاديين . ولكن فى الوقت
الذى وجدت فيه بالفعل برمادونا مسلحة وهى بحرية نورى هاجينش
(Bahrija Nuri Hadjić) ، التى كانت تغنى فى دار أوبرا بلجراد ، أصبح
من البين تماما أن التغيرات الاجتماعية كانت تمضى سبائرا فى طريفها
بلا تردد ، ولن يستطيع أى قدر من الأحكام التى يصدرها رجال الدين أن
يف فى سبيلها أو يوقفها (٣٧) .

وربما بدا للزائر العابى فى أثناء سنوات ما بين الحربين هذه ،
شئ من التفرقة والتمييز بين المسلمين والمسيحيين أكثر مما سلف ،
لسبب بسيط هو أن المسيحيين كانوا أسرع من المسلمين فى التخلي عن
الملابس « الشرقية » . وكتب بعض هم فى زمن قريب هو ١٩٠٣ :
« يجد الأجانب صعوبة شديدة فى التمييز بين المسيحيين والأتراك فى
البوسنة ، لأن الطرفين كليهما يرتديان العمامة والصدريات المطرزة
والسترات المفتوحة الفضفاضة والسراويل المتجمعة عند الركبة ، والأحذية
غير ذات الكعوب وذات المقدمة المعقوفة لأعلى (المركوب) » (٣٨) . والآن
وقد ميز الكاثوليك والأرثوذكس أنفسهم بوصفهم كرواتا وصربا ، فانهم
ألقوا جانبا ، وذلك فى المدن على الأقل ، ملابسهم البوسنية القديمة ،
وقد عقب الصحفى جون جيونز فى ١٩٣٠ بأن : « المسلمون واضحون فى
شوارع سراييفو بسبب ملابسهم التقليدية » ، وقال : « وادعى الأشياء الى
العجب مع ذلك بدا فى الطريقة التى كانوا يتوافقون بها كل مع الآخر
نما وكمال السعادة » (٣٩) . وقبل ذلك بسنوات ثلاث كان كاتب
امريكى كون لنفسه انطباعا مماثلة لهذه حيث قال : « هنا يرى المرء
فلاحا بوسنيا من أبناء العقيدة الأرثوذكسية يضع صدقة فى كف سائل
كفيف مسلم يقعد القرفصاء وهو يلعب على نايه على باب أحد المساجد » .

ولو نظرت الى الدكاكين الصغيرة الوادعة التي يختلط فيها المسيحيون والمسلمون واليهود في أعمالهم التجارية ، بينما يذهب كل منهم بعد ذلك الى الكاتدرائية والمسجد والكنيس ، لا يسعه الا أن يعجب : أليس التسامح واحدا من أعظم الفضائل ؟ » (٤٠) .

وكان التهديد الأكبر للتسامح يجيء شأنه في الكثير الأعم من التاريخ البوسني ، من خارج النخوم البوسنية . وكان التوتر السياسي الذي لم يهن بين دعاة المركزية وخصومهم ، يزداد على الدوام شدة وقسوة أثناء عشرينيات الألف وتسعمئة . وكان محمد سباهو مشركا في تلك الحكومات العديدة غير المستقرة التي شكلت في تلك السنوات ، وكثيرا ما كان يجد نفسه وهو يعمل في خط متواز مع القائد السلوفيني المونستبور كوروشيك ، بوصفه نوعا من القوة الثالثة التي تتوسط بين الكروات المناوئين للمركزية والصرب الداعين لها . وساعد الاثنان على اسقاط الرئيس المستبد نقولا باشيتش في ١٩٢٤ ، وأدخل الاثنان كوزراء في حكومة واحدة يرأسها الصربيون في فبراير ١٩٢٨ . وفي تلك الآونة ، كان الجو في السياسة اليوغوسلافية آخذا في التلبد ، اذ أسقطت عضوية الزعيم الكرواتي ستييبان راديتش (Stejepan Radić) في البرلمان في مارس ١٩٢٨ ، لأنه قال لوزير الشؤون الاجتماعية : « انما أنت وضيع بكاء أوتي عجورة بدلا من رأس انسان ! أبها الجهول ! انك لص تجلس في كرسى الوزارة ! » (٤١) وبعد ذلك بثلاثة أشهر ثارت ثورة نائب من الجبل الأسود لمقاطعته أثناء القائه خطابا ، فأخذ غدارته وأطلق النار على نواب عديدين كان فيهم راديتش . وحاول الملك الكسندر في البداية تبديد الازمة وتعيين حكومة جديدة برئاسة كوروشيك . ولكنه عاد بعد ذلك في يناير ١٩٢٩ ، فأتخذ اجراءات أكثر شدة وفعالية ، فأوقف الدستور وفرض على البلاد نظاما سياسيا أشد وأعنف وأوثق توحيدا بكثير من أى نظام آخر حاول السياسيون الصربون قبل ذلك تطبيقه .

وكان أول تغيير له رمزيته هو الاعلان أن « الدولة منذ الآن ستدعى دولة يوغوسلافيا » - وهو مصطلح أكثر توحيدية من « مملكة الصرب والكروات والسلوفين » . وقد أراد الكسندر أن يمحو عن الخريطة السياسية تلك الهويات الاقليمية القديمة ، ولذلك فانه أدخل تقسيما جديدا تماما على الأراضى اليوغوسلافية الى تسع بانوفينات (Banovine) أي بانات Banate - وكان استخدام هذا المصطلح الكرواتي القديم يكاد يكون بلة الريق الوحيدة للكبرياء الكرواتي) ، وقضى لكل بانوفينا نظاما تقطع بمقتضاه الحدود القديمة للعناصر الأصلية المكونة للدولة

اليوغوسلافية . وأسميت البانوفينات حينما أمكن على أسماء الأنهار . وقسمت البوسنة بين أربع بانوفينات : فرباسكا (Vrbaska) ، التي كانت تضم بعض الأراضي الكرواتية ، ودرينسكا (Drinska) ، التي كانت تضم شطرا كبيرا من صربيا ، وزينسكا (Zetska) التي كانت تتكون بصفة رئيسية من الجبل الأسود ، وبريمورسكا (Primorska) التي كانت تمتد الى الساحل الدالماتى . وبذلك حدث لأول مرة منذ أكثر من أربعين عاما أن قسمت البوسنة .

وكان « البانات » (Bans) حكاما يعينهم الملك ، كما أنهم كانوا بدورهم يعينون لهم مفوضين فى مكان مسؤولى الحكومة المحلية المنتخبين . وهناك قس بوسنى صربى هو سيمو بيجوفيتش (Simo Begović) ، وهو شخصية محترمة كان النمساويون المجرىون قد حكموا عليه بالإعدام فى محاكمات بانيالوكا السياسية فى ١٩١٦ ، قد قاد وفدا منوبا عن الفلاحين من بالى (Pale) الى دار البان فى سراييفو لكى يقدموا الشكوى حول هذه التغييرات . فطلب من البان أن يعطيه أربعة آلاف دينار ، فسأله البان لماذا ؟ ، فأجاب : « أريد أن أسافر بها الى فيينا لأن فيها قبر فرانز يوزيف ، وبذلك أستطيع أن أقول له : استمع الى يا فرانز . . لو أننى علمت مقدما بالمصيبة التى ستقع فيها البوسنة بعد موتك ، ما حاولت قط إبعادك » (٤٢) . فاذا خامر قس صربى أرثوذكسى مثل هذا الاحساس ، فيمكننا أن نتصور كيف كان الكرواتى العادى يحس ، وهو الذى كان يعد يوغوسلافيا الموحدة الجديدة شيئا لا يقل فى واقع الأمر عن تحقيق آمال صربيا . ان أحدا لم يسعد بهذه التغييرات ولا حتى الساسة الصرب أنفسهم الذين ساءت لهم الطريقة التى قصص بها أجنحتهم الانقلاب الملكى . وكان أهل البوسنة المسلمون يعانون من التعاسة : خاصة وأنهم كانوا أقلية فى كل بانوفينا من تلك الأربع التى كانت كل منها تضم جزءا من البوسنة السابقة ، وكان الموظفون المسلمون لا يعطون الا أدنى الوظائف فى وزارات ومصالح الحكومة الملكية الجديدة . بيد أن الكروات كانوا أقلهم سعادة وأتعبهم مزاجا . وهناك غادر البلاد أشد السياسيين الكروات راديكالية وهو أنتى بافليتش (Ante Pavelić) ، وشرع ينظم فى الخارج بمعاونة موسولينى ، « الأوستاشا » وهى حركة المقاومة الكرواتية ، التى ستناضل لتحقيق استقلال كرواتيا (٤٣) . وجاء بعد ذلك دور زعيم الحزب الكرواتى الرئيسى ، وهو فلادكو ماتشيك (Vladko Matčević) وهو خليفة الزعيم ستيفان راديتش الذى اغتيل . فأصدر « قرارا » فى نوفمبر ١٩٣٢ يدعو الى العودة الى الديمقراطية وانهاء السيطرة الصربية ، ثم صدرت بعد ذلك بيانات أخرى مماثلة ،

أولها من كوروشيك في سلوفينيا ، وسبأهو في البوسنة ، وعندئذ تم القبض على ثلاثتهم . فأما الزعيمان السلوفيني والبوسني فقد أفرج عنهما سريعا ، وما ماتنك فقد حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات (٤٤) .

ومن بين التدابير الأقل شأنا الهادفة إلى تطبيق المركزية أثناء تلك الفترة من الحكم الفردي الفرار الذي أصدره الملك بإعادة تنظيم المجتمع المسلم في يوغوسلافيا . فقد كان هنالك حتى الآن تنظيمان مختلفان ، أحدهما تنظيم مسلمي البوسنة والآخر تنظيم مسلمي مقدونيا وكوسوفو (المتركة في سكوبيه) . وبمقتضى المرسوم الملكي الصادر في ١٩٣٠ ، وضع جميع المسلمين اليوغوسلاف تحت رئاسة رئيس علماء واحد ، ومجلس منفرد ، مع نقل مقر رئيس العلماء إلى بلجراد . وعندئذ استقال تشاوشيفيتش بعد أن اعترض على هذه الخطة ، وكان رئيس العلماء الجديد المعين ليوغوسلافيا كلها هو إبراهيم مجلايتش ، وهو الرئيس السابق لمنظمة المسلمين اليوغوسلاف الذي عرف بانحيازه للعرب (٤٥) . وهناك تغييرات أخرى أصغر شأنا حدثت في نفس الوقت ومنها ادخال منهج دراسي عمومي غربي إلى المدارس الإسلامية ، وكان ذلك الاجراء جزءا من سياسة تهدف إلى توحيد المناهج الدراسية بكل أرجاء المملكة (٤٦) . وغنى عن البيان أن القانون الصادر في ١٩٣٠ أعطى الملك درجة ضخمة من التحكم والهيمنة على المجتمع الإسلامي ببلاد ، ومع ذلك فانه بعد وفاة الملك الكسندر (*) ، صدرت قوانين جديدة ، وتم الاعداد لبنية ديمقراطية أكثر ، وإعطاء الحق لجمعيات نظار الأوقاف المحليين لتسمية ثلاثة مرشحين لمنصب رئيس العلماء ، يختار الملك منهم واحدا .

وحدث شيء من التراخي الحذر في النظام الأوتوقراطي الملكي بعد اغتيال الملك الكسندر في ١٩٣٤ . وكان الوصي الجديد على العرش وهو الأمير بول (الذي كان يحكم بالأصالة عن الوارث للعرش الملك بيتير الذي كان يبلغ الحادية عشرة من عمره) ، قد أفرج عن ماتنك من السجن وعقد انتخابات جديدة في صربيا في ١٩٣٥ وعين سياسيا صربيا شابا هو ميلان ستويادينوفيتش (Milan Stojadinović) لتشكيل حكومة تراض . وكان السياسيون الوحيدون المعروفون الذين أدخلهم في وزارته هما كوروشيك وسبأهو . وبمعاونتهما ، كما قال ذلك فيما بعد ، كانت الحكومة « قوية أمام الشعب ولكنها ضعيفة في البرلمان » : ومن قبل كان حزب كوروشيك قد قاطع الانتخابات ، وكانت منظمة المسلمين اليوغوسلاف برئاسة سبأهو قد حاربت الانتخابات كجزء من قائمة المعارضة التي

(*) الملك الكسندر قتله بعد ذلك بقليل صربي فوضوى بمدينة مرسيليا - (المترجم)

نراسها ماتشك (التي قاست بفعل نظام انتخابي أعطى عددا لا يتناسب من المقاعد « للقائمة » الفائزة) (٤٨) . وحدث بعد ذلك في ١٩٣٥ أن ألف ستويادينوفيتش حزبا جديدا للحكومة هو « حزب الاتحاد الراديكالي اليوغوسلافي » وحده فيه بين حزبي (الحزب الراديكالي الصربي) وكوروشيك وسباهو . على أن لجنة الحزب الراديكالي عدلت عن ذلك وتنظيم في الربيع التالي وأعلنت معارضتها للحكومة . وبذلك وجد ستويادينوفيتش نفسه في موقف غريب بغير تأييد الحزب الكرواتي أو الصربي أصحاب الأغلبية وقائما فقط . على السلوفينيين والمسلمين البوسنيين ومن بقي معه من مؤيديه الشخصيين .

دامت وزارة ستويادينوفيتش أربع سنوات ، وفي أثناء ذلك أحرز بعض التقدم التدريجي نحو الديمقراطية ، وسمح بمواصلة المباحثات مع ماتشك حول إعادة تنظيم يوغوسلافيا وصولا الى نظام فيدرالي في خاتمة المطاف ، واستحدث سياسة خارجية تقوم على التصالح والتراضي وتهدف الى تنمية الشؤون التجارية والعلاقات الودية مع كل من ايطاليا وألمانيا . وكانت أشد القوى المدمرة في السياسة اليوغوسلافية أثناء تلك السنوات هي الوطنية الصربية : حيث نجحت الكنيسة الأرثوذكسية في إثارة الصربيين وحملهم على الخروج في مظاهرات عنيفة ، وتمكنت من إيقاف وفاق بين يوغوسلافيا والفاشيكان في ١٩٣٧ . وفي اليوم الثالث من فبراير ١٩٣٩ ، ألقى أحد وزراء ستويادينوفيتش الصربيين خطابا في البرلمان أكد فيه سيادة الصربيين على الكروات والسلوفانيين : « أن سياسة الصرب ستكون على الدوام هي سياسة هذا المجلس وهذه الحكومة » ، وعندئذ طلب محمد سباهو من ستويادينوفيتش أن يستنكر ذلك البيان ، ولكن ستويادينوفيتش لزم الصمت . وفي تلك الليلة نظم كوروشيك استقالة خمسة وزراء احتجاجا على ذلك بما فيهم سباهو والوزير الصربي دراجيشا سفيتكوفيتش (Dragisa Cvetković) وجعفر كولينوفيتش (Džafer Kulinić) ، الذي كان نائب سباهو في منظمة المسلمين اليوغوسلاف . وتمكن الأمير بول بفضل هذا الفعل من أن يطرد ستويادينوفيتش من السلطة واجلال سفيتكوفيتش في محله (٤٩) .

والآن وهتلر يتقدم نحو تشيكوسلوفاكيا ، والمعجب به أنرى باغلبتش في ايطاليا قد بات أكثر جرأة في مطالبته بفض اتحاد يوغوسلافيا ، أصبح واضحا أن مشكلة إيجاد حل فيدرالي مقبول من الكروات لم يكن من الممكن تأجيله أكثر من ذلك . وعندئذ بدأت المباحثات في أبريل بين سفيتكوفيتش وماتشك بهدف إعادة تشكيل أرض وطنيه

لكرواتيا ومنحها بعض السلطات السياسية الخاصة بها * وكان أول ما اتفقا عليه أن البانوفينتين الرئيسيتين الكرواتيتين سافسكا وبريمورسكا (اللتين كانتا تضمآن أجزاء من البوسنة) ، ينبغي أن تتوحدا مع منطقة دوبروفنيك ، وأن سكان بقية البوسنة ينبغي أن (يقرروا باستفتاء عام ما إذا كانوا يرغبون في الانضمام الى كرواتيا أو صربيا) - وعندئذ يكون الهدف النهائي دولة فيدرالية ثلاثية الأطراف تتكون من صربيا وكرواتيا وسلوفينيا (٥٠) * ولكن الأمير بول رفض أن يقبل هذا البناء الدستوري ، وبدأت دورة جديدة من المباحثات * وفي هذه المرة اقتطعت أجزاء إضافية من أراضي البوسنة ببساطة تامة من الخريطة وأضيفت الى كرواتيا : وهي تتضمن برنيسكو ، وجراداتشاك ، وديرفينتا ، وترافنيك ، وفوينيكا * وبدلاً من دولة ثلاثية الأطراف ، فالنظام الجديد يعامل كرواتيا بوصفها بانوفينة ذات وضع خاص ولها برلمانها الخاص بها : وبذلك تظل بغايا البوسنة موزعة بين البانوفينتين الموجودتين أصلاً والمنقوصتين أيضاً : بانوفينة فرباسكا وبانوفينة درينسكا * هذه هي الخطة التي تم اتباعها في النهاية في اتفاقية أغسطس ١٩٣٩ (٥١) *

وتوفي محمد سيباهو في يونيو ١٩٣٩ ، وهذه المفاوضات في أشد مراحلها حرجاً * لقد كان سياسياً حقيقياً ، عمل على إعطاء مسلمي البوسنة درجة من الضغط السياسي في فترة ما بين الحربين ، لا تتناسب مع قوتهم العددية ، ولكن حتى معارضته العنيفة لم تستطع إيقاف القصة * ودعا خلفه جعفر كوليتوفيتش الى انشاء بانوفينا خاصة بالبوسنة * ولكن طلباته لقيت التجاهل التام ، ولم يكن أقل أسباب ذلك أن المناطق الباقية من البوسنة كانت بها غالبية من الصربيين الذين لم يكونوا راغبين في أن ينفصلوا عن باقي البانوفينات التي يسيطر عليها الصرب (٥٢) * وظل كوليتوفيتش عضواً في الحكومة ولكنه أصبح معزولاً وازداد حزناً واكتئاباً * وعندما ذهب كوروشيك لزيارته في أوائل ١٩٤٠ ليسأله لماذا كان يقطع اجتماعات مجلس الوزراء ، انهم من فمه سبل من الشكاوى * فلم يكن مزبه يتلقى سوى الفتات النزر من الرعاية السياسية ، وأوضح أنه بات لا يطبق استمرار المباحثات حول انشاء بانوفينات سلوفينية وصربية ذات وضع متساو لكرواتيا ، دون أي ذكر لفكرة إعطاء البوسنة وضعاً مماثلاً * أنه كان يطالب بانشاء بانوفينا جديدة مكونة من الجزء الباقي من الأرض البوسنية ، وسنجدية نوفي بازار التي يسكنها غالبية من المسلمين (٥٣) * وللهرة الثانية تجوهلت رغبته مما أفهم نفسه بالمرارة ، وبات يضمر عداوة متدبدة نحو الصرب الذين كانت رغبته في ابتلاع البوسنة تتضح يوماً بعد يوم *

وبينما هذه المسائل تناقش بدون نتيجة حاسمة ، أثناء الجزء الباقي من ١٩٤٠ ، كان الضغط الذى تمارسه دول المحور على يوغوسلافيا يزداد فى كل يوم شدة . وصدم الرأى العام صدمة شديدة بإنهيار فرنسا السريع ، كما ثار غضبه بسبب مهاجمة إيطاليا لليونان ، ومع هذا اضطروا الزعماء اليوغوسلافيون ، ازاء التماس بين حدود الرايخ الألماني وبينهم (منذ ضم النمسا لألمانيا) ، وبسبب ما كان واضحا من عجز الحكومة البريطانية عن تقديم أية حماية فعالة فى البلقان ، الى أن يتخذوا سياسة هادئة ومسالمة . على أن الأمير بول وحكومته صمدوا شهورا عدة ازاء الضغط الألماني وأبوا الانضمام الى حلف المحور ، ولكن بعد أن وقعت بلغاريا على ذلك فى أول مارس ١٩٤١ ، رأوا أنهم لن يستطيعوا المقاومة أكثر من ذلك . ووقع زعماء يوغوسلافيا على الانضمام الى الحلف فى فيينا ، فى ٢٥ مارس ١٩٤١ . وفى اليوم التالى لعودتهم طردوا جميعا عم والأمير بول نفسه فى انقلاب غم دموى قام به الجيش والأحزاب السياسية الصربية القديمة وحظى بتأييد شعبى . فضلا عن بعض الوزراء السابقين . ودعت الحكومة الجديدة الى سياسة من السلم والهدوء تجاه ألمانيا . ولكن الذى حدث بعد ذلك بعشرة أيام ، أى فى السادس من أبريل أن شبن سلاح الطيران الألماني سلسلة من غارات القصف المركز على بلجراد . وما عتمت يوغوسلافيا أيضا أن اجتاحتها قوات ألمانية وإيطالية وبلغارية ومجرية . وبعد قتال دام أحد عشر يوما استسلم الجيش اليوغوسلافى استسلاما تاما للقيادة العليا الألمانية (٥٤) .

الفصل الثالث عشر

اليوسنة والحرب العالمية الثانية

١٩٤١ - ١٩٤٥

ان تاريخ الحرب العالمية الثانية فى يوغوسلافيا ، إنما هو تاريخ حروب كثيرة تراكمت احداها فوق قمة الأخرى . فكانت هناك أولا بطبيعة الحال ، الحرب الأولى التى سنتها ألمانيا وإيطاليا على يوغوسلافيا نفسها . وضمت بعض الأراضى : فاستولت ألمانيا على نصف سلوفينيا ، وأخذت إيطاليا النصف الآخر من سلوفينيا وعدة أجزاء من دالماشيا ، كما نالت المجر وبلغاريا وألبانيا الخاضعة لسيطرة إيطاليا ، أجزاء أخرى . وكان القصد من تمزيق صربيا - تأريبييا ، ولكن الهدف الرئيسى كان الاخضاع والسيطرة . وفضلا عن ذلك كانت يوغوسلافيا مهمة للمواصلات وللإمداد بالمواد الخام وبالعمال لتوفير حاجة المجهود الحربى فى الحرب الدائرة ضد الحلفاء . وكانت هناك أيضا حرب محتدمة بين جنود المحور وحركات المقاومة اليوغوسلافية ، على أن هذه الحرب ظلت ثانوية بالنسبة للأغراض الأوسع لاستراتيجية لمحور ضد الحلفاء . وبعد ذلك شبت على الأقل نيران حربين أهليتين . أولاهما حرب شنها المتطرفون الكرواتيون على السكان الصرب الأمنين من أهل كرواتيا واليوسنة ، وهى حرب عدوانية انتقامية شعواء لم يميزوا فيها بين محارب أو مدنى . وأخيرا شبت هناك حرب بين تنظيمى المقاومة الرئيسيين ، اللذين تطوع فيهما الصرب من تلك النواحي : وهما تنظيمى التشيستنيك والشيوعيين (البارتيزان) . وضمت الحركتان ، بمضى الزمن ، فى عضويتهم جماعات عرقية أخرى كذلك . وليس من اليسير علينا أن نذكر الاشتباك بين جميع هذه الخيوط المتشابكة ، لنحدد مسؤولية كل منها عن العدد النهائى للوفيات فى يوغوسلافيا أثناء تلك السنوات الأربع الفظيعة : ولكن الواضح تماما أن اللذين لموا حتفهم فى ذلك الوقت لا يقل عددهم عن مليون انسان . ومن المحتمل أن غالبيتهم كانوا من اليوغوسلاف اللذين قتلهم اخوانهم اليوغوسلاف (١) .

وفى اليوم العاشر من أبريل ١٩٤١ ، وحتى قبل أن تنتهى « حربهم الخاطفة Blizkrieg » ، أعلن الألمان قيام « دولة كرواتيا المستقلة » الجديدة ، وتضم البوسنة بكاملها والهرسك . ولم تكن مستقلة بطبيعة الحال ، كما أنها قسمت بين منطقتين من الاحتلال العسكرى الألمانى والايطالى يفصلهما خط التقسيم الذى يمضى مائلا من خلال البوسنة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى . وبناء على اقتراح موسولينى ، دعا الألمان أنتى بافيليتش ليتولى الحكم فى دولة كرواتيا المستقلة بوصفه حاكما عاما أى فيرر (*) . ولم يكن لحركته « الأوستاشا » (وهى الحركة القومية الكرواتية المتطرفة التى تولت السلطة فى دولة كرواتيا المستقلة) حتى ذلك الحين تكتل بين الناس (اذ ربما لم ينضو تحت لوائها أكثر من اثنى عشر الف عضو فى كل كرواتيا بكاملها) ، ولكنها سرعان ما أصبحت ذات تكتل كبير بمجرد أن تولت السلطة . وبعد عقدين من المقاومة السياسية لمركزية بلجراد ، فإن الغالبية العظمى من الكروات رأوا أن إقامة « دولة كرواتيا المستقلة » حدث يحتفى به ، مهما تكن ظروف ميلادها ومهما تكن لا شرعية وضعها « المستقل » . وأيا كان الأمر ، فقد بقى السياسيون المسؤولون البارزون فى مدة ما بين الحربين ، مثل فلادكو ماتشك ، سلبين لايتحركون ، بينما المتعصبون يتولون زمام السلطة ويستغلون الدولة أداة للرعب وإبادة الجنس .

وصدر أول قانون مضاد لليهود فى « دولة كرواتيا المستقلة فى ١٨ أبريل ١٩٤١ . وبعد ذلك باثنى عشر يوما صدرت ثلاثة قوانين للدولة : عن المواطنة ، والهوية العرقية ، وحماية الدم الآرى ، وشرف الشعب الكرواتى » (٢) . على أن اضطهاد اليهود قد بدأ فعلا حتى قبل ظهور هذه التشريعات القانونية . وفى ١٦ أبريل ، وهو اليوم التالى لوصول الألمان الى سراييفو ، هاجم الجنود الألمان المعبد أو الكنيس القديم هناك . وفى مدى يومين من السلب والنهب ، كانت محتويات جميع المعابد اليهودية فى المدينة قد دمرت تماما (٣) . وفى الوقت نفسه ذهب ضابط المانى على الفور الى المتحف القومى ليصادر هاجادا (**) سراييفو التى لاتقدر بثمن ، ولكن بفضل فطنة مدير المتحف ، أنقذت هذه المخطوطة وخبئت طوال فترة الحرب فى إحدى القرى الجبلية (٤) . وعندما صدرت الأوامر فى الشهر التالى بأنه ينبغى لجميع الحيوانات ومحلات الاستثمار الأخرى

(*) فيرر (وليس فوهرر كما تنطق عادة) تعنى القائد أو الزعيم بالالمانية ، ولها دلالتها الخاصة فى النظم الفاشية القائمة على عبادة الفرد .
 (**) الهاجادا . الجزء الاسطورى من التلمود - (المترجم) .

« أن يكون لها مندوب من « الأوستاشا » للإشراف عليها » ، خصت الأعمال اليهودية بأشد غلظة وضراوة . وعندئذ بدأت سلسلة متلاحقة الحلقات من الاستيلاء على الأموال والأغنيالات ، وبدأ الاعتقال الجماعي لليهود في دولة كرواتيا المستقلة ، أما في صربيا التي عين لها رئيس غير متعصب ولكنه عميل خائن ومتواطئ مع الأعداء ، هو الجنرال نيديتش (Nedić) فقد بدأت فيها ملاحقة اليهود بعد ذلك بقليل ، وعندما حلت نهاية ١٩٤١ ، كانت غالبية اليهود قد نقلت إلى معسكرات اعتقال بكل من المنطقتين . وتعاونت هيئات الموظفين المحلية في هذه الملاحقات في صربيا فضلا عن دولة كرواتيا المستقلة : ولم تكن أية منطقة بريئة من ذلك إطلاقا . ونهب جميع ما بالبوسنة من معابد يهودية ، كما دمر كثير منها تدميرا تاما . وعند نهاية الحرب قدر أنه من بين أربعة عشر ألف يهودي بالبوسنة قتل ما لا يقل عن اثني عشر ألفا (٥) .

وغنى عن البيان ، مع ذلك ، أن معاداة السامية كانت في الدرجة الثانية من الأهمية في أيديولوجية الأوستاشا . وكان الهدف الأساسي هو « حل » مشكلة الأقلية الصربية الكبيرة (١٩ مليوناً من إجمالي ٢٣ مليوناً) في أرض دولة كرواتيا المستقلة (٦) . وفي مايو بدأت حملة من الترويع ضد المواطنين الصربيين . وفي يونيو حدث اعتقال جماعي للصرب في موستار ، ف ضرب المئات منهم بالرصاص وألقيت جثثهم في النديريتا ، ونفذت فظائع مماثلة لهذه في دولة كرواتيا المستقلة بما في ذلك المدن البوسنية مثل بيهاتش وبرتشكو ودوبوي ، دمرت قرى بأكملها في منطقة سراييفو . وبلغ الأمر في يوليو أنه حتى الألمان أنفسهم أخذوا يشكون من فظاعة ووحشية هذه الاعتداءات (٧) . وكان رد هؤلاء الفلاحين الصرب - وخاصة ببلاد الهرسك - وهي معقل ثورة الفلاحين المسلحة في ١٨٧٥ و ١٨٨٢ ، معروفا مقدما : ففي منطقة نيفيسيني أرجفوا بالثورة في يوليو ١٩٤١ ، وطردها قوات مليشيا الأوستاشا من مواقعها ، وأسسوا إلى حين محدود « منطقة محررة » ، ضموها إلى منطقة أخرى للمقاومة قائمة في الجبل الأسود المجاورة . وعند ذلك استبدادوا على القرويين المحليين من كروات ومسلمين . إذ كانوا يعدون دخولهم تحت حكم دولة كرواتيا المستقلة نوتا من التواطؤ ، فقتل أكثر من ٦٠٠ مسلم في الركن الجنوبي من الهرسك ، وفي يوليو وأغسطس بلغ عدد القتلى بالتفريب ٥٠٠ بالمنطقة المحيطة بفيشيبيجراد (٨) . وفي منتصف أغسطس كتب أحد المنظمين الشيوعيين رسالة يقول فيها من سراييفو : ان الثوار نهبوا سكان

القرى المسلمين في منطقة موستار ، وبهذا قلبوا على أنفسهم جميع السكان المسلمين كافة » (٩) .

وأدت سياسات إبادة الجنس التي انتهجها نظام دولة كرواتيا المستقلة الى اندفاع الآلاف من الصرب البوسنيين الى الانخراط في واحدة من حركات المقاومة المنظمة . وكانت هناك اثنتان من هذه التنظيمات تعملان في الأراضي البوسنية ، مع صفات مميزة مختلفة وأهداف شديدة التباين . وبلغ من شدة اختلافهما أن أصبح جليا أن هناك حربا أهلية رعناء بينهما تتراءى من بعيد أمام الأنظار حوالى أكتوبر ١٩٩١ . وقد شكل الأولى كولونيل في الجيش اليوغوسلافي اسمه دراجسا ميخاييلوفيتش (Dradja Mihailović) ، وهو ضابط ملكي النزعة محب للإنجليز ، وخبير متمرس في حرب العصابات ، وكان يقيم في البوسنة عندما حدث الغزو الألماني . فسافر سريفا بصحبة بقية الرجال الذين كانوا تحت امرته الى منطقة تلال رافنا جورا (Ravna Gora) ، في غرب وسط صربيا . وهناك أقام مقر قيادته . وكان بوصفه ضابطا في الجيش ، يمثل البقية الباقية حية من السلطة الملكية (وعندئذ عمدت الحكومة الملكية اليوغوسلافية في المنفى فيما بعد الى ترقيته الى رتبة الجنرال وتعيينه وزيرا للحرب) ؛ ويمكن بوصفه صربيا وطنيا من ضمان ولاء كثير من المواطنين الصرب العاديين . وأصبح رجاله يعرفون باسم التشيتنيك أو رجال العصابات ، وهو المصطلح التقليدي المأثور لاولئك القراصنة قطاع الطرق من الفرسان الكماة الصناديد ، والمقاتلين البواسل في التاريخ الصربي القديم . وكان ذلك الاسم مصدرا لعدة التباسات ، وذلك لأنه كانت هناك قبل ذلك منظمة رسمية من « التشيتنيك » تقوم على حركة من قدامى المحاربين من الحرب العالمية الاولى ، وأصبحت ساعدا للنظام العميل الصربي . ونشأت تجمعات صربية كثيرة في أمكنة أخرى وأسمت نفسها « تشيتنيك » . ولكن لم تكن لها أدنى علاقة بجماعة ميخاييلوفيتش ، وكانت نقطة الضعف الكبرى في مهمته ، هي أن قواده المتفرقين بكل مكان كانوا يعملون آمادا طويلة في استقلال تام ، أو عدم اهتمام بأي أوامر يصدر عنه (١٠) . وبدأ الجند التشيتنيك التابعون له المقاومة الناشطة الفعالة ضد الألمان في مايو ، ولكن السياسة العامة التي اتبعها ، كما طلبت اليه ذلك الحكومة في المنفى في يوليو وسبتمبر ، كانت التريص وبناء منظمة ، وتسريب العملاء في قوات نظام العميل الخائن نيديتش ، والشهيق للقيام بثورة ، لا بد في خاتمة المطاف أن تأتي ، عندما يكون الحلفاء قد أنقلبوا ضد الألمان (١١) .

فأما المنظمة الأخرى وهي منظمة « البارتيزان » (الأنصار) وهم رجال المقاومة الشيوعية ، فكانت لها أغراض أخرى مخالفة تماما . فقد لعب الحزب الشيوعي دورا يكاد يكون مكنونا في السياسات اليوغوسلافية في فترة ما بين الحربين ، وذلك لأنه كان محطورا أمد تلك الفترة . وفي ١٩٤٠ لم يكن به سوى ستة آلاف عضو في كل أرجاء البلاد كافة (١٢) . وكان قائد المنظمة تيتو (جوزيف بروز ، وهو الجاويش السابق في الجيش النمساوي المجري) ، من المخلصين لستالين ، ونجا من عمليات التطهير التي جرت في موسكو ، وفي أثناء المدة المنحصرة بين عقد حلف مولوتوف ريبنتروب وغزو هتلر لروسيا ، كان يواصل اتباع خط « الكومنترن » الرسمي من الشكوى من العدوان البريطاني على ألمانيا . بيد أنه كان رجلا واسع الحيلة والتدبير ، كما أنه كان ذا قدرة فطرية على تدبير المؤامرات وتنظيمها . وبعد أيام من غزو ألمانيا لروسيا في يونيو ١٩٤١ ، كان يدبر عملية مقاومة ، لم تكن تقتصر فقط على تدبير محاولة لصد الألمان من البلاد (بينما تكون ألمانيا فيما قدر بتفكيره قد هزمت سريعا على يد روسيا) ، بل واشتغل أيضا في تحضير ثورة اجتماعية لتسليم السلطة أعدادا لدولة شيوعية بعد الحرب . وكان معنى ذلك الهدف الأخير أمكان أن تكون تكتيكاته مخالفة تماما لتكتيكات قائد التشيكتيك . وكان ميخايلوفيتش يريد أن يحافظ ، ليس فقط على السكان بل وأيضا على النظام الاجتماعي بأكمله ، فكان من ثم شديد الحرص على عدم استعداد الألمان أو إعانة الخراب بمناطق كاملة من البلاد . ولكن من الناحية الأخرى كان تدمير المجتمع ، وخلق نوع جديد من أهل البلاد والسكان منزوع من جذوره وملقن بالراديكالية ، أمرا يعد في مصلحة تيتو ، كأنما هو يقدم لمطحنه . ومن ثم فإن المناطق التي كانت تحررها قواته كانت تصبغ علنا بالصبغة السوفيتية ، وعلى ذلك فإن كثيرا من البورجوازيين المحليين نفد فيهم حكم الإعدام ، بل لقد حدث أنه حتى بين صفوف أنصاره ، نفذ ألكساندر رانكوفيتش رئيس الأمن لدى تيتو ، تطهيرات قام بها من تلقاء نفسه . فالثورة الاجتماعية كانت الهدف الأنسى فوق كل شيء : وكما عبر واحد من أشد معضدى تيتو ، وهو ميلوفان ديلاس : « أن العمليات العسكرية .. كان الدافع إليها أيديولوجيتنا الثورية . فالثورة لم تكن ممكنة بغير كفاح عام مشترك متزامن ، ضد قوات الاحتلال » (١٣) فلا عجب إذن في أن تعاوننا خشنا ولكنه وثيق بين الفلاحين والتشيكتيك وقوات البارتيزان الشيوعية تمكن من أن يحرر مؤقتا مناطق فسيحة من الجبل الأسود والبوسنة وغرب صربيا في أخريات صيف ١٩٤١ وخريفها ، ولكن كان من المستحيل أن يقوم التعاون طويل الأمد بين المنظمين . فلقد حدثت فعلا بعض خلافات

وصدامات بينهم ، قبل أن يجيء هجوم ألماني في شتاء تلك السنة ، فمزق جيوش ميخايلوفيتش في صربيا واجبر البارتيزان على الانتقال الى المرتفعات في جنوب شرق البوسنة .

وهناك ناحية أخرى سياسات التشييتيك والنسويين المتنافسة نحتاج هي الأخرى أن تذكر هنا : هي طريقة تعاملهم مع المسلمين ووضع البوسنة . وقد كان بين التشييتيك عدة أفراد من الراييد (Rabid) وهم قوم صربيون وطنيون ، كانوا لا يرغبون فقط في ابتلاع البوسنة بل وأيضا دالماتيا والجبل الأسود وأجزاء من كرواتيا وسلافونيا ، بل حتى أيضا شمال ألبانيا وضمهم جميعا الى أرض صربيا (١٤) . ولقد كان يغذى هذه الأهداف اثنان من رجال الفكر في الحركة التشييتيكية : أحدهما هو المحامي والسياسي الصربي دراجيسا فازيتش (Dragisa Vasić) والمحامي الصربي البوسني (من بانيا لوكا) ستييفان موليفيتش (Stevan Moljević) . وأصدر الأخير منهما في يونيو ١٩٤١ مذكرة عنوانها « صربيا المتجانسة » ، وفيها طالب بأن تدمج في صربيا جميع الأراضي سالفة الذكر ، وأوضح أن « الواجب الأساسي » هو أن « تخلق وتنظم صربيا متجانسة تشمل المناطق العرقية التي يسكنها الصرب » (١٥) . وكتب موليفيتش في خطاب أرسله الى فازيتش في فبراير ١٩٤٢ : « أن الأرض الصربية ينبغي أن تبسط على طول الخط الى دالماتيا ، وأنه ينبغي أن ينبع ذلك عندئذ تطهير الأرض من جميع العناصر غير الصربية . وعندئذ يكون الشيء الواجب عمله هو ارسال جميع هؤلاء المعتدين الى حال سميلهم : فالكروات الى كرواتيا ، والمسلمين الى تركيا أو ألبانيا » . والآن وقد أصبح قوم من أمثال هذا الرجل هم الذين يؤثرون في سياسة قيادة التشييتيك ، (حيث أصبح موليفيتش المدير السياسي للحركة في أوليات ١٩٤٣) ، صار واضحا أنه كان هناك أساس نظري لسياسة مضادة للمسلمين بصورة لا هوادة فيها .

ولكن من الناحية الأخرى ، ليس هناك أي دليل قاطع يدل على أن دراجا ميخايلوفيتش قد دعا البتة الى التطهير العرقي . والوثيقة الوحيدة التي طالما استشهد بها على أنها دليل على ذلك ، هي مجموعة من التعليمات أرسلت الى اثنين من القواد المحليين في ديسمبر ١٩٤١ ، انما هي فيما يحتمل وثيقة مزيفة . وان وجب علينا أن نبين أنها وثيقة لم. بزورها أعداء يريدون منها الجحط من قدر ميخايلوفيتش ، بل القواد أنفسهم الذين رجوا أن يتناولها الناس على أنها وثيقة أصلية تشييتيكية صحيحة (١٧) . ومن المسلم به أن ميخايلوفيتش كان قادرا على استخدام منطلق الوطنية الصربية

وبلاغتها . فان اعلانا عاما نسب اليه تصريحاً يقول : « انى من أبناء شوماديا الصربية (وهى منطقة فى وسط صربيا) ، من أرض صربيا ، ومن أرومة صربية . وبصفتى هذه فانى سأقاتل من أجل أسمى المثل العليا التى يستطيع صربى أن يفاخر بها : من أجل التحرير الدائم والتوحيد الى الأبد للأرض الصربية فحينما وجدت قبور صربيا . . فثم أرض الصرب . . . » (١٨) ورغم ذلك ، فانه ظل خادما مخلصا مواليا للملك وحكومته فى المنفى ، التى كانت سياستها انقاذ وإعادة بناء مملكة يوغوسلافيا بأكملها . وقد علق ميخايلوفيتش ذات مرة قائلا : « ان الصرب من حقهم أن يقولوا : نحن منذ الآن لم نعد نريد يوغوسلافيا ، ولكن هناك مصالح أسمى تضطرننا اضطرارا الى إعادة صنع هذه البلاد » (١٩) . وهو ابتداء كان يعد نفسه مقاتلا فى سبيل إعادة يوغوسلافيا الى الوجود ، بما فى ذلك بانوفينة كرواتيا شبه ذاتية الاستقلال ، الى سابق عهدها بالضبط قبل الحرب . على أنه عندما أدرك المدى البعيد القدر للمذابح الأوستاشا ، وافق على أن تؤخذ من كرواتيا بعض الأراضي : مثل طرفها الشمالى (سرم وبرانيا) ، الذى ينبغي أن يضم الى صربيا ، وينبغى أن تنضم جنوب الدماشيا الى البوسنة ، كما ينبغي أن تأخذ صربيا القسم الشرقى من الهرسك . وسيطلق للبوسنة نفسها الحق فى أن تقرر عن طريق الاستفتاء هل تريد أن تنضم الى صربيا أم لا ؟ (٢٠) ولما كان الجذع الأساسى من البوسنة يضم غالبية من السكان الصرب ، فان هذه التسوية الإقليمية لابد أن تنتج نتيجة مماثلة تماما لتلك التى يخططها مستشاروه الأعمق منه أيديولوجيا ، وكانت نقطة الفارق الرئيسية بينه وبينهم هى أنه شخصيا لم يكن لديه أية خطة لطرد المسلمين . ولكن مهما يكن الأمر ، فانه على العكس من تيتو ، لم يكن يتوقع أن يدير القطر بنفسه . فان كل هذه القرارات ، لو قدر له النجاح ، ستكون فى قبضة السياسيين والملك .

فلو سلمنا بأن تيتو كان ينوى بالفعل أن يدير الدولة بعد الحرب ، فستعجب عند أول نظرة من قلة المعلومات التى قدمها للشاكلة التى ستنظم بها البلاد أو ستقسم . بل ان هناك سببا بسيطا لذلك ، فانه فى تلك المرحلة كان لا يزال خادما مخلصا مواليا لستالين ، وكان لا يمتنع اطلاقا عن اتيان كل ما تطلبه موسكو : سواء أكان دولة مركزية قوية التمرکز أم اتحادا يوغوسلافيا من جمهوريات فيدرالية اشتراكية ، أو حتى تكوين اتحاد فيدرالى بلقانى يضم أيضا بلغاريا وألبانيا . ويمكنك أن تقول ان الخليط المكون من الغيبة النظرية والانتهازية القاسية التى لا ترحم ، وهى الصفات التى نعتت بها سياسة ستالين ازاء « مسألة القوميات » كانت كلها أمورا واضحة فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى

أيضا. ٠ وحتى منتصف تسعينيات الألف وتسعمئة ، كانت سياسة الكومنترن تعد يوغوسلافيا جزءا من جدار الدول المناوئة للاتحاد السوفيتي في فرنسا. ٠ وقد دعا الكومنترن الى تفكيك يوغوسلافيا في ١٩٢٤ ، وتلقى الشيوعيون اليوغوسلاف تشجيعا على استفزاز القوميات المعادية على بلجراد ، كوسيلة تتخذ لتلك الغاية. ٠ ولكن في ١٩٣٥ تغير خط الاتجاه تغيرا تاما : اذ كان المطلوب من الشيوعيين الآن أن يحافظوا على يوغوسلافيا ، وأن يعملوا بروح « الجبهة الشعبية » ضد الفاشية الدولية (٢١). ٠ وليس هناك أدنى شك في أن ستالين لو أنه كان قد أبدى كراهية لجميع أشكال الهوية الوطنية ولو كان قد سبها بأنها بورجوازية وطالب بالغائها ، لقفز تيتو من خلال ذلك الطوق أيضا. ٠ وفي غمرات الحرب تعلم بعض الدروس من واقع تجربته في محاولة بث التلاحم في صفوف جيشه بين كل ما حوى من أعضاء القوميات اليوغوسلافية المختلفة المتنافسة. ٠

من أجل ذلك لا ندهش اذ نجد الحزب الشيوعي اليوغوسلافي يفتقر الى فكرة واضحة عن الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه البوسنيون المسلمون. ٠ على أن ذلك الحزب في أولى مراحل من ١٩١٩ الى ثلاثينيات الألف وتسعمئة ، لم يكن يعبر الا أقل القليل من الالتفات لذلك الموضوع ، لأن الحزب الشيوعي للبوسنة نفسها لم يكن الا شظية منعزلة من الناس ، ولم يكن به حتى ١٩٣٩ الا مئة وسبعون عضوا فقط (٢٢). ٠ وجرت عاداته أثناء تلك المرحلة برفض الفكرة القائلة بأن أية مجموعة من الناس تجدها ديانتها يمكن أن تكون لها هوية سياسية أو قومية. ٠ ولكن بعد التحول الجذري في موقفه في ١٩٣٥ ، شرع الشيوعيون في أن يقدموا ما يشبه أن يكون عدة مقترحات شبه فيدرالية ، لدولة أو قطر يتكون من سبع وحدات اقليمية تكون البوسنة واحدة منها. ٠ وكان معنى ذلك مقاومة الدعاوى المتناحرة بأن البوسنة « كرواية حق » أو « صريضة حق » ، وأرغمت الشيوعيين على أن يهتموا بهوية المسلمين الخاصة (٢٣). ٠ وفي ١٩٣٦ كتب أحد المفكرين الشيوعيين المبرزين وهو ادفارد كارديلي (Edvard Kardelj) السلوفيني يقول : « لسنا نستطيع الكلام عن المسلمين كأمة ، ولكن كجماعة عرقية خاصة » (٢٤). ٠ وقال « خطاب مفتوح » كتبته الشيوعيون في البوسنة : « ان المسلمين ظلوا في البوسنة دائما كلا خاصا أو كيانا خاصا » ٠ ولكن التصنيف ظل غامضا بصورة منعقدة ، وفي مؤتمر الحزب الذي عقد في ١٩٤٨ ، وصف الرجل المنوط به سياسة شئون القوميات وهو ميلوفان ديلاس المسلمين بأنهم : « جماعة عرقية » ، ومع ذلك فانه أخرجهم من قائمة الشعوب اليوغوسلافية (٢٥). ٠

وفي أثناء الحرب ظلت منشورات قياد الحزب غامضة بل حتى متناقضة . فان وثيقة نشرها « مجلس البوسنة المضاد للفاشية » (وهي الجمعية الشيوعية الاقليمية) في ١٩٤٣ أشارت الى « ممثلي الشعوب الصربية والكرواتية المسلمة » ، ولكن الذي حدث في نفس السنة أن اجتماع « المجلس المضاد للفاشية » ، الذي وضع أسس يوغوسلافيا الفيدرالية الاتحادية بعد الحرب ، رفض الفكرة الذاهبة الى أن المسلمين أمة . وقد أقيمت الخطة التي قدمها ديلاس على شاكلة النموذج السوفييتي : « خمس جمهوريات قومية » ، من أجل « أمم يوغوسلافيا الخمس » (الصرب والكروات والسلوفين والجبل الأسود والمقدونيين) . أما البوسنة فتكون وحدة منفصلة متميزة ، على أن تكون ولاية ذات استقلال ذاتي ليس الا وليست جمهورية قومية . وكأنه كانت هناك مباراة « شد الجبل » ، بين الموفدين الصربيين الذين أرادوا أن تكون البوسنة مدمجة في صربيا ، والمندوبين البوسنيين الذين شاءوا لوطنهم أن يكون له وضع معادل ، بوصفه جمهورية . وأخيرا جاءت التسوية النهائية ، باعطائها وضعها الجمهوري ولكن مع وصفها بأنها جمهورية يسكنها « أجزاء من الأمتين الصربية والكرواتية ، بالإضافة الى المسلمين البوسنيين » (٢٦) .

وكل هذه المناقشات كانت على كل حال أكاديمية نظرية بحتة ، حتى انتصر رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) في الحزب - وأعني بها الحزب على التشييتنيك . وكان كل من الجانبين يحارب من وقت لآخر ضد قوات المحور ، وكان رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان يفعلون ذلك أكثر من التشييتنيك ، وذلك من ناحية جزئية للأسباب السابق ذكرها . ولكن الحرب على التشييتنيك ، هي التي سيطرت على استراتيجية تيتو . وبعد فزازه من صربيا الى منطقة فوتشا في الجنوب الشرقي من البوسنة في نهاية ١٩٤١ ، انحصر قلق تيتو في خوفه من أن تصبح منطقة وسط صربيا هي والسنجقية اقليما تشييتنيكيا ، الأمر الذي حدث فعلا . وما أسرع أن أصبح الجبل الأسود وأجزاء من الهرسك تحت سيطرة القوات التشييتنيكية أيضا بقيادة قواد محليين ، الذين اصطنعوا ترتيبا للعمل مع المحتلين الايطاليين . (وكان الذي يحدو الايطاليين على ذلك هو الرغبة في الحصول على حياة هادئة والتحصن ضد البارتيزان) ، وإرادة حقيقية في ترك السكان المحليين يحمون أنفسهم من رجال الأوستاشا . وفي صيف ١٩٤٢ ، زحف تيتو الى الشمال الغربي مخترقا البوسنة على امتداد الخط الفاصل بين منطقة احتلال الالمان والايطاليين . واستقر بمنطقة تتمركز حول بيهاتش لا توجد بها أية قوات للمحور .

وهناك أقام بضعة أشهر وهو يحشد حشوده اذ أخذ يجمع فيها البوسنيين الصرب وبعض الكروات أيضا . وعند حلول الخريف ادعى أنه سيطر على « منطقة محررة » ، فى حجم تسوينرا ، وذلك لأن قوات المحور وقوات دولة كرواتيا المستقلة لم تأبه بمهاجمته .

ومع أن جيش تيتو كان يضم آلافا من الرجال البواسل الأشداء فلا بد أن يقال أن القتال الضخم المعيار الذى شب بينه وبين قوات المحور ، إنما حدث بناء على مبادرات من قادة المحور ، الذين كانوا يقررون بين حين وآخر اجلاء رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان من مناطق بعينها . فأما « تحرير المناطق » على يد تيتو وهى مناطق الريف السحيقة البعد ، فلم يكن له أثر حيوى على الجهد الحربى الألمانى اذ كان الألمان والايطاليون يواصلون السيطرة على المدن الكبرى ، وعلى الطرق والسكك الحديدية الرئيسية ، وعلى المناجم . وكثيرا ما قيل ان تيتو قد « ألزم » أعدادا ضخمة من الفرق العسكرية الألمانية و « ربطها » فى مواقعها ، ولكن الراقع أنه لم يكن هناك عند بداية ١٩٤٣ سوى أربع فرق عسكرية ألمانية ، ذات مستوى خفيض ، بكل يوغوسلافيا بأسرها . (وفى أغسطس من تلك السنة انضمت اليهم فرقنا احتياط من مجندين تحت التدريب ، وفرقة واحدة منهوكة القوى من ستالينجراد . ثم أضيفت اليهم قلة بعد ذلك قرب نهاية العام بعد استسلام القوات الإيطالية فى سبتمبر) (٢٧) . وكما كتب ناقد معاد لتيتو ، وإن كان قوله يتسم بقوة الادراك ونفاذ البصيرة : « هناك فى مناطق البوسنة والهرسك وكرواتيا حيث كان رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان يروحون ويغدون ، جرت بالطبع اشتباكات متكررة بينهم وبين قوات المحور . وقد دمرت جميع المواصلات بأعمال التخريب ، ولكن لم يكن ذلك وفق أية خطة استراتيجية . وعلى اغلب الظن أنها خربت لحماية تقهقر رجال المقاومة البارتيزان ، كما أن الحركات كلها كانت فى واقع الامر تقهقرات دائما » (٢٨) .

والسبب الرئيسى الذى من أجله قرر الألمان اجلاء قوات تيتو من الشمال الغربى للبوسنة فى أوائل ١٩٤٣ ، هو خوفهم من أن ينزل الحلفاء جيوشهم على الساحل الدالماتى ، وهم من ثم شاءوا أن يحكموا سيطرتهم على تلك المنطقة الداخلية من الأرض المهمة من الناحية الاستراتيجية ، ولتففس السبب صمم الألمان على القيام بهجوم على التشيتنيك فى الهرسك والجبل الأسود (٢٩) . وكانت فكرة نزول الحلفاء برا ، مسيطرة على استراتيجية وفكر جميع القواد العسكريين . وكان ميخايلوفيتش يريد ازاحة رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، حتى لا يكون هناك أى عائق

يمنح. تقدم الحلفاء السريع الى الداخل لينضموا الى قواته أيضا (٣٠) .
فأما تيتو فإنه أرسل ثلاثة من كبار موظفيه للتفاوض مع الألمان في مارسر
١٩٤٣ ، وذلك أولا في مدينة جورني فاكوف البوسنية ، ثم بعد ذلك في
زغرب : فأبلغوا الألمان أنه « في حالة نزول برى أنجلو أمريكي ، كان تيتو
مستعدا للتعاون مع الفرق العسكرية الألمانية في كرواتيا في عمليات
مشتركة ضد الغزاة » (٣١) . وكان تيتو على يقين من أن احتلال الحلفاء
ليوغوسلافيا لم يكن له الا معنى واحد هو إعادة الملك وحكومته الى البلاد ،
وانتهاء كل حلم بقيام استيلاء شبيوعي سريع على البلاد . وظلت هذه
المخاوف تؤرقه حتى بعد أن أخذ يتلقى مساعدات مباشرة من الحلفاء في
أخرىات صيف ١٩٤٣ . وكما لاحظ أحد كبار الموظفين الألمان في
يوغوسلافيا : « في ١٩٤٤ كانت هناك لحظات أصبح فيها قلق رجال
المقاومة الشيوعية البارتيزان من الألمان أقل منه من نزول الحلفاء
بإرا » (٣٢) .

وفي أثناء ١٩٤٣ أدى هذا التضارب في الأهداف الى مجموعة من
الانحيازات التكتيكية المتعاقبة بين استراتيجيات القوات المختلفة الثلاث -
أو قل الأربع ، وذلك نظرا لأن سياسة الايطاليين نحو التشيتنيك كانت
تختلف عن سياسة الألمان المتشككة . ودفع الألمان رجال المقاومة الشيوعية
البارتيزان نحو الهرسك في أوائل ١٩٤٣ ، وعلى كل حال ، فإن تيتو كان
يفكر في خطة الانزلاق الى الجنوب للتعرض للقوات التشيتنيكية في
الهرسك والجبل الأسود . وفي مارسر تمكن - وإن لاحقته الألمان وقاومه
التشيتنيك - من النجاح في عبور نهر نيريتفا بالهرسك والتحرك جنوبا
حتى دخل الجبل الأسود معقل التشيتنيك الحصين . (وعند تلك النقطة
بالضبط شرع في اجراء مفاوضات مع الألمان ، لاقناعهم بأنه من مصلحتهم
السماح له باطلاق يديه على ميخايلوفيتش) (٣٣) . وكان الايطاليون
يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع التشيتنيك ، ولكن الألمان كانوا لا يزالون
يعتبرون تدمير قوات ميخايلوفيتش هدفا استراتيجيا مهما : ومن ثم فإنهم
قبضوا على بضعة آلاف من التشيتنيك بالجبل الأسود ، وجردوهم من
سلاحهم في مايو ، وأرسلوا قائد المنطقة التشيتنيكي الى معسكر اعتقال
في جاليسيا (٣٤) . ثم ما لبث الألمان أن انقلبوا في أوائل صيف ١٩٤٣
على رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، وأوشكوا أن يحاصروهم على جبل
دورميتور بشمال الجبل الأسود . بيد أن رجال تيتو قاتلوا بعزم فائق
أكيد ، وأخيرا استطاعوا شق طريق لهم من خلال القوات المحاصرة ،
متحركين من خلال جنوب شرق البوسنة ، ثم الحول بدورة نحو الشرق من

سراييفو ثم السير غربا من اولوفو الى ترافنيك (٣٥) . وأخيرا تمكن تيتو من اقامة مقر قيادته في منطقة جاييس في غرب وسط البوسنة .

وعلى جبل دورميتوز ، انضم الى تيتو ضابط بريطاني هو وليام ديكون . وكان عميق الاعجاب بقدرات رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) القتالية . وأدت التقارير التي أرسلها هو وكثير من الضباط البريطانيين الآخرين ممن زاروا رجال المقاومة أثناء الصيف والخريف ، الى اقناع الحلفاء بنقل مساندتهم من ميخايلوفيتش الى تيتو . وفي الحين نفسه فاز رجال المقاومة البارتيزان بميزة عظيمة على التشيكتيك ، عندما استسلم الايطاليون في سبتمبر ١٩٤٣ ، فسقطت بذلك في أيدي رجال المقاومة البارتيزان مقادير ضخمة من المعدات الايطالية ، وعندئذ أخذ قواد ميخايلوفيتش الاقلميون يتعاونون لأول مرة مع الألمان (٢٦) . وفي أثناء ١٩٤٤ زادت مساندة الحلفاء لتيتو قوة ، كما أن قواته زادت حجما وعددا عندما أدى السقوط العام لحكم الأوستاشا الى ملء صفوف جيشه بالناشرين من الكروات والبوسنيين وكذلك الصربيين . وفي صيف تلك السنة بدأ الألمان انسحابهم من يوغوسلافيا . وأرسلت مقادير ضخمة من الأسلحة الى تيتو لتمكينه من تعويق انسحابهم ، ولكن أهم ما كان يشغل تيتو في ذلك الحين هو اتمامه انتصاراته في الحرب الأهلية . وفي سبتمبر أقنع الحلفاء الملك بيتر أن يوصي جميع اليوغوسلاف بمساندة تيتو . ولكن عند نهاية السنة تمكنت القوات السوفيتية (الجيش الأوكراني الثالث بقيادة المارشال نولبوخين (Talbu Khin) من احتلال ما يقارب ثلث مساحة البلاد . وبذلك تأكد الآن الحكم الشيوعي ليوغوسلافيا .

ولا شك في أن موقف الكروات البوسنيين والصرب البوسنيين أثناء سنوات القتال الأربع هذه واضح سهل الفهم . فإن الأولين منهما سلكوا مسلك الكروات في كرواتيا : اذ عمدت قلة منهم الى تقديم المساندة الفعالة الى الأوستاشا ، بينما رحبت الغالبية بتأسيس دولة كرواتيا المستقلة في البداية فقط ، ثم أخذت رويدا رويدا تفيق من الانبهار بها ، الى أن بلغ الأمر بهم في ١٩٤٣ و ١٩٤٤ أن أخذت أعداد غفيرة منهم تنضم الى رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، على أن الصرب البوسنيين ، كما رأينا سابقا ، سرعان ما دفعوا الى معارضة دولة الأوستاشا واحتلال المحور العسكري . وكانت هناك ثلاث فترات رئيسية قضى فيها جيش المقاومة البارتيزان عدة شهور بمكان واحد ، وهو يجمع المؤونة ويضم اليه مجندين

جددا . وكانت كلها في الأراضي البوسنية (فوتشا في النصف الأول من ١٩٤٢ وببهاتش في النصف الثاني من نفس السنة . ويأيسه في النصف الثاني من ١٩٤٣) ، ومن ثم فقد سُنحت فرص كثيرة أمام الصربيين البوسنيين لكي ينضموا الى قوات المقاومة البارتيزان . وكانت قوات ميخايلوفيتش التشيتنيكية تجند الصرب البوسنيين أيضا ، وخاصة في منطقة وادي الدرينا الواقعة في شرق البوسنة ، وفي أراضي الحدود للهرسك والجبل الأسود .

وكان موقف البوسنيين المسلمين أكثر تعقيدا . فكما رأينا كانت العواطف السياسية العامة للمسلمين أميل إلى زغرب أكثر منها إلى بلجراد طوال فترة ما بين الحربين . ومع أن السياسة الرسمية لمنظمة المسلمين اليوغوسلاف كانت تنحى إلى « اليوغوسلافة » المخففة إلى حد ما بدرجة من الاستقلال الذاتي الإقليمي ، ومع أن سبهاو ظل على الدوام يصف نفسه بأنه يوغوسلافي ، فإن معظم زملائه المسلمين قد سموا أنفسهم كرواتا مسلمين . ومع ذلك فإن هذا التحديد للهوية كانت له جوانب قصور ، فعندما أقام أشد المسلمين السياسيين ميلا إلى الكروات وهو حقي حاجيتش (Hakija Hadžić) فرعا اسلاميا لحزب الفلاحين الكرواتي استعدادا لانتخابات ١٩٣٨ لم ينضم اليه الا حفنة من خصوم سبهاو ، ولم يحصل على بضعة آلاف من الأصوات الا بشق الأنفس (٣٧) . وشاع بين رجال الدين المسلمين اتجاه عجيب التخليط نحو فكرة « الكرونة » (أى الصبغة بالصباغ الكرواتي) . وكان فهم شقيق محمد سبهاو ، الذي تولى منصب رئيس العلماء من ١٩٣٨ - ١٩٤٣ ، وقد اعتبر نفسه « كرواتيا » ولعب دورا زعيما في الجمعية الثقافية الاسلامية المسماة « نارادونا أوزدانيكا » التي كانت تناصر الكروات . (وذلك بينما الجمعية المنافسة ، وهي جمعية جايرات ظلت تبدي هوى نحو الصرب) . بيد أن فهم سبهاو حرص أيضا على الاحتفاظ بهوية المسلمين الخاصة ، التي شعر بأنها معرضة للخطر . ومن ثم فإنه أصدر التعليمات بمنع الزيجات المخلطة ومنع استخدام الأسماء غير الاسلامية في تسمية الأطفال ، بل لقد بلغ به الأمر أن نصح المسلمين بعدم الدخول الى الكنائس الكاثوليكية خشية أن يضطروا الى خلع طرابشهم متى دخلوا هناك (٣٨) .

وعندما قوبل المسلمون بضرورة الاختيار بين أن يحكموا من بلجراد أو زغرب ، اختار معظم السياسيين المسلمين وكبار رجال الدين زغرب شريطة الحصول على ضمانات بأن ممارسة العقيدة الاسلامية ستستمر غير معرضة لأية مضايقة . وذلك ما حرص اننى باديتش على أن يعدهم به

في مدى أيام من وصوله الى الرئاسة. وفي ٢٥ أبريل ١٩٤١ أرسل اليهم دبعوثا ليؤكد لفهيم سباهو أنه يريد من المسلمين البوسنيين أن يشعروا « بأنهم أحرار وراضون تماما ويمتلكون حقوقا متعادلة » . وقد تمت الضمانات للمسلمين بحرية العقيدة ، بما في ذلك نظام التعليم الخاص بهم ، ودعى أحد عشر سياسيا من رجال منظمة المسلمين اليوغوسلاف السابقين للانضمام الى البرلمان المنعقد في زغرب (٣٩) .

وعين جعفر كوليفيتش زعيم الحزب نائبا لرئيس حكومة دولة كرواتيا المستقلة في نوفمبر ١٩٤١ . وكان على الدوام رجلا محبا للكروات في تطلعه ونظريته ، كما أنه ، كما رأينا ، يش من سياسة بلجبراد في السنوات الأخيرة السابقة على الحرب ، بيد أنه لم يكن متحمسا للأوستاشا . وكما عبر أحد الخبراء المتخصصين في دراسة هذه المدة ، حيث قال : « ومع أنه بقي في الحكومة حتى النهاية ، فانه لم يحرز قط ثقة الأوستاشا ، كما أنه فقد سمعته بين أتباعه من أعضاء منظمة المسلمين اليوغوسلاف » ، وبفعل الضغط الذي كانوا يمارسونه عليه أخذ يقول : « انه ليس ممثلهم أو نائبهم في حكومة دولة كرواتيا المستقلة وانه لا يمثل الا نفسه » (٤٠) . وبعد وفاة محمد سباهو ، أصبح أعظم الزعماء نفوذا في « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » رجل أعمال من سراييفو هو أوزار

آغا حاجي حسنوفيتش (Uzeir-aga Hadzihasenović) . وقد شجع كوليفيتش في الانضمام الى حكومة دولة كرواتيا المستقلة ليحول دون حدوث مخالفات للقانون ، كما استخدم نفوذه ضد المتطرف المحب للكروات وهو حقي حاجيتش الذي عين آنذاك مندوبا ساميا للأوستاشا في البوسنة . وفي نهاية أبريل ١٩٤١ اشترك حاجي حسنوفيتش في عضوية وفد مشترك مسلم - صربي مع السياسي المسلم الصربي ميلان بوجيتش ، ليطلب من حقي حاجيتش الاستقلال الذاتي للبوسنة . وكانت نتيجة هذه المبادرة أن اعتقل بوجيتش وزملاؤه الصربيون ثم قتلوا بعد ذلك بقليل ، وأبلغ حسنوفيتش بأنه ينبغي له أن يتخلى عن جميع آرائه المناهضة للكروات (٤١) .

وما لبثت أكنة الخداع أن أزيلت سريعا عن أعين كثير من المسلمين . ومع أنه لم يكن هناك برنامج ضدهم ، الا أنه كان واضحا أن الوعد باحترام حقوقهم لم ينفذ ، وبسببساطة لم تطبق دولة كرواتيا المستقلة مبدأ سيادة القانون . وأصدر علماء المسلمين سلسلة من القرارات والاحتجاجات في أثناء صيف وخريف ١٩٤١ ، بدءا باليوم الثاني من أغسطس . وظهرت تلك القرارات في سراييفو وبريدور وموستار

وبانياالوكا وبيليلىنا وتوزلا . وأشار قرار موستار الى : « ما لا حصر له من الجرائم والاعتداءات والأساليب غير القانونية والتحويل الدينى القهرى ، التى كانت ومازالت تستخدم ضد الصرب الأرثوذكس ، وغيرهم من المواطنين ، وشككا رجال الدين فى بانياالوكا من سرقة ونهب ممتلكات ومتعلقات الصربيين واليهود ، كما أن التماسا أعده حاجى حسنوفيتش ووقعه مئة من سراة المسلمين فى سراييفو ، شجب أعمال العنف التى تمارس ضد اليهود والصربيين وطالب : « بتأمين الحياة والكرامة والممتلكات والدين لجميع المواطنين بغير استثناء » . وفى نهاية العام نفسه كان الألمان يبلغون رئاستهم أن « العلاقات بين الحكومة والمسلمين قد تدهورت تدهورا شديدا » (٤٢) .

وفى الحين نفسه ، أدت أفعال العنف التى كان يرثكبها القرويون الصربيون ضد المسلمين ، وبخاصة فى بلاد الهرسك الى أن يشعر المسلمون فى النهاية بأنه من المستحيل عليهم أن ينضموا اليهم فى كفاحهم ومقاومتهم للأوستاشا . وعلى العكس من ذلك تماما فقد دفع بعض المسلمين الى أن يخرطوا فى ميليشيا الأوستاشا بدلا من مقاومتها . بل بلغ الأمر أن المسلمين البوسنيين لم يكن لهم ممثل فى الحكومة فى المنفى ، ومن ثم فلم يشعروا الا بقدر قليل من الولاء لذلك الممثل العسكرى لتلك الحكومة وهو ميخايلوفيتش . ولكن الذى حدث فى النصف الثانى من ١٩٤١ ، عندما أصبح البارتيزان أقوى من الناحيتين السياسية والعسكرية من التشيتنيك (وعندما أصدر قواد المقاومة البارتيزان أوامره بمنع هجوم رجالهم على القرى المسلمة) ، شرع المسلمون ينضمون الى جيش تيتو . وشكلت أول وحدة مقاومة بارتيزان اسلامية وهى المسماة موبيناتشيتا (Mujina četa) بعد أغسطس ١٩٤١ ، حتى اذا وافى ديسمبر كانت قد أصبحت كتيبة . ثم تكونت وحدة من شباب المسلمين أيضا أثناء اقامة تينو فى فوتشا فى شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ ، وفى أوائل ١٩٤٢ ظل المسلمون يواصلون الانضمام الى كتائب المقاومة البارتيزان فى زينيكا والهرسك . وتشكلت وحدات اسلامية أخرى فى أثناء تلك السنة ، ولم يلبث شهر ديسمبر أن شهد تشكيل « الآلاى الثامن الاقليمى الاسلامى » بقيادة عثمان كاربيجوفيتش (Osman Karabegović) (٤٣) . وكان عدد المسلمين المجندين قليلا فى بادىء الأمر ، ولم ينضم الا سياسى مسلم بارز وحيد فقط هو نورى بوزدراك (Norija Pozderac) الى الشيوعيين فى تلك المرحلة المبكرة ، وكان من العسير اقناع أئمة ومفتى البوسنة ، بأن مستقبل شعبهم انما يقوم مع الشيوعية الاتحادية . ولعلمهم قد سمعوا قبل ذلك بتلك المعاملة الرهيبة التى يلقاها الاسلام فى الاتحاد

السوفييتي ، أثناء السنوات العشرين السابقة ، ولم يكونوا يشعرون بأى اقتناع لدى قراءة النشرات التى كان يكتبها تنظيم تيتو آنذاك ، التى تظهر روسيا ستالين وكأنها هى أرض عجائب من التسامح والحرية الدينية الإسلامية (٤٤) .

ومع ذلك فى أثناء تلك المدة ، وبينما كان القواد التشييتيك لا يزالون يسمجون لجندهم بمهاجمة القرى الإسلامية ، كان التشييتيك يلتصبون العون رسميا من المسلمين ، وكما كتب فى ١٩٤٢ ، أحد الزعماء التشييتيك بالهرسك وهو دوبروساف يفديفيتش (Dobrosav evdjević) فى يوليو ١٩٤٢ : كان من الضرورى أن نتجمل بالتسامح نحو المسلمين لأسباب تكتيكية ، وذلك دون أن ننسى أنه لا يمكن أن تقوم هناك وحدة حقيقية معهم » (٤٥) . ولم يكن من المحتمل ولا المنتظر أن مسلمى جنوب شرقى البوسنة والهرسك أن ينسوا ذلك ، وذلك نظرا لأن التشييتيك وغيرهم من القوات المحلية الصربية ، قتلت عدة آلاف من المسلمين فى شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ وصيف ١٩٤٢ . وكان من أشنع المذابح ما حدث فى منطقة فوتشا - نشاينيتشى - حيث قتل ألفا مسلم على الأقل هناك على يد قوات تحت إمرة قائد نشييتيكى هو زاهاريا أوستوييتش (Zaharia Ostojić) فى أغسطس ١٩٤٠ ، وفى فبراير ١٩٤٣ قتل أكثر من تسعة آلاف من الأفراد ، بينهم ثمانية آلاف من الشيوخ والنساء والأطفال (٤٦) . والآن ، أصبح العداء قائما بين الطرفين . وكلما زاد عدد المسلمين المنضمين الى البارتيزان اشندت نظرة التشييتيك الى المسلمين كأعداء ، وكلما فتك التشييتيك بالمسلمين ، زاد احتمال تعاون المسلمين المحليين مع قوات المقاومة والألمان والإيطاليين ودولة كرواتيا المستقلة ضد التشييتيك .

ومع هذا كله ، فقد كانت الصبورة والنموذج يتغيران من مكان الى آخر . حتى بلغ الأمر فى بعض المناطق ، أن كان من الممكن والمحتمل أن يتبادل المسلمون والتشييتيك التعاون ، فقد حدث أن جماعات التشييتيك والمسلمين بمنطقة زينكا بعثت برسالة الى الألمان فى مايو ١٩٤٢ قالت فيها : « أزيلوا الأوستاشا من البوسنة ، وعندئذ نعدكم نحن المسلمين والصرب باتتبات النظام هنا فى مدى أسبوعين » (٤٧) . وكان أشد المسلمين المؤازرين للتشييتيك نشاطا هما الدكتور عصمت بوبوفاك (Ismet Popoyak) عمدة كونيكا ، وفؤاد موسى كادييتش رئيس شرطة سرايفو الأسبق . وكتب بوبوفاك الى ميخايلوفيتش مقترحا عليه أن يجنح المسلمين فى قواته ، وكان هناك من يؤيدون هذه الفكرة بين المسلمين الأكثر ميلا الى الصرب والأكثر مضادا للشيوعية فى كثير من المدن

البوسنية ، وعند ديسمبر ١٩٤٣ كان الناس يقدر أن عدد مؤيدي جيخايلوفينس من المسلمين قد يصل إلى ثمانية في المائة من جندهم - ولعلمهم كانوا يبلغون أربعة آلاف أو أكثر (٤٨) • وفاد بوبوفاك بنفسه هجوما قام « بتحرير » قرية مسلمة في يناير ١٩٤٣ • وحدث فيما بعد في تلك السنة نفسيهما ، أن قبض الشيوعيون على بوبوفاك وموسى كاديتش ، وأعدموهما رميا بالرصاص (٤٩) •

وفى بحران هذا الدردور (الدوامه) من القوى المتصارعة - التي كانت كل واحدة منها ، كما يلحظ القارئ ، ذات مصادر من خارج البوسنة - كان خط السير الأقرب إلى الطبيعة والأحب إلى قلوب الناس ، الذي ينبغي للمسلمين أن يتبعوه ، هو أن ينسكوا وحدات دفاعهم المحلية الخاصة ، ويحاولوا حماية أنفسهم من كل وارد من الخارج • وحدث فعلا أن نشأت جماعات صغيرة من هذا النوع بكل أرجاء القطر • وفي أكتوبر ١٩٤٢ نشأ أيضا « فيلق من المتطوعين المسلمين » يتكون بالتقريب من أربعة آلاف رجل ، اشتبك في حرب مع المقاومة البارتيزان أكثر مما اشتبك مع التشيكتيك • وأدى عدم اطمئنانه نحو حكومة الأوستاشا (ومنها كان مع ذلك يحصل على امدادات من السلاح) ، أن حاول أن يتعامل رأسا مع الألمان (٥٠) • وتجمعت قوة مماثلة ولكنها أكثر استقلالا ، بمنطقة كازين (Cazin) بشمال غرب البوسنة قرب (بيهاتش) في صيف ١٩٤٣ : يقودها قائد كان في السابق من المقاومة البارتيزان يدعى هوسكا ميليكوفيتش ، ويتكون في معظمه من المحاربين السابقين من البارتيزان الخارجين على كل سنة خلقية والفارين من الجندية من قوات الدفاع المحلي ، وكانت تنطوى على ثمانى كتائب وتسيطر على منطقة متسعة من الأراضي • وكان هوسكا ميليكوفيتش تتجاذبه اغراءات كل من دولة كرواتيا المستقلة والبارتيزان ، ولكنه تباعد عنهما حتى ١٩٤٤ ، عندما عقد اتفاقا مع المقاومة البارتيزان - وعندها اغتاله بعض أفراد جيشه الميالىن إلى الأوستاشا (٥١) •

وكان كثير من الزعماء السياسيين من المسلمين يرى أن الحل الوحيد للمسألة هو فى اعطاء البوسنة نوعا ما من الاستقلال الذاتى • وأن الطريق الوحيدة للوصول إلى ذلك الاستقلال ، هي التوجه مباشرة إلى الألمان ، لأنهم هم الوحيدون الذين يستطيعون منح ذلك العطاء • ولم يكن ذلك مجرد ابتغاء أو انتعاش للحلم القديم للسياسيين المسلمين ، وإن ردد صدق الالتماس الذى قدمه أقوام مثل شريف أرناؤوطوفيتش لبلوغ الاستقلال الذاتى تحت الحكم المجرى ، عند نهاية الحرب العالمية الأولى : لقد كان ذلك محاولة للوصول إلى حل عملى لموقف لا نبرح وطاته تزداد

شدة على كواهل الناس • ومن هنا نشأت « المذكرة » الشهيرة التي وجهها زعماء البوسنة المسلمون الى هتلر في نوفمبر ١٩٤٢ ، وهي المذكرة السالف ذكرها في الفصل الأول من هذا الكتاب • وبعد الافاضة في الفخر بالأصل القوطي ، شكت المذكرة من الشكوى من كثرة المذابح التي ارتكبتها الأوستاشا ضد المسلمين ، والتمست ايقاف جميع الأنشطة الأوستاشية في الأراضي البوسنية ، ولحماية البلاد التمسست المذكرة الاذن بتوسيع عدد فيلق المتطوعين المسلم ، ورغبة في بث الطمأنينة في نفوس الألمان ، اقترحت أن يوضع الفيلق تحت السيطرة الألمانية المباشرة (٥٢) •

كانت هذه طائفة من المقترحات محسوبة بكل عناية وحرص ، ولكن الطلب الأساسي فيها ، وهو الاستقلال الذاتي للبوسنة ، كان غير مقبول عند الألمان ، الذين كانوا يعلمون مقدما أن ذلك لابد أن يعود عليهم بغضب لا يمكنهم تحمله من زعرب • على أنهم كان يهمهم شيء واحد ، هو زيادة فرص تجنيد الجند من تلك المنطقة • وفي ديسمبر أمر هتلر فرقة « الأمير يوجين » التي كانت تتكون أصلا من رومانيين من أصل الماني بالانتقال الى دولة كرواتيا المستقلة وجمع عدد أكبر من ذوى الأصل الألماني هناك • وعندما قال في فبراير ١٩٤٣ انه يريد من تلك الفرقة أن تتولى انشاء فرقة كاملة جديدة في دولة كرواتيا المستقلة ، اقترح همبر انشاء فرقة من مسلمي البوسنة • ومضى الاقتراح في طريقه جادا رغم الاعتراضات الشرسة من زعرب (٥٣) • ولا يخفى أن مبدأ تجنيد فرق ألمانية متطوعة من الأقطار المحتلة ، كان مبدأ ثابتا ومعمولا به من زمن بعيد وسبق تنفيذه بفرق من فرنسا وبلجيكا وهولندا والدانمرك • ولقبت الفرقة المسلمة بالفرقة الثالثة عشرة وأطلقت عليها كنية « الخنجر » وهو اسم السلاح التقليدي في المنطقة وهو الخنجر التركي القديم المقوس أو السيف المقوس •

وابتداً التجنيد في أبريل ١٩٤٣ ، وانتهز الألمان فرصة زيارة مفتي القدس الأكبر الموالي للألمان ، ليطلبوا منه العون لدى رجال الدين المسلمين (ومعلوم أن المفتي الأكبر كان قد استفزته الحماسة على البريطانيين أمدا طويلا من الزمان : فبعد تصريح « بالفور » حول فلسطين في ١٩١٧ ، دعا العرب جميعا الى تشكيل معاهدة أو اتفاقية عربية ألمانية ، لمقاومة السياسة البريطانية) • وأقبل بعض المفتين والأئمة المسلمين يمدون يد العون لتجنيد المسلمين ، وأعطيت كل وحدة في الفرقة مفتيا شابا ليفتيهم في أمور الدين ، ومع هذا فإن جميع الضباط تقريبا كانوا من أصل ألماني (٥٤) • وما انتهى شهر أبريل حتى بلغ عدد المجندين اثني عشر ألف شاب • كما

أن القوة النهائية للفرقة بلغت واحدا وعشرين ألف رجل . وكان التجنيد تطوعيا في معظم الحالات ، وإن كان الكثير منهم قد أعطى صورة للمستقبل مضللة جدا ، حول الأغراض التي ستستخدم فيها الفرقة (٥٥) . وبالخيبة ظن مسلمي البوسنة ، فقد خدعهم الألمان بالوعود البراقة وظنوا أن الفرقة ستستخدم لحماية مدنها وقراهم ولكنهم أرسلوا في صيف ١٩٤٣ إلى ألمانيا وفرنسا ، ليتلقوا مدة طويلة من التدريب . وأرسلت مجموعتان من المسلمين من سراييفو وبانيا لوكا للانضمام إلى بعض المهندسين الكرواتيين في مركز للتدريب في فيل فرانك دي رويرج (Villefranche-de-Rouergue) قرب تولوز بفرنسا . وهناك في ليلة ١٧ سبتمبر ، وبقيادة أحد المسلمين ، واسمه فريد جانيتش (Ferid Džanić) وكرواتى اسمه بوزوييلينك (Bozo Jelenek) ، ألغوا القبض على ضباطهم ذوي الأصل الألباني ، وقدموهم إلى محاكمة سريعة ، ثم أعدوهم رميا بالرصاص . كانوا يدبرون أن ينفلتوا وينضموا إلى المقاومة الفرنسية ضد الألمان ، ولكن ضابطا أعطى الأتذار ، فهاجمتهم القوات الألمانية . وفر ييلينك ، ومات خمسة عشر من المتمردين وقتل مائة وأربعون آخرون فيما تلا ذلك من عمليات التطهير . ولا يزال العيد السنوي لذلك التمرد يحتفل به إلى اليوم بمدينة فيل فرانك دي رويرج . وقد أطلق على هذا التمرد اسم يدل على الانحياز هو « ثورة الكروات » (٥٦) .

وبينما كانت فرقة الخنجر ترسل لمزيد من التدريب في منطقة سيليزيا النائية ، كان التدمير يتصاعد في البوسنة . فثمة شكايات متزايدة من البوسنيين المسلمين ، حول هجمات تشن على أبناء شعبهم من جانب الوحدات الأوستاشية . وشرع كثير من المسلمين في إنشاء وحدات دفاعية محلية ، عرفت باسم « النواة الخضراء » . وحصلت تلك المنظمة على

زعيم سياسى هو البروفيسور نيشاد توبتشيتش (Nesad Topčić) وكان ممن يدعون إلى الاستقلال الذاتى للبوسنة . وثمة حركة مماثلة قام بها أحد كبار أعضاء مجلس رجال الدين المسلمين في سراييفو محمد بنجة (Muhammed Pandža) ، الذى دعا المسلمين في ديسمبر ١٩٤٣ إلى أن ينزعوا عن أعناقهم نير حكم الأوستاشا ، وينشئوا ولاية بوسنية ذات استقلال ذاتى ، تضمن حقوقا متساوية متكافئة لجميع المواطنين ، بغض النظر عن ديانتهم . فكان لدعوته هذه أثر بالغ القوة في فرقة « الخنجر » ، وذلك نظرا لأنه كان أحد أوائل المؤيدين الأصليين للدعوة إلى التجنيد فيها (٥٧) . ومع هذا ففى نفس الوقت أيضا ، حدث هجوم بين المسلمين على التطوع في صفوف المقاومة ، وتكوين « الآلى المسلم السادس عشر » التابع لتييتو في سبتمبر ١٩٤٣ (٥٨) .

وبعد تقديم عدة التماسات ترجو عودة فرقة الخنجر، أعادها هتلر في النهاية إلى البوسنة في مارس ١٩٤٣، من أجل عمليات «حفظ النظام». وأنزلت الفرقة في شمال البوسنة وشرقها، (توزلا وجراداتشاك وبييلينا وبرتشكو وزفورنيك)، حيث قامت الفرقة أثناء ربيع تلك السنة وصيفها بأعمال انتقامية بلا تمييز، - من قتل وغيره من أنواع الجرائم - ضد السكان الصربيين المحليين (٥٩). والعدد الدقيق للضحايا غير معلوم، ولكن لا مراء أنه ربما بلغ مئات كثيرة، وربما كان بضعة آلاف. وبينما السنة تتقدم، حدثت تطورات عديدة جعلت المسلمين أشد ميلا إلى أن يلقوا بحظهم ونصيبهم مع المقاومة البارتيزان. فان ما أبرم من اتفاقيات، تتزايد في علانيتها وصراحنها بين الألمان والتشيتنيك كانت تزيد في شكوك المسلمين في الألمان، ومما زاد الأمر سوءا، قطع العلاقات السياسية بين ألمانيا وتركيا. وكان يتو في ذلك الحين يفوز بنجاحات عسكرية جديدة، وبعد استيلائه على مدينة ديرفينتا في سبتمبر، أصدر ائذارا نهائيا بالزام القوات الكرواتية والبوسنية جميعا بالانضمام إلى المقاومة البارتيزان. وبلغ عدد أفراد قوات الخنجر الذين انضموا فعلا ألفي رجل. وكان الشعور المضاد لدولة كرواتيا المستقلة يشند سباعة بعد بعد أخرى بين الجنود المسلمين، وذلك بينما أصبح الأوستاشا مستهينين بكل شيء في محاولاتهم ادخال الرهبة في نفوس السكان المسلمين بما كانوا ينفذونه من أعمال الاعدام بدون محاكمة. فتفرق شمل فرقة «الخنجر». وفي أكتوبر أبلغت السلطات الألمانية في زغرب رئاستها في برلين أن تلك الفرقة لم تعد تصلح للعمل اطلاقا. ومن أسخف السخف، أنه قدمت في تلك اللحظة مقترحات بانشاء فرقة أخرى، ولكن تلك المقترحات لم تنفذ قط. وفي نهاية ١٩٤٤، حلت جميع وحدات الفرقة الألمانية المسلمة في دولة كرواتيا المستقلة (٦٠).

وحررت المقاومة البارتيزان سراييفو في ٦ أبريل ١٩٤٥، ولم تمص أسابيع قليلة، حتى كان القطر البوسني بأكمله تحت سيطرتهم الكاملة. ونعيت «حكومة الشعب» في ٢٨ أبريل. وأصبح كثير من المسلمين راضين بإمكان قيام حكم شيوعي: فبدلا من أن تمتص كرواتيا قطر البوسنة (وهو الحل الذي تقترحه الأوستاشا) أو الامتصاص داخل صربيا (وهو خطة التشيتنيك)، - يعرض عليهم الآن حل فبدرا إلى غامض، تظل فيه البوسنة موجودة قائمة. ولكن فوق كل شيء، كانوا يتطلعون شاخصين بأبصارهم أماما إلى زمن ينقطع فيه الاغتيال والقتل. والمظنون أن مجموع من توفوا في الحرب من المسلمين قد بلغ ٧٥٠٠٠ مسلم: وهو ما يعادل

٨١٪ من مجموع عدد السكان الكلى ، وهى نسبة تعلو ما قاساه الصرب ،
 (حيث بلغت النسبة ٧٣٪) أو ما قاساه أى شعب آخر اللهم الا اليهود
 والعجر (٦١) . لقد قاتل المسلمون فى جميع الجوانب - الأوستاشا ،
 والألمان ، والتشيتنيك والبارتيزان ، - كما أنهم لقوا حتفهم على يد كل
 جانب من الجوانب . فقتل الكثيرون فى معسكرات الموت الكرواتية
 والألمانية بما فى ذلك ياسينوفاك وبوخنفالد وداخاو وأوشفيتس (٦٢) .
 لم يكونوا هم الذين أوقدوا نار هذه الحرب وأججوا لظاها ، كما أنهم كانوا
 يقاتلون قبل كل شئ دفاعا عن أنفسهم . بيد أن القتل لم ينته بعد .

الفصل الرابع عشر

البوسنة في يوغوسلافيا تيتو ١٩٤٥ - ١٩٨٩

كثيرا ما ينسب الى تيتو فضل عظيم في احلال السلام الداخلى والصلح الى يوغوسلافيا ، بعد الحرب العالمية الثانية . والواقع أن السلام قد جاء فعلا ، وأن جراح الحرب لم تلبث حتى اندملت بالتدريج ، ومن الحق أيضا أن تيتو أعار بعض فكره لايجاد التوازن بين الدعاوى المتصارعة ، لشعوب يوغوسلافيا ومناطقها . بيد أن القوة والسلطان كانت أهم قدرا عند تيتو من كل صلح ، كما أن النظام الشيوعى فرض على يوغوسلافيا بثمن فاحش وثقيل جدا . وأبرر مثال على ذلك ، تلك المعاملة التى عوملت بها بقايا القوات المعادية للمقاومة البارتيزان المدنيين المشاركين فى تلك القوات المعادية ، الذين لجثوا لبلاد النمسا المشمولة بسيطرة الحلفاء ، فى أثناء أبريل ومايو ١٩٤٥ : ما بين « حرس وطنى » سلوفينى ، وجند أوستاشا وتشيتنيك صربيين ومسلمين . والكروات والصرب والمسلمون البوسنيون كانوا على هذا النحو موجودين فى هذه الكتلة المهولة الضخمة من الجند المهزومين . وأعيد الى يوغوسلافيا أكثر من ١٨٠٠ جندى ، اذ أعادهم البريطانيون ، ردا على اصرار تيتو ، وأعمل الذبح فى معظمهم فى مدى ساعات من وصولهم الى الأراضى اليوغوسلافية .

ويقدر أن ٢٥٠ ألف شخص قد قتلوا سواء رميا بالرصاص أو خلال «سيرات » الموت « القسرية أو فى معسكرات الاعتقال خلال عامى ١٩٩٥ - ١٩٩٦ (١) . وهناك تقرير حول الموقف أرسله موظف أمريكى فى فبراير ١٩٤٥. جاء فيه « ان الدعاية والمظاهرات المنظمة « التلقائية » ، والاجبار على العمل سخرة ، والمصادرة الطاغية ، والاعتقالات والعقوبات ، كانت كلها أدوات تذكر الناس بالاحتلال الى أقصى حد » (٢) . وكان بوليس تيتو السرى ، المسمى « ادارة حماية الشعب » ، شديد النشاط فى ملاحقة الأعداء السياسيين الحقيقيين أو المتخيلين . وهو ما حدده تيتو بقوله : « ان الهدف من وجود هذه الادارة هو « بث الرعب » فى صدور أولئك الذين لا يحبون هذا النوع من يوغوسلافيا » - وكانوا كثيرين (٣) . وكان

السعداء منهم الذين نجوا من القتل ، يستخدمون مصدرا للعمالة في مشروعات البلاد البنائية الكثيرة التي شارك فيها معهم بعض المتطوعين الأجانب ، الذين كانوا يأتون للعمل في « خطوط سكك حديد الشيباب » ، وكان أول خط أنشئ منها في ١٩٤٧ من سرايفو الى شاماك (Samac) ، (على الحدود الفاصلة بين البوسنة وكرواتيا) . وقد أشار أحد المعلقين الى أن ذلك الطريق العام الموصل بين بلجراد وزغرب ، كان من الأعمال العظيمة التي تفخر بها تلك الفترة ، فلم تعمل في بنائه فيالق الشباب المتطوعين فحسب كما ذكرت ، بل شارك فيه عمال من السجناء ، وبخاصة من أسموهم « الأعداء الطبقيين » ، من البرجوازيين » (٤) .

وما كاد ستالين يطرد يوغوسلافيا من الكومنفرم (وهي المنظمة التي خلفت الكومنترن) في ١٩٤٨ ، حتى أعيدت كتابة التاريخ اليوغوسلافى سريعا لظهار أن تيتو كان على الدوام يتبع سياسية مستقلة تماما ومتحررة مضادة للمسارات الستالينية . والحقيقة هي أنه قبل قطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتي ، ولمدة عدة سنوات بعده ، كانت سياسات تيتو تسير موازية بدقة شديدة مع النماذج الستالينية (٥) . بل بلغ الأمر أن الدستور اليوغوسلافى نفسه ، الذى أعلن فى يناير ١٩٤٦ ، كان ببساطة تامة ، محاكاة مباشرة للدستور السوفييتي الذى أعلن قبل ذلك بعشر سنوات . حيث كان يحتوى على ذلك الخليط المألوف من التصريحات الرنانة المدوية والمغالطات المنطقية ، كاعلانه مثلا ، أن كلا من الجمهوريات المكونة للدولة تعتبر « جمهورية ذات سيادة » ، ولكنه أيضا ألغى الحق فى الانسحاب عندما أعلن أن شعوب يوغوسلافيا قد اختاروا بمحض ارادتهم العيش معا للأبد (٦) . ولا حاجة بنا الى القول ان الدستور لم يشر أية إشارة الى الحزب الشيوعى ، الذى كان فى الواقع مصدر جميع السلطات . واستخدم تيتو الطريقة المماثلة المتبعة فى أقطار شرق أوروبا الأخرى ، فى تمويه الحزب الشيوعى واطهاره بصورة الجبهة الشعبية ، وذلك كخطوة البداية الأولى ، حتى يجيء الوقت الذى يمكن فيه إزالة جميع التعدديات السياسية فى خاتمة المطاف (٧) . وأعلن فى ١٩٤٧ مشروع خطة خمسية « مبالغ ومسرف فى طموحه ، وفى ١٩٤٩ بعد قطع العلاقات مع ستالين حوت المزارع الخاصة بالقوة الى ملكيات جماعية ، بكل أرجاء البلاد ، وكانت نتيجة ذلك أن هدد شبح المجاعة جميع المدن الكبرى فى السنة التالية (٨) .

ومن أشد الظواهر النموذجية المعبرة عن السياسات الستالينية ، تلك الحملة التى شنت على الدين . فعولمت الكنيسة الكاثوليكية بغلظة

وقساوة خاصة ، وذلك على أساس التواطؤ الذي كان جاريًا بين بعض رجالها وبين الأوستاشا في كرواتيا والبوسنة . ودمرت بعض الكنائس تدميرًا تامًا ، كما أغلقت أبواب الأديرة والرهبات والمعاهد اللاهوتية . ولكن الكنيسة الأرثوذكسية لقيت معاملة أحسن قليلًا ، وإن لقيت مؤسساتها ضغطًا شديدًا أثناء السنوات الثلاث أو الأربع الأولى . وقد تعاون بعض كبار رجال الدين بها مع النظام العميل في صربيا ، بيد أنه كان هناك أيضا العديد من صغار القساوسة « المتقدمين » ممن عملوا وعاضا دينيين في جيش تيتو . وكانت تنظيمات شباب القسيسين تلقى التشجيع داخل الكنيسة ، كوسيلة للسماح للحزب الشيوعي أن يمارس سيطرة غير مباشرة عليها (٩) . أما الاسلام ، فيبدو أنه قاسى اساءة مزدوجة في أعين حكام يوغوسلافيا الجدد : فأولا كان ينظر اليه على أنه (وذلك صدق وحق) نمط من الدين لا ينطوى فحسب على معتقدات شخصية ، بل وأيضا ممارسات اجتماعية ، وثانيا لأنه كان ينظر اليه باعتباره عقيدة رجعية آسيوية . وكان هناك أيضا نوع من الاحساس بأحقاد قديمة تمت تسويتها في نهاية الحرب ، وهى الأحقاد التى عاد المسلمون النشطون الى تذكرها فيما بعد : « وأنزلت به فى ذلك الوقت على يد الشيوعيين أشد الخسائر عندما كانت الوحدات العسكرية تدخل القرى . فقد كان كل من يحتمل كونهم خصوما ، خاصة الأشخاص ذوى المقام الاجتماعى الأعلى والمفكرين المعرفين بإيمانهم ، يعدمون بدون اتخاذ أية اجراءات قانونية أو تحقيقات (١٠) . وبطبيعة الحال كان دستور ١٩٤٧ يحتوى على العبارات المألوفة المعتادة : التى تعلن أن يوغوسلافيا ستحافظ على حرية العقيدة ، وتصون الفصل بين الكنيسة والدولة ، ولكن الأحداث توحى بغير ذلك .

تألفت المحاكم الاسلامية الشرعية فى ١٩٤٦ ، وصدر قانون بمنع النساء من ارتداء الحجاب فى ١٩٥٠ ، وفى نفس السنة صدر قرار باقفال آخر كتاتيب تحفيظ القرآن ، وهى المدارس الأولية التى كان الأطفال يتلقون فيها التعاليم الأساسية للقرآن الكريم ، واعتبر تعليم الأطفال فى المساجد جريمة يعاقب عليها القانون ، وفى ١٩٥٢ أقفلت جميع التكايا الموجودة بأرض البوسنة ، وحظرت جميع طرق الدراويش . وذكرت بعض التقارير أن المسلمين الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية ويعملون فيما كان يسمى (ادعاء) باسم فيالق العمل ، كانوا يرغمون على تناول لحم الخنزير ، وحذر الموظفون الرسميون الشيوعيون ألا يجرؤوا على عملية الختان لأولادهم . وألغيت الجمعيات الثقافية والتربوية الاسلامية : جارت وناوردنا وأوزدانيكا وغيرها الغاء تاما ، ولم تسمح السلطات الوجود جمعية اسلامية واحدة (وقد أصبحت تحت سيطرة الدولة منذ ١٩٤٧) ،

مع معرستها الإسلامية التي عليها إشراف حريص لتدريب رجال الدين المسلمين . كما أن دار المطباعة الإسلامية في سراييفو أغلقت هي الأخرى ، ولم يعد يصرح بصندور أى كتاب دراسي إسلامي حتى ١٩٦٤ . ولكن بعض هذه الاجراءات قوبلت بمقاومة مستترة مع ذلك : فان كتب النصوص الإسلامية ظلت تدور في التداول ، وظل الأطفال يتلقون التعليم في المساجد ، واحتفظت طرق الدراويش الصوفية بشعائرها وممارساتها داخل البيوت الخاصة ، ولكن تنظيما للطلبة هو « تنظيم الشباب الاسلامي » قاوم الحملة الموجهة على الاسلام ، فسجن بعض أفرادها في ١٩٤٩ - ١٩٥٠ .

وعانى المجتمع الاسلامي بالفعل دمارا ماديا شديدا أثناء الحرب : فحسب التقديرات المحسوبة في جميع أجزاء يوغوسلافيا ، فان ٧٥٦ مسجدا دمرت أو حُرِبت تخريبا شديدا * وأعيد بناء كثير منها بالجهود المحلية الخاصة ، ولكن لما وافق ١٩٥٠ كان لا يزال هناك من المساجد غير المستخدمة مئة وتسعة وتسعون بالبوسنة ، كان بعضها لا يزال ينتظر إعادة البناء ، وحولت السلطات المحلية بعضها الآخر الى متاحف ، أو مخازن ومستودعات ، بل حتى الى اسطبلات * أما الهيئة التي كانت تدبر الاوقاف ، فقد وضعت في الواقع تحت سيطرة الدولة ، وصدرت اليها التعليمات أن تسلم كثيرا من ائمن ممتلكاتها وأعلاها قيمة (بما في ذلك أول مبنى مكاتب عصرى في سراييفو) الى السلطات المحلية . وحولت كنبر من الجبانات الإسلامية الى حدائق عامة أو الى متسعات من الأرض لبناء المصالح الحكومية والمساكن ، صحيح أن رئيس العلماء تشاوشيتش سبق أن اقترح أشياء من هذا القبيل قبل الحرب ، ولكن الشيء الذى لم يخطر بباله هو أن يتم ذلك بغير رضا المجتمع الاسلامي . كما أن الضربة النهائية التي أنزلت بالأوقاف التي صودرت أملاكها من قبل قطعة بعد قطعة بانزاع ملكية الأراضي الزراعية ، جاءت عند تأميم الممتلكات الايجارية في ١٩٥٨ مما قضى على المؤسسات الخيرية الكبرى التي أنشأها غازى خسروف بك في ١٥٣٠ وظلت من بعده تعمل ٤٠٠ عام (١١) .

على أن الظروف العادية العامة للحياة الدينية في يوغوسلافيا تحسنت بعد ١٩٥٤ ، عندما مرر قانون جديد يضمن حرية العبادة (مرة ثانية) ويضع الكنائس تحت سيطرة حكومية مباشرة * ووضع برنامج قوى لترميم الأديرة الأرثوذكسية منذ ١٩٥٦ فصاعدا ، وكان ذلك من ناحية جزئية لأغراض تتعلق بالسياحة ، ومن ناحية جزئية ثانية لأن العلاقة بين كبار رجال الدين الأرثوذكس والدولة كانت قد بدأت تكتسب

شيئا من الود (١٢) . وتحسنت معاملة العقيدة الاسلامية بوجه عام فى أخريات خمسينيات وستينيات الألف وتسعمئة ، وكان ذلك بسبب خاص جدا : اذ أصبح المجتمع اليوغوسلافى الاسلامى يستخدم أداة « لسياسة عدم الانحياز » الخارجية التى اختطها تيتو لنفسه .

وشأن كثير من الانجازات الواسعة الاعلام لتيتو ، كانت سياسة عدم الانحياز تلك سياسة عثر فيها تيتو بالصدفة تقريبا ، فبعد أن طرد (لدهشته) من الكومنفرم ، أصبح معتمدا اعتمادا شديدا على القروض والمعونات والمساندات الدبلوماسية الغربية ، بات بحاجة الى أيديولوجية يعلو بها فوق ذلك الموقف الشاذ الحرج حتى يبدو مستهدفا هدفا مقصودا أو نافعا ، ويمكنه فى نفس الوقت من أن يجد مبررا يقربه من الديمقراطية الغربية التى تحرجه مساعداتها ومعوناتهما . ووجد بغيته فى جولة قام بها فى اثيوبيا والهند ومصر فى ١٩٥٥ أثمرت عن تلك السياسة . وسرعان ما شرع بعد ذلك يلقي الخطب والبيانات التى تنعى على العالم انقسامه الى كتل ، وفى السنة التالية تابع اصدار بيانات حركة عدم الانحياز أثناء زيارة ليوغوسلافيا قام بها جمال عبد الناصر ونهرو (١٣) . وتم التعارف بين كل من جمال عبد الناصر وسوكرانو وبين رئيس العلماء عند زيارتهما لبلجراڤ فى ١٩٥٦ ، وبينما تلقت الهيئة الرسمية التى تمثل المسلمين اليوغوسلافيين ، وهى « المجتمع الدينى الاسلامى » ، التعليمات بمقاطعة المؤتمر الاسلامى العالمى الذى عقد فى كراتشى ١٩٥٢ ، فان أعضاءها ما لبثوا حتى أرسلوا سريعا فى جولات عامة حول العالم ، ليراهم مسلمو العالم الثالث والتجمعات غير المنحازة (١٤) . وسرعان ما أصبحت الخلفية الاسلامية تعتبر مزية ايجابية لآى انسان يأمل فى العمل فى مجال السلك الدبلوماسى اليوغوسلافى . وفى منتصف الستينات ، كان الدبلوماسيون المسلمون البوسنيون يمثلون يوغوسلافيا فى كثير من الدول العربية ، وفى أندونيسيا أيضا ، وكان من بينهم ابن لرئيس سابق للعلماء (١٥) . ورغم أنهم كانوا أعضاء فى الحزب الشيوعى وأنهم تخلوا الى حد كبير عن ديانتهم ، لكن أحدا لم يبال بذلك طالما كانت أسمائهم محمد وأحمد ومصطفى .

ولكن التساؤل ظل قائما حول ماهية الاسلام فى البوسنة ، هل هو هوية دينية أو عرقية أو قومية وذلك على الرغم من اعتقاد الحزب الشيوعى اليوغوسلافى فى سنوات تيتو الأولى أن هذه المسألة سوف تتوارى عن الأذهان . وكان الموقف الرسمى فى الأربعينات هو أن هذه المشكلة لا بد لها أن تحل نفسها بنفسها بالتدريج ، عندما تذوب هوية المسلمين فى هوية

الكروات أو الصرب . وفي أول مؤتمر للحزب بعد نهاية الحرب ، ذكر أن : « ليس بالامكان تقسيم البوسنة بين صربيا وكرواتيا ، وليس ذلك فقط لأن الصرب والكروات يعيشون مختلطين بعضهم ببعض في كل أرجاء المنطقة ، بل وأيضا لأن المنطقة يسكنها مسلمون لم يستقر رأيهم بعد على هويتهم القومية أو الوطنية » (١٦) . فأما ما كان يعنيه تعبيرهم : « يقررون هويتهم القومية » ، فهو أنهم « يقررون أياكون صربيين أم كرواتيين » . وكان أعضاء الحزب يتعرضون لشيء من الضغط ليقروا ويعلنوا أهم من أولئك أم من هؤلاء . وأن تحليلًا لموظفي الحزب من ذوى الأسماء الإسلامية في أول دليل عام للشخصيات في يوغوسلافيا ، ليوضح أن ١٧٪ أعلنوا أنفسهم كرواتا وأن ٦٧٪ صربا - وهى علامة تدل بين أشياء أخرى على الجهة التى كانت تهب منها الريح فى الحياة السياسية البوسنية فى ذلك الوقت . وفى تعداد ١٩٤٨ كان المسلمون مخيرين فيه بين خيارات ثلاثة : فكان فى امكانهم أن يسموا أنفسهم صربا مسلمين أو كرواتا مسلمين أو مسلمين غير معلى القومية « أى غير محددين » . وأدى ذلك الى اعطاء المسلمين البوسنيين فرصة يظهرون فيها كم هم غير راغبين أن يصبغوا بالصباغ الصربى (يتصربوا) أو بالصباغ الكرواتى (يتكرواتوا) : فعد اثنان وسبعون ألفا منهم أنفسهم من الصرب ، وعد خمسة وعشرون ألفا أنفسهم من الكروات ، ولكن ٧٧٨ ألفا سجلوا أنفسهم غير « معلنين » . وكانت نتيجة التعداد التالى فى ١٩٥٣ مماثلة لهذه . وهذه المرة ، كانت السياسة الرسمية تدعو لتطوير وتنمية الروح اليوغوسلافية : فازيل بند مسلم من التعداد ازالة تامة ، ولكن سمح للناس بأن يسجلوا أنفسهم بأنهم « يوغوسلاف غير معلى القومية » . والذى حدث فى البوسنة أن ٨٩١٨٠٠ فعلوا ذلك (١٧) .

ولم تبدأ السياسة الرسمية فى التغير الا فى الستينيات وليس واضحا على الاطلاق لماذا حدث هذا التغير . وفى السنوات الخمس عشرة الى العشرين الأولى بعد الحرب ، كانت المناصب الرسمية العليا فى البوسنة يسيطر عليها الصرب : وفى الأربعينيات كانت عضوية الحزب الشيوعى البوسنى تتألف من عشرين فى المئة من المسلمين ، وستين فى المئة من الصرب . وكانت سياسة حكومة الجمهورية البوسنية شديدة الخضوع لبلجراد ، مع جنوح الى معاملة الجمهورية كما لو كانت احدى مقاطعات صربيا الخارجية أو البعيدة . ولكن خلع ديورو بوكار (Djuro Pucar) الصربى من زعامة الحزب فى البوسنة فى ١٩٦٥ أدى الى اضعاف هذا النفوذ ، وعندما طرد الكسندر رانكوفيتش ، الرئيس الجبار لجهاز أمن تيتو ، من اللجنة المركزية اليوغوسلافية ، اتسمت سياسة التعامل

مع الشعوب اللأصربية بجميع أنحاء البلاد بشيء من اللين • ومع ذلك ، فان الانتقال الى الاعتراف بالبوسنيين المسلمين كأمة ، كان يمضى مى طريقه فعلا قبل أن تطرأ هذه الأحداث • ولعله نشأ عند اقتران عاملين مهمين : استقرار الرأى على نيل سياسة « التكامل اليوغوسلافى » ، وتدعيم الهويات الجمهورية بدلا من ذلك فى بواكب الستينيات وبروز نخبة من المسؤولين الشيوعيين المسلمين فى جهاز الحزب فى البوسنة وهو أمر كان قد ناخر كثيرا (١٨) •

وجاءت أول دلالات التغير فى تعداد ١٩٦١ ، حيث سمح للناس بتسمية أنفسهم « مسلمين بالمعنى العرقى » • ثم جاء دستور ١٩٦٣ ، فأشار بدرجة متعادلة فى ديباجته الى « الصرب والكروات والمسلمين » الذين كانت تجمعهم فى الماضى حياة مشتركة • ، وان لم يذكر صراحة ، أنهم سيعتبرون أمما متساوية (١٩) • واعتبرت هذه خطوة حاسمة ، ومنذ تلك اللحظة فصاعدا أصبح من الشائع المعلوم فى البوسنة ، معاملة المسلمين بأنهم تجمع قومى يتعادل تماما مع الآخرين ، وانعكاسا لهذا التغير ، اقتضت مستندات انتخابات الموظفين فى « رابطة البوسنة للشيوعيين » فى ١٩٦٥ على تسجيل أسماء الناخبين بوصف كون كل منهم اما « صربى » أو « كرواتى » أو « مسلم » (٢٠) • ومع هذا ، فان تسمية المسلمين بالتحديد أمة لم يتم اعلانه رسميا • كما أن عددا من الاكاديميين والموظفين (تحت القيادة الفكرية للبروفيسور محمد فليبيوفيتش (Muhemed Filipović) ، بمساعدة مجموعة من الموظفين الشيوعيين مثل عاطف بوريفاترا (Atif Purivatra) ، واصلوا الدعوة للتفريق بين كلمة المسلم كوصف لأحد أبناء الأمة الاسلامية والمسلم كأحد أبناء أتباع العقيدة الاسلامية • وقاوم هذا بعض أعضاء الحزب • مما أدى الى طرد البروفيسور فيليبيوفيتش من الحزب فى ١٩٦٧ • على أن الفوز التام ما لبث أن أتى فى النهاية فى اجتماع للجنة البوسنة المركزية فى مايو ١٩٦٨ ، حيث صدر عنها بيان يحتوى على النص التالى : « أظهرت الممارسة العملية أضرار مختلف أنواع الضغط •• من اليوم الذى كان فيه المسلمون يسجون فيه كرواتا أو صربا من وجهة النظر الوطنية • وأظهرت الأيام كما أكدت الممارسات الاشتراكية الحالية أن المسلمين أمة متميزة بنفسها » (٢١) • وعلى الرغم من الاعتراضات الشرسة الصادرة فى بلجراد من الشيوعيين القوميين الصربيين ، مثل دوبريكا تشوسيتش ، قبلت الحكومة المركزية تلك السياسة • وهكذا حدث فى نماذج لبدء الرأى فى تعداد ١٩٧١ أن ظهرت لأول مرة عبارة : « مسلم ، بمعنى أمة » (٢٢) •

وظهر مصدر آخر لمعارضة هذه السياسة هو هرم رياسات الحزب الشيوعي في مقدونيا . ذلك لأن المقدونيين أنفسهم لم يعترف بهم كأمة إلا مؤخرا جدا في ١٩٤٥ ، فلم ترقهم فكرة أن أقليتهم المسلمة السلافية الخاصة ، التي لها حجمها ووزنها الكبير ربما تنزع الآن الى الانسلاخ بطريقة مماثلة من القومية المقدونية (٢٣) . ولكن المقارنة باليوسنة تمكننا من أن نرى لماذا كانت السياسة البوسنية معقولة تماما ، وإن بدت في ظاهرها عجيبة . ففي حالة للمسلم السلافي المقدوني يكون من السهل الحديث عن الدين بوصفه قشرة ظاهرية ، يمكن أن نرى من خلالها الطبقة التحتية العرقية أو القومية السميكة . ولو أنك أزلت هذه القشرة لوجدت نفسك وجها لوجه أمام « سلافي » بحسبه مقدونيا قحا ، بمحك اللغة والتاريخ . ولكن الأمر يختلف في حالة البوسني المسلم : فماذا ينبغي للانسان أن يسمى تلك الطبقة التحتية العرقية ؟ انه يستطيع أن يسميها « سلافية » أو « بوسنية » ، ويسنطيع المرء أن يسميه أيضا « بالصربوكرواتي » ، لكن تسميته اما « بالصربي » أو « الكرواتي » تكون خطأ لسببين : أولهما أنه ليست هنالك أية هويات صربية أو كروانية متميزة في البوسنة في الفترة السابقة على نشر الاسلام ، ومن ثم فإن من الخطأ التحدث عن « صربي مسلم » ، لأن ذلك يوحي بأن أجداده كانوا من الصربيين قبل أن يكونوا مسلمين . أما السبب الثاني فهو أنه عندما شرع البوسنيون المسيحيون في مرحلة متأخرة جدا في اتخاذ هويتهم كصربيين أو كرواتيين ، لم يكونوا يفعلون ذلك الا على أساس دقيق من الدين فقط . (وهكذا حدث أن أحفاد وسلالة المستوطنين الكاثوليك المجريين أو الألمان الذين جاءوا الى البوسنة في الفترة النمساوية المجرية ، انتهوا الى تحديد هويتهم بأنهم « كروات » ، كما أن حفدة الفجر الأرثوذكس الرومانيين ، اختاروا « الهوية الصربية ») (٢٤) . وكما رأينا ، فإن الكثير من البوسنيين الأرثوذكس ربما كانوا ينحدرون من مهاجرين صربيين أو من أفلاق ، ولكن كان هناك عدد كبير من عمليات النزوح عن البلاد واليهما ، والتحول من دين الى دين ، بحيث انه ينذر من الأفراد من يستطيع أن يحدد بدقة أصله العرقي . ولقرون طويلة ظلت لغة الأرثوذكس والكاثوليك البوسنيين واحدة وكذلك تاريخهما والموطن الجغرافي لاقامتهما - وهو أمر معناه أن الطبقة التحتية التي تقع تحت هويتها الدينية الخاصة ، طبقة واحدة لا اختلاف بينها اطلاقا في النواحي الجوهرية .

على أن الانتقال والتحول المصطنع بمبارة أخرى ، كان هو التحول الذي أحدثه البوسنيون الارثوذكس أو الكاثوليك في أخريات القرن

التاسع عشر وبواكير القرن العشرين ، عندما شرعا يسميان أنفسهما بالاسم العرقى : « الصرب والكروات » ، وهو أمر كانت له مبرراته التاريخية كما رأينا . ولكنهما ما أن شرعا في تلك الحركة حتى أصبح من المحال على المسلمين أن يتخذوا السبيل المنطقي ، والذي كان يحتم عليهم أن يصفوا دينهم بأنه الاسلام ، والطبقة العرقية التحتية من كيانهم بالبوسنية اذ كان ذلك سيؤدى الى البدء فى استخدام كلمة « بوسنى » كمصطلح ثالث فى مقابل « صربى » و « كرواتى » - وهو شيء يماثل استعمال مصطلح « مسلم » كمصطلح ثالث ، وهو ما يؤدى أكثر للانقسام والفرقة ، وذلك لأنه يمكن على الأقل أن يشار الى الجماعات الثلاث بأنهم البوسنيون المسلمون والبوسنيون الصرب والبوسنيون الكروات .

ولم يكن الدافع الى المطالبة بالاعتراف بالبوسنيين كأمة لها كيانهما : فى أخريات الستينيات فصاعدا وبواكير السبعينيات ، حركة اسلامية . بل على النقيض من ذلك ، فانه كان على رأس قيادتها شيوعيون وغيرهم من المسلمين المتطبعين بالطابع العلماني ، الذين شاءوا للهوية الاسلامية فى البوسنة أن تتطور الى شيء بالتأكيد ليس دينيا . وفى أثناء تلك الفترة يمكن مشاهدة شيئين متميزين تماما فى البوسنة : هذه الحركة القومية الاسلامية العلمانية وحركة انتعاش للعقيدة الاسلامية (٢٥) . وان كانت كلتا الحركتين منفصلة عن الأخرى ، وكان خير تعبير عن الحركة الثانية فى الرسالة القصيرة التى كتبت (ولكنها لم تنشر) فى الستينيات ، مؤلفها هو على عزت بيجوفيتش (Alija Izetbegovic) المعنونة « الاعلان الاسلامي » (٢٦) . اذ أن الأفكار التى تحويها رسالة عزت بيجوفيتش (التى سنباقشها فى الفصل التالى) ، لم تكن متميزة الاختلاف عن حجج السياسيين مثل بيوريفاترا فحسب ، بل كانت مناقضة لهم مناقضة ايجابية : فلم تكن تدور حول مشكلات البوسنة ومسائلهما ، وانما تدور حول موقف الاسلام فى العالم أجمع ، وكتب عزت بيجوفيتش عن الوطني والقومية بأنها قوة تدعو الى الانقسام والشقاق ، وعن الشيوعية بأنها نظام غير واف . ولم يكن هذا الانتعاش الدينى المضاد للشيوعية الا ظاهرة صغيرة فى بداية الأمر ، وان كانت سياسة تيتو فى ميدان « عدم الانحياز » سهلت لهم أن يتصلوا ويحتكوا بالعالم الاسلامى على اتساع أرجائه ، الأمر الذى نشط بذلك دراسة الدين الاسلامى فى البوسنة . وسمح لعدد أكبر من البوسنيين بأن يدرسوا فى الجامعات الاسلامية العربية فى السبعينيات . وفى ١٩٧٧ بلغ الأمر أن أقيمت كلية للشريعة الاسلامية (يتمويل من المملكة العربية السعودية) بجامعة سراييفو (٢٧) .

ولكن مثل هذه التطورات كانت أبعد ما تكون عما كان يعمل عليه
 ويصبو إليه أرباب الدعوات القوية مثل بيوريفاترا . وكان أشد ما يشغل
 بالهم هو أن مسلمى البوسنة لا يحظون بالعهد الكافي من الممثلين لهم
 في الادارة الشيوعية للجمهورية ، وأن الجمهورية في مجملها كانت تعد
 أخفض الى حد ما في وضعها القانوني ، من جمهوريات يوغوسلافيا الأخرى .
 وقد جاءت هذه المعاملة الدنيا - على حد احساسهم - لأن البوسنة كانت
 ينظر اليها لا على أنها أمة واحدة ، بل قطعة من أمتين آخرين (هما الصرب
 والكروات) ، بالإضافة الى عنصر لا أسمى . وقد كان ذلك القول تحليلي:
 ينطوي على قدر عظيم من الصدق . فان البوسنة كانت تعامل معاملة
 أقل من وزنها في نظام الاتحاد الفيدرالي اليوغوسلافى ، وكان تطورها
 الاقتصادى يضى متثاقلا ومتأخرا تأخرا بعيدا . خلف تطورات جيرانها
 الأند قوة منها . ثم حدثت بها طفرة من التنمية استمرت فترة وجيزة بعد
 الانفصال عن الكومنفورم في ١٩٤٨ ، عندما عزم تيتو عزما أكيدا ، وقد
 شغل باله احتمال قيام السوفييت بغزو بلاده ، أن يضع مصانع الأسلحة
 والصناعات الأخرى ذات الأهمية الاستراتيجية في أجزاء البوسنة الوعرة
 انتى لا سبيل الى ولوجها . على أنه سرعان ما عدل عن هذا ، وترك
 البوسنة تعج بما وصفه أحد المحللين بأنه « مصانع جديدة (وغير مكتملة
 في غالب الأحيان) ، أسست في مناطق نائية رائعة الجمال لكنها بعيدة
 عن الأسواق والطرق واليد العاملة الماهرة » (٢٨) .

ولو قورنت البوسنة بما عليه حال الأجزاء الباقية من يوغوسلافيا
 من الركود والتدهور الاقتصادى ، لرأينا أنها عانت أثناء الخمسينيات
 والستينيات من الركود والتدهور الاقتصادى حتى انخفضت انتاجية
 الفرد من ٧٩٪ فى ١٩٥٣ الى ٧٥٪ فى ١٩٥٧ ، والى ٦٩٪ فى
 ١٩٦٥ . وفى ١٩٦١ اعتبر جزء كبير من مساحتها منطقة « نامية » أى دون
 درجة التطور الواجبة . وهى وحسبها دون سائر الجمهوريات
 اليوغوسلافية ، كانت تمتلك أقل نسبة من النمو الاقتصادى على طول المدة
 بأكملها من ١٩٥٢ الى ١٩٦٨ ، فأما دخل البوسنة الفومى الذى كان دون
 المعدل القومى العام بعشرين فى المئة فى ١٩٤٧ ، فقد هبط الى ٣٨٪ تحت
 المعدل عند حلول ١٩٦٧ (٢٩) . وتحديثا الاحصائيات الاجتماعية بقصة
 مماثلة تماما ، وتكشف عن مشاكل كانت من ناحية جزئية أعراضا
 « للتأخر » الاقتصادى ، كما أنها من ناحية جزئية أخرى تعد اسبابا له .
 ففي أوائل السبعينيات ، كان بالبوسنة أعلى نسبة لوفيات الأطفال ،
 فى يوغوسلافيا عدا كوسوفو ، وكانت بها أعلى درجات الأمية
 (فيما عدا كوسوفو للمرة الثانية) ، وأعلى نسبة للأشخاص الذين

لم يقضوا سوى ثلاث سنوات في التعليم الابتدائي (عدا كوسوفو أيضا) ، وأقل نسبة للناس الذين يعيشون في المدن (عدا كوسوفو) . وكان بها أيضا أقصى حد للهجرة الى باقي الجمهوريات اليوغوسلافية - بالتقريب ١٦ ألف انسان في كل سنة طوال الخمسينيات والستينيات . وكان معظم هؤلاء قوما صربيين نزحوا منها ليعيشوا في صربيا (٣٠) . ونتيجة لهذا أن غلب المسلمون على الصرب في البوسنة ، بوصفهم أكبر عنصر سكاني للسكان في منتصف الستينيات .

وكان تأسيس « وضع الأمة الاسلامية » في أواخر الستينيات لعب دورا ما في انعاش الكبرياء الجمهوري ، ساعد على تحويل مسار الاقتصاد البوسني . وأدت التغيرات الكثيرة في الدستور الفيدرالي أثناء تلك المدة بأكملها ، بدءا بالدستور الجديد لعام ١٩٦٣ ، وانتهاء بكتابة جديدة للدستور في ١٩٧٤ ، الى اعطاء اقتصاد البوسنة مجالا أوسع لمناخمة السير في سياسات التنمية التي أخذتها كل جمهورية على عاتقها . وأثناء السبعينيات أقامت السلطات البوسنية مشروعات صناعيا هامة ، وتمت ضواح من أبراج عالية المباني في مدنها الكبرى . حتى قال أحد من زاروها في ١٩٨٠ أن « سرايفو بدت كأنها هي مشروع ضخمة لاقامة المرافق العامة » وأعيد تشكيل نظام أنابيب الصرف والمياه واحتفرت الشوارع في أقسام المدن وأعيد اصلاحها . وانتزعت خطوط الترام ليحل محلها خطوط عرض ، وهكذا دواليك (٣١) . وكان السبب المباشر في كل هذه الأنشطة في العاصمة البوسنية ، هو أعدادها للالعاب الأولمبياد الشتوية التي أقيمت هناك في ١٩٨٤ . على أن هذا التطور الجديد كان مجرد مثال من عمليات التحديث التي جرى تنفيذها في كثير من أجزاء الجمهورية ، واعتمد في تمويلها أساسا على القروض .

ومن عجب أن ازالة المركزية من يوغوسلافيا التي بلغت أوجها في دستور ١٩٧٤ ، كانت مع ذلك تخلق مشاكل أكثر مما كانت تحل . وأن مبدأ انشاء الهويات المنفصلة القومية السياسية شحذ شهية أبناء القوميات المختلفة الى المزيد . ويرينا التاريخ بأوضح صورة أن النظم الفيدرالية أو الاتحادات التي تتكون من كيانات قومية مختلفة ، لا تستطيع أن تعمل بنجاح الا اذا أقيمت على نظام سياسي حقيقي الديمقراطية ، بيد أن ذلك لم يكن هو الحال السائد في يوغوسلافيا الشيوعية ، حيث كانت كل محاولة لتلمس قدرا أكبر من الاستقلال الذاتي القومي ملزمة أن تمتص كما يمتص ورق النشاف كل صنوف الاعتراض السياسي المرير ، الذي كان النظام السياسي بأكمله ينضج به . ومن السهل عليك أن تقنع أمة

بأنها تظلم وتضطهد أو تدبر لها المؤامرات من أمة أخرى ، بينما النظام الذى حاصر الأمتين كليهما كان نظاما غير ديمقراطى ولا عادل بأكمله ، وإنما هو ظلام بطبيعته • كما أن المسبب الطبيعي لكل أنواع التدهور إنما هو الاقتصاد الضعيف المختل - وهو شيء كان مضمونا تماما بظيل النظام اليوغوسلافى الشيوعى • على أن سوء الإدارة زاد سوء نتيجة التدابير اللامركزية التى طبقت فى الستينيات والسبعينيات ، وذلك نظرا لأنه كانت هناك ازدهارات زائفة عن الحاجة فى الصناعات ومشروعات البنية الأساسية بين الجمهوريات • وغنى عن البيان أن أسوأ أنواع المنافسة هو ذلك النوع الذى يحدث بين المصانع عندما يكون عملها معتمدا على القروض والدعم من السلطة السياسية ، مع عدم جعل المنافسة نفسها خاضعة للنظام الحقيقى للأسواق •

وظهرت بعض الفورات القومية الكبيرة التى عبرت عن امتعاضها من النظام القائم أثناء الفترة بين الستينيات وأواخر الثمانينيات ، وكان أهم هذه الحركات فى كرواتيا وصربيا • وفى الستينيات بدأ عدد من التنظيمات المختلفة يتجمع فى كرواتيا : ومنها شكاي من تطوير صوره جديدة رسمية للغة الصربو كروانية تتغلب فيها أشكال الكلمات الصربية ، ثم القبضة القوية التى كانت تقبض بها البنوك فى بلجراد على اقتصاد السياحة فى دالماسيا ، كما دارت الشكاوى أيضا حول مجال واسع من المسائل الاقتصادية والسكانية الأخرى (٣٢) • وهذه الحركة التى تدعو باستمرار للحفاظ على حقوق كرواتيا ، والتى أصبحت مرتبطة بحملة تطالب بتحرير أكبر للنظام السياسى اليوغوسلافى - وقد أصبحت معروفة فى الغرب باسم « الانتفاضة الكرواتية » - كانت فى جوهرها موجهة ضد الصربيين ، ولكنها ما لبثت حتى جعلت وليس المعركة الى صميم البوسنة أيضا •

وعندما حل عام ١٩٧١ نشرت صحيفة كرواتية تحليلا للهويات العرقية لجميع الموظفين الذين يعملون فى الإدارة البوسنية ، أظهر أن الكرواتيين كانوا لا يمثلون الا جزءا قليلا منهم • ومع أنهم كانوا يشكلون أكثر من عشرين فى المائة من السكان ، فإنهم لم يكونوا يصلون الا بشق الأنفس الى الأوساط والمستويات المهمة من المناصب ، مثل وظائف الإدارة العامة لراديو وتليفزيون سراييفو ، فكل رؤساء القضاة كانوا من الصرب ، ولم يكن أحد من الكروات يشغل وظيفة المدير فى أى من الوكالات الجمهورية (الهيئات السيادية) المتنوعة • وأجاب كبار السياسيين البوسنيين مثل حمدى بوزدراف بأنه ليس يفغى أن تهم الناس قومية

الموظف ، شريطة أن يعمل لمصلحة البوسنة بأكملها (٣٣) • ولكن المنافسة بين اهتمامات ومصالح القوميين الصرب والكروات حول البوسنة ، أصبحت من القوة بحيث لا تستطيع مثل هذه المجادلات أن تستبعدا • ولم يفت أحد الكتاب الصربيين. وهو يوزيب بوتكوزوراك أن يصدر كتابا في ١٩٦٩ يدفع بأن جميع سكان البوسنة قاطبة (وسكان دالماشيا أيضا) كانوا في الحقيقة صربيين • واستمرت هذه المجادلات في السبعينيات ، وشرع الكروات والصرب القوميون في التحدث علنا عن استقطاع أجزاء من الأراضي التي تسكنها العرقيات من البوسنة وضمها الى كرواتيا وصربيا على التعاقب (٣٤) • ولم تبد أية اشارة توضح أن سياسات السلطات البوسنية كانت مناوئة للكروات أو ضد الصرب أثناء تلك المدة ، ولكن تعاقبت على المسرح ظاهرتا الضغط الاحصائي من ناحية والتاريخ العرقي المزيف من الناحية الأخرى ، وكان الأثر الوحيد الذي أنتجته تلك المجادلات الاحصائية على الطريقة التي تدار بها الامور في البوسنة ، هو نشوء نظام حصص مرهق لتعيين الموظفين في الوظائف يكون تناسيبيا ، أو يكون على أساس « واحد من كل منهم » - وهو اسهام صغير اضافي للفوضى الاقتصادية والادارية •

ولكن قدر لنمو الوطنية الصربية في النهاية أن يكون له أثر مدمر • وفي ظاهر الامر ، لم تكن لصربيا الا أسباب للتذمر أقل عددا من أية جمهورية يوغوسلافية أخرى ، أثناء السنوات العشرين الأولى من الحكم الشيوعي • لقد أصبحت البلاد تحكم من بلجراد مرة أخرى • وكان الصربيون يهيمنون على الحزب والقوات المسلحة ، وكان يخامر الذين عاشوا الحرب احساس قوى بأن سجل صربيا أعلى معنويا من سجل كرواتيا • ولكن « تسوية ما بعد ١٩٤٥ » من جانب تيتو ، لم تعط صربيا مكاسب اقليمية • فحولت أرض مقدونيا اليوغوسلافية بكامل أرجائها الى جمهورية منفصلة ، ومع أن سكانها كانوا غير صربيين ، لكن الجيوش الصربية كانت قد غزتها في حرب ١٩١٢ - ١٩١٣ ، وأدمجتها بالمملكة الصربية تحت اسم مصطنع هو « صربيا الجنوبية » • ومن ثم فإن التغيير الذي حدث في ١٩٤٥ كان يراه الصربيون الوطنيون نوعا من السرقة للأراضي الصربية • أما المنطقة الشمالية من فويفودينا ، حيث كان عدد الصربيين يقل عن ٥٠٪ من السكان ، فانها أصبحت جزءا من المملكة اليوغوسلافية في ١٩١٨ ، ولكن تيتو منحها وضع « ولاية ذات استقلال ذاتي » داخل صربيا • وكان هذا عند بعض الصربيين يعد عملا معاديا للصربية ، وإن لم يحدث قط أن فويفودينا كانت في أي يوم جزءا من صربيا نفسها • كما أن منطقة كوسوفو ، التي تسكنها أغلبية البانية •

وهي أيضا منطقة فتحتها الصربيون في ١٩١٢ - ١٩١٣ ، اعتبرت مستقلة استقلالا ذاتيا ، من صربيا . ان هذه التغيرات ألهمت بالضغينة صدور كثير من الصربيين ، وجعلتهم يستهينون بذلك الكسب الاقليمي الذي أحرزته صربيا عندما أعطاهما تيتو منطقة سترم وهي الحافة الشرقية الضخمة للأراضي الكرواتية . (ولم يحدث تيتو أى تغيير على الاطلاق في النختم التاريخي الذي يفصل بين صربيا والبوسنة ، الذي ظل ثابتا كما هو في أخريات الحكم العثماني والفترة النمساوية المجرية) .

كانت جميع الأحوال ملائمة لتوليد نظرية تآمرية تزعم أن نيتو نصف السلوفايني قد تآمر على صالح صربيا التاريخي . كما أن ذلك الشعور لم يبرح يزداد نموا في الستينيات وبواكير السبعينيات . وذلك بينما تتابع التغيرات الكثيرة في الدستور ، وكانت تمنح مقادير أكثر فأكثر من الاستقلال الذاتي الإداري لفريغودينا وكوسوفو ، حتى وصل الأمر في دستور ١٩٧٤ ، أن أصبحنا تملكان بعض - وان لم يكن كل - سلطات الجمهوريات الكاملة السيادة ، بما في ذلك تمثيلهما في الهيئات الفيدرالية الرئيسية . وبعد سقوط رئيس إدارة الأمن ، ألكسندر رانكوفيتش ، والذي حكم كوسوفو بقضيب من حديد ، ومستعينا بعدد ضخم من الموظفين الصربيين ، تغير الموقف هناك تغيرا درميا . فأولا حدثت انتكاسة الى الخلف اذ انقض الألبانيون المحليون على الصرب المحليين أيضا مع حركات شغب مضادة للصربيين في ١٩٦٨ ، وأعمال عنف موجهة ضدهم ثم حدثت بعد ذلك حركة سريعة ترمى الى اصفاء الطابع الألباني على كوسوفو ، مما أقلق صرب كوسوفو بشأن وضعهم كأقلية صغيرة بين سكان الاقليم . وهنا غادر آلاف من الصربيين الولاية الى صربيا نفسها ، وكان بعضهم يفر فرارا لشعوره بأنه يطارد ويهدد ، ولكن الكثير منهم كانوا يتطلعون الى الحصول على عمل أو قل انهم كانوا يشاركون في ذلك الشعور العام الذي دفع أبناء الأقليات الى النزوح الى مراكز قوميتهم الأساسية . وهي الحركة التي رأينا أنها أثرت أيضا في الصرب البوسنيين كذلك أثناء تلك المدة نفسها (٣٥) .

والموقف في كوسوفو الذي بلغ من شأنه في أوليات الثمانينيات أن أصبح أزمة مستحكمة واحتلالا عسكريا ، بات بيت القصيد والبهرة الأساسية وانتعاش الوطنية الصربية . ومنذ زمن مبكر هو ١٩٦٨ ، كان الشيوعيون الوطنيون من الصرب مثل دوبريكا تشوشيتش يظهرون الشكوى من انقلاب السياسة في كوسوفو بعد سقوط رانكوفيتش . « كان المرء يستطيع أن يرى الهدف التاريخي القديم ، والفكرة القومية -

فكرة توحيد الشعب الصربي في دولة واحدة - يتأججان من جديد في نفوس الصربيين » ، هذا ما قاله ذلك الرجل (٣٦) . وهذا القول الذي قيل بلغة التحذير ولكنه صدر بروح التهديد ، تسبب في طرد تشوشيتش من اللجنة المركزية . وكان تشوشيتش يعارض أيضا كل اتجاه لمنح الوضع القومى لمسلمى البوسنة وان لم يكن ذلك شيئا جئاء من قبيل الاتفاق المتزامن . وذلك لأن الألبانيين في كوسوفو كانوا في أغلبهم من المسلمين مما جعل الشعور المضاد للإسلام ظاهرة للنزعة القومية الصربية . ولم يكن ذلك بالشئ الجديد ، فانه طالما كان جزءا من الثقافة الأدبية الصربية ، ولكن يتم التعبير عنه الآن بقوة أكثر كثيرا ، كما حدث في تلك الرواية الشرسة التعصب ضد الإسلام المعنونة « السكين » ، التي نشرها القومى الراديكالى فوك درااشكوفيتش (Vuk Drasković) في أوليات الثمانينيات (٣٧) . ولم تشأ الكنيسة الأرثوذكسية الصربية هي الأخرى أن تفوت فرصة أحياء الاحساس بالهوية الدينية ، في ثقافة البلاد الأدبية والسياسية ، وهناك أيضا ادعاءات أتملك الصربية المتهوسة حول كوسوفو ، فانها في الواقع كانت تقوم على وجود بعض أقدم الأديرة الأرثوذكسية الصربية ومباني الكنائس ، بما في ذلك البطريركية نفسها ، في ذلك الاقليم .

وأكب انتعاش الأرثوذكسية أيضا ، انتعاش بالاهتمام بموضوع التشييتينيك المحظور أثناء الحرب العالمية الثانية . وفي الحقيقة كانت سياسة الشيوعيين هي حظر كل ما هو تشييتينيكى بدون تمييز ولا تحليل بسبب تواطؤ التشييتينيك مع الفاشية ، ولذا جاء رد فعل الوطنية الصربية ، متعاطفا معهم ضد هذا النظام . وأصدر دوبريكا تشوشيتش رواية قصصية في ١٩٨٥ بطلها أيديولوجى ومنظر تشييتينيكى ، وفي السنة نفسها ظهر كتاب حول التشييتينيك للمؤرخ فازيلين جوريتيتش في حفلة أقامتها أكاديمية العلوم الصربية . وكانت هذه الحادثة نقطة تحول مهمة ، ومؤشرا على أن القومية الوطنية الصربية أصبحت أمرا مقبولا لدى المؤسسة الفكرية في بلجراد . وفي يناير من السنة التالية ، وقع ميثاق من أبرز الأكاديميين والكتاب في بلجراد ، على التماس أشار بعبارات هستيرية الى « العدوان الألبانى » . والى « التطهير العرقى » بمقاطعة كوسوفو . فكان جميع أنواع الاستياء الصربي قد ظهرت الآن على السطح : وشكا ذلك الألتماس من « أن هناك محاكمة سياسية شائكة للأمة الصربية وتاريخها ، ظلت مستمرة عقودا متتالية من الزمان » (٣٨) .

وفيما بعد في ١٩٨٦ ، سطرت مذكرة في الأكاديمية الصربية للعلوم (أو على الأقل على يد لجنة عينتها تلك الأكاديمية معلوم أن تشوشيتش

كان بين أعضائها) ، اجتمعت فيها الشكوى من كوسوفو إلى الاتهام الصريح لتيتو بأن سياسته كانت تهدف إلى إضعاف صربيا . وقد شكت تلك المذكرة من أن : « القومية الوطنية إنما خلقت من أعلى » . وبطبيعة الحال ، لم تكن هذه الكلمة إشارة إلى الوطنية الصربية ، التي جاهد هؤلاء المكاتب لخلقها من وجهة نظرهم ومصالحهم الخاصة ، وإنما إلى الهويات الوطنية للكروات والسلوفين والمقدونيين ومواطني الجبل الأسود والمسلمين البوسنيين . وادعت المذكرة أيضا أن مخطط استيعاب القوميات كان يجهز في كرواتيا ، ويهدف إلى تحويل من بها من الصرب إلى كروات . وكذلك شكت أيضا من أن الكتاب الصرب العرقيين الذين يعيشون في أماكن مثل الجبل الأسود ، كانوا يوصفون بأنهم يكتبون لا أدبا صربيا ، بل أدب « جبل أسودى أو بوسنى » بدلا من ذلك . وكانت نقطة الجدن الأساسية في المذكرة هي أن « الشعب الصربي » بكل أرجاء يوغوسلافيا ، كان نوعا من الكيان الابتدائي ، يمتلك مجموعة توحيدية من الحقوق والمساواة التي تعلو على أى أقسام سياسية أو جغرافية بحتة : « أن مسألة تكامل الشعب الصربي وثقافته بكل أرجاء يوغوسلافيا تفرض نفسها كموضوع حاسم بالنسبة لبقاء ذلك الشعب وتطوره » (٣٩) . ومن أسف أن السعي لتحقيق ذلك « التكامل » هو الذى أدى فى النهاية إلى تدمير يوغوسلافيا وانزال الخراب بالبويسنة أيضا .

ومع انتشار هذا الرأى فى صربيا فى السبعينات والثمانينات ، كانت هناك حساسيات متزايدة فى صدور السلطات فى البويسنة لزاما أى تعبير عن احياء النزعة الاسلامية الذى ربما ينطوى على معان سياسية . ولا ننكر القول بأن الحكومة البوسنية الجمهورية لم تكن تعمل مسترشدة بالروح الجديدة « للوطنية الصربية » المضادة للمسلمين . وإنما هي كانت على العكس من ذلك تحاول أن تحتفظ بالسياسة الشيوعية الرسمية التى تهدف الى اذابة وازالة أى عنصر دينى فى الهوية الوطنية القومية فى خاتمة المطاف . وعن ثم فانها كانت تنزعج لاية دلالة على وجود نشاط سياسى نابع من بواعث دينية بين المسلمين بنفس الشدة التى انزعجت بها من الحلف الجديد الناشئ بين النزعة القومية والأرثوذكسية المنتشرة بين الصرب ، كما أمكنها أن تدرك أن أى نمو فى الأولى سيمد الثانية بالزاد والذخيرة . وأخذ أعضاء الهيئة الدينية الاسلامية فى البويسنة يعبرون بصراحة أكثر عن انتقاداتهم للنظام الشيوعى ، وترددت الشائعات والإقاصيص بعد الثورة الايرانية فى ١٩٧٩ بأن صورا لاية الله الخمينى قد شوهدت معلقة بالنوافذ البوسنية ، وهو أمر سبب للسلطات شيئا آخر من الانزعاج . ومع أنه كان لسياسة عدم الانحياز القديمة دور كبير فى

رفع الاسلام من مهاوى الركود والفتور في البوسنة وزادت من اتصالها بسائر أجزاء العالم الاسلامي ، فان السلطات قررت الآن أن تعمل ضد حدوث أي نمو جديد في شعبية العقيدة الاسلامية . وفي ١٩٧٩ تلقى شيوعي مسلم هو درويش شوشيتش شيئا من التشجيع على أن ينشر في صحيفة سرايفو « أوسلوبوديني » سلسلة من المقطعات من كتاب له كان يكتبه ، وكان يعرض (بتشديد وكسر الرءاء) بتعاون كبار الأعضاء من رجال الدين المسلمين مع الأوستاشا ومع الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما هوجم شوشيتش لذلك في الصحيفة الناطقة بلسان الجماعة الاسلامية رسميا وهي « بريبورودPreporod » ، دافع عنه علنا أحد كبار الرجال المعبرين عن السياسة الرسمية في الدين ، وهو البروفيسور فؤاد ميهيتش ، أحد أساتذة جامعة سرايفو . وما لبث أن نزل الحومة رجل من إقطاب الشيوعيين المسلمين ، وهو حمدي بوزدراك ، الذي انتقد علانية ما أسماه بنزعة الجامعة الاسلامية (٤٠) .

وفي اطار هذه الخلفية ، جرت أحداث أشهر انقضاضة على النشاط المسلمين في البوسنة حيث قدم للمحاكمة في سرايفو في ١٩٨٣ ثلاثة عشر رجلا اتهموا بأنهم « قاموا بأعمال معادية ومضادة للثورة نابعة من القومية الاسلامية » . وكان على رأس المتهمين الدكتور على عزت بيجوفيتش ، وهو محام ومدير متقاعد لشركة مبان ، وكان قد أتم كتابه « الاعلان الاسلامي » قبل ذلك بثلاثة عشر عاما . وكان هو وثلاثة من المتهمين أعضاء في « منظمة شباب المسلمين » ، التي كانت تعارض الهجوم الشيوعي على الاسلام في نهاية الحرب العالمية الثانية . ووجهت تلك التهمة اليهم أيضا حيث ، اتهموا باحياء أهداف منظمة « اهابية » . واتهم عزت بيجوفيتش أيضا بأنه كان يدعو الى ادخال الديمقراطية البرلمانية على الأسلوب الغربي الى البلاد . وكان أهم دليل اتهم قدم ضدهم هو « الاعلان الاسلامي » الذي كان حسب منطوق صحيفة الاتهام اعلانا بإنشاء دولة بوسنية اسلامية نقية العنصر صافية العرقية . ولكن عزت بيجوفيتش أوضح أن الاعلان لم يكن يحتوي على أي شيء يتحدث عن تظهير البوسنة عرقيا ، وأنه في الحقيقة لم يكن يحتوي على أية إشارة الى البوسنة على الاطلاق : ولكن هذه التفاصيل وأمثالها لم توقف المحكمة التي حكمت عليه بالسجن أربعة عشر عاما ، خفضت بناء على التماس قدم منه الى أحد عشر عاما (٤١) .

وكان لهذه المحاكمة أثرها السيء في بث الخوف في جميع الانشطة الاسلامية الدينية بأرض البوسنة ، كما أنها قوت الى حين مركز كبار الشيوعيين من المسلمين مثل حمدي بوزدراك الذي كان في الامكان أن يتقبل

ويقتنع بفكرة الهوية الاسلامية الوطنية ، ما دامت ستظل في جوهرها علمانية . لكن لم يمض وقت طويل حتى قوض أيضا هذا الشكل من السياسة الاسلامية بفعل فضيحة مالية صارخة تسببت في سقوط بوزدراك . وكانت الفضيحة تدور حول مشروع في الركن الشمالى الغربى للبوسنة يسمى « أجروكومرك » ، بدأ كمشروع مزرعة دواجن فى الستينيات ثم أخذ ينمو فى ظل مديرها ذى الموهبة القيادية فيكرت أبديتش

(Fikret Abdic) ، بلغ من عظم نموها أنه عندما وافت سنة ١٩٨٧ كانت تستخدم ثلاثة عشر ألف عامل وموظف فى المنطقة ، وكانت واحدة من أكبر المشروعات الاستثمارية الثلاثين فى يوغوسلافيا كلها . وكان السر وراء نموها أنها أصدرت أوراقا تعهدية مالية ذات فوائد عالية النسبة دون أن يساندها رأس مال ضامن ، وذلك شئ كان ممكنا آنذاك ما دامت الأوراق مبهورة ومظهرة بالخاتم الرسمى للبنك المحلى . (وواضح أن الخاتم قد سلم الى شركة أجروكومرك بدلا من الاضطرار الى أخذ الأوراق الى البنك) . ولم تكن هذه القصة بالشئ العجيب أو الغريب فى يوغوسلافيا ؛ ولكن الشئ الوحيد الغريب هو مجرد حجم العملية كلها ، حيث بلغت قيمة هذه الأوراق التعهدية خمسمئة مليون دولار . والأمر كما عبر مصرفى كبير القدر من بلجراد : « أن جميع أقطاب رجال البنوك والسياسيين لابد أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن مشروع الأجروكومرك كان يسحب على المكشوف . وكان ما فعله أبديتش يتم فى كل مكان ، وكانت غلطته الوحيدة هو أن فعل ذلك بدرجة مفرطة » . وبالمثل كان كل انسان يعرف أن كبار مسئولى الحكومة البوسنية كانوا على صلة بذلك المشروع بما فى ذلك بوزدراك الذى كان أخوه حقى مستشارا لمشروع الأجروكومرك . أما أبديتش نفسه فكان عضوا فى اللجنة المركزية البوسنية ، ولكنه الآن فصل . وكان بوزدراك يشغل منصبا أكثر هيبة ومقاما ، وهو منصب نائب رئيس يوغوسلافيا ، على أنه استقال فى نهاية الأمر ، رغم أنه ظل يؤكد براءته (٤٢) .

مع هذا ظل أبديتش شخصية محبوبة من المسلمين العاديين الى أقصى حد ، حيث شعروا أنه بذل جهودا عظيمة فى جذب المشروعات وتحقيق الرفاهية والرغد فى البوسنة . وكان كبير من الناس على اقتناع بأن المسألة كلها انما دبرتها بلجراد كوسيلة للقضاء على أبرز رجال السياسة المسلمين . وكان أوزدراك نفسه يعد فى طليعة المرشحين لرئاسة يوغوسلافيا ، وكان كذلك رئيسا باللجنة الدستورية التى كانت تعيد مراجعة جديدة للدستور ، الذى كانوا يعتقدون فى بلجراد أنه سيكون « مناهضا لصربيا » فيما سياتى به من تغيرات . ومن المؤكد أن الذى حمل

برزدراك على الاستقالة هو الضغط الذى أنزلته الصحافة ، وبخاصة صحيفة البوربا (Borba) . وكانت نتائج ذلك الأمر مدمرة رهيبة العاقبة على اقتصاد الشطر الشمالى الغربى من البوسنة ، بما حوى من أغلبية مسلمة كبيرة .

وهذه القصة بحذافيرها ترمز بطريقتين الى التوتر والانزعاج الذى نكبت به البوسنة ويوغوسلافيا قاطبة عند منتصف الثمانينيات . فأولا كان هناك الانهيار التام للنظام الاقتصادى المتهالك الذى لم يستطع العيش على الأموال المقترضة ، حيث ملأ البلاد بالمصانع المهولة الجبارة التى كان لا مفر من أن تعمل بالخسارة حتى مع عدم سداد الفوائد على القروض التى مولت اقامتها . مثال ذلك أنه قد أقيم في زفورنيك بالبوسنة الشرقية أعظم مصنع للألومينيوم فى أوربا ، وهو يستخدم أربعة آلاف عامل . وهو مصنع بنى هناك ومول بالقروض الأجنبية ، للاستفادة فيه من خام البوكسيت المحلى ، وما كادت آلات المصانع تصل حتى اكتشف المديرون أن خام البوكسيت المحلى لم يكن على درجة عالية من الجودة ، وعند حلول عام ١٩٨٧ أصبحوا مضطرين الى أن يستوردوا خام البوكسيت من أفريقيا بدلا من الخام المحلى (٤٣) . ولا يخفى أن نظام تيتو الاقتصادى الذى وصف أدق وصف بأنه « الإدارة الذاتية السيئة » - كان فى حالة من الاضمحلال المطلق ، مع هبوط انحدارى شديد وثابت فى الأجور الحقيقية ، وارتفاع فى نسبة غياب العاملين واضراباتهم . وعندما عين الزعيم البوسنى الكرواتى برانكو ميكوليتش ، رئيسا للوزراء للحكومة الفيدرالية فى ١٩٨٦ ، وعد بأن ينجز اصلاحات بعيدة المدى ، وأن تخفض درجة التضخم الى عشرين فى المئة . وأدخلت بعض اجراءات التقشف ، فأدى ذلك الى كراهية الشعب للحكومة بوجه عام ، ومعها النظام الفيدرالى كله ، بيد أن اصلاحات العظمى فى البنية الأساسية لم تتحقق أبدا ، وبدلا من ذلك قضت الحكومة شهورا طويلة فى البت فى أمور مثل : امكانية رفع عدد العمال المستخدمين فى المشروعات الخاصة الى عشرة عمال لكل مشروع . وفى نفس الحين ارتفع التضخم الى ١٢٠٪ فى ١٩٨٧ ، وإلى ٢٥٠٪ فى ١٩٨٨ . وعند نهاية تلك السنة بلغ دين يوغوسلافيا الأجنبى الكلى ٣٣ بليون دولار ، منها ٢٠ بليون قد وجب سدادها الى دول الغرب بالعملة الأجنبية . وعلى هذا النحو أصبح التراث الطويل الأجل لسياسات نبشوا الاقتصادية هو زيادة أعداد الفقراء والساخطين وبذلك تهيأ خير جو لعمل الديماغوجيين الذين كانوا يستغلون هذا الاستياء لصالحهم .

والطريقة الثانية التي كانت ترمز بها مسألة شركة الأجروكومرك الى نظام نيتو السياسى كله ، تجلت فيما كشفه من أمر طبقة كبار المسؤولين الشيوعيين . اذ مضت عقود عديدة من السنين ومعظم البلاد تحكمه أسس محلية متوارنة وهى عائلات من السياسيين جمعت فى أثناء الحرب ثروات ميسرة ، وظلت تتلقى الرفعة والرقى من زمن مبكر وتصل الى مناصب تستطيع منها أن تطور شبكة قوية من الرعايات الشخصية لكل من حولها . فأما الذين حاربوا مع رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) ، فكان فى امكانهم أن ينوقعوا المشاركة فى ثمار مكاسب القوة والسلطة مع تبنو ، طوال المدة الباقية من حبانهم . وقد عبرت احدى النكات اليوغوسلافية عن تلك المسألة على الوجه التالى : « ما الفرق بين يوغوسلافيا والولايات المتحدة ؟ » ، الاجابة : « أنت فى الولايات المتحدة تشغل أربعين عاما ثم تصبح رئيسا أربعة أعوام ، أما فى يوغوسلافيا فانك تحارب أربع سنوات ثم تظل رئيسا لمدة أربعين عاما » . كانت أسرة بوزرداك أبرز منل على ذلك فى البوسنة : وذلك نظرا لأن أكبر الأخوة « نورى » انضم الى تيتو فى ١٩٤١ وعندئذ ضمن المستقبل السياسى للعائلة بأسرها . كما أن الزعيم السياسى الصربى الأقدر فى أثناء السبعينيات والتمانينيات ، وهو ميلانكو رينوفيتسا ، كان هو الآخر يناجر بسجله التاريخى أثناء الحرب ، لأنه كان أحد القلة من الصربيين الموالين لرجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) فى منطقة يغلب عليها طابع الميل الى التشيتميك .

كان هذا النظام يعمل كأنما هو فطاع متراكب من الدوقيات القروسطية ، وبين راحته شبك متدلية من النفوذ والسلطان يشمل بها هؤلاء الأفراد المتميزين بالرضا والقبول أثناء جميع أدوار حياتهم ، شأن أى نظام آخر من الرعاية ، كان هذا النظام يستطبع أن يمنح المساعدة والرفعة والترقية لمن يستحقون ذلك من الأفراد ، ولكن النظام بأكمله كان فاسدا . كما أنه كان يدفع بالبلاد الى الركود ، وذلك نظرا لأن الجين الذى خاض القتال فى الحرب قد تخطى سنن المعاش والتقاعد . وبرز جيل جديد شق طريقه الى أعلى فى ذلك الهرم الأشم ، وأخذ يناور لبلوغ السلطة والقوة ، وهنا سمهل عليهم الركود والاسن السياسى العام والاضمحلال الاقتصادى أن يلتمسوا الأوناش التى يستطيعون بها ازالة من يقفون فوقهم فى الطريق . وكان الاحساس بخيبة الأمل عند اليوغوسلافيين العاديين عاما وسائعا بين الناس جميعا . وكان هذا عند الكثير منهم يتخذ شكل الانسحاب من كل نوع من أنواع الحياة السياسية . وفى مؤتمر ١٩٨٧ لعصبة البوسنيين الشيوعية ، برزت الشكوى من النظام ، وكان هناك « جنوح متزايد من الشباب الى اظهار السابية ، وعدم المبالاة

والحياد اظهارا وعكسا لعدم رضائهم عن الأحوال الجارية « (٤٥) .
ومع انهيار الاقتصاد ظهرت انفعالات أو عواطف أخرى فى مناطق مختلفة
من البوسنة .

وفى يوليو ١٩٨٨ ، بظاهر الآلاف من عمال المصانع فى بلجراد ،
احتجاجا على اجراءات حكومة ميكوليتش النقشفية . وحدثت بعد ذلك فى
أثناء الصيف مظاهرات ضخمة جدا احتجاجا على كبار رجال الحزب المحليين
فى فويفودينا والجبل الأسود ، حتى انتهى الأمر فى النهاية الى استقالته
المكاتب السياسية بأكملها بكل من الاقليمين فى أكتوبر ١٩٨٨ و ١٩٨٩
على التعاقب . والذى دبر هذا الضغط الشعبى وأحكم تنظيمه هو الزعيم
الجديد للشيوعيين الصربيين ، سلوبودان ميلوشيفيتش ، الذى تمكن
آنئذ من تعيين أعوانه فى المكاتب السياسية . والذى فعله ميلوشيفيتش
هو أنه استغل التذمر الحقيقى الذى كان يملأ نفوس الناس العاديين من
أبناء فويفودينا والجبل الأسود - الذى تولد من خيبة الأمل فى النظام
الشيوعى بأكمله - واستخدمه لمنافعه الخاصة . وكان فى الحين نفسه
يضغط ضغطا شديدا على المسئولين الشيوعيين فى كوسوفو ، بقصد
تحويلهم من المعارضة الى التبعية له ، والواقع أن مقاومة الألبان المحليين
لذلك الضغط الصادر من بلجراد سهل عليه أن يصور العمليات فى
صورة معان وطنية وقومية ، فزعم بأنها دفاع عن المصالح القومية الصربية
ضد الألبانيين المتقلبين الغادرين . وفى مارس ١٩٨٩ ، أقرت الجمعية
الصربية ، بناء على طلبه ، تعديلات دستورية ألغت الاستقلال الذاتى لكل
من كوسوفو وفويفودينا : وأثار هذا التصرف مظاهرات حاشدة واضراب
عاما فى كوسوفو ، فأخمدتها قوات الأمن الصربية (٤٦) . والآن أصبحت
جميع أجزاء لعبة الألغاز فى مكانها الصحيح . وقد حل فى بلجراد سياسى
طموح تعلم طرائق سياسات القوة وسبق طريقه الى أعلى فى جسم النظام
كله ، وكان هناك بالفعل شعور عام بالغلق والاستياء والتذمر ، جعل
الناس يحنون حيننا شديدا الى قيادة حاسمة ، كما أن أيديولوجية القومية
الصربية ، التى طالبت بها خيبة الأمل والاحباط ، أخذت تجد لها الآن تعبيرا
عنها فى سياسة « أرجعت » فويفودينا وكوسوفو الى السيطرة الصربية .
وبدا الأمر كأن هناك طريقتين قد صهرتا احدهما فى الأخرى فأصبحتا
شبهتا واحدا : جمع الساطة كلها فى يدي ميلوشيفيتش ، وتجميع
الصربيين فى وحدة سياسية واحدة تستطيع اما أن تتسلط وتسيطر على
يوغوسلافيا أو تمزقها اربا .

الفصل الخامس عشر

البوسنة ومنية يوغوسلافيا

١٩٨٨ - ١٩٩٢

فى اليوم النامن والعشرين من يوليو ١٩٨٩ اجتمعت عدة مئات الألوف من الصربيين بموقع معركة جازيمستان خارج مدينة برشتينا عاصمة كوسوفو للاحتفال بالعيد الستمئة لمعركة كوسوفو (١) . وقبل ذلك بعدة أسابيع جرت عملية لاستنارة الشعور القومى فى صربيا ، فاستخرجت عظام الأمير لازار الذى لقي مصرعه فى المعركة ، وداروا بها دورة كاملة بكل أرجاء البلاد ، حيث أصبحت محجا للناس جميعا حينما كانت . وفى حوش دير جراتشانيكا (جنوب برشتينا) ، بينما كان الناس يحتشدون لتقديم ولائهم وحبهم لعظام الأمير فى الداخل ، كانت الأكشاك تبيع اقونات الصور ليسوع المسيح والأمير لازار وسلوبودان ميلوشيفيتش ، وفى الاحتفال الذى أقيم بموقع المعركة اصطحب ميلوشيفيتش معه مطارئة من الكنيسة الأرثوذكسية فى مسحهم السوداء ، ومغنين يرتدون الملابس الشعبية الصربية التقليدية ، وأفراد من شرطة الأمن فى ملابسهم التقليدية وهو البدلة السوداء والنظارات الشمسية ، وصاح ميلوشيفيتش وهو يخطب فى جماهيره : « اليوم وبعد قرون ستة عدنا ثانية ننسعل بلشاجرات ، ورغم أنها ليست معارك مسلحة لكننا لانستطيع أن نتجنب ذلك حتى الآن » (٢) . وزار الجمهور كله بالاستحسان والموافقة .

ولم يكن ذلك الا نقطة تحول رمزية فى تاريخ البلاد اليوغوسلافية . فقد حقق ميلوشيفيتش الآن الشئ الكثير مما أراد . وقد حصل على مكانة بلاد الصرب لا سبيل الى تعديها ، مكانة شخصية عن طريق خليط من الشيوعية والبلاغة القومية الوطنية ، ولذلك أصبح الآن يسيطر على الحكومة الفيدرالية على أربعة أصوات من ثمانية : هى صربيا وفويغودينا وكوسوفو والجبل الأسود . ولم يبق عليه الا أن ينزل مقدونيا الى مستوى

التبعية ، لكي ينسر له أن يفعل ما ينشاء مع الحكومة الفيدرالية ، وعندئذ يمكن إعادة كتابة الدستور الفيدرالي ، لكي يتبت دعائم هيمنة الصرب وسيطرتهم .

ومع هذا ، فإن نفس العملية التي اجتذبت إلى هذه النقطة جعلت من غير المحتمل أن أجزاء يوغوسلافيا التي لم يتمكن من السيطرة عليها - سنخضع أبدا لمثل هذه إعادة التنظيمية . فالاحساس القومي الكرواتي الذي كان يغلي بسموم التمر منذ القضاء على الانتفاضة الكرواتية في أوليات السبعينيات لدخول لدغة دفعته إلى الحركة والفعل إزاء انعاش تلك انعمية الصربية في منتصف الثمانينات . فان ميلوشيفيتش لم يقتصر فقط على إنهاء ذلك الحظر المفروض على أشكال معينة من الانتماءات الموجهة للكروات ، بل أنه شجعها تشجيعا ايجابيا بحيث أن الاعلام الصربي الرسمي أصبح الآن على العموم يشير إلى زعيم النشويين الكروات ايفيكا رانسان على أنه « أوستاشا » أي من الحركة الوطنية الارهابية المتطرفة للكروات (٣) . ومن ثم عادت جميع المواجهات الكرواتية القديمة فطفت إلى السطح ثانية ، وفي هذا الجو الجديد الذي تحطمت فيه المحرمات حول الحرب العالمية الثانية ، سرع الكثيرون يحسون بالنفور من الربط الأوتوماتيكي للكروات بالأوستاشا ، وتلك الكتابات التاريخية الرسمية التي بالغت بسذاجة في الأعداد الكلية لمقاتلوا في كرواتيا أثناء الحرب . وكانت النتيجة هي ظهور كتابات تدافع عن القومية الكرواتية بل وعن الأوستاشا فيما بعد ، وكان من مؤلفيها عضو المقاومة النشوية البارتيان القديم ، الجنرال السابق في الجيش اليوغوسلافي فرانكو توجمان ، الذي كان يريد أن يميز بين الآمال القديمة التي كانت تراود الكروات في الاستقلال عن بلجراد وفصلها عن تاريخ الأوستاشا الذي أصبح تهمة لصيقة بهم . وبغض النظر عن جميع المجادلات التاريخية ، كانت هناك مخاوف من المستقبل أيضا ، كتلك التي تمخض عنها فكر دوبريكا تسوشيتش في يوليو ١٩٨٩ عندما أخطر أحد الصحفيين الذي كان يحادثه أن سطرأ كبيرا من كرواتيا ينبغي « التخلي عنه إلى جمهورية أخرى » (٤) .

وفي الحين نفسه عمدت أشد الجمهوريات تأثرا بالطابع الغربي باستقلالا فكريا وهي جمهورية سلوفينيا ، إلى أعداد الترتيبات للوقاية من المراحل التالية من الضربة أو الانقلاب الدستورية المتهمة التي يدبرها ميلوشيفيتش . ففي سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٩ وضعت مشروع دستور سلوفيني جديد ، ومررت قانونيا ، فكأنها أعطت لنفسها ولاية تشريعية -

أو بمعنى آخر أنها قالت أن قوانينها الخاصة سوف تكون لها الأسبقية على قوانين الدولة الفيدرالية مع إعلانها صراحة حقها في الانفصال (٥) . وبينما ذلك كله يجرى كان الانهيار الدرامى للدولة الشيوعية الكبرى فى شرق أوروبا يملأ شاشات التليفزيون ليلة بعد أخرى . ولذا فإن الخيط الرفيع من الأحزاب السياسية المستقلة ، التى بدأت فى التكون فى يوغوسلافيا فى ١٩٨٨ أصبح الآن فيضا جارفا . وفى يناير ١٩٩٠ خرج الشيوعيون السلوفينيون من مؤتمر الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، وبعد ذلك بأسبوعين أطلقوا على أنفسهم اسم حزب التجديد الديمقراطى ، وأعدت كل من سلوفينيا وكرواتيا الترتيبات لانتخابات تجرى فى ربيع ١٩٩٠ : وفاز بهذه الانتخابات فى الجمهورية الأولى ائتلاف قومى ليبرالى وفى الثانية فاز الحلف الوطنى الكرواتى الجديد « الرجال الجدد الكرواتيون الديمقراطيون » بزعامة فرانيو توجملان .

وكذلك غير ميلوشيفيتش اسم حزبه : فأسماء « الحزب الاشتراكى الصربى » ، ثم أخذ يتحدث عن إجراء انتخابات متعددة الأحزاب بصربيا . ثم أجلت هذه الانتخابات حتى نهاية العام : وربما ألم بميلوشيفيتش شئ من التزعزع بسبب انخفاض شعبيته لفترة فى النصف الأول من ١٩٩٠ ، وربما كان يود أن ينتظر حتى تحل أزمة وطنية ، عسى أن يستطيع أن يساود دوره بوصفه « المنقذ » لصربيا . ولما كان يملك الاذاعة والتليفزيون الصربيين ، ويضعهما تحت سيطرة محكمة ، فليس هناك الا الخطر الضئيل فى فقدانه الانتخابات الجيدة التخطيط . ولكن أمست الحاجة واضحة فى النصف الأول من ١٩٩٠ الى أن « يحدث » (بتشديد وكسر الدال) استراتيجيته ويصبغها بالعصرية ، فحتى الآن ظل يواصل هدفه الأثير الأول : وهو الوصول الى السيطرة على يوغوسلافيا عن طريق الهياكل الموجودة للحزب الشيوعى والحكومة الفيدرالية . بيد أن هذا الاختيار قد أفلت من قبضته بسبب تفكك الحزب الشيوعى والتفسييم « الرأسى » للسياسات اليوغوسلافية الى مجموعة من الأحزاب القومية بين الجمهوريات المختلفة . غير أن ذلك خلى بينه وبين اختياره الثانى : فان لم يمكنه السيطرة على يوغوسلافيا كملكية منفردة فانه سيشكل منها كيانا جديدا ، يكون قطرا صربيا موسعا ، يصبر له وله حده . وقضى رجال السياسة فى سلوفينيا وكرواتيا شطرا كبيرا من ١٩٩٠ وهم يترافعون ويتحاجون فى طلب اتفاق سلمى يقوم على المفاوضة لنقل نظام يحول يوغوسلافيا من دولة فيدرالية الى دولة كونفدرالية - وأعنى بذلك أن نتحول من دولة يكون فيها القانون الفيدرالى والمؤسسات الفيدرالية هو الأساس، الى دولة تكون فيها الجمهوريات هى التى تمسك بقبضتها بالسلطة

الحقيقية ، بينما المؤسسات الفيدرالية لا تقوم ببساطة الا بدور وكالات الربط والتنسيق . ولكن ميلوشيفيتش لم يبد أى اهتمام بتلك الخطط .

وجاءت أولى العلامات الواضحة على استراتيجية ميلوشيفيتش بمنطقة كنين (Knin) فى كرواتيا وهى جزء من الحد العسكرى القديم بمنطقة « كرايينا » التى بها غالبية السكان من الصرب . واستعدادا للانتخابات الكرواتية فى أبريل ١٩٩٠ نظم هؤلاء الصرب أنفسهم فيما أسموه « حزب الصرب الديمقراطى » ، والراجح أن ميلوشيفيتش سعى منذ البداية بشئ من الاهتمام بهذا التطور ، ولكن يبدو أنه كان بمبادرة محلية ، تعبيرا عن مخاوف الصرب المحليين من أن يفقدوا هويتهم الثقافية فى كرواتيا الوطنية الجديدة . وراح بعض أعضاء الحزب الأكثر تطرفا ، فى ترديد أصداء الدعاية الصادرة من بلجراد ، يصرحون بأنهم اضطروا للدفاع عن أنفسهم ضد « دولة الأوسناشا » - وهى إشارة نجىء فى المقام الأول الى الراية الكرواتية الشبيهة بمربعات لوحة الشطرنج ، التى كانت بالفعل رمزا للأوسناشا ومع هذا ، فقد كانت أيضا الراية الوطنية الكرواتية أمد مئات السنين . وبعد الانتخابات ، عندما شرعت الحكومة الجديدة فى طرد الموظفين الشيوعيين من مناصبهم ، علت الصيحة بأن الصرب انما يطردون من أعمالهم زمرا . ولما كانت نسبة الصرب العاملين فى الجهاز الحكوى بكرواتيا تفوق نسبتهم الحقيقية فى عدد السكان (وينسكلون ما يقارب ٤٠ ٪ من أعضاء الحزب الشيوعى و ٦٧ ٪ من قوة الشرطة) ، فلم يكن بد من أن يظهروا فى عمليات النصـل بصورة غير متناسبة اطلاقا ، ولا شك فى أنه حدثت بعض المحاولات الجائرة لتصفية الأحقاد القديمة أيضا .

ومع هذا ، فانه حدث فى صيف ١٩٩٠ أن رأس حزب الصرب الديمقراطى فى كنين زعيم متطرف يبدو أنه كان على اتصال وثيق مع ميلوشيفيتش . وعقد استفتاء محلى فى أغسطس على « الاستقلال الذاتى » للصرب ، حيث خرج الصرب فى تحد للحكومة الكرواتية التى اعتبرته غير قانونى ، وبدأ جند ميليشيا صربيون مسلحون يظهرون فى شوارع كنين ، وكان يساعدهم ضباط من حامية الجيش الفيدرالى (وكان

قائدهم العام الجنرال راتكو ملاديتش^v (Ratko Mladic) ، وحاولت السلطات الكرواتية أن تصدر امدادات الأسلحة الخاصة بوحدة الاحتياط فى البوليس المحلى ، وعندئذ عمد الصرب ، وقد أبلغهم زعمائهم ورسائل الاعلام فى بلجراد بأن « الأوسناشا » يخططون ليدبـحهم ، لطلب الحماية من الجيش الفيدرالى . وحدثت قلاقل شديدة ، وأطلقت النار على رجال الشرطة الكرواتية . وفى يناير ١٩٩١ كان زعماء الصرب

المحليين يصفون المنطقة بأنها منطقة « كرايينا الصربية المستقلة ذاتيا » ، وأخذوا يشكلون « برلمانهم » الخاص . وبعد ذلك يشتهرين حاول مسلحون من كرايينا أن يستولوا على حديقة بلينيفيس القومية ، وهي أهم مكان يصفده السياح في داخل كروانبا : وكان هذا يعد تحديا مباشرا ومتعمدا للحكومة الكرواتية . وحدث اطلاق نار مع الشرطة الكرواتية ، وعندئذ أمرت القيادة الفيدرالية قوات الجيش (رغم اعتراضات كرواتيا القوية) باحتلال الحديقة « لاعادة السلم والنظام الى نصابه » (٦)

وهذه الأحداث التي حدثت في الجانب الآخر من حدود البوسنة الشمالية الغربية جديرة بأن ينظر اليها في شيء من التفصيل ، لأنها تشكل « مسودة » لما تم فعله في البوسنة ذاتها فيما بعد . فقد اتبعت هنا ثلاثة أساليب ، كان الأول منها هو تعبئة الأهالي الصرب بسلسلة متواصلة من الأكاذيب والاشاعات وبث الرعب والخوف في قلوبهم من خلال وسائل الاعلام السياسيين المحليين : فكل عمل تقوم به حكومة توجمان يعرض على الناس في صورة عمل ارهابي « للأوستاشا » (وينبغي لنا أن نوضح أن بعض اجراءات الحكومة الكرواتية كان فيها شيء قليل من الغلظة ، مثل اصدار الأمر بحذف علامات للطريق بالحروف السيريلية ، بينما أخذت الحكومة البوسنية تتراجع لاستمالة الصرب من سكانها) . والطريقة الثانية كانت أسلوبا نموذجيا يمكن العثور عليه في الكتب والمراجع الخاصة بحرب العصابات : وهو أسلوب « تعريض القرى للخطر » ، مثل الذي كانت تستعمله المقاومة الفرنسية والفييت كونج وما لا يمكننا حصره من حركات حرب العصابات الأخرى . وكان هذا الأسلوب يعتمد على اصطناع حادثة - مثل اطلاق النار على عربة شرطة خارج قرية معينة حتى يدهمها رجال الشرطة ، ثم توزيع الأسلحة على السكان ، وتحذيرهم من أن الشرطة تخطط للهجوم عليهم . وعندما تصل الشرطة المسرح فعلا ، يكون من السهل نشوب معركة ، وبذلك تصبح قرية بأكملها ، وهي بريئة في السابق تماما من كل ذلك ، منضمة تماما الى جانب النوار . أما الأسلوب الثالث فكان حيلة بسيطة ، بل كان حيلة مكشوفة الى أقصى حد : وهي إثارة أعمال عنف ثم طلب تدخل الجيش بوصفه حكما غير متحيز ، بينما كان من الواضح تماما ، أنه انما كان في الحقيقة يعمل لصالح ميلوشيفيتش والصرب ، نظرا لولائه لبلجراد وهيمنة الفيادات الصربية عليه .

١١

وهذا الاستقطاع من الرقعة الكرواتية ، الذي بدأ قبل سنة من اعلان الكرواتيين استقلالهم في يوليو ١٩٩١ ، كان يعتمد الى أقصى حد على

ادعاء أن الصرب في كرواتيا كان يتهدهم نظام « الأوستاشا » • فأما نبي البوسنة فلم تكن هناك امكانية لجعل مثل هذا الادعاء يبدو مقبولا ، ومن ثم وجب أن يستند نوع آخر مخالف من التهديد للصرب ، فبدلا من التلويح بخطر « الأوستاشا » حذروا الصرب البوسنيين من خطر الأصولية الإسلامية • ومن الضروري لنا الآن أن ننظر نظرة موجزة الى كيف أن امكانية هذا الادعاء نشأت وكيف كانت زائفة كاذبة •

ففي البوسنة كما في معظم الجمهوريات الاخرى كان الحزب الشيوعي قد انحلت عراه في أوائل ١٩٩٠ ، وتشكلت مكانه مجموعة من الوطنيين أو الأحزاب الوطنية • ومنذ عام ١٩٨٩ فصاعدا كانت القوميات المجاورة في كل من صربيا وكرواتيا قد أصبحتا وجودين مخيفين ، ولم تكن تخفي عن الأعين الطموحات الكبرى لميلوشيفيتش ونوجمان • إذ كان ميلوشيفيتش داعية صريحا لمشروعات الحامعة الصربية السياسية التي وضعها تشوسيتش والأكاديمية الصربية ، وكان نوجمان مؤمنا بأن معظم المسلمين البوسنيين « من أصل كرواتي » ، وأن البوسنة وكرواتيا تشكلان كيانا جغرافيا واقتصاديا لا سبيل الى تقسيمه « (٧) • وفي خريف وشتاء ١٩٨٩ أخذ كبار الموظفين البوسنيين يبدون مخاوفهم من أنه سيجيء الوقت الذي تضطر فيه كل من صربيا وكرواتيا الى أن تعيدا فيه رسم الخريطة ، وفي مارس ١٩٩٠ اجتمع مجلسا الجمعية الوطنية البوسنية في دور انعقاد مشترك للتشديد بفكرة ادخال أي تغيير على حدود البوسنة • ومع ذلك ، فإن الموقف لم يكن متعادلا بين الصرب والكروات • وكان هناك احساس واضح بأن ميلوشيفيتش هو الذي كان يقود التيار ، وكانت السياسة الرسمية لحزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي تعارض تماما فكرة ادخال تغييرات على الحدود - وذلك نظرا لمعرفتها بأنه متى سمح بدخول هذه الفكرة ، فستكون حدود كرواتيا أول من تقاسى • ولكن الدعاية المدوية التي أخذت تروج لها بلجراد ، حول « تعريض الصرب في البوسنة للخطر » ، والتي بدأت آنفا في صيف ١٩٨٩ ، كان من شأنها أن تجمع كلا من البوسنيين الكروات والمسلمين في صف واحد وجعلت الصرب في الصف المضاد • ولما تأسس حزب كرواتي في البوسنة في بواكير ١٩٩٠ ، فإنه لم يكن الا فسيلة نبتت من شجرة حزب توجمان الاتحاد الديمقراطي الكرواتي ، وكانت سياسته الرسمية المعلنة هي الاحتفاظ بتخوم البوسنة سليمة لا يمسها سوء • على أنه عندما أسس حزب صربي في البوسنة في يوليو من تلك السنة ، أسمى نفسه الحزب الديمقراطي الصربي - وهو نفس الاسم الذي كان يدعو « للاستقلال الذاتي » في كرايينا الكرواتية والذي كان على أهبة التمرد الصريح (٨) •

وفى مايو ١٩٩٠ تأسس الحزب البوسنى المسلم الرئيسى الذى أسمى نفسه « حزب الحركة الديمقراطية » ، وكان زعيمه هو على عزت بيجوفيتش ، الذى أطلق سراحه فى عام ١٩٨٨ . ولما كان المنهم الرئيسى فى أشهر محاكمة جرت فى ذلك العقد ، فانه كان المرشح والمختار الطبيعى لحزب البوسنة الاسلامى الأول - فيما بعد الشيوعية - « اللاشيوعى » . (والواقع أنه عندما أصبح فى النهاية رئيسا للحكومة البوسنية ، فانه كان الوحيد من بين رؤساء الحكومات فيما بعد الشيوعية فى أى من الجمهوريات اليوغوسلافية ، الذى لم يكن أبدا مسئولا فى الحكومات الشيوعية السابقة) . والآن وقد وضع مسلمو البوسنة بين المطرقة والسندان للقومية الصربية والكرواتية ، فانهم تصرفوا بطريقتين مختلفتين : فانهم قووا قوميتهم المسلمة بالتركيز على أكبر السمات المميزة لهويتهم وهو المقوم الدينى فيها . كما أكدوا أنهم يؤيدون الاحتفاظ بطابع التميز للبوسنة بوصفها جمهورية متعددة القوميات والأديان . وتم التعبير عن العنصر الدينى فى ذلك الرمز العام لحزب الحركة الديمقراطية براياته الخضراء ذات الأهلة ، أما العنصر التعددى فقد تم التعبير عنه فى برامجه ومناهجه . وبالطبع تصادم هذان العنصران فى سبتمبر ١٩٩٠ قبل اجراء الانتخابات البوسنية بثلاثة أشهر ، عندما انشق من حزب الحركة الديمقراطية ، المليونير العائد من الخارج عادل ذو الفقار باشيتش ، ليؤسس حزبه الخاص وهو « المنظمة المسلمة البوسنية » ، وهو حزب له برنامج غير دينى واضح ومقصود . وعلى الرغم من التسمية الصريحة للدلالة لحزبه الجديد فان ذا الفقار باشيتش كان يحاول أن يضع أسس سياسات جديدة للبوسنة تبعتها عن الطائفية ، يصوت فيها الناس باختيارهم التام على برامج سياسية (ليبرالية أو اشتراكية أو أى شئ آخر) وليس مجرد النصبوت لابرار هويتهم القومية . وكان هذا - كما أوضح ذلك على عزت بيجوفيتش نفسه - طموحا غير واقعى فى ذلك الوقت . حيث كاشف أحد الصحفيين بقوله :

لقد خلق الشيوعيون بما أنزلوه بالناس من المظالم هذا التطلع الى النعبير عن هويتهم الدينية أو الفوهية ، ولعلنا نستطيع فى مدى أربع سنوات أو خمس أن نعبر حقل الألفام الى آفاق المجتمع المدنى العادى . أما الآن ، لسوء الحظ ، فلا مفر أمام حزبنا من أن يكون طائفيا . والأحزاب التى تحاول أن تمتل كل انسان وكل فرد صغيرة وضعيفة . وهناك خطر حقيقى من نشوب حرب أهلية هنا ، وهدفنا الأساسى كهزب هو أن نحافظ على تجمع البوسنة والهرسك معا (٩) .

ولكن عزت بيجوفيتش كان بطبيعة الحال متطابقا شخصيا مع
العنصر الدينى « للهوية الدينية أو القومية » . فالرسالة التى استخدمت
أساسا للتهم الموجهة اليه فى عام ١٩٨٣ ، وهى « الاعلان الاسلامى » ، أعيد
طبعها فى سراييفو فى عام ١٩٩٠ . وربما ظن بعض القراء أن نشر الاعلان
كان نوعا من البيان الشخصى والدعاية للانتخابات البوسنية ، على أنه
كثيرا ما كان يقدم على يد أرباب الدعاية الصربية على أنه مسودة لتحويل
البوسنة الى دولة اسلامية أصولية . رغم أنه لم يكن يحوى خطة من هذا
النوع .

فهذه الرسالة المكتوبة فى الستينيات ، انما هى بحث عام فى
السياسة والاسلام موجهة الى العالم الاسلامى قاطبة ، وهى لاتدور حول
البوسنة بل انها حتى لم تذكر اسم البوسنة أبدا . ويبدأ عزت بيجوفيتش
بعنصرين أساسيين هما المجتمع الاسلامى والحكومة الاسلامية . والحكومة
الاسلامية كما قال : « لا يمكن ادخالها ما لم يكن هناك من قبلها مجتمع
اسلامى ، وهذا المجتمع الاسلامى لا يمكن أن يقوم الا اذا كانت الغالبية
الساحقة المطلقة من المسلمين الصادقين المخلصين المتمسكين بدينهم .
وبدون هذه الغالبية يتحول النظام الاسلامى الى مجرد سلطة (لأن العنصر
التانى وهو المجتمع الاسلامى ، غير موجود) ، وفى الامكان أن يتحول الى
حكم استبدادى طاغ » (١٠) . وهذا الشرط كان يلغى انشاء حكومة
اسلامية فى البوسنة ، حيث كان المسلمون أقلية - سواء المسلمون منهم
بالاسم ، أو المتدينون منهم . ومن ثم تغدو طبيعة النظام السياسى
الاسلامى ، وهو موضوع الرسالة ، غير ممكنة التطبيق على البوسنة
أيضا . وعندما يقول عزت بيجوفيتش مثلا (وهى جملة طالما ردها أيضا
انصار الدعاية الصربية على طريقة « ولا تقربوا الصلاة ») ، أنه « لا سلام
ولا تعايش بين العقيدة الاسلامية وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية
غير الاسلامية » ، فهو انما يشير الى دول ، على العكس من البوسنة ، يسود
فيها المجتمع الاسلامى ، ويدفع بأنه حيثما كانت الغالبية من السكان من
المسلمين الصادقين الايمان ، فانهم لا يستطيعون أن يقبلوا أن تفرض عليهم
مؤسسات غير اسلامية (١١) . وليست هناك الا فقرة واحدة فى الرسالة
بأكملها تنطبق بطريق مباشر على الوضع السياسى لمسلمى البوسنة :
« ان الأقليات الاسلامية فى داخل مجتمعات غير اسلامية ، تكن الولاء
نحو تلك المجتمعات وتلتزم بما يلتزم به أفرادها الا ما يؤذى الاسلام
والمسلمين مادام هناك ضمان بحرية العقيدة وبالحياة السوية والتطور
الطبيعى » (١٢) .

وبعض الحجج الواردة في هذه الرسالة ، التي وصفت بأنها « أصولية » ، إنما هي بسط للعقيدة السنية السوية التي لا بد لكل مسلم مخلص أن يوافقها . وهكذا يكتب عزت بيجوفيتش : « ان دولة اسلامية لا بد لها من أن تمنع شرب الخمر والاباحية والبغاء » ، وهو يدفع بأن الاسلام ليس مجرد مجموعة من المعتقدات الخاصة ولكنه أسلوب حياة كامل له أيضا أبعاد اجتماعية وسياسية ، كما أنه يصر على أن الأخوة العامة بين المسلمين المؤمنين في جميع أرجاء العالم أي « الأمة الاسلامية » تعلو فوق كل حدود قومية (١٣) . وليس في هذه النقاط نقطة واحدة يمكن وصفها بأنها أصولية متعصبة . ونفس مصطلح « الأصولية » كلمة فضفاضة تسمح بانطباعات عدة : وهو مصطلح لا يستخدمه كثيرا علماء الاسلام ، عندما يحاولون التمييز بين أنواع الحركات الاسلامية المختلفة من المحافظة الحديثة والراديكالية والمضادة للعصرية التي نراوح بين المذهب الوهابي التقليدي الاتجاه والأيدولوجية الثورية لايران آية الله الخوميني (١٤) . وبدلا من ذلك فإن مصطلح « الأصولية » إنما يستخدمه بصفة رئيسية رجال السياسة والصحافة ليحسروا فيها عددا من الخصائص بعضها فوق بعض . ومن بينها التطرف السياسي ، وهو الاعتقاد بأن الفاية من انشاء الدولة أو السلطة الاسلامية تبرز استخدام أية وسيلة وكل وسيلة . ويرفض عزت بيجوفيتش هذا الاعتقاد صراحة وجهازا ، ويهاجم فكرة الاستيلاء على السلطة بغية خلق مجتمع اسلامي من أعلى . والنقطة الرئيسية في حججه هي أن : في الامكان خلق مجتمع اسلامي (بين سكان تكون غالبيتهم ، على الأقل ، من المسلمين اسما) وذلك فقط عن طريق عملية طويلة من التربية الدينية والافتناع الأخلاقي (١٥) .

وهناك سمة مميزة أخرى لمصطلح « الأصولية » الفضفاض وهي ابداء عداء سياسي وثقافي شرس نحو الغرب . ولم يفت عزت بيجوفيتش أن ينتقد ما أحدثه ألتاتورك من هجمة في تركيا ، وهو أمر يرى فيه أنه أسس على افتراض أن كل شيء اسلامي كان من الناحية الثقافية رجعيا وبدائيا ، كما أنه يهاجم بشدة « دعاة الاستغراب والتحديث التقدميين » ، وهم الذين يطبقون سياسة مشابهة لهذه بأمكنة أخرى من العالم الاسلامي (١٦) . على أنه مما لا شك فيه أن موقفه العام في هذه الرسالة لا يتضمن بتة ندد الحضارة الغربية بأية حال . فانه كتب يقول : « ان الاسلام منذ ابتداء تأسيسه تولى دون أدنى تحامل ، عملية كبرة هي دراسة وتجميع تراث المعرفة الذي ورثه من الحضارات الأقدم منه . ولذا ، فلسنا نرى لماذا يتخذ الاسلام اليوم موقفا مخالفا لمنجزات الحضارة الأوروبية امريكية ، التي هو على اتصال عريض جدا بها (١٧) . ولم تلبث وجهات نظر عزت بيجوفيتش

في هذه المسائل أن عرضت بايفاء أكبر في كتاب أطول وأهم ، ألفه في أوليات النماينيات ، وسماه « الاسلام بين الشرق والغرب » وفيه حاول أن يقدم الاسلام على أنه نوع من الترابط الروحاني والذهني والفكري ، يضم بين دفتيه كل القيم السائدة في أوروبا الغربية . ويحتوى الكتاب على صفحات سديدة البلاغة في اطراء فن عصر النهضة (شاملا التصوير) والأدب الغربى الأوربى ، وهو يصف المسيحية بأنها « شبه اتحاد بين السموم الدينى والسموم الأخلاقى » ، كما أنه يحتوى أيضا على فصل خاص يطرى فيه الفلسفة والثقافة الأنجلوساكسونية ، ويتنى على التقاليد الاجتماعية - الديمقراطية (١٨) . وما من شك في أن أصوليا كان يستطيع أن يكتب هذا .

وعندى أن الحديث عن تهديد بقيام الأصولية في البوسنة كان على كل حال غير صحيح بصفة خاصة ، وذلك لأن المسلمين البوسنيين كانوا عند تلك اللحظة من بين أشد الأمم المتطبعة بطابع علمانى فى العالم كافة . نعم ان محاولات صغيرة الحجم ومتباعدة لاثارة الاضطرابات الأصولية فى البوسنة ، قد حدثت دون أدنى ريب فى ثمانينات القرن العشرين : فان تقريراً صدر فى صحيفة متطرفة مقرها فى لندن يعلن بفخر وكبرياء أن هذا الاضطراب قد « أشعل جذوة الاسلام وألهم مئات من المسلمين البوسنيين » (١٩) . ولكن المتعصبين ، حتى وان كانوا بالمئات ، لا يمكن أن يكون لهم الا أدنى تأثير على مجموعة من السكان يربو عددهم على مليونين من المسلمين ، أغلبهم لا يرى فى الاسلام سوى نوع من الثقافة والتقاليد الموروثة . وقد أجرى استقصاء فى ١٩٨٥ بين أن نسبة المؤمنين يبلغ ١٧٪ فى البوسنة (٢٠) . ولا ننسى أن عقوداً متعددة من التعليم والثقافة الشيوعية السياسية دعمت بشدة ذلك الاتجاه . ومن العوامل ذات الأثر أيضا ذلك التحضر النامى الذى حدث للبوسنة ، وان جاء متباطئاً الى حد ما فى بداية الأمر ، ففي الثمانينيات كانت ٣٠٪ من الزيجات فى مناطق الحضر « زيجات مخلطة » بين دينين . وفى كثير من المناطق الريفية المسلمة ولدى الأغلبية الساحقة من سكان المدن ، أصبح معنى كلمة مسلم يدل بطريقة مبسطة جداً على مجموعة من التقاليد الثقافية : « الأسماء الاسلامية والختان والبقلاوة والاحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر ، ودعوة اشبين ليقص شعر الطفل متى بلغ السنة الأولى ، وشرب القهوة فى أفداح صغيرة بلا آذان والشقيقة على العناكب ، وغير ذلك من مختلف الممارسات التقليدية ، التى كبرا ما يكون الأصل فيها مجهولاً لمن يمارسونها » (٢١) . وبدهى أن برنامجاً « أصوليا » ما كان يمكن على الإطلاق أن يتبناه أى حزب يكون عليه أولاً أن يحصل على أصوات هؤلاء المسلمين اسماً ، ثم يعود بعد

ذلك لينشئ تحالفا مع واحد على الأقل من الحزبين القوميين الآخرين في البلاد .

وعندما أحصيت الأصوات توطئة لانتخابات ١٩٩٠ ، فاز حزب عزت بيجوفيتش بستة وثمانين مقعدا من بين المائتين والأربعين المنتخبين في المجلس ، كما أن مسلمين آخرين كان من بينهم حزب ذو الفقار باشيتش « فازوا بثلاثة عشر مقعدا أخرى . أما الحزب الديمقراطي الصربي ، الذي يتزعمه الطبيب النفسي رادوفان كاراديتش ،

٧
(Radovan Karadžić وأصله من الجبل الأسود) ، فقد فاز باثنين وسبعين مقعدا . وقد دعا في حملته في شيء من الغموض الى الدفاع عن حقوق الصربيين ولكنه لم يقل شيئا حول تقسيم البوسنة حتى ولا بالوسائل السلمية ، ناهيك عن الحرب ، ومن ثم فأننا نستطيع أن نستبعد فكرة أن هذه الانتخابات التي هيأت الدكتور كاراديتش بدرجة ما أن يسمى نفسه « زعيم » الصربيين البوسنيين قد اعطته أى سند ديمقراطي لأعماله اللاخفة . (وفي الحقيقة فإن كثيرا من الصربيين لم يعطوه أصواتهم ، كما أن المجلس كان به ثلاثة عشر صربيا آخر من غير أعضاء حزبه) . أما حزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي فقد حصل على أربعة وأربعين مقعدا . وفي المجموع الكلي كان هناك ٩٩ مسلما ، و ٨٥ صربيا ، و ٤٩ كرواتيا ، و ٧ « يوغوسلاف » . ولو نظرنا الى هذه النسب (٤١٪ مسلمين ، و ٣٥٪ صربيا ، و ٢٠٪ كرواتا) ، لوجدنا أنها تضاهي الى حد ما نسب كل السكان (٤٤٪ ، و ٣١٪ ، و ١٧٪ على الترتيب) (٢٢) . وشكك عزت بيجوفيتش ما كان في حقيقة الأمر حكومة وحدة قومية ، مكونة من تحالف رسمي بين جميع الأحزاب الكبرى الثلاثة ، وتقاسم الجميع المناصب الوزارية . وكان من دلائل صدق عزت بيجوفيتش وأمانته ، أنه أثر هذا الوضع ، بينما كان يستطيع أن يحكم البلاد بطريق تحالف إسلامي كرواتي ، ولكن أصبح واضحا منذ اللحظة الأولى في حياة هذه الحكومة أن الحزب الصربي قد وضع جدول أعمال مختلفا تماما .

كان الموقف العام في السياسات اليوغوسلافية عندما تولت حكومة عزت بيجوفيتش زمام الأمور في نهاية ١٩٩٠ شديد التوتر . ومما زاد الأمور تعقيدا ، أن استتدت وطأة الكفاح بين صربيا من ناحية وسلوفينيا وكرواتيا من ناحية أخرى ، في النصف الثاني من السنة الى حد أن صربيا فرضت رسوم استيراد في أكتوبر على السلع المستوردة من هاتين الجمهوريتين . وكذلك أصبح من الواضح تماما أن ميلوشيفيتش استولى

بجرة قلم على شطر كبير من الموازنة اليوغوسلافية الفيدرالية وأنفقها على صربيا ، وبذلك نسف خطة الإصلاح الاقتصادي التي كان يحاول بها أتشي ماركوفيتش (Atne Markovic) رئيس الوزراء الفيدرالي التحكم في التضخم الاقتصادي الصاروخي المتزايد في البلاد . وفي ديسمبر ١٩٩٠ عقد السلوفينيون استفتاء مداره : هل تصبح الجمهورية دولة منفصلة وذات استقلال ذاتي ، واشترك في التصويت أكثر من ٩٠٪ من الناخبين ، وكانت النتيجة ٨٩٪ مؤيدة للاستقلال (٢٣) . وذهب بعض السياسيين الغربيين في ١٩٩١ - ١٩٩٣ الى آراء مبهمة أرجعت حركة سلوفينيا نحو الاستقلال الى « الضغط » الألماني . ولكن جميع المراقبين المحايدين في سلوفينيا في ذلك الوقت ، كانوا يرون بوضوح تام أن الضغط الذي كان يجعل الحياة الاقتصادية والسياسية للسلوفينيين مستحيلة في إطار الاتحاد اليوغوسلافي في أخريات ١٩٩٠ كان آتيا من بلجراد مباشرة .

وفي أوليات ١٩٩١ كان ميلوشيفيتش يقول علنا انه لو بذلت أية محاولة ليحل محل البناء الفيدرالي ليوغوسلافيا ترتيب كونفيدرالي فضايف فانه سيسعى الى ضم مناطق كاملة من كرواتيا والبوسنة . ومع هذا فانه في الوقت نفسه ، بدلا من أن يدافع عن الوضع القائم الفيدرالي ، أخذ يدمر بالفعل الدستور الفيدرالي . ففي يونيو ١٩٩٠ ألغى من جانب واحد المجلس الاقليمي في كوسوفو مخفضا وضع الاقليم الى أقل من بلدية ، لكنه ظل محتفظا بممثل لحكومة كوسوفو المحلية التي أصبحت غير موجودة آنذاك ، في الرئاسة اليوغوسلافية الفيدرالية . وفي مارس ١ٹ٩١ وقد أرهبته مظاهرات الطلبة المضادة له في بلجراد ، حاول أن يجبر الرئيس الفيدرالي ، بوريساف جوفيتش (Borisav Juvic) ، على أن يعلن حالة الطوارئ في كل أنحاء البلاد ، وعندما رفض جوفيتش هذا الطاب دبر ميلوشيفيتش استقالته على سبيل التلاعب ، كما طرد بالقوة ممثلي الجبل الأسود وفويفودينا وكوسوفو . وعند ذلك ذهب ميلوشيفيتش الى النليفزيون ليعلن أن صربيا لم تعد تطيع أوامر الرئاسة الفيدرالية . وبدأ الأمر لمدة يومين كاملين وكأنما انقلابه الدستورية قد دخلت في مرحلتها الأخيرة . ولكن الذي حدث آنذاك هو أن جوفيتش عاد ببساطة الى منصبه . ثم تراجع ميلوشيفيتش من حافة الهاوية كما أنه أقام ، بطريقة غير قانونية ، على تعيين « ممثل » جديد لكوسوفو في مجلس الرئاسة . وكما لاحظ برانكا ماجاش (Branka Magas) في ذلك الوقت : « فان ذلك الرجل الجديد ، سيدو بايراموفيتش (Sejdo Bajramovic) ، شخصية عجيبة جدا ، حتي بالنسبة للسياسيين الصربيين الحديثين :

حيث لم ينتخبه الا ٠٣٪ في دائرته الانتخابية ٠٠ ان ذلك الجاويش المتقاعد من الجيش لا يشتهر بشيء الا ادمانه التومبولا ، (٢٤) .

وكان مركز الحكومة البوسنية منطفيا ، ولكنه خرج مع ذلك . ففي اية دراسة أو مناقشة كانت تجرى حول تغيير البناء الفيدرالي ، وتحويله الى كونفيدرالية فضفاضة ، كانت البوسنة تنضم الى جانب سلوفينيا وكرواتيا وهما تضغطان في سبيل التغيير ، وذلك لأنها هي الأخرى كانت تريد أن تخفض من نطاق تسلط وسيطرة بلجراد على يوغوسلافيا . ولكن في الوقت نفسه لم يكن في مستطاع البوسنة أن تساند سلوفينيا وكرواتيا الى آخر المدى في هذه المناقشات والمجادلات . فان احتمال تنفيذ تهديد هاتين الجمهوريتين فعلا بالانفصال عن يوغوسلافيا ، كان شيئا شديدا الازعاج للعظم البوسنيين ، وذلك لأنهم عندئذ كانوا سيتركون ومهمهم جمهورية أخرى ضعيفة هي مقدونيا ، تماما تحت اصبع صربيا .

وبينما كان عزت بيجوفيتش يحاول أن يقوم بأداء هذه الحزمة التوازنية الصعبة ، في أثناء النصف الأول من ١٩٩١ ، راح الصرب يهددون مستقبل كل من كرواتيا والبوسنة علانية . فهناك منطقة « الكرايينا المستقلة ذاتيا » والتي أقامها الحزب الديمقراطي الصربي في كرواتيا وقد أصبحت لديها نزعة عسكرية أكثر في مطالبتها ، كما انها أصبحت مسلحة تسليحا أكثر على يد صربيا . وفي مايو شرع الحزب الديمقراطي الصربي في البوسنة يطالب بنسليم أجزاء ضخمة من شمال وغرب البوسنة ، وهو أمر ينتهي عندئذ الى ضمها الى « الكرايينا الكرواتية » لتكون منها جمهورية جديدة . وأعلن الحزب الديمقراطي الصربي أن ثلاث مناطق من البوسنة يغلب فيها العنصر الصربي من السكان انما هي « مناطق صربية ذات استقلال ذاتي » . متبعا في ذلك بالضبط نفس الطريق الذي اتبع في الصيف السابق في كرواتيا . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل ، حتى قام حزب صغير في كرواتيا هو حزب الحقوق الوطنية المنطرف ، يطالب بأن تضم كرواتيا اليها كل البوسنة . ومما زاد الطين بلة . أنه حدث في يوليو ١٩٩١ شواهد تدل على أن تهريبا سريا للسلاح الى الصربيين البوسنيين جرى بترتيب من ميلوشيفيتش ووزير الداخلية الصربي ميهال كيرتيس (Bihaj Kertes) وزعيم الحزب الديمقراطي الصربي البوسني رادوفان كاراجيتش (٢٥) . وجاءت البيانات التي تؤكد ذلك في أغسطس ، عندما سُمح رئيس الوزراء الفيدرالي المتفتح - أنتي ماركوفيتش . بإذاعة تسجيل لمحادثة تليفونية سمع فيها ميلوشيفيتش وهو يخبر كاراجيتش ، بأن دفعة الأسلحة التالية سيتمدها بها الجنرال نيقولا أوزيلاك

(Nikola Uzelac) قائد الجيش الفيدرالى فى بانياالوكا (٢٦) . ولم يعد هناك مجال للشك آنذاك فى أن أعمال كاراجييتش كانت تدار خطوة بخطوة ، من الرئيسى الصربى نفسه : بل لقد بلغ به الأمر أن فاخر لصحفى بريطانى أنه « يتبادل الحديث التليفونى مع ميلوشيفيتش عدة مرات كل أسبوع » (٢٧) .

وعند ذلك كانت قد بدأت فى يوغوسلافيا حرب على نطاق واسع . وكانت القشة الأخيرة لسلوفينيا وكرواتيا قد تمثلت فى رفض صربيا فى مايو تقبل الكرواتى شتيبى ميسيتش (Stipe Mesic) لتولى الرئاسة الدورية للجمهورية الفيدرالية . وبذلك أصيب النظام الفيدرالى ، الذى كانت صربيا تدعى أنها تدافع عنه ، بالشلل مرة أخرى . عندئذ أجرت كرواتيا استفتاء (فى ١٩ مايو) على الاستقلال التام : وفيه صوت لصالح الاستقلال ٩٢٪ من المنتخبين . وفى ٢٥ مايو أعلنت كرواتيا وسلوفينيا استقلالهما ، وفى الصباح التالى دخل سلوفينيا طابور من دبابات الجيش الفيدرالى . وأحس ميلوشيفيتش أن بإمكانه أن يجعل من سلوفينيا عبء « حتى يخاف الآخرون » ، وذلك بتشجيع من المجموعة الاقتصادية الأوروبية التى أعلنت فى أبريل أنها مسئولة عن « وحدة يوغوسلافيا وسلامة أراضيها » ووزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر الذى أخذ على نفسه عهدا مماثلا فى بلجراذ فى ٢٠ يونيو . فأما قيادة الجيش الفيدرالى التى يسيطر عليها الصرب والتى كانت تؤيد على وجه الاجمال أهداف ميلوشيفيتش ، (ولا يخفى أنها كانت تعتمد على استمرار بقاء يوغوسلافيا فى تأمين امتيازاتها وتمويلاتها - حيث كان لهما أكثر من ٥٥٪ من الميزانية الفيدرالية ونظام كامل من الصناعات العسكرية) ، فقد ظنت أنها سوف تتمكن سريعا من بث الرعب فى قلب كل من سلوفينيا وكرواتيا واعادتهما الى جادة الصواب . ولكن سلوفينيا نظمت مقاومة جيدة التخطيط وسرعان ما أسقطت من الخطط الاستراتيجية لكل من ميلوشيفيتش والجيش أيضا . وأما فى كرواتيا فقد دبرت هناك سياسة ذات خطين متوازيين : أولهما التهديد العسكرى العام (بدلا من الغزو والفتح وذلك فى الابتداء) لبت الخوف والذعر فى قلوب الكرواتيين ، وفى نفس الحين تقوية التماسك بين جيوب المناطق المسكونة بالصربيين التى كانت فعلا تحت سيطرة صربيين مسلحين . وفى أواخر أغسطس تم تصعيد هاتين العمليتين الى نقطة ومستوى الحرب الكاملة الأوار : فكانت المدن تهاجم فعلا فى سلوفينيا ، ثم بدأ قذف دوبروفنيك فى سبتمبر بالمدافع (٢٩) .

وهناك ظاهرة فى القتال تنذر بالويل والثبور ، وكانى بهما تنذر بصورة مشئومة لما ستكون عليه الحرب فى البوسنة ، وهى استخدام

الجند الصربيين غير النظاميين : لاحظ أحد المعلقين في سبتمبر ١٩٩١ « أن الاستراتيجية العامة التي تتبع تقوم على وصل جيوب الاستيطان الصربي ، عن طريق طرد الكروات المتواجدين بين هذه الجيوب بأساليب التهريب والتخويف » (٣٠) . وكانت وحدات الميليشيا تعمل منذ ١٩٩٠ بأجزاء كرواتيا التي يسيطر عليها الصرب : وقد سبق أن استخدمت تلك الوحدات في عمليات من أمثال الهجوم الذي شن على الحديقة القومية في بليتيفيس في مارس ١٩٩١ . وفي وقت مبكر من ١٩٩١ كان وزير الداخلية في بلجراد وهو ميهالي كيرتيس ، قد أقام معسكر تدريب تدرّب فيه ذلك النوع من القوات ، وهو الذي عرف بعد ذلك باسم « حرس المتطوعين الصرب » ، تحت قيادة ذيليكو رازنجاتوفيتش (Zeljko Raznjatovic) المعروف باسم « أركان Arkani » : وكان مجرماً من نوع زعماء المافيا ، يطلبه البوليس الدولي للإنتربول من أجل جرائم عديدة ارتكبها ، وكان مشتبهاً على نطاق واسع بأنه عمل لحساب المخابرات اليوغوسلافية في عملية اغتياله المهاجرين اليوغوسلاف (٣١) . وبأدى ذي بدء ، فإن هذه القوة كانت تمول من وزارة الداخلية ، ثم حدث بعد ذلك في نفس السنة ، عندما أصبحت تعرف باسم « سمور أركان » ، أنها أصبحت تمول نفسها بنفسها بفضل الضمانات التي سلبتها من المهن والقرى الكرواتية .

وكانت هناك قوة مماثلة لهذه أسمت نفسها « الجيش التشيتنيكي Cetnik Army » الذي أنشأه صربي متطرف هو فويسلاف شيشيلي ، وهو رجل قدم إلى المخالفة في سنة ١٩٨٥ ، لأنه دعا إلى تقسيم يوغوسلافيا إلى دولتين هما صربيا وكرواتيا ، مع تقسيم البوسنة بينهما (٣٢) . وقد أصبح شيشيلي الآن زعيماً للوطنيين المتطرفين « الحزب الراديكالي الصربي » ، وهو مركز كان يستطيع منه أن ينفذ في نوع من المزايدات السياسية مع ميلوشيفيتش . (وكانت المنافسة قائمة على أساس من التشبه بالمتبادك) وكان ميلوشيفيتش هو الذي صمم عملية انتخاب شيشيلي في البرلمان الصربي في يوليو ١٩٩١ (٣٣) . وفي حديث صحفي مع جريدة دير شبيجل Der Spiegel الألمانية في أوائل أغسطس ١٩٩١ « قدم للناس آخر صورة لخطته » وهي تخطط على أن يزد إلى طريقاً كل إقليم البوسنة ومقدونيا والجبل الأسود ، ومعظم كرواتيا ، مع ترك الكروات يستقلون « بما تستطيع أن تراه من الأرض من أعلى كاتدرائية زغرب » . ولما سأله محدثه الصحفي عن البوسنة ، أجاب : « الحقيقة أن مسلمي البوسنة صرب دفعوا للإسلام ، كما أن جزءاً من السكان المسلمين بالكروات يتكون في الحقيقة من الصرب الكاثوليك » . واستمر المحدث يسأل : « وماذا يحدث لو قاوم المسلمون الضاء وضعهم كما ؟ » فأجاب

شيشيلي : « فى تلك الحالة سنركلهم خارج البوسنة » ، « الى أين ؟ » ،
« الى الأناضول » (٣٤) .

وإزاء التصريح علنا بمثل وجهات النظر هذه على السنة الصرب البوسنيين أيضا ، أصبحت امكانية واحتمال أى حل سياسى للأزمة القائمة فى البوسنة بعيدة بعدا مطلقا . وفى أوائل أغسطس أقدم حزب الأقلية المسلم « المنظمة البوسنية المسلمة » وزعيمه ذو الفقار باشيتش على محاولة عقد اتفاق مع كاراجيتش ضمن سلامة كيان الجمهورية البوسنية ، لكنها كانت محاولة مقضيا عليها بالفشل . وفسر البروفسور محمد ميليفيتش نائب زعيم حزب المنظمة البوسنية المسلمة ، الأمر على الوجه التالى : « ان الصرب مدججون بالسلاح ، وقد أنشأوا دولة داخل الدولة فى البوسنة . . . ومن الممكن أن ينشب الصراع بين الصرب والمسلمين فى أى يوم من الأيام . وللحيلولة دون ذلك تبذل الآن محاولة لتوقيع معاهدة تنص على الاحتفاظ بسلامة كيان البوسنة » . ولكن هذه الاتفاقية لم تكن الا مجرد تعهد سياسى بين ضخم كبير وآخر صغير ، ولم يكن لها وضع دستورى ، كما أن الرئيس عزت بيجوفيتش الذى كان يحاول أن يحدث تماسكا بين أطراف الحكومة الثلاثية القوميات ، اعترض على هذه الاتفاقية على أساس أن الكروات لم يتقدم أحد لاستشارتهم فى الأمر . وأيا كان الحال ، فقد جاء هذا التعهد من جانب كاراجيتش فارغا من المضمون ، اذ كان يعلن حزبه أن أجزاء كبيرة من البلاد « مناطق مستقلة ذاتيا » ، ويطالب بنزعها من البوسنة . وبعد بضعة أيام من تعبير عزت بيجوفيتش عن انتقاده انتهم ممثلو الحزب الديمقراطى الصربى فى الرئاسة الجمهورية فرصتهم للتصريح بأنهم سوف يقطعون اجتماعات الرئاسة من الآن فصاعدا (٣٥) .

وفى سبتمبر ١٩٩١ ، اتخذ الصرب البوسنيون ، أو قل تلك الفئة القليلة النشطة منهم فى القيادة المحلية للحزب الديمقراطى الصربى ، خطواتهم التالية . فان « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » ، وكانت عدتها فى ذلك الحين أربعة ، طلبت من الجيش الفيدرالى أن يتدخل « ليعمهم » بعد نشوب عدد من الحوادث المحلية الصغيرة واطلاق الرصاص . (وكانوا فى تلك الآونة قد أصبحوا يفضل ما كانوا يتلقونه من مساعدات الجيش الفيدرالى ووزارة الداخلية جىدى التسليح الى درجة هائلة) . وعلى الفور نشر الجيش الفيدرالى فى البلاد ، وأرسل طابور مكون من مائة عربة الى غرب الهرسك ، وأرسل طابور آخر الى مركز المواصلات فى نيفيسينى ، كما أرسل ٥٠٠٠ جندى الى الهرسك من

سرايفو . وما أن بلغ سبتمبر نهايته حتى كانت هذه القوات تمكنت من إقامة « حدود » لتلك « المناطق الصربية المستقلة ذاتياً بالهرسك » ، كما أنهم أسسوا أيضاً نقطة ارتكاز ثقيلة الحشد بالجنود توطئة لعملياتهم ضد دوبروفنيك التي تقع بالضبط على خط الحدود الفاصل بين البوسنة وكرواتيا (٣٦) . وفي مقابل ذلك أرسل صرب الهرسك مئات من رجالهم ، يقودهم عمدة تريبينى Trebinje للمساعدة في ضرب المدينة الكرواتية بالقنابل) . ولم يقتصر الجيش الفيدرالي على هذه العملية فقط ، على التراب البوسنى ، فإن مركز التدريب على الدبابات في بانياالوكا كان أحد قواعد العمليات على كرواتيا منذ منتصف أغسطس . وحاول طابور فيدرالى مدرع متجه الى فيوكوفار Vukovar أن يمر من خلال فيشيجراد Visegrad في نهاية سبتمبر ، فأوقفه عن التقدم المدنيون المسلمون والكروات : فأطلق عليهم النيران (٣٧) .

ولم يعد بوسع الحكومة البوسنية ، أن تسكت على هذا الوضع فصرح الرئيس عزت بيجوفيتش (الذى ذكر ذات مرة فى ملحوظة قاله) عن الأحوال هناك أن الاختيار بين توجمان وميلوشيفيتش شنيع كاضطرار المرء الى الاختيار بين سرطان الدم (اللوكيميا) وورم فى المخ) فى أوائل أكتوبر بأن البوسنة تقف موقف الحياد بين صربيا وكرواتيا . وعندئذ أعلن رادوفان كاراجيتش استيائه من هذا التصريح ، اذ اتهمه بأنه « عمل مضاد للصرب » ، موضحاً أن الحرب فى كرواتيا إنما هى حرب على « الفكر الفاشيستي الدموى » . ثم قال : لا تستطيع أن تعلن حيادها الا حكومة ذات سيادة (٣٨) . وهو محق تماماً فى هذه النقطة الأخيرة ، وعندئذ شرعت الجمعية البوسنية بكل جدية فى بحث فكرة اعلان السيادة البوسنية . ولم تكن تعنى بذلك الاستقلال التام ، ولكن السيادة التشريعية داخل يوغوسلافيا ، بحيث يتبها لها أن تصدر قوانين - ولو من الناحية القانونية النظرية على الأقل - تجب حقوق الجيش الفيدرالى فى استخدام أراضيها . وفى ١٤ أكتوبر خرج كاراجيتش هو والتابعون له من النواب من المجلس الذى صوت عند ذاك على سيادة البوسنة . وبعد ذلك بأيام قليلة أقام كاراجيتش وحزبه ما أسسموه « الجمعية الوطنية الصربية » فى معقل الجيش الفيدرالى بمدينة بانياالوكا ، متخذاً جميع المظاهر الكاملة للبركان والحكومة بل حتى مظاهر الدولة الكاملة (٣٩) .

والخطوات التى اتخذها كاراجيتش وحزبه - وهى إقامة « المناطق المستقلة ذاتياً » وتسليح السكان للصربيين ، وتدبير حوادث عنف على

الصعيد المحلي ، وممارسة الدعاية بصورة مستمرة ، و « طلب الحماية » من الجيش الفيدرالى ، ثم عقد « البرلمان » الصربى - انما كانت تضاهى بالضبط ما كان يحدث فى كرواتيا . ومن ثم فانه كان بين المراقبين من كان يشك بأن هناك خطة واحدة تنفذ . وتبدد كل شك حول طبيعة تلك الخطة فى مؤتمر حزب ميلوشيفيتش الصربى الاشتراكى فى مدينة بيتش (Beč) فى ٩ أكتوبر عام ١٩٩١ . وبوضوح تام وصف نائب رئيس الحزب ، وهو الفيلسوف المنشق السابق ميهيلو ماركوفيتش ، فى خطبته التى ألقاها فى المجلس ، طبيعة ذلك التمزيق الذى كان هو وسيدته يدبرانه :

سيكون هناك فى الدولة اليوغوسلافية الجديدة ثلاث وحدات فيدرالية على الأقل : هى صربيا والجبل الأسود ومنطقة متحدة تجمع بين البوسنة وكنتين (بمعنى أنها ستكون منطقة تتكون من بعض أجزاء « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » والمنطقة الكرواتية الرئيسية المستقلة ذاتيا) . وإذا رغب المسلمون البوسنيون أن يظلوا داخل الدولة اليوغوسلافية الجديدة ، فسيسمح لهم بفعل ذلك . فان هم حاولوا أن ينسلخوا وجب عليهم أن يعرفوا تماما . أن الدولة المسلمة البوسنية ستكون محاطة بالأراضي الصربية من كل جانب .

وقد كتبت تعقيبا على هذا الخطاب فى ذلك الحين : « وعلى ذلك تكون خطة المستر ميلوشيفيتش انما تهدف الى انشاء دولة يوغوسلافيا بالاسم فقط ولكنها فى الحقيقة صربيا الكبرى ، مع استثناء واحد هو دويلة مسلمة ضعيفة فى الوسط على غرار دويلات السود فى جنوب أفريقيا ابان نظام الفصل العنصرى السابق » (٤٠) . وسوف تطرق الاسماع هذه المقترحات مرات ومرات أثناء المناقشات حول مستقبل المسلمين البوسنيين فى ١٩٩٣ .

وقوبلت هذه التصريحات الواضحة عن نيات صربيا فى الحرب بتجاهل تام من معظم زعماء الغرب ومن المفاوض المعين من قبل المجموعة الاقتصادية الأوروبية وهو اللورد كارينجتون ، حيث ظلوا على اعتقادهم بأنه لا يزال من الممكن قيام صورة مفككة أكثر قليلا ليوغوسلافيا الفيدرالية القديمة . وفى سبتمبر فرضت الأمم المتحدة حظرا على الأسلحة على كل أرجاء الأراضي اليوغوسلافية : ولم يكن لذلك الحظر أدنى أثر

على الجيش الفيدرالى اليوغوسلافى بترسانته الضخمة ، وصناعاته العسكرية الهائلة ، ولكنه أضعف القوات الكرواتية ، التى كانت آنذاك قد شرعت فى إيقاف تقدم الجيش الفيدرالى فى أجزاء كثيرة من غرب كرواتيا وشمالها الشرقى . ولو أنهم كانوا مسلحين التسليح الصحيح لجاز أن يتمكنوا من صد الهجوم على مدن من أمثال فيوكوفار ، والواقع الذى حدث هو أنهم صمدوا هناك فى أماكنهم فى جلد خارق للعادة الى حد أن قادة وجنرالات الجيش الفيدرالى شرعوا يحسبون أن فتح الأراضى فى كرواتيا ، عملية خاسرة . (وعندما سقطت فيوكوفار فى النهاية ، وقد دمر كل بناء فى المدينة تقريبا ، طهر الرجال من أتباع « أركان » المدينة تطهيرا تاما وقتلوا المئات من سكانها) . وتمكنت الحكومة الكرواتية فعلا من تأسيس خطوط تهوين من الأسلحة من دول حلف وارسو السابق ومن الشرق الأوسط ، ونزلت ضربة ثالثة بخطط صربيا عندما صدر الاعتراف الدولى بكرواتيا وسلوفينيا ، وهو أمر ما لبثت فى النهاية أن وافقت عليه المجموعة الاقتصادية الأوروبية تحت الحاح ألمانيا فى منتصف ديسمبر ، وجرى تنفيذه الفعلى فى ١٥ يناير ١٩٩٢ . وتمت تسوية سلمية فى كرواتيا أجرى المفاوضات فيها سيروس فانس ممثل الأمم المتحدة بعد ذلك بعدة أسابيع : وقد وضعت التسوية الأراضى التى غزتها القوات الفيدرالية وغير النظامية فى مجموعة من المناطق المشمولة بحماية الأمم المتحدة ، وهى مناطق ظل الوضع بها على المدى الطويل شديد الغموض .

وقد أدى الاعتراف بكرواتيا الى انتهاء الحرب بتلك الجمهورية ، وكان على كل حال اعترافا بالحقبة الواقعة : فان أية فكرة تقول بأنه كان بإمكان كرواتيا أن تعود للانضمام الى يوغوسلافيا الفيدرالية ، بعد أن تحولت مدن مثل فيوكوفار الى حطام وأنقاض ، كانت فكرة غير واقعية على الإطلاق . ومع ذلك فان هناك عاقبة لهذه الحركة هى أنه أصبح الآن ضروريا للبوسنة أن تسعى وراء الاستقلال هى الأخرى ، والا وقعت تحت الهيمنة الصربية . وكانت المجموعة الاقتصادية الأوروبية متفهمة لذلك تماما مقدما ، وكانت تدعو الى تقديم طلبات استقلال من الجمهوريات الأخرى ، وتطالب البوسنة كشرط أساسى للاعتراف بها أن تجرى استفتاء على تلك المسألة . وقد شكك اللورد كارينجتون من أن المجموعة « قد وادت خطته الرامية الى الوصول الى تسوية عامة فى الجمهوريات الست جميعا داخل اطار يوغوسلافيا العامة . لكن الأمر الواضح أن خطته لم يكن من الممكن قبولها من الكروات أو السلوفينيين ، ولا كانت أيضا بمستطاعة أن ترضى مطامع صربيا وطموحاتها (٤١) . والأمر الوحيد

الصحيح هنا ، هو أن اتجاه البوسنة صوب الاستقلال ، كان ذريعة تدرج بها ميلوشيفيتش وكاراجيتش لبدء المرحلة العسكرية لتمزيق البوسنة .

وكان التخطيط العسكري محكما . فقد احتل الجيش في خريف ١٩٩١ ، مراكز المواصلات المهمة للبوسنة . وأقيمت مواقع المدفعية الثقيلة حول المدن البوسنية الكبيرة بما في ذلك سرايفو نفسها ، نى شتاء ١٩٩١ - ١٩٩٢ . وبأنحسار القتال في كرواتيا في يناير وفبراير ، « سحبت » منها طوابير دبابات ومدفعية الجيش الفيدرالى ، بموافقة الأمم المتحدة ، الى البوسنة . ومن العجيب أن الرئيس عزت بيجوفيتش سمح للجيش بمصادرة الأسلحة التي لدى وحدات الدفاع المحلي : وكأنه كان يحاول بذلك أن يؤكد لقواد الجيش ويطمئنهم نواياه السلمية التي يكنها ، وربما كان هو أيضا ضحية التضليل ، كما كان مفسودا بكل تأكيد « مصادرة » الجيش لبعض الأسلحة من بعض القوات الصربية شبه العسكرية (٤٢) . أما أن الجيش لم يكن غير منحاز وغير سياسى الاتجاه ، فأمر أوضحته تماما أحداث يومى ٢٩ فبراير وأول مارس ، عندما عقد الاستفتاء فى البوسنة . فبينما كانت قوات حزب كاراجيتش الديمقراطى الصربى تمنع الصربيين من التصويت فى ذلك الاستفتاء وتقيم نقاطا فى الطرق لمنع صناديق الانتخاب من دخول مناطق البوسنة التى كانت تحت هيمنتها ، فإن كثيرا من طائرات الجيش أسقطت على الناس منشورات تؤيد المقاطعة . ولكن الذى حدث هو أنه مع ذلك تقدم فعلا للدلاء بأصواتهم ما يقارب ٦٤٪ من مجموع الناخبين بما فيهم آلاف من الصربيين فى المدن الكبرى ، وذلك للإجابة على سؤال فى ورقة انتخاب يقول : هل تؤيد قيام دولة البوسنة والهرسك ذات سيادة واستقلال ، تكون دولة من أفراد متساوين من المواطنين والقوميات المسلمين والصرب والكروات وغيرهم ممن يعيشون فيها ؟ وكان التصويت بإجماع الآراء تقريبا هو « نعم » .

وفى صبيحة الثانى من مارس ١٩٩٢ وهو اليوم الذى أعلنت فيه نتائج الاستفتاء ، أقام أعضاء من القوات الصربية شبه العسكرية الموانع والمتاريس ومواقع القناصة قرب مبنى البرلمان فى سرايفو . وانقضت ٢٤ ساعة بدا فيها أن العسكريين استولوا على السلطة فى البوسنة ، بيد أن مئات من مواطنى سرايفو خرجوا الى الشوارع - أمام القناصة - وقاموا بمظاهرات ، ولسبب ما أجهض الانقلاب . وكان السبب المعلن والظاهر لذلك العمل هو مقتل صربى بالرصاص على يد شابين مسلمين فى حفلة زفاف فى سرايفو فى اليوم السابق . وكان مقتل ذلك الصربى ، الذى يبدو أنه وقع نتيجة لاحتدام مفاجئ بلا بدير مسبق ، اتخذ ذريعة

للتشهير بـ « الارهاب » الاسلامي (٤٤) . لقد كان التكتيك هنا: أوضح من الشمس ، كما أنه من طبيعة الحال لم يكن يدور بخلد أحد ولم يفكر أحد في اقامة المتاريس في سرايفو احتجاجا على اعمال قتل المسلمين على كثرتها. ومثلها من الحوادث في الأشهر السابقة ، مثل قتل محمد جانيبيجوفيتش على يد جماعة من شبه العسكريين الصربيين في سنيوفو في يوم ٧ أكتوبر أو اطلاق المدافع الرشاشة على مسجد محمد أغا بمدينة توزلا من جانب الجند الاحتياط بالجيش الفيدرالي في ١٣ أكتوبر (٤٥) .

وبعد هذا كله تبقى اختيار ممكن واحد أمام السياسيين الصربيين : فاما أن يمزقوا البوسنة اربا بالوسائل العسكرية ، أو أن يمزقوها بالطرق السياسية التي يدعمها تهديد القوة العسكرية . على أن هذه الطريقة الثانية ظلت احتمالا حتى الأسبوع الأخير من مارس ، كما أنها كانت تتوقف كثيرا على موقف الكروات البوسنيين . وروعت درجة ما من السيمتيرية والتوازن مدة طويلة جدا بين المواقف الصربية والكرواتية حول البوسنة : ففي مارس ١٩٩١ التقى الرئيسان ميلوشيفيتش وتوجمان للمتباحث في الوسائل الممكنة لتقسيم يوغوسلافيا ، وكان تقسيم البوسنة في جدول الأعمال المطروح أمامهم (٤٦) . ولكن ضرب السيمتيرية لم يكن الا على وجه جزئي فقط : فان صربيا تقدمت نحو الامام شوطا كبيرا ومبكرة أكثر كثيرا ، وبينما كان الصربيون البوسنيون يقيمون « مناطق مستقلة ذاتيا » في مايو ١٩٩١ و « بولانا » في أكتوبر ١٩٩١ (منتهين بعد ذلك الى اعلان « جمهورية صربية بوسنية » في ٢٧ مارس ١٩٩٢) ، فاما المقابل الكرواتي وهو « اللجنة الكرواتية للبوسنة والهرسك » فلم تعلن الا في يوليو ١٩٩٢ ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على العدوان العسكري الصربي على البوسنة ، وكان زعيم الحزب الكرواتي في البوسنة وهو ستيفان كليويتش ، يؤثر الاحتفاظ بحدود البوسنة ، ومن ثم فان حربه صوت بالموافقة على استقلال البوسنة . أما فكرة تحويل البوسنة الى كونفيدرالية على غرار سويسرا أي الى مجموعة من « الكانتونات » ، فلم تنل موافقة زعامة الاتحاد الديمقراطي الكرواتي . وبوصفه السكرتير العام للحزب ، قال ايفان ماركشيتش في أكتوبر ١٩٩١ : « انه حتى فيما يسمى باسم المنطقة « الصربية » كبايالوكا مثلا يوجد مائة وعشرون ألف كرواتي . وليس من الممكن تقسيم البوسنة الى كانتونات قومية . فاما ما جرى في سويسرا ، فان الكانتونات كانت موجودة أولا ثم تكونت سويسرا من هذه الكانتونات . ولكن الكانتونات

في البوسنة ليس لها الا معنى واحد هو تقسيم القطر وليس بمستطاع
أن يحدث ذلك الا بحرب (٤٧) .

ومع هذا ، فان فريقا من الكروات الهرسكيين يتزعمهم ماتى بويان
أحمد يزيدي من نفوذه داخل الحزب حتى انتهى به الأمر في يناير ١٩٩٢ ،
في حركة شاع أن تدبرها. تم على يد الرئيس الكرواتي توجمان ، ليحل
يوليفر محل كرويتش بوصفه زعيما لحزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي
البوسني (٤٨) . وكان لكروات الهرسك بعض الحق في أن يكونوا أكثر
تشديدا بعد الذي شهدوه من عمليات الحشد العسكري وتأسيس
« المنطقة الصربية المستقلة ذاتيا » هناك ، (ولقد كانوا أيضا على اتصال
وثيق باتحاد الدفاع الكرواتي ، وفي أواخر ١٩٩١ رفضوا أن يسلموا
أسلحة دفاعهم المحلي للجيش الفيدرالي ، ثم شرعوا يشكلون استعداداتهم
المسكينة الخاصة) (٤٩) . ولو استعرضنا النموذج العام للأحداث ،
سواء أكانت عسكرية أم سياسية ، لوجدنا أن تحركات الكروات
كانت ردودا على تحركات الصرب ، كما أنهم كانوا الى حد ما يقلدونهم
في كل حركاتهم . وهكذا عندما حدث أن الحزب الديمقراطي الصربي
أصدر خريطة مقترحا تقسيم البوسنة الى كانتونات (مع جعل ٧٠٪ من
الأراضي تقريبا كانتونات صربية) ، رد الاتحاد الديمقراطي الكرواتي
في ديسمبر ١٩٩١ على ذلك في مدن غير بعيدة بخريطة خاصة به هي
نفسها ، (تنطوي على ما يقارب ٣٠٪ من الكانتونات الكرواتية) (٥٠) .
وكان واضحا تماما أن ما كان يعنيه الصرب بالتقسيم الى كانتونات هو
إنشاء بنية دستورية يستطيعون استغلالها في تنفيذ الانفصال الكامل
الذي طلبوه في الماضي ، وعندما ذهب رادوفان كاراجيتش الى النمسا في
أواخر فبراير ١٩٩٢ للتباحث في مستقبل البوسنة مع ميلوشيفيتش
وتوجمان ، كان الذي يتحدثون عنه هو التقسيم لا الاتحاد الكونفيدرالي
الكانتوني (٥١) . ولكن المجموعة الاقتصادية الأوروبية واللورد كارينجتون
حاولوا الحفاظ على قشة الكانتونات ، فاشتركا في رئاسة عدة جلسات
مفاوضات حول هذه النقطة بين الأحزاب البوسنية الكبرى الثلاثة في
كل من بروكسل ولشبونة أثناء شهر مارس . وفي اليوم التاسع من
مارس كان الوفد الصربي هو الذي رفض قبول خطة تقضي بإنشاء
دستور فيدرالي بوسني ، يكفل فيه لكل مجموعة « عرقية قومية » حتى
الفيديو أي الرفض في كل مسألة كبرى سياسية أو اقتصادية (٥٢) .
وفي وقت تال من ذلك الشهر عبرت المجموعة الاقتصادية الأوروبية عن
موافقتها على فكرة خطة « كانتوناتية » مبنية على صورة معدلة من الخريطة
الصربية . وقبل الجوانب الثلاثة الخطة بادئ الرأي ، ورضوا أن تتخذ

أساسا لمفاوضات تالية ، ثم عاد حزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي
خرفضها في يوم ٢٤ مارس . وتبعه حزب عزت بيجوفيتش (حزب الحركة
الديمقراطية البوسنية) في اليوم التالي لأن الكروات كانوا من رفضها .
ولسنا ندهش لأن الكروات كانوا أول من رفضها ، وذلك لأنها لم تكن
نعطيهم الا ١٧٪ من أرض البوسنة ، وتركت ٥٩٪ من السكان الكروات
في كانتونات لا كرواتية (٥٣) .

والشيء الذي أظهرته كل هذه الخطط مجتمعة في نهاية الأمر ، هو
استحالة القيام بأى شيء من هذا النوع من التقسيمات بطريقة لا تشقى
مئات الألوف من « المواطنين » البوسنيين . ومهما يكن الأمر ، فإن غالبية
سكان البوسنة صوتوا من أجل بوسنة ديمقراطية ومستقلة يسكنها
مواطنون متكافئون متساوون . ولو غضبنا الطرف عن تيار الدعاية
اليلابية في الإعلام الصربي الذي صور البوسنة واقعة في قبضة
« تحالف أصولى أوستاشي » ، فلا يوجد أى دليل يشير ولو من بعيد
الى وجود قوانين عنصرية تمييزية في البوسنة أو حتى يجعلنا نصدق أن
الحكومة البوسنية كانت عازمة على إصدارها أو فكرت فيها . ولكن
نوعا ما من الجنون والاضطراب العقلي السياسي خلقه الصرب ورجال
السياسة الصربيون والإعلام الصربي حول قضية « الدفاع » عن « حقوق »
الصرب البوسنيين ، بحيث كف الناس حتى عن التساؤل والتعجب
عما إذا كانوا عرضة حقاً للهجوم والاعتداء . حتى إذا تم لهذا الهوس
أن يستقر في الأذهان تماما ، باتت الخطوة النهائية وهي التحرك
المسكري قاب قوسين أو أدنى .

الفصل السادس عشر

تدمير البوسنة

١٩٩٢ - ١٩٩٣

... في اليوم السادس من أبريل ١٩٩٢ تم اعتراف المجموعة الاقتصادية الأوروبية بالبوسنة كدولة مستقلة . وقد مرت على البوسنة لحظات عظيمة تمتعت فيها بما يشبه الاستقلال الذاتي أو شبه الاستقلال التام أثناء القرنين الأخيرين - فان فترة الصعود التي مر بها حسين قابيطنان في ١٨٣١ والحكومة القومية في سراييفو في يوليو ١٨٧٨ ، وتسليم البارون ستاركوتيتش السلطة الى المجلس الوطني البوسنى في نوفمبر ١٩١٨ - ولكن لو شئت القول الصحيح ، فان هذا كان أول ظهور للبوسنة بوصفها دولة مستقلة منذ ١٤٦٣ . وسارع المعقبون الى توضيح أن البوسنة قضت هذه السنوات الخمسمائة والتسع والعشرين وهي جزء من امبراطوريتين ثم مملكة ثم جمهورية شيوعية . وقد ادعوا أن البوسنة لا يمكن أن تكون دولة ، لأنها انما تحتوى ثلاث قوميات مختلفة ، وأظهر التاريخ أنها لا يمكن أن تعيش الا كجزء من كل أعظم منها . وغالط الادعاء الأول حين ادعى أن الدول الاممية وحدها هي التي يحق لها الوجود . رلو كان الأمر كذلك ، فان غالبية الاعضاء الذين يقاربون المائة والسبعين فى هيئة الأمم المتحدة ينبغي أن توسم بميسم عدم الصلاحية للعيش . أما التاريخ ، فلا يعلمنا أنه ينبغي للبوسنة الخضوع لدولة أكبر لمنعها من تدمير نفسها من الداخل ، بل ان الأمر يكاد يكون على العكس من ذلك : فان الشيء الوحيد الذى ظل طوال الأيام يهدد البوسنة بالاختار لم يكن هو التوترات الداخلية الحقيقية ، وانما كان مطامع الدول الأكبر منها والولايات المجاورة لها . ويرينا تاريخ البوسنة أنه ، لو طرحنا جانبا ذلك الصراع الاقتصادى بين ملاك الأراضي والفلاحين ، لوجدنا العداوات القومية داخلها لم تبلغ نقطة تصل الى العنف العنصرى الا نتيجة للضغوط الآتية من خارجها . ومن الأمور ذات الدلالة الواضحة أنه حتى الصراع

بين ملاك الأراضي والفلاحين كان بطريقة مهمة - وربما حاسمة أيضا - يشند بسبب الوضع الدولي السياسي أثناء القرن التاسع عشر ، وذلك بصورة متوازية مع قيام صربيا الجديدة تتمتع بلون من ألوان الحكم الذاتي ، وخلق ذلك احساسا بالعزلة في نفوس الطبقة الحاكمة المسلمة بالبوسنة .

وأدت عملية طويلة من التنافس القومي بين صربيا وكرواتيا منذ آخريات القرن التاسع عشر فصاعدا الى جعل السياسات الداخلية البوسنية شائكة حيث راحت تقنع البوسنيين الكاثوليك والأرثوذكس أنهم لابد أن يفكروا في أنفسهم بوصفهم صربا . أو كرواتا . وبعد أن جمعتهم يوغوسلافيا في قطر واحد مع صربيا وكرواتيا مدة أربع وسبعين سنة ، كان من الطبيعي أن كثيرا من أفراد هذين المجتمعين بالبوسنة لابد أن يربطوا هويتهم بهذين الاثنين من أرض الأجداد . ولكن الآن وقد انتهت يوغوسلافيا من الوجود ، فإن نفس الحقيقة التي جعلت الحفاظ على البوسنة أمرا شاقا - وهي سكانها المختلطون عرقا وأجناسا - جعلت ذلك الأمر اجباريا لا مفر منه . فقد اختلط هذان الشعبان مع شعب ثالث لم يكن له أرض أولى ولا أجداد يتطلع اليها ، اختلاطا كان من الشدة بحيث ان التفرقة بينهم لم يكن من الممكن الوصول اليها الا بشم رهيب لا مبرر له في الوقت الذي كان يمكنهم جميعا العيش معا بسلام ووثام ، لو توافر قدر صغير من حسن النية وسلامة الطوية . وكانت الأغلبية تود العيش في سلام ، ولكن أقلية كانت تعمل بتوجيه من دولة مجاورة ، لم تكن ترى ذلك ، وكانت تملك البنادق .

وفي يوم الاعتراف الدولي ، كررت القوات غير النظامية الصربية العملية التي أجهضت في سراييفو قبل ذلك بشهر . وفي هذه المرة اجتمع ما يتراوح بين خمسين ألفا ومئة ألف من البوسنيين ، مع كافة المجموعات القومية ، وخرجوا الى الشوارع احتجاجا على ما يجري . وأوردت الأنباء على لسان أحدهم : « فليذهب جميع المتعصبين الصرب الى صربيا ، ويذهب جميع الأوستاشا الكروات الى كرواتيا ، فانا انما نريد البقاء هنا بعضنا مع بعض . نريد أن نحفظ بالبوسنة وحدة متماسكة » . لكن قوله هذا قطعه دقعات من طلقات الأسلحة النارية التي صوبت على المدنيين (١) . ولم تكن عمليات إطلاق النار هذه ، مع ذلك ، الأولى من نوعها . فقد حدثت في مدى أكثر من أسبوع عمليات إطلاق نار وتفجير قنابل في كثير من المدن البوسنية : بانيا لوكا و بوسانسكي وموستانار . وفي المدينتين الأوليين كان واضحا أن القوات

غير النظامية الصربية بدأت بإطلاق النار ، أما في موستار فقد انفجرت سيارة صهريج لنقل البترول قرب معسكرات الجيش الفيدرالي وربما كان ذلك من عمل القوات غير النظامية الكرواتية ، أو أنه كان محاولة عملها الصربيون لإثبات أن الجيش الفيدرالي كان معرضا للتهديد (٢) .

رفى الثلاثين من مارس أعلن قائد الجيش الفيدرالي ، وهو الجنرال أدجيتش ، قبل الأوان وكأنه يتنبأ ، أن جيشه مستعد للتدخل لحماية الصرب « ضد العدوان الصريح » (٣) .

لكن أسوأ تطور في الأيام الأولى من أبريل كان وصول قوات « أركان » غير النظامية إلى مدينة بيلينا الواقعة في الشمال الشرقي من البوسنة . فهؤلاء الرجال المدججون بالسلاح ، ومعظمهم من الصرب وليسوا من الصرب البوسنيين ، فرغوا لتوهم من عمليات التطهير في فيكوفار . وقد انتقل بعض منهم إلى بانيا لوكا عند نهاية شهر مارس ، حيث بسطوا هيمنتهم على المدينة ، وأقاموا المقاريس في الطرق ، وراحوا يتجولون في الشوارع بقاذفات قنابل اليد ومسدسات سكريبون الأوتوماتيكية (٤) . ثم وصلوا إلى بيلينا المدينة المسالمة التي يغلب على سكانها المسلمون ، وشرعوا في « تحرير » أجزاء منها شياملة المسجد الرئيسي . وهوجم المسلمون بعنف وطردهوا وأرهبوا بالغارات المتكررة ، وحاول عضو مسلم من أعضاء الرئاسة البوسنية هو فكرت أديتش دخول المدينة ، فرد تحت تهديد البنادق ، وفي اليوم الرابع من أبريل أعلن أن موارد الماء والكهرباء قطعت وأن أجساد القتلى ترقد في الشوارع (٥) . ووضح أن الهدف الأساسي من ذلك كان : أولا إرهاب المسلمين المحليين حتى يفروا من المدينة ، وثانيا بث روح التطرف القومي في نفوس الصرب من السكان من تجنيد بعض شبابهم لينضموا إلى صفوف جيش الاحتلال الفوضوي العجيب هذا ، ابتغاء تأسيس الهيمنة الصربية على المنطقة بأكملها . ومن أجل هذين الغرضين لم يكن القتل أو الذبح الجماعي ضروريا ، وكان يكفي عدد من عمليات القتل العشوائي . وجاء في تقرير آخر بعد ذلك أن عدد القتلى المسلمين يقدر بـ ٦٠٠ (٦) . وكما ستدلتنا أحداث الأسابيع التالية ، فقد وقع الاختيار على بيلينا قبل غيرها بسبب أهميتها الاستراتيجية . فانها كانت النقطة المحورية القريبة من الحدود الصربية التي كانت تمتد منها الشقتان العريضتان من الأراضي التي لا بد للقوات الصربية من الاستيلاء عليها : وهي شقة عريضة من الأرض تمتد عبر شمالى البوسنة ، وتوصل ما بين صربيا وبين القاعدة العسكرية في بانيا لوكا وهي « الكراينا » البوسنية ، والمناطق المحتلة من كرواتيا ، ثم بعد ذلك قطاع في الجانب الشرقي من

البوسنة يمتد امتدادا طويلا في خط الحدود البوسنية الصربية (وبذلك يتضمن نقاط الدخول الحيوية لخطوط الامدادات الواردة من صربيا) الى المناطق العرقية الصربية الموجودة في شرق الهرسك (٧) *

وفي مدى بضعة أيام بعد ذلك أخضع عدد كبير آخر من المدن ذات العدد الأكبر من السكان المسلمين في تلك الشقة الشرقية من البوسنة ، ولقيت المعاملة نفسها . وبالإضافة الى « نمور أركان » ، استخدمت الجماعات الأخرى غير النظامية من الجنود بما في ذلك « النمور البيضاء » التي يقودها ميركو يوفتش والتشيتنيك الذين يقودهم شيشيلي (*). وحدث في حالات كثيرة من الهجوم الذي تعرضت له سفورنيك في الأسبوع الثاني من أبريل ، أن استخدمت وحدات المدفعية التابعة للجيش الفيدرالي لقصف المدينة عدة أيام متتالية ، وعندما استسلمت ، أرسل عليها الجنود غير النظاميين ، ليتعاملوا مع السكان . ولم تكن سيكولوجية الرعب والارهاب التي أدخلها قواد الجنود غير النظاميين في تلك الأماكن فاصرة على تخويف المسلمين المحليين حتى يفروا من ديارهم - وإن نجحوا في هذا تماما - وقدر عدد الذين فروا من ديارهم عند نهاية أبريل من مسلمي زفورنيك وفيشيخراد وفوتشا بخمسة وتسعين في المئة (٨) ، فهناك جانب منها لا يقل شأنا ، وهو اقتلاع الصربي المحلي بأنه مخطط الى أن « يدافع » عن نفسه من عدوان جيرانه المسلمين . ولقد مهد السبيل لذلك بطبيعة الحال ، ما كانت تبثه إذاعات راديو وتليفزيون بلجراد ، محذرين الصرب من الأوستاشا ومذابحهم المنظمة التي يذهب ضحيتها الآمنون ، ويبحثون فيهم الذعر من المجاهدين الأصوليين ، وحيث أنهم شهدوا بأعين رؤوسهم مناظر حقيقية من القتل والقنن والمسن المستعلة بالنيران في كرواتيا على امتداد الأشهر التسعة الأخيرة ، فإن بسطاء الفلاحين وسكان المدن اقتنعوا بسهولة تامة بأن تلك التهديدات كانت حقيقية فعلا . وكل ما كان الأمر يحتاجه لا يتجاوز بضع تفصيلات محلية قليلة لاستكمال الصورة . وهناك تقرير صحفي يجمد الدم في العروق بعث به مراسل رويتر أندريا جوستينتشيتش يبين كيف تم الأمر على وجهه المطلوب :

سألتنى امرأة صربية قائلة : « أتري ذلك الحقل ؟ »
(مشيرة الى مرج مترام بجوار نهر الدرينا) . لقد كان مفهوما أن « الجهاد » سيندا هنا . وكان المقرر أن تصبح فوتشا هي « مكة » الجديدة . وكتبت قوائم بأسماء الصرب

(*) الشيشيليون : هم اتباع الزعيم هانيسلاف شيشيلي - (المترجم) *

« الذين يجب القضاء عليهم » . ذلك ما قالته المرأة مكرره
بذلك اعتقاداً سرى بين أهل المذنب وخملة البنادق . « لقد
كان ولدائ مكتوبين في تلك القائمة التي تقول انهما
سيدبحان كالخنازير . فأما أنا فقد أدرجت فيها تحت بند
الاغتصاب » . وغنى عن البيان أن أحدا منهم لم ير القائمة
ولكن ذلك شيء لا يمنع أى فرد من الاعتقاد بصديق تلك
الأراجيف دون أن يكلف نفسه عناء التحقق من وجودها (٩) .

فهل كان القائد العام للجيش الفيدرالى بشرق البوسنة وهو الكولونيل
ميلان يوفانوفيتش يصدق كل تلك الحكايات ؟ . ذلك ما نشك فيه .
وبينما كان رجاله يطردون المسلمين من بيوتهم في مدينة فيشيجراد ، فانه
أبلغ صحفيا بريطانيا أنه واقف على أرض يوغوسلافية ، وأضاف الى ذلك
قوله : « كان هناك تمرد قام به المسلمون . وكانوا يعدون له منذ وقت
طويل نسبيا للقضاء على الصرب » (١٠) . على أن الشيء الواضح تماما
هو أن هذه العملية المشتركة بين القوات النظامية وغير النظامية هي التي
كان يجري اعدادها منذ مدة طويلة من الزمن . والمسألة ، كما جاء في
عبارة أحد المحللين الكبار : « بالنظر الى السرعة التي تم بها اعداد وتسليح
هذه الجموع ، والمستوى العالى من التناسق والتآزر الذي تكشف للعيان ،
فإن من الواضح الجلي أن هذه العمليات لم تكن تلقائيا (١١) » . إذ بفضل
استخدام مزايا المفاجأة من ناحية ، والتفوق الساحق الجارف من ناحية
أخرى ، تمكن الجيش الفيدرالى ومساعدوه اللا نظاميون من أن يقتطعوا في
مضى ستة أو سبعة الأسابيع الأولى منطقة تقدر مساحتها بأكثر من ٦٠٪
من مساحة إقليم البوسنة كله .

وجندت بعض القوات الصربية المحلية من بعض « المناطق الصربية
المستقلة ذاتيا » من البوسنة ، فانضمت أيضا الى هذه العمليات بمناطق
كثيرة من البلاد . ولكنه من الواضح تماما أن الغزو انما تم في معظمه على
يد قوات الجيش الفيدرالى (بما في ذلك الطائرات التي استخدمت لقصف
مدن كوبريس ودوبوى وتوزلا وكلها تدار من بلجراد) ، وكتائب الجنود
غير النظاميين الوافدين من صربيا . وبتعبير آخر ، فانه ولو كان بعض
الجنود الذين يخدمون في الجيش الفيدرالى « كانوا » من صرب البوسنة ،
ومع أنهم كانوا ينسقون ، في تآزر تام مع عناصر صربية متمردة في بعض
المناطق ، فإن الذى جرى كان قبل كل شيء غزوا للبوسنة موجها من الأرض
الصربية ذاتها . وفي أثناء الأسابيع الأولى للغزو ، كانت البيانات الرسمية
التي يصدرها ميلوشيفيتش وقادة الجيش الفيدرالى تروج لادعاءين كلاهما

كاذب وزائف : أولهما أن الجيش انما يعمل كمحافظ على السلام للتفريق بين المقاتلين المحليين ، وثانيهما أن وحدة صربية واحدة لم تكن لعبور الحدود الى داخل البوسنة (١٢) . والواقع أنه لم تكن هناك فقط قوات غير نظامية تعبر الحدود الى داخل الاقليم فقط بل وأيضا ، كما عبر شاهد عيان من مظامة الحدود ، حشد الجيش الفيدرالى فى غضون هذا الأسبوع على حين بغتة ارتالا من الرجال والمدفعية والدبابات على طول الطريق الواصل من صربيا عند انزلاقه بالبوسنة » (١٣) .

ومع ذلك ، وفى يوم ٢٧ أبريل أعلن الرئيس ميلوشيفيتش وحكومته الجبل الأسود ، قيام دولة فيدرالية جديدة ليوغوسلافيا تتكون من هاتين الجمهوريتين وحدهما ، وذلك أمر أوقع الجيش الفيدرالى فى البوسنة فى مزقف حرج غريب ، وذلك لأنه لم يعد يستطيع أن يدعى أنه يتخذ صفة منافذ السلام فى الأراضى اليوغوسلافية . وفى أوائل مايو أعلن ميلوشيفيتش أنه سوف يسحب من البوسنة كل جنود الجيش متى كانوا من مواطني هاتين الجمهوريتين ، أما من هم من صرب البوسنة فسينقلون ومعهم جميع أسلحتهم وعتادهم ، الى ما يسمى « بالجمهورية الصربية » حيث سيوضعون تحت امرة الجنرال راتكو ملاديتش الذى كرز ميلوشيفيتش ، هو من عينه فى منصبه الفيادى كما أن هذا التغير الشامل بأكمله كان مناوره تجميلية . ولم يكن أمام أى مراقب أجنبى أية وسيلة للتأكد من صحة أن الجنود الصربيين و جنود الجبل الأسود قد سحبوا من البوسنة حقا ، وفى ٢٠ مايو ادعت السلطات أن أربعة عشر ألفا خرجوا من البلاد ، ولكن ذلك كان معناه ترك ثمانين ألفا من الجند على الأقل هناك (١٤) . ولو اطلعنا على الشهادات التى أدلى بها ضحايا الحرب فى زدن متأخر من ١٩٩٢ ، لصادفنا عديدا من الاشارات الى جند من صربيا والجبل الأسود . وليس من الممكن لنا أن نعتقد أن الجيش الذى كان يقاتل فى البوسنة منذ أواخر مايو فصاعدا كان يتكون بأكمله من الصرب البوسنيين . وبالنسبة للجند المنتسبين الى البوسنة فان هذا التغير لم يحدث أى تغير جوهري فى خططهم : فقد واصلوا القتال بنفس أسلحة الجيش الفيدرالى ، واستمر تلقيهم لاعدادات من المؤن والذخيرة والطعام والوقود من صربيا وواصلوا العمل فى تعاون تام مع القوات غير النظامية من صربيا ، وحافظوا على الاستراتيجية الشاملة التى وضعها الزعيم الصربى . ولم يظهر الا بعد أحد عشر شهرا ، يوم أن اختلف ملاديتش مع ميلوشيفيتش ، حول تقبل خطة فانس - أوين ، أن هناك اختلافا بين استراتيجية « صرب البوسنة » وبين زعامة بلجراد وسياستها .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا المحاولة التجميلية آتت آثارها المرجوة ، فإن السياسيين المبرزين الغربيين مثل وزير الخارجية البريطاني دوجلاس هيرد ، سرعان ما أخذوا يصفون القتال الناشب في البوسنة بأنه « حرب أهلية » . كما أن محررا سابقا مبرزاً في جريدة التايمز نشر عددا من المقالات وصف فيها القتال بأنه « حرب أهلية » بمعنى الكلمة . وظلت الاذاعة البريطانية تشير باستمرار الى كل جوانب ذلك الصراع ، بما في ذلك الحكومة البوسنية نفسها بأنها « أحزاب متفاحرة » ، ووصفت الحرب بأنها « انهيار للقانون والنظام » . (اذ حدث في مناسبة ما في أبريل ١٩٩٢ ، عندما قطعت الطريق على ست سيارات للأمم المتحدة قوات غير نظامية صربية ، أعلنت الاذاعة البريطانية أن « جهود تقديم المساعدة للاجئين يحول دونها انهيار القانون والنظام » ، ولعل هذا هو الحادث الأول من نوعه والوحيد في التاريخ الذي يشار فيه الى اختطاف سيارة محملة بالأغذية على يد انهيار القانون والنظام !) (١٥) . ولم يكن بوسع بريطانيا أن تفهم ما كان يحدث هناك لسبب آخر وهو أنه في الأيام الحرجة الحاسمة الأولى في أبريل ١٩٩٢ كانت بريطانيا تجتاز انتخابات عامة ، ومن ثم لم يكن في المستطاع الالتفات الى ما كان يجري في البوسنة الا من جانب قلة من المعلقين والسياسة ، وأخيرا عندما تنبهوا الى وجود حرب حقيقية ناسبة في ذات الاقليم لم يستطيعوا أن يروا الا مجموعة من المتقاتلين المتشابهين تماما في الشراسة ، يقاتلون بعضهم بعضا من أجل أسباب لا سبيل الى فهمها . فأما في الولايات المتحدة . فان موعد انتخابات الرئاسة كان بعد سبعة أشهر ، ولكن ادارة بوش حرصت على تجنب أية سياسة بنطوى على التورط ، وتؤثر على نتيجة الانتخابات ، وكانت قناعة بقبول رأى زعماء المجموعة الاقتصادية الأوروبية ، الذين كانوا ادعوا منذ بداية الحرب اليوغوسلافية أن هذه انما هي « مسألة أوروبية بحتة » .

وأخذت قوات الدفاع المحلية التابعة للحكومة البوسنية على غرة ، ربما كان عدد رجالها لا يتجاوز ٣٥٠٠ رجل في مجموعها كله) ، ولكنها حاولت بالفعل أن تظهر شيئا من المقاومة أثناء شهر أبريل . ولكن في هذه الفترة المبكرة كانت المقاومة الرئيسية من جانب الكروات . ففي غرب الهرسك ، كان الكروات قد أعدوا بعض العدة ، وانضم اليهم رجال من القوات الكرواتية عبر النظامية . فقد كانت هذه القوة ومنتزجة بالجيش الكرواتي امتزاجا رسميا أثناء حرب ١٩٩١ - ١٩٩٢ التي دارت رحاها في كرواتيا ، حتى اذا انتهت تلك الحرب أو أوشكت ، ذهب كثير من أعضائها الى الهرسك كوسيلة للهرب من رقابة الجيش الكرواتي عليهم . وفي أبريل ١٩٩٢ شكارا ما يقارب ٥٠٠٠ من تلك القوة ذات الخمسة عشر ألف

رجل من المقاتلين الكروات ، التي كانت مجتمعة بتلك المنطقة : أما الكروات المحليون فانهم نظموا تحت رعاية « مجلس الدفاع الكرواتي » • وبدعوا فى نهاية مايو فى القيام بهجوم مضاد نجح ، بعد أكثر من شهر من القتال ، فى دفع قوات الجيش الفيدرالى بعيدا عن منطقة موستار • وانضم اليهم فى تلك المدينة ما قد يصل الى خمسة عشر ألفا من قوات الجيش النظامى من داخل كرواتيا ، وقد جلبوا معهم كمية صغيرة من الدبابات وبضع قطع من المدفعية ، وفى ١٦ يونيو وقع الرئيس عرت بيجوفيتش مع توجمان معاهدة بين قطريهما تبيح استخدام كل من قوات الجيش الكرواتى وقوات مجلس الدفاع الكرواتى المحلية (١٦) • وفى أجزاء من شمال البوسنة أيضا ، وبخاصة بمنطقة بوسافينا ، تمكنت مقاومة القوات الكرواتية ، من وقف التقدم الصربى تماما ، كما أنها تمكنت فى بعض الأماكن الأخرى من رده على أعقابهم •

وكانت النوايا السياسية لزعامتى الكروات والبوسنيين الكروات . عرضة لبعض الشكوك • فانهم أقاموا لعدة أسابيع وهم يحاجون عرت بيجوفيتش أن يعلن قيام دولة كونفدرالية بين البوسنة وكرواتيا ، ولكنه كان يرفض على الدوام فعل ذلك ، اما لأنه كان يخشى من انحصار البوسنة فى النهاية فى داخل كرواتيا أكبر منها ، أو لأنه ظن أن حركه كهذه ستعطى تبريرا لحجج الصرب • وتفكيره هذا يدل على أنه كان يعترف فى ضرورة أن تمثل حكومته الصربيين ، كما تمثل المسلمين والكروات ، بل الواقع أنه احتفظ فعلا بالوزراء الصرب فى وزارته طوال مدة الحرب بأكملها • ولكن محاولة عزت بيجوفيتش أن يكون متوازنا ، أثارت عليه الكروات ، الذين كان هدفهم الاستراتيجى العسكرى واضحا فى تلك المرحلة ، كما أنه أغضبهم ، بأن عين فى القيادة العامة للجيش ، الضباط المسلمين القلائل الذين ارتقوا الى رتبة الجنرال فى الجيش اليوغوسلافى الفيدرالى - وهو شفير هلالوفيتش ، وله سابقة قيادة وحدات آلية كثيرة هاجمت كرواتيا أثناء الحرب السابقة • وطوال يونيو ويوليو ظل زعيم حزب الاتحاد الكرواتى الديمقراطى فى البوسنة ، ماتى بوبان يضغط على عزت بيجوفيتش عسى أن يوافق على قيام الدولة الكونفيدرالية ، وذلك اما بتهديده بسحب قواته أو بسد الطريق على امدادات الجيش • وفى أوائل يوليو أعلن بوبان قيام « مجتمع الهرسك والبوسنة الكرواتى » ، أى تأسيس اقليم كرواتى يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ، وأدخلت فيه العملة الكرواتية ورفع فيه العلم الكرواتى • ثم حدث فيما بعد أن صدر بيان رسمى على لسان أحد مشيرى بوبان أكد فيه أن ذلك إنما هو اجراء

«ؤفت ، وأن المنطقة لابد أنها ستكون فى نهاية الأمر » جزءا لا يتجزأ من البوسنة » مرة أخرى (١٧) •

فأما إن بوبان نفسه كان يريد حفا لهذه المنطقة أن تنضم الى كرواتيا ، فأمر ظاهر يمكن افتراضه مقدما ، ولكن اعلانات الرئيس توجمان الرسمية استمرت تطرى فكرة الحفاظ على سلامة الحدود البوسنية على أن بعض مستشارى توجمان المقربين ، وبخاصة وزير دفاعه الهرسكى المولد ، جيوكو شوشاك ، كان يحذر افتطاع بعض مناطق من البوسنة ، بيد أن كثيرا من الوزراء الآخرين ومعظم حزب المعارضة فى كرواتيا كانوا معارضين لذلك • ولعل من العدل أن نقول ان موقف توجمان الخاص كان ينطوى على موقف انهازى عقلانى • فلو أنه أعطى اشارات واضحة من العالم الخارجى ، بأنهم لن يسمحوا بهزيمة البوسنة وتقطيعها ، فسيمضى قدما بنك السياسة ، ولكن إذا كان العالم مستعدا أن يسمح للصرب بأن يستولوا على الأراضى ويستمسكوا بها ، فانه كان يرجو أن ينال نصيبه من الكعكة هو أيضا • لكن المجتمع الدولى لم يعطه أية اشارة واضحة تدل على عزمه على الحفاظ على وحدة البوسنة فى حين أن مستقبل المناطق المأهولة بالصرب فى البوسنة كان غامضا ، مع صدور اجراءات متعاقبة محاطلة كسبا للوقت ، كان المقصود منها بسط انتداب الأمم المتحدة عليهم • وذلك ما أتاح لتوجمان سببا اضافيا للمساومة على أرض البوسنة •

وعلى العموم كان رد فعل المجتمع الدولى مرتبكا أو سلبيا • وعندما بدأ القتال فى البوسنة كانت الأمم المتحدة فى بداية انشاء مقر قيادة عاليا فى سراييفو ، فضلا عن قواعد فى بعض مدن البوسنة الشمالية ، لكى تدبر عمليات حفظ السلام فى كرواتيا • وفى أوائل مايو رفض الأمين العام بطرس بطرس غالى استخدام قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فى البوسنة ، وفى يوم ١٦ مايو سحب معظم قوة الأمم المتحدة الموجودة أصلا فى سراييفو • وبعد ذلك بأسبوعين أصدر بطرس غالى تقريرا كرر فيه الخط الأساسى لماورة ميلوشيفيتش ، وهى أن الجيش والقوات شبه النظامية بالبوسنة كانت « مستقلة » ولا علاقة لها ببليجراد • كان الهدف من وراء هذا التقرير هو الحاجة ضد فرض العقوبات على صربيا - وهو اجراء اقترحته الحكومة الأمريكية ، ولكن قاومته كل من فرنسا وبريطانيا اللذين فالأ انها يريدان اعطاء ميلوشيفيتش « فرصة أخرى لايقاف ما يجرى فى البوسنة من عنف » (١٨) • (والواقع أن العقوبات فرضت على صربيا فى ٣٠ مايو ، ولكن لم يكن لها أى تأثير فى الجهد الحربى

الصربي ، كما أنها قوضت تقويضا شديدا بما سلم من البترول وغيره من الامدادات ، التي كانت تصل برا من اليونان أو ترسل عبر الدانوب من روسيا وأوكرانيا) •

كانت نقطة الاخفاق الجوهرية التي وقع فيها الساسة الغربيون ، هي أنهم لم يكونوا ينظرون الا الى أعراض الحرب ، ولم يكونوا ينظرون الى أسبابها : وكانما لم يكونوا يريدون حتى أن يفهموا طبيعة مشروع ميلوشيفيتش • لقد أصروا على معالجة الحرب بوصفها في جوهرها مشكلة عسكرية أكثر منها مشكلة سياسية • ولم يعد افتسام المسؤولية أو توقيع اللائمة الا مجرد الاشارة بالاصبع الى أقوام يتبادلون اطلاق البنادق ، ولما كانت هناك الآن جبهتان تنبادلان ذلك الاطلاق وقع اللوم عليهما كليهما • « وبذلك تقع اللائمة على كل فرد ازاء ما يحدث في البوسنة والهرسك » ، ذلك ما صرح به مفاوض المجموعة الاقتصادية الأوروبية ، لورد كارينجتون ، في إحدى ملحوظاته التي تم تسامها عن عدم فهمه للموضوع • وقال : « وبمجرد الوصول الى تنفيذ ايقاف تبادل النار ، لن تكون هناك حاجة الى لوم أى جانب من الجانبين » (١٩) • والتثبت عند حد ايقاف تبادل النار - وهو أمر تم خرقه أكثر من مرة أثناء الجزء الباقي من السنة - أصبح أوضح دليل وأكبر عارض على سوء الفهم السياسي •

• ونظرا لأن الحرب كانت نرى في جوهرها مجرد مشكلة عسكرية وحسب ، سببه شيء ما يسمى « العنف » الذي « انفجر فجأة » من « كل من الجانبين على السواء » - فان جهود الضرب كانت موجهة الى ما كان يوصف آنذاك « بنقل حصص القتال » • ومن هنا جاء دمار البوسنة وكان أكبر عامل في ذلك رفض دفع حظر توريد السلاح على الحكومة البوسنية • لقد فرض ذلك « الحظر » من جانب الأمم المتحدة في سبتمبر ١٩٩١ على يوغوسلافيا بأكملها التي كانت لا تزال في تلك المرحلة من الناحية الرسمية دولة واحدة • وبالرغم من أن الأمم المتحدة اعترفت بالبوسنة وأدخلها دولة عضوة متميزة ومستقلة عن يوغوسلافيا في ٢٢ مايو ١٩٩٢ ، فانها استمرت في تطبيق الحظر كأنما لم يحدث أى تغيير • وهي بطبيعة الحال قد استمرت في تطبيقه على صربيا أيضا • بيد أن صربيا كانت تمسك بكلمات يديها معظم أكاداس الأسلحة المتبقية عن الجيش الفيدرالي السابق ، كما أنها كانت تمتلك صناعة سلاح ضخمة خاصة بها • (ومن بين مصانع الأسلحة الرئيسية المملوكة في البوسنة ما كانت قائمة في المناطق العرقية للصربيين : مثل مصنع قنابل المدفعية القائم في المنطقة الصربية فوجوتما

حارج سراييفو ، وهو المصنع الذى استولت عليه القوات الصربية عند بداية الحرب) . وبالإضافة الى ذلك ، فإن الجيش اليوغوسلافى اشترى مقداراً اضافياً يقدر بأربعة عشر ألف طن من الأسلحة من الشرق الأوسط . فبيل تنفيذ قرار حظر السلاح فى ١٩٩١ (٢٠) . وكان القواد العسكريون الصربيون يفاخرون ، فى أحيان كثيرة ، بأن لديهم من الأسلحة والذخيرة ما يكفى لمواصلة الحرب فى البوسنة ست أو سبع سنوات أخرى ، ولم يكن فى إمكان الحظر والحالة هذه ، أن يكون له أدنى أثر حقيقى على قدرتهم العسكرية . ولكن ذلك الحظر كان بالنسبة لقوات الدفاع البوسنية قراراً بالاعدام على المدى الطويل .

ومن المسلم به أن امدادات قليلة من الأسلحة كانت تصل الى البوسنيين بالفعل ، وذلك على يد كرواتيا فى غالب الأمر رغم ذلك الحصار المضروب على الساحل الكرواتى منذ يوليو ١٩٩٢ من جانب حلف شمال الأطلسى والأساطيل الصغيرة التابعة لاتحاد غرب أوروبا . وبقيت بضعة مصانع أسلحة قليلة داخل المناطق التى تسيطر عليها الحكومة البوسنية ، وظل بعضها قادراً على الاننتاج رغم الاضطراب فى الامدادات . وفى بعض الأحيان كانت قوات الحكومة البوسنية تستولى أيضاً على بعض المواد من الجيش الصربى : ومن أبرز تلك العمليات بشمال توزلا الاستيلاء على طابور مدرع بأكمله . ولكن الشيء الذى كان يعوز البوسنيين على الدوام هو المدرعات الثقيلة والمدفعية ، والأسلحة المضادة للدبابات . وفى سبتمبر مدر أنهم يمتلكون دبابتين واثنتين من حاملات الجنود المدرعة وذلك بينما كان الجيش الصربى فى البوسنة يمتلك ثلاثمائة دبابة ومئتين من حاملات الجنود المدرعة وثلاثمائة قطعة مدفعية وأربعين طائرة (٢١) . ثم جاء تقدير آخر صدر فى يونية ١٩٩٣ ، وهى يحدد الأسلحة التى استولى عليها البوسنيون بأنها تصل الى أربعين دبابة وثلاثين حاملة جنود مدرعة بالإضافة الى عدد ضخم من قطع المدفعية الخفيفة ، وكان المظنون أن القوات الكرواتية تمتلك ما يقرب من خمسين دبابة وأكثر من مئة قطعة مدفعية (٢٢) .

ومع هذا ، ورغم الفارق الكبير فى التوازن التسليحي ورغم الفيض المستمر للوفود والامداد الموجه الى القوات الصربية ، فإن التاريخ العسكرى للحرب أثناء ١٩٩٢ ، كان تاريخ تعادل حقيقى وندى منذ اللحظة التى بدأت فيها قوات حكومتى البوسنة والكروات فى تنظيم صفوفها فى أواخر ١٩٩٢ . وفى الشهور التسعة التالية ، أمكن ايقاف القوات الصربية ، كما أنها فى بعض المناطق اضطرت الى التراجع : وبخاصة فى الهرسك أثناء شهري مايو ويونيو ، وحول جورازده (Gorazde)

في أغسطس ، وفي ممر برتشكو بشمال البوسنة الشرقي ، بدرجته
منقطعة طوال الخريف ، وفي أجزاء من وادي الدريشا بشرق البوسنة
في يناير ١٩٩٣ . كان هناك فارق في التكتيكات العسكرية بين الجانبين ،
يعبر عن فارق في السيكولوجية والدوافع . وكان التكتيك الأساسي للجانب
الصربي هو نفس التكتيك الذي سبق استخدامه في كرواتيا ، وهو القعود
على مسافة معقولة حذرة ، ودك المناطق التي كانت تهاجمها بالقصف
المدفعي ، مدة أسابيع ، بل حتى شهورا متتالية بلا توقف . وكان كثير من
المجندين الذين يعملون في هذا الجيش الفيدرالي سابقا يفتقرون الى حافز
يدفعهم لمهاجمة ديار المسلمين والكروات ، بينما كان (٢٣) هؤلاء لديهم
الحافز للدفاع عنها ، ولو كانت الحكومة البوسنية قادرة على أن تمارس
الحق الطبيعي لأية حكومة أخرى ، في الحصول على الأسلحة للدفاع عن
شعبها ، فإن من المحتمل تماما أن المكاسب الصربية ما كانت الا لثرد على
أعقابها في كثير من أرجاء البوسنة ، ان لم يكن ذلك الى حد الهزيمة المطلقة
لزعماء الصرب ، وعند ذلك قد تكون الهزيمة الى حد أنهم يدركون ويعلمون
أنهم لن يستطيعوا الحصول على الأرض التي يريدون عن طريق الفتح .
وعندئذ ما كانت الحرب الا لتنتهي فيما يحتمل في مدى أربعة أو ستة أشهر .
ولكن ذلك لم يحدث ، لأن تسليم الأسلحة الى الحكومة البوسنية كان يلقي
مقاومة شديدة من رجال من أمثال دوج دلاس هيرد ، الذي كان يحتاج بأن
السماح للبوسنيين بالدفاع عن أنفسهم لن يعود الا « بتطويل
أمد القتال » .

وكانت أول بادرة بإحداث تغيير ممكن في السياسة الغربية في أوائل
أغسطس ١٩٩٢ ، بعد أن قام عدد من رجال الصحافة ومجموعة من
مندوبي التليفزيون بزيارة أحد « معسكرات الاعتقال » التي يديرها
الصرب بشمال البوسنة . ولأول مرة استطاع الرجال العاديون والساسة
أن يشهدوا بأعينهم الدلائل القاطعة التي تشهد بمأساة السكان المسلمين
بتلك المنطقة . ولم تكن الحقائق مجهولة ، أو لم يكن يجوز أن تكون
مجهولة ، لدى الأمم المتحدة ولدى الحكومات الغربية : خاصة وأن تيارا
ضخما من التقارير من موظفي الأمم المتحدة في المناطق المجاورة بكرواتيا ،
أنسار الى معسكرات الاعتقال هذه أثناء الشهرين السابقين ، كما أن تقريرا
أصدرته المنظمة العالمية لحقوق الانسان في ٢٩ مايو ذكر أمثلة كثيرة
للمسلمين المدنيين الذين اعتقلوا واحتجزوا بالمدارس وغيرها من المراكز ،
فضلا عن أنهم كانوا في بعض الحالات يقتلون (٢٤) . وفي أوائل شهر
يونيو أصدرت الحكومة البوسنية قائمة بأسماء أربعة وتسعين مكانا

للمدنيين ومعسكرات اعتقال يديرها الصرب ، ومعها تقدير لعدد الناس الذين قتلوا حتى ذلك الحين بأنه تسعة آلاف وثلاثمائة من الأنفس (٢٥) . وهذا الرقم لم يكن بأية حال قريبا من المجموع الكلي للمدنيين ممن اعتقلوا وأعدموا رميا بالرصاص : وبخض النظر عن ضحايا الفصيف المدفسي ، فإن هناك كثيرا ممن اعتقلوا وأعدموا في القرى والمدن بجميع أرجاء البوسنة . وهناك حالة تدعمها وثائق جيدة بوجه خاص ، وهي حالة مدينة زابلونا المسلمة (Zaklopata) ، حيث أعدم ما لا يقل عن ثلاثة وثمانين قرويا - يكادون يشكلون مجموع الرجال المقيمين بتلك القرية - حيث « نفذ فيهم حكم الإعدام بالجملة » على يد الجند غير النظاميين الصربيين في يوم ١٦ مايو ١٩٩٢ . وهاكم مالا نموذجيا لها :

« كان زوج أختي حاسو هودجيتش ، واففا في الخارج أمام المنزل ، عندما اقترب منه جنود التشيكتيك وبدعوا بنداؤه باللاؤستاسا . فشرع زوج أختي في السير نحوهم ، فطلبوا منه تسليم أسلحته . فأخبرهم بأنه لا يملك أسلحة ، وأنه يمكنهم أن يأخذوا بقرااته . وعند ذلك فزع عليه النار أحد التشيكتيك فأرداه صريحا » (٢٦) .

وفي بعض الأماكن ، جرى قتل متعمد لكل المسلمين المسلمين ، ووجهه المبتدع المحلي : المعلمين والأطباء والمحامين . وقد أظهرت التقارير المفصلة التي ظهرت بعد ذلك ، في نفس السنة ، أن بعض معسكرات الاعتقال قد استخدمت أيضا مقرا للقتل المنظم . وكان هناك أيضا كثير من التقارير المدعمة بالأسانيد والوثائق عن نساء يقبض عليهن ويحتجزن في مبان خاصة بغرض الاغتصاب المنظم (٢٧)

كان رد فعل السياسة الغربية ازاء مشاهد السجناء المعذبين في المعسكرات ، هو مجرد التعبير فقط عن الغضب والاهتمام . مثال ذلك أن لورد أوين وهو يكتب كعلق مستقل ، دعا إلى شن غارات جوية على القوات الصربية . فرد دوجلاس هيرد على كل هذه الدعوات إلى التدخل ببيان قال فيه : « إن هناك » مبررا « كبيرا للتدخل . وإذا قدرنا أن تدخل عسكريا يستمر لمدة أيام قليلة سيضع نهاية لتلك الآلام ، فإن الأمر لن يكون مجرد » مبرر « كبير بل سيكون دافعا هائلا » (٢٨) . وهنا ، كان سيادته يعترف لأول مرة بصحة المبدأ التائي بأنه ربما كان من الصواب أن « نزيد حدة الدال » في المدى التصيري لكي ننهيه في المدى الطويل . بيد أنه كان لإزال المعارضة ، ماضر تام فكرة تطبيق هذا المبدأ بالسماح للحكومة البوسنية

بالدفاع عن نفسها ، مستخدمة قواتها الخاصة وقدرها كافيا من الأسلحة .
ولكنه كان ، شأن معظم الزعماء الغربيين الآخرين ، لا يزال ينظر الى
القتال على أساس أنه حرب أهلية (« وأنها حرب لا خط لجبهة فيها . .
فالقوية منقسمة على نفسها الى شطرين متعاديين ») ، ومفهوم وواضح للعيان
أنه كان كارها للتدخل بالجند البريطانيين - وهو شيء لم تكن الحكومة
البوسنية على كل حال تسأله أن يفعله .

ووقع على عاتق الحكومة البريطانية ، كمتولية لرئاسة المجموعة
الأوروبية الاقتصادية ، أن ترأس مؤتمرا مشتركا للمجموعة والأمم المتحدة
حول الموقف في يوغوسلافيا بأكملها ، وهو مؤتمر عقد في لندن خلال
الأسبوع الأخير من أغسطس . وبات الشلل الذي أصاب الغرب أوضح
كثيرا . فحصل جون ميجور على ما زعمه تعهدات جادة فاطمة من زعماء
الصرب برفع الحصار عن المدن البوسنية كبيرها وصغيرها ، وأن يضعوا
أسلحتهم الثقيلة تحت إشراف الأمم المتحدة . ولكن الإشراف فسر
بمعناه الأصلي الحرفي : فسمح للمدوبى الأمم المتحدة بأن يرصدوا قطع
المدفعية الموجهة الى سراييفو كل يوم وهي تطلق قذائفها دون التدخل
لمنعها . والاجراء الآخر الذي تم الاتفاق عليه في المؤتمر كان يتضمن تشديد
العقوبات على الصرب عند نهر الدانوب ، (وان لم تكن هناك حتى آنذاك اية
وسيلة لايقاف الصنادل العائمة عن التقدم بما تحمل ، اللهم الا استخدام
مكبرات الصوت) ، وحظر تحليق الطائرات فوق البوسنة (وان لم نه
العمدة لتنفيذ ذلك) ، وتعيين اللورد أوين المفاوض المحارب ليحل محل
لورد كارينجتون في وظيفة مفاوض المجموعة الاقتصادية الأوروبية (وان
كان اللورد أوين قد أسقط على الفور نهديه بالعمل العسكري ، وبدأ يعامل
انسرب بوصفهم فئة متكافئة في المفاوضات لها ادعاءاتها الصحيحة مثل
الأطراف الأخرى تماما) .

وللمرة الثانية فشل المجتمع الدولي في أن يدرس الأسباب الجوهرية
المصراع . والآن أصبح التأكيد مركزا على شيئين : الحلول العسكرية
للمشاكل العسكرية ، والحلول الانسانية للمشاكل الانسانية . ومع أن
مصطلح « التطهير العرقي » كان دائرا على الألسن في كل مكان ، فقد ظل
الافتراض قائما بأن المشكلة الجوهرية عسكرية بحتة ، وأن فرار السكان
المضطربين والمروعبين ، لم يكن الا نتيجة ثانوية للقتال . وعند ذلك أصبحت
المسألة توصف بأنها مسألة أو مشكلة انسانية ، يمكن ان « نحل » بنشر
اللاجئين الى معسكرات لاجئين خارج البوسنة . فأما النهى الذي لم كان
مفهوما تماما ، فهو أن التطهير العرقي لم يكن نتاجا ثانويا للحرب ، وانما هو

جزء محوري أساسي من المشروع السياسي الذي كان مقصودا من الحرب أن تنجزه . وأعنى بذلك خلق مناطق صربية متجانسة ، يمكن في خانة المطاف أن تضم الى مناطق صربية أخرى ، بما في ذلك صربيا نفسها ، بغية خلق دولة صربية عظمى .

وأما البعثات الانسانية التي كان يرسلها العالم الخارجي ، فانها كانت تنقذ الحياة البشرية دون أدنى مراة . على أنها كانت لها عواقب أخرى غير مرغوبة ولكنها ايضا غير بعيدة عن العقول ولا غير متوقعة : اذ كانت الميليشيات المحلية تتعامل واياها بوصفها مصدرا للمثونة ، حيث كانت تتلقى منها بانتظام مقادارا يصل الى ربع المقادير المسلمة للناس ، والتي كانت تمر من خلال فقط نفتيشهم ، مع ابتزاز مبالغ طائلة من الأموال أيضا (٢٩) . وبينما وكالات المعونة العامة والخاصة تبذل جهودا مضنية لجلب الطعام والأدوية الى البوسنة أثناء النصف الثاني من عام ١٩٩٢ ، انضم اليهم عدد متزايد من جند الأمم المتحدة (بلغوا ثمانية آلاف تقريبا عند نهاية السنة) ، وكان دورهم ، بالإضافة الى حماية قوافل المساعدات ، غير واضح ، وكانت العاقبة السياسية لوضع هذه القوة الصغيرة الخفيفة التسليح في البوسنة هي أنها أصبحت في وضع الرهينة ، ومن ثم صارت الدول الغربية أكثر ترددا في تبني أية سياسات قد يترتب عليها الانتقام من جانب الصرب من هذه الحشود المكشوفة من الجند . وهكذا حدث عند حلول ديسمبر ، أن الحكومة البريطانية التي ساعدت في اقامة منطقة « حظر الطيران » فوق البوسنة ، كانت تتجادل في الأمم المتحدة ضد اتخاذ أى اجراء لتطبيق الحظر ، خشية ما ربما قد يقع منه من ضرر على الجنود البريطانيين في البوسنة اذا حدث وأسقط سلاح الطيران الملكي البريطاني طائرة صربية (٣٠) .

وفي أواخر أكتوبر ١٩٩٢ قدم مفاوضا المجموعة الاقتصادية الأوروبية والأمم المتحدة وهما لورد أوين وسيروس فانس ، أول اقتراح تفصيلي لتسوية سياسية . كانت تلك التسوية عبارة عن « حل » وصلا اليه بتنفيذ مطالب الصرب والكروات والمسلمين عن طريق رسم خطوط هندسية بين الأطراف جميعا . كانت النتيجة أن أعطى الصرب مساحة كبيرة من الأرض ، مما استفز المسلمين الى الشعور بأن الصربيين قد كوفئوا على عدوانهم ، ومما أشعر الصرب بأنهم لو استثمروا في أعمالهم ، فلا بد أنهم سينالون قدرا أكبر . وقد وضع هذه الخطة أصلا دبلوماسي فنلندي اسمه مارتتي اهتيساري (Martti Ahtisaari) وترمى الخطة الى تحويل البوسنة الى « مقاطعات ذات استقلال ذاتي » أو كائونات تقوم بجميع وظائف

الحكومة بما في ذلك أعمال الشرطة . وتتولى الحكومة المركزية في البوسنة مسائل الدفاع القومى والشؤون الخارجية فقط . وعندئذ ضغط الصرب ضغطا أشد عندما صدرت الخطة فيما قيل انه آخر اطار نهائى لها بمدينة جينيف فى يناير ١٩٩٣ ، حتى أن شئون الدفاع انزلت من سلطات هذه الحكومة المركزية المقترحة (٣١) .

كانت مزايا خطة فانوس - أوين تسيطر فى اصرارها على أن يسمح للاجئين بالعودة الى ديارهم بكل أرجاء البوسنة ، واصرارها على عدم توصيل الكانتونات التابعة للمناطق التى يحتلها الصرب بطريقة تجعل من السهل عليها أن تحاول أن تنضم الى صربيا بوصفها كتلة أرضية واحدة . ومن أسف أن هذين المبدأين الجديرين بالنساء كانا متناقضين مع بقية الخطة ، ومع الواقع نفسه ! . اذ أن بقية الخطة كانت تعطي سلطات تشريعية كاملة وقضائية وتنفيذية (بما فى ذلك الشرطة) للكانتونات ، وهو أمر كان من المستحيل معه أن يعود اللاجئون المسلمون فى أمان الى الكانتونات التى يحكمها الصرب (٣٢) . كما أن واقع الأمر على سطح الأرض كان يشير الى أن المناطق التى استولى عليها الصرب كانت متصلة ، وكان من المستحيل على زعماء الصرب أن يفرطوا فى هذه الروابط التى كانت عنصرا أساسيا فى خططهم الخاصة .

ومن العيوب الأخرى فى هذه الخطة والتى تجلت فى صورتها التى نشرت فى يناير ، أن أعطيت الكانتونات أسماء « عرقية » على الخرائط ، رغم ان هذا الأمر لم يكن منصوبا عليه فى صورتها الأصلية ، كما أنها أوحى فى نفس الوقت بأن الحدود الدقيقة على الخرائط ليست مع ذلك نهائية بعد . الأمر الذى جدد التنافس على احتياز الأرض . على أنه مما يزيد الطين بلة ، أن الخطة كانت تستنفر التنافس بين القوات الكرواتية والمسلمة ، على أجزاء من وسط البوسنة ، التى يعيش فيها خليط من السكان المسلمين والكرواتيين . وهنا تكون هذه ، بعد قرار حظر الأسلحة على المسلمين ، ثانى أهم مساهمات الغرب التى أسداها فى سبيل تدمير البوسنة ، اذ أنها وضعت أسسا لتطوير حرب أهلية حقيقية ، واذ فعلت ذلك ، فإنها قصمت ظهر التحالف الكرواتى المسلم ، الذى كان الحاجز الوحيد الذى يوقف الصرب عند حدهم .

وكما رأينا آنفا ، كانت هناك نوترات بالفعل بين المسلمين البوسنيين وزعماء الكروات . وفى سبتمبر ١٩٩٢ ، ظهر تقرير بأن الزعيم الكرواتى ماتى بوبان كان يحض قوات مجلس الدفاع الكرواتى على أن يكفوا عن

مساعدة قوة الدفاع البوسنية ، في محاولاتها كسر الحصار حول سراييفو (٣٣) * وحدت في أكتوبر بعض مذاوشات بين الميليشيات المسلمة والكرواتية في ترافنيك وبروزور ، كما حدث تبادل من دربر الدوم بين الجانبين حول سقوط يايسه في أيدي الصرب . ولكن حتى الآن لم يكن هناك أى قتال واسع المدى بينهما ، كما أن التحالف العام ظل قائما . ولم يلبث ذلك الموقف أن تغير تدريجيا بتأثير خطة فانس - أوين في أوائل ١٩٩٣ . وفي فبراير حوصرت القوات المسلمة في جورني فاكوف بواسطة قوة جنود مجلس الدفاع الكرواتي ، وفي المنطقة بين فيتيز (Vitez) وكيسيليك (Kiseljak) (وهي منطقة خلاف على خريطة فانس - أوين) استتبك كل من المسلمين والكروات في قتال وصفه نغزير بأنه « تطهير عرقي مستقل » (٣٤) . وفي أوائل أبريل ، وقعت اشتباكات من القتال النفيل بين المسلمين والكروات بمنطقة ترافنيك - فينيز - زينيكاف في وسط البوسنة (٣٥) . وأصدر مندوب هيئة الأمم المتحدة لشئون حقوق الانسان ، تادوتس مازوفيسكي (Tadeusz Mazowiecki) تقريراف في الشهر التالي ، محذرا بوضوح أن خطة فانس - أوين كانت تغير عملية التطهير العرقي ، ولكن سبق السيف العذل (٣٦) .

واجتمع الأثر المزدوج لحظر توريد الأسلحة ، وخطة فانس - أوين ، فأضعف بصورة قاتلة كل المقاومة العسكرية ضد الصرب . وحتى وفيت متأخر هو يناير ١٩٩٣ ، كانت تنشر تقارير عن صد القوات الصربية على أعقابها بمناطق عديدة ، وبخاصة في منطقة براتونساك في وادي درينا (٣٧) . بيد أن نقص الذخائر كان قد أخذ يدرجة خطية في تعويق قوات الدفاع البوسنية . وفي الشهر الأول من ١٩٩٣ ، صعدت القوات الصربية بدرجات واضحة حملتها على عدد من الجيوب المسلمة المحاصرة داخل المنطقة التي غزاها الصرب بشرق البوسنة . وعلى الرغم من مبادرات أجيد تدبيح الدعاية لها بقلم القائد العام لقوات الأمم المتحدة وهو الجنرال موريليون وقلم القوات الجوية الأمريكية التي كانت تسقط عليها الامدادات والأغذية بالمظلات ، فإن هذه الجيوب لم تستطع أن تصمد طويلا . وهنا انقلبت سربرينيكاف ، التي كانت في أخريات العصور الوسطى أعظم مدن البلقان الغربية رغدا لاحتوائها على عمال مناجمها الألمان وتجارها البراجوزيين وrehبائها الفرنسييسكان ، الى معسكر عملاق للجائين النعساء . أما زيبا (Zepa) ، فأنبا لما دخلها المراقبون الأجانب ، وجدوها مهجورة : فبنلما نفدت ذخيرة المدافعين عنها ، فر سكانها الى التلال المطلة عليها وعاسوا في الكهوف على المئونة التي كانت الطائرات الأمريكية تسقها عليها . عليهم (٣٨) .

وتحت هذا الضغط العسكري ، تحركت الحكومة البوسنية ، خلال مارس وأبريل ، نحو نقبل خطة فانس - أوين . اذ تيقنت علم اليقين يومئذ ، بانقطاع الأمل في أن يزيل الغرب السبب الأساسي في ضعف البوسنة العسكرية ، وهو حظر الأسلحة عن البوسنة : وفد عبرت كل من الحكومتين الأمريكية والألمانية بإيجاز مختصر عن استقرار نيتهما على الغائه ، ولكن سعى دوجلاس هيرد المجدد لديهما أقنعهما بأن يغيرا رأيهما (٣٩) . وحنى التدخل الصريح الواضح من جانب الليدى ثاتشر في التليفزيون البريطانى والأمريكى فى منتصف أبريل ، لم يستطيع أن يهز سياسات آل من حكومتى هاتين الدولتين . وكانت الحكومة البريطانية بوجه خاص مفتونة بخطة سلام فانس - أوين ، ولا تقبل مطلقا النظر فى أى تغيير أو حركة ، يمكن أن تعرض هذه الخطة للخطر . والأمر فى تلك المرحلة لم يكن يحتاج الى أى نوع من الفراسة للقول « بأنه حتى الأعمى كان يرى ان خطة فانس - أوين لا يمكن تنفيذها على الاطلاق » (٤٠) :

والطريقة الوحيدة التى كانت تستطيع بها خطة فانس - أوين أن تحصل ولو على قبول رمزى من الصرب ، هى أن تكون محطة على طريق الانفصال الكامل للمناطق التى غزاها الصرب . على هذا الأساس قام رادوفان كاراجيتش ، بتشجيع من سلافو بودان ميلوشيفيتش ، بالتوقيع على الخطة فى اجتماع خاص عقد فى أثينا فى الثانى من مايو ١٩٩٣ . وموقف صربيا هذا ، شرحه دراجوسلاف راتشيتش ، وهو المتحدث الرسمى لداعية القومية الصربية دوبريكا تشوسيتش (الذى كان قد أصبح رئيسا لصربيا والجبل الأسود) ، بقوله : « انها مجرد المرحلة الأولى ، وانها لن تدرم طويلا . وانه حتى اللورد أوين نفسه لا يؤمن بها » . وأضاف الى ذلك قوله ان المسلمين سيجدون فى النهاية أنهم يعيشون فى معازل كالسود فى جنوب أفريقيا » . وأن الصرب سيحصلون على كل شئ يريدونه (٤١) . ومع هذا فان كثيرا من سياسيين وقادة صرب البوسنة كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون ان يحصلوا على ما يشاؤون دون أن يكافوا أنفسهم بانباع خطة فانس - أوين . وكانت المعارضة قوية بوجه خاص من أولئك السياسيين الصرب ، الذين أصبحوا فى واقع الأمر الحكام الشخصيين لاقطاعات أضخم حجما ، ولا يرغبون أن تقتطع سلطتهم بأى تدخل ادارى (٤٢) . فرفضوا الخطة التى وقها كاراجيتش فى أثينا ، ونظموا استفتاء فى الخامس عشر من مايو تمكنوا بفضلها من اقناع الجنود والفلاحين الصرب ان يرفضوها أيضا . وعرض موقفهم هذا ، الجنرال ملاديتش ، الذى يبدو أنه كان على خلاف مع ميلوشيفيتش حول هذا التكتيك . وظل ميلوشيفيتش بضعة أيام وهو يصصر علنا على أنه سيقلق الحدود بين صربيا والبوسنة ،

ولكنه رفض أن يسمح للمراقبين الدوليين بأن يرصدوا الحدود • وفي مدى أسبوعين عاد فيض المؤن والامدادات سيرته الأولى (٤٣) •

على أن شهادة الوفاة النهائية للبوسنة كتبت يوم ٢٢ مايو في واشنطن في اجتماع عقد لوزراء خارجية بريطانيا وروسيا وفرنسا والولايات المتحدة • والآن أسقط تماما كل حديث عن الضربات الجوية الذي استخدم تهديدا للصرع أثناء التمهيد لعقد اجتماع أثينا • بل إن فكرة فرض خطة فانس - أوين بالقوة قد نبذت تماما هي أيضا • وتقرر بدلا من ذلك أن يسمح لبقايا المليونين من مسلمي البوسنة بالتجمع في عدد مما يدعى « بالمناطق الآمنة » ، حيث لا يضمن أحد في الواقع سلامتهم: نعم انهم سيسلمون بحراسة قوات الأمم المتحدة الذين كان يخول لهم حق أن يردوا على إطلاق النار ، ليس عند إطلاق النار على المسلمين ، بل عندما يتعرضون هم أنفسهم (أى جنود الأمم المتحدة) لأى هجوم (٤٤) • وعندما سمع الرئيس عزت بيجوفيتش بأخبار هذه الاتفاقية - حيث لم يكلف وزراء الخارجية أنفسهم مشقة مجرد استشارته في الأمر - أصدر البيان التالي : « اذا لم يكن المجتمع الدولي مستعدا للدفاع عن المبادئ ، التي سبق وأعلن أنها أساساته ، فليقل ذلك صراحة ، لكل من شعب البوسنة وشعوب العالم بأجمعها • وليعلن معيارا جديدا للأخلاقيات تكون فيه القوة العاتية هي أول وآخر حجة » (٤٥) • وفي أثناء شهور الصيف التالية ، أقدم الذين يمارسون تلك الحجة - وهم سلوبودان ميلوشيفيتش وفرانيو توجمان واللورد أوين ، على وضع مشروعات خطط أسد فحاجة وأكثر انكسافا وعريا ، في تعاقب صفيق ، لتقسيم البوسنة الى ثلاث دول • وسواء أتم الاحتفاظ بورقة التوت ، المسماة دولة البوسنة الكونفيدرالية الشاملة ، أم لم يتم الاحتفاظ بها ، فأمر لا يكاد يستحق أى اعتبار • فإن كل شكل لتلك الخطة لابد أن يخلق دولة مسلمة على غرار معازل جنوب أفريقيا لا يمكن العيش فيها ، وهى تسوية لن يقبلها حتى أكثر الجنود المسلمين ابتعادا عن التراث الاسلاسي ومثل هذا المطمع ، بكل ما يحويه من عدم استقرار طويل المدى يسببه أى استقطاع من أراضى البوسنة ، وصفه اللورد أوين بأنه « ليس حلا مثاليا » ولأجل أن تكون أكثر دقة ، فهو ليس حلا على الإطلاق •



ولو نظرنا خلفا واستعرضنا تاريخ هذه الحرب ، لوجدنا أن الأسباب الحقيقية لتدمير البوسنة لم تكن تجيء من الداخل ، وانما من خارج البوسنة نفسها • كما أنها جاءت على هذا الوجه مرتين متتاليتين : فجاءت أولا في صورة السياسات الاستراتيجية التي اتخذتها زعامة الصرب ،

ثم جاءت ثانية في صورة سوء الفهم والتدخل الأخرق من قبل زعماء الغرب . ومع هذا فإن كل مشاهد نظر بباصريته الى تلك الفظائع التي لا يتصورها عقل ، والتي ارتكبت أثناء تلك الحرب ، (وهي فظائع ارتكبت في المقام الأول ، وبدرجة فاحشة جارفة على المسلمين والكروات ، ثم عادت فعدت على الصرب أيضا) ، لا يسعه أحيانا الا التعجب والنسأل : الا ينطوى سكان البوسنة في مجموعهم على شيء من الذهان العقلي انتهى في خانة المطاف الى الظهور على السطح ؟ ! فلن يستطيع أحد أن ينكر أنه كانت هناك بعض الممارسات البشعة ، كالتمثيل بالقنلى ، وهو تقليد قديم يرجع الى أيام الحروب الأولى وتحدثنا عنه المرويات الشعبية ، والقصص التي تحكى عن المارتولوس المخيفين في القرن السادس عشر . وكان لا يزال هناك في البوسنة رجال أحياء مسنون يستطيعون تذكر هذه الفظائع وأمثالها منذ عهد الحرب العالمية الثانية . ولكن الظن بأن هذه الحرب البوسنية إنما تعتبر ضربا تلقائيا من مواصلة الحرب الأهلية العرقية التي شهدتها يوغوسلافيا أيام الحرب العالمية الثانية ، فكأنما هو ضرب من تلاوة جديدة لذلك السيناريو الذى أعده كل من كاراجيتش وميلوشيفيتش .

إن فظائع البوسنة في ١٩٩٢ ، لم يكن يرتكبها كهول ، ولا حتى شبان يريدون إثارة الأحقاد الدينية ولادة الحرب العالمية انانية . وقد بدأ النموذج بأفراد عصابات من شبان من سكان المدن يضعون على أعينهم نظارات شمسة عالية الثمن ، وينطلقون من صربيا ، ونعنى بهم أفراد القوات شبه النظامية أو الميليشيات التي جندوها أركان وغيره ، وبالرغم من أن الأفراد الذين يرتكبون هذه الأعمال البشعة ربما كانوا يحصلون منها على لذة سادية ، فإن كل ما كانوا يفعلونه هو تنفيذ استراتيجية عقلانية مدروسة ، يملئها عليهم قادتهم السياسيون - وهي استراتيجية محسوبة بعناية وحرص كاماين ، لدفع مجموعتين عرقيتين من السكان خارجا ، وتعبئة مجموعة ثالثة بالتطرف حتى جذورها . ذلك أنى بعد أن تجولت في جميع أنحاء البوسنة أمد خمسة عشر عاما ، أقمت بقرى مسلمة وكرواتية وصربية ، فأنى غير مستطیع أن أصدق الادعاء القائل بأن ذلك القطر ظل منذ الأزل وسبظل الى الأبد ، يغلى بالكراهية والبغضاء العرقية ، ولكنى بعد أن استمعت وشاهدت راديو وتليفزيون بلجراد في المدة بين ١٩٩١ و ١٩٩٢ ، أستطيع أن أفهم لماذا أصبح الصربي البوسني البسيط يعتقد أنه معرض للتهديد من جحافل الأوستاشا ، ومن الأصوليين المسلمين أو غيرهم . والأمر إنما هو كما وصفه الصحفي البلجradى المستقل ، ميلوش فاسيتش ، أمام جمهور من الأمريكيين : كأنما استولت

جمعية الكوكاكولرس كلان على جميع المحطات التليفزيونية : « نصوروا ولايات متحدة وقد اتخذت كل محطة تليفزيونية نفس خط الاذاعة والمتحريض - الذي يمليه دافيد ديوك * فلو تم ذلك لنسبت الحرب في بلادكم في مدى خمس سنوات » (٤٦) * على أنه ربما كان خير تعليق على تكتيكات ميلوسيفيتش وكاراجيتش وعلى ما أحرزاه في البوسنة من انجازات - هو مئة وخمسين ألف قتيل ، وأكثر من مليوني نازح من ديارهم ، وقرى بل مدن بأكملها تحرق حرقا وتنهب ، وعدة مئات من المساجد والكنائس تنسف عمدا - ذلك كله حكم من مؤرخ آخر على خلة موروثة في الدم لقطر آخر :

وكان على البلشفيك - شأن الدعاء في رواية دستويفسكي (المسوس) - أن يسفكوا الدماء لكي يحكموا الرباط بين أتباعهم المترددين بحبل متين من الذنب الجماعي * فكلما زاد عدد الضحايا الأبرياء الذين ضمهم الحزب الشيوعي الى شعوره ووعيه لاثمه ، زاد يقين الأفراد العاديين من البلاشفة بأنه ليس هناك أى مجال للتراجع ولا التردد ، ولا المساومة ولا الحلول الوسط ، وأنهم مرتبطون ارتباطا لا فكاك منه الى زعمائهم ، وليس أمامهم ثمة طريق الا السير معهم قدما الى « النصر النهائي » بغض النظر عن الثمن (٤٧) *

معجم توضيحي

هذه القائمة بالمعجم التوضيحي تحوى المصطلحات التى يكثُر وجودها فى ثنايا الكتاب. فحيثما ذكرت أكثر من صورة لنفس الكلمة استخدمنا هنا حرفى ت و ك للدلالة على التركى والصربوكرواتى على الترتيب.

اتحاد الدفاع الكرواتى H.O.S، وهو قوة كرواتية غير نظامية.

الاتحاد الديمقراطى الكرواتى H.D.Z، وهو الحزب الوطنى الكرواتى برئاسة فرانيو توجمان فى كرواتيا، الذى نشأ منه فرع فى البوسنة يقوده ستيبان كليويتش أولا، ثم تزعمه ماتى بوبان.

آجان Agan: موظف وإدارى محلى منتخب.

أسبر Asper: وحدة نقدية عثمانية، وهى عملة معدنية كانت فى الأصل تحتوى على ثلاثة جرامات من الفضة، ولكنها تعرضت لتخفيضات كثيرة. فى القيمة (إلى أقل من جرامين فى منتصف القرن السادس عشر، وأقل من جرام واحد عند عام ١٦٠٠).

أغا Aga: المعنى الأصلى: السيد أو المولى، أو الضابط الإنكشارى الكبير. والمعنى الأول فى التاريخ البوسنى هو السرى مالك الأرض الذى ينتسب إلى الطبقة السرية الأخفض فى طبقتى ملاك الأراضي.

أغالوك Agaluk: المعنى الأصلى فى التاريخ البوسنى: الأرض المملوكة لأحد "الأغاوات" (حيث كانت علاقات صاحب الأرض بالفلاح يحكمها القانون الإقطاعى التقليدى). والمعنى الخاص: قسم أو مقاطعة أرضية من البوسنة يحكمها "أغا".

أفلاقى (فلاتش) Vlach: أحد سلالة سكان البلقان المُرَمَّتين، قبل السلافيين.

أوستاشا Ustasha: الحركة الوطنية الإرهابية المتطرفة التى يتزعمها أنتى بافليتش، وهى التى تسلمت السلطة فى "دولة كرواتيا المستقلة".

إمام Imam: الذى يؤم المسلمين فى الصلاة.

إنكشارى Janissary: جندى عثمانى، كان فى الأصل يجند رقيقاً للسلطان من خلال "الدوشرمة"، ولكن منذ منتصف القرن السابع عشر كان يجند من بين المسلمين العاديين.

إيالة Eyalet: الولاية فى الإمبراطورية العثمانية (وهى أعظم قسم إدارى فى الدولة، يقابل قطراً عسرياً أو أكثر من قطر).

باتارين Patarin: مصطلح استخدمه الراجوزيون والإيطاليون للإشارة إلى أعضاء الكنيسة البوسنية، (ويستخدم فى إيطاليا أيضاً للدلالة على الكاثاريين الإيطاليين).

باشا Pasha: اسم عام يطلق على الحاكم العام للمنطقة.

باشالوك Pashaluk: المنطقة التى يحكمها الباشا.

بان Ban: مصطلح كرواى، استخدم أيضاً فى البوسنة القروسطية، للدلالة على الحاكم. وأعيد استخدامه فى ١٩٢٩، عندما قسمت يوغوسلافيا إلى "بانوفينات"، يحكم كل منها "بان".

باندور Pandur: الجندرمة، رجل ميليشيا محلى.

بانوفينا Banovina: منطقة يحكمها أو يديرها "بان".

بك أو بيج Beg: سيد أو سرى أو مالك أرض، ينتمى إلى الطبقة الأعلى من طبقتى ملاك الأراضي.

بكلر بك Beglerbeg (ك)، أو بلربك Beylerbeyi (ت): أعلى طبقة فى رتبة باشا، وهو الوزير أو حاكم البوسنة.

بكلبك Beglik: الملكية التى يملكها "بك" (حيث لم تكن القوانين الإقطاعية التقليدية تهيمن على علاقات السيد صاحب الأرض بالفلاح).

بوتور Potur: الفلاح السلافى العادى فى البوسنة الذى هدى للإسلام (ولعلها مشتقة من الكلمة التركية "بوتور" ومعناها ضرب من السراويل التى يرتديها أولئك الفلاحون).

بوجوميل Bogomil: المثنوى البغارى الهرطيق فى العصور الوسطى.

بوسانتشيك Bosantchica: هو الخط الذى كان يستعمل فى البوسنة القروسطية، وهو مرتبط بالخط السيريليكى ولكنه مختلف عنه.

بيزستان Bezistan: سوق الأقمشة أو السوق المستوفة.

تشيتنيك Chetnik: مصطلح صربى تقليدى للمقاتل غير النظامى أطلق على القوات بقيادة دراجا ميهايلوفيتش فى الحرب العالمية الثانية، يستعمل عادة للإشارة إلى كل غير النظاميين من الجند الصربيين المقاتلين فى الهرسك والبوسنة فى ١٩٩٢-١٩٩٣ (كما يستخدم بنوع خاص جدا للإشارة إلى غير النظاميين الصربيين بقيادة فويسلاف شيشيلي).

تشيفتليك Chiftlik: مزرعة كبيرة خاصة.

تريتينا Tretina: تسديد موالى الأرض ثلث المحصول إلى مالك الأرض.

تيمار (ت) Timar: مزرعة إقطاعية.

تيماريوت Timariot: حائز التيمار.

التكية Tekke: محل إقامة الدراويش.

جد Djed: هو رئيس الكنيسة البوسنية ومعناها الحرفى "الجد أو أبو الأب".

جروشن أو غروشن Groschen: وحدة عملة نمساوية.

جرينتسر Grenzer: جندى نمساوى مجرى لحراسة الحدود، ساكن بمنطقة التخوم التى تحد الإمبراطورية العثمانية.

الجزية Gizye: ضريبة الرؤوس التى يدفعها غير المسلمين.

جوبا Djupa: قسم إدارى فى الفترات السلافية الأبر عهداً.

الجوبان Djupan: حاكم الجوبا.

جوست Gost: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية (ومعناها الحرفى هو "المضيف").

الحجة Hidja: بيت دبرى يتبع الكنيسة البوسنية.

حزب الحركة الديمقراطى S.D.A.: وهو الحزب الذى يقوده على عزت بيجوفيتش.

حزب الصرب الديمقراطى S.D.S.: وقد ألف أولاً فى منطقة كينين فى كرواتيا. ثم أعيد تكوينه فى البوسنة، حيث كان زعيمه هو رادوفان كارادجيتش بإشراف سلوبودان ميلوشيفيتش فى بلجراد.

حمام Hammam: هو الحمام التركى.

الخراج Harag: ضريبة الرؤوس التى يدفعها غير المسلمين (وهى فى الأصل ضريبة الأراضى، ولكنها مزجت مع الجزية لتشكل ضريبة رؤوس متدرجة).

دفتر Defter: سجل الضرائب.

دوشيرمة Devshirme: جزية الصبيان، وهى جمع الصبيان الذكور المسيحيين لى يحولوا إلى الإسلام ويصبحوا إنكشارية وموظفين إمبراطوريين.

"دولة كرواتيا المستقلة" N.D.H.: وهى الدولة الألعبوبة التى كانت تشتمل على معظم كرواتيا والبوسنة ١٩٤١-١٩٤٥.

رئيس العلماء Reis ul-ulema: كبير أو شيخ الجماعة الإسلامية الدينية.

رعية Raya: وهى فى الأصل الشعوب الخاضعة غير العثمانية (سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين)؛ وفى القرن التاسع عشر أصبح معناها على العموم الرعايا المسلمين فقط.

سباهى Spahi: الخيال أو الفارس.

ستارك Starac: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية (معناها الحرفى "الأكبر سناً")

ستروينيك Strojnik: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية. (معناها الحرفى "الساقى").

ستيتشاك Stetchak (الجمع ستيتشى Stetchi): شواهد قبور بوسنية من العصور الوسطى.

سنجق بك Sandjak-beg: حاكم السنجق.

السنجق Sandjak: أكبر قسم فى "إيالة". وهو فى الأصل يدل على منطقة عسكرية.

شريعة Sheriat: القوانين الإسلامية.

عهدنامه Ahd-name: منحة من السلطان بامتياز ما.

فوينوك Vojnuk: قاطع الطريق أو جندى مشاة مسيحي (سواء أكان صربيا أو أفلاقيا).

قابيطان Kapetan: هو فى الأصل مدير عسكرى على منطقة حدود. والمعنى الأصلى لهذه الكلمة فى التاريخ البوسنى: مدير لأحد المناطق التقسيمية فى البوسنة، وله سلطات واسعة جداً، ووظيفته وراثية.

القابيطانية Kapetanija: المنطقة التى يحكمها "قابيطان".

قاضيذاوية Kadizadeler: أعضاء في فرقة إسلامية شديدة التمسك بالأصولية.

قاضييلوكية Kadiluk: المنطقة التي تقع في منطقة اختصاص "قاض".

قانون الرعية Kanun-i raya: مجموعة القوانين التقليدية المطبقة على "الرعية".

كارافلاق Karavlach: غجرى من أصل روماني في البوسنة.

كازا Kaza: انظر "قاضييلوك".

كايماك Kaimak: مدير يقوم بدور الممثل العسكري للوالى.

كرايينا Krajina: منطقة حدودية.

كريستيانى (أى مسيحي) Kristian: مصطلح استخدم في السجلات العثمانية للدلالة على العضو العادى في الكنيسة البوسنية.

كريستيانين (أى.مسيحي) Krsjanin: عضو ديرى في الكنيسة البوسنية. ومعناها الحرفى مسيحي).

كميت Kmet: مولى أرض أو فلاح.

مارتولوس Martolos: مسيحي محلى (سواء أكان من الأفلاق أو الصربيين). من قطاع الطرق من البيادة أو المشاة.

المانويين Manichaeen, Manichee: وهم في الأصل من أتباع ماني، معلم المعتقد المثنوى غير المسيحي في القرن الثالث، ثم أصبح يستخدم فيما بعد مصطلحاً يطلق على الهرطقة المثنويين في المسيحية.

مجلس الدفاع الكرواتي H.V.O، وهو المنظمة العسكرية التي أقامها "الاتحاد الديمقراطي الكرواتي" في البوسنة.

محلة Mahala: قسم صغير من المدينة.

مدرسة Medresa: معهد دراسة الشريعة الإسلامية.

مكتب Mekteb: كتاب ابتدائي إسلامي.

المنظمة البوسنية المسلمة M.B.O، وهي الحزب الذي يتزعمه عادل ذو الفقار باشيتش.

مورلاش Morlach: نوع الأفلاق المقيم في دالماتيا، وبخاصة منطقة "الحدود" (الكرائينا) الكرواتية.

موسيليم Mosselim: مدير يقوم بدور ممثل للحاكم العام.

هازدوك Hazduk: لص أو قاطع طرق، أو محارب حرب عصابات.

هاس Hass: مزرعة إقطاعية ضخمة.

وزير Vizier: أعلى رتبة في المديرين والموظفين في الإمبراطورية العثمانية.

الوقف Vakuf: هو المؤسسة الدينية الخيرية، التي تحبس الأرض إلى الأبد على أعمال الخير.

الولاية Violet: القسم الكبير من الإمبراطورية العثمانية (التي حلت محل "الإيالة" في ١٨٦٤).

الهوامش

الفصل الأول: الأجناس والأساطير والأصول: البوسنة حتى ١١٨٠

- ١- خير استعراض عصرى للبيانات الأثرية والتاريخية واللغوية هو كتاب ويلكس Wilkes, Illyrians. انظر أيضاً ستيتشيفيتش Stipcevic, Illyrians ؛ وروسو Stadtmuller, Forschungen zur albannischen Ilirii ؛ وستادموللر Russu, Ilirii. Fruhgeschichte.
- ٢- ويلكس, Illyrians, ص ٢٤٤؛ وستيتشيفيتش, Illyrians, ص ١٣٧.
- ٣- ويلكس, Illyrians, صفحات ٢٠٥-٢١٣.
- ٤- انظر ويلكس Dalmatia, صفحات ٢٦٦-٢٨٠؛ و Gischichte Bosniens, صفحات ٤٨-٤٩؛ وييريتشيك Jirecek, في Die Handelsstrassen؛ وميلر, في Essays on the Latin Orient.
- ٥- ماركويتش Markotic, 'Archaeology', صفحات ٤٥-٤٦.
- ٦- ألفولدي Alföldy, Bevolkerung der Provinz Dalmatien, صفحات ١٨٤-١٨٨.
- ٧- ديو كاسيوس Dio Cassius, الذى أخذ عنه ويلكس فى كتابه Illyrians, ص ٢٦٠.
- ٨- ستيتشيفيتش, Illyrians, ص ٨٠.
- ٩- درهام Durham, Some Tribal Origins, ص ١٠٢. انظر أيضاً تروهيلكا Truhelka, 'Die Tatowirung'.
- ١٠- انظر ستيتشيفيتش, Illyrians, ص ٢٤١, عن النظرية حول الموسيقى المتعددة الأصوات التى طورها عالم الموسيقى الإثنولوجية السراييفى سفيتكو ريتمان Cvjetko Rihtman. ولا تذكر المصادر الكلاسيكية إلا مجرد أن الإليريين كانوا مغرمين بالموسيقى.
- ١١- لإطلاق مصطلح 'الإليريين' على الـ لافيين الجنوبيين تاريخ طويل, يعود إلى الكتاب الإنسانين فى القرن الخامس عشر الميلادى: انظر هاجياهييتش Hadzizahic, 'Die Anfänge der nationalen Entwicklung', صفحات ١٧١-١٧٢.
- ١٢- ستادموللر, Geschichte Sudosteuropas, ص ٢١.
- ١٣- عن موضوع Libellus Gothorum, انظر المقدمة التى كتبها فيردو شيشيتش Ferdo Sisc, لترجمته للمدونة The Chronicle, Letopis popa Dukljanina, وييريتشيك فى Istoriya Srba, المجلد الأول, صفحات ١٦٦-١٦٧. ونص المدونة مطبوع فى فون شواندر von Schwandner, Scriptores rerum hungaricarum, المجلد الثالث, صفحات ٤٧٦-٥٠٩؛ انظر صفحات ٤٧٦-٤٧٧ عن هجرة القوط.

- ١٤- أوربيني *Il Regno de gli Slavi*، ص ٩٧. وعن أوربيني انظر رادويشيتش *Radovic, Srpska istorija Mavra Orbiniya*، صفحات ٥-١١؛ وعن 'القوطية' في عمله وأعمال غيره من الكتاب الراجوزيين، انظر زلاتار *Zlatar, Our Kingdom Come*، صفحات ٣٦٥-٣٧١. ولابد أن نظرية أوربيني قد لاحت بعيدة الاحتمال حتى في ذلك الوقت، ولكنها لا بد أن تقدم في سياق النظريات الأخرى لتلك الفترة التي كانت تنسب فحولة أو أهمية للأجناس الجرمانية-الاسكندنافية. وكان العلامة الهولندي جروتوس *Grotius* يذهب إلى أن الأجناس الأصلية بأمريكا الشمالية كانت اسكندنافية أصلاً؛ وادعى المنظر الفلمنكي جوربيوس بيكانوس *Goropius Becanus* أن الألمانية كانت اللغة المستخدمة في جنة عدن.
- ١٥- راجيتش *Radzic, Muslimansko autonomastvo*، ص ٧٢. (واعتدت المذكرة كذلك، أن تسعين بالمئة من البوسنيين شقر الشعر). كما أن ادعاءات مماثلة ذكرت عن الكروات بواسطة أنتي بافيليتش في ١٩٤١: *Didijer et al., History of Yugoslavia*، ص ٥٧٧.
- ١٦- كوفاتشفيتش *Kovacevic, Istorija Crne Gore*، صفحات ٢٨٢-٢٨٨.
- ١٧- ماركوتيتش، 'Archaeology'، ص ٤٩. وقد استمرت مملكة أفارية صغيرة قائمة في بانونيا (المجر الجنوبية) حتى قضى عليها شارلمان نهائياً في تسعينيات السبعمئة.
- ١٨- أنديليتش *Andjelic, 'Periodi u kulturnoj historiji'*، ص ٢٠٠.
- ١٩- مalingoudis *Malingoudis, 'Slavoi ste mesaionike Ellada'*، ص ٣٩.
- ٢٠- يوجد في الواقع بيانان مختلفان حول تلك الأحداث في كتاب قنسطنطين. انظر المناقشة في كتاب فاين *Fine, Early Medieval Balkans*، صفحات ٤٩-٥٩.
- ٢١- روستوفتسيف *Rostovtsef, Iranians and Greeks*، صفحات ١٣٥-١٤٦.
- ٢٢- كاولفوس *Kaulfuss, Die Slaven*، صفحات ٦-٩.
- ٢٣- جيمبيوتاس *Gimbutas, Slavs*، ص ٦٠.
- ٢٤- فاين، *Early Medieval Balkans*، ص ٥٦.
- ٢٥- أوبولنسكي، *Obolensky, Byzantine Commonwealth*، ص ١٣٦؛ وجولدسكو *Guldescu, Political History*، ص ٨٦.
- ٢٦- جيمبيوتاس *Gimbutas, Slavs*، صفحات ١٤٠-١٤١. وعن موضوع *zadruga* انظر سيكارد *Sicard, La Zadruga sud-slave*، وبيرنس *Byrnes, ed. Communal Families in the Balkans*، صفحات ١٦٥-١٦٨؛ وماركوتيتش، *Gimbutas, Slavs*، صفحات ٥٢.
- ٢٧- جيمبيوتاس *Gimbutas, Slavs*، صفحات ١٦٥-١٦٨؛ وماركوتيتش، 'Archaeology'، ص ٥٢.
- ٢٨- دفورنيك *Dvornik, Byzantine Missions to the Slavs*، صفحات ٩-٢٠.
- ٢٩- تشوروفيتش *Corovic, Historija Bosne*، صفحات ١٣٣-١٣٤.
- ٣٠- هاجياميتش *Hadzijahich, 'Sinkretisticki elementi'*، صفحات ٣٠٤-٣٠٥ (قمم الجبال)، صفحات ٣٠٩-٣١٣ (أسماء الآلهة).
- ٣١- أنديليتش *Andjelic, 'Periodi u kulturnoj historiji'*، صفحات ٢٠٢-٢٠٣.

- ٣٢- فاين ، *Early Medieval Balkans* ، صفحات ١٥٩، و ٢٦٢-٢٦٥؛ أوبولنسكى،
Obolensky, *Byzantine Commonwealth* ، صفحات ١٥٩-١٦٠.
- ٣٣- قسطنطين بورفيروجينيتوس ، *De administrando imperio* ، ص ١٦٠ ('kai eis to chorion Bosona to Katera kai Desnek') ومن المحتمل أن ديسنيك
المذكورة هي ديسنيك العصرية (على الرغم من أن بيريتشيك ظن إنها تيشانى
Tishani الواقعة على نهر أوسورا Usora)، وكاتيرا هي فى الغالب قرية كوتور أو
كوتوراك العصرية، بالقرب من سرايفو: انظر بيريتشيك، *Die Handelsstrassen* ،
صفحات ٢٩-٣٠؛ وسكاريتش *Skaric, Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٣٢؛
وتشوروفيتش ، *Corovic, Historija Bosne* ، ص ١١٢.
- ٣٤- فاين، *Early Medieval Balkans* ، صفحات ٢٠١ و ٢٧٨-٢٨٠؛ أوبولنسكى،
Obolensky, *Byzantine Commonwealth* ، صفحات ٢٨٧-٢٨٨.
- ٣٥- فاين، *Early Medieval Balkans* ، ص ٢٨٨.
- ٣٦- كيناموس *Cinnamus, Epitome* ، ص ١٠٤، (الكتاب الثالث، الفصل السابع).
- ٣٧- أندجيليتش 'Periodi u kulturnoj historiji' ، *Andjelic* ، صفحات ٢٠٤-٢٠٥.
- ٣٨- تشيركوفيتش 'Die bosnische Kirche' ، *Cirkovic* ، صفحات ٥٤٧-٥٤٨.
- ٣٩- تشوروفيتش ، *Corovic, Historija Bosne* ، ص ١١٣؛ و د. مانديتش D.
Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٣٣.

الفصل الثاين: الولاية البوسنية القروسطية ١١٨٠-١٤٦٣

- ١- تروهيلكا 'Das mittelalterlicher Staatswesen' ، *Truhelka* ، ص ٧٢، فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ١٨-٢١.
- ٢- يذكر أوربيني محاولة أخدمت فى مهدها خلال حكم ستيفن كوترومانيتش: *Regno de gli Slavi* ، صفحات ٣٥٤-٣٥٥.
- ٣- ميللر *Essays on the Latin Orient* ، ص ٤٦٨؛ والمثل المأثور : 'عادت أيام بان كيولين'، سجله أيضاً أوربيني فى ١٦٠١ : *Regno de gli Slavi* ، ص ٣٥١.
- ٤- ميللر *Essays on the Latin Orient* ، ص ٤٦٨؛ كوكيل *Coquelle, Histoire du Montenegro* ، ص ٨٢.
- ٥ - انظر الخطاب الذى أرسله فولكانوس من زيتا (فيوكان) *Vulcanus of Zeta (Vukan)* إلى البابا اينوسنت الثالث فى سبتمبر ١١٩٩، فى *Fermendzin, ed., Acta Bosnae* ، ص ٥.
- ٦ - فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٤٣، ٤٧؛ وعن تحليل مفصل عن مجلس بولينو بولي، انظر فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ١٢٦-١٣٤. وواقعة الارتداد مطبوعة فى مينج *Minge, ed., Patrologia latina* ، المجلد ٢١٥، عامود ١٥٣-١٥٥.
- ٧- *Fermendzin, ed., Acta Bosnae* ، صفحات ٨-١١.

- ٨- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ١٤٤-١٤٥. ويحدد البروفيسور فاين هذه بأنها مدينة فرهبوسنا (سراييفو العصرية)؛ ولكن الإشارة بالتأكيد لمنطقة فرهبوسنا، حيث إن المدينة لم تكن وجدت بعد. وهناك تقرير في ١٢٤٤ يذكر أن 'جوبا' فرهبوسنا كان مركزها في مدينة بردو Brdo، التي كانت مقر حكم البان والأسقف الكاثوليكي (ومن المحتمل إنها قرية بان بردو Ban-Brdo العصرية): انظر بيريتشيك، *Die Handelsstrassen*، ص ٣١.
- ٩- فاين، *Late Medieval Balkans*، ص ١٤٦.
- ١٠- فاين، 'Was the Bosnian Banate Subjected to Hungary?'
- ١١- ميللر *Essays on the Latin Orient*، ص ٤٧٣؛ فاين، *Late Medieval Balkans*، ص ١٤٨.
- ١٢- عن فترة الشوبيتش، انظر تالوزي *Thalloczy, Studien zur Geschichte Bosniens*، صفحات ٤٦-٤٨.
- ١٣- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٢٦٥-٢٧٩.
- ١٤- د. مانديتش D Mandic, Franjevačka Bosna، صفحات ١٧، ٣٩.
- ١٥- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٢٨.
- ١٦- فاين، *Late Medieval Balkans*، ص ٢٨١.
- ١٧- المرجع السابق، صفحات ٢٨١-٢٨٢.
- ١٨- المرجع السابق، صفحات ٣٦٨-٣٧٠.
- ١٩- المرجع السابق، صفحات ٣٨٤-٣٨٦؛ كلايتش *Klaic, Geschichte Bosniens*، صفحات ٢٠١-٢٠٣؛ تشيركوفيتش *Cirkovic, Istorija bosanske drzave*، صفحات ١٣٥-١٤٠.
- ٢٠- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٣٩٤-٣٩٨؛ كوكيل *Coquelle, Histoire du Montenegro*، صفحات ١١٣-١١٨.
- ٢١- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٤٠٨-٤١١؛ إيمرت Emmert, 'The Battle of Kosovo'. وعن استعراض موجز عن مآثرات كوسوفو في الشعر الملحمي الشفوي (الصربوكرواتي والألباني)، انظر لورد Lord, 'The Battle of Kosovo'.
- ٢٢- لو بوفيه *Le Bouvier, Le Livre de la description*، ص ٢٢.
- ٢٣- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٤٥٣-٤٦٩؛ فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٢١٠-٢٤١.
- ٢٤- عن النظرة التقليدية، انظر سكاريتش *Skaric, Sarajevo i njegova okolina*، صفحات ٣٦-٣٥ (وهي تذهب أيضاً إلى أن فرهبوسنا وهوديدج Hodidjed أخضعت أولاً للأتراك بمقتضى اتفاقية في ١٤٢٨، ثم ضاعت من أيديهم ثم استعادوها في ١٤٣٥). وعن النظرة المعدلة، انظر شابانوفيتش *Sabanovic, 'Pitanje turske vlasti'* ويصف شابانوفيتش التطورات في تلك المنطقة في 'Bosansko krajiste'.

- ٢٥- تالوزى Thalloczy, *Studien zur Geschichte Bosniens* ، صفحات ١٤٦-١٥٩؛
فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٥٧٧-٥٧٨.
- ٢٦- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢١١.
- ٢٧- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٣٢-٣٣٣. والمؤرخون السابقون (مثل ميلر *Essays on the Latin Orient*، ص ٤٨٥) أخطئوا في تفسير هذا الدليل، حيث ذكروا أن عدد اللاجئين كان أربعين ألفاً بدلاً من أربعين فقط.
- ٢٨- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٥٨٣-٥٨٤ (موجهاً للبابا)؛
Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢٥٢ (موجهاً إلى البندقية).
- ٢٩- Lachman, ed., *Memoiren eines Janitscharen* ، صفحات ١٣٩-١٤٠.
واستطاعت أرملة الملك، الملكة كاتارينا، الفرار إلى روما؛ وتوفيت هناك في ١٤٧٨، ولا تزال مقبرتها تشاهد إلى يومنا هذا في كنيسة سانتا ماريا في أراكولي Aracoeli، على الكابيتول: انظر *Studien zur Geschichte Bosniens*، Thalloczy،
صفحات ١١٠-١٢٠، و J. Turcinovic, ed., *Povijesno-teolosko simpozij*.
- ٣٠- ويرجع ييريتشيك تاريخ وصولهم إلى القرن الثالث عشر (*Die Handelsstrassen*، ص ٤٣). ومن المؤكد أن عمال المناجم الساكسون قد وصلوا إلى صربيا حوالى النصف الثانى من القرن الثالث عشر: انظر تاكاس Takacs، 'Sachsische Bergleute im mittelalterlichen Serbien'، على أن أشد الدراسات العصرية لأشغال المناجم فى البوسنة القروسطية، لا تستطيع أن تجد بيئة وثائقية أقدم من ١٣١٢ (منجم تريشنيكا)، و ١٣١٩ (فى ليبنيك): دينيتش Dinic، *Za istoriju rudarstva*، ص ٤٦.
- ٣١- دينيتش Dinic، *Za istoriju rudarstva* ، صفحات ٧-٨.
- ٣٢- لكافة التفاصيل السالف ذكرها، انظر ييريتشيك، *Die Handelsstrassen* ، صفحات ٤١-٤٩؛ وفاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٢٨٢-٢٨٤.
- ٣٣- بيناك وتشوفيتش Benac and Covic، *Kulturna istorija Bosne* ، ص ٤١١.
- ٣٤- يشتق مصطلح "كميت" kmet من اللفظة اللاتينية *comitatus* ، وهى كلمة وضعت فى المزارع (وهى على الأرجح ديرية) التى كانوا يعملون عليها. على أنها فى صربيا تطورت إلى معنى مخالف، حيث تشير إلى كبير القرية.
- ٣٥- فيرليندن 'Patarins reduits en esclavage'، Verlinden.
- ٣٦- عن كل هذه الطبقات والرتب، انظر تروهيلكا Truhelka، 'Das mittelalterlicher Staatswesen'، صفحات ٩٠-١٠٥.
- ٣٧- وأهمية هذا المجلس أكدها كل من تشيركوفيتش Cirkovic، *Istorija srednovjekovne drzave* ، صفحات ٢٢٤-٢٢٥) وأنديلييتش (Barones Regi drzavno vijeche' ، وتشكك فيها فاين *Late Medieval Balkans*، صفحات ٤٥٣-٤٥٤).
- ٣٨- تروهيلكا Truhelka، 'Das mittelalterlicher Staatswesen'، ص ١١٠. ولاحظ تروهيلكا أيضاً وجود 'الإيستريونس' istriones' فى بلاط تفرتكو الثانى فى ١٤٤٠،

وتساءل عن معنى هذا المصطلح؛ وكان بالتأكيد إشارة إلى 'الهستوريونس' 'histriones'، أو ممثلو المسرح.

٣٩- أنديلييتش Andjelic، 'Periodi u kulturnoj historiji'، ص ٢٠٩. وطبيعة البوسانتشكا كانت موضوع مجادلة بحثية معقدة بين العلماء؛ انظر الدراسة الممتازة التي أعدها تروهيلكا 'Die Bosancica'، Truhelka، والمناقشة الحديثة في ليفلدت Lehfeldt، *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum*. ويقدم تانداريتش Tandarić بعض البيانات التي تشهد أن الجلاجوليتية (وهي البديل البلقاني الغربي المبكر للسيريبيكية) كانت تستخدم أيضاً في البوسنة القروسطية المبكرة ('Glagoljska pismenost'، ص ٤٣)؛ على أن البيئة التي يقدمها عن استخدامها في بوسنة القرن الخامس عشر إنما تجيء من مناطق كانت عندئذ جزءاً من كرواتيا-المجر.

٤٠- بيناك وتشوفيتش Benac and Covic، *Kulturna istorija Bosne*، ص ٤٢٢-٤٣١.

٤١- تشوروفيتش Corovic، *Historija Bosne*، ص ٩.

الفصل الثالث: الكنيسة البوسنية

١- عن استعراض حديث جيد لمجادلات المؤرخين، انظر Dzaja، *Die 'bosnische Kirche'*، صفحات ٦٨-١؛ وهناك تقرير تاريخي هام أقدم عهداً في شيداك 'Problem "bosanske crkve" u historiografiji'، Sidak. كما أن هناك مجموعة مراجع غنية في فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٣٩٣-٤٣٤، يمكن أن يضاف إليها مراجع أخرى في الملاحظات في 'Les Kristians de Bosnie'، Okic.

٢- راتشكي Racki، *Bogomili i patareni*.

٣- المراجع الممتازة العامة عن البوجوميل هي رانسيمان Runciman، *Medieval Manichee*، صفحات ٦٣-٩٣، وأوبولنسكي Obolensky، *Bogomils*. وعن البوجوميلية في صربيا انظر سولوفيفيف Solovjev، 'Svedocanstva pravoslavnih izvora'. وتوجد دراسة فائقة عن البوجوميلية في بلاناريا في أنجلوف Angelov، *Bogomilstvoto*؛ ولكن معالجته للبوسنة (صفحات ٤٢٠-٤٢٨) ضئيلة وغير دقيقة. وعن المعتقدات المانوية، انظر ليو Lieu، *Manichaeism*، وكان مانى رجلاً فارسياً من القرن الثالث، وقد شملت تعاليمه المثوية كل من الزرادشتية والغنوسطية الإغريقية-اليهودية والمسيحية.

٤- عن الكاثارين، انظر بورست Borst، *Katharer*، وديفرنوى Duvernoy، *Le Catharisme*. ولم تكن الكاثارية مجرد شكل للبوجوميلية منقول إلى أوروبا الغربية؛ فإنها نمت على تقاليد محلية قوية للطريقة شبه الغنوسطية (انظر بويتش Puech، 'Catharisme et Bogomilisme').

٥- يبدو أن أول كاتب اتصل بالبوجوميلية كان شوميت دي فوسسييه، في عمله المنشور في ١٨١٦ (شاميتش Samic، *Les Voyageurs français*، ص ١٣١). وعن الكتاب

- الكاثوليك المبكرين، انظر ماتاسوفيتش 'Tri humanista o patarenima' Matasovic، وفين، *Bosnian Church*، صفحات ٦٣-٧٣.
- ٦- بترانوفيتش Petranovic, Bogomili, crkva bosanska i krstjani.
- ٧- وأيد جلوشاك النظرية في ١٩٢٤ ('Srednjovekovna crkva')، ولكن هاجمها شيداك في ١٩٣٧ ('Problem "bosanske crkve" u historiografiji').
- ٨- انظر ثبت المراجع؛ ولقائمة أكثر اكتمالاً لإصدارات سولوفيف، انظر فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٤٢٨-٤٢٩.
- ٩- أهم شرح هذه النظرية هما الأب ليو بترانوفيتش (*Krscani bosanske crkve*)، وياروسلاف شيداك (*Studije o 'crkvi bosanskoj'*) بالرغم من إقرار متزايد بالميول الهرطيقية في كتاباته المتأخرة.
- ١٠- انظر الفصل الخامس، تحول البوسنة للإسلام.
- ١١- عن ملخص مختصر عن الإحصائيات والجغرافية والتواريخ، انظر كتاب M Wenzel, 'Bosnian Tombstones'، صفحات ١٠٢-١١٥. والدكتورة ونزل أصدرت أيضاً تحليلاً جغرافياً مفصلاً عن الموتيفات المختلفة المستخدمة: *Ukrasni motivi*. وعن مناطق التوزيع الخارجية، انظر المراجع في فاين، *Bosnian Church*.
- ١٢- انظر فون أسبوت von Asboth, *Bosnien und die Hercegowina*، صفحات ٩٤-١١٨؛ وسولوفيف 'Le Symbolisme'، و- 'Bogumilentum und Bogumilengra-ber'.
- ١٣- جايا 'Dzaja, Die 'bosnische Kirche''، صفحات ٢٥-٢٦.
- ١٤- م. ونزل M. Wenzel, 'Bosnian Tombstones'، ص ١٠٣.
- ١٥- فون أسبوت *Bosnien und die Herzegowina*، ص ١٠١. ويقر سولوفيف أن الصليب لا يظهر على ٨٥ ستيتشي على الأقل: 'Simbolika srednjovekovnih spomenika'، ص ١٧.
- ١٦- عن التصميمات الوثنية، انظر م. ونزل 'M. Wenzel's 'Medieval Mystery Cult'؛ وعن تصميمات شعارات النبالة والأفلاق، انظر كتابها 'Bosnian Tombstones'. (وعن هوية الأفلاق، انظر الفصل السادس). وهناك انتقادات أخرى لنظرية سولوفيف وردت في س. رادويشيتش S. Radojicic, 'Reljefi bosanskih stecaka'. ويلخص فاين مجالاً رحباً من الاعتراضات في *Bosnian Church*، صفحات ٨٨-٩٣.
- ١٧- فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٤٨-٦٢.
- ١٨- المصدر هو مخطوط صربي من القرن الخامس عشر نقل عنه روسي في ١٨٥٩. ولم ينشر العلامة الروسي أصل النص أبداً، ومنذ ذلك الحين اختفى الأصل بطريقة ملائمة؛ ولا يوجد مخطوط آخر باق عن نفس العمل متضمناً كلمة "بوجوميل" (انظر المرجع السابق ص ٤٤).
- ١٩- المرجع السابق صفحات ٢١٢-٢١٣.

- ٢٠- ماتاسوفيتش Matasovic, 'Tri humanista o patarenima'. ومن المحتمل في بعض الحالات أنه كان هناك تلاعب متعمد بالألفاظ، يشير إلى "الموناتشي" البوسنيين (الرهبان) على أنهم "مانيتشي" (مانيشيين أو مانويين): انظر دراجولوفيتش (Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva*، ص ١٥٤. ومصطلح "المانيشيين" (المانويين) استمر يستخدم، ولو أنه كان ذا معنى عام، في الكتابات البيزنطية؛ وفي تلخيص لقوانين جستينيان يرجع إلى القرن الرابع عشر، تم استخدام هذا المصطلح بمثابة مرادف فعلي "للهرطقة" (Lieu, *Manichaeism*، ص ١٧٧). وإنه ليظهر فعلاً في إعلان بولينو بولي في ١٢٠٣ كمصطلح للدلالة على الهرطقة الذين وعد الرهبان البوسنيون ألا يقدموا لهم المأوى.
- ٢١- يقدم فاين مثلاً واضحاً لاستخدام الكلمة منسوبة إلى البوسنيين (*Bosnian Church*، ص ٢٤٨)، ولكنه أساء فهم اللاتينية. فالمعنى ليس "هيئة كهنوت مملكة البوسنة يدعون باتارين بواسطة البوسنيين أنفسهم"، ولكن "الباتارين يدعون "الدينين" (أى "الرهبان") في مملكة البوسنة بواسطة البوسنيين أنفسهم". وعن الأصل اللاتيني، أنظر ميليتيتش Miletic, *I 'Krstjani' di Bosnia*، ص ٥٢؛ وعن معنى وأهمية "الدينين Relegiosi"، انظر المرجع السابق، صفحات ٥٦-٦٢.
- ٢٢- عن تاريخ المصطلح، انظر توزيلييه Thouzellier, *Heresie et heretiques*، صفحات ٢٠٤-٢٢١. ويكتب لامبرت أنه استخدم في المرسوم البابوي ضد الهرطقة في ١١٨٤ بوصفه "مصطلحاً فنياً يشير للهرطقة الإيطاليين، وينطبق في الأعم الأغلب على الكاثار" (*Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، ص ٨٤)؛ والرسوم المذكور كان ضد الكاثار والولدانيين والهيوميليانيين Humiliati، وكلهم كانوا يوجدون في الأراضي الإيطالية، وعلى ذلك لم تكن هناك مطابقة لاهوتية "فنية" لهوية "الباتارين" مع المذاهب المثنوية التي كانت غريبة على الكاثار.
- ٢٣- توزيلييه Thouzellier, *Heresie et heretiques*، ص ٢١٦: وهذا ملخص لخطاب كبير الأساقفة ورد في خطاب آخر من البابا.
- ٢٤- عن المناظرة التاريخية حول هذه القصة، انظر فاين، 'Aristodios and Rastudije'.
- ٢٥- شيداك Sidak, *Studije o 'crkvi bosanskoj'*، صفحات ١٧٧-٢٠٩؛ فاين، *Bosnian Church*، صفحات ١١٨-١٢١؛ لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الثانية، صفحات ١٢٨-١٣١. وذهب دراجولوفيتش إلى أن 'ecclesia sclavoniae' كانت هي الكنيسة البوسنية، و'ecclesia dalmatiae' كانت تشير إلى الهرطقة في صربيا (*Krstjani i jereticka crkva*، صفحات ١٢٤-١٢٧)؛ ولكن البيئة تبدو شديدة الاضطراب بحيث لا تستطيع أن تدعم مثل هذه العلاقة المتبادلة المحكمة.
- ٢٦- عن النص، انظر ميني Migne, ed., *Patrologia latina*، مجلد ٢١٥، عامود ١٥٣-١٥٥.
- ٢٧- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'*، ص ٥٥.
- ٢٨- فاين، *Bosnian Church*، ص ٦٤؛ ماتاسوفيتش، Matasovic, 'Tri humanista o patarenirna'، صفحات ٢٣٧ و ٢٤٠.

- ٢٩- ميليتيتش Miletic, *I 'Krstjani' di Bosnia* ، صفحات ٥٠-٦٦، و ١١٧-١٢١. ويلاحظ دراجولوفيتش أنه في الديرية السلافية المبكرة كان مصطلح جاست gast (=جوست) يستخدم أحياناً لرئيس الدير (*Krstjani i jereticka crkva* ، ص ١٥٧). ولفانين بعض تعقيبات مفيدة على الطبيعة الديرية للإعلان (*Bosnian Church*، صفحات ١٢٦-١٣٤)، ولكن القصور الرئيسي في كتابه هو أنه لم يكن يعلم بعمل ميليتيتش عندما كتبه.
- ٣٠- تقدم ميليتيتش الدليل في *I 'Krstjani' di Bosnia* ، صفحات ٥٢-٥٣؛ فإنها تلحظ أن كلمة 'christianus' كانت تستخدم أيضاً بهذا المعنى في بعض المصادر السلافية المبكرة من كييف وبراج (صفحات ٦٥-٦٦). انظر أيضاً دراجولوفيتش *Krstjani i jereticka crkva* صفحات ١٥٠-١٥١.
- ٣١- ميليتيتش، *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ١٠٢: ويضيف فاين (*Bosnian Church*)، ص ١٥٥) أنه كان مستخدماً كلقب للرئيس الأعلى للدير في كرواتيا القرن الحادي عشر.
- ٣٢- كنيوالد Kniewald، 'Hierarchie und Kultus' ، صفحات ٥٨٨-٥٨٩.
- ٣٣- انظر ميليتيتش *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ١١٢ للنص الأصلي ومعه الترجمة (وهي أفضل من تلك التي في فاين، *Bosnian Church* ، ص ٢٦٢).
- ٣٤- إنجيل متى ١١:٨ (إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكثرون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات)؛ وإنجيل لوقا ١٩:١٦-٣١ (قصة دايفس ولعازر). وإذا كنت مصيباً، فإن رأي فاين أن هذا النقش في حد ذاته يثبت قبول العهد القديم (*Bosnian Church* ، ص ٢٦٢) يصبح أقل إقناعاً.
- ٣٥- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٢٥٦-٢٦٠.
- ٣٦- المرجع السابق، صفحات ١٧٦-١٧٧.
- ٣٧- عن نظرية الكاثار، انظر لوس Loos، *Dualist Heresy*، صفحات ٢٩٨-٣٠٢.
- ٣٨- انظر بيريتشيك 'Die Romanen in den Städten Dalmatiens'، Jirecek ، الجزء الأول، صفحات ٥٠-٥٧.
- ٣٩- كنيوالد Kniewald، 'Hierarchie und Kultus' ، ص ٦٠٠. وقد حرمت الكنيسة بناء أية "أديرة مزدوجة" جديدة في ٧٨٧ (ميليتيتش *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ٥٦)، ولكن ربما عدّ هذا التحريم غير ممكن التنفيذ، ما دامت الأديرة التي كانت موجودة سمح لها بالاستمرار.
- ٤٠- لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٧-٣٧٨.
- ٤١- جايا Dzaja، *Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٣٥. واستمرت الصلوات الجلاجليتية في أجزاء كثيرة من دالماشيا وكرواتيا حتى قامت حركة الإصلاح المضاد: انظر زيمرمان Zimmermann، *Reformation bei den Kroaten*، صفحات ٥ و ٢٠.
- ٤٢- جايا Dzaja، 'Fineova interpretacija' ، صفحات ٥٨-٥٩.
- ٤٣- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ١٣٧-١٥٠.

- ٤٤- عن النصين، انظر سولوفيف 'Solovjev, 'La Messe cathare'؛ وعن تصحيح هام لتفسيره لإحدى الجمل، انظر ويكفيلد وإيفانز، الهرطقات، Wakefield and Evans, *Heresies*، ص ٧٨١. والمخطوط يشير إلى "أيام الجد راتكو"، وعلى ذلك فإنه من المظنون أنه يأتي من داخل الكنيسة البوسنية. ويمكن أن يكون تاريخه يعود إلى منتصف القرن الخامس عشر، ولكن النص منسوخ من مصدر أقدم عهداً.
- ٤٥- دراجولوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva*، صفحات ٢٠٨-٢١٣.
- ٤٦- لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الثانية، ص ١٠٩ (الكاثاريين)؛ أوربيني Orbin, *Regno de gli Slavi*، ص ٣٥٤ (الكنيسة البوسنية).
- ٤٧- دراجولوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva*، صفحات ١٧٣-١٧٤.
- ٤٨- كل هذه النقاط (وغيرها) نوقشت في فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٣٥٧-٣٦١، فيما عدا البينة المستخرجة من وصية جوست رادين (لهذا الدليل، انظر لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٤-٣٨٠) ومن السجلات التركية (انظر أوكيتش، Okic, 'Les Kristians de Bosnie'، ص ١٢٥). ولمزيد من الاختلافات، انظر دراجولوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva*، صفحات ١٦٥-١٧٢، و ١٩٩-٢٠١.
- ٤٩- فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٢٦٤-٢٧٥.
- ٥٠- لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٥-٣٧٦؛ والملك ماتياش Matijas هو ماتياس كورنفينوس Matthias Corvinus المجرى.
- ٥١- لاسيتش Lasic, *De vita et operibus S. Iacobi*، ص ٤٣٨. وهذه هي أقل المعجزات الأربعة التي أثارها القديس جاكوب في البوسنة جداره بالحمد.
- ٥٢- كنيوال Kniewald, 'Vjerodostojnost latinskih izvora'، صفحات ١٥٦-١٦٣.
- ٥٣- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، صفحات ٣٨، و ٢٤٨.
- ٥٤- لوس Loos, 'Les Derniers Cathares'.
- ٥٥- كنيوال Kniewald, 'Vjerodostojnost latinskih izvora'، صفحات ١٦٨-١٦٩.
- ٥٦- انظر تعقيبات فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٥٦-٥٨.
- ٥٧- المرجع السابق، صفحات ٥٨ و ٣٠٨-٣٠٩؛ وانظر ماتاسوفيتش Matasovic, 'Trn humanista o patarenima'. والجدل الذي أثاره نيكولاس لوبيز مارتينيز أن توركمادا كان لديه دون شك معلومات تفصيلية عن البوسنة، غير مقنع على الإطلاق (توركمادا 'Introduccion', *Symbolum pro informaione manichaeorum*، صفحات ٢٠-٢٣).
- ٥٨- دراجولوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva*، صفحات ١٠٩-١١١.
- ٥٩- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٢٢٥.
- ٦٠- فاين، *Bosnian Church*، ص ٣٣٤.
- ٦١- أوكيتش Okich, 'Les Kristians de Bosnie'، صفحات ١٢٩-١٣٠.

- ٦٢- المرجع السابق، ص ١١٥. وبعض هؤلاء المسيحيين (*kristianlar*) مسجلون مع أبنائهم (ص ١٣١) ونحن نعلم أن كلا من الرهبان البوسنيين والبوجوميل "المختارين" (*elect*) كان المقصود أن يكونوا عذراً.
- ٦٣- ذراجانوفيتش *Draganovic, 'Izvjescje apostolskog vizitatora'*، ص ٤٤. ومع ذلك، فإن مساراتشي ضمن في تقريره مادة عن الباتاريين سبق له جمعها من مصادر مكتوبة أبكر (فاين، *Bosnain Church*، صفحات ٦٥-٦٨)؛ ولم يتضح أى من تعقيباته حولهم قدمت معلومات أصلية أو معاصرة.

الفصل الرابع: الحرب والنظام العثماني ١٤٦٣-١٦٠٦

- ١- لاشمان *Lachmann, ed., Memoiren eines Janitscharen*، ص ١٤٠.
- ٢- عن بيان دراماتيكي عن بعثة لإحضار الأغذية إلى جايس، انظر ج. ونزل *G Wenzel, ed., Marino Sanuto vilagkronikajanak tudositasai*، المجلد الثالث (٢٥-)، صفحات ٣٣٢-٣٤٢.
- ٣- شيركوفيتش *Cirkovic, Herceg Stefan Vukcic-Kosaca*، صفحات ٢٦٠-٢٦٧.
- ٤- شابانوفيتش *Sabanovic, Bosanski pashaluk*، صفحات ٤٤-٤٧؛ فاين *Late Medieval Balkans*، صفحات ٥٨٥-٥٨٩.
- ٥- عن بيان مجمل ولكنه تفصيلي عن التوسع العثماني، انظر شو، *Shaw, History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، صفحات ٥٥-٩٤؛ روتنبرج، *Rothenberg, Austrian Military Border*، صفحات ١٧-٣٩.
- ٦- شو، *Shaw, History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، صفحات ١٨٤-١٨٧؛ وروتنبرج، *Austrian Military Border*، صفحات ٥٢-٦١؛ وانظر الفصل السادس فيما بعد.
- ٧- عن موجز واف عن النظام العسكري، انظر شو *Shaw, History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، صفحات ١٢٢-١٣١. وعن النظام في البوسنة، انظر شابانوفيتش، *'Vojno uredjenje Bosne'*، وخاصة صفحات ٢١٦-٢١٩ عن القوات الاحتياطية.
- ٨- أفضل بيان عن هذا النظام هو بابوليا *Papoulia, Ursprung und Wesen der 'Knabenlese'*.
- ٩- كونت *Kunt, 'Transformation of Zimmi into Askeri'*، ص ٦٢.
- ١٠- يورد بيليتيه قائمة بأسماء الصدور الأعظمين ويلاحظ أنه كان يوجد ٦٥ والياً للبوسنة من مواليد البوسنة فيما بين ١٤٨٨ و ١٨٥٨؛ *Pelletier, Sarajevo*، ص ٧٥.
- ١١- شوجار، *Sugar, Southeastern Europe under Ottoman Rule*، ص ٥٨؛ وشو، *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ١١٤.

- ١٢- رايكوت Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire* ، ص ١٩٧. وآخر دوشرمة في صربيا كان في ١٦٣٨ (توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*). وربما حدثت محاولة لإحيائه: فإن السيد دولاكرواه، وهو سكرتير السفارة الفرنسية في اسطنبول كتب في ١٦٨٤ أنه يعقد الآن كل عشر سنوات (*Memoires* ، ص ٢٠١-٢٠٢).
- ١٣- شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، ص ٥٦.
- ١٤- ليفلدت Lehfeldt, 'Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum' ، ص ٤٨؛ هوتينجر Hottinger, *Historia orientalis* ، ص ٤٦٣.
- ١٥- شو Shaw, 'Ottoman View of the Balkans' ، صفحات ٦٩-٧٠.
- ١٦- عن التفاصيل، انظر شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، صفحات ٣٧-٣٨؛ ورايكوت Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire* ، صفحات ١٧٢-١٧٣.
- ١٧- عن نظام التيمار، انظر توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change* ، صفحات ٢٨-٣٣؛ وشوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، صفحات ٩٨-٩٩، و ٢١٢.
- ١٨- فاين، Fine, *Late Medieval Balkans* ، ص ٥٨٣.
- ١٩- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change* ، ص ٢٤.
- ٢٠- كونت Kunt, 'Transformation of Zimri into Askeri' .
- ٢١- كان يمكن تقسيم القاضيلوكية إلى ناحيتين Nahije أو أكثر يحكم كل منها نائب قاض؛ وفي البوسنة كانت تلك تتبع الحدود القديمة للجوبا. انظر كريشفلياكوفيتش Kreshevljakovich, *Kapetanije u Bosni* ، صفحات ٩-١٠.
- ٢٢- فيما عدا سنجقيات بوجيجا Pozega (في سلافونيا) وزفورنيك، اللتان كانتا في إيالة بودا Buda من ١٥٤١ حتى ١٥٨٠: انظر المرجع السابق، ص ١٠.
- ٢٣- عن التفاصيل، انظر المرجع السابق، صفحات ٩-١٠، وديوردجيف، Djurdjev, 'Bosna' ، ص ١٢٦٣.

الفصل الخامس: اعتناق البوسنة الإسلام

- ١- مازورانيش Mazuranic, *Sudslaven im Dienste des Islams* ، صفحات ٢١-٢٧؛ هوكيتش Hukic, ed., *Islam i muslimani u Bosni* ، صفحات ٢٠-٢١.
- ٢- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٨٤-٨٩.
- ٣- فيليبوفيتش Filipovic, 'Napomene o islamizaciju' ؛ جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، صفحات ٧١-٧٣. ولدلائل أخرى، من وثائق وشواهد قبور، تظهر أن سرايفو كان بها سكان مسلمون قبل ١٤٦٣، انظر هاجياهييتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ٦٦.
- ٤- أوكيتش Okich, 'Les Kristians de Bosnie' ، صفحات ١١٨-١١٩.

- ٥- جايا 'Dzaja, Die 'bosnische Kirche' ، ص ٧٤.
- ٦- فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٨٤. والأرقام التي قدمها د. مانديتش (*Etnicka povijest Bosne*، ص ١٥٤) غير صحيحة. وعدد السكان الإجمالي محسوباً من دفاتر عشرينيات الألف وخمسمئة لسنجقيات البوسنة وزفورنيك والهرسك هو ٢١١٥٩٥ من المسيحيين و١٣٣٢٩٥ من المسلمين (هاجيا هيتش، *Hadzjahich Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ١٦٥).
- ٧- هاجيا هيتش *Hadzjahich, Porijeklo bosanski Muslimana* ، ص ٧٨. ويلاحظ د. مانديتش أيضاً اعتناقاً أسرع للإسلام في نواحي كونييتش وفوتشا في أوائل القرن السادس عشر: *Etnicka povijest Bosne* ، ص ١٦١.
- ٨- د. مانديتش *D. Mandich, Etnicka povijest Bosne* ، ص ١٥٣-١٥٨.
- ٩- هانجيتش *Handzic, Tuzla i njena Okolina* ، صفحات ١١٨-١٢٢ و ١٣٦-١٤٢. انظر أيضاً مناقشة هذا الموضوع في جايا 'Dzaja, Die 'bosnische Kirche' ، صفحات ٨٠-٨٨.
- ١٠- د. مانديتش *D. Mandic, Etnicka povijest Bosne* ، ص ٢١١. وكان اسم القسيس "أثاناسيو جورجيسيو" 'Athanasio Georgiceo'، الذي ينطقه المؤرخون العصريون بصور مختلفة: جرجسيفيتش *Grgicevic* ، (وهو نطق خاطئ بكل تأكيد)، وجورجيفيتش *Georgijevic* ويوريفيتش *Jurjevic* . و"البوسنة" في تقارير القرن السابع عشر تلك تعني كل المقاطعة الفرنسيسكانية التي تحمل ذلك الاسم، وتطابق تقريباً "إيالة" البوسنة، وهي مساحة أكبر كثيراً من سنجقية البوسنة.
- ١١- دراجانوفيتش *Draganovic, 'Izvjesce apostolskog vizitatora'* ، ص ٤٣، حيث ذكر التالي: 'De Turchi saranno tre parti, et a pena de Catholici una, Schismatici saranno per la meta di Catolici, de quali saranno cento cinquata milla anime in circa' [sic]. وهناك ملخص وضع في أول التقرير (ص ١٠)، بواسطة كاتب آخر، شرح ذلك خطأ بأنه يعني ١٥٠٠٠٠ أرثوذكسي و ٣٠٠٠٠٠ كاثوليكي (ويعني ذلك ٩٠٠٠٠٠ مسلماً)؛ وقد تبعه في ذلك جميع من تلاه من الكتاب تقريباً.
- ١٢- كلمة *Turkush* مشتقة من *turk usakli* ، وتعني ابن التركي.
- ١٣- كيوليشيتش *Kulisic, 'Razmatranja o porijeklu Muslimana'* ، صفحات ١٤٥-١٤٧؛ هاجيا هيتش *Hadzjahich, Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ١٢٨-١٤١؛ فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٨٢؛ جايا *Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ٥٧. وأساس كل تبخر حول هذا الموضوع هو البحث الموجود في محفوظات إسطنبول والذي أعده عمر لطفي باركان، الذي لم يجد دليلاً واحداً على أي استيطان لمجاميع من الترك أو الأسويين في البوسنة؛ انظر بحثه 'Les deportations comme methode de peuplement'.
- ١٤- جايا 'Dzaja, 'Die Bosnische Kirche' ، ص ٨٤.

- ١٥- اسميلوفيتش Smailovic, *Muslimanska imena* ، صفحات ٥٠-٥٤؛ ويورد بلاو قائمة بألقاب المسلمين ويلاحظ أن بعضها أيضاً كان مشتقاً من أسماء الأماكن: *Reisen in Bosnien* ، صفحات ٦٢-٦٣.
- ١٦- انظر شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، صفحات ٤٥-٤٦.
- ١٧- عن المنحة والعهد نامة أو فرمان حماية الوضع القانوني، انظر باتينييتش Batinic, *Djelovanje franjevac u Bosni* ، المجلد الأول، ص ١٣٢.
- ١٨- ج. ونزل *Marino Sanuto vilagkronikajanak tudositasai* ، G. Wenzel, ed., المجلد الأول (=١٤)، ص ١٥٥.
- ١٩- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٥٩-١٦٤؛ Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٤٧٧-٤٧٨.
- ٢٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٣٤١.
- ٢١- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٩٣.
- ٢٢- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٩٢-٩٤.
- ٢٣- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٨٤-٣٨٥.
- ٢٤- جايا Dzaja, *Die 'Bosnische Kirche'* ، ص ٩١.
- ٢٥- ويلر، Wheler, *Journey into Greece* ، ص ٤٤١.
- ٢٦- فاين، *Bosnian Church* ، ص ١٣.
- ٢٧- بوردو، Bordeaux, *La Bosnie populaire* ، ص ٥٢. وعن دراسة أكثر تفصيلاً لاستخدام المسلمين في البوسنة للتمائم والكتابات الواقية، انظر Kriss and Kriss-Heinrich, *Volks Glaube* ، المجلد الثاني، صفحات ٩٩-١٠٣. وطبع إيفانز رسوماً لبعض التمام النموزجية، ولاحظ (وهو يكتب في ١٨٧٦) أن تجارة الكتابات الواقية "مصدر منظم للدخل لدى الرهبان الفرنسيين"؛ *Through Basnia* ، صفحات ٢٨٩ و ٢٩٢. وعن ممارسات ومعتقدات شعبية أخرى، انظر درهام Durham, *Some Tribal Origins* ، صفحات ٢٤٨-٢٧٤، وليك Lilek. 'starine'
- ٢٨- بالاجيا Balagija, *Les Musulmans yougoslaves* ، ص ٣١. ويفرق هاجياهيتش ('Sinkretisticki dementi') Hadzijahic ، صفحات ٣١٦-٣٢٢، بين مختلف الطرق التي كان المسلمون يحتفلون فيها بالأعياد المسيحية، ويلاحظ أن للكثير منها أصولاً سابقة على المسيحية.
- ٢٩- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Sinkretisticki elementi' ، صفحات ٣٢٦-٣٢٧ (أيقونة العذراء في أولوفو)؛ جيبونز، Gibbons, *London to Sarajevo* ، ص ١٨١ (كنيسة سانت أنطونيو الكاثوليكية في سراييفو: "حيث الأرثوذكس واليهود والمسلمون جميعاً يذهبون إليها للصلاة")؛ شوميت دي فوسسيه، Chaumette-des-Fosses, *l'oyage en Bosnie* ، صفحات ٧٤-٧٥ (عن القداسات من أجل المرض، ملاحظاً أن المسلمين كان لهم "نوع من الولع بالشعائر الكاثوليكية").

- ٣٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٥٢٥-٥٢٦.
- ٣١- ف. و. هازلوك، F. W. Hasluck, *Christianity and Islam* ، المجلد الأول، صفحات ٧٧ (الدرأويش)، ٦٩ (اقتباس). ويلاحظ هازلوك أيضاً سجلاً في ١٦٢١ عن الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمين ينتجعون صورة للعدراء التماساً للشفاء (ص ٦٦).
- ٣٢- ومن بين هؤلاء العلماء الأجلاء صفوت بك باشاجيتش وشيرو تروهيلكا: انظر هاجياهييتش Hadzizahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ٩١-٩٢.
- ٣٣- شو، *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ١١٤ (ناطقاً إياها "بوتور").
- ٣٤- عن كل هذه المصادر التركية، انظر هاجياهييتش Hadzizahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ٨٧-٩٠.
- ٣٥- *Akademija e shkencave, Fjalor igrues se sotme Shqipe* ، وعن صورة لبوتور ألباني، انظر ستارت ودرهام، *Start and Durham, Durham Collection of Garments* ، ص ٣٥.
- ٣٦- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ٢٠٧-٢٠٨ و ٢٢٥.
- ٣٧- المرجع السابق، ص ٢١١. و"النار" هنا هي، بالطبع، عقاب الردة عن الإسلام، وليست معاملة عامة للمسيحيين على إطلاقهم.
- ٣٨- عن أمثلة عثمانية أخرى، انظر ف. و. هازلوك، *Christianity and Islam*، المجلد الثاني، صفحات ٤٦٩-٤٧٤؛ ودوكينز Dawkins, 'Crypto-Christians of Turkey' وأمانتوس Amantos, *Scheseis Ellenon kai Tourkon* ، صفحات ١٩٣-١٩٦.
- ٣٩- رايكوت، Rycout, *Present State of the Ottoman Empire* ، صفحات ١٢٩-١٣١ (الكتاب الثاني، الفصل ١٢).
- ٤٠- سولوفيف، Solovjev, 'Le Temoignage de Paul Rycout'.
- ٤١- رايكوت، Rycout, *Present State of the Ottoman Empire* . وعن البكتاشية، انظر ف. و. هازلوك، F. W. Hasluck, *Christianity and Islam* ، المجلد الثاني، وبيرج، Birge, *Bektashi Order*.
- ٤٢- قابل جورج ويلر في ١٦٧٦ بولندي تحول للإسلام يعمل ترجماناً، وقال إنه كان من أهم مصادر معلومات (ايكوت: *Journey into Greece*، ص ٢٠٢).
- ٤٣- هاجياهييتش Hadzizahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ٩٠-٩١.
- ٤٤- ستانويفيتش Stanojevic, 'Jedan pomen o kristjanima'؛ وهذا التقرير، الذي يرجع إلى ١٦٩٢، والذي كثيراً ما يستشهد به في الدراسات العصرية عن البوسنة، لا يذكر البوتور، وهو في الواقع من دالماشيا.
- ٤٥- يوكيتش Jukic, *Zemljopis i povijest Bosne* ، ص ١٤٣، وقد نقل عنه أندريتش، Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia* ، ص ٢٠.
- ٤٦- تشوبريلوفيتش Cubrilovic, 'Poreklo muslimanskog plemstva'.
- ٤٧- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٤٢.

- ٤٨- ب. زلاتار 'O nekim muslimanskim feudalnim porodicama'. B. Zlatar.
- ٤٩- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina*، ص ٧٦.
- ٥٠- براودل Braudel, *Mediterranean*، المجلد الأول، صفحات ٤٢٠-٤٢١، و ٥٩٥.
- ٥١- كيوريبيشيتش Kuripesic, *Itinerarium der Botschaftsreise*، ص ٤٤.
- ٥٢- عن الدور العام للدوشرمة في عملية اعتناق الإسلام، انظر بابوليا Papoulia.
- ٥٣- عن نص "القانون"، انظر أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٢٣-٢٤؛ ونشره روسكيفيتش أيضاً وعلق أن كثيراً من مواده لم تعد مطبقة قبل إلغائه في ١٨٣٩ بزم من طويل: *Studien uber Bosnien*، صفحات ٢٥١-٢٥٢.
- ٥٤- د. مانديتش D. Mandic. *Etnicka povijest Bosne*، صفحات ٢٤٦-٢٤٧. وعن اختطاف القوات المسيحية للأطفال المسلمين من البوسنة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، انظر Klen, 'Pokrstavanje "Turske" djece'.
- ٥٥- هانجيتش Handzic, 'O gradskom stanovnistvu u Bosni'، صفحات ٢٥٢-٢٥٣.
- ٥٦- هراباك Hrabak, 'Izvoz plemenitih metala iz Bosne'.
- ٥٧- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina*، صفحات ٣٦-٣٨؛ باشاليتش B. Zlatar. 'Une ville typiquement levantine'.
- ٥٨- بيليتيه Pelletier, *Sarajevo*، ص ٧٦.
- ٥٩- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina*، ص ٥١.
- ٦٠- شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، ص ٥١.
- ٦١- ب. زلاتار B. Zlatar, 'Une ville typiquement levantine'، ص ٩٦.

الفصل السادس: الصرب والأفلاق

- ١- فاين، *Bosnian Church*، ص ١٧٢.
- ٢- المرجع السابق، صفحات ٣٠٥-٣٠٧؛ جايا Dzaja. *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ١٥٨؛ د. مانديتش D. Mandic. *Etnicka povijest Bosne*، صفحات ٤٥٦-٤٦٧.
- ٣- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، صفحات ١٢٥-١٢٦.
- ٤- فاين، *Bosnian Church*، ص ٣٧٩.
- ٥- عن تقرير عن عام ١٤٥٥، انظر Ferrnendzin, ed., *Acta Bosnae*، صفحات ٢٢٦-٢٢٤.
- ٦- فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٣٧٩-٣٨٠؛ جايا Dzaja. *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ١٢٩.

- ٧- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٢٦-١٢٧؛ سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٥٦. ومع ذلك، فإن أول دليل مؤكد عن الكنيسة الأورثوذكسية في سراييفو يعود إلى ١٦١٦: سكاريتش Skaric, *Srpski pravoslavni u Sarajevu* ، ص ١٠.
- ٨- عن البيانات الدالة على التحول الديني، انظر د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، صفحات ٤٦٧-٤٩٤. وكانت هناك أيضاً تحولات من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية.
- ٩- جايا Dzaja, *'Die Bosnische Kirche'* ، صفحات ٧٥-٨٢.
- ١٠- فاسيتش Vasic, *'Etnicka kretanja'* ، صفحات ٢٣٣-٢٣٩؛ وعن تقرير حول طاعون خطير في ١٥٨٤، يقال عنه إنه قضى على مئتي ألف في البوسنة والهرسك وصربيا، انظر Ferrnendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٣٣٨.
- ١١- كيوريبيشيتش Kuripescic, *Itinerarium der Botschaftsreise* ، صفحات ٣٤-٣٥. وسميدروفو (Smederovo) مدينة في شمال صربيا، جنوب شرقي بلجراد. ووجد كيوريبيشيتش أيضاً صربيين أثناء الشطر الثاني من رحلته بين سراييفو وكوسوفو؛ وهو يشير إلى هؤلاء ببساطة على أنهم صربيون (ص ٤٣).
- ١٢- روشكيفيتش Roskiewicz, *Studien uher Bosnien* ، ص ٧٧.
- ١٣- فاسيتش Vasic, *'Etnicka kretanja'* ، ص ٢٣٨؛ شابانوفيتش Sabanovic, *'Vojno uredjenje Bosne'* ، صفحات ٢١٨-٢١٩.
- ١٤- كيوريبيشيتش Kuripescic, *Itinerarium der Botschaftsreise* ، ص ٤٣. وعبر كثير من الأقالق الحدود إلى الجانب النمساوي بعد هزيمة العثمانيين في سيساك في ١٥٩٣ (Gusic, *'Wer sind die Morlaken?'* ص ٤٦١).
- ١٥- انظر روتنبرج Rothenberg, *Austrian Military Border* ، وعن خلاصة مفيدة، انظر كتابه *Military Border in Croatia* ، صفحات ٦-١١.
- ١٦- المؤلفات عن الأقالق ضخمة العدد، كما أنها في معظم شأنها غير مرضية. وعن مراجع وفيرة العدد، انظر ناستوريل Nasturel, ed., *Bibliografie macedo romana*. ولا تزال خير مقدمات عامة هي فايغاند Weigand, *Die Aromunen* و ويس وطومسون Wace and Thompson, *Nomads of the Balkans* . كما أن أفضل دراسة عصرية هي وينيفيرث Winniffrith, *Vlachs* ؛ ثم إن ناندريس Nandris, *'Aromani'* يعد أيضاً دراسة قيمة.
- ١٧- جفوني Gvoni, *'La Transhumance des Vlaques'* .
- ١٨- بارتويسيس Bartusis, *Late Byzantine Army* ، صفحات ٢١٦ و ٢٥٦؛ ناستوريل Nasturel, *'Les Valaques balcaniques'* ، ص ١١٠.
- ١٩- د. رادويتشيتش D. Radojcic, *'Bulgaralbanitoblahos'* .
- ٢٠- ينبغي أن أوضح أني لم أتمكن من الرجوع إلى البيان الكامل للألب مانديتش عن نظريته *Postanak Vlaha* ، الذي نشر في بوينس آيريس؛ وكان اعتمادي على

المخلص الوارد في كتابه 'Ethnic and Religious History of Bosnia' ، صفحات ٣٨٦-٣٨٣.

٢١- هناك مؤلفات فنية واسعة عن العلاقات بين الرومانية والألبانية. انظر بوجه خاص Du Nay، وعن ملخصات عصرية جيدة، انظر دو نى، Baric، *Lingvisticke studije* و *Early History of Rumanian*، Illyes، صفحات ٢٩٠-١٩١.

٢٢- انظر هارمان Haarmann، *Der latcinische Lehnwortschatz*. وتدل البينات أن نوع اللاتينية المتأخرة التي تطورت إلى اللغة الرومانية كانت على صلة وثيقة بالألبانية، وإن كانت بعض الكلمات الألبانية المستعارة جاءت أيضاً من لاتينية أبكر.

٢٣- إن قائمة أعظم العلماء المستقلين (أى غير البلقانيين) امتيازاً تتضمن بيريتشيك وفايجاند وستادموللر. وعن مسح نافع (وإن اتجه بطبيعة الحال إلى توكيد الأصول الجغرافية الألبانية للألبان)، انظر تشابى 'Cabej، 'Problem of Place of Formation'. وحاول بعض الكتاب الرومانيين أن يعكسوا الأوضاع بالزعم بأن الألبان قدموا من رومانيا. وكان أمهر حل وسط هو الذى وضعه ماريينسكو (Marienescu)، الذى ذهب إلى أن الخصائص الإليرية للغة إنما التقطها أولاً وقبل كل شئ الجند الرومانية فى مقدونيا، وهم رجال أعيد نقلهم إلى شمالى الدانوب (-Ilirii، macedo-romanii si albanesii)، صفحات ١٥٣-١٥٤.

٢٤- بيريتشيك 'Jirecek، 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens'، الجزء الأول، صفحات ٤٠-٤٠؛ وجيوشيتش 'Gusic، 'Wer sind die Morlaken?' ودرجومير Dragomir، *Vlahii si Morlacii*، صفحات ١٥-٥٢. وعن السجلات البندقية للأفلاق اندحاراً أسفل الساحل فى الجبل الأسود وشمال ألبانيا، انظر فالنتيني، Valentini، 'L'elemento vlah nella zona scutarina'.

٢٥- درجومير Dragomir، *Vlahii din nordul peninsulei balcanice*، صفحات ٤٩-٥٢ والخريطة رقم ١.

٢٦- إ. بوبوفيتش I. Popovic، 'Valacho-serbica' (وقد صحت هجاء بوبوفيتش لكلمة tirziu) صفحات ٣٧٢-٣٧٣؛ هولد Huld، *Basic Albanian Etymologies*، ص ٥٧. وفى الرومانية العصرية تعنى كلمة tirziu "متأخر" وكلمة zara تعنى "شرش" أو "اللبن الرائب". وعن بيئة على الرعويات الألبانية فى دالماشيا، وعلى مجاميع ذات أصل ألبانى بين أفلاق الهرسك وصربيا، انظر جيوشيتش Gusic، 'Wer sind die Morlaken?'، ص ٤٥٦؛ وبيريتشيك Jirecek، 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens'، الجزء الأول، صفحات ٤١-٤٣؛ وم. فيليبوفيتش M. Filipovic، 'Struktura i organizacija katuna'، صفحات ٥٠-٥٨.

٢٧- وربما كان أحفادهم عائشين فى صورة الرعاة الترانسهيومانت المحولين للإسلام، والذين يعرفون عامة باسم باليجى، فى المناطق النائية من البوسنة، انظر Balagija، *Les Musulmans yougoslaves*، صفحات ٨٢-٨٣؛ كيوليشيتش Kulisc، 'Razmatranja o porijeklu Muslimana'، ص ١٥٣. وهناك عائلة من باليجى Balije بحثها فايچاند، فظهر أنها فيما يحتمل من أصل تركمانى (Rumanen und)

'Aromunen in Bosnien' ، صفحات ١٩١-١٩٧)؛ ولكن الواضح أن معظمهم من أرومة بلقانية.

٢٨- جوشيتش Gusic, 'Wer sind die Morlaken?' ص ٤٥٧. انظر كمثال لذلك شكوى كتبت في ١٤٠٣ في Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٨٥.

٢٩- يطابق نوافكوفيتش Novakovic ، في (*Selo* ، ص ٣٣) أيضاً بين *Crnogunji* و *Sarakatsani*، الذي ربما جاء اسمهم من الكلمة التركية *Karakacan* التي تعني "المنقهر الأسود"؛ ولكن الساركاتسينيين، الذين من الواضح أنهم ظلوا يتحدثون اليونانية زمناً طويلاً إنما هم سر آخر.

٣٠- يذكر يوانوس لوسيوس التروجيرى (إيفان لوكيتش) مؤرخ القرن السابع عشر أن المصطلح كان يستخدم نقيضاً لمصطلح '*Bili-Vlahi*, id est *Albi Latini*' (الأفلاق البيض) (انظر Schwandner, ed., *Scriptores rerum hungaricarum* المجلد الثالث، ص ٤٥٩)؛ على أنى لم أر أية عبارة تعبر عن "الأفلاق البيض" مقتبسة من أى مصدر مبكر. ويرى ييريتشيك أن الراجوزيين والدالماتيين وضعوا وسيلة التمييز ليفرقوا أنفسهم (الذين يسمون أيضاً بالأفلاق بسبب لغتهم المصطبغة باللاتينية) عن أفلاق المناطق الداخلية، ويرى جوشيتش أنهم كانوا يميزون بين أفلاقهم الأصليين المحليين (الذين كانوا يرتدون البياض) وبين موجة من القادمين الجدد. وعندى أن كلا النظريتين غير مقنعة، إذ ليس ثمة سبب فى أن يستخدم الراجوزيون أو الدالماتيون الآخرون اللغة اليونانية. وكان لوشيوس التروجيرى متنبهاً على الأقل إلى هذه المسألة، فذهب إلى أن مصطلح *Mavrovlachos* أعاد نقله البنادقة (الفينيسيون) من اليونان.

٣١- وتجئ كلمة *Morovlah* فى المراجع الراجوزية مشيرة إلى الأفلاق المحليين بدءاً من القرن الثالث عشر، انظر ييريتشيك Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten ييريتشيك'، ص ٣٥، ولا شك أن الأثر الشعبى فى نطق الكلمة إنما حدث قرب أخريات القرن الثانى عشر، عندما أشار قسيس ديوكليا إلى الموروفلاتش '*Morovlachi*' (وإن كان على ذكر من أن المعنى كان اللاتينى الأسود '*nigri Latini*') فون شواندندر *Scriptores rerum hungaricarum*، المجلد الثالث، ص ٤٧٨. ويتناقض كلا هذين العنصريين للبيئة مع الحجة المقدمة فى جوشيتش 'Wer sind die Morlaken?' ، Gusic ، صفحات ٤٥٩-٤٦٠.

٣٢- فورتيس Fortis, *Travels into Dalmatia* ، صفحات ٥٣ و ٨٥. وقد لقيت كثير من ملاحظات فورتيس (على أن تلك لم تكن من بينها) معارضة فى عمل أواخر وأتمن على يد كاتب أوتى معرفة محلية أجود كثيراً، انظر Lovrich, *Osservazioni*.

٣٣- انظر باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ١٧٥؛ ولسون Wilson. *Life of I'uk Karadic* ، صفحات ١٩٢-١٩٤. وترجمت ولسون الخاصة وردت فى صفحات ٣٦١-٣٦٣.

٣٤- بلديسانو Beldiceanu, 'Les Valaques de Bosnie' .

- ٣٥- بلديسيانو 'Sur les valaques des balkans slaves' ، Beldiceanu ، ص ٩٧ ؛ بلديسيانو وبلديسيانو-ستاينهر 'Quatre actes de Mehmed II' ، ص ١١٨ ؛ انظر أيضاً هاجيبجيتش 'Hadzibegic, 'Dzizja ili harac' الجزء الأول، ص ٦٨. ومع هذا، فعند أخريات القرن الثامن عشر، كان أحفاد الأفلاق في منطقة حدود البوسنة يدفعون الخراج فعلاً: انظر لوفريتش Lovrich, *Osservazioni* ، ص ٨٣.
- ٣٦- انظر بلديسيانو 'Sur les valaques des balkans slaves' ، Beldiceanu ، ص ٩٤ ؛ هاجيبجيتش Hadzibegic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ١٣٧. قارن ملحوظة كيوريثيتش أعلاه (هامش ١١).
- ٣٧- جايا 'Dzaja, Die 'bosnische Kirche' ، ص ٧٥.
- ٣٨- بلديسيانو 'Sur les valaques des balkans slaves' ، Beldiceanu، ص ٩١. ويحدد تريفونوفسكي Trifunovski تاريخ التغيير نحو الاستقرار في قرية مفردة إلى القرن الخامس عشر: 'Geografske karakteristike katuna' ، صفحات ٣٦-٣٧.
- ٣٩- لوفريتش Lovrich, *Osservazioni* ، صفحات ١٧٤ و ١٧٩.
- ٤٠- وكان مؤسس هذا التفسير هو ستويان نوافكوفيتش Stojan Novakovich مؤرخ القرن التاسع عشر؛ انظر كتابه Selo ، صفحات ٢٩-٣٠. وكذلك يرى المؤرخ الروسي إ. ب. نوموف E. P. Naumov أيضاً أن الأفلاق اصطبغوا بالصباغ السلافي الثقيل في زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر: انظر 'Balkanskiye vlakhi'. على أن الكتاب الصربيين الذين يتقبلون الرأي القائل بأن الأفلاق هوية إثنية (عرقية) مختلفة، لم تصدهم تلك الحقيقة المجردة؛ إذ من العجيب أن مؤرخاً صربياً معاصراً يكتب: "حتى الأفلاق أنفسهم وطرائقهم في الحياة أصبحوا عرضة للتهديد حتى لقد انضموا للصرب لكي ينقذوا حياتهم، كما أنهم في أثناء تلك العملية ساعدوا في الاحتفاظ بالهوية الإثنية والدينية والثقافية للصرب واستمرارها". (انظر بافلوفيتش Pavlovich, *Serbians* ، ص ٧٨).
- ٤١- بلديسيانو 'Les valaques de Bosnie' ، Beldiceanu ، ص ١٢٣.
- ٤٢- م. فيليبوفيتش M. Filipovic, 'Struktura i organizacija katuna' ، ص ٥٢ (أسماء)؛ بيريتشيك 'Die Romanen in den Städten Dalmatiens' ، الجزء الأول، ص ٤٠ (جزيرة)؛ نيجر Niger, *Geographiae commentariorum libri* ، ص ١٠٣ (اللاتيني الفاسد)؛ ناندرش 'Aromani' ، Nandris ، ص ٣٨ (كلمات العد).
- ٤٣- بيريتشيك 'Die Romanen in den Städten Dalmatiens' ، Jirecek ، الجزء الأول، ص ٤١.
- ٤٤- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٥١٦.
- ٤٥- ويمكن الفرق في أسلوب النطق الحنكي لبعض الحروف المتحركة: فإن "الإيكافية"، المتحدث بها في صربيا، تنطق كلمة "اللبن" 'mleko'، بينما "الليكافية" (المتحدث بها في البوسنة والهرسك) تنطقها 'mljeko' or 'mljeko'.

- ٤٦- ويستشهد د. مانديتش بالإحصاء كدليل على استمرار التحدث بالأفلاقية في (Etnicka povijest Bosne، ص ٥١٦)؛ فيليبسكو Filipescu, Coloniile romane din Bosnia. ٤٧- فايغاند 'Rumanen und Aromunen in Bosnien' Weigand، وعن 'Karavlasii'، انظر القسم عن العجر في الفصل التاسع. ٤٨- على أن د. مانديتش يذكر بدقة عجيبة زائفة أن النسبة ٥٠-٥٢ % (Etnicka povijest Bosne، ص ٥١٦). ٤٩- جايا Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat، ص ٨٣.

الفصل السابع: الحرب والشئون السياسية في البوسنة العثمانية ١٦٠٦-١٨١٥

- ١- كونت Kunt, Sultan's Servants، ص ٨٢. ٢- كليسول Clissold, ed., Short History، ص ٤٩. ٣- Fermendzin, ed., Acta Bosnae، صفحات ٤٧٩-٥٠١. ٤- شو Shaw, History of the Ottoman Empire، المجلد الأول، ص ٢١٢. ٥- أ. بوبوفيتش A. Popovic, L'Islam balkanique، ص ٢٥٩. ٦- جايا Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat؛ ومع هذا فإن بيليديا Peledija يكتب أن العدد الإجمالي للأجنيين المسلمين من الأراضي التي استرجعها آل هابسبرج بلغ مئة وثلاثون ألفاً، لم يكونوا جميعاً يسكنون البوسنة، انظر (Bosanski ejalet) ص ٥٠. ٧- ديوردجيف Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٧. ٨- مراز Mraz, Prinz Eugen، ص ٤٠. ٩- د. مانديتش D. Mandic, Etnicka povijest Bosne، ص ٥١٤. ١٠- على أن بعض الكاثوليك عادوا فعلاً بعد أن أعلنت السلطات العثمانية الهدنة في ١٦٩٩؛ انظر بيليديا Peledija, Bosanski ejalet، ص ٥١. ١١- جايا Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat، ص ٩٨. ١٢- وأخيراً تم تحديد خط الحدود هذا بين البندقية والبوسنة خلال الفترة ١٧٢١-١٧٣٣؛ انظر Clissold, ed., Short History، صفحات ٤٥ و ٥٠. ويقول شو مخطئاً أن المعاهدة حددت التخوم على نهر سافا (History of the Ottoman Empire، المجلد الأول، ص ٢٣٢). ١٣- أ. بوبوفيتش A. Popovic, L'Islam balkanique، ص ٢٥٩. ١٤- جايا Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat، ص ٩٦. ويلاحظ جايا أيضاً تمررات حدثت قبل الحرب في ١٧١٠ و ١٧١١. ١٥- هانجيتش Handzic, 'Bosanski namjesnik'، صفحات ١٤٤-١٤٥. ١٦- المرجع السابق، ص ١٥٢-١٦٣. ١٧- ديوردجيف Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٧. ١٨- هانجيتش Handzic, 'Bosanski namjesnik'، صفحات ١٦٤-١٨٠.

- ١٩- هاجيا هيئتس 'Die Kampfe der Ajane', Hadzijahic, ص ١٣٠.
- ٢٠- سوشيسكا 'Osmanlı imparatorlugunda Bosna', Suceška, ص ٤٤١.
- ٢١- هاجيا هيئتس 'Die privilegierten Stadte', Hadzijahic, ص ١٥٦.
- ٢٢- جايا 'Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat', ص ٩٨.
- ٢٣- ب. بيلافيتش 'History of the Balkans', B. Jelavich, المجلد الأول، ص ٩٠٠.
- ٢٤- روتنبرج 'Military Border in Croatia', Rothenberg, صفحات ٧٢-٧٣.
- ٢٥- شو 'History of the Ottoman Empire', Shaw, المجلد الأول، ص ٢٥٩.
- ٢٦- شاميتش 'Les Voyageurs francais', Samic, صفحات ١٤٦-١٤٩.
- ٢٧- دييوف 'Souvenirs', Desboeufs, صفحات ١٣٢-١٣٣.
- ٢٨- بافلوويتش 'Society in Serbia', Pavlowitch, صفحات ١٤٤-١٤٥؛ ويلاحظ بوبوفيتش أن أعمالاً كهذه استمرت ببأس متجدد بعد ١٨١٥ (انظر *L'Islam balkanique*، ص ٢٦٢).
- ٢٩- كريشيفلياكوفيتش 'Kapetanije', Kresevljakovic, صفحات ١٣ و ٢٢.
- ٣٠- المرجع السابق، صفحات ٥٢-٦٤.
- ٣١- كان من الممكن أن توصف البوسنة بأنها "باشالوكية"، ولكن ذلك كان مصطلحاً عاماً يشمل جميع أنواع الأراضي التي يحكمها باشا. وحيث أن البوسنة كانت إيالة فإنها لم تكن على نفس مستوى باشالوكية بلجراد مثلاً، التي كانت سنجقية فقط. وعن الامتيازات التي يتمتع بها الباشا ذي الذيل الثلاثة، انظر دوسون d'Ohsson، *Tableau de l'Empire othoman*، المجلد السابع، ص ٢٨٥.
- ٣٢- شاميتش 'Les Voyageurs francais', Samic, صفحات ١٨٦-١٨٧؛ كريشيفلياكوفيتش *Kapetanije*، Kresevljakovic، ص ١٧.
- ٣٣- شاميتش 'Les Voyageurs francais', Samic، ص ١٨٨.
- ٣٤- هاجيا هيئتس 'Die privilegierten Stadte', Hadzijahic، صفحات ١٣٢-١٣٤. وقد رأس المسلمون النقابات ولكنها ضمت أيضاً أعضاء من المسيحيين واليهود. وكان لغير المسلمين أقسامهم داخل النقابة. انظر كريشيفلياكوفيتش، *Esnafi i obri*، ص ٤٩؛ سكاريتش 'Sarajevo i njegova okolina'، Skaric، ص ١٣٤.
- ٣٥- شوميت دي فوسسيه 'Voyage en Bosnie', Chaumette-des-Fosses، ص ١١٤.
- ٣٦- هاجيا هيئتس 'Die privilegierten Stadte', Hadzijahic، ص ١٣٧.
- ٣٧- المرجع السابق، صفحات ١٥٦-١٥٧.
- ٣٨- عن آجانات البوسنة، انظر المرجع السابق؛ سوتشيسكا 'Bedeutung des Begriffes A'yan', Suceška، هاجيا هيئتس 'Die Kampfe der Ajane', Hadzijahic؛ وعن الطبيعة الأصلية للوظيفة، انظر باون 'Ayan', Bowen؛ وعن استخدام المصطلح في أماكن أخرى، انظر شوجار 'Southeastern Europe under Ottoman Rule', Sugar، ص ٢٣٨.

الفصل الثامن: الحياة الاقتصادية والثقافة والمجتمع في البوسنة العثمانية ١٦٠٦-١٨١٥

- ١- يحلل توماسيفيتش الاستخدام الخاص لهذه المصطلحات في البوسنة في: *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ٩٩-١٠٠. ويعطي شوجار بياناً مختلفاً وأكثر عمومية في: *Sugar: Southeastern Europe under Ottoman Rule*، صفحات ٢١٤-٢١٨.
- ٢- والتحول إلى المزارع الكبيرة الخاصة (الشيفتليك) في جميع أنحاء الإمبراطورية لهو موضوع ضخم يحوط الغموض جوانب كثيرة منه. ولاستعراض قيم عن هذه الموضوعات، انظر ماكجوان *McGowan, Economic Life in Ottoman Europe*، صفحات ٥٧-٧٩. وتصف موتافتشيفا Mutafchieva الشكلين التقليديين الذي كانت المزارع الكبيرة الخاصة تمنح بهما (للموسيليين و"الغازيين" أو الأبطال العسكريين)؛ وتلاحظ أيضاً شكلاً خاصاً لهذه المزارع مستخرجاً من الممتلكات الإقطاعية القديمة في البوسنة في: ('K'm v'prosa za chiflitsite')، صفحات ٣٦-٤٢.
- ٣- انظر ملاحظات هوتينجر على تواجدهم في أدرنة في خمسينات الألف وستمة في: Hottinger, *Historia orientalis*، ص ٤٦٣.
- ٤- ماكجوان 'McGowan, Food Supply and Taxation'.
- ٥- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص ٢٤٨.
- ٦- ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe*، صفحات ٨٣-٨٦.
- ٧- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، صفحات ١٠٥-١٠٦ و ١٥١ و ١٦٨. وبهذا تقرير الأب مارافيتش عن البوسنة في ١٦٥٥ إلى أن عدد السكان الكاثوليك هو ٦٣٢٠٦ روحاً: Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٤٧٦.
- ٨- سكاريتش 'Skaric, Popis bosanskih spahija'.
- ٩- ب. بيلافيتش B Jelavich, *History of the Balkans*، المجلد الأول، ص ٩٠.
- ١٠- والأرقام عن الذكور البالغين من غير المسلمين المسجلين في إيالة البوسنة من دافعي الجزية: ١٢٥٠٠ في سنة ١٧٠٠ (شاملة الهرسك وزفورنيك)، و ٣٩٢٠٠ في ١٧١٨ (غير متضمنة الهرسك وشاملة زفورنيك)، و ٦٣٤٤٠ في ١٧٤٠ (غير متضمنة الهرسك وشاملة زفورنيك)، و ٩٨٣٢٩ في ١٧٨٨ (شاملة الهرسك وسنجدية غير معلومة) و ١٠٣٨٨٣ في ١٨١٥ (شاملة الهرسك وسنجدية غير معلومة): ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe*، ص ٩٠. ويبدو الرقم الأول منخفضاً بصورة غير ممكنة؛ ويحتمل أنه يدل على أن الإدارة البوسنية لم تستفد من الحرب، ولم تستطع إجراء الإحصاءات الكاملة. وكان ذلك هو الرقم الأول الذي تم تجميعه على أساس جديد، وهو حساب عدد الذكور البالغين بدلاً من عدد العائلات.

- ١١- أرقام قدرها محمد هجياهيته، واستشهد بها جايا في *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ٨٢.
- ١٢- فايغاند 'Rumanen und Aromunen'، Weigand، ص ١٧٨.
- ١٣- سكاريتش *Skaric, Srpski pravoslavni narod*، ص ١.
- ١٤- د. مانديتش *D. Mandic, Etnicka povijest Bosne*، ص ٥١٤؛ هجياهيته *Hadzijahic, 'Die privilegierten Stadte'*، ص ١٣٦.
- ١٥- هجياهيته *Hadzijahic, 'Die privilegierten Stadte'*، ص ١٣٥.
- ١٦- تشيلبي *Celebi, Putopis*، صفحات ١٠٦ و ١١٦. ويعتقد علامة عصرى أن أرقام تشيلبي مبالغ فيها، وهو يقارنها برقم أقل كثيراً من دفتر لعام ١٨٤١ (ناجاتا *Nagata, Materials on Bosnian Notables*، ص ٢). ولكن الأب مارافيتش في تقريره في ١٦٥٥ يعطى رقماً أكبر قليلاً من رقم تشيلبي: ٢٠٠٠٠ عائلة مسلمة و ١٠٠ عائلة مسيحية (*Fermendzin, ed., Acta Bosnae*، ص ٤٧٦). (ومن الجدير بالذكر أن بيان مارافيتش يتضمن أن هذه المئة عائلة تشمل ٦٠٠ روحاً، مما يوحي بأنه استخدم مضاعفاً أكبر مما استخدمه المؤرخون المعاصرون). ومن الواضح أن سرايفو كانت أصغر في القرن الثامن عشر مما كانت عليه في القرن السابع عشر، ويحتمل أنها تضاءلت أكثر في أوائل القرن التاسع عشر.
- ١٧- كيكليه *Quiclet, Voyages*، صفحات ٦٨-٧٠ و ٧٩. وقد علق بيتر ماساريتش على النوعية الفائقة للخيول البوسنية في ١٦٢٤: انظر *Draganovic, 'Izvjescje Petra Masarechija'*، ص ٤٢.
- ١٨- بيليتيه *Pelletier, Sarajevo*، ص ٦٩.
- ١٩- شوميت دى فوسسيه *Chaumette-des-Fosses, Voyage en Bosnie*، ص ٣٣؛ هجياهيته *Hadzijahic, 'Die privilegierten Stadte'*، ص ١٣٥.
- ٢٠- وقد فرض النمسيون بغباء رسم استيراد على تجارهم ولم يفرضوا رسماً مماثلاً على الرعايا العثمانيين الذين كانوا يستوردون نفس البضاعة: انظر ماكجوان *McGowan, Economic Life in Ottoman Europe*، صفحات ٢٣-٢٤.
- ٢١- على أن معرض ليزج التجارى مارس ضغطاً على تجار البوسنة وأجزاء أخرى من البلقان خلال تلك الفترة: انظر باسكاليف *Paskaleva, 'Osmanli balkan eyaletlerinin ticaretleri'*، صفحات ٤٧-٤٩.
- ٢٢- عن استخراج معدن الحديد، انظر شوجار *Sugar, Industrialization of Bosnia*، ص ١٦. ويذكر تقرير كتبه فوركاد في ١٨١٣، مع ذلك، تصدير نوع من المعادن إلى فرنسا: هو الأوربيمنت (الزرنخ الأصفر)، وهو مادة كيميائية طبيعية تستخدم في صناعة الصبغات. (*Vacalopoulos, 'Tendances du commerce de la Bosnie'*، ص ٩٥).
- ٢٣- دوسون *D'Ohsson, Tableau general de l'Empire othoman*، المجلد السابع، ص ٢٩٦.
- ٢٤- بورتر *Porter, Observations on the Turks*، المجلد الأول، ص ١٣٣.

٢٥- المرجع السابق، المجلد الثاني، صفحات ٤٧ و ٥٦. وقد ذكر أنطون هانجي Anton Hangi، الذي كتب في تسعينيات الألف وثمانئة دراسة عن الحياة في البوسنة، تعقياً مماثلاً حول الأمانة واختفاء السرقة في سراييفو، حيث عاش لمدة عام بدون غلق رتاج بابه، على حد قوله (Die Moslim's in Bosnien)، ص ٧. وقد لاحظ الرحالة البريطاني هـ. س. طومسون H. C. Thomson في ١٨٩٧: "يمكن الاعتماد على كلمة المسلم في البوسنة بثقة تامة في مسائل البيع والشراء" (Outgoing Turk)، ص ١٦٢).

- ٢٦- موييتش Mujic, 'Prilog proucavanje uzivanja alkoholni pica'.
- ٢٧- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص ٢٤٣.
- ٢٨- بيليتيه Pelletier, *Sarajevo*، ص ١١٨.
- ٢٩- أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٦٢-٦٣.
- ٣٠- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ١٤٩؛ شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص ٢٤٣.
- ٣١- دراجانوفيتش Draganovic, 'Izvjescje Petra Masarechija'، ص ٤٦؛ د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne*، ص ٣٧٥.
- ٣٢- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٥٢٦.
- ٣٣- المرجع السابق، ص ٤٧٩.
- ٣٤- شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، صفحات ٧٠-٧٤.
- ٣٥- فرا لوفرو سيتوفيتش "أغنية الجحيم" Fra Lovro Sitovic, 'Pisna od pakla'؛ والقصيدة نفسها على هيئة الشعر الشعبي، وعلى ذلك فمن المحتمل أنها قصد بها أن تحل محله. ويعقب أندريتش بأنها "تختلف فقط عن القصائد الحقيقية في الشعر الشعبي في أنها غير منتظمة باستمرار ولا تحوى أى جمال"؛ *Development of Spiritual Life in Bosnia*، ص ٥٠. وعن المراجع الكاثوليكية الأخرى، انظر المرجع السابق، صفحات ٤٧-٥١.
- ٣٦- المرجع السابق، ص ٥٠؛ هاجياهييتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta*، ص ٣٢.
- ٣٧- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، صفحات ٥٠٣-٥٠٤. وعن المحاولات الأخرى للتعدى على الكاثوليك، انظر جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitdt*، صفحات ٢٠٨-٢٠٩.
- ٣٨- شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٧٥.
- ٣٩- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص ١١٢.
- ٤٠- شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٧٥.
- ٤١- أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، ص ٣٨.
- ٤٢- جازيتش Gazic, 'Les Collections manuscrits'. وتوحي تقارير من سراييفو أن المجموعة الكاملة في المعهد الشرقي قد تم تدميرها بواسطة المدفعية الصربية.

- ٤٣- انظر ليفلدت *Lehfeldt, Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum* ، صفحات ٤٥-٥٢.
- ٤٤- عن ملخص ثمين، انظر باليتش *Balic, Das unbekannte Bosnien*، صفحات ٢٧١-٢٨١. وأحدث دراسة، التي لم أتمكن من الرجوع إليها، هي هوكوفيتش *Hukovic, Aljamiado knizevnost i njene stvaraoši*.
- ٤٥- انظر باليتش *Balic, Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ١٦٥-١٩٠.
- ٤٦- ليفلدت *Lehfeldt, Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum* ، ص ٥٠؛ وعن *Baseskija's chronicle*، انظر جازيتش *'Les Collections manuscrites'*، *Gazic*.
- ٤٧- هاجياهييتش *Hadzjahic, Od tradicije do identiteta*، ص ٧. وعن أمثلة كثيرة لكتاب يسمون لغتهم البوسنية، انظر المرجع السابق. صفحات ٢٤-٣١.
- ٤٨- أوربيني *Orbini, Regno de gli Slavi* ، ص ٣٧٧.
- ٤٩- ويلسون *Wilson, Life and Times of Karadzic* ، ص ٣٨٩.
- ٥٠- عن تفاصيل أكثر عن هؤلاء الكتاب وكثيرون غيرهم، انظر باليتش *Balic, Das unbekannte Bosnien*، صفحات ٢٢١-٢٦٤.
- ٥١- انظر المرجع السابق، صفحات ٣٠٠-٣١٦؛ وعن تفاصيل عن مصنفين بوسنيين من القرن الثامن عشر راعين بصفة خاصة بواسطة إبراهيم شيهوفيتش وحسين بوشنيك *Ibrahim Sehovic and Husein Bosnjak*، انظر جازيتش *'Les Collections manuscrites'*، *Gazic*.
- ٥٢- وهناك دراسة قيمة عامة عن طرق الدراويش في الإمبراطورية العثمانية أعدها ميرمير أوغلو *Mirmiroglou, Oi Dervissai*. وهناك مادة مفيدة في رايكوت *Rycaut, Present State of the Ottoman Empire*، صفحات ١٣٥-١٥١؛ و. ف. و. هازلوك *F. W. Hasluck, Christianity and Islam*؛ و *Birge, Bektashi Order*؛ وترينجهام *Trimingham, Sufi Orders in Islam*.
- ٥٣- هانجيتش *Handzic, 'U ulozu dervisa'*.
- ٥٤- بيليتيه *Pelletier, Sarajevo* ، صفحات ٨٢-٨٩. وهناك وصف كامل عن هذه التكتيات في سيكيريتش *'Dervikolostorok es szent sirok'*، *Sikiric*، ولكن سيكيريتش أخطأ عندما وصف تكية إسكندر باشا بأنها الأبرك (صفحات ٥٧٧-٥٧٨).
- ٥٥- تشيلبي *Celebi, Putopis* ، ص ١١٠.
- ٥٦- انظر الوصف في ألبار *Algar, 'Notes on the Naqshbandi Tariqat'*، صفحات ٧٣-٧٧.
- ٥٧- بالاجيا *Balagija, Les Musulmans yougoslaves*، ص ١٠٣؛ انظر أيضاً ف. و. هازلوك *F. W. Hasluck, Christianity and Islam*، المجلد الثاني، ص ٥٥١.
- ٥٨- باليتش *Balic, Das unbekannte Bosnien*، صفحات ١٠٤-١٠٥؛ و هاجياهييتش *Hadzjahic, 'Udio Hamzev ija u atentatu'*، و هوكيتش *Hukic, ed. Islam i muslimani u Bosni*، صفحات ٩١-٩٨.

- ٥٩- تشيلبي Celebi, *Putopis* ، ص ١١٦ .
- ٦٠- انظر مثلاً شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *l'oyage en Bosnie* ، صفحات ٥٥-٦٣ . ويلاحظ شوميت دي فوسسيه أيضاً، كغيره من المراقبين الانعدام الحقيقي لتعدد الزوجات .
- ٦١- هاجيا هيتش Hadzizahic, *Od tradicije do identiteta* ، ص ١٩ .
- ٦٢- كيكليه Quiclet, *Les Voyages* ، صفحات ٧٢-٧٣ .
- ٦٣- شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie* ، صفحات ٤٩-٥٠ .
- ٦٤- برتوزيه Pertusier, *La Bosnie* ، ص ٩١ .

الفصل التاسع: يهود وغجر البوسنة

- ١- جولدستين Goldstein, ed., *Jews in Yugoslavia* ، صفحات ٢٧-٢٨ .
- ٢- المرجع السابق، صفحات ٧٥-٧٦ .
- ٣- ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، ص ٢ . ويكتب فرايدنرايش Freidenreich أن سجلات المحاكم تلك تشير إلى ما بين عشر وخمسة عشر عائلة يهودية (*Jews of Yugoslavia*، ص ١٢)؛ ولكن هذا هو فقط تخمين ليفي حول حجم المجتمع اليهودي في ذلك الوقت .
- ٤- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire* ، ص ٥٣ .
- ٥- لاحظ بيليتيه في ١٩٣٤ أن المنسوجات في سرايفو كان لا يبيعها تقريباً إلا اليهود: Sarajevo ، صفحات ٤٨-٤٩ . ويذهب سكاريتش إلى أن يهود سرايفو جاءوا أصلاً من سكوبيي: Sarajevo i njegova okolina ، ص ٦٠ .
- ٦- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire* ، ص ٥٣ .
- ٧- ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ٦-١٠ .
- ٨- جولدستين Goldstein, ed., *Jews in Yugoslavia* ، ص ٧٢؛ فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia* ، صفحات ١٢ و ٢٧ . وقد حُرق الحوش في حريق ١٨٧٩، ولم يُن ثانياً. وعن وصف كامل عن الحي اليهودي في سرايفو وخريطة للشوارع، انظر ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ٨٥-١١١ .
- ٩- ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، ص ١١١؛ وقد حرق تماماً في ١٧٩٤ تم أعيد بناؤه .
- ١٠- فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia* ، ص ١٣ .
- ١١- تشيلبي Celebi, *Putopis* ، صفحات ١٠٥-١٠٦ .
- ١٢- ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ٥٣-٥٥ و ٦٦؛ فرايدنرايش Freidenreich, *Jews in Yugoslavia* ، صفحات ١٤-١٥؛ جولدستين Goldstein, ed., *Jews in Yugoslavia* ، ص ٦٥ .

- ١٣- شولم Scholem, *Sabbatai Sevi* ، ص ٥٦٠.
- ١٤- عن هايون، انظر ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ١٥-١٧؛ شولم Scholem, *Sabbatai Sevi* ، صفحات ٩٠١-٩٠٢؛ شولم Scholem, *Major Trends in Jewish Mysticism* ، صفحات ٣٢١-٣٢٤؛ وعن الأشكنازي انظر فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia* ، ص ١٣.
- ١٥- ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، ص ٨٨.
- ١٦- المرجع السابق، صفحات ١٩-٢٠. وقد نهب المعبد الرئيسي لطائفة السفرديم والمكتبة القديمة والمحفوظات التي كان يحتويها فور وصول القوات الألمانية إلى سراييفو في ١٥ أبريل ١٩٤١ (لغنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora* ، ص ٦٤).
- ١٧- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire* ، ص ٥٣.
- ١٨- المرجع السابق، ص ٥٣. ويرجع شو تاريخ وصول باردو إلى ١٧٥٢؛ ويرجعه فرايدنرايش إلى ١٧٦٥؛ ويرجعه ليفي إلى ١٧٦٨. وكلهم يتفقون على أنه رحل إلى فلسطين في ١٧٨١.
- ١٩- انظر الوصف وصورة ملونة للمخطوط بأكمله في روث Roth, ed., *Sarajevo Haggadah*.
- ٢٠- فاكالوبولس Vacalopoulos, 'Tendances caracteristiques du commerce de la Bosnie' ، ص ٩٩. ويذهب برتوزيه أيضاً إلى أن الرقم الإجمالي هو ٢٠٠٠ للبوسنة Pertusier, *La Bosnie* ، ص ٧٨. على أن شوميت دي فوسسيه يذهب إلى أنه ١٢٠٠ Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie* ، ص ٢٩٧.
- ٢١- وقال برتوزيه، الذي زارها في ١٨١٢، إن سكان ترافنيك كانوا بأجمعهم من المسلمين فيما عدا "قليل من العائلات اليهودية" *La Bosnie* ، ص ٢٩٧؛ على أن شوميت دي فوسسيه، الذي عاش هناك لسبعة أشهر في ١٨٠٨، ذكر أنهم كانوا يشملون ١٠٠٠ أرثوذكسي و ٥٠٠ كاثوليكي و ٣٠٠ عجري و ٦٠ يهودياً. وفي ١٨٩٨ دعى ويليام ميلر ترافنيك بأنها "إحدى المدن الإسلامية النقية في البلاد" (*Travels and Politics* ، ص ١٥٥).
- ٢٢- ثيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung* ، ص ١٣٠.
- ٢٣- ليفي Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ٦٢-٦٣.
- ٢٤- فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia* ، صفحات ١٥-١٦.
- ٢٥- بيرنرايتر Baernreither, *Bosnische Eindrücke* ، ص ٢٦.
- ٢٦- فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia* ، ص ٢١٣.
- ٢٧- كيرتيس Curtis, *Turk and his Lost Provinces* ، ص ٢٧٦.
- ٢٨- فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia* ، صفحات ١٩-٢٢.
- ٢٩- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire* ، ص ٣٥؛ لغنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora* ، صفحات ٧٠-٧١.

- ٣٠- عن كل التفاصيل السابقة، انظر ميويش 'Polozaj cigana'، Mujic، صفحات ١٤٠-١٤٤، وسوليس 'Gypsies in the Byzantine Empire'، Soulis. ويلاحظ فريزر في Fraser، *Gypsies*، ص ٥٧، أن مصطلح *cingarije* في مرسوم صربي كان من المحتمل أنه يعني "إسكافي".
- ٣١- فريزر Fraser، *Gypsies*، ص ٨٣.
- ٣٢- ميويش 'Polozaj cigana'، Mujic، صفحات ١٤٦-١٤٧.
- ٣٣- فيوكانوفيتش 'Le Firman relatif aux tsiganes'، Vukanovic.
- ٣٤- فايغاند 'Rumanen und Aromunen'، Weigand، ص ١٧٤. وكلمة *Baresi* من الكلمة المجرية *beas* بمعنى "يحفر".
- ٣٥- كيوريبيشيتش Kuripesic، *Itinerarium*، ص ٣١؛ ويقول كذلك أن مثل هؤلاء العمال كانوا يوجدون في أجزاء أخرى كثيرة من البوسنة (ص ٤٤). والطريقة المعتادة لم تكن بغسل التراب عن المعدن بل بجر جزء من صوف الخراف على قاع الجدول أو النهر.
- ٣٦- م. هازلوك 'Firman regarding Gypsies'، M Hasluck، ص ٢.
- ٣٧- فريزر Fraser، *Gypsies*، صفحات ١٣٢-١٢٤.
- ٣٨- شوجار Sugar، *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، صفحات ٧٧ و ٨٦ و ١٠٣.
- ٣٩- م. هازلوك 'Firman regarding Gypsies'، M Hasluck، صفحات ١٠-١١.
- ٤٠- Fermendzin، ed. *Acta Bosnae*، ص ٤٧٦.
- ٤١- ميويش 'Polozaj cigana'، Mujic، ص ١٤٩.
- ٤٢- شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses، *l'oyage en Bosnie*، ص ٣٠؛ برتوزيه Pertusier، *La Bosnie*، ص ٧٨.
- ٤٣- تيومل Thoenmel، *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ٧٦-٧٧ (عن ١٨٦٥)؛ ماورر Maurer، *Eine Reise durch Bosnien*، ص ٣٧٣ (عن أخريات ستينيات الألف وثمانئة)؛ ميويش 'Polozaj cigana'، Mujic، ص ١٧٠ (عن ١٨٧٠).
- ٤٤- ميويش 'Polozaj cigana'، Mujic، ص ١٥٧؛ شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses، *l'oyage en Bosnie*، ص ٣٨. ولاحظ روشكبيشيتش Roskiewicz حوالي ١٠٠٠ غجري في سراييفو في ستينيات الألف وثمانئة (*Studien uber Bosnien*، صفحات ١٧٩-١٨٠).
- ٤٥- وأمل أن يكون الوصف الذي جمعه في هاتين الفقرتين تحليلاً دقيقاً لبعض البنات المتعارضة. وأجود الأبحاث التي استقيت منها هي: حيلبات-سميث Gilhat-Smith، 'The Dialect of the Gypsies of Serbo-Croatia'؛ والتعقيبات في Gluck 'Zur physischen Anthropologie der Zigeuner in Bosnien'، ص ٤٠٥؛ ومقالة لكاتب مجهول في *Bosnische Post* لعام ١٨٩٥، مترجمة في فيليبسكو Filipescu، *Colonile romane din Bosnia*، ص ٢٠٥. ويرفض فيليبسكو نفسه حجة المؤلف.

- وببسط نظريته الخاصة "الرومانية الخالصة" في صفحات ١٩٩-٢٩٣. ويحدث
فايجاند فيليبسكو في 'Rurnanen und Aromunen'; ويناقش لوكوود بإيجاز
موضوعي الغجر البيض و cergasi في *European Muslims*، صفحات ٣٠-٣١.
٤٦- فريزر Fraser, *Gypsies*، ص ٢٣١.
٤٧- طومسون Thomson, *Outgoing Turk*، صفحات ١٧٠-١٧١.
٤٨- فريزر Fraser, *Gypsies*، صفحات ٥٨-٥٩.
٤٩- أوليك 'Uhlik, 'Serbo-Bosnian Folk-Tales, no. 8'، صفحات ٩٢-٩٣.
٥٠- أوليك 'Uhlik, 'Serbo-Bosnian Folk-Tales, no. 9'، صفحات ١١٦-١١٧. ومعظم
الذين أبيدوا كانوا غجراً كرواتيين، وكانوا كلهم تقريباً أرثوذكس.

الفصل العاشر: المقاومة والإصلاح ١٨١٥-١٨٧٨

- ١- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، صفحات ١٩٣-١٩٤ و ٢٠١.
٢- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، ص ٣٧٤؛ ديوردييف
'Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٨.
٣- وعن هذه الحوادث، انظر لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، صفحات ٧٨-٨٣؛
شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثاني، صفحات ١٩-٢٤.
٤- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، صفحات ٣٧٥-٣٧٧.
٥- روتنبرج Rothenberg, *Military Border in Croatia*، ص ١٣٠.
٦- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، صفحات ٣٧٨-٣٨٨.
٧- المرجع السابق، المجلد الرابع، ص ٣٨٤.
٨- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص
١٠٣.
٩- شوبان وأوربيسيني Chopin and Urbicini, *Provincs danubiennes*، ص ٢٤٢.
١٠- كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovic, *Kapetanije u Bosni*، صفحات ٦٨-٦٩؛ شليفو
Sljivo, *Omer Pasa Latas*، ص ١٠؛ ديوردييف 'Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٨.
١١- عن التنظيمات، انظر لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، صفحات ١٠٦-١٢٨؛
شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثاني، صفحات ٥٨-١٣٣.
١٢- موير ماكنزي وإربي Muir Mackenzie and Irby, *Travels in the Slavonic*
Provinces، المجلد الأول، ص ١٣.
١٣- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الثالث، ص ٥٣.
١٤- شيشيتش Sisic, ed., *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ٢٧.
١٥- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، ص ١١٩.
١٦- شليفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ٥٠-٥١.

- ١٧- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*, ص ١٠٤؛ ولوصف أكثر تفصيلاً عن محاولات طاهر باشا للإصلاحات الضرائبية، انظر شلييفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ١٨-٢٤.
- ١٨- شلييفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ٥٠-٥١.
- ١٩- شابانوفيتش Sabanovic, *Bosanski pasuluk*، ص ٩٦.
- ٢٠- شيشيتش Sisic, *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ١١١.
- ٢١- المرجع السابق، صفحات ٢٣٥ و ٣٤٧ و ٣٥٧.
- ٢٢- المرجع السابق، صفحات ٣٠٢-٣٠٣.
- ٢٣- جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٢.
- ٢٤- لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، ص ١١٦.
- ٢٥- جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، صفحات ٤٣ و ٣٨-٣٩ و ٨٤-٨٥ على الترتيب.
- ٢٦- شيشيتش Sisic, *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ٣٥٨؛ أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٦٤-٦٥؛ تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ١١٤-١١٦؛ جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٤.
- ٢٧- تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ٩٩ و ١٠٢.
- ٢٨- ماورر Maurer, *Eine Reise durch Bosnien*، صفحات ٣٦٥-٣٦٦؛ قارن تعقيبات أتاناسكوفيتش Atanaskovic في ١٨٥٣؛ جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٤.
- ٢٩- من تقرير يوفانوفيتش، خلف أتاناسكوفيتش، في ١٨٦٢؛ جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٢٨٠.
- ٣٠- انظر أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٥٣-٥٤ (يوكيتش)؛ وإماموفيتش Imamovic, 'O historiji bosnjackog pokusaja'، ص ٤١ (بترانوفيتش ونظيره الكاثوليكي كلمنت بوجيتش المترجم في القنصالية البروسية)؛ وكوتشيت Koetschet, *Osman Pascha*، صفحات ٣٣-٣٤ (بيلاجيتش). وعن سيرة بيلاجيتش اللاحقة النابضة بالحياة، والتي شملت فترات من القلاقل بين دوائر المهاجرين البوسنيين في بلجراد وبوخارست، انظر كوبريتش-أمريش Cupric-Amrein, *Die Opposition in Bosnien*، صفحات ٦١-٦٤.
- ٣١- روتنبرج Rothenberg, *Military Border in Croatia*، ص ١٦٦.
- ٣٢- عن ترجمة لهذا النص، انظر جرمك Grmek et al., eds., *Le Nettovage ethnique*، صفحات ٤٢-٥٣.
- ٣٣- المرجع السابق، صفحات ٦٤-٨٠، وبخاصة صفحات ٧٥ و ٧٨. وعن عروض أخرى من جارشانين للقيام بالدعاية في البوسنة، انظر سليبتشيفيتش Sljepcevic, *Pitanje Bosne*، صفحات ٢١-٢٢.
- ٣٤- انظر باناك Banac, *National Question*، صفحات ٨٥-٨٩.

- ٣٥- ويخلط شو بين هذه الحملة العسكرية لعمر باشا وبين حكمه للبوسنة في ١٨٥٠-
١٨٥٢: *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثاني، ص ١٤٩.
- ٣٦- كوتشيت Koetschet, Osman Pascha، صفحات ١-٥ و ١١-١٢.
- ٣٧- المرجع السابق، ص ٧؛ ويلاحظ كوتشيت بالصدفة أن كل الإدارة المالية للولاية كانت تتكون من مدير ومراقب وخمسة عشر كاتباً. وعن قانون الإصلاح الريفي، انظر شو *History of the Ottoman Empire*، Shaw، المجلد الثاني، صفحات ٨٨-٩١.
- ٣٨- ب. بيلافيتش وس. بيلافيتش *Balkan National States*، ص ١٤٣.
- ٣٩- لوصف أكثر تفصيلاً عن إصلاح ١٨٥٩، انظر توماسيفيتش Tomasevich، *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ١٠٥-١٠٦.
- ٤٠- كوتشيت Koetschet, Osman Pascha، ص ٦.
- ٤١- المرجع السابق، صفحات ٢٤-٢٥. وعن هذا النوع من الفزاهات، المعروفة باسم *teferic*، والتي كانت لا يزال يمارسها الكاثوليك في ثلاثينيات الألف وتسعمئة، انظر بيليتيه Sarajevo، ص ١٤٣.
- ٤٢- كوتشيت Koetschet, Osman Pascha، صفحات ٤٦-٤٩. ولم يوجد أي منها؛ ولكن يوجد كثير من الدلائل على الاهتمام الروسي (بل التدخل) في شئون البوسنة خلال تلك الفترة في بيزاريف وإكميتشيتش *Pisarev and Ekmeçic, Osvoboditelna borba narodov Bosnii i Rossiya*.
- ٤٣- سليبيتشيفيتش Slijepcevic, Pitanje Bosne، ص ٢٥.
- ٤٤- كوتشيت Koetschet, Osman Pascha، ص ٥٥.
- ٤٥- ماير Maier, Deutsche Siedlungen، ص ٩؛ أندرسون Anderson, Miss Irby، صفحات ٦٠-٦٧؛ بيليتيه Pelletier, Sarajevo، ص ١٣٨.
- ٤٦- بيليتيه Pelletier, Sarajevo، ص ١١٩.
- ٤٧- وقد وصف آرثر إيفانز، بالرغم من مواقفه المعادية للمسلمين، الكنيسة بأنها "صرح مختال مستفز" عندما رآها في ١٨٧٥: "لم يكن المسيحيون راضين عن السماح لهم ببناء كنيسة في أبرز مكان في أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة، ولكنهم بالضرورة نصبوا عمودياً مبنى متظاهراً ضخماً يلقى في الظلال أكبر أحد منى مسجد أو تريد... ولم يكن من المتوقع أبداً أن ينظر الجبهة المتعصبون من المسلمين بالجزآن إلى هذا الإعلان المسيحي الأخير بإذلالهم" (*Through Bosnia*، ص ٢٤٧).
- ٤٨- كوتشيت Koetschet, Osman Pascha، ص ٥٥.
- ٤٩- المرجع السابق، ص ٧٦.
- ٥٠- م. مانديتش M. Mandic, Povijest okupacije، ص ٧.
- ٥١- إيفانز Evans, Through Bosnia، صفحات ٣٣٧-٣٣٨؛ وكوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ٦-٨. وتعرف هذه باسم اضطرابات نيفيسيني Nevešnje، ولكن أول مكان عرف أنه قام بالتمرد كان قرية جابيل

- Gabela في ٣ يوليو ثم تبعها نيفيسيني بعد أسبوع واحد (MacKenzie, Serbs and Pan-Slavian, ص ٣٠).
- ٥٢- عن الاشتباكات بين العثمانيين والجبل الأسود في ١٨٥٧-١٨٥٨ و ١٨٦٠-١٨٦١ و ١٨٧٤، انظر شو Shaw, History of the Ottoman Empire، المجلد الثاني، ص ١٥٠، و م. مانديتش M. Mandic, Povijest okupacije، ص ٨.
- ٥٣- م. مانديتش M. Mandic, Povijest okupacije، ص ٩.
- ٥٤- تشويريلوفيتش Cubrilovic, Bosanski ustanak، صفحات ٦١-٦٧. ويعقب إيفانز أن العصيان المسلح في الهرسك كان بصورة رئيسية حرباً زراعية" (Through Bosnia، ص ٣٣٤)؛ ويعقب بيتر شوجار: "لا يوجد هناك أدنى شك أن المشكلة الزراعية هي التي أشعلت هذه الثورة" (Peter Sugar, Industrialization of Bosnia، ص ٢٢).
- ٥٥- كوتشيت Koetschet, Aus Bosniens letzter Turkenzeit، صفحات ١٢ و ٣٣؛ وقد سمع إيفانز، أثناء عبوره إلى البوسنة في أوائل أغسطس، عن "كثير من الكروات والسلوفينيين" من زغرب وماريبور وليوبليانا كانوا في طريقهم إليها (Through Bosnia، ص ٨٧).
- ٥٦- مانديتش M. Mandic, Povijest okupacije، ص ٢٢ (مئة ألف)؛ إيفانز Evans, Illyrian Letters، ص ٤ (مئتين وخمسون ألفاً)؛ ويذكر التقرير النمساوي الرسمي أنه كان هناك ما يزيد على مئة ألف بالأراضي النمساوية وحدها (Abtheilung fur Kriegsgeschichte, Die Occupation Bosniens، ص ٣٦). وعند نهاية مايو ١٨٧٨، قدر جوستاف تيومل مئة وخمسون ألفاً بالأراضي النمساوية وسبعون ألفاً في الجبل الأسود وعشرة آلاف في صربيا (Kapidzic, Hercegovacki ustanak، ص ٢٩).
- ٥٧- من خطاب كتبه لاجئ بوسني في سلافونيا في مارس ١٨٧٧، واقتبسه. موير ماكزري وإربي في Travels in the Slavonic Provinces، المجلد الأول، ص ٣٦.
- ٥٨- إيفانز Evans, Through Bosnia، ص ٣٣٧.
- ٥٩- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, Die Occupation Bosniens، ص ٤١.
- ٦٠- إيفانز Evans, Illyrian Letters، ص ٥٥.
- ٦١- كوتشيت Koetschet, Aus Bosniens letzter Turkenzeit، صفحات ٧٨-٧٩.
- ٦٢- المرجع السابق، صفحات ٨٦-٨٨؛ م. مانديتش M. Mandic, Povijest okupacije، صفحات ٢٨-٣٠.
- ٦٣- كوتشيت Koetschet, Aus Bosniens letzter Turkenzeit، صفحات ٩٠ و ٩٦ و ١٠٢؛ م. مانديتش M. Mandic, Povijest okupacije، صفحات ٣٠-٣١.
- ٦٤- عن عدد القوات، انظر Abtheilung fur Kriegsgeschichte, Die Occupation Bosniens، appendix. Beilage 8 (٨٢١١٣ رجلاً و ١٣١٣ فرساً)؛ وقد طبع المساح، ستيرنك Sterneck، بعض نتائج أبحاثه في ١٨٧٧ (Geografische Verhältnisse).

٦٥- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*, صفحات ١٠٢-١٠٩؛
 ٤٥٠ Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupation Bosniens*, ص
 (اقتباس)؛ م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije*, صفحات ٦٤-٧١ و ٩٧-٩٩.

الفصل الحادى عشر: البوسنة تحت الحكم النمساوى-المجرى ١٨٧٨-١٩١٤

- ١- سيتون واطسون Seton Watson, *Role of Bosnia*, ص ١٩.
- ٢- شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*, ص ٢٠. ويتذكر الوزير المجرى بوريان بعد ذلك قائلاً: "عندما قبل أندراسى الانتداب لاحتلال البوسنة والهرسك فى مؤتمر برلين، فإن الرأى العام فى كل المملكة تقريباً كان ضده" (*Austria in Dissolution*, ص ٢٩١).
- ٣- شميت Schmitt, *Annaxation of Bosnia*, ص ٢؛ شو Shaw. *History of the Ottoman Empire*, المجلد الثانى، ص ١٩٢.
- ٤- شميت Schmitt, *Annaxation of Bosnia*, ص ٣.
- ٥- عن موجز مفيد، انظر شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*, صفحات ٨ و ٢٦-٣٢؛ وعن المحاكم الشرعية، أنظر أيضاً أ. بوبوفيتش A. Popovic. *L'Islam balkanique*, صفحات ٢٧٦-٢٧٧. وعن شرح واف للبنية الإدارية، انظر شميد Schmid, *Bosnien*, صفحات ٥٤-٦٠.
- ٦- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*, صفحات ٩-١١.
- ٧- كابيچيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*, صفحات ٣٤-٣٥.
- ٨- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*, صفحات ٤٢-٤٨؛ كابيچيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*, صفحات ١٠٩-١٢٠.
- ٩- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*, ص ١٠٢؛ كابيچيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*, ص ١١٠.
- ١٠- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*, ص ١٣٩.
- ١١- دونيا Donia, *Islam under the Eagle*, صفحات ٧٢-٧٦.
- ١٢- شميد Schmid, *Bosnien*, صفحات ٢٤٩-٢٥٠. وقد تباهى شميد، الذى كان يعمل رئيساً لمكتب الإحصاء فى سراييفو، بأن هجرة المسلمين البوسنيين كانت أقل من تلك الأراضى التى كانت تتبع الدولة العثمانية سابقاً مثل بلغاريا. وإذا كان ذلك صحيحاً فمن السهل تفسيره: فإن مسلمى البوسنة كانوا أقل الناس احتياجاً لأن يهاجروا إلى تركيا، لأنهم لم يكونوا يتكلمون التركية.
- ١٣- هاجياهييتش Hadzijahic, 'Uz priloge Bogicevica', ص ١٩١ (مصرأ على ٣٠٠٠)؛ باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*, ص ٥١ (عن نتائج أبحاث الجغرافى سليمان سملاتيتش Sulejman Smlatic).

- ١٤- بوجيتشيفيتش Bogicevic, 'Emigracije muslimana'; أ. بوبوفيتش Popovic, *L'Islam balkanique*, ص ٢٧٢. ومن المؤكد أن هذا التقدير ٨٠٠٠ قليل جداً. فإن فرديناند شميد، الذي كان حريصاً على عدم المغالاة في التقدير، اعتقد أن حوالي ٨٠٠٠ قد هاجروا فيما بين إعلان قانون الجيش في نوفمبر ١٨٨٢ وبين إدخال نظام تصاريح الخروج في أكتوبر ١٨٨٣ (*Bosnien*, ص ٢٤٩).
- ١٥- كايديتش Kapidzic, 'Pokret za iseljavanje', ص ١٦٣.
- ١٦- درهام Durham, *Twenty Years*, ص ١٦٣.
- ١٧- دونيا Donia, *Islam under the Eagle*, صفحات ٢٥-٢٧؛ توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*, صفحات ١٠٨-١٠٩.
- ١٨- ميلر Miller, *Travels and Politics*, ص ٧.
- ١٩- شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*, صفحات ٤٣-٥٠. وقد شيد توبال عثمان باشا قبل ذلك مسافة قصيرة من خطوط السكك الحديدية من بانيا لوكا حتى الحدود؛ ولكن في ١٨٧٨ "تمت الحشائش على الخطوط وما زالت البوسنة بدون قطار واحد" (Miller, *Travel and Politics*, ص ١٠٨).
- ٢٠- شميد Schmid, *Bosnien*, صفحات ٥٧٩ و ٥٨٦.
- ٢١- درهام Durham, *Twenty Years*, ص ١٦٠. وعن وصف للحالة المزرية للطرق خلال العقد النهائي للحكم العثماني، انظر سترنك Sterneck, *Geografische Verhältnisse*, صفحات ٢١-٢٢.
- ٢٢- شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*, صفحات ١٠٢-١١٣ و ١٢٩-١٤٣ و ١٦٧.
- ٢٣- المرجع السابق. صفحات ١٨٢-١٨٥؛ ويلاحظ كيوبريتش-أرمين أنه بحلول ١٩١٢ فإن ١٠ ٪ من العمال البوسنيين كانوا نفايين وكان ٤٣ ٪ من العمال في سراييفو (*Die Opposition in Bosnien*, صفحات ١٥٣-١٥٧).
- ٢٤- انظر مثلاً ديدجير Dedyer, *Road to Sarajevo*, ص ٢٠٢، حيث تسمى "الفران الاجتماعي الأكبر".
- ٢٥- ميلر Miller, *Travel and Politics*, صفحات ١٠١-١٠٣.
- ٢٦- طومسون Thomson, *Outgoing Turk*, ص ١١٠. وكانت العادة قد أوففت بسبب عدد من الإصابات الشديدة التي أحدثتها للجوكية.
- ٢٧- درهام Durharn, *Twenty Years*, ص ١٥٤.
- ٢٨- ماير Maier, *Die deutschen Siedlungen*؛ شميد Schmid, *Bosnien*, صفحات ٢٤٦-٢٤٨.
- ٢٩- شميد Schmid, *Bosnien*, ص ٢٤٥. وكان عدد الجنود في كل حالة حوالي ٧٠٠٠ عند نهاية القرن (كيرتيس Curus, *Turk and his Lost Provinces*, ص ٢٨١).
- ٣٠- ميلر Miller, *Travels and Politics*, ص ٩٧؛ وعن تفاصيل نظام التعليم، انظر المرجع السابق، ص ٩٨؛ أ. بوبوفيتش Popovic *L'Islam balkanique*, صفحات ٢٨٠-٢٨٣؛ و شميد Schmid, *Bosnien*, صفحات ٦٩٥-٧٤٠.

- ٣١- عن كل التفاصيل السابقة، انظر بيليتيه Pelletier, Sarajevo ، صفحات ١٣٧-١٤٠.
- ٣٢- ميللر Miller, Travels and Politics ، ص ٩١.
- ٣٣- كيرتيس Curtis, Turk and his Lost Provinces ، ص ٢٧٥.
- ٣٤- دونيا Donia, Islam under the Eagle ، صفحات ١٢٠-١٢٤.
- ٣٥- المرجع السابق، ص ١٨٩.
- ٣٦- المرجع السابق، صفحات ٢٢-٢٤؛ ١. بوبوفيتش A Popovic, L' Islam balkanique ، ص ٢٧٥.
- ٣٧- دونيا Donia, Islam under the Eagle ، صفحات ١٢٠-١٢٤.
- ٣٨- المرجع السابق، صفحات ١٢٤-١٦٦. وأكثر وصف تفصيلي هو هلوبتمان Hauptmann, Borba muslimana za autonomiju .
- ٣٩- إماموفيتش Imamovic, 'O historiji bosnjackog pokusaja' ، صفحات ٣٥-٣٦.
- ٤٠- دونيا Donia, Islam under the Eagle ، صفحات ١٢٠-١٢٤، Banac. National Question ، ص ٣٦١؛ إماموفيتش Imamovic, 'O historiji bosnjackog pokusaja' ، ص ٤١.
- ٤١- طومسون Thomson, Outgoing Turk ، صفحات ١٨٠-١٨١.
- ٤٢- بيرنرايتر Baernreither, Bosnische Eindrücke ، ص ٢٥.
- ٤٣- شميت Schmitt, Annexion of Bosnia ، ص ١٢؛ درهام Durham, Twenty Years ، ص ١٦٤.
- ٤٤- ب. يلافيتش B. Jelavich, History of the Balkans ، ص ١١١؛ ديدجير Dedijer, Road to Sarajevo ، ص ١٨٠.
- ٤٥- شميت Schmitt, Annexion of Bosnia ، ص ٧١.
- ٤٦- عن شروط الاتفاقية، انظر المرجع السابق، ص ١١٩؛ وعن الأزمة، المرجع السابق، صفحات ١٤٤-٢٢٩.
- ٤٧- دونيا Donia, Islam under the Eagle ، صفحات ١٦٩-١٧٥.
- ٤٨- والأرقام وردت في Naval Intelligence Division, Jugoslavia ، المجلد الثاني، ص ٥٧. وكان عدد السكان في ١٩١٠ (١٨٩٧٩٦٢) ٤٣,٥ ٪ أرثوذكس ، ٤,٤ ٪ مسلمين و ٨,٢ ٪ كاثوليك و ٠,٦ ٪ يهود.
- ٤٩- باناك Banac, National Question ، وأصبحت جابرت موالية للصرب في ١٩٠٩ (١). بوبوفيتش A Popovic, L' Islam balkanique ، ص ٢٨٥).
- ٥٠- كيوبريتش-أمرين Cupric-Amrein, Die Opposition in Bosnien ، صفحات ٦٦-٦٧ و ٧٦-٧٥ و ١٠٢.
- ٥١- دونيا Donia, Islam under the Eagle ، ص ١٧٧. ويحكم إيفو باناك حكماً مماثلاً منتهياً إلى أن "الغالبية العظمى من المسلمين العاديين نأى عن عملية التأميم" (National Question ، ص ٣٦٦).
- ٥٢- كيوبريتش-أمرين Cupric-Amrein, Die Opposition in Bosnien ، ص ٣٩٢. وقد ولد أندريتش لعائلة كاثوليكية في ترافنيك؛ وقد اتخذ موقفاً مالياً ليوعوسلافياً كان

- في حقيقته موقفاً موالياً للصرب. وقد وصفه صديق كاشفاً "أنه كاثوليكي صربي من اليوسنة" (Hawkesworth, Ivo Andric, ص ١٨).
- ٥٣- ويتفق أكثر الأساتذة المتخصصين الآن على أن الشرح الممتاز الذي وضع بواسطة فيزولين ماشليشا Veselin Maslesa أساء فهم ملادا بوسنا Mlada Bosna عندما صورت على أنها تجمع صربي قومي (Mlada Bosna, ص ١١٦ مثلاً).
- ٥٤- ديدجير Dedijer, Road to Sarajevo, ص ٣٤١.
- ٥٥- المرجع السابق، صفحات ٢٣٦-٢٤٥.
- ٥٦- المرجع السابق، صفحات ٢٦٢-٢٦٥.
- ٥٧- المرجع السابق، ص ٢٧٧.
- ٥٨- Carnegie Endowment, Report on the Balkan Wars, صفحات ١٤٨-١٥٨.
- ٥٩- ديدجير Dedijer, Road to Sarajevo, ص ٢٧٨؛ دونيا Donia, Islaan under the Eagle, ص ١٨٠.
- ٦٠- ديدجير Dedijer, Road to Sarajevo, صفحات ٢٠٦-٢٠٧.
- ٦١- المرجع السابق، صفحات ٣١٩-٣٢١.

الفصل الثاني عشر: الحرب والمملكة اليوسنة ١٩١٤-١٩٤١

- ١- بيوريفاترا Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak, ص ١٣٤.
- ٢- ديدجير Dedijer, Road to Sarajevo, ص ٣٢٨.
- ٣- المرجع السابق، صفحات ٢٨٩-٢٩٤ و ٣٨٨-٣٩٠.
- ٤- المرجع السابق، صفحات ٤١٨-٤١٩.
- ٥- وعن ملخص جيد للنظرة التاريخية الأحدث، انظر ستون Stone, Europe Transformed, صفحات ٣٢٦-٣٣٩.
- ٦- سكاريتش Skaric et al, Bosna pod austro-ugarskom upravom, صفحات ١٦٠-١٦١.
- ٧- المرجع السابق، صفحات ١٥٧-١٥٨.
- ٨- هوكسورث Hawkesworth, Ivo Andric, صفحات ١٥-١٧.
- ٩- سكاريتش Skaric et al, Bosna pod austro-ugarskom upravom, صفحات ١٥٧-١٥٨؛ كابيچيتش Kapidzic, 'Austro-ugarska politika', ص ١٧.
- ١٠- عن المتطوعين المسلمين، انظر بالاجيا Balagija, Les Musulmans yougoslaves, ص ١٢٥.
- ١١- كابيچيتش Kapidzic, 'Austro-ugarska politika', ص ٩.
- ١٢- وعن أحسن شرح لجميع هذه الحجج، انظر باناك Banac, National Question, صفحات ١١٥-١٢٥.
- ١٣- كابيچيتش Kapidzic, 'Austro-ugarska politika', صفحات ٢٤-٢٦ و ٣٥.
- ١٤- كريزمان Krizman, Hrvatska u prvom svjetskom ratu, ص ٢٥٥.

- ١٥- بيوريفاترا *Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak* ، ١٣٤ .
- ١٦- كريزمان *Krizman. Hrvatska u prvom svjetskom ratu* ، صفحات ٢٤٦-٢٤٨ .
- ١٧- المرجع السابق ، صفحات ٢٥٥-٢٥٧ .
- ١٨- المرجع السابق ، صفحات ٣١٦-٣١٧ .
- ١٩- المرجع السابق ، صفحات ٣١٧-٣٢٠ .
- ٢٠- وأعاد الصحفي شارل ريفيه *Charles Rivet* نشر الحديث في *Chez les slaves liberes* ، صفحات ١٦٩-١٧٤؛ وانظر بيوريفاترا *Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak* ، صفحات ١٥٠-١٥١ . وقد كانت هناك أيضاً بعض التقارير في نهاية ١٩١٨ عن مسلمين من شمال غربى البوسنة يغيرون على القرى الصربية فى النواحي الكرواتية المجاورة (باناك *Banac. National Question* ، ص ١٣٠) .
- ٢١- توماسيفيتش *Tomasevich, Peasants, Politics, and Economic Change* ، ص ٢٥٥ .
- ٢٢- باناك *Banac. National Question* ، ص ٣٦٧ .
- ٢٣- ١. بوبوفيتش *A. Popovic. L'Islam balkanique* ، ص ٣٢٩ .
- ٢٤- عن جايرت، انظر المرجع السابق، ص ٢٨٥؛ بالاجيا *Balogija. Les Musulmans yougoslaves* ، صفحات ١٢٦-١٢٧ . وعن المجموعة الموالية للصرب فى منظمة المسلمين اليوغوسلاف، انظر بيوريفاترا *Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak* ، ص ١٦٥ .
- ٢٥- وتعقيبات بروتيش *Protic* مسجلة فى مذكرات النحات ايفان ميشتروفيتش *Ivan Mestrovic* : "وعندما يعبر جيشنا نهر الدرينا، سنعطى الأتراك مهلة ٢٤ أو ٤٨ ساعة للرجوع إلى عقيدة أسلافهم. وأى واحد يرفض سيتم ذبحه، كما سبق أن فعلنا فى صربيا" (جرمك *Grmek et al, eds. Le Nettoyage ethnique* ، ص ١٢٦) .
- ٢٦- ريفيه *Rivet, Chez les slaves liberes* ، صفحات ١٥٤-١٦١ و ١٧٧ .
- ٢٧- بيوريفاترا *Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak* ، ص ١٨١؛ وعن تفاصيل عن عينات التصويت داخل البوسنة، وعن الضعف المتناهي للأحزاب المسلمة الأخرى، انظر باناك *Banac. National Question* ، صفحات ٣٧٠-٣٧١ .
- ٢٨- توماسيفيتش *Tomasevich, Peasants, Politics, and Economic Change* ، صفحات ٣٤٧-٣٥٥ .
- ٢٩- باناك *Banac. National Question* ، ص ٣٧٠ .
- ٣٠- عن موجز مفيد عن دستور فيدوفدان، انظر *Naval Intelligence Division. Jugoslavia* ، المجلد الثانى صفحات ٣٢٢-٣٢٨ .
- ٣١- ماتشيك *Macek, Struggle for Freedom* ، ص ٩٤ .
- ٣٢- باناك *Banac. National Question* ، صفحات ٣٧٤-٣٧٥ .
- ٣٣- ايفانز *Evans. Through Bosnia* ، ص ١٩١ .
- ٣٤- ١. بوبوفيتش *A. Popovic. L'Islam balkanique* ، صفحات ٢٧٩ و ٢٨٣؛ ييلافيتش *Yelavitch, 'Les Musulmans de Bosnie'* ، ص ١٢٨ .

- ٣٥- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ٣٤٢.
- ٣٦- لويس Lewis, *Emergence of Modern Turkey* ، ص ١٠١. وقد حل محل العمامة.
- ٣٧- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٣٤٢-٣٤٥.
- ٣٨- كيرتس Curtis, *Turk and his Lost Provinces* . وقد شهِد آرثر إيفانز بطريقة مماثلة "بالمظهر الإسلامي الدقيق" للمسيحيين، بنسائهم المحجبات ورجالهم بالعمائم ذات العذبة (طرف العمامة المتدلى على العنق): *Through Bosnia* ، ص ١٣٣.
- ٣٩- جيبونز Gibbons, *London to Sarajevo* ، ص ١٨٠.
- ٤٠- هورنبي Hornby, *Balkan Sketches* ، ص ١٥٣. والأرغول gusle عبارة عن آلة موسيقية وترية تستخدم لمصاحبة الأغاني الملحمية.
- ٤١- دراجنيش Dragnich, *First Yugoslavia* ، صفحات ٣٠ و ٤٨-٤٩.
- ٤٢- ديدجير Dedijer et al., *History of Yugoslavia* ، صفحات ٥٤٣-٥٤٤.
- ٤٣- ب. ييلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الثاني، صفحات ٢٠٠-٢٠١.
- ٤٤- دراجنيش Dragnich, *First Yugoslavia* ، ص ٩٤؛ كليسو Clissold, ed , *Short History of Yugoslavia* ، صفحات ١٨٣-١٨٤.
- ٤٥- أ. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، صفحات ٣١٨-٣١٩.
- ٤٦- المرجع السابق، ص ٣٢٣؛ ديوردجيف Djordjevic, 'Yugoslav Phenomenon' ، ص ٣١٩.
- ٤٧- 'Statuto della comunita musulmana' .
- ٤٨- ستويادينوفيتش Stojadinovic, *Ni rat ni pakt* ، صفحات ٣٤٤-٣٤٦.
- ٤٩- هوبتنر Hoptner, *Yugoslavia in Crisis* ، صفحات ١٢٨-١٢٩.
- ٥٠- ماتشيك Macek, *Struggle for Freedom* ، ص ١٨٨.
- ٥١- المرجع السابق، صفحات ١٩٠-١٩٢؛ كليسو Clissold, ed , *Short History of Yugoslavia* ، صفحات ١٩٨-٢٠٠.
- ٥٢- دراجنيش Dragnich, *First Yugoslavia* ، صفحات ١١٦ و ١٢٧.
- ٥٣- هوبتنر Hoptner, *Yugoslavia in Crisis* ، صفحات ١٩٨-١٩٩.
- ٥٤- عن ملخص لهذه الأحداث مؤكداً استمرار سياسات حكومة ما بعد الانقلاب، انظر ب. ييلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الثاني، صفحات ٢٣٥-٢٣٧.

الفصل الثالث عشر: البوسنة والحرب العالمية الثانية ١٩٤١-١٩٤٥

- ١- وقد حسب المؤرخ الصربي بوجوليوب كوتشوفيتش Bogoljub Kocovic أنه كان هناك ١٠١٤٠٠٠ قتيل في يوغوسلافيا (Zrtve u Jugoslaviji، ص ١٢٤). والعلامة الكرواتى فلاديمير زريافيتش Zrjavac Vladimirovic وصل بطريقة مستقلة إلى عدد مماثل هو ١٠٢٧٠٠٠ (باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ٧).

- ٢- هوري وبروزات Hory and Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat*, صفحات ٨٩ و ٩١.
- ٣- لفتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*, ص ٦٤.
- ٤- روث Roth, ed., *Sarajevo Haggadah*, ص ٨.
- ٥- لفتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*, صفحات ١٥ و ٦١-٧٠.
- ٦- ب. ييلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans*, المجلد الثاني، ص ٢٦٣.
- ٧- هوري وبروزات Hory and Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat*, صفحات ٩٩ و ١٠٢. ويدعى جرمك أن أوائل أحداث القتل بعد الغزو الألماني كانت للكروات والمسلمين، وأن المذابح للصرب حدثت بعد ذلك (*Le Nettoyage ethnique*، ص ١٨٧). وحيث أنهم لم يحددون تواريخ هذه الأحداث، فإن من العسير الحكم على الأمر؛ ولكنه من الواضح أن قتل و/أو طرد الصرب كان هدفاً رئيسياً للأوستاشا، وليس رد فعل عارض لأحداث أخرى.
- ٨- ديدجير Dedijer et al., *History of Yugoslavia*, صفحات ٥٩١-٥٩٢؛ ديدجير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana*، صفحات ٦-٨. وفي شرح ديدجير وميليتيتش فإن هذه المذابح بواسطة الصرب المحليين منسوبة بطريقة غير محتملة الوقوع إلى "التشيتيك".
- ٩- ديدجير Dedijer et al., *History of Yugoslavia*، ص ٥٩٦.
- ١٠- يوجد أفضل شرح عن منظمة ميهايوفيتش في روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies*؛ وتوماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks*؛ وميلازو Milazzo, *Chetnik Movement*؛ وكارشمار Karchmar, *Draza Mihailovic*.
- ١١- عن التعليمات، انظر روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies*، ص ٢٦، وديروك Deroc, *British Special Operations*، ص ٢١٠.
- ١٢- بافلوويتش Pavlowitch, *Tito*، ص ٢٦.
- ١٣- المرجع السابق، ص ٣٤؛ ديلاس Djilas, *Wartime*، ص ٤.
- ١٤- انظر الخريطة في توماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks*، ص ١٦٩ (وأيضاً تشمل الأراضي التي سوف تجتز من المجر ورومانيا وبلغاريا).
- ١٥- والنص مطبوع في ديدجير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana*، صفحات ٨-١٦ (مع خريطة كروكية في ص ١٥)، وترجم في جرمك Grmek et al., *Le Nettoyage ethnique*، صفحات ١٩١-١٩٧.
- ١٦- ديدجير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana*، صفحات ٣٣-٣٤.
- ١٧- عن الوثيقة، انظر المرجع السابق، صفحات ٢٥-٣٠ (حيث قدمت على أنها أصلية). وعن نسخ ضوئية لصفتين، انظر Drzava komisija, *Dokumenti*، المجلد الأول، صفحات ١١-١٢. ويقبلها توماسيفيتش على أنها أصلية (*Chetniks*، ص ١٧٠)؛ على أن لوسيان كاشمار قدم أسباباً تفصيلية ومقنعة لاعتقاده بأنها مزيفة، استند إليها

- القائدان لإعطاء نفسيهما تفويضاً أقوى لأعمالهما (Draza Mihailovic ، صفحات ٣٩٧ و ٤٢٨-٤٣٠).
- ١٨- زبورنيك ، Zbornik ، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص ٣٧٧؛ وتاريخ تلك الوثيقة غير مؤكد، ولا يمكن استبعاد إمكانية أنها قد تكون إما مزيفة أو منسوبة نسباً خاطئاً.
- ١٩- مارتين Martin, *Web of Disinformation*، ص ٥١.
- ٢٠- كارشمار Karchmar, *Draza Mihailovic* ، ص ٥٧٥.
- ٢١- ديروك Deroc, *British Special Operations*، ص ٢٢٦؛ بافلوويتش Pavlowitch, Tito ، صفحات ١٧-٢٢.
- ٢٢- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٨٧.
- ٢٣- المرجع السابق، صفحات ١٨٨-١٨٩.
- ٢٤- إروين Irwin, 'Islamic Revival' ، ص ٤٣٩.
- ٢٥- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، صفحات ٥٢-٥٥؛ هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٨٩.
- ٢٦- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، صفحات ١٩٢-١٩٤.
- ٢٧- انظر الخطابات إلى *The Times Literary Supplement* من ألبرت سيتون (١٩ مايو ١٩٧٢) ونورمان ستون (٢٨ مايو ١٩٩٣).
- ٢٨- ليز Lees, *Rape of Serbia* ، صفحات ٨٤-٨٥.
- ٢٩- روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies* ، ص ١٠٠.
- ٣٠- توماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ، صفحات ٢٣٣-٢٣٤.
- ٣١- هوتل Hottl, *Secret Front* ، ص ١٧١. وكان هوتل (المعروف أيضاً باسم "والتر هاجن") هو ضابط المخابرات الألمانية الأعلى ليوغوسلافيا. وقد لاحظ أيضاً رسالة وقعت في يد المخابرات الألمانية من ستالين إلى تيتو، يأمره بالتعاون مع الألمان ضد الحلفاء في حالة انزالهم. وهذه المفاوضات بين البارتيزان والألمان كانت تجري في سرية تامة حتى ظهور تقرير هوتل في الخمسينيات؛ ومنذ ذلك الحين ذكرهم روبرتس في *Tito, Mihailovic and the Allies* (صفحات ١٠٨-١٠٩) وأخيراً اعترف بها أحد المشتركين، ديلاس Djilas (Wartime، صفحات ٢٣١-٢٣٧).
- ٣٢- نويباخر Neubacher, *Sonderauftrag Sudost* ، صفحات ١٧٩-١٨٠.
- ٣٣- ميلازو Milazzo, *Chetnik Movement* ، ص ١٣٣.
- ٣٤- توماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ، صفحات ٢٥٢-٢٥٣ و ٣٤٩. وعن التوتر الشديد بين سياسة الإيطاليين والألمان تجاه التشيتنيك في ذلك الوقت، انظر ميلازو Milazzo, *Chetnik Movement*، ص ١٢٧.
- ٣٥- ديكن Deakin, *Embattled Mountain* ، صفحات ٦٠-١.
- ٣٦- ولابد من التفرقة بين التواطؤ المباشر وبين "النشاط المتوازي". وحتى وقت متأخر هو صيف ١٩٤٣، فإن مقتطفات من الإشارات الألمانية لم تظهر أية "بيانات على تواطؤ التشيتنيك مع الألمان"؛ وأول علامات على مثل هذا التواطؤ ظهرت في

- أكتوبر ونوفمبر (هينسلي Hinsley et al., *British Intelligence* ، المجلد الثالث، الجزء الأول، صفحات ١٤٦ و ١٥٤-١٥٥). وذكر تقرير ديكن الرئيسي في أغسطس ١٩٤٣، الذي أثر على سياسة الحلفاء، أن تواطؤ التشيتيك مع ألمانيا كان "لصيقاً ومستمراً ومتزايداً" خلال السنتين السابقتين (المرجع السابق، ص ١٥٠). على أنه من المشكوك فيه أن التشيتيك البوسنيين المزعومين الذين رأهم ديكن في أغسطس ١٩٤٣ كانت لهم أية علاقة بقوات ميهايلوفيتش (روبرتس Roberts, Tito, *Mihailovic and the Allies*، ص ١٢٠).
- ٣٧- ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslimani*، ص ١٤.
- ٣٨- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، ص ٣٤٥؛ وعن المجتمعات الثقافية انظر ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslimani*، ص ١٤.
- ٣٩- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، ص ١٩٠.
- ٤٠- رجيّش Redzic, *Muslimansko autonomastvo*، ص ١٤.
- ٤١- المرجع السابق، ص ١٥.
- ٤٢- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، ص ١٩٠؛ ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslimani*، صفحات ٢١-٢٢؛ رجيّش Redzic, *Muslimansko autonomastvo*، صفحات ١٦ و ٣٠.
- ٤٣- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، صفحات ١١٢-١١٤؛ رجيّش Redzic, *Muslimansko autonomastvo*، ص ٥٢.
- ٤٤- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، ص ١٩١؛ بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، ص ٣٤٢.
- ٤٥- رجيّش Redzic, *Muslimansko autonomastvo*، ص ٥٩.
- ٤٦- ديدجير وميليتيتش Dedijs and Miletic, *Genocid nad Muslimana*، ص xxvi-xxviii و ٣٨٣.
- ٤٧- رجيّش Redzic, *Muslimansko autonomastvo*، ص ٥٥.
- ٤٨- المرجع السابق، صفحات ٦٠-٦١؛ أفاكيموفيتش Avakumovic, *Mihailovic prema nemackim dokumentima*، ص ٧١-٧٢. والتقدير الرقمي مبني على ادعاء ميهايلوفيتش أن ٧٤٪ من رجاله كانوا أرثوذكس و ٨٤٪ كانوا "صرباً" (ص ٧١-٧٢). ومن المحتمل أنه أدخل في الحساب "صرباً كاثوليكاً"؛ بيد أنه كان من المحتمل وجود بعض الأرثوذكس غير الصربيين أيضاً.
- ٤٩- أفاكيموفيتش Avakumovic, *Mihailovic prema nemackim dokumentima*، ص ٧١. ويلاحظ رجيّش أن القرية المسلمة "المحررة" بواسطة بوبوفاك كان يدافع عنها قوة كبيرة من المسلمين المتطوعين (*Muslimansko autonomastvo*)، صفحات ١٠٥-١٠٦).
- ٥٠- رجيّش Redzic, *Muslimansko autonomastvo*، ص ٦٨.
- ٥١- المرجع السابق، صفحات ١٣١ و ١٦٠.
- ٥٢- المرجع السابق، صفحات ٧١-٧٤.

- ٥٣- سندهاوسن 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien' ، صفحات ١٩١-١٩٣ .
- ٥٤- رجيتش Redzic, Muslimansko autonomatsvo ، صفحات ٨٧ و ١١٩-١٢٠ و ١٥٥ . وكان هناك تسعة ضباط مسلمين في الفرقة بأكملها (ص ١٨٩) .
- ٥٥- المرجع السابق، ص ٨٩؛ سندهاوسن 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien' ، ص ١٩٣ .
- ٥٦- رجيتش Redzic, Muslimansko autonomatsvo ، ص ١٣٦؛ إرنياك Erignac, La Revolte des Croates .
- ٥٧- رجيتش Redzic, Muslimansko autonomatsvo ، صفحات ١٤٠ و ١٤٧ و ١٧٧-١٧٨ .
- ٥٨- المرجع السابق، صفحات ١٣٨-١٣٩؛ بيوريفاترا Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak ، ص ١١٤ .
- ٥٩- رجيتش Redzic, Muslimansko autonomatsvo ، صفحات ١٦٦-١٦٧ و ١٨٣ .
- ٦٠- المرجع السابق، صفحات ١٩٠-٢٠٦؛ سندهاوسن 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien' ، ص ١٩٣ .
- ٦١- باليتش Balic, Das unbekannte Bosnien ، ص ٧ .
- ٦٢- ديدبير وميليتيتش Dedijer and Mileticc, Genocid nad Muslimana ، صفحات xxx-xxxix؛ ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, Bosanski Muslimani ، صفحات ١٩-٢٠ .

الفصل الرابع عشر: البوسنة في يوغوسلافيا تيتو ١٩٤٥-١٩٨٩

- ١- كارابانجيتش Karapandzich, Bloodiest Yugoslav Spring ، ص ٢٠ .
- ٢- مقتبسة في بيلوف Beloff, Tito's Flawed Legacy ، ص ١٣١ .
- ٣- ديوردجيفيتش Djordjevic, 'Yugoslav Phenomenon' ، ص ٣٢٩ .
- ٤- روسينوف Rusinow, Yugoslav Experiment ، ص ٣٨ . وعن مشروع "سكك حديد الشباب"، انظر طومسون Thompson, Paper House ، صفحات ١١٨-١٢٠ .
- ٥- وعن شرح موجز واضح الأسلوب عن ستالينية تيتو، انظر بافلوويتش Pavlowitch, Tito ، صفحات ٥٠-٦١ .
- ٦- لابينا Lapenna, 'Suverenitet i federalizam' ، صفحات ١٧-١٨ .
- ٧- وهذه العملية مشروحة تماماً في كوشتونيك و تشافوشكي Kostunica and Cavoski, Party Pluralism or Monism .
- ٨- روسينوف Rusinow, Yugoslav Experiment ، صفحات ٣٥-٣٦ .
- ٩- تشادويك Chadwick, Christian Church in the Cold War ، ص ٣٧ .
- ١٠- بولتون Poulton, Balkans ، ص ٤٣ .

- ١١- وعن جميع هذه التغييرات، انظر باليتش Balic, 'Der bosnisch- herzegowinische Islam', صفحات ١٢٠ و ١٢٨-١٣٤، و أ. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*, صفحات ٣٤٧-٣٥٣.
- ١٢- ماكفرلين McFarlane, *Yugoslavia*, ص ٧٩.
- ١٣- وقد بدأت الحركة بمؤتمر باندونج في أندونيسيا في ١٩٥٥؛ ووضع تيتو نفسه على رأس الحركة في الأمم المتحدة في ١٩٦٠، وأعلن أن مبادئها هي سياسة يوغوسلافية في ١٩٦١. والطبيعة الحقيقية للحركة كانت واضحة لأغلب المراقبين حتى قبل أن يصبح فيدل كاسترو رئيسها في ١٩٧٩. انظر بافلوويتش Pavlowitch, *Tito*, صفحات ٦١-٦٥؛ ميليفوييفيتش Milivojevic, *Descent into Chaos*, صفحات ٢٠-٢١؛ إيانوفيتش Ivanovic, 'Reforma vanjske politike'.
- ١٤- إروين Irwin, 'Islamic Revival', صفحات ٤٤١-٤٤٢؛ أ. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*, صفحات ٣٥٣-٣٥٤.
- ١٥- باليتش Balic, 'Der bosnisch-herzegowinische Islam', ص ١٢٥.
- ١٦- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime', ص ١٩٤.
- ١٧- المرجع السابق، ص ١٩٥؛ وقد استخدمت التقسيم التفصيلي لأرقام ١٩٤٨ الموجود في بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*, صفحات ٣٢-٣٣؛ ويذكر هوبكن رقماً إجمالياً للمسلمين "الصرب" و"الكروات" (١٧٠٠٠٠)، وهو رقم غير صحيح؛ ومن الممكن أن يكون خطأ مطبعياً للعدد الإجمالي لمثل هؤلاء المسلمين فكل أرجاء يوغوسلافيا (١٩٠٠٠٠).
- ١٨- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime', صفحات ١٩٩-٢٠١. ويعتبر س. راميت سقوط رانكوفيتش على أنه حاسم: S Ramet, *Nationalism and Federalism*, صفحات ١٧٨-١٧٩. وعن هيمنة الصرب في البوسنة في الفترة ١٩٤٥-١٩٦٥، انظر بيروش Perochc, *Histoire de la Croatie*, ص ٣٦٧.
- ١٩- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime', صفحات ١٩٦-١٩٧؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival', ص ٤٤٣.
- ٢٠- باليتش Balic, 'Der bosnisch-herzegowinische Islam', ص ١٢٤.
- ٢١- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime', صفحات ١٩٨-٢٠٠؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival', ص ٤٤٤.
- ٢٢- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime', ص ٢٠٠.
- ٢٣- عن الخلاف الطويل مع مقدونيا حول هذه المسألة، انظر س. راميت S Ramet, *Nationalism and Federalism*, صفحات ١٨٢-١٨٤.
- ٢٤- هاجيا هيتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta*, صفحات ٦٧-٦٨.
- ٢٥- عن هذه النقطة، انظر أ. بوبوفيتش A. Popovic, 'Islamische Bewegungen', ص ٢٨١؛ وإروين Irwin, 'Islamic Revival', صفحات ٤٤٥-٤٤٦.

- ٢٦- وقد بدأ عزت بيجوفيتش إعداده في ١٩٦٦-١٩٦٧، وانتهى من كتابته في النصف الأول من ١٩٧٠ (ذوالفقار باشيتش *Sarajevski proces*, ed., Zulfikarpasic, ص ٢٣٩).
- ٢٧- ب. رامت 'Die Muslime Bosniens', P. Ramet, ص ١١١؛ أ. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*, ص ٣٥١؛ معلومات من مايو توبولوفاك Majo Topolovac.
- ٢٨- روسينوف Rusinow, *Yugoslav Experiment*, ص ١٠٠.
- ٢٩- المرجع السابق، صفحات ٩٩-١١٠ و ١١٩؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*, صفحات ١٣٨-١٤٤.
- ٣٠- وكل هذه الإحصائيات (المستقاة بصفة رئيسية من إحصاء ١٩٧١) توجد في بريزنيك Breznik, ed., *Population of Yugoslavia*. وكانت فوفودينا أكثر منطقة تدفق إليها السكان؛ فقد كانت السياسة ليس فقط الإحلال محل ٣٠٠٠٠٠ من عرقية ألمانية الذين قتلوا أو طردوا، بل ضمان أغلبية صربية مطلقة.
- ٣١- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*, ص ١٤٤.
- ٣٢- المرجع السابق، صفحات ٩٨-١١٥.
- ٣٣- المرجع السابق، ص ١٢٤.
- ٣٤- المرجع السابق، صفحات ١٠٥ و ١٢٥.
- ٣٥- انظر ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*, صفحات ٣٧ و ٤٧. والادعاء بأن "أكثر من مئة ألف" صربي غادروا كوسوفو في المدة ١٩٦٨-١٩٧٨ (بيلوف Beloff, *Titos Flawed Legacy* ص ٢١٢) لهو ادعاء باطل. فقد سجات الإحصاءات ٢٢٧٠١٦ صربياً في كوسوفو في ١٩٦١ و ٢٢٨٢٦١ في ١٩٧١ و ٢٠٩٤٩٧ في ١٩٨١ (إسلامي Islami, *Fshati i Kosoves*، ص ١٧٦).
- ٣٦- توماشيفيتش Tomashevich, 'The Serbian Question', ص ٣٩.
- ٣٧- سيرك Sirc, 'The National Question', ص ٨٨.
- ٣٨- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*, ص ٥٠.
- ٣٩- جرمك Grmek et al., eds., *Le Nettoyage ethnique*, صفحات ٢٣٦-٢٦٩؛ واقتباسات من صفحات ٢٥٦ و ٢٦٥.
- ٤٠- أ. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*, ص ٣٥٥؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival', صفحات ٤٤٨-٤٥١.
- ٤١- ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Sarajevski proces*, وخاصة صفحات ٢٤٠-٢٤١ و ٢٤٩؛ بولتون Poulton, *Balkans*, صفحات ٤٢-٤٣.
- ٤٢- وأحسن شرح لهذه المسألة، وهو الذي استخدمته هنا، هو ليدال Lydall, *Yugoslavia in Crisis*, صفحات ١٦٨-١٧١ (اقتباس في ص ١٧١)؛ وانظر أيضاً ماكفرلين McFarlane, *Yugoslavia*, صفحات ١٧١-١٧٢، وماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*, ص ١١١-١١٢.
- ٤٣- ليدال Lydall, *Yugoslavia in Crisis*, صفحات ٨٥-٨٦.

- ٤٤- المرجع السابق، صفحات ٩١-٩٢ و ٢٢٠-٢٢٢؛ ميليفوفيتش، Milivojevic, *Descent into Chaos*، صفحات ١١-١٢.
- ٤٥- ليدال Lydall, *Yugoslavia in Crisis*، ص ٢١٧.
- ٤٦- ميليفوفيتش Milivojevic, *Descent into Chaos*، ص ١٠؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ٢٢٦-٢٣٤؛ طومسون Thompson, *Paper House*، صفحات ١٦٣-١٦٥؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ١٩٧-٢١٣ و ٢٢٧-٢٣٤.

الفصل الخامس عشر: البوسنة ومنية يوغوسلافيا ١٩٩٢-١٩٨٨

- ١- وقد ذكرت وسائل الإعلام الرسمية، على نحو مناف للعقل، أن ثلاثة ملايين شخص كانوا حاضرين. وقد حضرت الاجتماع الحاشد، وقدرت عدد الحاضرين بأنهم ما بين ثلاثمائة ألف و خمسمئة ألف.
- ٢- جلينى Glenny, *Fall of Yugoslavia*، ص ٣٥.
- ٣- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، ص ٢٤١. وحسبما أوضحت برانكا ماجاش، فإن عائلة راتشان في الحقيقة أعدمها الأوستاشا خلال الحرب.
- ٤- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٤٤.
- ٥- المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤٢؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٢٢٤-٢٢٦؛ جاو Gow, *Legitimacy and the Military*، صفحات ٧٨-٩٤.
- ٦- عن جميع هذه الأحداث، انظر بولتون Poulton, *Balkans*، صفحات ٢٤-٢٧؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٢٩٣ و ٣١٣؛ جلينى Glenny, *Fall of Yugoslavia*، صفحات ١٣-١٩.
- ٧- إروين Irwin, 'Fate of Islam in the Balkans'، ص ٣٩٢.
- ٨- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ٢٣٣ و ٢٤٣.
- ٩- طومسون Thompson, *Paper House*، ص ٩٩.
- ١٠- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, *Islamska deklaracija*، ص ٣٧.
- ١١- المرجع السابق، ص ٢٢.
- ١٢- المرجع السابق، صفحات ٣٧-٣٨.
- ١٣- المرجع السابق، صفحات ٢١-٢٤ و ٣٠.
- ١٤- وعن تحليل واضح لأحد العلماء البارزين، انظر إسبوزيتو Esposito, *Islam and Politics*، وبخاصة صفحات ٢٦٩-٣٠١.
- ١٥- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, *Islamska deklaracija*، صفحات ٣٤-٤٢.
- ١٦- المرجع السابق، ص ٧.
- ١٧- المرجع السابق، ص ٣١.

- ١٨- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, Islam izmedju Istoka i Zapada صفحات ١٠٧-١٠٩ و ١٣٢ و ٢٥١-٢٦٤.
- ١٩- حسين 'Communist Yugoslavia's Fear of Islam', Hussein, ص ٣٤.
- ٢٠- بولتون Poulton, Balkans, ص ٤٣.
- ٢١- سورابي Sorabji, Bosnia's Muslims, صفحات ٥-٦.
- ٢٢- بولتون Poulton, Balkans, ص ٤٤.
- ٢٣- المرجع السابق، صفحات ٣٧-٣٨.
- ٢٤- ماجاش Magas, Destruction of Yugoslavia, صفحات ٢٧٦ و ٢٨٣-٢٩٣ (اقتباس من ص ٢٩٣). وتعطى برانكا ماجاش شرحاً شديداً للوضوح لهذه الأحداث.
- ٢٥- س. رامت S. Ramet, Nationalism and Federalism, ص ٢٥٩.
- ٢٦- مازور Mazower, War in Bosnia, ص ٤.
- ٢٧- فراي Frei, 'Bully of the Balkans', ص ١٢.
- ٢٨- ألموند Almond, Blundering in the Balkans, صفحات ٤ و ٢١ وقد أعلن أحد مندوبى المجموعة الاقتصادية الأوروبية، بعد إعلان الاستقلال، أن المجموعة الاقتصادية الأوروبية سوف "ترفض الاتصالات على المستوى العالى" مع الجمهوريتين. وحسبما يوضحه مارك ألموند، فإن المجموعة الاقتصادية الأوروبية كانت ستخسر أكثر من مجرد المبادئ : فإنها قد منحت الحكومة الفيدرالية فى بلجراد قروضا قيمتها ٧٣٠ مليون ايكو (صفحات ٢٠-٢١).
- ٢٩- وأحسن ملخص وتحليل لهذه الأحداث فى جاو 'One Year of War', Gow, صفحات ١-٧.
- ٣٠- مور Moore, 'Question of all Questions', ص ٣٨.
- ٣١- مازور Mazower, War in Bosnia, صفحات ٥-٦.
- ٣٢- سيرك Sirc, 'National Question', صفحات ٨٨-٨٩.
- ٣٣- تقرير داسكو دودر Report by Dusko Doder, European, ٧ يناير ١٩٩٣.
- ٣٤- جرمك Grmek et al., Le Nettoyage ethnique, صفحات ٣٠٤-٣٠٥.
- ٣٥- س. رامت S. Ramet, Nationalism and Federalism, ص ٢٦٠.
- ٣٦- جاو 'One Year of War', Gow, صفحات ٧-٨.
- ٣٧- المرجع السابق، ص ٨؛ س. رامت S. Ramet, Nationalism and Federalism, ص ٢٦١.
- ٣٨- مالكوم Malcolm, 'Waiting for a War', صفحات ١٥-١٦.
- ٣٩- ماجاش Magas, Destruction of Yugoslavia, ص xv.
- ٤٠- مالكوم Malcolm, 'Waiting for a War', ص ١٦. وقد نقلت الاقتباس من حديث ماركوفيتش من تقارير فى Borba و Politika.
- ٤١- انظر مثلاً التقرير الذى أعده روجر بويز عن الاعتراضات السلوفينية والكرواتية على خطة كارينجتون فى جريدة التايمز بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٩١. وقد خلص بويز إلى أنه "توجد شروخ فى أساس الخطة".

- ٤٢- جاو 'One Year of War'، Gow، ص ٨. وقد أوحى (وهذا غير حقيقى) أن وزير الداخلية البوسنى على ديليمصطفىيتش كان يعمل فى ذلك الوقت مع إدارة المخابرات العسكرية الفيدرالية.
- ٤٣- مازور Mazower، *War in Bosnia*، ص ٧؛ ماجاش Magas، *Destruction of Yugoslavia*، ص xviii.
- ٤٤- وأوضح شرح لهذه الحادثة فى روجو Rojo، *Holocausto en los Balcanes*، صفحات ١٤٥-١٤٦.
- ٤٥- Mina informativini bilten، ٤ نوفمبر ١٩٩١.
- ٤٦- هايدن 'Partition of Bosnia'، Hayden، صفحات ٢-٤.
- ٤٧- وقد أجريت الحديث بنفسى فى سرايفو فى ١١ أكتوبر ١٩٩١.
- ٤٨- تقرير جودى ديمبسى فى *Financial Times* فى ٨ يوليو ١٩٩٢.
- ٤٩- جاو 'One Year of War'، Gow، صفحات ٨-٩.
- ٥٠- هايدن 'Partition of Bosnia'، Hayden، صفحات ٤-٦.
- ٥١- تقرير مايكل مونتجومرى Michael Montgomery فى *Daily Telegraph* فى ٢٩ فبراير ١٩٩٢.
- ٥٢- تقرير جون بالمر فى صحيفة الجارديان فى ١٠ مارس ١٩٩٢.
- ٥٣- هايدن 'Partition of Bosnia'، Hayden، ص ٧.

الفصل السادس عشر: تدمير البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٣

- ١- تقرير مايكل مونتجومرى فى *Daily Telegraph* فى ٧ أبريل ١٩٩٢.
- ٢- تقارير ييجال تشازان فى الجارديان فى ٢٧ مارس ١٩٩٢ وتيم جوداه وديسا تريفيزان فى التايمز فى ٤ أبريل ١٩٩٢.
- ٣- تقرير مراسل الديلى تلجراف فى ٣٠ مارس ١٩٩٢.
- ٤- Helsinki Watch، *War Crimes in Bosnia*، ص ١٤٩. وفريق Helsinki Watch الذى قابل هؤلاء القناصة فيما بعد، وجد قائد UNPROFOR المطلى فى فندق البوسنة: وقد قال أنه لم يكن على علم بأن المدينة قد تم تحويطها بالمقاريس، وأنه شئى ليس من اختصاصه على أى حال.
- ٥- تقرير تيم جوداه وديسا تريفيزان فى التايمز فى ٤ أبريل ١٩٩٢.
- ٦- تقرير آن ماكلفوى فى التايمز فى ٢٠ أبريل ١٩٩٢.
- ٧- انظر التحليل فى مازور Mazower، *War in Bosnia*، صفحات ١٠-١١.
- ٨- المرجع السابق، ص ١٣.
- ٩- مقتبس فى جلبنى Glenny، *Fall of Yugoslavia*، ص ١٦٦.
- ١٠- تقرير فيليب شيرويل فى الديلى تلجراف فى ١٦ أبريل ١٩٩٢.
- ١١- جاو 'One Year of War'، Gow، ص ٨.

- ١٢- انظر مثلاً تقارير إيان ترينور في الجارديان في ١٧ أبريل ١٩٩٢، وأن ماكلوفى في التايمز في ٢٠ أبريل ١٩٩٢.
- ١٣- تقرير فيليب شيرويل في الديلي تلجراف في ١٦ أبريل ١٩٩٢.
- ١٤- مازور Mazower, *War in Bosnia*، ص ١٥.
- ١٥- انظر ما اقتبسته من هذا التقرير في *The Spectator* في ٢ مايو ١٩٩٢.
- ١٦- عن جميع التفاصيل السابق ذكرها عن القوات العسكرية، انظر جاو 'One Year of War'، صفحات ٨-٩؛ وعن اتفاقية ١٦ يونيو، انظر المجلد الذي ينشره دانيال بيتلهم Daniel Bethlehem ومارك ولر 'Yugoslav' Marc Weller، *The Crisis in International Law* (Cambridge, 1993 or 1994).
- ١٧- عن التفاصيل السابق ذكرها، انظر Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ٤٣-٤٥، والبيان المطبوع على الآلة الكاتبة المعنون "ماذا أنشئ المجتمع الكرواتي في الهرسك؟"، الذي أصدره فلادو بوجارتشيتش Vlado Pogarcic مستشار الشؤون الخارجية لماتى بوبان، في يونيو أو يوليو ١٩٩٣.
- ١٨- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ١٥٠-١٥٣.
- ١٩- انظر تقريرى في *The Spectator* في ٢ مايو ١٩٩٢.
- ٢٠- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، ص ١٥٩.
- ٢١- US Congressional Record في ٣٠ سبتمبر ١٩٩٢.
- ٢٢- جاو 'One Year of War'، صفحات ٢-٣.
- ٢٣- وبالطبع، فإنه مع تطور الحرب، كانت هناك حالات كثيرة لمسلمين وكروات يهاجمون منازل الصرب؛ ولكن بقى الاختلال فى التوازن فى الاستراتيجيات والتكتيكات كما هو.
- ٢٤- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ١٦٨-١٦٩؛ ISHR (القسم البريطانى)، *Human Rights and Serbia*، (تقرير منسوخ على الآلة الكاتبة ١٩٩٢).
- ٢٥- Bosnian Government Information Centre، قائمة بمعسكرات الاعتقال والسجون فى أراضي جمهورية البوسنة والهرسك (منسوخ على الآلة الكاتبة).
- ٢٦- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ٥٠-٥٥؛ وهنا صفحات ٥٢-٥٣. وأصبح الآن مصطلح "التشيتنيك" يستخدم كمصطلح عام يطلق على جميع القوات الصربية غير النظامية.
- ٢٧- انظر تقارير تاديوس مازوفيسكى Tadeusz Mazowiecki, Medecins sans frontieres and Amnesty International التى جمعها بوشيه فى Bouchet, ed., *Le Livre noir*. وعن الشهادة التفصيلية المروعة التى قدمتها امرأة احتجزت فى معسكر للاغتصاب فى فوتشا، انظر تقرير فيكتوريا كلارك فى الأوبزيرفر فى ٢١ فبراير ١٩٩٣. ويرى بعض المعقبون أن مسألة الاغتصاب المنظم مثيرة للنزاع. وقد جمعت الحكومة البوسنية تفاصيل ١٣٠٠٠ حالة؛ وذكرت بعثة المجموعة الاقتصادية الأوروبية الرقم التقديرى بأنه ٢٠٠٠٠ حالة فى يناير ١٩٩٣ (المرجع السابق، ص

- ٤٦٠). ومن الواضح أن الاغتصاب كان يستخدم في أماكن كثيرة كجزء من سياسة عامة للصرع ضد السكان المدنيين، ولم يكن مجرد تصرفات فردية لجنود مخلصين بالنظام.
- ٢٨- مقالة دوجلاس هيرد في *Mail on Sunday* في ٩ أغسطس ١٩٩٢.
- ٢٩- تقرير توماس أوبريان لوكالة المعونة الأمريكية في يناير ١٩٩٣ لاحظ أن ... القادة العسكريين الصربيين قد خصص لهم ٢٣ ٪ من المعونة المخصصة للمدن المحاصرة (شارب *Sharp, Bankrupt in the Balkans*، ص ١٤).
- ٣٠- تم الاتفاق من ناحية المبدأ على المنطقة المحظور الطيران فوقها في أغسطس ١٩٩٢، وأعلنتها الأمم المتحدة في أكتوبر؛ وتم أخيراً في أبريل ١٩٩٣ توفير الوسائل لوضعها موضع التنفيذ، ولكن الانتهاكات لها بصورة روتينية دأبت على الحدوث بعد ذلك.
- ٣١- شارب *Sharp, Bankrupt in the Balkans*، صفحات ١٦-١٧؛ هايدن، Hayden, 'Partition of Bosnia'، صفحات ٩-١٠.
- ٣٢- المقالات ١ و ٢ (منسوختين على الآلة الكاتبة) من International Conference on 'the Former Yugoslavia, 'Agreement for Peace in Bosnia and Hercegovina'.
- ٣٣- تقرير في *East European Reporter*، المجلد الخامس، العدد السادس (نوفمبر-ديسمبر ١٩٩٢)، ص ٦٤.
- ٣٤- تقرير روبرت فوكس في الدبلي تلجراف في ٢ مايو ١٩٩٣.
- ٣٥- مور 'Moore, 'Endgame in Bosnia?'، ص ٢٠.
- ٣٦- تقرير مايكل بنيون في التايمز في ٢٠ مايو ١٩٩٣.
- ٣٧- تقرير تيم جوده في التايمز في ٧ يناير ١٩٩٣.
- ٣٨- تقرير جويل براند في التايمز في ١١ مايو ١٩٩٣.
- ٣٩- تقرير روبن جيدي في الدبلي تلجراف في ١٨ فبراير ١٩٩٣: "قال المستر هيرد أنه أوضح أنه لا بد من إقامة توازن بين وجهة النظر الألمانية بأن مدداً من الأسلحة يرسل للمسلمين كان الطريقة العادلة الوحيدة للسماح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وبين خطر تصعيد القتال". ولم يوضح المستر هيرد لماذا يمكن أن يوصف إقناع ألمانيا بالتمشي مع الثاني من هذين التأويلين المتناقضين بأنه ضرب ميزان بينهما.
- ٤٠- أرجو أن يغفر لي القارئ إيرادي هذا الاقتباس من مقال نشرته بصحيفة الدبلي تلجراف (في ٢ إبريل ١٩٩٣). وأجاب عنه وزير الخارجية بخطاب نشر في نفس الصحيفة بتاريخ ٥ إبريل، سبك فيه مصطلح "تسوية حقل القتل"، وصفاً لعواقب رفع حظر السلاح. والواقع أن عبارة "حقل القتل" قد اخترعت لوصف موقف سياسة يماثل ذلك الذي كان أنفاً بين أيدينا، وذلك بفضل السياسة التي كان يساندها المستر هيرد، بمناطق كثيرة من البوسنة.
- ٤١- تقرير تيم جوده في التايمز في ٣ مايو ١٩٩٣.
- ٤٢- وقد أكد هذه النقطة لي كمال كورسباهيتش رئيس تحرير جريدة *Oslobodjenje* أثناء محادثة معه.

- ٤٣- تقرير مايكل مونجومري في الدبلى تلجراف فى ٨ مايو ١٩٩٣ .
- ٤٤- Foreign Office News Department, communique .
- ٤٥- Bosnian Government Information Centre, statement .
- ٤٦- تقرير فى نيو يورك فى ١٥ مايو ١٩٩٣ .
- ٤٧- ريتشارد بايس Richard Pipes ، مقتبس فى ليفن Lieven, *Nicholas II* ، ص ٢٤٦ .

ثبت المراجع

يقتصر هذا الثبوت على سرد الأعمال الواردة في متن هذا الكتاب أو هوامشه (بغض النظر عن تقارير الأخبار والبيانات أو البلاغات التي أعطيت عنها مراجع كاملة في الهوامش). والترتيب الأبجدي إنجليزي وليس صربوكرواتي.

Abteilung für Kriegsgeschichte des k. k. Kriegs-Archivs, *Die Occupation Bosniens und der Hercegovina durch k. k. Truppen im Jahre 1878* (Vienna, 1879)

Der Aufstand in der Hercegovina, Süd-Bosnien und Süd-Dalmatien 1881-1882 (Vienna, 1883)

Akademia e shkencave e R.P.S. të Shqipërisë: Instituti i gjuhësisë dhe i letërsisë, *Fjalor i gjuhës së sotme Shqipe* (Tirana, 1980)

Alföldy, G., *Bevölkerung und Gesellschaft der römischen Provinz Dalmatien* (Budapest, 1965)

Algar, H., 'Some Notes on the Naqshbandi Tariqat in Bosnia', *Studies in Comparative Religion*, vol. 9 (1975), pp. 69-96

Almond, M., *Blundering in the Balkans: the European Community and the Yugoslav Crisis* (Oxford, 1991)

Amantos, K., *Scheseis Ellénōn kai Tourkōn apo tou endeikatoú aiōnos mechri tou 1821* (Athens, 1955)

Anderson, D., *Miss Irby and Her Friends* (London, 1966)

Andjelić, P., 'Periodi u kulturnoj historiji Bosne i Hercegovine u srednjem vijeku', *Glasnik zemaljskog muzeja Bosne i Hercegovine u Sarajevu*, n.s., vol. 25 (1970), pp. 119-212

'Barones Regni i državno vijeće srednjovjekovne Bosne', *Prilozi za istoriju*, vols. 11-12 (1975-6), pp. 29-48

Andrić, I., *The Development of Spiritual Life in Bosnia under the Influence of Turkish Rule* (Durham, North Carolina, 1990)

Angelov, D., *Bogomilstvoto v B'lgariya* (Sofia, 1969)

von Asbóth, J., *Bosnien und die Hercegovina: Reisebilder und Studien* (Vienna, 1888)

Avakumović, I., *Mihailović prema nemačkim dokumentima* (London, 1969)

Baernreither, J. M., *Bosnische Eindrücke* (Vienna, 1908)

BIBLIOGRAPHY

- Balagija, A., *Les Musulmans yougoslaves (étude sociologique)* (Algiers, 1940)
- Balić, S., 'Der bosnisch-herzegowinische Islam', *Der Islam*, vol. 44 (1968), pp. 115-37
Das unbekannte Bosnien: Europas Brücke zur islamischen Welt (Cologne, 1992)
- Banac, I., *The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics* (Ithaca, New York, 1984)
- Barić, H., *Lingvističke studije*, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela, vol. 1 (Sarajevo, 1954)
- Barkan, Ö. L., 'Les déportations comme méthode de peuplement et de colonisation dans l'Empire ottoman', *Revue de la faculté des sciences économiques de l'Université d'Istanbul*, vol. 11 (1949-50), pp. 67-131
- Bartusis, M. C., *The Late Byzantine Army: Arms and Society, 1204-1453* (Philadelphia, 1992)
- Batinić, M. V., *Djelovanje franjevacu u Bosni i Hercegovini sa prvih šest vijekova njihova boravka*, 3 vols. (Zagreb, 1881-7)
- Beldiceanu, N., 'Sur les valaques des balkans slaves à l'époque ottomane (1450-1550)', *Revue des études islamiques*, vol. 34 (1966), pp. 83-132
'Les Valaques de Bosnie à la fin du XVe siècle et leurs institutions', *Turcica*, vol. 7 (1975), pp. 122-34
and I. Beldiceanu-Steinherr, 'Quatre actes de Mehmed II concernant les valaques des balkans slaves', *Südostforschungen*, vol. 24 (1965), pp. 103-18
- Beloff, N., *Tito's Flawed Legacy: Yugoslavia and the West, 1939 to 1984* (London, 1985)
- Benac, A., Čović, B., et al, *Kulturna istorija Bosne i Hercegovine od najstarijih vremena do početka turske vladavine* (Sarajevo, 1966)
- Birge, J. K., *The Bektashi Order of Dervishes* (London, 1937)
- Blau, O., *Reisen in Bosnien und der Herzegowina: topographische und pflanzen-geographische Aufzeichnungen* (Berlin, 1877)
- Bogićević, V., 'Emigracije muslimana Bosne i Hercegovine u Tursku u doba Austro-Ugarske vladavine 1878-1918 godine', *Historijski zbornik*, vol. 3 (1950), pp. 175-88
- Bordeaux, A., *La Bosnie populaire: paysages, moeurs et coutumes, légendes, chants populaires, mines* (Paris, 1904)
- Borst, A., *Die Katharer* (Stuttgart, 1953)
- Bouchet, P., ed., *Le Livre noir de l'ex-Yugoslavie: purification ethnique et crimes de guerre* (Paris, 1993)
- Boué, A., *La Turquie d'Europe*, 4 vols. (Paris, 1840)
- Bowen, H., 'Ayan', in *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd edn., ed. H. A. R.

BIBLIOGRAPHY

- Gibbs, J. H. Kramers, E. Lévi-Provençal and J. Schacht, 6 vols. (Leiden, 1960-), vol. 1, p. 778
- Braude, B., 'Foundation Myths of the Millet System', in B. Braude and B. Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols. (New York, 1982), vol. 1, pp. 69-88
- Braudel, F., *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, tr. S. Reynolds, 2 vols. (London, 1972)
- Breznik, D., ed., *The Population of Yugoslavia*, publication of the Demographic Research Centre, Institute of Social Sciences (Belgrade, 1974)
- Burián, S., *Austria in Dissolution*, tr. B. Lunn (London, 1925)
- Byrnes, R., ed., *Communal Families in the Balkans: The Zadruga: Essays by Philip Mosely and Essays in his Honor* (Notre Dame, 1976)
- Çabej, E., 'The Problem of the Place of Formation of the Albanian Language', in A. Buda, E. Çabej, et al, *The Albanians and their Territories* (Tirana, 1985), pp. 63-99
- Carnegie Endowment for International Peace, *Report of the International Commission to Inquire into the Causes and Conduct of the Balkan Wars* (Washington, DC, 1914)
- Čelebi, Evlija, see Evlija
- Chadwick, O., *The Christian Church in the Cold War* (London, 1992)
- Chaumette-des-Fossés, A., *Voyage en Bosnie dans les années 1807 et 1808* (Berlin, 1812)
- Chopin, J., and A. Urbicini, *Provinces danubiennes et roumaines* (Paris, 1856)
- Cinnamus, *Epitome rerum ab Ioanne et Alexio Comnenis gestarum*, ed. A. Meinecke (Bonn, 1836)
- Ćirković, S. M., 'Die bosnische Kirche', in *L'Oriente cristiano nella storia della civiltà*, Accademia nazionale dei Lincei, quaderno 62 (Rome, 1964), pp. 547-75
- Herceg Stefan Vukčić-Kosača i njegovo doba*, Srpska akademija nauka i umetnosti, posebna izdanja, vol. 376 (Belgrade, 1964)
- Istorija srednjovekovne bosanske države* (Belgrade, 1964)
- Clissold, S., ed., *A Short History of Yugoslavia from Early Times to 1966* (Cambridge, 1968)
- Constantine Porphyrogenitus, *De administrando imperio*, ed. G. Moravcsik, tr. R. J. H. Jenkins (Washington, DC, 1967)
- Coquelle, P., *Histoire du Monténégro et de la Bosnie depuis les origines* (Paris, 1895)
- Ćorović, V., *Historija Bosne*, Srpska kraljevska akademija, posebna izdanja, vol. 129 (Belgrade, 1940)
- Croix, Sieur de la, *Mémoires* (Paris, 1684)

BIBLIOGRAPHY

- Čubrilović, V., 'Poreklo muslimanskog plemstva u Bosni i Hercegovini', *Jugoslovenski istorijski časopis*, vol. 1 (1935), pp. 368-403
Bosanski ustanak 1875-1878, Srpska kraljeva akademija, posebna izdanja, vol. 83 (Belgrade, 1936)
- Čuprić-Amrein, M. M., *Die Opposition gegen die österreichisch-ungarische Herrschaft in Bosnien-Hercegovina (1878-1914)* (Bern, 1987)
- Curtis, W. E., *The Turk and his Lost Provinces* (Chicago, 1903)
- Dawkins, R. M., 'The Crypto-Christians of Turkey', *Byzantium*, vol. 8 (1933), pp. 247-75
- Deakin, F. W. D., *The Embattled Mountain* (London, 1971)
- Dedijer, V., *The Road to Sarajevo* (London, 1966)
- Dedijer, V., and A. Miletić, *Genocid nad Muslimana, 1941-1945: zbornik dokumenata i svjedočenja* (Sarajevo, 1990)
- Dedijer, V., Božić, I., Ćirković, S., and M. Ekmečić, *History of Yugoslavia* (New York, 1974)
- Deroc, M., *British Special Operations Explored: Yugoslavia in Turmoil, 1941-1943, and the British Response* (Boulder, Colorado, 1988)
- Desboeufs, Capitaine, *Souvenirs*, ed. C. Desboeufs (Paris, 1901)
- Dinić, M. J., *Za istoriju rudarstva u srednjovekovnoj Srbiji i Bosni*, Srpska akademija nauka, posebna izdanja, vol. 240 (Belgrade, 1955)
- Djilas, M., *Wartime*, tr. M. B. Petrovich (London, 1977)
- Djordjević, D., 'The Yugoslav Phenomenon', in J. Held, ed., *The Columbia History of Eastern Europe in the Twentieth Century* (New York, 1992), pp. 306-44
- Djordjević, B., 'Bosna', in *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd edn., ed. H. A. R. Gibbs, J. H. Kramers, E. Lévi-Provençal and J. Schacht, 6 vols. (Leiden, 1960-), vol. 1, p. 1261-75
- Donia, R. J., *Islam under the Double Eagle: The Muslims of Bosnia and Hercegovina 1878-1914* (Boulder, Colorado, 1981)
- Draganović, K., 'Izvešće apostolskog vizitatora Petra Masarechija o prilikama katoličkog naroda u Bugarskoj, Srbiji, Srijemu, Slavoniji i Bosni g. 1623 i 1624', *Starine jugoslavenske akademije znanosti i umjetnosti*, vol. 39 (1938), pp. 1-48.
- Dragnich, A. N., *The First Yugoslavia: The Search for a Viable Political System* (Stanford, California, 1983)
- Dragojlović, D., *Krstjani i jeretička crkva bosanska*, Srpska akademija nauka i umjetnosti: balkanološki institut, posebna izdanja, vol. 30 (Belgrade, 1987)
- Dragomir, S., *Vlahii și Morlacii: studiu din istoria românismului balcanic* (Cluj, 1924)
Vlahii din nordul peninsulei balcanice în evul mediu (Bucharest, 1959)

BIBLIOGRAPHY

- Država komisija za utvrđivanje zločina okupatora i njihovih pomagača, *Dokumenti o izdajstvu Draže Mihailovića*, vol. 1 (Belgrade, 1945)
- Du Nay, A., [pseudonym] *The Early History of the Rumanian Language*, Edward Sapir monograph series in Language, Culture and Cognition, vol. 3 (supplement to *Forum Linguisticum*, vol. 2, no. 1, August 1977) (Lake Bluff, Illinois, 1977)
- Durham, M. E., *Twenty Years of Balkan Tangle* (London, 1920)
Some Tribal Origins, Laws, and Customs of the Balkans (London, 1928)
- Duvernoy, J., *Le Catharisme*, 2 vols. (Toulouse, 1976–9)
- Dvornik, F., *Byzantine Missions among the Slavs* (New Brunswick, New Jersey, 1970)
- Džaja, S., *Die 'bosnische Kirche' und das Islamisierungsproblem Bosniens und der Herzegowina in den Forschungen nach dem zweiten Weltkrieg* (Munich, 1978)
'Fineova interpretacija bosanske srednjovjekovne konfesionalne poviesti', in J. Turčinović, ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979), pp. 52–9
Konfesionalität und Nationalität Bosniens und der Herzegowina: voremanzipatorische Phase 1463–1804, *Südosteuropäische Arbeiten*, vol. 80 (Munich, 1984)
- Emmert, T. A., 'The Battle of Kosovo: Early Reports of Victory and Defeat', in W. S. Vucinich and T. A. Emmert, eds., *Kosovo: Legacy of a Medieval Battle* (Minneapolis, Minnesota, 1991), pp. 19–40
- Érignac, L., *La Révolte des Croates de Villefranche-de-Rouergue* (Villefranche-de-Rouergue, 1980)
- Esposito, J. L., *Islam and Politics*, 3rd edn. (New York, 1984)
- Evans, A. J., *Through Bosnia and the Herzegovina on Foot during the Insurrection, August and September 1875*, 2nd edn. (London, 1877)
Illyrian Letters: A Revised Selection of Correspondence from the Illyrian Provinces of Bosnia, Herzegovina, Montenegro, Albania, Dalmatia, Croatia, and Slavonia, addressed to the 'Manchester Guardian' during the Year 1877 (London, 1878)
- Evlija Čelebi, *Putopis odlomci o jugoslovenskim zemljama*, ed. and tr. H. Šabanović (Sarajevo, 1973)
- Fermendžin, E., ed., *Acta Bosnae potissimum ecclesiastica cum insertis editorum documentorum regestis ab anno 925 usque ad annum 1752*, *Monumenta spectantia historiam slavorum meridionalium*, vol. 23 (Zagreb, 1892)
- Filipescu, T., *Coloniile române din Bosnia: studiu etnografic și antropogeografic* (Bucharest, 1906)

BIBLIOGRAPHY

- Filipović, M., 'Struktura i organizacija srednjovekovnog katuna', in Filipović, M., ed., *Simpozijum o srednjovekovnom katunu održan 24 i 25 novembra 1961 g.* (Sarajevo, 1963), pp. 45-108
- Filipović, N., 'Napomene o islamizaciju u Bosni i Hercegovini u 15. vijeku', *Godišnjak akademije nauka i umjetnosti Bosne i Hercegovine* vol. 7 (= Centar za balkanološka ispitivanja, vol. 5) (1970), pp. 141-67
- Fine, J. V. A., 'Aristodios and Rastudije - A Re-examination of the Question', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 16 (1965), pp. 223-9
- 'Was the Bosnian Banate Subjected to Hungary in the Second Half of the Thirteenth Century?', *East European Quarterly*, vol. 3 (1969), pp. 167-77
- The Bosnian Church: A New Interpretation. A Study of the Bosnian Church and its Place in State and Society from the Thirteenth to the Fifteenth Centuries* (Boulder, Colorado, 1975)
- The Early Medieval Balkans: A Critical Survey from the Sixth to the Late Twelfth Century* (Ann Arbor, Michigan, 1983)
- The Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest* (Ann Arbor, Michigan, 1987)
- Fortis, A., *Travels into Dalmatia* (London, 1778)
- Fraser, A., *The Gypsies* (London, 1992)
- Frei, M., 'The Bully of the Balkans', *The Spectator*, 17 August 1991, pp. 11-13
- Freidenreich, H. P., *The Jews of Yugoslavia: A Quest for Community* (Philadelphia, 1979)
- Gavranović, B., *Bosna i Hercegovina od 1853-1870 godine* (Sarajevo, 1956)
- Gazić, L., 'Les Collections des manuscrits orientaux à Sarajevo', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vol. 30 (1980), pp. 153-7
- Gibbons, J., *London to Sarajevo* (London, 1930)
- Gilliat-Smith, B., 'The Dialect of the Gypsies of Serbo-Croatia', *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 27 (1948), pp. 139-44
- Gimbutas, M., *The Slavs* (London, 1971)
- Glenny, M., *The Fall of Yugoslavia: The Third Balkan War* (London, 1992)
- Glück, L., 'Zur physischen Anthropologie der Zigeuner in Bosnien und der Hercegovina', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Hercegovina*, vol. 5 (1897), pp. 403-33
- Glušac, V., 'Srednjovekovna "bosanska crkva"', *Prilozi za književnost, jezik, istoriju i folklor*, vol. 4 (1924), pp. 1-55
- Goldstein, S., ed., *Jews in Yugoslavia* (Zagreb, 1989)

BIBLIOGRAPHY

- Gow, J., *Legitimacy and the Military: The Yugoslav Crisis* (London, 1992)
- 'One Year of War in Bosnia and Herzegovina', *Radio Free Europe/Radio Liberty Research Report*, vol. 2, no. 23 (4 June 1993), pp. 1-13
- Grmek, M., Gjidara, M., and N. Simac, eds., *Le Nettoyage ethnique: documents historiques sur une idéologie serbe* (Paris, 1993)
- Guldescu, S., 'Political History to 1526', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 1, pp. 76-130
- Gušić, B., 'Wer sind die Morlachen im adriatischen Raum?', *Balkanica*, vol. 4 (1973), pp. 453-64
- Gyóni, M., 'La Transhumance des Vlaques balkaniques au moyen âge', *Byzantinoslavica*, vol. 12 (1951), pp. 29-42
- Haarmann, H., *Der lateinische Lehnwortschatz im Albanischen*, Hamburger philologische Studien, vol. 19 (Hamburg, 1972)
- Hadžibegić, H., 'Džizja ili harač', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovenskih naroda pod turskom vladavinom*, part 1: vols. 3-4 (1952-3), pp. 55-135; part 2: vol. 5 (1954-5), pp. 43-102
- Hadžijahić, M., 'Uz prilog profesora Vojislava Bogićevića', *Historijski zbornik*, vol. 3 (1950), pp. 189-92
- 'Udio Hamzevića u atentatu na Mehmed-pašu Sokolovića', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovenskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954-5), pp. 325-30
- 'Die privilegierten Städte zur Zeit des osmanischen Feudalismus', *Südostforschungen*, vol. 20 (1961), pp. 130-58
- 'Die Anfänge der nationalen Entwicklung in Bosnien und in der Herzegowina', *Südostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 168-92
- 'Die Kämpfe der Ajane in Mostar bis zum Jahre 1833', *Südostforschungen*, vol. 28 (1969), pp. 123-81
- Od tradicije do identiteta: geneza nacionalnog pitanja bosanskih muslimana* (Sarajevo, 1974)
- 'Sinkretistički elementi u Islamu u Bosni i Hercegovini', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vols. 28-9 (1978-9), pp. 301-28
- Poriijeklo bosanskih Muslimana* (Sarajevo, 1990)
- Handžić, A., 'Bosanski namjesnik Hekim-oglu Ali-paša', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovenskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954-5), pp. 135-80
- Tuzla i njena okolina u 16. vijeku* (Sarajevo, 1975)
- 'O gradskom stanovništvu u Bosni u XVI stoljeću', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vols. 28-9 (1978-9), pp. 247-56
- 'U ulozi derviša u formiranju gradskih naselja u Bosni u XV stoljeću',

BIBLIOGRAPHY

- Prilozi za orijentalnu filologiju*, vol. 31 (1981), pp. 169–78
- Hangi, A., *Die Moslim's in Bosnien-Herzegowina: ihre Lebensweise, Sitten und Gebräuche* (Sarajevo, 1907)
- Hasluck, F. W., *Christianity and Islam under the Sultans*, ed. M. M. Hasluck, 2 vols. (Oxford, 1929)
- Hasluck, M. M., 'Firman of A.H. 1013–14 (A.D. 1604–5) Regarding Gypsies in the Western Balkans', *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 27 (1948), pp. 1–12
- Hauptmann, F., *Borba muslimana Bosne i Hercegovine za vjersku vakufsko-mećarijsku autonomiju* (Sarajevo, 1967)
- Hawkesworth, C., *Ivo Andrić: Bridge between East and West* (London, 1984)
- Hayden, R. M., 'The Partition of Bosnia and Herzegovina, 1990–1993', *Radio Free Europe/Radio Liberty Research Report*, vol. 2, no. 22 (28 May 1993), pp. 1–14
- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia-Herzegovina* (New York, 1992)
- Hinsley, F. W., et al., *British Intelligence in the Second World War*, 5 vols. (London, 1979–90)
- Hopken, W., 'Die jugoslawischen Kommunisten und die bosnischen Muslime', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslawien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 181–210
- Hoptner, J. B., *Yugoslavia in Crisis, 1934–1941* (New York, 1962)
- Hornby, L. G., *Balkan Sketches: An Artist's Wanderings in the Kingdom of the Serbs* (Boston, 1927)
- Hory, L. and M. Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat* (Stuttgart, 1964)
- Hottinger, J. H., *Historia orientalis* (Zurich, 1660)
- Höttl, W., *The Secret Front* (London, 1953)
- Hrabak, B., 'Izvoz plemenih metala iz Bosne u Dubrovnik u vreme osmanlijske vlasti', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vols. 28–30 (1977–9), pp. 75–85
- Hukić, A., ed., *Islam i muslimani u Bosni i Hercegovini* (Sarajevo, 1977)
- Huković, M., *Alhamadić književnost i njeni stvaraoči* (Sarajevo, 1986)
- Huld, M. E., *Basic Albanian Etymologies* (Columbus, Ohio, 1983)
- Hussein, A., 'Communist Yugoslavia's Fear of Islam', *Issues in the Islamic Movement*, vol. 4 (1983–4), pp. 34–5
- Illyés, E., *Ethnic Continuity in the Carpatho-Danubian Area* (Boulder, Colorado, 1988)
- Imamović, M., 'O historiji bošnjačkog pokušaja', in A. Purivatra, M. Imamović and R. Mahmutćehajić, *Muslimani i Bošnjaštvo* (Sarajevo, 1991), pp. 31–70

BIBLIOGRAPHY

- Irwin, Z. T., 'The Islamic Revival and the Muslims of Bosnia-Herzegovina', *East European Quarterly*, vol. 17 (1984), pp. 437-58
- 'The Fate of Islam in the Balkans: A Comparison of Four State Policies', in P. Ramet, ed., *Religion and Nationalism in Soviet and East European Politics*, revised edn. (Durham, North Carolina, 1989), pp. 378-407
- Islami, H., *Fshati i Kosovës: kontribut për studimin sociologjik-demografik të evolucionit rural* (Priština, 1985)
- Ivanović, V., 'Reforma vanjske politike', in V. Ivanović and A. Djilas, eds., *Demokratske reforme* (London, 1982), pp. 40-50
- Izetbegović, A., *Islam između Istoka i Zapada* (Sarajevo, 1988)
- Islamska deklaracija* (Sarajevo, 1990)
- Jelavich, B., *History of the Balkans*, 2 vols. (Cambridge, 1983)
- and C. Jelavich, *The Establishment of the Balkan National States, 1804-1920*, A History of East Central Europe, ed. P. F. Sugar and D. Treadgold, vol. 8 (Seattle, Washington, 1977)
- Jireček, K., *Die Handelsstrassen und Bergwerke von Serbien und Bosnien während des Mittelalters: historisch-geographische Studien* (Prague, 1879)
- 'Die Romanen in den Städten Dalmatiens während des Mittelalters', *Denkschriften der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften: philosophisch-historische Classe*; part 1: vol. 48, no. 3 (1902); parts 2 and 3: vol. 49, nos. 1 and 2 (1904)
- Istoriya Srba*, 4 vols. (Belgrade, 1922-3)
- Jukić, I. F. ('Slavoljub Bošnjak'), *Zemljopis i povijestnica Bosne* (Zagreb, 1851)
- Kapidžić, H., 'Austro-ugarska politika u Bosni i Hercegovini i jugoslovensko pitanje za vrijeme prvog svjetskog rata', *Godišnjak istorijskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 9 (1957), pp. 7-53
- Hercegovinački ustanak 1882 godine* (Sarajevo, 1958)
- 'Pokret za iseljavanje srpskog seljaštva iz Hercegovine u Srbiju 1902 godine', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 23-54
- Karapandzich, *The Bloodiest Yugoslav Spring, 1945 - Tito's Katyns and Gulags* (New York, 1980)
- Karchmar, L., *Dražo Mihailović and the Rise of the Četnik Movement, 1941-1942*, 2 vols. (New York, 1987)
- Kaulfuss, R. S., *Die Slawen in den ältesten Zeiten bis Samo (623)* (Berlin, 1842)
- Klaić, V., *Geschichte Bosniens von den ältesten Zeiten bis zum Verfall des Königreiches*, tr. I. von Bojničić (Leipzig, 1885)
- Klen, D., 'Pokršćavanje "Turske" djece u Rijeci u XVI i XVII stoljeću', *Historijski zbornik - Šidakov zbornik*, vols 29-30 (1976-7), pp. 203-7

BIBLIOGRAPHY

- Kniewald, D., 'Vjerodostojnost latinskih izvora o bosanskim krstjanima', *Rad jugoslavenske akademije znanosti i umjetnosti*, vol. 270 (1949), pp. 115-276
- 'Hierarchie und Kultus bosnischer Christen', in *L'Oriente cristiano nella storia della civiltà*, Accademia nazionale dei Lincei, quaderno 62 (Rome, 1964), pp. 579-605
- Kočović, B., *Žrtve drugog svetskog rata u Jugoslaviji* (London, 1985)
- Koetscher, J., *Aus Bosniens letzter Türkenzeit*, ed. G. Grassl (Vienna, 1905)
- Osman Pascha, der letzte grosse Wesier Bosniens, und seine Nachfolger*, ed. G. Grassl (Sarajevo, 1909)
- Košunica, V., and K. Čavoški, *Party Pluralism or Monism: Social Movements and the Political System in Yugoslavia, 1944-1949* (Boulder, Colorado, 1985)
- Kovačević, J., *Istorija Crne Gore* (Titograd, 1967)
- Kreševljaković, H., *Kapetanije u Bosni i Hercegovini*, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela vol. 5 (Sarajevo, 1954)
- Esnafi i obrti u Bosni i Hercegovini*, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela vol. 17 (Sarajevo, 1961)
- Kriss, R., and H. Kriss-Heinrich, *Volks Glaube im Bereich des Islam*, 2 vols. (Wiesbaden, 1960-2)
- Krizman, B., *Hrvatska u prvom svjetskom ratu i hrvatsko-srpski politički odnosi* (Zagreb, 1989)
- Kulišić, Š., 'Razmatranja o porijeklu Muslimana u Bosni i Hercegovini', *Glasnik zemaljskog muzeja u Sarajevu*, n.s., vol. 8 (1953), pp. 145-58
- Kunt, I. M., 'Transformation of Zimmi into Askari', in B. Braude and B. Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols. (New York, 1982), vol. 1, pp. 55-67
- The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550-1650* (New York, 1983)
- Kuripešić, B., *Itinerarium der Botschaftsreise des Josef von Lamberg und Niclas Jurischitz durch Bosnien, Serbien, Bulgarien nach Konstantinopel 1530*, ed. E. Lamberg-Schwarzenberg (Innsbruck, 1910)
- Lachmann, R., ed. and tr., *Memoiren eines Janitscharen oder Türkische Chronik*, Slavische Geschichtsschreiber, vol. 8 (Graz, 1975)
- Lambert, M. D., *Medieval Heresy: Popular Movements from Bogomil to Hus* (1st edn., London, 1977; 2nd edn., London, 1992)
- Lapenna, I., 'Suverenitet i federalizam u ustavu Jugoslavije', in V. Ivanović and A. Djilas, eds., *Demokratske reforme* (London, 1982), pp. 9-30
- Lasić, D., *De vita et operibus S. Iacobi de Marchia: studium et recensio quorundam textuum* (Ancona, 1974)

BIBLIOGRAPHY

- Laštrić, F. ['Philippus ab Occhievia'], *Epitome vetustatum bosnensis provinciae* (Venice, 1765)
- Le Bouvier, G., *Le Livre de la description des pays* (Paris, 1908)
- Lees, M., *The Rape of Serbia: The British Role in Tito's Grab for Power 1943-1944* (San Diego, California, 1990)
- Lehfeldt, W., *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum der bosnisch-hercegovinischen Muslime: Transkriptionsprobleme*, Beiträge zur Kenntnis Südosteuropas und des Nahen Orients, vol. 9 (Munich, 1969)
- Levntal, Z., ed., *Zločini fašističkih okupatora i njihovih pomagača protiv jevreja u Jugoslaviji* (Belgrade, 1952)
- Levy, M., *Die Sephardim in Bosnien: ein Beitrag zur Geschichte der Juden auf der Balkan-Halbinsel* (Sarajevo, 1911)
- Lewis, B., *The Emergence of Modern Turkey*, 2nd edn. (Oxford, 1968)
- Lieu, S. N. C., *Manichaeism in the Later Roman Empire and Medieval China: A Historical Survey* (Manchester, 1985)
- Lieven, D., *Nicholas II: Emperor of All the Russias* (London, 1993)
- Lilek, E., 'Vjerske starine iz Bosne i Hercegovine', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 6 (1894), pp. 141-66, 259-81, 365-88, 631-74
- Lockwood, W. G., *European Muslims: Economy and Ethnicity in Western Bosnia* (New York, 1975)
- Loos, M., *Dualist Heresy in the Middle Ages* (Prague, 1974)
'Les Derniers Cathares de l'occident et leurs relations avec l'église patarine de Bosnie', *Historijski zbornik - Šidakov zbornik*, vols. 29-30 (1976-7), pp. 113-26
- Lord, A. B., 'The Battle of Kosovo in Albanian and Serbocroatian Oral Epic Songs', in A. Pipa and S. Repishti, eds., *Studies on Kosova* (Boulder, Colorado, 1984), pp. 65-83
- Lovrich, G., *Osservazioni sopra diversi pezzi del viaggio in Dalmazia del signor Alberto Fortis* (Venice, 1776)
- Lydall, H., *Yugoslavia in Crisis* (Oxford, 1989)
- Maček, V., *In the Struggle for Freedom*, tr. E. and S. Gazi (London, 1957)
- McFarlane, B., *Yugoslavia: Politics, Economics and Society* (London, 1988)
- McGowan, B., 'Food Supply and Taxation on the Middle Danube (1568-1579)', *Archivum Ottomanicum*, vol. 1. (1969), pp. 138-96
Economic Life in Ottoman Europe: Taxation, Trade and the Struggle for Land, 1600-1800 (Cambridge, 1981)
- MacKenzie, D., *The Serbs and Russian Pan-Slavism 1875-1878* (Ithaca, New York, 1967)
- Magaš, B., *The Destruction of Yugoslavia: Tracking the Break-up, 1980-1992* (London, 1993)

BIBLIOGRAPHY

- Maier, H., *Die deutschen Siedlungen in Bosnien* (Stuttgart, 1924)
- Malcolm, N. R., 'Waiting for a War', *The Spectator*, 19 October 1991, pp. 14-15
- Malingoudis, F., *Slavoi stē mesaionikē Ellada* (Salonica, 1991)
- Mandić, D., *Postanak Vlada prema novim poviesnim iztraživanjima* (Buenos Aires, 1956)
'The Ethnic and Religious History of Bosnia and Hercegovina', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 2, pp. 362-93
Etnička povijest Bosne i Hercegovine (Rome, 1967)
Franjevačka Bosna: razvoj i uprava bosanske vikarije i provincije 1340-1735 (Rome, 1968)
- Mandić, M., *Povijest okupacije Bosne i Hercegovine (1878)* (Zagreb, 1910)
- Marienescu, A. M., 'Ilirii, macedo-românii și albanesii: disertațiune istorică', *Analele Academiei române*, series 2, vol. 26 (1903-4), pp. 117-69
- Markotić, V., 'Archaeology', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 1, pp. 20-75
- Marin, D., *The Web of Disinformation: Churchill's Yugoslav Blunder* (San Diego, California, 1990)
- Masleša, V., *Mlada Bosna* (Belgrade, 1945)
- Matasović, J., 'Tri humanista o patarenima', *Godišnjak Skopskog filozofskog fakulteta*, vol. 1 (1930), pp. 235-51
- Maurer, F., *Eine Reise durch Bosnien, die Savelander und Ungarn* (Berlin, 1870)
- Mazower, M., *The War in Bosnia: An Analysis* (London, 1992)
- Mažuranić, V., *Sudslaven im Dienste des Islams (vom X. bis XVI. Jahrhundert): ein Forschungsbericht*, ed. and tr. C. Lucerna (Zagreb, 1928)
- Migne, J.-P., ed., *Patrologiae cursus completus*, series latina prima, 221 vols. (Paris, 1844-64)
- Milazzo, M. J., *The Chetnik Movement and the Yugoslav Resistance* (Baltimore, 1975)
- Miletić, M., *I 'Krstjani' di Bosnia alla luce dei loro monumenti di pietra*, *Orientalia christiana analecta*, vol. 149 (Rome, 1957)
- Milivojević, M., *Descent into Chaos: Yugoslavia's Worsening Crisis* (London, 1989)
- Miller, W., *Travels and Politics in the Near East* (London, 1898)
Essays on the Latin Orient (Cambridge, 1921)
- Mirmiroglou, V., *Oi Dervissai* (Athens, 1940)
- Moore, P., 'The "Question of all Questions": Internal Borders', *Radio Free*

BIBLIOGRAPHY

- Europe/Radio Liberty Report on Eastern Europe*, vol. 2, no. 38 (20 September 1991), pp. 34-9
- 'Endgame in Bosnia and Herzegovina?', *Radio Free Europe/Radio Liberty Report on Eastern Europe*, vol. 2, no. 32 (13 August 1993), pp. 17-23
- Mraz, G., *Prinz Eugen: sein Leben, sein Wirken, seine Zeit* (Vienna, 1985)
- Muir Mackenzie, G., and A. P. Irby, *Travels in the Slavonic Provinces of Europe*, 3rd edn., 2 vols. (London, 1877)
- Mujić, M., 'Položaj cigana u jugoslovenskim zemljama pod osmanskim vlašću', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovenskih naroda pod turskom vladavinom*, vols. 3-4 (1952-3), pp. 137-91
- 'Prilog proučavanju uživanja alkoholni pića u Bosni i Hercegovini pod osmanskim vlašću', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovenskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954-5), pp. 286-98
- Mutafchieva, V., 'K'm v'prosa za chifitsite v osmanskata imperiya prez XIV-XVII v.', *Istoricheski pregled*, vol. 14 (1958), pp. 34-57
- Nagata, Y., *Materials on the Bosnian Notables*, *Studia culturae islamicae*, no. 11 (Tokyo, 1979)
- Nandriş, J. G., 'The Aromâni: Approaches to the Evidence', in R. Rohr, ed., *Die Aromunen: Sprache-Geschichte-Geographie* (Hamburg, 1987), pp. 15-71
- Năsturel, P. Ş., 'Les Valaques balcaniques aux Xe-XIIe siècles (mouvements de population et colonisation dans la Roumanie grecque et latine)', *Byzantinische Forschungen*, vol. 7 (1979), pp. 89-112
- ed., *Bibliografie macedo-română* (Freiburg, 1984)
- Naumov, E., 'Balkanskiye vlakhi i formirovaniye drevneserbskoi narodnosti', in Ivanov, V. V., Korolyuk, V. D., and E. P. Naumov, eds, *Etnicheskaya istoriya vostochnykh romantsev: drevnost'i sredniye veka* (Moscow, 1979), pp. 18-61
- Naval Intelligence Division, British Admiralty, *Jugoslavia*, Geographical Handbook series, B.R. 393, 3 vols. (London, 1944)
- Neubacher, H., *Sonderauftrag Südost 1940-1945*, 2nd edn. (Göttingen, 1957)
- Niger, D. M., *Geographiae commentariorum libri XI* (Basel, 1557)
- Novaković, S., *Selo* (Belgrade, 1965)
- Obolensky, D., *The Bogomils: A Study in Balkan Neo-Manichaeism* (Cambridge, 1948)
- The Byzantine Commonwealth: Eastern Europe, 500-1453* (London, 1974)
- d'Ohsson, M., *Tableau général de l'Empire ottoman*, 7 vols., Paris, 1788-1824

BIBLIOGRAPHY

- Okç, T., 'Les Kristians (Bogomiles Parfaits) de Bosnie d'après des documents turcs inédits', *Sudostforschungen*, vol. 19 (1960), pp. 108-33
- Orbini, M., *Il Regno de gli slavi hoggi corrottamente detti Schiavoni* (Pesaro, 1601)
- Papoulia, B. D., *Ursprung und Wesen der 'Knabenlese' im osmanischen Reich*, Südosteuropäische Arbeiten, vol. 59 (Munich, 1963)
- Pašalić, E., and R. Mišević, eds., *Sarajevo* (Sarajevo, 1954)
- Paskaleva, V., 'Osmanlı balkan eyâletlerinin avrupalı devletlerle ticaretleri tarihine katkı (1700-1850)', *Istanbul üniversitesi iktisat fakültesi mecmuası*, vol. 27 (1967-8), pp. 37-74
- Pavlovich, P., *The Serbians: The Story of a People* (Toronto, 1983)
- Pavlowitch, S. K., 'Society in Serbia, 1791-1830', in R. Clogg, ed., *Balkan Society in the Age of Greek Independence* (London, 1981), pp. 137-56
- Tito, Yugoslavia's Great Dictator: A Reassessment* (London, 1992)
- Peledija, E., *Bosanski ejalet od karlovačkog do požarevačkog mira 1699-1718* (Sarajevo, 1989)
- Pelletier, R., *Sarajevo et sa région: chez les Yougoslaves de la Save à l'Adriatique* (Paris, 1934)
- Peroche, G., *Histoire de la Croatie et des nations slaves du sud, 395-1992* (Paris, 1992)
- Pertusier, C., *La Bosnie considérée dans ses rapports avec l'Empire Ottoman* (Paris, 1822)
- Petranović, B., *Bogomili, crkva bosanska i krstijani* (Zadar, 1867)
- Petrović, L., *Kršćani bosanske crkve* (Sarajevo, 1953)
- Pisarev, Y. A., and M. Ekmečić, *Osvoboditel'naya borba narodov Bosnii i Gertsegovini i Rossiya*, 2 vols. (Moscow, 1985-8)
- Popović, A., *L'Islam balkanique: les musulmans du sud-est européen dans la période post-ottomane*, Osteuropa-Institut an der freien Universität Berlin: balkanologische Veröffentlichungen, vol. 11 (Berlin, 1986)
- 'Islamische Bewegungen in Jugoslawien', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslawien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 273-86
- Popović, I., 'Valacho-serbica: der rumanische Spracheinfluss auf das Serbokroatische und dessen Geographie', *Sudostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 370-93
- Porphrogenitus: see Constantine Porphyrogenitus
- Porter, Sir James, *Observations on the Religion, Law, Government, and Manners, of the Turks* (London, 1768)
- Poulton, H., *The Balkans: Minorities and States in Conflict* (London, 1991)
- Puech, H. C., 'Catharisme médiévale et Bogomilisme', in *Oriente ed occidente nel medio evo* (Rome, 1957), pp. 84-104

BIBLIOGRAPHY

- Purivatra, A., *Nacionalni i politički razvitak muslimana* (Sarajevo, 1972)
- Quiclet, Monsieur, *Les Voyages de M. Quiclet à Constantinople par Terre* (Paris, 1664)
- Rački, F., *Bogomili i patareni*, Srpska kraljeva akademija, posebna izdanja, vol. 87 (Belgrade, 1931)
- Radojčić, N., *Srpska istorija Mavra Orbinija*, Srpska akademija nauka, posebna izdanje, vol. 152 (Belgrade, 1950)
- Radojčić, S., 'Reljefi bosanskih i hercegovačkih stečaka', *Letopis Matice Srpske*, year 137, vol. 287 (1961), pp. 1-15
- Radojčić, D., "Bulgaralbanitoblahos" et "Serbalbanitobulgaroblahos" – deux caractéristiques ethniques du sud-est européen des XIVe et XVe siècles. Nicodim de Tismana et Grégoire Camblak', *Romanoslavica*, vol. 13 (1966), pp. 77-9
- Ramet, P., 'Die Muslime Bosniens als Nation', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslawien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 107-14
- Ramet, S. P., *Nationalism and Federalism in Yugoslavia, 1962-1991*, 2nd edn. (Bloomington, Indiana, 1992)
- Redžić, E., *Muslimansko autonomastvo i 13. SS divizija: autonomija Bosne i Hercegovine i Hitlerov treći rajh* (Sarajevo, 1987)
- Rivet, C., *Chez les slaves libérés: en Yougoslavie* (Paris, 1919)
- Roberts, W. R., *Tito, Mihailović and the Allies, 1941-1945*, 2nd edn. (Durham, North Carolina, 1987)
- Rojo, A., *Yugoslavia, Holocausto en los Balcanes: la agonía de un estado y por qué se matan entre si sus habitantes* (Barcelona, 1992)
- Roškiewicz, J., *Studien über Bosnien und die Herzegowina* (Leipzig, 1868)
- Rostovtseff, M., *Iranians and Greeks in Southern Russia* (Oxford, 1922)
- Roth, C., ed., *The Sarajevo Haggadah* (London, 1963)
- Rothenberg, *The Austrian Military Border in Croatia, 1522-1747*, Illinois Studies in the Social Sciences, vol. 48 (Urbana, Illinois, 1960)
- The Military Border in Croatia 1740-1881* (Chicago, 1966)
- Runciman, S., *The Medieval Manichee: A Study of the Christian Dualist Heresy* (Cambridge, 1947)
- Rusinow, D., *The Yugoslav Experiment, 1948-1974* (Berkeley, California, 1978)
- Russu, I. I., *Illiri: istoria, limba și onomastica, romanizarea* (Bucharest, 1969)
- Rycaut, P., *The Present State of the Ottoman Empire* (London, 1668)
- Šabanović, H., 'Pitanje turske vlasti u Bosni do pohoda Mehmeda II 1463 godine', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 7 (1955), pp. 37-51

BIBLIOGRAPHY

- 'Bosansko krajište 1448-1463', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 9 (1957), pp. 177-219
- Bosanski pašaluk: postanak i upravna podjela*, Naučno društvo n r. Bosne i Hercegovine, djela, vol. 14 (Sarajevo, 1959)
- 'Vojno uredjenje Bosne od 1463. g. do kraja XVI stoljeća', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 173-223
- Šamić, M., *Les Voyageurs français en Bosnie à la fin du XVIIIe siècle et au début du XIXe et le pays tel qu'ils l'ont vu* (Paris, 1960)
- Schmid, F., *Bosnien und die Herzegovina unter der Verwaltung Österreich-Ungarns* (Leipzig, 1914)
- Schmitt, B., *The Annexation of Bosnia 1908-1909* (Cambridge, 1937)
- Scholem, G., *Major Trends in Jewish Mysticism* (London, 1955)
- Sabbatai Sevi: The Mystical Messiah, 1626-1676* (London, 1973)
- von Schwandner, J. G., ed., *Scriptores rerum hungaricarum, dalmaticarum, croaticarum, et slavonicarum veteres ac genuini*, 3 vols. (Vienna, 1746-8)
- Seton Watson, R. W., *The Role of Bosnia in International Politics (1875-1914)* (London, 1933)
- Sharp, J. M. O., *Bankrupt in the Balkans: British Policy in Bosnia* (London, 1993)
- Shaw, S. J., 'The Ottoman View of the Balkans', in C. Jelavich and B. Jelavich, eds., *The Balkans in Transition: Essays on the Development of Balkan Life and Politics since the Eighteenth Century* (Berkeley, California, 1963)
- History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 vols. (Cambridge, 1976-7)
- The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic* (London, 1991)
- Sicard, E., *La Zadruga sud-slave dans l'évolution du groupe domestique* (Paris, 1943)
- Šidak, J., 'Problem "bosanske crkve" u našoj historiografiji od Petranovića do Glušca', *Rad jugoslavenske akademije znanosti i umjetnosti*, vol. 259 (1937), pp. 147-67
- Studije o 'crkvi bosanskoj' i bogomilstvu* (Zagreb, 1975)
- Sikirić, S., 'Derviskolostorok és szent sírok Boszniaiban', *Túrán*, nos. 9-10 (November-December 1918), pp. 574-607
- Sirc, L., 'The National Question in Yugoslavia', *The South Slav Journal*, vol. 9, nos. 1-2 (1986), pp. 80-93
- Šišić, F., ed. and tr., *Letopis popa Dukljanina* (Belgrade, 1928)
- Bosna i Hercegovina za vježivanja Omerske Latasa (1850-1852)* (Subotica, 1938)

BIBLIOGRAPHY

- Skarić, V., *Srpski pravoslavni narod i crkva u Sarajevu u 17. i 18. vijeku* (Sarajevo, 1928)
 'Popis bosanskih spahija iz 1123 (1711) godine', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 42 (1930), pp. 1-99
Sarajevo i njegova okolina od najstarijih vremena do austro-ugarske okupacije (Sarajevo, 1937)
- Skarić, V., Nuri-Hadžić, O., and N. Stojanović, *Bosna i Hercegovina pod austro-ugarskom upravom* (Belgrade, c. 1918)
- Šljepčević, D., *Pitanje Bosne i Hercegovine u XIX veku* (Cologne, 1981)
- Šljivo, G., *Omer-Paša Latas u Bosni i Hercegovini 1850-1852* (Sarajevo, 1977)
- Smailović, I., *Muslimanska imena orijentalnog porijekla u Bosni i Hercegovini* (Sarajevo, 1977)
- Solovjev, A., 'La Messe cathare', *Cahiers d'études cathares*, vol. 3, no. 12 (1951-2), pp. 199-206
 'Le Témoignage de Paul Rychaut sur les restes des Bogomiles en Bosnie', *Byzantion*, vol. 23 (1953), pp. 73-86
 'Svedočanstva pravoslavnih izvora o bogomilstvu na Balkani', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 5 (1953), pp. 1-103
 'Le Symbolisme des monuments funéraires bogomiles', *Cahiers d'études cathares*, vol. 5, no. 18 (1954), pp. 92-114
 'Le Tatouage symbolique en Bosnie', *Cahiers d'études cathares*, vol. 5, no. 19 (1954), pp. 157-62
 'Simbolika srednjovekovnih spomenika u Bosni i Hercegovini', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 8 (1956), pp. 5-65
 'Bogumilentum und Bogumilengräber in den südslawischen Ländern', in W. Gülich, ed., *Völker und Kulturen Südosteuropas* (Munich, 1959), pp. 182-6
- Sorabji, C., *Bosnia's Muslims: Challenging Past and Present Misconceptions* (London, 1992)
- Soulis, G. C., 'The Gypsies in the Byzantine Empire and the Balkans in the late Middle Ages', *Dumbarton Oaks Papers*, no. 15 (1961), pp. 142-65
- Stadtmüller, G., *Geschichte Südosteuropas* (Munich, 1950)
Forschungen zur albanischen Frühgeschichte, 2nd edn. (Wiesbaden, 1966)
- Stanojević, G., 'Jedan pomen o kristjanima u Dalmaciji iz 1692 godine', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 273-4
- Start, L. E., and M. E. Durham, *The Durham Collection of Garments and Embroideries from Albania and Yugoslavia* (Halifax, 1939)

BIBLIOGRAPHY

- 'Statuto della comunità musulmana della ex Jugoslavia (24 ottobre 1936)',
Oriente moderno, vol. 22 (1936), pp. 44-54
- Sterneck, H., *Geografische Verhältnisse, Communicationen und das Reisen in Bosnien, der Herzegovina und Nord-Montenegro* (Vienna, 1877)
- Stipčević, A., *The Illyrians*, tr. S. Čulić Burton (Park Ridge, New Jersey, 1977)
- Stojadinović, M., *Ni rat ni pakt: Jugoslavija između dva rata* (Buenos Aires, 1963)
- Stone, N., *Europe Transformed: 1878-1919* (London, 1983)
- Sućeska, A., 'Bedeutung und Entwicklung des Begriffes A'yân im Osmanischen Reich', *Südostforschungen*, vol. 25 (1966), pp. 3-26
'Osmanli imparatorluğunda Bosna', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vol. 30 (1980), pp. 431-47
- Sugar, P. F., *The Industrialization of Bosnia-Herzegovina 1878-1918* (Seattle, Washington, 1963)
Southeastern Europe under Ottoman Rule, 1354-1804, A History of East Central Europe, ed. P. F. Sugar and D. W. Treadgold, vol. 5 (Seattle, Washington, 1977)
- Sundhaussen, H., 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien 1941-1945', *Südostforschungen*, vol. 30 (1971), pp. 176-96
- Takács, M., 'Sächsische Bergleute im mittelalterlichen Serbien und die "sächsische Kirche" von Novo Brdo', *Südostforschungen*, vol. 50 (1991), pp. 31-60
- Tandarić, J., 'Glagoljska pismenost u srednjevjekovnoj Bosni', in J. Turčinović, ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979), pp. 47-51
- Thallóczy, L., *Studien zur Geschichte Bosniens und Serbiens im Mittelalter*, tr. F. Eckhart (Munich, 1914)
- Thoemmel, G., *Geschichtliche, politische und topographisch-statistische Beschreibung des Vilayet Bosnien das ist das eigentliche Bosnien, nebst türkisch-Croatien, der Herzegovina und Rascien* (Vienna, 1867)
- Thompson, M., *A Paper House: The Ending of Yugoslavia* (London, 1992)
- Thomson, H. E., *The Outgoing Turk: Impressions of a Journey through the Western Balkans* (London, 1897)
- Thouzellier, C., *Hérésie et hérétiques: Vaudois, Cathares, Patarins, Albigeois*, Storia e letteratura: raccolta di studi e testi, vol. 116 (Rome, 1969)
- Tomasevich, J., *Peasants, Politics, and Economic Change in Yugoslavia* (Stanford, California, 1955)
The Chetniks' War and Revolution in Yugoslavia, 1941-1945 (Stanford, California, 1975)
- Tomashevich, G. V., 'The Serbian Question in Current Yugoslav Press

BIBLIOGRAPHY

- and Literature', *The South Slav Journal*, vol. 8, nos. 3-4 (1985), pp. 32-41
- de Torquemada, J., *Symbolum pro informatione manichaeorum (El Bogomilismo en Bosnia)*, ed. N. López Martínez and V. Proaño Gil, Publicaciones del seminario metropolitana de Burgos, series B, vol. 3 (Burgos, 1958)
- Trifunovski, J., 'Geografske karakteristike srednjovekovnih katuna', in Filipovic, M., ed., *Simpozijum o srednjovekovnom katunu održan 24 i 25 novembra 1961 g.* (Sarajevo, 1963), pp. 19-38
- Trimingham, J. S., *The Sufi Orders in Islam* (Oxford, 1971)
- Truhelka, Č., 'Bosančica', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 1 (1889), pp. 65-83
- 'Die Tatowirung bei der Katholiken Bosniens und der Hercegovina', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 4 (1896), pp. 493-508
- 'Das mittelalterliche Staats- und Gerichtswesen in Bosnien', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 10 (1907), pp. 71-155
- Turčinović, J., ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979)
- Uhlik, R., 'Serbo-Bosnian Gypsy Folk-Tales, no. 8', tr. F. G. Ackerley, *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 25 (1946), pp. 92-104
- 'Serbo-Bosnian Gypsy Folk-Tales, no. 9', tr. D. E. Yates, *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 26 (1947), pp. 116-27
- Vacalopoulos, C., 'Tendances caractéristiques du commerce de la Bosnie et le rôle économique des commerçants grecs au début du XIXe siècle', *Balkan Studies*, vol. 20 (1979), pp. 91-110
- Valentini, G., 'L'elemento vlach nella zona scutarina nel secolo XV', in P. Bartl and H. Glassl, eds., *Südosteuropa unter dem Halbmond: Untersuchungen über Geschichte und Kultur der Südosteuropäischen Völker während der Türkenzeit*, Beiträge zur Kenntnis Südosteuropas und des Nahen Orients, vol. 16 (Munich, 1975), pp. 269-74
- Vasić, M., 'Etnička kretanja u bosanskoj krajini u XVI vijeku', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 233-49
- Verlinden, C., 'Patarins ou Bogomiles réduits en esclavage', in *Studi in onore di Alberto Pincherle*, Studi e materiali di storia delle religioni, vol. 38 (Rome, 1967), pp. 683-700
- Vukanović, T. P., 'Le Firman du sultan Sélim II relatif aux tsiganes, ouvriers dans les mines de Bosnie (1574)', *Études tsiganes*, vol. 15, no. 3 (1969), pp. 8-10
- Wace, A., and M. A. Thompson, *The Nomads of the Balkans: An Account of Life and Customs among the Vlachs of Northern Pindus* (London, 1914)

BIBLIOGRAPHY

- Wakefield, W. L., and A. P. Evans, eds., *Heresies of the High Middle Ages* (New York, 1969)
- Weigand, G., *Die Aromunen: ethnographisch-philologisch-historische Untersuchungen über das Volk der sogenannten Makedo-Romänen oder Zinzaren*, 2 vols., Leipzig, 1894-5
'Rumänen und Aromunen in Bosnien', *Jahresbericht des Instituts für rumänische Sprache (rumänisches Seminar) zu Leipzig*, vol. 14 (1908), pp. 171-97
- Wenzel, G., ed., *Marino Sanuto világkrónikájának Magyarországot illető tudósításai*, Magyar történelmi tár, vols. 14 (1869), 24 (1877), 25 (1878)
- Wenzel, M., 'A Medieval Mystery Cult in Bosnia and Herzegovina', *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*, vol. 24 (1961), pp. 89-107
'Bosnian Tombstones - who made them and why', *Südostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 102-43
Ukrasni motivi na stećcima (Sarajevo, 1965)
- Wheler, G., *A Journey into Greece* (London, 1682)
- Wilkes, J., *Dalmatia (History of the Roman Provinces)* (London, 1969)
The Illyrians (Oxford, 1992)
- Wilson, D., *The Life and Times of Vuk Stefanović Karadžić, 1787-1864: Literacy, Literature, and National Independence in Serbia* (Oxford, 1970)
- Winiffrith, T. J., *The Vlachs: The History of a Balkan People* (London, 1987)
- Yelavitch, L., 'Les Musulmans de Bosnie-Herzégovine', *Revue du monde musulman*, vol. 39 (1920), pp. 119-33
- Zbornik dokumenata i podataka o narodnooslobodilačkom ratu jugoslavenskih naroda*, 14 vols. (Belgrade, 1950-60)
- Zimmermann, *Reformation und Gegenreformation bei den Kroaten im österreichisch-ungarischen Grenzraum* (Eisenstadt, 1950)
- Zlatar, B., 'O nekim muslimanskim feudalnim porodicama u Bosni', *Prilozi Instituta za istoriju*, vols. 14-15 (1978), pp. 81-139
'Une ville typiquement levantine: Sarajevo au XVIe siècle', in V. Han and M. Adamović, eds., *La Culture urbaine des Balkans (XVe-XIXe siècles): la ville dans les Balkans depuis la fin du moyen age jusqu'au début du XXe siècle. Recueil d'études* (Belgrade, 1991), pp. 95-9
- Zlatar, Z., *Our Kingdom Come: The Counter-Reformation, the Republic of Dubrovnik, and the Liberation of the Balkan Slavs* (Boulder, Colorado, 1992)
- Zulfikarpašić, A., *Bosanski Muslimani: čimbenik mira između Srba i Hrvata* (Zurich, 1986)
Sarajevski proces: sudjenje muslimanskim intelektualcima 1983 godine (Zurich, 1987)

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند راسل	احلام الاحلام وقصص اخرى
ى ٠ رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت ٠ و ٠ فريمان	الجغرافيا في مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر ٠ ج ٠ فريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الارض الغامضة
وانثرالن	الرواية الانجليزية
لويس فارچاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دumas	آلهة مصر
د ٠ قدرى حفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكروال	مجموعات التقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د ٠ محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
اشراف س ٠ بى ٠ كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د ٠ عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
انور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وادبنيت	القوة النفسية للأهرام
د ٠ صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف تى ماتلو	تولستوى
فيكتوري برومير	ستندال

بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفيلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهرية
فرانسيس ج . برجين	الاعلام التطبيقى
ج . كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليهبارت	فن المايك والبيانتومايم
الفين توفلر	حول السلطة (٢ ج)
ادوارد وبنو	التفكير المتجدد
كريستيان سالين	السيناريو فى السينما الفرنسية
جوزيف . م . بوجز	فن الفرجة على الافلام
بول وارن	خفايا نظام النجم الأمريكى
جورج ستاين	بين تولستوى ودستوفسكى (٢ ج)
ويليام ه . ماثيوز	ما هى الجيولوجيا
جارى ب . ناش	الاحمر والبيض والاسود
ستالين جين . سولومون	انواع الفيلم الأمريكى
عبد الرحمن الشيخ	رحلة الأمير رودلف ٣ ج .
عبد العزيز جاويه	رحلات ماركوبولو ٣ ج
محمود سامى عطا الله	الفيلم التسجلى
يانكو لافرين	الرومانتيكية والواقعية
ليوناردو دافنشى	نظرية التصوير
جوزيف ليدهام	تاريخ العلم والحضارة فى الصين
ه . ليوبوسكاليا	الحب
ت . ج . ه . جيمز	كنوز الفراغة
د . السيد نصر الدين	اطلالات على الزمن الآتى
مالكولم براد برى	الرواية اليوم
يوسف شرارة	مشكلات القرن الحادى والعشرين

- السيتما العربية
دليل تنظيم المتاحف
سقوط المطر وقصص أخرى
جماليات فن الأضرحة
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
الحملة الصليبية الأولى
التمثيل للسيتما والتلفزيون
العثمانيون في أوروبا
صناع الخلود
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)
رحلات فارتيم
أقيم يصنعون البشر (٢ ج)
في انتقد السيماني الفرنسي
السيتما الخيالية
السلطة والفرد
الأزهر في ألف عام
رواد الفلسفة الحديثة
سفر قامة
مصر الرومانية
كتابة التاريخ في مصر
القرن التاسع عشر
الاتصال والهيمنة الثقافية
مختارات من الآداب الآسيوية
كتب غيرت الفكر الانساني (٥ ج)
الشموس المتفجرة
مدخل الى علم اللغة
حديث النهر
من هم القطار
ماستريخت
معالم تاريخ الإنسانية (٤ ج)
الحملات الصليبية
حضارة الاسلام
رحلة بيروت (٣ ج)
- اعداد / موني براج وآخرون
آدامز فيليب
نادين جورهيمر وآخرون
زيجمونت هبتر
ستيفن أوزمنت
جوناثان ريلي سميت
توني بار
بول كولنر
موريس پير براير
الفريد ج . بتلر
رودريجو فارتيم
فانس بكاره
اختيار / د . رفيق الحسان
بيتر نيكولز
برتراند راسل
بيارد دودج
ريتشارد شاخ
ناصر خسرو علوي
نفتالي لويس
جاك كرابس جونيور
هيربرت شيلر
اختيار / صبري الفضل
أحمد محمد الشنواني
اسحق عظيموف
لوريتو توه
اعداد / سوريال عبد الملك
د . ابرار كريم الله
اعداد / جابر محمد الجزار
د . ج . ولسز
ستيفن رانسيمان
حوستاف جرونيياوم
ريتشارد ف . بيرنون

- الحضارة الاسلامية
الطفل (٢ ج)
رسائل واحاديث من الملقى
الجزء والكل (محاورات في مضمار
الفيزياء الذرية)
القرائث الغامض ماركس والماركسيون
فن الادب الروائي عند تولستوى
ادب الاطفال
احمد حسن الزيات
اعلام العرب في الكيمياء
فكرة المسرح
الجحيم
صنع القرار السياسي
التطور الحضارى للانسان
هل نستطيع تعميم الاخلاق للأطفال
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم في مصر القديمة
التصل والطب
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوماً في السنة
الصحافة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن
التشكيلى
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز في عالم متغير
الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
- ادمز منز
ارنولد جزل
فيكتور هوجو
فيرنز هيزنبرج
سدنى هول
ف . ع ادنيكوف
هادى نعمان الهيتى
ه . نعمة رحيم المزوى
د . فاضل احمد الطائى
جلال العشرى
هنرى پاريس
السيه عليه
جاكوب برونوفسكى
ه . روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . سبنسر
د . ناعوم بيتروفيتش
جوزيف هاموس
ه . لينوار تشامبرز رايت
ه . جون شنفيلر
بيير البير
د . غبريال وهبنة
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
فرانكلين ل . باومر
شوكت الريمى

٥٠ محيى الدين أحمد حسين	التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
دوركاس ماكلينتوك	صور افريقية
بيتر لورى	المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
بوريس فبدروفيتش سيرجيف	وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
ويليام بينز	الهندسة الوراثية
دفيد الدرتون	تربية اسماك الزينة
جمعها : جون ر بورر	الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
وميلتون جولد ينجر	
ارنولد توينبى	الفكر التاريخى عند الاغريق
٥٠ صالح رضا	قضايا وسلامح الفن التشكيلى
٥٠ م كنج وآخرون	التغذية فى البلدان النامية
جورج جاموف	بداية بلا نهاية
٥٠ السيد طه أبو سديرة	الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
جاليليو جاليليه	حوار حول النظامين الرئيسيين
اريك موريس وآلان هو	للكون
سيريل الدريد	الازهاب
آرثر كيبستلر	اختاتون
توماس ا هاريس	القبيلة الثالثة عشرة
مجموعة من الباعثين	التوافق النفسى
روى ارمز	الدليل البيليوجرافى
ناجى متشيو	لغة الصورة
بول هاريسون	الثورة الاصلاحية فى اليابان
مبخايل البى ، جيمس لفلوك	العالم الثالث غدا
فيكتور مورجان	الانقراض الكبير
اعداد محمد كمال اسماعيل	تاريخ النقود
الفردوسى الطوسى	التحليل والتوزيع الاوركسترالى
يسرنون بورت	الشاهنامه (٢ ج)
جاك كرابس جونيور	الحياة الكريمة (٢ ج)
	كتابة التاريخ فى مصر

أدواره ميمرى	عن الثقافة السينمائي الأمريكى
اختيار / د. فيليب عطية	ترايم زرادشت
ج. دافلى أندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراه	مختارات من الأدب القصصى
د. جوهان دورشنر	الحياة فى الكون كيف نشأت واين تويمد
طائفة من العلماء الأمريكىين	حرب الفضاء
د. السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د. مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الأدب اليابانى
فرانكلين ل. باومر	الفكر الاوروبى الحديث ٤ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبني	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف. س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	اجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف دامموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س. م. بورا	التجربة اليونانية
د. عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
رونالد د. سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
د. انور عبد الله	المشارع المصرى والفكر
والت وثمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد س. هيس	تبسيط الكيمياء
جون يوركهارت	العادات والتقاليد المصرية
ألان كاسبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكويتية
شاندرا ويكراما ماسينج	
حسنين حلمى المهندس	دراما الشاشة (٢ ج)

كريستيان دديروش	المراة الفرعونية
ليوناردو دافنشى	نظرية التصوير
هربرت ريد	التربية عن طريق الفن
وليم بينز	معجم التكنولوجيا الحيوية
روبرت لافو	البرمجة بلغة السي
رولاند جاكسون	الكيمياء فى خدمة الانسان
ايفور ايفانس	مجل تاريخ الادب المعاصر
ديفيد بوشنيدر	نظرية الادب المعاصر
يوسف شرارة	مشكلات القرن الحادى والعشرين
ت . ج . ه . جيمس	كنوز الفراعنة
د . ممدوح حامد عطية	البرنامج النووى الاسرائيلى
كارل بوبر	بحثا عن عالم افضل
اسحق عظيموف	العلم وآفاق المستقبل
ايغرى شاتزمان	كوتنا المتمد
نومان كلارك	الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٣٥ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5179 - 3

تهدف الهيئة المصرية العامة للكتاب من مشروع الالف كتاب الثانى ان
تواصل مسيرة المشروع الاول لتكوين مكتبة متكاملة للقارئ العربى فى
شتى جوانب المعرفة عن طريق الترجمة والتأليف فضلاً عن إعادة طبع
أهم الاعمال الفكرية والعلمية والادبية التى اسهمت فى تكوين الثقافة
المصرية والعربية فى العصر الحديث والتى بات الاطلاع عليها اليوم
متعذراً لشباب هذا الجيل لقدم طبعاتها.

وفى هذا الإطار يسعى المشروع إلى إلقاء الضوء على أهم قضايا العصر الحديث.
ومن أهم الكتب التى صدرت فى هذا الميدان:

ما بعد الحداثة	إنهم يقتلون البيئة
مشكلات القرن ٢١	بحثا عن عالم أفضل
تحول السلطة	إطلالات على الزمن الآتى
إنهم يصنعون البشر	

(انظر قائمة الإصدارات فى آخر الكتاب)

وهذا الكتاب الذى بين يدي القارئ هو أول كتاب شامل باللغة العربية يعالج
بصورة موضوعية محايدة أزمة البوسنة والهرسك فى منظورها التاريخى وإطارها
الحديث وتداعياتها فى عالم ما بعد الحرب الباردة الذى سيشهد فيما يقدر المراقبون
سلسلة من الأزمات العرقية الخطيرة فى شتى أرجاء العالم لا سيما عالمنا الثالث،
وهو يوضح كيف للانتهازية السياسية ان تزيف أحداث التاريخ وأن تخطط الحق
بالباطل، وأن تخلق أساطير وأوهام لتفرق بين أبناء الوطن الواحد وتنفجر انهيار
الدماء من أجل مصالح شخصية دنيئة.